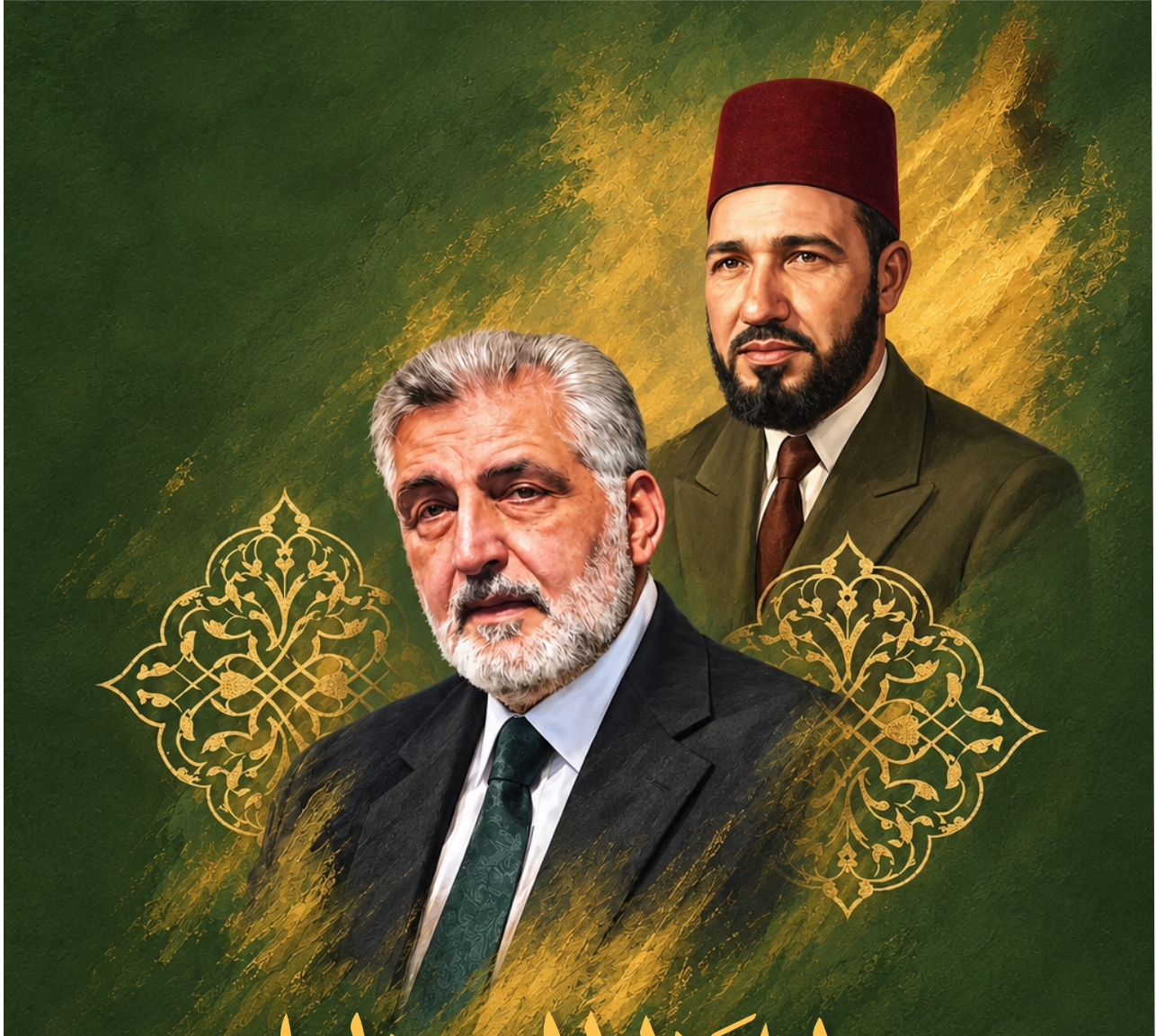


# فِي ظِلَالِ الرَّسَائِل

قراءة في رسائل الإمام حسن البنّا

د. صلاح عبد الحق


بسم الله الرحمن الرحيم

# فِي ظِلَالِ الرَّسَائِل

## الجُزْءُ الثَّانِي

د. صَلَاح عَبد الحَق

الأزهر

شركة العصر للنشر والخدمات والتجارة
ASIR YAYINCILIK DANIŞMANLIK
HİZMETLERİ İÇ VE DIŞ TİCARET

رقم الإصدار 14
الترقيم الدولي 978-605-74168-4-1

اسم الكتاب في ظلال الرسائل
اسم المؤلف صلاح عبد الحق

الاخراج الفني AsaletAjans
a.alataar@gmail.com

الطبعة الأولى – أكتوبر 2026 م
ربيع الأول 1448هـ

Step Ajans Matbaa Ltd. Şti.
Sertifika No: 45522
Göztepe Mh. Bosna Cd.
No: 11 Bağcılar/İSTANBUL
Tel: +90 212 446 88 46

دار النشر شركة العصر للنشر والخدمات والتجارة
Asır Yayıncılık Danışmanlık Hizmetleri
İç ve Dış Ticaret Ltd. Şti.
Sertifika No: 48203
Havaalanı Mh. Kışla Cd.
No: 15/2 Esenler/İSTANBUL
asir.pstc@gmail.com
www.alasir.net - infi@alasir.net

Copyright © 2026
شركة العصر للنشر والخدمات والتجارة
إسطنبول © تركيا 2026
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

- إِلَىٰ أَيِّ شَيْءٍ نَدْعُو النَّاسَ؟
- هَلْ نَحْنُ قَوْمٌ عَمَلِيُّونَ؟
- دَعْوَتُنَا
- نَحْوَ النُّورِ
- الْمُؤْتَمَرُ الْخَامِسُ
- الإِخْوَانُ تَحْتَ رَايَةِ الْقُرْآنِ
- إِلَىٰ الشَّبَابِ
- الْمُؤْتَمَرُ السَّادِسُ
- دَعْوَتُنَا فِي طَوْرٍ جَدِيدٍ
- بَيْنَ الْأَمْسِ وَالْيَوْمِ
- مَنْهَجُ التَّغْيِيرِ كَمَا تُجَلِّيهِ رَسَائِلُ الْإِمَامِ الْبَنَّا

# مقدمةُ الجزءِ الثَّانِي

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، الْمُرَبِّي الْأَوَّلِ، وَالْقَائِدِ الْقُدْوَةِ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنْ سَارَ عَلَىٰ نَهْجِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ؛

فَهَذَا الْكِتَابُ هُوَ الْجُزْءُ الثَّانِي مِنْ سِلْسِلَةِ «فِي ظِلَالِ الرَّسَائِلِ»، وَقَدْ خُصِّصَ الْجُزْءُ الْأَوَّلُ لِـ«رِسَالَةِ التَّعَالِيمِ»؛ لِمَكَانَتِهَا بَيْنَ رَسَائِلِ الْإِمَامِ الْبَنَّا، وَلِمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ أَرْكَانِ الْبَيْعَةِ وَمَعَالِمَ أَسَاسِيَّةٍ فِي مَنْهَجِهِ التَّرْبَوِيِّ وَالدَّعَوِيِّ.

وَيَأْتِي هَذَا الْجُزْءُ الثَّانِي لِيَقِفَ مَعَ عَشْرِ رَسَائِلَ مِنْ رَسَائِلِ الْإِمَامِ حَسَنِ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللهُ؛ نَسْتَخْرِجُ مَعَانِيَهَا، وَنَسْتَجْلِي مَقَاصِدَهَا، وَنَسْعَىٰ إِلَىٰ قِرَاءَتِهَا فِي سِيَاقِهَا، وَالْوُقُوفِ عَلَىٰ مَا يَجْمَعُ بَيْنَهَا مِنْ أُصُولِ الدَّعْوَةِ وَالتَّرْبِيَةِ وَالْإِصْلَاحِ، وَمَا تَكْشِفُ عَنْهُ مِنْ مَعَالِمَ وَغَايَاتٍ.

وَقَدْ جَاءَتِ الرَّسَائِلُ الْعَشْرُ مُرَتَّبَةً تَرْتِيبًا تَارِيخِيًّا بِحَسَبِ تَسَلْسُلِ ظُهُورِهَا، لَا بِحَسَبِ مَوْضُوعَاتِهَا أَوْ أَحْجَامِهَا؛ لِمَا فِي هَذَا التَّرْتِيبِ مِنْ إِعَانَةٍ عَلَىٰ مُتَابَعَةِ الْأَفْكَارِ فِي تَسَلْسُلِهَا التَّارِيخِيِّ، وَإِدْرَاكِ الصِّلَةِ بَيْنَ كُلِّ رِسَالَةٍ وَالْمَرْحَلَةِ الَّتِي صَدَرَتْ فِيهَا، وَمُلَاحَظَةِ مَا يَطْرَأُ عَلَىٰ بَعْضِ الْقَضَايَا مِنْ تَفْصِيلٍ أَوْ تَأْكِيدٍ أَوِ امْتِدَادٍ فِي الرَّسَائِلِ اللَّاحِقَةِ.

وَلِإِعَانَةِ الْقَارِئِ عَلَىٰ قِرَاءَةِ كُلِّ رِسَالَةٍ فِي سِيَاقِهَا، بَدَأْنَا الْقِرَاءَةَ بِتَعْرِيفٍ مُوجَزٍ بِالرِّسَالَةِ، يُبَيِّنُ مَوْقِعَهَا فِي التَّرْتِيبِ التَّارِيخِيِّ، وَتَارِيخَ نَشْرِهَا، وَمَوْضِعَ ظُهُورِهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَمَا يَلْزَمُ مِنْ مَعْلُومَاتٍ تُعِينُ عَلَىٰ فَهْمِ سِيَاقِهَا، مَعَ إِحَالَةِ التَّفَاصِيلِ التَّوْثِيقِيَّةِ إِلَىٰ الْهَوَامِشِ.

وَقَدْ قَامَ مَنْهَجُ الْكِتَابِ فِي قِرَاءَةِ هَذِهِ الرَّسَائِلِ عَلَىٰ اسْتِجْلَاءِ الرُّوحِ الْعَامَّةِ لِكُلِّ رِسَالَةٍ، وَالْفِكْرَةِ الْجَامِعَةِ الَّتِي تَنْتَظِمُ مَوْضُوعَاتِهَا؛ وَعَلَىٰ هَذَا الْأَسَاسِ جَاءَ تَحْدِيدُ مَحَاوِرِ الْقِرَاءَةِ فِي كُلِّ رِسَالَةٍ، بِمَا يُعِينُ عَلَىٰ إِبْرَازِ مَعَالِمِهَا وَبَيَانِ مَقَاصِدِهَا، وَالْكَشْفِ عَنِ الصِّلَاتِ بَيْنَ أَفْكَارِهَا، وَاسْتِخْلَاصِ مَا تَتَضَمَّنُهُ مِنْ دَلَالَاتٍ دَعَوِيَّةٍ وَتَرْبَوِيَّةٍ وَإِصْلَاحِيَّةٍ. وَرُوعِيَ فِي ذَلِكَ السِّيَاقُ التَّارِيخِيُّ لِكُلِّ رِسَالَةٍ، مَعَ الِاسْتِعَانَةِ بِسَائِرِ رَسَائِلِ الْإِمَامِ الْبَنَّا وَكِتَابَاتِهِ فِي إِيضَاحِ مَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ بَيَانٍ. وَلَمْ يَكُنِ الْمَقْصُودُ شَرْحَ الرَّسَائِلِ شَرْحًا لَفْظِيًّا، أَوْ تَتَبُّعَ عِبَارَاتِهَا عِبَارَةً عِبَارَةً، أَوْ إِعَادَةَ عَرْضِ مَضَامِينِهَا؛ وَإِنَّمَا قِرَاءَتُهَا فِي ضَوْءِ رُوحِهَا الْعَامَّةِ، وَمَحَاوِرِهَا الْكُبْرَىٰ، وَمَقَاصِدِهَا الْجَامِعَةِ.

وَتَبْدَأُ هَذِهِ الرِّحْلَةُ بِرِسَالَةِ «إِلَىٰ أَيِّ شَيْءٍ نَدْعُو النَّاسَ؟»، الَّتِي تَضَعُ الْغَايَةَ فِي مَوْضِعِهَا، وَتَرْبِطُ بَيْنَ عِبَادَةِ اللهِ وَالْقِيَامِ بِوَاجِبَاتِ الْإِصْلَاحِ، وَتَتَنَاوَلُ إِعْدَادَ الْأُمَّةِ وَبِنَاءَ قُدْرَتِهَا عَلَىٰ حَمْلِ تَبِعَاتِ رِسَالَتِهَا.

ثُمَّ تَأْتِي رِسَالَةُ «هَلْ نَحْنُ قَوْمٌ عَمَلِيُّونَ؟»، فَتَنْقُلُ الْحَدِيثَ مِنَ الْفِكْرَةِ إِلَىٰ مَيْدَانِ الْعَمَلِ، وَتَقِفُ مَعَ وَاقِعِ الْمُسْلِمِينَ وَسُبُلِ النُّهُوضِ بِهِمْ، وَمَكَانِ الْإِنْسَانِ فِي الْمَشْرُوعِ الْإِصْلَاحِيِّ؛ فَالْإِصْلَاحُ لَا يَقُومُ بِالْقَوَانِينِ وَالْمُؤَسَّسَاتِ وَحْدَهَا، وَإِنَّمَا يَبْدَأُ بِبِنَاءِ الْإِنْسَانِ الَّذِي يَحْمِلُ الْفِكْرَةَ وَيُحَوِّلُهَا إِلَىٰ وَاقِعٍ.

وَفِي رِسَالَةِ «دَعْوَتُنَا» نَقْتَرِبُ مِنْ حَقِيقَةِ الدَّعْوَةِ وَخَصَائِصِهَا وَمُتَطَلَّبَاتِهَا، وَمَوْقِفِ النَّاسِ مِنْهَا، وَشُرُوطِ الْقِيَامِ بِمَا تَحْمِلُهُ مِنْ تَكْلِيفٍ وَمَسْؤُولِيَّةٍ، وَالِانْتِقَالِ بِالْإِسْلَامِ مِنْ حَيِّزِ الْمَعْرِفَةِ وَالِانْتِسَابِ إِلَىٰ حَيِّزِ الْحَيَاةِ وَالْعَمَلِ.

أَمَّا رِسَالَةُ «نَحْوَ النُّورِ» فَتَنْفَتِحُ عَلَىٰ سُؤَالِ الْحَضَارَةِ وَالنُّهُوضِ، وَمَا لِلْإِيمَانِ وَالْعَاطِفَةِ مِنْ أَثَرٍ فِي بِنَاءِ الْأُمَمِ، وَتُنَاقِشُ قُدْرَةَ الْإِسْلَامِ عَلَىٰ الْإِسْهَامِ فِي بِنَاءِ نَمُوذَجٍ حَضَارِيٍّ، وَمَا يَعْتَرِضُ ذَلِكَ مِنْ إِشْكَالَاتٍ فِي نَظْرَةِ بَعْضِ الْمُثَقَّفِينَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ.

وَتُقَدِّمُ رِسَالَةُ «الْمُؤْتَمَرِ الْخَامِسِ» صُورَةً أَوْسَعَ لِمَعَالِمِ الْمَشْرُوعِ؛ فَتَقْرَأُ وَاقِعَ الْأُمَّةِ، وَتَتَنَاوَلُ جُمْلَةً مِنَ الْقَضَايَا الْمُتَّصِلَةِ بِالْحُكْمِ وَالْخِلَافَةِ وَحَرَكَاتِ الْإِصْلَاحِ،

وَتُبْرِزُ الْعِنَايَةَ بِالتَّرْبِيَةِ وَالْإِعْدَادِ، وَتَرْتِيبِ الْأَوْلَوِيَّاتِ، وَالتَّدَرُّجِ فِي الْعَمَلِ، وَالْبُعْدِ عَنِ التَّهَوُّرِ وَالِارْتِجَالِ.

ثُمَّ تَتَّسِعُ دَائِرَةُ الْقِرَاءَةِ مَعَ رِسَالَةِ «الْإِخْوَانِ تَحْتَ رَايَةِ الْقُرْآنِ»، حَيْثُ تَبْرُزُ حَقِيقَةُ الدِّينِ، وَعَلَاقَتُهُ بِنَهْضَةِ الْأُمَّةِ، وَدَوْرُ الْإِنْسَانِ وَالْقُدْوَةِ وَالتَّرْبِيَةِ فِي مَشْرُوعِ الْإِصْلَاحِ.

وَفِي رِسَالَةِ «إِلَى الشَّبَابِ عَامَّةً وَإِلَى الطَّلَبَةِ خَاصَّةً» يَتَوَجَّهُ الْخِطَابُ إِلَى الشَّبَابِ، فَيَبْرُزُ دَوْرُهُمْ فِي النَّهْضَةِ وَحَمْلِ الرِّسَالَةِ، وَتَتَّضِحُ مَسْؤُولِيَّتُهُمْ فِي إِصْلَاحِ الْأُمَّةِ، وَيَظْهَرُ مَنْهَجُ التَّكْوِينِ الْمُتَدَرِّجِ مِنَ الْفَرْدِ إِلَى الْبَيْتِ وَالْمُجْتَمَعِ وَالدَّوْلَةِ، وَمَلَامِحُ الشَّخْصِيَّةِ الْمُسْلِمَةِ الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْفَهْمِ وَالْعَمَلِ وَالتَّجَرُّدِ وَالثَّبَاتِ.

وَفِي رِسَالَةِ «الْمُؤْتَمَرِ السَّادِسِ» تَبْرُزُ عَلَاقَةُ الْغَايَاتِ بِالْوَسَائِلِ، وَكَيْفِيَّةُ التَّعَامُلِ مَعَ الْوَاقِعِ، وَجُمْلَةٌ مِنَ الْقَضَايَا الْمُتَّصِلَةِ بِالدِّينِ وَالدَّوْلَةِ وَالْقُوَّةِ وَمَنْهَجِ الْعَمَلِ.

وَفِي رِسَالَةِ «دَعْوَتُنَا فِي طَوْرٍ جَدِيدٍ» يَنْتَقِلُ الْحَدِيثُ إِلَى مَرْحَلَةٍ أُخْرَى مِنْ حَيَاةِ الدَّعْوَةِ، تَبْرُزُ فِيهَا قَضِيَّةُ الْمُثَقَّفِينَ وَعَلَاقَتِهِمْ بِالْإِسْلَامِ، وَشُرُوطُ الْخُرُوجِ مِنَ الْأَزْمَةِ، وَالِانْتِقَالُ مِنَ الْفِكْرَةِ إِلَى الصِّيَاغَةِ وَالْإِنْجَازِ.

أَمَّا رِسَالَةُ «بَيْنَ الْأَمْسِ وَالْيَوْمِ» فَتُقَدِّمُ نَظْرَةً أَشْمَلَ إِلَى أَسْبَابِ نُهُوضِ الْأُمَمِ وَسُقُوطِهَا، وَمَكَانِ الْإِنْسَانِ فِي بِنَاءِ النَّهْضَةِ، وَأَهَمِّيَّةِ التَّرْبِيَةِ وَالْإِحْيَاءِ وَالِاسْتِعْدَادِ وَالْقُوَّةِ وَالْكِفَاحِ، وَالْعَوْدَةِ إِلَى الْمَنْبَعِ الْأَوَّلِ.

وَخُتِمَتْ قِرَاءَةُ الرَّسَائِلِ بِدِرَاسَةٍ جَامِعَةٍ عَنْ «مَنْهَجِ التَّغْيِيرِ كَمَا تُجَلِّيهِ رَسَائِلُ الْإِمَامِ الْبَنَّا»؛ لِلِانْتِقَالِ مِنْ قِرَاءَةِ كُلِّ رِسَالَةٍ عَلَى حِدَةٍ إِلَى النَّظَرِ فِي الصُّورَةِ الْكُلِّيَّةِ الَّتِي تَنْتَظِمُ هَذِهِ الرَّسَائِلَ، وَالْخُيُوطِ الْجَامِعَةِ بَيْنَهَا، وَمَا تُظْهِرُهُ فِي مَجْمُوعِهَا مِنْ مَعَالِمَ فِي الدَّعْوَةِ وَالتَّرْبِيَةِ وَالْإِصْلَاحِ وَالنَّهْضَةِ.

وَاللهُ مِنْ وَرَاءِ الْقَصْدِ، وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ.

10 ربيع الأول 1448هـ / 23 أغسطس 2026م.

# رِسَالَة
# «إِلَىٰ أَيّ شَيءٍ نَدْعُو النَّاسَ»

نُشِرَتْ هَذِهِ الرِّسَالَةُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي مَجَلَّةِ «الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ» الْأُسْبُوعِيَّةِ فِي تِسْعِ حَلَقَاتٍ مُتَتَابِعَةٍ؛ نُشِرَتْ أُولَاهَا فِي 26 مِنَ الْمُحَرَّمِ 1353هـ، الْمُوَافِقِ 11 مَايُو 1934م، وَنُشِرَتْ آخِرُهَا فِي 21 رَبِيعِ الثَّانِي 1353هـ، الْمُوَافِقِ 3 أَغُسْطُس 1934م[1].

(1) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا، [رسالة: إلىٰ أي شيء ندعو الناسَ]، ص 33).

## مُقدِّمَةٌ

كَانَتْ رَسَائِلُ الْإِمَامِ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ، وَلَا تَزَالُ، خِطَابًا يُمْلِيهِ الْوَاقِعُ وَيَتَوَجَّهُ إِلَىٰ مُعَالَجَتِهِ؛ فَلَمْ تَكُنْ بُحُوثًا فَلْسَفِيَّةً مُجَرَّدَةً، وَلَا مَبَاحِثَ نَظَرِيَّةً بَعِيدَةً عَنْ حَيَاةِ النَّاسِ، بَلْ جَاءَتْ وَاضِحَةً سَهْلَةً، تُبَيِّنُ الْمُهِمَّةَ، وَتُحَدِّدُ الْغَايَةَ، وَتَدْعُو إِلَىٰ الْعَمَلِ.

وَتَتَجَلَّىٰ هَذِهِ السِّمَةُ فِي رِسَالَةِ «**إِلَىٰ أَيِّ شَيءٍ نَدْعُو النَّاسَ**» إِذْ تُعِيدُ الْمُسْلِمَ إِلَىٰ الْمِقْيَاسِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ تَنْطَلِقَ مِنْهُ رُؤْيَتُهُ لِلْحَيَاةِ، وَهُوَ كِتَابُ اللهِ تَعَالَىٰ، وَتُبَيِّنُ لَهُ غَايَتَهُ وَمُهِمَّتَهُ وَمَوْقِعَهُ فِي الْعَالَمِ. وَقَدْ صَرَّحَ الْإِمَامُ الْبَنَّا فِي أَصْلِ الرِّسَالَةِ بِأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَكْشِفَ لِلنَّاسِ عَنْ دَعْوَةِ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ، وَغَايَتِهَا وَمَقَاصِدِهَا وَأَسَالِيبِهَا وَوَسَائِلِهَا، وَأَنْ يَجْعَلَ كِتَابَ اللهِ هُوَ الْمِقْيَاسَ الْحَاكِمَ فِي فَهْمِهَا.

وَتُعَدُّ رِسَالَةُ «**إِلَىٰ أَيِّ شَيْءٍ نَدْعُو النَّاسَ؟**»؛ هِيَ الثَّالِثَةُ فِي تَرتِيبِ الرسَائِلِ، وَالأُولَىٰ فِيمَا وَصَلَ إِلَيْنَا مِن رَسائِلِ الإِمَامِ البنَّا، وَقَدْ صَدرَتْ قَبلَها رِسَالَتَانِ كَانَتْ كُلٌّ مِنْهَا تُسمَّىٰ بِرِسَالَةِ المُرشِدِ[2].

## الرُّوحُ الْعَامَّةُ لِلرِّسَالَةِ

الرُّوحُ الَّتِي تَسْرِي فِي الرِّسَالَةِ هِيَ: دَعْوَةُ الْأُمَّةِ إِلَىٰ أَنْ تَسْتَعِيدَ فَهْمَهَا لِإِسْلَامِهَا، وَأَنْ تُدْرِكَ مَا تَفْرِضُهُ الْعَقِيدَةُ مِنْ عِبَادَةٍ وَعَمَلٍ وَنُهُوضٍ وَتَضْحِيَةٍ؛ حَتَّىٰ يَعُودَ الْإِسْلَامُ قَاعِدَةَ انْطِلَاقِهَا فِي بِنَاءِ حَضَارَتِهَا، وَإِصْلَاحِ وَاقِعِهَا، وَأَدَاءِ رِسَالَتِهَا فِي هِدَايَةِ الْبَشَرِيَّةِ.

(2) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: إلىٰ أي شيء ندعو الناسَ]، ص 33.

## مَحَاوِرُ شَرْحِ الرِّسَالَةِ

أَوَّلًا: الْإِسْلَامُ قَاعِدَةُ الِانْطِلَاقِ الصَّحِيحَةِ.

ثَانِيًا: غَايَتُنَا.

ثَالِثًا: وَاجِبَاتٌ غَفَلَ النَّاسُ عَنْهَا.

رَابِعًا: عِبادَةُ رَبِّكُمْ: تَحْقِيقُ جَوْهَرِ الْعُبُودِيَّةِ.

خَامِسًا: التَّمْكِينُ لِدِينِكُمْ: نَحْنُ وَالسُّلْطَةُ.

سَادِسًا: تَرْبِيَةُ الْأُمَّةِ قَبْلَ تَوَلِّي السُّلْطَةِ

سَابِعًا: عِبْرَةُ التَّارِيخِ فِي اسْتِعْجَالِ السُّلْطَةِ.

ثَامِنًا: لِمَاذَا يُسَارِعُ النَّاسُ إِلَىٰ السُّلْطَةِ؟

تَاسِعًا: شُرُوطُ التَّأَهُّلِ لِتَوَلِّي السُّلْطَةِ.

عَاشِرًا: السُّلْطَةُ أَمَانَةٌ، وَالْأُمَّةُ رَقِيبَةٌ عَلَيْهَا.

## أَوَّلًا: الإِسْلامُ قَاعِدَةُ الانْطِلَاقِ الصَّحِيحَةِ

كَانَ الْإِسْلَامُ قَاعِدَةَ الِانْطِلَاقِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي انْطَلَقَ مِنْهَا الْمُسْلِمُونَ فِي بِنَاءِ حَضَارَتِهِمْ، وَتَكْوِينِ عُلُومِهِمْ، وَتَنْظِيمِ حَيَاتِهِمْ، عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ تَنَوُّعِ مَذَاهِبِهِمْ وَمَسَالِكِهِمُ الْفِكْرِيَّةِ. وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ خُضُوعًا لِلْهَوَىٰ أَوْ مَيْلًا إِلَىٰ الِابْتِدَاعِ، وَإِنَّمَا كَانَ اسْتِجَابَةً لِمُقْتَضَيَاتِ الْعَقِيدَةِ، وَسَعْيًا إِلَىٰ فَهْمِ الْوَاقِعِ وَتَوْجِيهِهِ وَالنُّهُوضِ بِهِ.

وَقَدْ تَجَلَّىٰ هَذَا الِارْتِبَاطُ فِي الْعُلُومِ الَّتِي أَنْتَجَهَا الْعَقْلُ الْمُسْلِمُ؛ فَكَانَ الْفِقْهُ تَعْبِيرًا عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَىٰ اسْتِيعَابِ وَقَائِعِ الْحَيَاةِ وَمُتَغَيِّرَاتِهَا، وَتَنْزِيلِ الْأَحْكَامِ عَلَيْهَا. وَكَانَ عِلْمُ الْكَلَامِ سَعْيًا إِلَىٰ الدِّفَاعِ عَنِ الْعَقِيدَةِ، وَدَفْعِ الشُّبُهَاتِ، وَبَيَانِ الِاتِّسَاقِ بَيْنَ صَحِيحِ الْمَنْقُولِ وَصَرِيحِ الْمَعْقُولِ. وَكَانَ تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَاشِفًا عَنْ رُؤْيَةِ الْإِسْلَامِ لِلْإِنْسَانِ وَالْكَوْنِ وَالْحَيَاةِ، وَلِحَرَكَةِ التَّارِيخِ وَسُنَنِهِ وَغَايَاتِهِ. كَمَا كَانَ الزُّهْدُ فِي صُوَرِهِ الْأُولَىٰ تَعْبِيرًا عَنْ مُقَاوَمَةِ طُغْيَانِ الْمَادَّةِ، وَالظُّلْمِ وَالْقَهْرِ، وَتَأْكِيدًا لِعِزَّةِ الْمُسْلِمِ وَتَحَرُّرِهِ.

وَبَلَغَ مِنْ رُسُوخِ الْإِسْلَامِ فِي حَيَاةِ الْأُمَّةِ أَنَّ الْفَلْسَفَاتِ الْمُنْحَرِفَةَ وَالْأَفْكَارَ الضَّالَّةَ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي بَعْضِ عُصُورِهَا لَمْ تَكُنْ لِتَرُوجَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا إِذَا الْتَمَسَ أَصْحَابُهَا لَهَا تَأْوِيلًا مِنَ الْكِتَابِ أَوِ السُّنَّةِ، يُسْنِدُونَ بِهِ مَوَاقِفَهُمْ وَاتِّجَاهَاتِهِمْ؛ وَهُوَ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْمَرْجِعِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ ظَلَّتْ حَاضِرَةً فِي وَعْيِ الْأُمَّةِ، حَتَّىٰ لَدَىٰ مَنْ أَرَادَ الْخُرُوجَ عَلَيْهَا[3].

وَبِهَذِهِ الصُّورَةِ كَانَ الْإِسْلَامُ قَاعِدَةَ انْطِلَاقِ الْمُسْلِمِينَ فِي بِنَاءِ حَضَارَتِهِمْ؛ فَلَمْ تَكُنْ حَضَارَتُهُمْ مُجَرَّدَ تَقَدُّمٍ مَادِّيٍّ، بَلْ كَانَتْ رِسَالَةً تَجْمَعُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ، وَبَيْنَ الْقُوَّةِ وَالرَّحْمَةِ، وَبَيْنَ عِمَارَةِ الْأَرْضِ وَهِدَايَةِ الْإِنْسَانِ. وَكَانَتِ الْأُمَّةُ، كَمَا وَصَفَهَا الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ الْغَزَالِيُّ: »كَانَ مُسلِمُو الأَمسِ – عَكْسَ مُسْلِمِي اليَوْمِ – يُبعثِرُونَ فِي طَرِيقِهِمُ الأزهَارَ وَالآمَالَ، وَتَلتَحِقُ بِهِم الشُّعوبُ الأخرَىٰ لِتتعَلَّمَ وَتَستَفِيدَ.. كَانَتْ أُمتُنَا عُنْوَانًا ضَخْمًا عَلَىٰ حَقِيقَةٍ كَبِيرَةٍ، حَقِيقَةٍ اجتِمَاعِيّةٍ وَسِيَاسِيّةٍ تَعنِي الحَضَارَةَ الأجْدَىٰ، وَالثقَافَةَ

(3) ينظر: د. محسن عبد الحميد: **أزمة المثقفين تجاه الإسلام في العصر الحديث**. دار الصحوة – القاهرة، 1405هـ – 1984م. ص 6.

الأَوْسَعَ.. وَكَانَ جِهَادُهَا يَعْنِي أَنَّ العَالِمَ يَأْخُذُ بيدِ الجَاهِلِ، وأَنَّ المُتقدِّمَ يَأخذُ بِيَدِ المُتخَلِّفِ»[4].

ثُمَّ ضَعُفَ هَذَا الْمَعْنَىٰ فِي نُفُوسِ الْمُسْلِمِينَ، وَحَدَثَ الْفِصَامُ بَيْنَ الْعَقِيدَةِ وَالْحَيَاةِ، وَانْحَسَرَ مَفْهُومُ الرِّسَالَةِ، فَانْحَسَرَ مَعَهُ دَوْرُ الْأُمَّةِ، وَفَقَدَتْ كَثِيرًا مِنْ فَاعِلِيَّتِهَا وَمَكَانَتِهَا، وَأَصْبَحَتْ عُرْضَةً لِلضَّعْفِ وَالظُّلْمِ وَالْآلَامِ.

## ثَانِيًا: غَايَتُنَا

وَلِذَلِكَ حَفَلَتْ رِسَالَةُ «**إِلَىٰ أَيِّ شَيْءٍ نَدْعُو النَّاسَ؟**» بِالْحَدِيثِ عَنِ الْغَايَةِ؛ لِأَنَّ الْغَايَةَ الْوَاضِحَةَ هِيَ الَّتِي تُحَرِّكُ الْإِنْسَانَ، وَتُوَجِّهُ أَعْمَالَهُ، وَتَدْفَعُ الْأُمَّةَ إِلَىٰ النُّهُوضِ بِمُهِمَّتِهَا. وَقَدْ عَبَّرَ الْإِمَامُ الْبَنَّا عَنْ هَذِهِ الْغَايَةِ بِقَوْلِهِ: «مُهِمَّتُنَا سِيَادَةُ الدُّنْيَا، وَإِرْشَادُ الْإِنْسَانِيَّةِ كُلِّهَا إِلَىٰ نُظُمِ الْإِسْلَامِ الصَّالِحَةِ وَتَعَالِيمِهِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ بِغَيْرِهَا أَنْ يَسْعَدَ النَّاسُ»[5].

وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ بِالسِّيَادَةِ هُنَا التَّسَلُّطَ عَلَىٰ النَّاسِ أَوِ اسْتِغْلَالَهُمْ، وَإِنَّمَا الْقِيَامُ بِوَاجِبِ الْهِدَايَةِ وَالْإِصْلَاحِ، وَتَقْدِيمُ النُّظُمِ الَّتِي تُحَقِّقُ الْعَدْلَ وَالْكَرَامَةَ وَالْخَيْرَ لِلْإِنْسَانِيَّةِ. وَمِنْ ثَمَّ، فَهَذِهِ الْغَايَةُ تَسْتَتْبِعُ أَعْمَالًا وَوَاجِبَاتٍ تُؤَهِّلُ الْأُمَّةَ لِلنُّهُوضِ بِهَا، وَلَا تَقِفُ عِنْدَ حُدُودِ الشِّعَارِ أَوِ الْأُمْنِيَّةِ.

وَقَدْ نَظَرَ الْإِمَامُ الْبَنَّا إِلَىٰ هَذِهِ الْمُهِمَّةِ، عَلَىٰ ضَخَامَتِهَا وَصُعُوبَتِهَا وَسُوءِ الْوَاقِعِ الَّذِي تَعِيشُهُ الْأُمَّةُ، عَلَىٰ أَنَّهَا مُهِمَّةٌ مُمْكِنَةٌ، وَهَدَفٌ قَابِلٌ لِلتَّحْقِيقِ، إِذَا تَوَفَّرَتْ لَهُ أَسْبَابُهُ. وَفِي قِصَّةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ قَوْمِهِ تَوْجِيهٌ إِلَىٰ الْجَمْعِ بَيْنَ الِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ وَالصَّبْرِ، وَبَيْنَ رَجَاءِ النَّصْرِ وَالِاسْتِعْدَادِ لِحَمْلِ أَمَانَةِ الِاسْتِخْلَافِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ**

(4) محمد الغزالي: **جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج**، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2005م، ص 3.

(5) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: إلىٰ أي شيء ندعو الناسَ]، ص 37.

**وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾** [الْأَعْرَافِ: 128-129].

وَيَحْتَاجُ النُّهُوضُ بِهَذِهِ الْمُهِمَّةِ إِلَىٰ نَوْعَيْنِ مُتَكَامِلَيْنِ مِنَ الْإِعْدَادِ: **إِعْدَادٍ نَفْسِيٍّ، وَإِعْدَادٍ مَادِّيٍّ**. فَالْإِعْدَادُ النَّفْسِيُّ تَرْبِيَةٌ إِيمَانِيَّةٌ رَاشِدَةٌ، تُرَسِّخُ الْمَبَادِئَ فِي النُّفُوسِ، وَتُنْشِئُ الْإِرَادَةَ الْقَوِيَّةَ، وَالثَّبَاتَ وَالْوَفَاءَ وَالِاسْتِعْدَادَ لِلتَّضْحِيَةِ. وَالْإِعْدَادُ الْمَادِّيُّ هُوَ تَحْصِيلُ أَسْبَابِ الْقُوَّةِ الَّتِي تَحْمِي الْحَقَّ، وَتُمَكِّنُ لَهُ، وَتُعِينُ عَلَىٰ مُوَاجَهَةِ تَحَدِّيَاتِ الْوَاقِعِ.

وَمِنْ ثَمَّ، فَلَا مَجَالَ لِلْيَأْسِ وَالْخَوَرِ بِحُجَّةِ صُعُوبَةِ الطَّرِيقِ، كَمَا لَا مَجَالَ لِلِاكْتِفَاءِ بِالْأَمَانِي وَالْآمَالِ الْمُجَرَّدَةِ؛ فَإِنَّ التَّارِيخَ لَا يَصْنَعُهُ الْحَالِمُونَ الْقَاعِدُونَ، وَإِنَّمَا يَصْنَعُهُ الْعَامِلُونَ الَّذِينَ يَجْمَعُونَ بَيْنَ الْأَمَلِ وَالْعَمَلِ، وَبَيْنَ الثِّقَةِ بِاللهِ وَالْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ.

وَلَمْ تَكُنْ دَعْوَةُ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إِلَىٰ الْإِيمَانِ الْمُجَرَّدِ عَنِ الْعَمَلِ، بَلْ كَانَتْ دَعْوَةً إِلَىٰ الْإِيمَانِ بِاللهِ، وَالنُّهُوضِ بِنُصْرَةِ الْحَقِّ، وَحَمْلِ أَعْبَائِهِ، وَالصَّبْرِ عَلَىٰ تَكَالِيفِهِ. غَيْرَ أَنَّ بَعْضَ الْأَقْوَامِ اتَّخَذُوا مِنْ صُعُوبَاتِ الْوَاقِعِ وَمَخَاوِفِ الطَّرِيقِ أَعْذَارًا لِلْقُعُودِ، وَرَكَنُوا إِلَىٰ الْأَمَانِيِّ مِنْ غَيْرِ عَمَلٍ. وَلَوْ أَعَدُّوا نُفُوسَهُمْ إِعْدَادًا إِيمَانِيًّا، وَأَخَذُوا بِمَا يَلْزَمُهُمْ مِنْ أَسْبَابِ الْقُوَّةِ، لَاسْتَطَاعُوا النُّهُوضَ بِمَا كُلِّفُوا بِهِ.

وَالْغَايَةُ النِّهَائِيَّةُ مِنْ هَذَا النُّهُوضِ هِيَ صَلَاحُ الْعَالَمِ وَعِمَارَتُهُ، وَإِشَاعَةُ الْهُدَىٰ وَالْعَدْلِ وَالطُّهْرِ فِيهِ؛ **لِأَنَّ الْأُمَّةَ الْمُسْلِمَةَ تَمْلِكُ مِنَ الْمَنْهَجِ مَا يُعِينُ الْبَشَرِيَّةَ عَلَىٰ الِانْتِفَاعِ بِمَا أَنْتَجَتْهُ عَبْقَرِيَّتُهَا، وَيَهْدِي هَذَا الْإِنْتَاجَ وَيَضْبِطُهُ بِقِيَمِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ**. وَهَذَا هُوَ مَعْنَىٰ شَهَادَةِ الْأُمَّةِ عَلَىٰ النَّاسِ، الَّتِي قَرَنَهَا الْقُرْآنُ بِالْعِبَادَةِ وَالْجِهَادِ وَالِاعْتِصَامِ بِاللهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: **﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَىٰ النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾** [الْحَجِّ: 78].

ثُمَّ السَّبَبُ الوجيهُ فِي وُجُودِنَا العَالَمِيِّ وَقِيادَتِنَا لِلعَالَمِ كَذلِكَ؛ لأَنَّنا نَمْلِكُ المَنْهَجَ؛

إنه القرآن الكريم: «الّذِي يُقِيمُ المُسلِمِينَ أَوْصِياءَ عَلَىٰ البَشرِيّةِ القَاصِرَةِ، وَيُعطِيهِم حَقَّ الهَيمَنةِ وَالسِّيَادَةِ عَلَىٰ الدُّنيَا لِخِدْمَةِ هَذهِ الوِصَايةِ النَّبيلَةِ، وَإِذَنْ فَذلِكَ مِنْ شَأنِنَا لَا مِنْ شَأْنِ الغَرْبِ، وَلِمَدنيّةِ الإِسْلامِ لَا لِمَدنيّةِ المَادَّةِ»[6].

وَعَلَىٰ هَذَا، تَدُورُ الرِّسَالَةُ حَوْلَ تَحْدِيدِ مُهِمَّةِ الْأُمَّةِ وَغَايَتِهَا، وَبَيَانِ الْوَاجِبَاتِ الَّتِي تُؤَهِّلُهَا لِتَحْقِيقِ هَذِهِ الْغَايَةِ، وَإِثْبَاتِ إِمْكَانِ النُّهُوضِ بِهَا، وَمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ إِعْدَادٍ نَفْسِيٍّ وَمَادِّيٍّ، حَتَّىٰ تَسْتَعِيدَ الْأُمَّةُ دَوْرَهَا، وَتُؤَدِّيَ رِسَالَتَهَا فِي هِدَايَةِ الْبَشَرِيَّةِ وَإِصْلَاحِ الْحَيَاةِ.

وَقَدْ جَعَلَ الْإِمَامُ الْبَنَّا غَايَةَ هَذِهِ التَّرْبِيَةِ أَوْسَعَ مِنْ مُجَرَّدِ إِصْلَاحِ الْوَاقِعِ الْمَحَلِّيِّ، فَقَالَ: «إِنَّ غَايَتَكُمْ أَوْسَعُ مِنْ هَذَا؛ فَإِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مِنْ هَذَا الشَّعْبِ أُمَّةً نَمُوذَجِيَّةً لِتَنْسُجَ عَلَىٰ مِنْوَالِهَا الْأُمَمُ الشَّرْقِيَّةُ جَمِيعًا، وَتُرِيدُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ وَحْدَةً إِسْلَامِيَّةً تَأْخُذُ بِيَدِ الْإِنْسَانِيَّةِ جَمِيعًا إِلَىٰ تَعَالِيمِ الْإِسْلَامِ»[7].

## ثَالِثًا: وَاجِبَاتٌ غَفَلَ النّاسُ عَنْهَا

مَنْ مِنَّا كَانَ يَعرِفُ مِنْ قَبلُ هَذَا المَعْنَىٰ الّذِي طَرحَهُ الإِمَامُ البَنَّا فِي سُهُولَةٍ وَيُسْرٍ أَنَّ (عِبَادَةَ رَبِّكُمْ) تَتَسَاوَىٰ تَمامًا مَعَ (التَّمكِينِ لِدِينِكُمْ). وَهَذِهِ وَاجِبَاتٌ غَفَلَ النَاسُ عَنْهَا يَقولُ الإِمَامُ البنَّا:«أَيُّهَا المُسلِمُونَ: عِبَادَةُ رَبِّكُم، وَالجِهَادُ فِي سَبِيلِ التَّمكِينِ لِدِينِكُمْ، وَإِعْزَازُ شَرِيعَتِكُمْ هِيَ مُهِمَّتُكُم فِي الحَيَاةِ، فَإِنْ أَدَّيتُمُوهَا حَقَّ الأَدَاءِ فَأَنْتُمُ الفَائِزُونَ، وَإِنْ أَديتُم بَعضَهَا أَوْ أَهمَلْتُموهَا جَمِيعًا فَإِلَيكُمْ أَسُوقُ قَوْلَ اللهِ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ، فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ**﴾ [المؤمنون: 115–116]» [8].

وَقَدْ سَبَقَ أَنْ وَقَفْنَا فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ، تَحْتَ عُنْوَانِ «**الْوَاجِبُ أَوَّلًا**»[9]، مَعَ ضَرُورَةِ

(6) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: إلىٰ أي شيء ندعو الناسَ]، ص 36.
(7) حسن البنا: **مذكرات الدعوة والداعية**، ص 293.
(8) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: إلىٰ أي شيء ندعو الناسَ]، ص 48.
(9) الجزء الأول: **في ظلال الرسائل**[**رسالة التعاليم**].

تَرْتِيبِ الْخَيْرَاتِ وَالْوَاجِبَاتِ، وَتَقْدِيمِ الْأَهَمِّ فَالْمُهِمِّ، وَمَا يَفُوتُ عَلَىٰ مَا لَا يَفُوتُ، مُسْتَفِيدِينَ فِي ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْإِمَامِ أَبِي حَامِدٍ الْغَزَالِيِّ، وَمِنَ الْهَدْيِ النَّبَوِيِّ فِي تَقْدِيمِ الْوَاجِبِ الْمُتَعَيِّنِ عَلَىٰ مَا دُونَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ.

وَالَّذِي يَعْنِينَا هُنَا أَنَّ الْخَلَلَ فِي تَرْتِيبِ الْأَوْلَوِيَّاتِ قَدْ يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ يَنْشَغِلُ بِعَمَلٍ صَالِحٍ عَنْ وَاجِبٍ أَوْلَىٰ مِنْهُ، فَيُهْمَلُ مَا تَشْتَدُّ إِلَيْهِ حَاجَةُ الدَّعْوَةِ وَالْأُمَّةِ. وَمِنْ هُنَا جَاءَ تَرْتِيبُ الْإِمَامِ الْبَنَّا لِمَرَاتِبِ الْعَمَلِ؛ لِيَضْبِطَ جُهْدَ الْأَخِ الصَّادِقِ، وَيَضَعَ كُلَّ وَاجِبٍ فِي مَوْضِعِهِ، حَتَّىٰ تَتَكَامَلَ الْأَعْمَالُ، وَلَا يَطْغَىٰ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ.

وَفِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ اتَّضَحَ تَرْتِيبُه بَيْنَ الأَولوِيّاتِ كذلكَ عِنْدَمَا تَحدَّثَ عَنِ **المُهِمَّةِ وَالغَايةِ وَالوسِيلَةِ**. وَعِنْدَمَا أَشَارَ إِلَىٰ التكاليفِ الفَرديةِ وَمَا يَتعلَّقُ بِهَا مِنْ صَلاةٍ وَصومٍ وَارتِبَاطِهَا بِالتكاليفِ الاجتِمَاعيّةِ، وَهَذَا فَهْمٌ سَدِيدٌ لِقَولِ اللهِ تَعالَىٰ: ﴿**وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ**﴾ [الحج: 78]؛ تِلكَ المُهِمّةُ الاجتِمَاعيّةُ الّتِي نَدبَ اللهُ إِلَيْهَا المُسلِمِينَ جَمِيعًا. وَأَنْ يَكُونُوا صَفًّا وَاحِدًا وَكُتلةً وَاحِدَةً، وَأَنْ يَكُونُوا هُمْ جَيشَ الخَلاصِ الّذِي يُنقِذُ الإنسَانِيّةِ وَيَهدِيهَا سَواءَ السَّبيلِ.

فَقَدْ فَهِمَ الإِمَامُ البَنَّا مِنْ كِتَابِ اللهِ تعالَىٰ أَنَّ التكَالِيفَ الفَرديّةَ وَسِيلَةٌ لِلتكَاليفِ الاجتِمَاعِيّةِ، وَأَنَّ العَقِيدَةَ الصَّحيحَةَ أَسَاسُهُمَا مَعًا «**حَتَّىٰ لَا يَكُونَ لِأُناسٍ مَنْدُوحَةٌ مِنَ القُعودِ عَنْ فَرائِضِهِمُ الفَرديّةِ بِحُجَّةِ أَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ لِلمجمُوعِ، وَحَتَّىٰ لَا يَكُونَ لآخَرينَ مَنْدُوحَةٌ مِنَ القُعودِ عَنِ العَمَلِ لِلمَجْمُوعِ بِحُجّةِ أَنَّهُمْ مَشْغُولُونَ بِعِبَادَتِهِمْ، مُستَغرِقُونَ فِي صِلَتِهِمْ بِرَبِّهِمْ**»[10].

وَلِهَذَا كَانَ تَعقِيبُ الإِمَامِ البَنَّا عَلَىٰ مَا هَدَاهُ اللهُ إليهِ مِنَ ارتِبَاطِ هَذينِ الوَاجِبينِ

(10) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: إلىٰ أي شيء ندعو الناسَ]، ص 48.

(الفَـردِيِّ وَالاجتِمَاعِـيِّ) فِـي القُـرآنِ الكَريـمِ: «فَمَـا أَدَقَّ وَأَحْكَـمَ، وَمَـنْ أَحْسَـنُ مِـنَ اللهِ حَديثًـا؟»[11].

**وَلَا رَيْـبَ أَنَّ هـذَا الفَهْـمَ هُـوَ مَـا مَيَّـزَ دَعـوةَ الإخـوَانِ المُسـلمينَ؛ إنَّـه الفَهْـمُ الشَّـامِلُ لِلإِسْـلام**، الفَهـمُ المُسـتَوعِبُ الـذِي يُراعِـي مَراتِـبَ الخيـراتِ؛ فَـلا يُعنَـىٰ بوَاجـبٍ عَلَـىٰ حِسَـابِ آخَـرَ، وَلِهَـذَا اسـتَغْرَبُ كثيـرٌ مِـنَ النـاسِ دَعـوَةَ الإخـوَانِ، فَقالُـوا: إنَّ الإِخْـوَانَ المُسـلِمِينَ قَـومٌ سِيَاسِـيُّونَ وَدَعوتُهُـم سِياسِـيّةٌ، وَلَهُـمْ مِـنْ وَراءِ ذَلِـكَ مَـآرِبُ أُخْـرَىٰ! فَقـالَ الإِمَـامُ البنَّا يُجِيبُهـم، وَيَلفِتُهُـم إِلَـىٰ مَـا غَفَلُـوا عَنـهُ: «**يَـا قَوْمَنَـا: إِنَّنَـا نُنادِيكُـمُ وَالقُـرآنُ فِـي يَمِينِنَـا وَالسُّـنةُ فِـي شِـمَالِنَا، وَعَمَـلُ السَّـلَفِ الصَّالِـحِ مِـنْ أَبنَـاءِ هَـذِهِ الأُمّـةِ الصالحةِ قُدوَتُنَـا، وَنَدعُوكُـمْ إِلَـىٰ الإِسْـلامِ وَتَعالِيـمِ الإِسْـلامِ وَأَحـكامِ الإِسْـلَامِ، فَـإِنْ كَانَ هَـذَا مِـنْ السِّياسَـةِ عِنْدَكُـمْ فَهـذِهِ سِيَاسَـتُنَا، وَإِنْ كَانَ مَـنْ يَدعُوكُـمْ إِلـىٰ هـذِهِ المَبـادِئِ سِياسِـيًّا فَنَحْـنُ أَعـرَقُ النـاسِ وَالحَمـدُ للهِ فِـي السِّيَاسَـةِ، وَإِنْ شِـئْتُم أَنْ تُسَـمُّوا ذَلِـكَ سِيَاسَـةً، وَهُـوَ لَيْـسَ بِهَـا، فَقُولُـوا مَـا شِـئْتُم، فَلَـنْ تَضرَّنَـا الأَسْـمَاءُ مَتَـىٰ وَضَحَـتِ المُسـمَّياتُ وَانْكَشَـفَتِ الغَايَـاتُ.**

يَـا قَوْمَنَا: لَا تَحْجُبَنَّكُمُ الألفـاظُ عَـنِ الحقَائِقِ وَالأَسـمَاءُ عَـنِ الغَايـاتِ، وَلَا الأَعـرَاضُ عَـنِ الجَوَاهِـرِ، وَإِنَّ لِلإِسْـلامِ لَسِيَاسَـةً فِـي طَيِّهَـا سَـعادَةُ الدُّنْيَـا وَصَـلاحُ الآخِـرَةِ، وَتِلْـكَ هِـيَ سِيَاسَـتُنَا لَا نَبغِـي بِهَـا بَديـلًا، فَسُوسُـوا بِهَـا أَنفُسَـكُمْ، وَاحْمِلُـوا عَلَيْهَـا غَيرَكُـمْ تَظفُـروا بِالعـزَّةِ الدُّنيويـةِ والسَّـعَادَةِ الأُخْرَوِيّـةِ، وَلَتعْلَمُـنَّ نَبـأَهُ بَعـدَ حِيـنٍ»[12].

لَقـدِ اهتَـمَّ الإِمَـامُ البنَّـا بِوَاجِبَـاتٍ غَفَـلَ النَّـاسُ عَنهَـا، فَوَقَـعَ المُسْـلِمُونَ أمـةً وأفـرادًا فِـي عَنَـتٍ شَـدِيدٍ؛ جَـرّاءَ تِلْـكَ الغَفلَـةِ؛ لأَنَّهُـمْ نَسُـوا أَنَّ عِبَـادةَ رَبِّهِـمْ تُسـاوِيَ تمَامًـا التمْكِيـنَ لِدِينِهِـم، فَكمَـا فَـرَضَ اللهُ عَلَيهِـمُ الصَّـلاةَ وَالصَّـومَ وَالحَـجَّ، وَبَقِيّـةَ العِبـادَاتِ، فَـرَضَ عَليهِـمُ الجِهَـادَ لإِقَامَـةِ دِينِـهِ وَتَحكيـمِ شَـرِيعَتِهِ كَذلِـكَ، وَهَـاكَ تَعبِيـرَ الإِمَـامِ البنَّـا عَـنْ هَـذَا المَعْنَـىٰ: «فَهَـذَا الجِهَـادُ فِـي سَـبِيلِ نَشـرِ الدَّعْوَةِ الإِسْـلامِيّةِ فَضْـلًا عَـن الاحتِفَاظِ بِمُقدسَـاتِ الإِسْـلامِ، فَرِيضَـةٌ أُخْـرَىٰ فَرَضَهَـا اللهُ عَلَـىٰ المُسـلِمِينَ كَمَـا فَـرَضَ عَلَيهِـمُ الصَّـوْمَ وَالصَّـلاةَ وَالحَـجَّ

(11) السابق.

(12) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: إلىٰ أي شيء ندعو الناسَ]، ص 41.

وَالـزكَاةَ وَفِعْـلَ الخَيـرِ وَتَـرْكَ الشَّـرِّ، وَأَلْزَمَهُـمْ إِيَّاهَـا، وَنَـدَبَهُمْ إِلَيْهَـا، وَلَـمْ يَعـذُرْ فِـي ذَلِـكَ أَحَـدًا فِيـهِ قُـوةٌ وَاسْـتِطَاعَةٌ، وَإِنّهـا لآيَـةٌ زَاجِـرَةٌ رَادِعَـةٌ، وَمَوعِظَـةٌ بَالِغَـةٌ صَارِخـةٌ: ﴿**انْفِـرُوا خِفَافًـا وَثِقَـالًا وَجَاهِـدُوا بِأَمْوَالِكُـمْ وَأَنْفُسِـكُمْ فِـي سَـبِيلِ اللهِ**﴾ [التوبـة:41]»[13].

وَقَـد وَضَّـحَ الإِمَـامُ البنَّـا ذَلِـكَ مِـرَارًا؛ وَضَّـحَ غَايـةَ الإِخْـوَانِ المُسـلِمينَ بِأَنّهَـا تَحقيـقُ مَضمـونِ الإِسـلامِ وَجَوهـرُهُ؛ كَـيْ يَعـودَ مَـرةً أُخـرَىٰ فِـي حيَـاةِ الأُمَّـةِ المُسـلِمَةِ كَمَـا يقـولُ الإِمَـامُ البنَّـا مخاطبًـا الإخـوَانَ: «فَلَسْـتُمْ طُـلَّابَ حُكْـمٍ، وَلَكِنَّكُـم طُـلّابُ مِنهَـاجٍ وَإِصْـلاحٍ وَمَبـدأٍ، فَفِـي اليَـوْمِ الـذِي يَتحقَّـقُ فِيـهِ مِنْهَاجُكُـمْ يَكُـونُ فِـي المَحاريـبِ مَثوَاكُـمْ، وَإِلَـىٰ المَسَـاجِدِ مَراحُكُـمْ وَمَغْدَاكُـمْ ﴿**فَـإِذَا فَرَغْـتَ فَانصَـبْ(7) وَإِلَـىٰ رَبِّـكَ فَارْغَـب**﴾ [الشـرح: 7، 8]»[14].

ثُـمّ لِكَـيْ يَعُـودَ الإِسـلامُ مَـرةً أُخـرَىٰ قَاعِـدَةَ الانطِـلاقِ الصَّحِيحَـةِ لِبنَـاءِ حَضَـارَةٍ [15]، وَمُواجَهَـةِ حَضـارَاتٍ أُخـرَىٰ، عَلَـىٰ أسـاسِ تِلـكَ الرؤْيَةِ الإِسْـلَاميّةِ الوَاضِحَـةِ ، مِثْلَما كَانَ.

## رَابِعًا: عِبَادَةُ رَبِّكُمْ: تَحْقِيقُ جَوْهَرِ الْعُبُودِيَّةِ

يُشِـيرُ الْإِمَـامُ الْبَنَّـا بِقَوْلِـهِ: «عِبَـادَةُ رَبِّكُـمْ» إِلَـىٰ الشِّـقِّ الْأَوَّلِ مِـنَ الْمُهِمَّـةِ الَّتِـي كُلِّـفَ بِهَـا الْمُسْـلِمُونَ، وَهُـوَ تَحْقِيـقُ جَوْهَـرِ الْعُبُودِيَّـةِ لِلَّـهِ عَـزَّ وَجَـلَّ؛ وَهُـوَ جَوْهَـرٌ يَبْـدَأُ مِـنْ صِحَّـةِ التَّصَـوُّرِ: فَـاللهُ تَعَالَـىٰ هُـوَ الْخَالِـقُ الْمُهَيْمِـنُ، وَالْإِنْسَـانُ عَبْـدُهُ الْمُكَـرَّمُ، الَّـذِي خَلَقَـهُ لِعِبَادَتِـهِ وَعِمَـارَةِ الْأَرْضِ وَإِقَامَـةِ الْحَـقِّ فِيهَـا.

وَلَيْسَـتْ صِلَـةُ الْإِنْسَـانِ بِرَبِّـهِ صِلَـةَ نَسَـبٍ أَوْ قَرَابَـةٍ، وَلَا تَقُـومُ عَلَـىٰ الْأَوْهَـامِ وَالطُّقُـوسِ

(13) السابق، ص 47.

(14) حسن البنا: **مذكرات الدعوة والداعية**، ص 291.

(15) يَـرَىٰ د. مُحَمَّـدٌ سَـعِيدٌ رَمَضَـانَ الْبُوطِـيُّ أَنَّ الْقُـرْآنَ يُحَمِّـلُ الْإِنْسَـانَ مَسْـؤُولِيَّةَ عِمَـارَةِ الْأَرْضِ وَبِنَـاءِ الْحَضَـارَةِ، وَأَنَّ الْعِبَـادَاتِ، بِمَـا تَتَضَمَّنُـهُ مِـنْ تَزْكِيَـةِ النَّفْـسِ وَتَطْهِيرِهَـا مِـنَ الْأَهْـوَاءِ وَالْأَنَانِيَّـةِ، إِنَّمَـا تُهَيِّـئُ الْإِنْسَـانَ لِلنُّهُـوضِ بِمَسْـؤُولِيَّاتِهِ الْحَضَارِيَّـةِ بِصِـدْقٍ وَعَـدْلٍ؛ فَكُلَّمَـا صَفَـتِ النَّفْـسُ وَتَزَكَّـتْ، كَانَ صَاحِبُهَـا أَقْـدَرَ عَلَـىٰ عِمَـارَةِ الْأَرْضِ وَإِقَامَـةِ الْحَيَـاةِ عَلَـىٰ الْحَـقِّ، وَكُلَّمَـا اسْتَسْـلَمَتْ لِلْأَهْـوَاءِ وَالْمَصَالِـحِ الشَّـخْصِيَّةِ، تَحَوَّلَـتْ إِلَـىٰ أَدَاةٍ لِلْإِفْسَـادِ فِـي الْأَرْضِ. مُحَمَّـدُ سَـعِيدِ الْبُوطِـيُّ: **مَنْهَـجُ الْحَضَـارَةِ الْإِنْسَـانِيَّةِ فِـي الْقُـرْآنِ**، دَارُ الْفِكْـرِ، دِمَشْـق، ص24 وَمَـا بَعْدَهَـا.

الْمُجَرَّدَةِ، وَإِنَّمَا تَقُومُ عَلَىٰ الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ وَالِالْتِزَامِ بِأَوَامِرِ اللهِ وَنَوَاهِيهِ وَشَرْعِهِ. وَمَتَىٰ اسْتَقَامَ هَذَا التَّصَوُّرُ فِي الْعَقْلِ وَالْقَلْبِ، اسْتَقَامَ السُّلُوكُ، وَانْضَبَطَتِ الْحَيَاةُ، وَتَحَوَّلَتِ الْعَقِيدَةُ مِنْ مَعَانٍ مُجَرَّدَةٍ إِلَىٰ حَقِيقَةٍ حَيَّةٍ تَظْهَرُ فِي أَخْلَاقِ الْإِنْسَانِ وَعَمَلِهِ وَمَوَاقِفِهِ.

وَقَدْ كَانَ هَذَا هُوَ شَأْنَ الْجِيلِ الْقُرْآنِيِّ الْأَوَّلِ؛ فَلَمْ تَكُنِ الْعَقِيدَةُ عِنْدَهُ مَعْلُومَاتٍ تُرَدَّدُ، بَلْ كَانَتْ قُوَّةً مُوَجِّهَةً لِلْحَيَاةِ، حَفِظَتْ طَاقَتَهُ مِنَ الضَّيَاعِ، وَصَانَتْ عَقْلَهُ مِنَ الِاضْطِرَابِ، وَدَفَعَتْهُ إِلَىٰ الْعَمَلِ وَالْبَذْلِ وَالْإِصْلَاحِ؛ فَظَهَرَ أَثَرُهُ فِي الْعَالَمِ رِفْعَةً وَطُهْرًا وَعَدْلًا وَعِمَارَةً.

وَيُثْمِرُ تَحْقِيقُ الْعُبُودِيَّةِ تَحْرِيرَ الْإِنْسَانِ مِنَ الْخُضُوعِ لِغَيْرِ اللهِ؛ فَمِنْ مُقْتَضَيَاتِ وَحْدَانِيَّةِ اللهِ أَلَّا يَتَسَلَّطَ إِنْسَانٌ عَلَىٰ إِنْسَانٍ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَأَلَّا يُهْدَرَتْ كَرَامَتُهُ أَوْ حُرِّيَّتُهُ أَوْ حُقُوقُهُ. فَالْعُبُودِيَّةُ لِلَّهِ تَرْفُضُ الْقَهْرَ وَالظُّلْمَ، وَتَحْمِلُ الْمُسْلِمَ عَلَىٰ صِيَانَةِ نَفْسِهِ وَكَرَامَتِهِ، وَعَلَىٰ مُقَاوَمَةِ كُلِّ مَا يُفْسِدُ إِيمَانَهُ أَوْ يُذِلُّ إِنْسَانِيَّتَهُ.

وَلَا تَنْحَصِرُ الْعُبُودِيَّةُ فِي الشَّعَائِرِ، بَلْ تَشْمَلُ حَيَاةَ الْإِنْسَانِ كُلَّهَا؛ فَسَعْيُهُ فِي رِزْقِهِ، وَعَمَلُهُ، وَعِلْمُهُ، وَقِيَامُهُ بِوَاجِبَاتِهِ، كُلُّهَا تَدْخُلُ فِي مَعْنَىٰ الْعِبَادَةِ إِذَا صَحَّتِ النِّيَّةُ وَاسْتَقَامَ الْعَمَلُ عَلَىٰ شَرْعِ اللهِ. وَبِهَذَا يَتَّسِعُ مَفْهُومُ الْعُبُودِيَّةِ لِيَشْمَلَ إِصْلَاحَ النَّفْسِ وَعِمَارَةَ الْحَيَاةِ.

أَمَّا مُهِمَّةُ الْمُسْلِمِ إِزَاءَ الْآخَرِينَ، فَتَتَمَثَّلُ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَنُصْرَةِ الْحَقِّ، وَمُقَاوَمَةِ الظُّلْمِ وَالْفَسَادِ؛ فَلَا يَكُونُ إِيمَانُهُ شَأْنًا خَاصًّا مُنْعَزِلًا عَنِ الْحَيَاةِ، بَلْ يَدْفَعُهُ إِلَىٰ الْإِصْلَاحِ وَالْقِيَامِ بِوَاجِبِهِ نَحْوَ النَّاسِ وَالْمُجْتَمَعِ.

وَلِذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنْ أَعْظَمِ وَظَائِفِ الْأُمَّةِ؛ إِذْ بِهِمَا يُحْفَظُ الْإِيمَانُ، وَتُصَانُ الْقِيَمُ، وَتَسْتَقِيمُ الْحَيَاةُ. وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ: «إِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ هُوَ الْقُطْبُ الْأَعْظَمُ فِي الدِّينِ، وَهُوَ الْمُهِمُّ الَّذِي ابْتَعَثَ اللهُ لَهُ النَّبِيِّينَ أَجْمَعِينَ»[16].

(16) أبو حامد الغزالي: **إحياء علوم الدين**، 2/ 309.

وَعَلَىٰ هَـذَا، فَإِنَّ قَوْلَ الْإِمَامِ الْبَنَّا: «**عِبَادَةُ رَبِّكُمْ**» «لَا يُرَادُ بِهِ الِاكْتِفَاءُ بِالشَّعَائِرِ الْفَرْدِيَّةِ، وَإِنَّمَا يُرَادُ بِهِ تَحْقِيقُ الْعُبُودِيَّةِ الشَّامِلَةِ الَّتِي تُصْلِحُ الْإِنْسَانَ فِي ذَاتِهِ، وَتُحَرِّرُهُ مِنَ الْخُضُوعِ لِغَيْرِ اللهِ، وَتَدْفَعُهُ إِلَىٰ إِصْلَاحِ الْحَيَاةِ وَإِقَامَةِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ فِيهَا.

فَإِذَا حَقَّقَ الْإِنْسَانُ مَعْنَىٰ الْعُبُودِيَّةِ، وَأَدْرَكَ أَنَّهُ عَبْدٌ لِلَّهِ وَحْدَهُ، لَمْ يَقْبَلْ أَنْ يَتَسَلَّطَ عَلَيْهِ أَحَدٌ بِغَيْرِ حَقٍّ، أَوْ أَنْ يَسْلُبَهُ حُرِّيَّتَهُ وَكَرَامَتَهُ. كَمَا أَنَّ حُرِّيَّةَ الِاعْتِقَادِ وَالِاخْتِيَارِ مِنَ الْحُقُوقِ الْمَكْفُولَةِ لِلْإِنْسَانِ؛ فَمِنْ تَكْرِيمِ اللهِ تَعَالَىٰ لَهُ أَنْ جَعَلَهُ مُخْتَارًا، وَحَمَّلَهُ مَسْؤُولِيَّةَ مَا يَعْتَقِدُهُ وَيَخْتَارُهُ، وَلَمْ يَجْعَلِ الْإِكْرَاهَ سَبِيلًا إِلَىٰ الْإِيمَانِ.

## خَامِسًا: التمْكِينُ لِدِينِكُمْ.. نَحنُ وَالسُّلطَةُ

هَذَا هُوَ الشِّقُّ الثَّانِي الَّذِي تَقُومُ عَلَيْهِ مُهِمَّةُ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ، بَلْ مُهِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ، كَمَا صَاغَهَا الإِمَامُ البَنَّا: «**أَيُّهَا المُسلِمُونَ: عِبَادَةُ رَبِّكُم، وَالجِهَادُ فِي سَبِيلِ التَّمكِينِ لِدِينِكُمْ، وَإِعْزَازُ شَرِيعَتِكُمْ هِيَ مُهِمَّتُكُم فِي الحَيَاة**»[17].

وَقَدْ حَرَصَ الْإِمَامُ الْبَنَّا عَلَىٰ إِزَالَةِ الشُّبْهَةِ الَّتِي كَثِيرًا مَا تَلْتَصِقُ بِمَفْهُومِ التَّمْكِينِ، وَهِيَ أَنَّهُ يَعْنِي مُجَرَّدَ طَلَبِ الْحُكْمِ، أَوِ السَّعْيَ إِلَىٰ امْتِلَاكِ السُّلْطَةِ بِأَيِّ وَسِيلَةٍ، وَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْوَسِيلَةُ هِيَ الْقُوَّةَ. وَقَدْ سَبَقَ أَنْ قَرَّرَ بِلَا لَبْسٍ **أَنَّ الْإِخْوَانَ لَيْسُوا طُلَّابَ حُكْمٍ، وَإِنَّمَا هُمْ طُلَّابُ مِنْهَاجٍ وَإِصْلَاحٍ وَمَبْدَأٍ**، حَتَّىٰ إِنَّهُ قَالَ: «**وَيَوْمَ يَعْتَنِقُ أَشَدُّ النَّاسِ خُصُومَةً لَكُمْ مَبَادِئَكُمْ، نُغْسِلُ نَحْنُ جَمِيعًا عَنْ قَدَمَيْهِ، وَنُسَلِّمُهُ الرَّايَةَ سُعَدَاءَ مُغْتَبِطِينَ فَرِحِينَ؛ لِأَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ الْخَفِيَّ فِي هَذِهِ السَّبِيلِ خَيْرٌ مِنَ الظَّاهِرِ**»[18].

فَالْخُصُومَةُ فِي هَذَا الْمَنْهَجِ لَيْسَتْ خُصُومَةً شَخْصِيَّةً، وَلَا صِرَاعًا عَلَىٰ الْمَنَاصِبِ، وَإِنَّمَا هِيَ خُصُومَةٌ مَعَ الْبَاطِلِ، وَانْتِصَارٌ لِلْحَقِّ. فَإِذَا رَجَعَ الْخَصْمُ إِلَىٰ الْحَقِّ، زَالَ سَبَبُ الْخُصُومَةِ، بَلِ اسْتَحَقَّ الْإِكْرَامَ وَالتَّرْحِيبَ.

وَمِنْ هُنَا، فَلَا يَعْنِي التَّمْكِينُ لِلدِّينِ الْوُثُوبَ إِلَىٰ سُدَّةِ الْحُكْمِ، أَوِ اخْتِصَارَ الطَّرِيقِ

(17) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: إلىٰ أي شيء ندعو الناسَ]، ص 48.
(18) حسن البنا: **مذكرات الدعوة والداعية**، ص 291.

بِاسْتِخْدَامِ الْقُوَّةِ، أَوْ تَوَهُّمَ أَنَّ امْتِلَاكَ السُّلْطَةِ يَسْبِقُ تَرْبِيَةَ الْأُمَّةِ وَإِعْدَادَهَا. فَهَذَا تَصَوُّرٌ مُخَالِفٌ لِمِنْهَاجِ الْإِخْوَانِ فِي الدَّعْوَةِ وَالْإِصْلَاحِ، الَّذِي يَقُومُ عَلَىٰ بِنَاءِ الْإِنْسَانِ، وَتَرْبِيَةِ الْمُجْتَمَعِ، وَتَهْيِئَةِ الْأُمَّةِ لِحَمْلِ أَمَانَةِ الْحَقِّ.

وَقَدْ نَبَّهَ الْإِمَامُ الْبَنَّا إِلَىٰ أَنَّ الْأُمَمَ لَا تَبْلُغُ غَايَاتِهَا بِتَجَاوُزِ السُّنَنِ، فَقَالَ: »فَلَا بُدَّ أَنْ تَتَذَرَّعَ الْأُمَّةُ بِالصَّبْرِ وَالْأَنَاةِ وَالْكِفَاحِ الطَّوِيلِ، وَكُلُّ أُمَّةٍ تُحَاوِلُ تَخَطِّيَ حَوَاجِزِ الطَّبِيعَةِ يَكُونُ نَصِيبُهَا الْحِرْمَانَ« [19]. وَالْمَقْصُودُ بِحَوَاجِزِ الطَّبِيعَةِ هُنَا: السُّنَنُ الَّتِي لَا يَتِمُّ التَّمْكِينُ إِلَّا بِمُرَاعَاتِهَا، وَفِي مُقَدِّمَتِهَا تَرْبِيَةُ الْأُمَّةِ وَإِعْدَادُهَا قَبْلَ تَوَلِّي السُّلْطَةِ.

فَالدَّعَوَاتُ النَّاجِحَةُ لَا تَبْلُغُ غَايَاتِهَا بِالطَّفَرَاتِ الْمُفَاجِئَةِ، وَلَا بِحَرْقِ الْمَرَاحِلِ وَالْقَفْزِ عَلَيْهَا، وَإِنَّمَا تَسِيرُ وَفْقَ سُنَنِ اللهِ فِي التَّدَرُّجِ، وَالصَّبْرِ، وَتَرَاكُمِ الْجُهُودِ، حَتَّىٰ تَنْضَجَ الْأُمَّةُ، وَتَتَهَيَّأَ لِحَمْلِ مَسْؤُولِيَّاتِ التَّمْكِينِ.

## سَادِسًا: تَرْبِيَةُ الْأُمَّةِ قَبْلَ تَوَلِّي السُّلْطَةِ

حِينَ يَدْعُو الْإِمَامُ الْبَنَّا الْأُمَّةَ إِلَىٰ التَّذَرُّعِ بِالصَّبْرِ وَالْأَنَاةِ وَالْكِفَاحِ الطَّوِيلِ، وَيُحَذِّرُهَا مِنْ تَخَطِّي حَوَاجِزِ الطَّبِيعَةِ، فَإِنَّهُ يُرِيدُ بِذَلِكَ مُرَاعَاةَ سُنَنِ التَّغْيِيرِ وَالنُّهُوضِ، وَفِي مُقَدِّمَتِهَا تَرْبِيَةُ الْأُمَّةِ وَإِعْدَادُهَا قَبْلَ تَوَلِّي السُّلْطَةِ وَحَمْلِ تَبِعَاتِهَا.

وَلَيْسَ هَذَا اسْتِنْتَاجًا بَعِيدًا عَنْ كَلَامِهِ؛ فَقَدْ قَرَنَ هَذِهِ النَّصِيحَةَ بِالتَّأْكِيدِ أَنَّ دِعَامَةَ النَّهْضَةِ هِيَ التَّرْبِيَةُ، فَقَالَ: «يَجِبُ أَنْ تَكُونَ دِعَامَةُ النَّهْضَةِ التَّرْبِيَةَ، فَتُرَبَّىٰ الْأُمَّةُ أَوَّلًا، وَتُفَهَّمُ حُقُوقَهَا تَمَامًا، وَتَتَعَلَّمُ الْوَسَائِلَ الَّتِي تُنَالُ بِهَا هَذِهِ الْحُقُوقُ، وَتُرَبَّىٰ عَلَىٰ الْإِيمَانِ بِهَا... وَذَلِكَ يَسْتَدْعِي وَقْتًا طَوِيلًا؛ لِأَنَّهُ مَنْهَجُ دِرَاسَةٍ يُدَرَّسُ لِأُمَّةٍ فَلَا بُدَّ أَنْ تَتَذَرَّعَ الْأُمَّةُ بِالصَّبْرِ وَالْأَنَاةِ وَالْكِفَاحِ الطَّوِيلِ ...»[20].

---

(19) حسن البنا: **مذكرات الدعوة والداعية**، ص 176.

(20) السابق: الصفحة نفسها. ويُحَذِّرُ جَوْدَتُ سَعِيدٌ مِنَ الْأَخْطَاءِ الدَّقِيقَةِ الَّتِي قَدْ يُتَجَاوَزُ عَنْهَا فِي بَدَايَةِ الطَّرِيقِ، ثُمَّ تَتَضَخَّمُ آثَارُهَا فَتُعَرْقِلُ الْمَسِيرَةَ، وَفِي هَذَا الْمَعْنَىٰ يَقُولُ مُحَمَّدُ إِقْبَال:

لَحْظَةً يَا صَاحِبِي إِنْ تَغْفُلِ أَلْفُ مِيلٍ زَادَ بُعْدُ الْمَنْزِلِ

ينظَر: **حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم**، ط 8، مؤسسة الأهرام للنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م، ص 29.

فَالتَّمْكِينُ، فِي هَذَا التَّصَوُّرِ، لَيْسَ قَرَارًا سِيَاسِيًّا مُفَاجِئًا، وَلَا وَثْبَةً إِلَىٰ الْحُكْمِ، وَإِنَّمَا هُوَ ثَمَرَةُ عَمَلٍ تَرْبَوِيٍّ طَوِيلٍ، يُعِيدُ بِنَاءَ وَعْيِ الْأُمَّةِ، وَيُعَرِّفُهَا بِحُقُوقِهَا وَوَاجِبَاتِهَا، وَيُكَوِّنُ فِيهَا الْإِرَادَةَ وَالْقُدْرَةَ عَلَىٰ النُّهُوضِ بِرِسَالَتِهَا.

وَقَدْ أَكَّدَ الْإِمَامُ الْبَنَّا هَذَا الْمَعْنَىٰ حِينَ وَصَفَ الْإِخْوَانَ بِأَنَّهُمْ «دُعَاةُ تَرْبِيَةٍ»، وَجَعَلَ عِمَادَ انْتِصَارِهِمْ إِفْهَامَ الشَّعْبِ وَإِقْنَاعَهُ، وَإِيقَاظَ شُعُورِهِ عَلَىٰ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ وَتَعَالِيمِهِ. وَهَذِهِ غَايَةٌ لَا تُدْرَكُ فِي أَيَّامٍ، وَلَا تُنَالُ بِأَعْوَامٍ قَلِيلَةٍ؛ لِأَنَّهَا تَسْتَهْدِفُ مُقَاوَمَةَ الْجَهْلِ وَالْأُمِّيَّةِ وَالْمَرَضِ وَالْفَقْرِ وَالْأَحْقَادِ، وَتَنْظِيفَ رَوَاسِبِ قُرُونٍ سَرَىٰ فِيهَا الْفَسَادُ إِلَىٰ مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ مِنْ حَيَاةِ الْأُمَّةِ.

وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ الْجَمَاعَةَ الَّتِي جَعَلَتْ تَرْبِيَةَ الْأُمَّةِ وَإِعْدَادَهَا مُهِمَّتَهَا الْأَسَاسِيَّةَ، لَا يَكُونُ مَقْصِدُهَا الْوُثُوبَ إِلَىٰ السُّلْطَةِ، بَلْ تَكْوِينَ الْقَاعِدَةِ الْإِيمَانِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي تَنْبَثِقُ مِنْهَا السُّلْطَةُ الصَّالِحَةُ، وَتَجِدُ فِي الْأُمَّةِ مَنْ يَخْتَارُهَا وَيُرَاقِبُهَا وَيُقَوِّمُهَا.

وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تُرَبَّىٰ الْأُمَّةُ تَرْبِيَةً نَمُوذَجِيَّةً إِلَّا عَلَىٰ أَيْدِي قُدْوَاتٍ نَمُوذَجِيَّةٍ؛ فَفَاقِدُ الشَّيْءِ لَا يُعْطِيهِ. وَلِذَلِكَ يَجِبُ أَلَّا تُهْمَلَ الْأَخْطَاءُ الدَّقِيقَةُ فِي بِنَاءِ الْأَفْرَادِ وَتَكْوِينِ الْجَمَاعَاتِ؛ فَقَدْ يَبْدُو الْخَطَأُ صَغِيرًا فِي بَدَايَتِهِ، ثُمَّ تَتَضَخَّمُ آثَارُهُ فِي مَسِيرَةِ الْعَمَلِ وَنَتَائِجِهِ.

## سابِعًا: عِبرَةُ التَّارِيخِ فِي استِعْجَالُ السُّلطَةِ

لَا يُمْكِنُ لِدَعْوَةٍ إِصْلَاحِيَّةٍ أَنْ تَبْنِيَ نَهْضَتَهَا عَلَىٰ سُلْطَةٍ لَمْ تَنْبَثِقْ مِنْ أُمَّةٍ وَاعِيَةٍ بِرِسَالَتِهَا، مُؤَهَّلَةٍ لِاخْتِيَارِ حُكَّامِهَا وَمُرَاقَبَتِهِمْ وَتَقْوِيمِهِمْ. وَفِي سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ أَبْلَغُ الدَّلَالَةِ عَلَىٰ ذَلِكَ؛ فَقَدْ عُرِضَ عَلَيْهِ الْمُلْكُ فِي مَكَّةَ، فَلَمْ يَقْبَلْ أَنْ يَجْعَلَ السُّلْطَةَ سَبِيلًا مُخْتَصَرًا إِلَىٰ إِقَامَةِ الدِّينِ، بَيْنَمَا الْمُجْتَمَعُ مَا زَالَ قَائِمًا عَلَىٰ قِيَمِ الْجَاهِلِيَّةِ.

وَقَدْ قَضَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَكَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً، يُرَكِّزُ فِي تَرْبِيَةِ أَصْحَابِهِ عَلَىٰ أَمْرَيْنِ أَسَاسِيَّيْنِ:

**أَوَّلُهُمَا:** تَرْسِيخُ الْإِيمَانِ بِاللهِ فِي النُّفُوسِ، وَتَثْبِيتُ مَعَانِيهِ فِيهَا.

**وَثَانِيهِمَا:** تَرْبِيَتُهُمْ عَلَىٰ الْمَسْؤُولِيَّةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ تِجَاهَ هَذَا الدِّينِ، وَالِاسْتِعْدَادِ لِحَمْلِ تَبِعَاتِهِ.

فَانْصَبَّ تَرْكِيزُهُ عَلَىٰ بِنَاءِ الْإِنْسَانِ قَبْلَ بِنَاءِ الدَّوْلَةِ، وَتَرْسِيخِ الْإِيمَانِ فِي النُّفُوسِ، وَتَرْبِيَةِ أَصْحَابِهِ عَلَىٰ تَبِعَاتِ هَذَا الدِّينِ وَمَسْؤُولِيَّةِ حَمْلِهِ.

وَهَذِهِ هِيَ الْعِبْرَةُ الَّتِي يَنْبَغِي لِلدُّعَاةِ أَنْ يَعُوهَا: أَنَّ السُّلْطَةَ الصَّالِحَةَ لَا تُنْشِئُهَا الْقَفْزَةُ الْمُفَاجِئَةُ، وَإِنَّمَا تُنْشِئُهَا أُمَّةٌ تَرَبَّتْ عَلَىٰ الْإِيمَانِ وَالْوَعْيِ وَالْمَسْؤُولِيَّةِ، فَتَخْتَارُ السُّلْطَةَ، وَتُرَاقِبُهَا، وَتَنْقُدُهَا، وَتُقَوِّمُهَا إِذَا انْحَرَفَتْ.

وَقَدْ عَبَّرَ الْإِمَامُ الْبَنَّا عَنْ مَرْجِعِيَّةِ هَذَا الْمَنْهَجِ بِقَوْلِهِ: «يَا قَوْمَنَا، إِنَّنَا نُنَادِيكُمْ وَالْقُرْآنُ فِي يَمِينِنَا، وَالسُّنَّةُ فِي شِمَالِنَا، وَعَمَلُ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنْ أَبْنَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ الصَّالِحَةِ قُدْوَتُنَا»[21].

وَعَلَىٰ هَذَا، فَإِنَّ الْأُمَّةَ الَّتِي لَمْ تُرَبَّ عَلَىٰ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْمَسْؤُولِيَّةِ لَا تَكُونُ مُؤَهَّلَةً لِإِفْرَازِ سُلْطَةٍ رَاشِدَةٍ؛ لِأَنَّ السُّلْطَةَ فِي النِّهَايَةِ صُورَةٌ مِنْ وَعْيِ الْمُجْتَمَعِ وَقِيَمِهِ. وَصَدَقَ مَنْ قَالَ «**أُمَّةٌ لَمْ تَتَرَبَّ، أُمَّةٌ لَنْ تُفْلِحَ**».

## ثامِنًا: لِمَاذا يُسَارِعُ الناسُ إِلَىٰ السُّلْطَةِ؟

يُسَارِعُ بَعْضُ النَّاسِ إِلَىٰ السُّلْطَةِ، وَيَرَوْنَ فِيهَا الطَّرِيقَ الْأَقْصَرَ إِلَىٰ الْإِصْلَاحِ، لِأَسْبَابٍ مِنْ أَهَمِّهَا:

### 1 – تَجَنُّبُ مَشَقَّةِ التَّرْبِيَةِ الطَّوِيلَةِ

فَتَرْبِيَةُ الْأُمَّةِ حَتَّىٰ تَعِيَ حُقُوقَهَا وَوَاجِبَاتِهَا، وَتَطْلُبَ حُقُوقَهَا، وَتَحْمِيَهَا، وَتُرَاقِبَ مَنْ يَتَوَلَّىٰ أَمْرَهَا، مِنْ أَصْعَبِ مَرَاحِلِ الْعَمَلِ وَأَطْوَلِهَا. وَيَسْبِقُ تَرْبِيَةَ الْأُمَّةِ تَرْبِيَةُ الدُّعَاةِ

(21) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: إلىٰ أي شيء ندعو الناسَ]، ص 41.

أَنْفُسِهِمْ؛ لِأَنَّ الْأُمَّةَ لَا تُرَبَّىٰ بِالْأَوَامِرِ وَالشِّدَّةِ، وَإِنَّمَا تُرَبَّىٰ بِالْقُدْوَةِ وَالْإِقْنَاعِ وَالصَّبْرِ.

وَأَصْعَبُ مَراحل الجِهَادِ تَربيةُ الأُمَّةِ، وَتربيةُ النفس قبلَ تربيةِ الأُمَّةِ، وَلَمَّا كَانَ العَوامُّ كَثيرينَ فِي أُمتِنَا، وَلَا سيمَا زَمَنُ الإمَامِ البنَّا، فَقَدْ حَذَّرَ المُربِّيَ مِنَ الشِّدَّةِ وَالقَسْوَةِ فِي تَربيَتِهِم، فَقالَ: «وَلَكِنْ حَذارِ أَنْ يَشتَدَّ عَلَىٰ العَامَّةِ فَيشْتَدَّ عَلَىٰ نَفْسِهِ ثُمَّ عَلَىٰ مُريدِيهِ الذِينَ فَهِمُوا غَايتَهُ، ثُمَّ يَترُكُ النَّاسَ يُقلِدُونَهُمْ بِالاختِلَاطِ، لَا بِالأَمْرِ وَالشِّدَّةِ»[22]. فَأمّتُنا بِحَاجَةٍ إِلَىٰ النمُوذَجِ الفَذِّ فِي السُّلُوكِ وَالحَيَاةِ.

وَقَدْ أَدْرَكَ الْخَلِيفَةُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَهَمِّيَّةَ وُجُودِ أُمَّةٍ تُقَوِّمُ حَاكِمَهَا، فَلَمَّا سَأَلَ مَنْ حَوْلَهُ عَمَّا يَفْعَلُونَ لَوْ تَرَخَّصَ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ، قَالَ بَشِيرُ بْنُ سَعْدٍ: «لَوْ فَعَلْتَ قَوَّمْنَاكَ تَقْوِيمَ الْقِدْحِ» قَالَ عُمَرُ[مَسْرورًا بهذَا الوعْي]: أَنْتُمْ إِذَنْ أَنْتُمْ [23]. يَعنِي: أَنتُم خَيرُ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ للنَّاسِ؛ لأنكُمْ لَا تَهابونَ فِي الحقِّ أَحدًا.. وَلِذَلِكَ كَانَ عُمرُ يَقولُ: «إِنَّهُ لَا خِلَافَةَ إِلَّا عَنْ مَشُورَةٍ»[24]؛ لِأَنَّ السُّلْطَةَ الرَّاشِدَةَ تَحْتَاجُ إِلَىٰ أُمَّةٍ لَا تَهَابُ فِي الْحَقِّ أَحَدًا.

## الْهُرُوبُ مِنْ تَبِعَاتِ الْعِلَاجِ وَمُوَاجَهَةِ الْحَقَائِقِ

فَالْإِصْلَاحُ الْحَقِيقِيُّ يَبْدَأُ بِالِاعْتِرَافِ بِالنَّقْصِ، وَتَشْخِيصِ الْخَلَلِ، وَتَرْبِيَةِ النَّفْسِ عَلَىٰ الْمُرَاجَعَةِ وَالتَّصْحِيحِ. وَقَدْ ضَرَبَ الْإِمَامُ الْبَنَّا مَثَلًا فِي النَّقْدِ الذَّاتِيِّ، فَلَمْ يُنْكِرْ مَا وَجَّهَهُ النَّاسُ إِلَىٰ الْإِخْوَانِ مِنْ أَنَّهُمْ لَمْ يُحَقِّقُوا مَنَاهِجَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ تَحْقِيقًا تَامًّا، بَلْ أَقَرَّ بِوُجُودِ النَّقْصِ، وَرَفَضَ الِاحْتِجَاجَ بِالظُّرُوفِ تَبْرِيرًا لَهُ، وَدَعَا إِلَىٰ **الطُّمُوحِ إِلَىٰ**

(22) حسن البنا: **مذكرات الدعوة والداعية**، ص 176.

(23) محمد بن إسماعيل البخاري: **التاريخ الكبير**، تحقيق المعلمي اليماني، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد – الدكن، 2/ 488.

(24) سنن النسائي، طبعة الرسالة: 6/ 410، رقم (٧١١٦).

**الْكَمَالِ لَا الدِّفَاعِ عَنِ النَّقْصِ**[25].

وَكَذَلِكَ نَبَّهَ إِلَىٰ خَطَرِ الِاسْتِعْجَالِ فِي الْعَمَلِ، وَأَكَّدَ أَنَّ الدَّعْوَةَ تَقُومُ عَلَىٰ الْحِكْمَةِ، وَالتَّأَنِّي، وَحُسْنِ التَّقْدِيرِ، لَا عَلَىٰ رَدُودِ الْأَفْعَالِ الْمُتَعَجِّلَةِ. وَقَرَّرَ أَنَّ الْهُدُوءَ وَالتَّدَرُّجَ لَيْسَا خَوَرًا وَلَا ضَعْفًا، بَلْ هُمَا مِنْ مُقْتَضَيَاتِ الْحِكْمَةِ وَسُنَنِ التَّغْيِيرِ.

فَعِبْرَةُ التَّارِيخِ أَنَّ كُلَّ انْقِلَابٍ انْبَثَقَ مِنَ السُّلْطَةِ لَمْ يَكُنْ لَهُ طَابِعُهُ الْإِصْلَاحِيُّ. فَالْإِصْلَاحَ لَا يَبْدَأُ مِنَ السُّلْطَةِ، وَكُلُّ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْوُصُولَ إِلَىٰ الْحُكْمِ بِالْقُوَّةِ، دُونَ أَنْ يَمُرُّوا بِمَرْحَلَةِ التَّطَهُّرِ الدَّاخِلِيِّ وَتَرْبِيَةِ النَّفْسِ وَتَحَمُّلِ تَبِعَاتِ الْإِصْلَاحِ، يَتَجَاوَزُونَ مَرْحَلَةً أَسَاسِيَّةً مِنْ مَرَاحِلِ التَّغْيِيرِ.

وَمَا مِنْ شَعْبٍ دُعِيَ إِلَىٰ أَدَاءِ رِسَالَةٍ إِلَّا احْتَاجَ إِلَىٰ مَرْحَلَةٍ مِنَ التَّطَهُّرِ الدَّاخِلِيِّ؛ لِأَنَّ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ حَمْلِ نَفْسِهِ وَتَرْبِيَتِهَا، وَمُوَاجَهَةِ حَقَائِقِهَا، يَصْعُبُ عَلَيْهِ أَنْ يَحْمِلَ تَبِعَةَ إِصْلَاحِ غَيْرِهِ.

## 2 – الِانْشِغَالُ بِعُيُوبِ الْآخَرِينَ عَنْ عُيُوبِ النَّفْسِ

فَقَدْ يَنْظُرُ الْمُسَارِعُونَ إِلَىٰ السُّلْطَةِ إِلَىٰ مَنْ سِوَاهُمْ بِعَيْنِ نَاقِدَةٍ، وَيَتَسَاهَلُونَ فِي أَخْطَائِهِمْ بِدَعْوَىٰ الشَّرْعِيَّةِ أَوْ حُسْنِ الْقَصْدِ أَوْ نُبْلِ الْغَايَةِ. فَيُكَبِّرُونَ عُيُوبَ خُصُومِهِمْ،

(25) يَقُولُ الإِمَامُ البَنَّا: «وَيَأخذُ النَاسُ عَليكُم فِي دَعوتِكُم أنكُمْ لَا تُحقِّقُونَ مَناهِجَكُمْ فِي أَنفُسِكُمْ تَحقيقًا تَامًّا. وَأَنَا مَعَ النَّاسِ فِي أَنَّ هَذَا صَحِيحٌ إِلَىٰ حَدٍّ كَبِيرٍ، فَنحنُ لَا زِلْنَا عَاجِزِينَ عَنْ تَحقيقِ مِنْهَاجِنَا تَامًّا كَامِلًا فِي أَنْفُسِنَا. وَلَا أُحِبُّ أَنْ نَعْتَذِرَ بِأَنَّ مُعظَمَ هَذَا العَجْزِ يَرجِعُ إِلَىٰ الظُّرُوفِ أَكثرَ مِمَّا يَرجِعُ إِلَىٰ الأَشْخَاصِ، فَإِنَّ المَقَامَ مَقَامَ طُموحٍ إِلَىٰ الكَمَالِ لَا دِفَاعٍ عَنِ النَّقصِ. وَلَكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أُنَبِّهَ إِلَىٰ الفَارِقِ بَينَ الإِخوَانِ وَبَينَ غَيرِهِمْ فِي هَذَا، فَإِنَّ الإِخوَانَ يَشعرُونَ مِنْ أَنفُسِهِمْ بِهَذَا وَيَعترِفُونَ، عَلَىٰ حِينِ يَأخذُ غَيرُهُمْ فِي الدَّعْوَىٰ العَرِيضَةِ، وَيَستَترونَ بِخَلابَةِ الأَلفَاظِ. وَالإِخوَانُ مَعَ هَذَا الاعتِرَافِ دَائِبُونَ عَلَىٰ طَلَبِ الكَمَالِ حَتَّىٰ يَأخذُوا مِنهُ بِالنَصِيبِ الذِي قَدَّرَهُ اللهُ لَهُمْ.
وَيَأْخُذُ بَعْضُ النَّاسِ عَلَيْكُمْ كَذَلِكَ أَنَّكُمْ هَادِئُونَ لَا ثَائِرُونَ، مُبْطِئُونَ فِي عَصْرِ السُّرْعَةِ، وَيَحْمِلُونَ ذَلِكَ مِنْكُمْ عَلَىٰ خَوَرٍ فِي الْعَزْمِ، وَضَعْفٍ فِي الْهِمَّةِ وَمُدَاجَاةٍ وَمُوَارَبَةٍ، فَذَكِّرُوا هَؤُلَاءِ بِقَوْلِ الْقَائِلِ: رُبَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رَيْثًا [**كَمْ مِنْ عَجَلَةٍ كَانَتْ سَبَبًا فِي التَّأْخِيرِ؛ لِأَنَّ الِاسْتِعْجَالَ قَدْ يَدْفَعُ إِلَىٰ سُوءِ التَّقْدِيرِ، أَوِ الْخَطَإِ فِي الْعَمَلِ، فَيَضْطَرُّ الْمَرْءُ إِلَىٰ إِعَادَتِهِ، وَيَتَأَخَّرُ وُصُولُهُ إِلَىٰ مَقْصُودِهِ**]، وَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حِينَ عَلَّمَ نَبِيَّهُ ﷺ سَبِيلَ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ قَالَ لَهُ ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾، وَلَمْ يَقُلْ لَهُ بِالسُّرْعَةِ وَالْجَفْوَةِ وَالغلظة، ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾[الطلاق:5]» [حسن البنا: **مذكرات الدعوة والداعية**، ص 293].

وَيَلْتَمِسُونَ الْأَعْذَارَ لِأَنْفُسِهِمْ، مَعَ أَنَّ الْأَوْلَىٰ بِمَنْ يَتَصَدَّىٰ لِإِصْلَاحِ الْأُمَّةِ أَنْ يَكُونَ أَشَدَّ نَقْدًا لِنَفْسِهِ، وَأَحْرَصَ عَلَىٰ مُرَاجَعَةِ مَسِيرَتِهِ، وَأَبْعَدَ عَنِ الِاغْتِرَارِ بِالشِّعَارَاتِ.

وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ اسْتِعْجَالَ السُّلْطَةِ لَا يَكُونُ دَائِمًا دَلِيلًا عَلَىٰ قُوَّةِ الْإِرَادَةِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ هُرُوبًا مِنَ الطَّرِيقِ الْأَصْعَبِ: طَرِيقِ تَرْبِيَةِ النَّفْسِ، وَبِنَاءِ الْأُمَّةِ، وَمُوَاجَهَةِ الْأَخْطَاءِ، وَالِالْتِزَامِ بِسُنَنِ التَّدَرُّجِ وَالصَّبْرِ.

## تاسِعًا: شُرُوطُ التَّأَهُّلِ لِتَوَلِّي السُّلْطَةِ

ثَمَّةَ شَرطَانِ مُهِمَّانِ، يَجبُ تَوافرُهُمَا فِيمَنْ يُرِيدُ السُّلطَةِ:

### 1 – الِاسْتِعْدَادُ النَّفْسِيُّ لِلْبِنَاءِ

لَا يَكْفِي فِي مَنْ يَتَصَدَّىٰ لِلسُّلْطَةِ أَنْ يَعْرِفَ مَا يُرِيدُ إِزَالَتَهُ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَعْرِفَ مَا يُرِيدُ بِنَاءَهُ، وَأَنْ يَمْلِكَ التَّصَوُّرَ وَالْإِرَادَةَ وَالْأَخْلَاقَ الَّتِي تُمَكِّنُهُ مِنْ إِقَامَتِهِ. فَالِاسْتِعْدَادُ لِلْهَدْمِ غَيْرُ الِاسْتِعْدَادِ لِلْبِنَاءِ[26]؛ إِذْ قَدْ تَكْفِي لِلْهَدْمِ مَوْجَةٌ مِنَ الْغَضَبِ وَالْحَمَاسِ، أَمَّا الْبِنَاءُ فَيَحْتَاجُ إِلَىٰ رُؤْيَةٍ وَاضِحَةٍ، وَإِرَادَةٍ ثَابِتَةٍ، وَصَبْرٍ طَوِيلٍ، وَقُدْرَةٍ عَلَىٰ تَحَمُّلِ الْمَسْؤُولِيَّةِ.

كَمَا يَقُولُ الإِمَامُ البَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ تكوينَ الأُمم، وتَربيةَ الشُّعوب، وتَحقيقَ الآمَالِ، وَمُناصرَةَ المَبادِئ: تَحتَاجُ مِن الأُمَّةِ التِي تُحاوِلُ هذَا أَو الفِئَةِ التِي تَدعُو إِلَيهِ عَلَىٰ الأقلِّ، إِلَىٰ **قُوةٍ نَفْسِيّةٍ عَظِيمَةٍ** تَتمثَّلُ فِي عِدَّةِ أُمورٍ: إِرَادةٍ قَويةٍ لا يَتطَرَّقُ إِلَيْهَا ضَعْفٌ، وَوَفَاءٍ ثَابتٍ لَا يَعدُو عَليهِ تَلوّنٌ وَلَا غَدْرٌ، وتَضحيةٍ عَزيزةٍ لَا يَحولُ دُونَها طَمعٌ ولا بُخْلٌ، ومَعرفَةٌ بِالمَبدَأِ وَإِيمَانٌ بِهِ وَتَقدِيرٌ لَه يَعْصِمُ مِنَ الخطَأِ فِيهِ وَالانحرافِ عَنهُ وَالمُساومَةِ عَلَيهِ، وَالخَدِيعَةِ بغيرِه. علَىٰ هَذهِ الأركانِ الأوّليّةِ التِي هِيَ مِنْ خُصُوصِ النفُوسِ وَحْدَها، وعَلَىٰ هَذِهِ القُوةِ الرُّوحِيَّة الهَائِلَة، تُبنَىٰ المَبادِئُ وتَتربَّىٰ الأمم الناهضَةُ، وتتكَوّنُ الشعوبُ الفتِيَّةُ، وتَتجَدَّدُ الحَياةُ فِيمَنْ حُرِمُوا الحَياةَ زَمَنًا طَوِيلًا»[27].

(26) أَشَارَ بَعضُ مَنْ قَوَّمُوا الثَّورَةَ المِصْرِيَّة 1952م إِلَىٰ أَنَّ مَنْ قَامُوا بِها – بَعدَ أَنْ تَنكَّروا لِمَا قَطعُوهُ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ مِنْ أَنَّهُم سَيحْكُمونَ بِشَرْعِ اللهِ – كَانُوا يَعرِفُونَ مَا يُرِيدُونَ هَدْمَهُ! وَلَا يَعرِفُونَ مَا يُرِيدُونَ بِنَاءَهُ.

(27) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: إلىٰ أي شيء ندعو الناس]، ص 53.

فَالسُّلْطَةُ لَا تُصْلِحُ نُفُوسًا فَاسِدَةً، وَلَا تَمْنَحُ الْمُتَصَدِّينَ لَهَا مَا يَفْقِدُونَهُ مِنْ وَعْيٍ وَأَخْلَاقٍ وَكِفَايَةٍ، بَلْ قَدْ تَكْشِفُ مَا فِي النُّفُوسِ وَتُضَاعِفُ آثَارَهُ. وَلِذَلِكَ كَانَ إِعْدَادُ الْإِنْسَانِ لِمَسْؤُولِيَّةِ الْحُكْمِ مُقَدَّمًا عَلَىٰ الْوُصُولِ إِلَيْهِ.

## 2 – تَوَفُّرُ الْحَدِّ الْأَدْنَىٰ مِنَ الْعَنَاصِرِ الصَّالِحَةِ

لَا يَقُومُ التَّغْيِيرُ الْكَبِيرُ عَلَىٰ الْفَرْدِ وَحْدَهُ، مَهْمَا بَلَغَ مِنَ الصَّلَاحِ وَالثَّبَاتِ، بَلْ يَحْتَاجُ إِلَىٰ جَمَاعَةٍ وَاعِيَةٍ، تَحْمِلُ الْفِكْرَةَ، وَتُحْسِنُ تَنْزِيلَهَا عَلَىٰ الْوَاقِعِ، وَتَتَحَمَّلُ تَبِعَاتِهَا. فَالْكَيْفُ مُقَدَّمٌ فِي الْقِيمَةِ، وَلَكِنَّ الْكَمَّ لَهُ اعْتِبَارُهُ أَيْضًا؛ إِذْ لَا تَسْتَطِيعُ قِلَّةٌ مَعْزُولَةٌ أَنْ تَحْمِلَ أَعْبَاءَ أُمَّةٍ كَامِلَةٍ، مَا لَمْ تَكُنْ حَوْلَهَا قَاعِدَةٌ مِنَ الْوَعْيِ وَالصَّلَاحِ وَالْمُشَارَكَةِ.

وَقَدْ أَشَارَ الْقُرْآنُ إِلَىٰ أَثَرِ الْإِيمَانِ وَالصَّبْرِ فِي مُضَاعَفَةِ قُوَّةِ الْجَمَاعَةِ، كَمَا أَشَارَ إِلَىٰ أَنَّ التَّغْيِيرَ يَقَعُ فِي الْأُمَمِ وَالْمُجْتَمَعَاتِ حِينَ يَتَحَوَّلُ مَا فِي نُفُوسِهَا مِنْ أَفْكَارٍ وَقِيَمٍ وَإِرَادَاتٍ. وَمِنْ ثَمَّ، فَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ قِلَّةٍ مُؤْمِنَةٍ وَاعِيَةٍ تَبْدَأُ التَّغْيِيرَ، وَبَيْنَ الْحَاجَةِ إِلَىٰ امْتِدَادِ أَثَرِهَا فِي عَدَدٍ كَافٍ مِنَ النَّاسِ يَحْمِلُونَ عِبْءَ الْبِنَاءِ وَيَحْمُونَ نَتَائِجَهُ.

وَقَدْ نَبَّهَ أَبُو الْحَسَنِ النَّدْوِيُّ إِلَىٰ أَنَّ أَزْمَةَ الْبَشَرِيَّةِ لَا تَنْحَصِرُ فِي انْتِشَارِ الْفَسَادِ، بَلْ تَتَمَثَّلُ أَيْضًا فِي فَقْدِ الْعِلْمِ الصَّحِيحِ، وَالْإِرَادَةِ الْخَيِّرَةِ، وَالْجَمَاعَةِ الَّتِي تَنْتَصِرُ لِلْحَقِّ وَتُقَاوِمُ الْبَاطِلَ. فَالْمَنْهَجُ الصَّحِيحُ يَحْتَاجُ إِلَىٰ أُمَّةٍ تَحْمِلُهُ، وَلَا يَكْفِي أَنْ يَبْقَىٰ فِكْرَةً فِي عَقْلِ أَفْرَادٍ مُتَفَرِّقِينَ[28].

وَهَذَا هُوَ مَا تَوَجَّهَ إِلَيْهِ الْإِمَامُ الْبَنَّا حِينَ جَعَلَ الْبِنَاءَ وَالتَّرْبِيَةَ مِحْوَرَ مَنْهَجِهِ؛ فَالسُّلْطَةُ وَحْدَهَا لَا تُقِيمُ دِينًا، وَلَا تُنْشِئُ مُجْتَمَعًا صَالِحًا، إِذَا لَمْ يَتَوَفَّرْ حَدٌّ أَدْنَىٰ مِنَ الْعَنَاصِرِ الْمُؤْمِنَةِ الْوَاعِيَةِ، الْقَادِرَةِ عَلَىٰ حَمْلِ الْمَنْهَجِ وَتَحْوِيلِهِ إِلَىٰ وَاقِعٍ.

فَقَدْ يَسْعَدُ الْمُقَصِّرُ فِي مُجتمَعٍ سَلِيمٍ صَالِحٍ، وَقَدْ يَشْقَىٰ الصَّالِحُ فِي مُجتمَعٍ مُقَصِّرٍ، فَعَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ، عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، قَالَتْ: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا، يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ

(28) أبو الحسن الندوي: **النبوة والأنبياء في ضوء القرآن**، ط 3، بيروت 1387هـ، ص 123.

رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمأجُوجَ مِثْلُ هذِهِ، وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا، قَالَتْ زَيْنَبُ بنتُ جَحْشٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ قَالَ: نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ»[29].

وَهَذَا يَدلُّ عَلَىٰ أنَّ الكَثرَةَ ذَاتَ الفِقْهِ وَالنظَرِ أَمْرٌ لَه اعتِبَارُهُ فِي بِنَاءِ الأُمَمِ وَإِحدَاثِ التَّغييرِ المَنشُودِ وَالمَطْلُوبِ.

وَأَحيَانًا تَبدُو القِلّة غَيرُ الوَاعِيَةِ عِبئًا مِنَ الأَعبَاءِ الّتِي يَنُوءُ بِهَا العَمَلُ. وَحَديثُ السَّفِينَةِ دَلِيلٌ عَلَىٰ ذَلِكَ؛ بِمَعْنَىٰ أنّها لَا يُمكِنُ أَنْ تَتبوَّأَ مَواقِعَ التوْجيهِ وَالتأثِيرِ، لأنّ هذِهِ القِلّةَ غَيرَ الوَاعِيَةِ سَتُحْدِثُ ذَلِكَ التَّسَيّبَ، وَتَفرِضُ عَلَىٰ المُجتَمَعِ مَا لَديْهَا مِنَ السَّخَافاتِ وَالشُّذُوذِ؛ مِثَالُ ذَلِكَ: المُنافقُونَ فِي الدَّولَةِ الإِسْلامِيَّةِ الأُولَىٰ.

وَعَلَىٰ هَذَا، فَإِنَّ تَغْيِيرَ الْوَاجِهَةِ السِّيَاسِيَّةِ لَا يَكْفِي، وَالتَّغْيِيرَ الْمُفَاجِئَ لَا يَضْمَنُ الِاسْتِمْرَارَ؛ وَإِنَّمَا يَدُومُ التَّغْيِيرُ الَّذِي يَتَقَدَّمُ بِثَبَاتٍ فِي بِنَاءِ الْإِنْسَانِ، وَتَكْوِينِ الْجَمَاعَةِ الصَّالِحَةِ، وَتَوْسِيعِ دَائِرَةِ الْوَعْيِ فِي الْأُمَّةِ.

## عاشِرًا: السُّلْطَةُ أَمَانَةٌ وَالْأُمَّةُ رَقِيبَةٌ عَلَيْهَا

لَيْسَتِ السُّلْطَةُ فِي التَّصَوُّرِ الْإِسْلَامِيِّ امْتِيَازًا شَخْصِيًّا، وَلَا مُلْكًا خَاصًّا لِلْحَاكِمِ يَتَصَرَّفُ فِيهِ كَيْفَ يَشَاءُ، وَإِنَّمَا هِيَ أَمَانَةٌ وَتَكْلِيفٌ، يُرَادُ بِهَا إِقَامَةُ الْعَدْلِ، وَحِفْظُ الْحُقُوقِ، وَرِعَايَةُ مَصَالِحِ الْأُمَّةِ. وَالْحَاكِمُ فِيهَا وَكِيلٌ عَنِ الْأُمَّةِ، وَمَسْؤُولٌ أَمَامَ اللهِ وَأَمَامَهَا عَمَّا وُلِّيَ مِنْ أَمْرِهَا.

وَلِذَلِكَ لَا تَنْتَهِي مُهِمَّةُ الْأُمَّةِ بِاخْتِيَارِ الْحَاكِمِ، بَلْ تَظَلُّ رَقِيبَةً عَلَىٰ أَدَائِهِ؛ تَنْصَحُهُ إِذَا أَخْطَأَ، وَتُقَوِّمُهُ إِذَا انْحَرَفَ، وَتُحَاسِبُهُ عَلَىٰ تَصَرُّفَاتِهِ فِي الْحُقُوقِ وَالْأَمْوَالِ الْعَامَّةِ. وَقَدْ عَبَّرَ الْإِمَامُ الْبَنَّا عَنْ هَذَا الْمَعْنَىٰ بِقَوْلِهِ: «وَأَمَّا الزَّعَامَةُ فَيَجِبُ أَنْ تُخْتَارَ وَتُنْتَقَدَ، حَتَّىٰ إِذَا وَصَلَتْ إِلَىٰ دَرَجَةِ الثِّقَةِ أُطِيعَتْ وَأُوزِرَتْ»[30]. فَإِذَا قَصَّرَتِ السُّلْطَةُ، كَانَ حَقُّ الْأُمَّةِ النُّصْحَ وَالْإِرْشَادَ وَالتَّقْوِيمَ، فَإِنِ اسْتَمَرَّ الِانْحِرَافُ، كَانَ لَهَا حَقُّ الْخَلْعِ وَالْإِبْعَادِ؛ إِذْ لَا

(29) أخرجه مسلم (2880) والبخاري (3346) باختلاف يسير.
(30) حسن البنا: **مذكرات الدعوة والداعية**، ص 176.

طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ.

وَقَدْ قَدَّمَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ نَمُوذَجًا مُبَكِّرًا لِهَذَا الْفَهْمِ؛ فَلَمَّا تَوَلَّىٰ الْخِلَافَةَ، لَمْ يَفْرِضْ لِنَفْسِهِ مِنْ مَالِ الْمُسْلِمِينَ مَا يَشَاءُ، بَلْ رُتِّبَ لَهُ مِنْهُ مَا يَكْفِيهِ لِلتَّفَرُّغِ لِشُؤُونِ الْأُمَّةِ، فِي حُدُودِ الْحَاجَةِ وَالْمَعْرُوفِ. وَكَذَلِكَ طَلَبَ مِنَ الْأُمَّةِ أَنْ تُقَوِّمَهُ إِذَا زَاغَ؛ لِأَنَّ الْحَاكِمَ، مَهْمَا عَلَا مَنْصِبُهُ، بَشَرٌ يُصِيبُ وَيُخْطِئُ، وَلَا عِصْمَةَ لَهُ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ. وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ النُّصْحَ وَالنَّقْدَ وَالْمُحَاسَبَةَ لَيْسَتْ خُرُوجًا عَلَى السُّلْطَةِ، بَلْ هِيَ مِنْ وَاجِبَاتِ الْأُمَّةِ، وَمِنْ أَسْبَابِ اسْتِقَامَةِ الْحُكْمِ.

وَمِنْ أَوْضَحِ مَظَاهِرِ هَذِهِ الْأَمَانَةِ صِيَانَةُ الْمَالِ الْعَامِّ؛ فَهُوَ مَالُ الْأُمَّةِ، مَرْصُودٌ لِمَصَالِحِهَا، وَلَيْسَ مَالًا شَخْصِيًّا لِلسُّلْطَانِ؛ يُرْوَىٰ أَنَّ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ غَيَّرَ اسْمَ (بَيْتَ مَالِ الْمُسْلِمِينَ) إِلَىٰ (بَيْتِ مَالِ اللهِ) فَعَارَضَهُ أَبُو ذَرٍّ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) فِي هَذِهِ التَّسْمِيَةِ، يقول ابن الأثير: «لَمَّا وَرَدَ ابْنُ السَّوْدَاءِ إِلَىٰ الشَّامِ لَقِيَ أَبَا ذَرٍّ فَقَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ أَلَا تَعْجَبُ مِنْ مُعَاوِيَةَ يَقُولُ: الْمَالُ مَالُ اللهِ! أَلَا إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ لِلَّهِ، كَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَحْتَجِبَهُ دُونَ النَّاسِ، وَيَمْحُوَ اسْمَ الْمُسْلِمِينَ. فَأَتَاهُ أَبُو ذَرٍّ فَقَالَ: مَا يَدْعُوكَ إِلَىٰ أَنْ تُسَمِّيَ مَالَ الْمُسْلِمِينَ مَالَ اللهِ السَّاعَةَ؟ قَالَ: يَرْحَمُكَ اللهُ يَا أَبَا ذَرٍّ! أَلَسْنَا عِبَادَ اللهِ وَالْمَالُ مَالُهُ؟ قَالَ: فَلَا تَقُلْهُ. قَالَ: سَأَقُولُ مَالَ الْمُسْلِمِينَ...»[31].

لَقَدْ أَدْرَكَ أَبُو ذَرٍّ خُطُورَةَ هَذَا التَّغْيِيرِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ ذَرِيعَةً إِلَىٰ أَنْ يَتَصَرَّفَ السُّلْطَانُ فِي الْمَالِ كَمَا يَرَىٰ، وَيَدَّعِيَ أَنَّ اللهَ أَرَادَ ذَلِكَ. وَلَئِنْ أُمِنَ هَذَا التَّصَرُّفُ مِنْ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَأَنَّىٰ يُؤْمَنُ مِمَّنْ يَخْلُفُهُ؟ أَمَّا أَنْ يَكُونَ اسْمُهُ «بَيْتَ مَالِ الْمُسْلِمِينَ»، فَمَعْنَاهُ أَنْ يَكُونَ الْمُسْلِمُونَ رُقَبَاءَ عَلَيْهِ؛ فَهُوَ مَرْصُودٌ لِمَصَالِحِهِمْ، وَالسُّلْطَانُ خَازِنُهُمْ عَلَيْهِ فَقَطْ.

(31) عز الدين ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط 1، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، 1417هـ / 1997م، 2/ 484.

وَهَـذَا الْمَعْنَـىٰ نَفْسُـهُ عَبَّـرَ عَنْـهُ السُّـلْطَانُ نُـورُ الدِّيـنِ مَحْمُـودٌ[32] حَيـثُ «شَـكَتْ إِلَيْـهِ زَوْجَتُـهُ مِـنَ الضَّائِقَـةِ، فَأَعْطَاهَـا ثَـلَاثَ دَكَاكِيـنَ فِـي حِمْـصَ كَانَـتْ لَـهُ، مِنْهَـا يَحْصُـلُ لَـهُ فِـي السَّـنَةِ نَحْـوُ عِشْـرِينَ دِينَـارًا، فَلَمَّـا اسْـتَقَلَّتْهَا قَـالَ: لَيْـسَ لِـي إِلَّا هَـذَا. وَجَمِيـعُ مَـا بِيَـدِي أَنَـا فِيـهِ خَـازِنٌ لِلْمُسْـلِمِينَ لَا أَخُونُهُـمْ فِيـهِ، وَلَا أَخُـوضُ نَـارَ جَهَنَّـمَ لِأَجْلِـكِ»[33].

وَعَلَـىٰ هَـذَا، فَالسُّـلْطَةُ الرَّاشِـدَةُ تَقُـومُ عَلَـىٰ طَرَفَيْـنِ مُتَكَامِلَيْـنِ: حَاكِـمٍ يَعْلَـمُ أَنَّـهُ أَمِيـنٌ لَا مَالِـكٌ، وَأُمَّـةٍ وَاعِيَـةٍ لَا تَتَخَلَّـىٰ عَـنْ حَقِّهَـا فِـي الِاخْتِيَـارِ وَالرَّقَابَـةِ وَالتَّقْوِيـمِ. وَالسُّـلْطَةُ الصَّالِحَـةُ لَا تَنْشَـأُ فِـي فَـرَاغٍ، وَلَا تُفْـرَضُ عَلَـىٰ أُمَّـةٍ لَـمْ تُعَـدَّ لِحَمْلِهَـا، وَإِنَّمَـا تَنْبُثِـقُ مِـنْ مُجْتَمَـعٍ صَحِيـحِ الْمَوَازِيـنِ وَالْقِيَـمِ، قَـوِيِّ الْإِيمَـانِ وَالْوَعْـيِ، يَخْتَـارُ قِيَادَتَـهُ، وَيُرَاقِبُهَـا، وَيَنْصَحُهَـا، وَيُقَوِّمُهَـا إِذَا انْحَرَفَـتْ. فَـإِذَا صَلَـحَ الطَّرَفَـانِ اسْـتَقَامَتِ السُّـلْطَةُ، وَإِذَا غَابَـتْ رَقَابَـةُ الْأُمَّـةِ، أَوْ ضَـاعَ شُـعُورُ الْحَاكِـمِ بِالْأَمَانَـةِ، فُتِـحَ الْبَـابُ لِلِاسْـتِبْدَادِ وَالْفَسَـادِ.

(32) بَـدأَتْ سَـلطنةُ نُـورِ الدّيـنِ عَـامَ 541هـ (1146م)، وَفَتـحَ صَلاحُ الدّيـنِ القُـدْسَ عَـامَ 538هـ (1187م)، حيـثُ سَـقَطَ فِـي أَيْـدِي الصَّلِيبِيـنِ عَـامَ 492هـ ( 1098م)، وَنُـورُ الديـنِ هُـوَ ابـنُ عِمَادِ الديـنِ زنْكِي، يقـولُ ابنُ الأثيـرِ فِـي نُـورِ الديـنِ مَحمُـودُ: "قَـدْ طَالَعْـتُ تَوَارِيـخَ المُلـوكِ المُتقدِّميـنَ مِـنْ قَبـلِ الإِسْلام، وَمِنـهُ إِلَـىٰ يَومِنَـا هَـذَا فَلَـمْ أَرَ فِيـهِ بَعـدَ الخُلفـاءِ الراشـدِينَ وَعُمـرَ بـنِ عَبـدِ العَزيـزِ مَلِـكًا أَحْسَـنَ سِـيرَةً مِـنَ المَلِـكِ العَـادلِ نُـورِ الديـنِ، وَلَا أَكْثَـرَ تَحرِّيًـا لِلعَـدْلِ وَالإِنصَـافِ مِنْـهُ. قَـدْ قَصَـرَ لَيلَـه وَنَهـارَهُ عَلَـىٰ عَـدْلٍ يَنشـرُهُ، وَجِهَـادٍ يَتجهَّـزُ لَـهُ، وَمَظلَمَـةٍ يُـزِيلُهَا، وَعِبَـادَةٍ يَـقُومُ بِهَـا وَإِحْسَـانٍ يُـولِيهِ، وَإِنْعَـامٍ يُسْـدِيهِ. فَلَـوْ كَانَ فِـي أُمَّـةٍ لَافْتَخرَتْ بِـهِ، فَكَيفَ بِبَيْـتٍ وَاحِـدٍ. انظر د. ماجد عرسان الكيلاني: **هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس**، ط 3، دار القلم، الإمارات العربية المتحدة، 1423هـ – 2002م، ص 270. وَكَانَ وَالِدُ **صَلاحِ الدِّيـنِ** أَحَدَ ضُبّاطِ نُورِ الدِّيـنِ العَسكَرِيينَ، وَخَـرجَ صَلاحُ الدِّيـنِ مَـعَ عَمِّـهِ أَسَـدِ الدِّيـنِ شِيركُوه أَكْبَر أُمـراءِ جَيْـشِ نُـورِ الديـنِ، فِـي حَملتِه إِلَـىٰ مِصْـرَ، وتَولَّـىٰ صَلاحُ الدِّيـنِ أَمْـرَ مِصْـرَ بَعـدَ وفَـاةِ عَمِّـهِ أَسَـدِ الدِّيـنِ. ثُـمَّ عَـزمَ نُـورُ الدِّيـنِ عَلَـىٰ فَتْـحِ بَيـتِ المَقـدِسِ وَلَكِـنَّ المَنِيّـةَ وَافتْـهُ، وَهُـوَ فِـي غَمْـرَةِ الاسـتِعْدَادَاتِ عَـامَ 569هـ (1169م)، فَـآلَ الأَمْـرُ مِـنْ بَعـدِهِ إِلَـىٰ كَبِيـرِ رِجَالِـهِ وَوَالِيـهِ عَلَـىٰ مِصْـرَ صَلاحِ الديـنِ الأَيُّوبِيِّ.

(33) عـز الديـن ابـن الأثيـر: **الكامـل في التاريـخ**، تحقيـق: عمـر عبـد الـسلام تدمـري، ط 1، دار الكتـاب العربـي، بيـروت – لبنـان، 1417هـ / 1997م، 9/ 394.

# رِسَالةُ
# «هَلْ نَحنُ قَومٌ عَملِيُّونَ؟»

صَـدَرَتْ هَـذِهِ الرِّسَـالَةُ بَعْـدَ رِسَـالَةِ ؟، «إِلَـىٰ أَيِّ شَـيْءٍ نَدْعُـو النَّـاسَ » وَذَلِـكَ رَدًّا عَلَـىٰ بَعْـضِ التَّسَـاؤلَاتِ الَّتِـي كَانَـتْ تَتَـرَدَّدُ عَلَـىٰ أَلْسِـنَةِ النَّـاسِ حَـوْلَ جَمَاعَـةِ الإِخْـوَانِ الْمُسْـلِمِينَ، وَهَـلْ هِـيَ جَمَاعَـةٌ عَمَلِيَّـةٌ وَهَـلْ أَعْضَاؤُهَـا عَمَلِيُّـونَ، وَ نُشِـرَتْ فِـي مَجلّـةِ الإِخـوَانِ الْمُسْـلِمِينَ فِي عَشـرَةِ مَقـالَاتٍ، وَكَانَ أوّلُ مَقـالٍ فِي العَـددِ (14) مِـنَ السَّـنةِ الثَّانيـةِ بتَاريـخِ 28 رَبِيـع الآخَـر 1353 هـ المُوافِـق 10 أغسْـطُس 1934 م، وَتَوالَـىٰ نَشـرُ المَقـالاتِ تِباعًـا، حتَّـىٰ اختَتَمَهَـا الإِمَـامُ البنّـا فِـي العـدَدِ (27 ) مِـنَ السـنَةِ نَفسِـهَا بِتَاريـخِ 30 رَجَـب 1353 هـ المُوافِـقِ 1934م[34].

(34) حسـن البنـا: مجموعـة رسـائل الإمـام البنـا [رسـالة هـل نحـن قـوم عمليـون؟]. طبعـة دار النـداء، اسـطنبول، 2014 . ص 73.

## سؤال مهم

يقول الإمام البنا: «وَبَقِيَ سُؤَالٌ آخَرُ يَتَرَدَّدُ كَثِيرًا عَلَىٰ أَفْوَاهِ النَّاسِ كَذَلِكَ، كُلَّمَا دَعَاهُمْ دَاعٍ إِلَىٰ تَشْجِيعِ هَذِهِ الْجَمَاعَةِ، الَّتِي تَدْأَبُ عَلَىٰ الْعَمَلِ لَيْلَ نَهَارَ، لَا تَبْتَغِي مِنْ أَحَدٍ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا، وَلَا تَعْمَلُ إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَلَا تَعْتَمِدُ فِي خُطُوَاتِهَا إِلَّا عَلَىٰ تَأْيِيدِهِ وَنَصْرِهِ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ الله، وَشِعَارُ كُلِّ عَامِلٍ مِنَ الْعَامِلِينَ: ﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾» [هود: 88] هَذَا السُّؤَالُ الآخَرُ أَنْ يَقُولَ لَكَ ذَلِكَ الَّذِي تَدْعُوهُ، فِي اسْتِهَانَةٍ وَإِعْرَاضٍ غَالِبًا: وَهَلْ هَذِهِ الْجَمَاعَةُ جَمَاعَةٌ عَمَلِيَّةٌ؟ وَهَلْ أَعْضَاؤُهَا عَمَلِيُّونَ ؟ »[35] .

(35) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام البنا [رسالة هل نحن قوم عمليون؟]. طبعة دار النداء، اسطنبول، 2014 . ص 73.

## مَحَاوِرُ شَرْحِ الرِّسَالَةِ

تَمْهِيدٌ: وَاقِعُ الْأُمَّةِ وَحَاجَتُهَا إِلَىٰ مَنْهَجٍ عَمَلِيٍّ لِلنُّهُوضِ.

أَوَّلًا: مَعْنَىٰ الْعَمَلِ وَأَصْنَافُ السَّائِلِينَ عَنْهُ.

ثَانِيًا: الْمُؤَسَّسَاتُ وَالْمَشْرُوعَاتُ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الْعَمَلِ.

ثَالِثًا: إِعْدَادُ الرِّجَالِ أَسَاسُ النَّهْضَةِ.

رَابِعًا: الدِّينُ وَسِيلَةُ التَّرْبِيَةِ وَبِنَاءِ النُّفُوسِ.

خَامِسًا: الصَّلَاةُ وَبِنَاءُ الصِّلَةِ بِاللهِ.

سَادِسًا: الزَّكَاةُ وَبِنَاءُ التَّكَافُلِ الِاجْتِمَاعِيِّ.

سَابِعًا: الْجِهَادُ مَفْهُومٌ شَامِلٌ لِلْبَذْلِ وَالْعَمَلِ.

ثَامِنًا: حَقُّ الْقُرْآنِ بَيْنَ التَّعْظِيمِ وَالِاتِّبَاعِ.

تَاسِعًا: الْمَنْهَجُ وَالْعَمَلُ الْجَمَاعِيُّ أَسَاسُ النَّهْضَةِ.

عَاشِرًا: أَسْبَابُ إِخْفَاقِ النَّهَضَاتِ.

حَادِيَ عَشَرَ: الْعَمَلُ الْجَمَاعِيُّ وَالتَّنْظِيمُ طَرِيقُ التَّغْيِيرِ الْمَنْشُودِ.

## تَـمْهِيدٌ:

## وَاقِعُ الْأُمَّةِ وَحَاجَتُها إِلَىٰ مَنْهَجٍ عَمَلِيٍّ لِلنُّهُوضِ

إِنَّ أَخطَـرَ عَصرٍ تُواجِهُهُ الأُمَـمُ هُـوَ عَصْـرُ الانتِقَـالِ وَالتكْويـنِ، وَيُـركِّز الإمَـامُ البنَّـا عَلَـىٰ قضيـةٍ مُهمّـةٍ يَنسـاهَا كَثِيـرٌ مِـنَ النّـاسِ وَهُـمْ يُريـدُونَ النهُـوضَ بِأُمتِهِـمْ، وَهِـيَ **الاسـتِقْلالُ الرُّوحِـيُّ وَالفِكْـرِيُّ قَبـلَ الاسـتِقْلَالِ السِّيَاسِـيِّ وَالعَسْـكَرِيِّ**. فَعَلَـىٰ الأُمّـةِ التِـي تُريـدُ أَنْ تَنهَـضَ وَتَـتحوَّلَ مِـنْ طَـورٍ إِلَـىٰ طَـورٍ أَنْ تَهتَـمَّ أَوّلَ مَـا تَهتَـمُّ بِالاستقلَالِ الفِكـرِيِّ وَالرُّوحِـيِّ أَوَّلًا. وَمِـنَ المُثُـلِ الشَّـاهِدَةِ عَلَـىٰ ذَلِـكَ **الْحَمْلَـةُ الْفَرَنْسِـيَّةُ** عَلَـىٰ مِصْـرَ (1798م)، فَقَـدْ خَلَّفَـتْ تِلـكَ الحَمْلَـةُ مِـنَ الآثَـارِ النفْسِـيّةِ مَـا جَعَـلَ خُرُوجَهَـا مِـنْ مِصْـرَ خُرُوجًـا غيـرَ حَقيقـيٍّ كَمـا يُشـيرُ إِلـىٰ ذلـكَ الدكتُـورُ مُحمَّـد مُحمَّـد حُسَـيْن[36] . فَقـدْ كَانَـتْ مِصْـرُ فِـي أَسْـوَأِ حَالاتِهَـا الفِكريّـةِ وَالرُّوحيّـةِ وَالسِّيَاسـيةِ وَالعَسـكَرِيّةِ، وَلِأَنَّهَـا وَاجَهـتِ الحَملـةَ الفَرنسـيّةِ وَهِـيَ عَلَـىٰ تِلْـكَ الحَـالِ، فَقَـدْ انْبهَـرَتْ بِتِلْـكَ الحَمْلَـةِ انْبِهَـارًا شَـدِيدًا، مَـا زَالَـتْ آثَـارُهُ مُمتَـدَّةً لَـدَىٰ بَعـضِ المُثقَّفِيـنَ حَتَّـىٰ الآنِ.

وَقَـدْ عَبَّـرَ الْإِمَـامُ الْبَنَّـا عَـنْ هَـذَا الـدَّاءِ بِقَوْلِـهِ: «الْإِعْجَـابُ بِالْخَصْـمِ إِعْجَابًـا يُـؤَدِّي إِلَـىٰ تَقْلِيـدِهِ فِـي كُلِّ مَـا صَـدَرَ عَنْـهُ، وَبِخَاصَّـةٍ فِـي سَـيِّئَاتِ أَعْمَالِـهِ»[37].

وَسَـاعَدَ عَلَـىٰ ذَلِـكَ قُـوةُ السِّـلاحِ مِـنْ نَاحِيـةٍ، وَالتنْظِيـمُ الإِدَارِيُّ مِـنْ نَاحِيَـةٍ ثَانِيـةٍ، وَالفتـوحُ العِلميـةُ والإنجَـازُ الحَضـارِيُّ مِـنْ نَاحِيَـةٍ ثَالثـةٍ[38].

---

(36) كتاب: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر.

(37) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: دعوتنا]، ص 149.

(38) ظَـلَّ النفُـوذُ الفِكْـرِيُّ الفَرنسِـيُّ يَتسـلَّلُ إِلَـىٰ مِصْـرَ، وَيَستَشْـرِي خَاصَّـةً فِـي الطبقَـاتِ العُليَـا مِـنَ الأُمَـرَاءِ وَأَشْـبَاهِهِمْ، حَتَّـىٰ كَانَ الخِديـوِي إِسـمَاعِيلُ الَّـذِي رُبِّـيَ فِـي فَرنْسَـا وَاستُدْعِيَ لِحُكْـمِ مِصْـرَ هُنـاكَ وَلَمَّـا يُكْمِـلْ تَعلِيمَـهُ فِيهَـا، وَقَـدْ عَـادَ هَـذَا الغُلامُ مِـنْ بَارِيـسَ، وَقَـد ذَابَـتْ تَمامًـا كُلُّ حَـرارةٍ لِلإِسْلام فِـي صَـدْرِهِ وَصَاغَتْـهُ صَالُونـاتُ بَارِيـسَ، وَصَداقَاتـهِ لِرِجَالِهَـا وَنِسَـائِهَا صِياغـةً جَديـدةً غَرِيبـةً عَـنِ الأُمَّـةِ حَتَّـىٰ ابتُلِيَـتْ بِحُكْمِـهِ. وَنَستَطِيعُ أَنْ نَقُـولَ إِنَّ المُـدَّةَ الَّتِي حَكَمَهَـا هَـذَا الشَّـابُ السَّـفِيهُ (1863 – 1879م) كَانَـتْ مِـنْ أَخْطَـرِ المَراحِلِ فِـي تَـدْمِيرِ الشَّـخْصِيّةِ الإِسْلَامِيّـةِ وَإِذَابَتِهَـا وَحَـلِّ عُرْوَتِهَـا وَهَـدْمِ شَـرِيعَةِ الإِسْلَامِ جُملـةً هَدْمًـا غَيـرَ مَسْـبُوقٍ فِـي تَارِيخِهَـا. انظر د. عبد الستار فتح الله، ضمن المرجع السابق: **الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام**، ص 204.

إِنَّ أَخْطَرَ مَا فِي عَصْرِ الِانْتِقَالِ وَالتَّكْوِينِ الَّذِي تَمُرُّ بِهِ الْأُمَمُ أَنْ يَتَجَاذَبَهَا اتِّجَاهَانِ فِي مُحَاوَلَةِ النُّهُوضِ: الِاتِّجَاهُ الدِّينِيُّ، وَالِاتِّجَاهُ التَّغْرِيبِيُّ (العَلْمَانِيُّ).

وَقَدْ أَشَرْنَا إِلَىٰ **الِاتِّجَاهِ التَّغْرِيبِيِّ**، أَمَّا **الِاتِّجَاهُ الدِّينِيُّ**، فَقَدْ كَانَ هُنَاكَ مَنْ حَافَظَ عَلَىٰ صِلَةِ الْأُمَّةِ بِدِينِهَا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُحْسِنْ دَائِمًا تَحْوِيلَ مَعَانِي الدِّينِ إِلَىٰ حَرَكَةِ إِصْلَاحٍ وَنُهُوضٍ[39].

وَفِي هَؤُلَاءِ يَصْدُقُ قَوْلُ الشَّيخ مُحمَّد عَبْدُه حِينَ صَوَّرَ آفَةَ الدِّينِ - بَعدَ زَمَنِ الأنبيَاءِ وَانْقِضَاءِ عَهدِهِمْ - بِأنّهَا تَتمثَّلُ فِي عِدَّةِ أُمُورٍ هِيَ: «وُقُوعُ الدّينِ فِي أَيْدِي مَنْ لَا يَفهَمُهُ، أَوْ يَفهَمُهُ وَيَغْلُو فِيهِ، أَوْلَا يَغْلُو فِيهِ وَلَكِنْ لَمْ يَمتَزِجْ حُبُّهُ بِقَلْبِه، أَوِ امتزَجَ بِقَلْبِه حُبُّ الدّين وَلَكِنْ ضَاقَتْ سَعةُ عَقلِهِ عَنْ تَصريفِهِ تَصريفَ الأَنبيَاءِ أَنْفُسِهِمْ أَوِ الْخِيرَةِ مِنْ تَبَعَتِهِمْ»[40].

الذِينَ تَصوَّرُوا أَنَّ الوَحْيَ الشَّرِيفَ نَزلَ مَرةً وَاحِدَةً وَلِلأبدِ، وَأَنَّ القُرآنَ فُسِّرَ مَرةً وَاحدَةً وَلِلأبَدِ؛ وَلِذَلِكَ وَقفُوا أَمَامَ تِلكَ النصُوصِ وَقَدْ تَنَاهَتْ، وَالأَحدَاثِ الّتِي لَا تَتنَاهَىٰ، وُقُوفَ الجَامِدِ العَاجِزِ الّذِي لَا يَستَطِيعُ التَّصرُّفَ، بِسَبَبِ هَذِهِ الكآبَةِ وَالجُمودِ. فاحتفَظُوا لِلأمّةِ بِصِلَتِهَا بِالقُرآنِ، لكنَّهَا لَا تَستَطِيعُ أَنْ تَصُوغَ حَياتَهَا عَلَىٰ أَسَاسِهِ.

فَظَلَّتِ الْأُمَّةُ بَيْنَ اتِّجَاهٍ يَرْبِطُهَا بِتُرَاثِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنَزِّلَهُ عَلَىٰ وَاقِعِهَا، وَاتِّجَاهٍ يَدْعُوهَا إِلَىٰ النَّهْضَةِ بِعِيدًا عَنْ دِينِهَا وَهُوِيَّتِهَا. وَفِي هَذِهِ الْبِيئَةِ جَاءَ مَشْرُوعُ الْإِمَامِ الْبَنَّا؛ لِيُقَدِّمَ طَرِيقًا ثَالِثًا يَجْمَعُ بَيْنَ الْأَصَالَةِ وَالْفَاعِلِيَّةِ، وَبَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ، وَيَرَىٰ أَنَّ النَّهْضَةَ لَا تَبْدَأُ بِالشِّعَارَاتِ، وَلَا بِتَقْلِيدِ الْغَيْرِ، وَإِنَّمَا تَبْدَأُ بِتَكْوِينِ الْإِنْسَانِ وَتَرْبِيَةِ الْأُمَّةِ وَإِنْشَاءِ الْعَمَلِ الْمُنَظَّمِ.

(39) أَشَرْنَا إِلَىٰ مَا حَكَاهُ الْإِمَامُ الْبَنَّا فِي مُذَكِّرَاتِهِ مِنْ قِصَّتِهِ مَعَ الشَّيْخَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ: الشَّيْخِ يُوسُفَ الدَّجْوِيِّ، وَالشَّيْخِ عَبْدِ الْوَهَّابِ الدَّنْدَرَاوِيِّ، وَإِلَىٰ الْجُهُودِ الَّتِي بَذَلَهَا مَعَهُمَا، وَكَانَ لَهَا أَثَرٌ فِي تَغْيِيرِ نَظَرَتِهِمَا إِلَىٰ دَوْرِ الْإِسْلَامِ فِي نَهْضَةِ الْأُمَّةِ؛ بِالِانْتِقَالِ مِنْ مُجَرَّدِ الْوَعْظِ إِلَىٰ التَّعَهُّدِ وَالرِّعَايَةِ وَالتَّرْبِيَةِ، وَحَثِّ النَّاسِ عَلَىٰ الْعَمَلِ لِلْإِسْلَامِ. **وَقَدْ سَبَقَ تَفْصِيلُ ذَلِكَ فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ «فِي ظِلَالِ رِسَالَةِ التَّعَالِيمِ»، فَلْيُرَاجَعْ فِي مَوْضِعِهِ.**

(40) محمد عبده: **رسالة التوحيد**، تحقيق د. محمد عمارة، ط 1، دار الشروق، القاهرة، 1414هـ - 1994م، ص 114.

لَقَدْ نَجحَ الإمَامُ البنَّا رَحِمهُ اللهُ فِيمَا أَخفَقَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنْ رِجَالِ الدِّينِ، حَيثُ كَانَ حَسَنُ البنَّا – كَمَا يَقُولُ رُوبير جَاكسُون – «الدَّاعيةَ الأَوَّلَ فِي الشَّرْقِ الذِي قدَّمَ لِلنَّاسِ برنَامَجًا مَدرُوسًا كَامِلًا، لَمْ يَفعَلْ ذَلِكَ أَحَدٌ قَبلَهُ، لَمْ يَفعَلْهُ جَمالُ الدِّينِ وَلا مُحمَّدُ عَبدُه، وَلَمْ يَفعَلْهُ زُعماءُ الأحزَابِ وَالجماعَاتِ الذِينَ لَمَعَتْ أَسماؤُهُمْ بَعدَ الحَربِ العَالَمِيّةِ الأُولَىٰ... وَأَستَطِيعُ بِناءً علَىٰ دِرَاسَاتِي الوَاسِعَةِ أَنْ أَقُولَ: إِنَّ حَياةَ الرَّجُلِ وتَصرفَاتِه كَانَتْ تَطبِيقًا صَادِقًا لِلمبَادِئِ التِي نَادَىٰ بِهَا. وقَد مَنحَهُ (الإِسلَامُ) كَمَا كَانَ يَفْهَمُهُ وَيدعُو إِلَيهِ، حُلَّةً متألقةً، قويةَ الأثرِ في النفُوسِ، لَمْ تُتَحْ لزعمَاءِ السِّيَاسَةِ وَلا لِرِجَالِ الدِّينِ»[41].

أَوْ كَمَا يصفُ الأستاذُ أَبُو الحَسَنِ النَّدوِيّ الإِمَامَ البنَّا فيقُولُ: «إِنَّمَا هُوَ مِنْ صُنْعِ التَّوفِيقِ وَالحِكْمَةِ الإِلهيّةِ وَالعِنَايَةِ بِهَذَا الدِّينِ وَبِهَذِهِ الأُمَّةِ، وَالغَرْسِ الكَرِيمِ الذِي يُهيَّأُ لأَمْرٍ عَظِيمٍ وَلأَملٍ عَظِيمٍ فِي زَمَنٍ تَشتَدُّ إِلَيهِ حَاجتُه وَفِي بِيئَةٍ تَعظُمُ فِيهَا قِيمَتُهُ»[42].

لقد جَاءَتْ رِسَالَةُ «هَلْ نَحْنُ قَوْمٌ عَمَلِيُّونَ؟»؛ لِتُجِيبَ عَنْ سُؤَالِ الْوَسِيلَةِ، وَتُبَيِّنَ كَيْفَ تَتَحَوَّلُ الْفِكْرَةُ إِلَىٰ رِجَالٍ وَمُؤَسَّسَاتٍ وَأَعْمَالٍ.

## أَوَّلًا: مَعْنَىٰ الْعَمَلِ وَأَصْنَافُ السَّائِلِينَ عَنْهُ

لَمْ يَكُنْ سُؤَالُ: «هَلْ نَحْنُ قَوْمٌ عَمَلِيُّونَ؟» سُؤَالًا عَابِرًا؛ لِأَنَّهُ يَكْشِفُ عَنْ مَوْقِفِ السَّائِلِ مِنَ الدَّعْوَةِ وَمِنْ وَاجِبِهِ نَحْوَهَا. فَقَدْ يَصْدُرُ السُّؤَالُ عَنْ مُخْلِصٍ غَيُورٍ يَبْحَثُ عَنْ طَرِيقِ الْعَمَلِ، وَيُرِيدُ أَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ يُسْهِمُ فِي نَهْضَةِ أُمَّتِهِ، وَقَدْ يَصْدُرُ عَنْ مُتَرَدِّدٍ أَوْ مُتَهَكِّمٍ يَتَّخِذُهُ سِتَارًا لِلْقُعُودِ وَالتَّخَلُّصِ مِنَ الْمَسْؤُولِيَّةِ.

وَقَدْ تَوَجَّهَ الْإِمَامُ الْبَنَّا بِخِطَابِهِ إِلَىٰ الْغَيُورِينَ مِنْ أَبْنَاءِ الْإِسْلَامِ، الَّذِينَ لَا يَقِفُونَ عِنْدَ حُدُودِ السُّؤَالِ وَالِانْتِقَادِ، بَلْ يَبْحَثُونَ عَنْ وَاجِبِهِمُ الْعَمَلِيِّ، وَيُدْرِكُونَ أَنَّ النَّهْضَةَ لَا

(41) روبير جاكسون: **حسن البنا (الرجل القرآني)**، ترجمة أنور الجندي، ط 1، المختار الإسلامي للطباعة والنشر، القاهرة، 1397هـ – 1977م، ص 10.
(42) من مقدمة الأستاذ أبي الحسن الندوي لكتاب **مذكرات الدعوة والداعية**، ص 15.

تُصْنَعُ بِالْأَمَانِيِّ، وَلَا بِإِلْقَاءِ الْعِبْءِ عَلَىٰ غَيْرِهِمْ، وَإِنَّمَا تَبْدَأُ مِنَ الْفَرْدِ الَّذِي يَعْرِفُ دَوْرَهُ، وَيُؤَدِّي وَاجِبَهُ، وَيَضَعُ جُهْدَهُ إِلَىٰ جَانِبِ جُهُودِ غَيْرِهِ.

فَالْجَمَاعَةُ لَيْسَتْ كِيَانًا مُنْفَصِلًا عَنْ أَفْرَادِهَا، وَلَا جِهَةً يُنْتَظَرُ مِنْهَا أَنْ تَعْمَلَ وَحْدَهَا، بَلْ هِيَ مَجْمُوعُ أَفْرَادٍ آمَنُوا بِفِكْرَةٍ، وَانْتَظَمُوا فِي سَبِيلِهَا، وَتَعَاوَنُوا عَلَىٰ تَحْوِيلِهَا إِلَىٰ وَاقِعٍ. وَمِنْ هُنَا كَانَ السُّؤَالُ الْحَقِيقِيُّ لَيْسَ: مَاذَا فَعَلَتِ الْجَمَاعَةُ؟ فَحَسْبُ، بَلْ: مَاذَا فَعَلَ كُلُّ فَرْدٍ فِيهَا لِتَقْوَىٰ الْجَمَاعَةُ وَتُؤَدِّيَ رِسَالَتَهَا؟

وَهُنَا يَنْقُلُكَ الْإِمَامُ الْبَنَّا مِنْ مَوْقِفِ الْمُتَفَرِّجِ الَّذِي يَنْتَظِرُ النَّتَائِجَ، إِلَىٰ مَوْقِفِ الْعَامِلِ الَّذِي يَشْتَرِكُ فِي صُنْعِهَا؛ فَالْعَمَلُ عِنْدَهُ لَيْسَ شِعَارًا، وَلَا انْفِعَالًا عَابِرًا، وَإِنَّمَا هُوَ شُعُورٌ بِالْمَسْؤُولِيَّةِ، وَمُبَادَرَةٌ، وَمُشَارَكَةٌ فِي جُهْدٍ جَمَاعِيٍّ مُنَظَّمٍ.

## ثَانِيًا: الْمُؤَسَّسَاتُ وَالْمَشْرُوعَاتُ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الْعَمَلِ

لَمْ يَكْتَفِ الْإِمَامُ الْبَنَّا بِالْحَدِيثِ عَنِ الْعَمَلِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، بَلْ أَقَامَ الدَّلِيلَ عَلَىٰ عَمَلِيَّةِ دَعْوَةِ الْإِخْوَانِ بِمَا أَنْشَأَتْهُ مِنْ مُؤَسَّسَاتٍ، وَمَا أَقَامَتْهُ مِنْ مَشْرُوعَاتٍ تَعْلِيمِيَّةٍ وَاجْتِمَاعِيَّةٍ وَخَيْرِيَّةٍ وَدَعَوِيَّةٍ. فَقَدْ أَنْشَأَتِ الْمَسَاجِدَ وَالْمَدَارِسَ وَالْأَنْدِيَةَ، وَأَقَامَتْ دُورَ الصِّنَاعَةِ وَمَكَاتِبَ تَحْفِيظِ الْقُرْآنِ، وَأَسْهَمَتْ فِي الْمُصَالَحَاتِ بَيْنَ النَّاسِ، وَجَمْعِ الصَّدَقَاتِ، وَإِغَاثَةِ الْمُحْتَاجِينَ، وَالْوَعْظِ وَالْإِرْشَادِ، وَخِدْمَةِ الْمَرَافِقِ الْعَامَّةِ، وَمُقَاوَمَةِ الْعَادَاتِ الضَّارَّةِ.

وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْأَعْمَالُ مُجَرَّدَ مَظَاهِرَ شَكْلِيَّةٍ، بَلْ كَانَتْ تَعْبِيرًا عَنْ فَهْمٍ شَامِلٍ لِلْإِسْلَامِ، يَرَىٰ أَنَّ الدَّعْوَةَ لَا تَنْحَصِرُ فِي الْكَلِمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ، وَإِنَّمَا تَتَجَاوَزُهُمَا إِلَىٰ خِدْمَةِ الْمُجْتَمَعِ، وَعِلَاجِ مُشْكِلَاتِهِ، وَالِاسْتِجَابَةِ لِحَاجَاتِ أَفْرَادِهِ. فَالْمَسْجِدُ لِلْعِبَادَةِ وَالتَّرْبِيَةِ، وَالْمَدْرَسَةُ لِلتَّعْلِيمِ، وَدَارُ الصِّنَاعَةِ لِلتَّدْرِيبِ وَتَحْسِينِ أَسْبَابِ الْمَعِيشَةِ، وَالْمُصَالَحَاتُ لِحِفْظِ وَحْدَةِ الْمُجْتَمَعِ، وَالْمَشْرُوعَاتُ الْخَيْرِيَّةُ لِتَحْقِيقِ التَّكَافُلِ بَيْنَ أَبْنَائِهِ.

وَقَدْ احْتَاجَتْ هَذِهِ الْمَشْرُوعَاتُ إِلَىٰ الْمَالِ وَالْجُهْدِ وَالْوَقْتِ وَالتَّضْحِيَةِ، فَكَانَتْ

شَاهِدًا عَلَىٰ أَنَّ الْإِخْوَانَ لَمْ يَكُونُوا جَمَاعَةَ خُطَبٍ وَشِعَارَاتٍ، بَلْ كَانُوا يَسْعَوْنَ إِلَىٰ تَحْوِيلِ الْمَبَادِئِ إِلَىٰ أَعْمَالٍ مَحْسُوسَةٍ، وَإِلَىٰ نَقْلِ الدَّعْوَةِ مِنْ دَائِرَةِ الْقَوْلِ إِلَىٰ مَيْدَانِ الْفِعْلِ.

غَيْرَ أَنَّ الْإِمَامَ الْبَنَّا لَمْ يَجْعَلْ كَثْرَةَ الْمُؤَسَّسَاتِ وَالْمَشْرُوعَاتِ هِيَ الْمِيزَانَ الْوَحِيدَ لِلْعَمَلِ؛ لِأَنَّ الْمَبَانِيَ وَالْمُؤَسَّسَاتِ قَدْ تُقَامُ، ثُمَّ تَضْعُفُ أَوْ تَنْحَرِفُ إِذَا لَمْ يَقُمْ عَلَيْهَا رِجَالٌ أَصْحَابُ عَقِيدَةٍ وَخُلُقٍ وَكِفَايَةٍ. وَمِنْ هُنَا انْتَقَلَ مِنَ الْحَدِيثِ عَنِ الْمَشْرُوعَاتِ إِلَىٰ الْحَدِيثِ عَنْ أَصْلٍ أَعْمَقَ، هُوَ إِعْدَادُ الرِّجَالِ.

## ثَالِثًا: إِعْدَادُ الرِّجَالِ أَسَاسُ النَّهْضَةِ

لَمْ يَقِفِ الْإِمَامُ الْبَنَّا عِنْدَ حَدِّ إِنْشَاءِ الْمُؤَسَّسَاتِ وَإِقَامَةِ الْمَشْرُوعَاتِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يُدْرِكُ أَنَّ الْمُؤَسَّسَاتِ لَا تَنْهَضُ بِنَفْسِهَا، وَأَنَّ قِيمَتَهَا الْحَقِيقِيَّةَ تَرْتَبِطُ بِقِيمَةِ الرِّجَالِ الَّذِينَ يَقُومُونَ عَلَيْهَا، وَيَحْمِلُونَ رِسَالَتَهَا، وَيَحْفَظُونَ مَقَاصِدَهَا.

وَلِهَذَا انْتَقَلَ الْإِمَامُ مِنَ الْحَدِيثِ عَنِ الْمَشْرُوعَاتِ وَالْمُؤَسَّسَاتِ إِلَىٰ بِنَاءٍ أَعْمَقَ، فَقَالَ: «وَلَكِنَّ الْأُمَمَ الْمُجَاهِدَةَ الَّتِي تُوَاجِهُ نَهْضَةً جَدِيدَةً، وَتَجْتَازُ دَوْرَ انْتِقَالٍ خَطِيرٍ، وَتُرِيدُ أَنْ تَبْنِيَ حَيَاتَهَا الْمُسْتَقْبَلَةَ عَلَىٰ أَسَاسٍ مَتِينٍ، فِي مَسِيسِ الْحَاجَةِ إِلَىٰ بِنَاءِ النُّفُوسِ، وَتَشْيِيدِ الْأَخْلَاقِ، وَطَبْعِ أَبْنَائِهَا عَلَىٰ خُلُقِ الرُّجُولَةِ الصَّحِيحَةِ؛ حَتَّىٰ يَصْمُدُوا لِمَا يَقِفُ فِي طَرِيقِهِمْ مِنْ عَقَبَاتٍ، وَيَتَغَلَّبُوا عَلَىٰ مَا يَعْتَرِضُهُمْ مِنْ مَصَاعِبَ»[43].

فَالْبِنَاءُ الَّذِي تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْأُمَّةُ لَيْسَ بِنَاءَ الْجُدْرَانِ وَحْدَهَا، بَلْ بِنَاءَ النُّفُوسِ الَّتِي تَعْمُرُهَا، وَتُحْسِنُ إِدَارَتَهَا، وَتُوَجِّهُهَا نَحْوَ غَايَتِهَا. وَقَدْ تُقَامُ الْمَدَارِسُ وَالْجَمْعِيَّاتُ، وَتُرْصَدُ لَهَا الْأَمْوَالُ، وَلَكِنَّهَا تَظَلُّ عَاجِزَةً عَنِ الْإِصْلَاحِ إِذَا لَمْ يَقُمْ عَلَيْهَا إِنْسَانٌ صَالِحٌ، وَاعٍ، مُخْلِصٌ، قَادِرٌ عَلَىٰ حَمْلِ الْمَسْؤُولِيَّةِ.

ثُمَّ يُبَيِّنُ الْإِمَامُ مَكَانَةَ الرَّجُلِ فِي حَيَاةِ الْأُمَمِ، فَيَقُولُ: «إِنَّ الرَّجُلَ سِرُّ حَيَاةِ الْأُمَمِ

(43) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا** [رسالة: هل نحن قوم عمليون؟]. ص 85.

وَمَصْدَرُ نَهْضَتِهَا، وَإِنَّ قُوَّةَ الْأُمَمِ أَوْ ضَعْفَهَا تُقَاسُ بِخُصُوبَتِهَا فِي إِنْتَاجِ الرِّجَالِ الَّذِينَ تَتَوَافَرُ فِيهِمْ شَرَائِطُ الرُّجُولَةِ»(44).

وَالْمَقْصُودُ بِإِنْتَاجِ الرِّجَالِ لَيْسَ مُجَرَّدَ زِيَادَةِ الْعَدَدِ، وَلَا التَّمَيُّزَ الْجِسْمِيَّ، بَلْ تَكْوِينُ الشَّخْصِيَّةِ الَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ صِحَّةِ الْعَقِيدَةِ، وَقُوَّةِ الْخُلُقِ، وَوُضُوحِ الْفِكْرِ، وَثَبَاتِ الْإِرَادَةِ، وَالْقُدْرَةِ عَلَىٰ الْعَمَلِ وَالتَّضْحِيَةِ.

وَلَا يَقِفُ أَثَرُ الرَّجُلِ الصَّالِحِ عِنْدَ ذَاتِهِ، بَلْ يَمْتَدُّ إِلَىٰ مَنْ حَوْلَهُ؛ فَهُوَ يَبْنِي بِفِكْرِهِ وَخُلُقِهِ وَقُدْوَتِهِ، وَقَدْ تَتَّسِعُ دَائِرَةُ أَثَرِهِ حَتَّىٰ تَشْمَلَ أُمَّةً كَامِلَةً. وَهُنَا يَظْهَرُ الْفَرْقُ بَيْنَ قُوَّةِ تَهْدِمُ وَقُوَّةٍ تَبْنِي؛ فَالْهَدْمُ قَدْ يَحْتَاجُ إِلَىٰ لَحْظَةٍ، أَمَّا الْبِنَاءُ فَيَحْتَاجُ إِلَىٰ عِلْمٍ وَصَبْرٍ وَتَدَرُّجٍ وَنَفَسٍ طَوِيلٍ.

وَمِنْ هُنَا لَمْ يَكُنْ غَرَضُ الْإِخْوَانِ مُجَرَّدَ جَمْعِ الْأَنْصَارِ، بَلْ تَرْبِيَةَ النُّفُوسِ، وَتَجْدِيدَ الْأَرْوَاحِ، وَتَقْوِيَةَ الْأَخْلَاقِ، وَتَنْمِيَةَ الرُّجُولَةِ الصَّحِيحَةِ. فَالْعَمَلُ الْحَقِيقِيُّ لَا يُقَاسُ بِكَثْرَةِ الْمَبَانِي وَالْأَنْشِطَةِ فَقَطْ، بَلْ بِقُدْرَةِ الدَّعْوَةِ عَلَىٰ إِخْرَاجِ الْإِنْسَانِ الَّذِي يَحْمِلُ الْمَبْدَأَ فِي قَلْبِهِ، وَيُحَوِّلُهُ إِلَىٰ سُلُوكٍ فِي حَيَاتِهِ، وَعَمَلٍ نَافِعٍ فِي مُجْتَمَعِهِ.

وَإِذَا كَانَ إِعْدَادُ الرِّجَالِ هُوَ أَسَاسَ النَّهْضَةِ، فَبِأَيِّ وَسِيلَةٍ تُرَبَّىٰ هَذِهِ النُّفُوسُ، وَتُبْنَىٰ هَذِهِ الشَّخْصِيَّاتُ؟

## رَابِعًا: الدِّينُ وَسِيلَةُ التَّرْبِيَةِ وَبِنَاءِ النُّفُوسِ

بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ الْإِمَامُ الْبَنَّا أَنَّ إِعْدَادَ الرِّجَالِ هُوَ أَسَاسُ النَّهْضَةِ، انْتَقَلَ إِلَىٰ تَحْدِيدِ الْوَسِيلَةِ الَّتِي تُبْنَىٰ بِهَا النُّفُوسُ، وَتُجَدَّدُ بِهَا الْأَرْوَاحُ، وَتَقْوَىٰ بِهَا الْأَخْلَاقُ. وَقَدْ نَظَرَ فِي الْوَسَائِلِ الَّتِي دَعَا إِلَيْهَا الْمُصْلِحُونَ، كَالْعِلْمِ وَالثَّقَافَةِ وَالْأَدَبِ وَالسِّيَاسَةِ، فَوَجَدَ أَنَّ **الدِّينَ** هُوَ أَسْلَمُ طَرَائِقِ الْوُصُولِ وَأَصْوَبُهَا. يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَنَّا: «قَدْ عَلِمْتَ، أَيُّهَا الْقَارِئُ الْكَرِيمُ، أَنَّ الْإِخْوَانَ الْمُسْلِمِينَ يَقْصِدُونَ أَوَّلَ مَا يَقْصِدُونَ إِلَىٰ تَرْبِيَةِ النُّفُوسِ،

(44) السابق: الصفحة نفسها.

وَتَجْدِيدِ الْأَرْوَاحِ، وَتَقْوِيَةِ الْأَخْلَاقِ، وَتَنْمِيَةِ الرُّجُولَةِ الصَّحِيحَةِ فِي نُفُوسِ الْأُمَّةِ، وَقَدْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْأَسَاسُ الْأَوَّلُ الَّذِي تُبْنَىٰ عَلَيْهِ نَهَضَاتُ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ. وَقَدِ اسْتَعْرَضُوا وَسَائِلَ ذَلِكَ وَطَرَائِقَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَقْرَبَ وَلَا أَجْدَىٰ مِنَ الْفِكْرَةِ الدِّينِيَّةِ، وَالِاسْتِمْسَاكِ بِأَهْدَابِ الدِّينِ»[45].

ثُمَّ قَالَ: «وَرَأَوْا إِلَىٰ جَانِبِ هَذَا أَنَّ الدِّينَ الإِسْلَامِيَّ جَمَعَ مَحَاسِنَ كُلِّ هَذِهِ الْوَسَائِلِ، وَبَعُدَ عَنْ مَسَاوِئِهَا؛ فَاطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ نُفُوسُهُمْ، وَانْشَرَحَتْ بِهِ صُدُورُهُمْ، وَكَانَ أَوَّلَ وَسَائِلِهِمُ الْعَمَلِيَّةِ فِي تَطْهِيرِ النُّفُوسِ وَتَجْدِيدِ الْأَرْوَاحِ»[46].

فَالدِّينُ فِي مَنْهَجِ الْإِمَامِ الْبَنَّا لَيْسَ مَجْمُوعَةً مِنَ الْمَعْلُومَاتِ تُحْفَظُ، وَلَا شَعَائِرَ تُؤَدَّىٰ بِمَعْزِلٍ عَنْ أَثَرِهَا فِي الْحَيَاةِ؛ بَلْ هُوَ قُوَّةٌ تُحْيِي الضَّمِيرَ، وَتُوقِظُ الشُّعُورَ، وَتَجْعَلُ مَعَ الْإِنْسَانِ رَقِيبًا دَاخِلِيًّا يَدْفَعُهُ إِلَىٰ الْخَيْرِ، وَيَحْجُزُهُ عَنِ الشَّرِّ، فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ، وَفِي الْخَلْوَةِ وَالْمُجْتَمَعِ.

وَهُوَ كَذَلِكَ يَجْمَعُ فِي النَّفْسِ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ، وَيَرْبِطُ الْعَمَلَ بِالْجَزَاءِ الْأُخْرَوِيِّ، فَيَغْرِسُ فِيهَا الصِّدْقَ وَالْوَفَاءَ وَالْإِخْلَاصَ، وَيُهَيِّئُهَا لِلتَّضْحِيَةِ وَاحْتِمَالِ تَبِعَاتِ الْإِصْلَاحِ. وَبِهَذَا لَا يَبْقَىٰ الْإِيمَانُ مَعْنًىٰ سَاكِنًا فِي الْقَلْبِ، بَلْ يَتَحَوَّلُ إِلَىٰ خُلُقٍ وَسُلُوكٍ وَعَمَلٍ.

وَلَا يَعْنِي ذَلِكَ إِغْفَالَ قِيمَةِ الْعِلْمِ وَالثَّقَافَةِ وَالْأَدَبِ وَالسِّيَاسَةِ، وَلَكِنَّهَا لَا تَكْفِي وَحْدَهَا لِبِنَاءِ الضَّمِيرِ؛ إِذْ قَدْ يَمْلِكُ الْإِنْسَانُ الْعِلْمَ وَلَا يَمْلِكُ الْإِرَادَةَ الَّتِي تَحْمِلُهُ عَلَىٰ الْعَمَلِ بِهِ، وَقَدْ يَعْرِفُ الْخَيْرَ وَلَا يَبْذُلُ فِي سَبِيلِهِ. أَمَّا الدِّينُ فَيَصِلُ بَيْنَ الْمَعْرِفَةِ وَالْعَمَلِ، وَبَيْنَ الْمَبْدَإِ وَالِالْتِزَامِ، وَبَيْنَ الْإِصْلَاحِ الظَّاهِرِ وَتَزْكِيَةِ الْبَاطِنِ.

وَعَلَىٰ هَذَا الْأَسَاسِ جَعَلَ الْإِخْوَانُ الْعَقِيدَةَ وَالْعَمَلَ بِمُقْتَضَيَاتِهَا أَوَّلَ وَسَائِلِهِمُ الْعَمَلِيَّةِ فِي تَرْبِيَةِ النُّفُوسِ وَتَقْوِيمِ الْأَخْلَاقِ؛ فَلَيْسَتِ الْعَقِيدَةُ نُصُوصًا تُحْفَظُ فَقَطْ، بَلْ عَهْدٌ يَلْتَزِمُهُ الْمُسْلِمُ، وَتَظْهَرُ آثَارُهُ فِي سُلُوكِهِ وَعَلَاقَاتِهِ وَعَمَلِهِ.

(45) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا** [رسالة: هل نحن قوم عمليون؟]. ص 89.
(46) السابق. ص 91.

ثُمَّ انْتَقَلَ الْإِمَامُ مِنَ الْحَدِيثِ عَنِ الدِّينِ بِوَصْفِهِ الْوَسِيلَةَ الْعَامَّةَ لِلتَّرْبِيَةِ، إِلَىٰ بَيَانِ مَيَادِينِهِ الْعَمَلِيَّةِ، فَبَدَأَ بِالصَّلَاةِ؛ لِأَنَّهَا تُصْلِحُ صِلَةَ الْعَبْدِ بِرَبِّهِ، وَتُزَكِّي قَلْبَهُ وَنَفْسَهُ.

## خَامِسًا: الصَّلَاةُ وَبِنَاءُ الصِّلَةِ بِاللهِ

إِذَا كَانَ الدِّينُ هُوَ الْوَسِيلَةَ الَّتِي اخْتَارَهَا الْإِمَامُ الْبَنَّا لِتَرْبِيَةِ النُّفُوسِ، فَأَيْنَ تَبْدَأُ هَذِهِ التَّرْبِيَةُ؟ إِنَّهَا تَبْدَأُ مِنَ الصَّلَاةِ؛ مِنْ هَذِهِ اللَّحَظَاتِ الَّتِي يَقِفُ فِيهَا الْعَبْدُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ، مُنْقَطِعًا عَنِ النَّاسِ، مُقْبِلًا عَلَىٰ اللهِ، يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَنَّا: «إِنَّ مَنْزِلَةَ الصَّلَاةِ مِنَ الْإِسْلَامِ مَنْزِلَةُ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ؛ فَهِيَ عِمَادُهُ وَدِعَامَتُهُ وَرُكْنُهُ وَشَعِيرَتُهُ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ قُرَّةُ الْعَيْنِ، وَرَاحَةُ الضَّمِيرِ، وَأُنْسُ النَّفْسِ، وَبَهْجَةُ الْقَلْبِ، وَالصِّلَةُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالرَّبِّ»[47].

تَأَمَّلْ هَذِهِ الْمَعَانِيَ: قُرَّةُ الْعَيْنِ، وَرَاحَةُ الضَّمِيرِ، وَأُنْسُ النَّفْسِ، وَبَهْجَةُ الْقَلْبِ. أَيْنَ هَذِهِ الْمَعَانِي مِنْ صَلَاةٍ يُؤَدِّيهَا صَاحِبُهَا مُسْرِعًا، لَا يَعِي مَا يَقُولُ، وَلَا يَشْعُرُ بَيْنَ يَدَيْ مَنْ يَقِفُ؟

لَيْسَتِ الصَّلَاةُ حَرَكَاتٍ نُؤَدِّيهَا لِنَفْرُغَ مِنْهَا، وَلَا عَادَةً وَرِثْنَاهَا عَنْ آبَائِنَا؛ إِنَّهَا مَوْعِدٌ لِتَجْدِيدِ الْإِيمَانِ، وَغَسْلِ الْقَلْبِ مِنْ غُبَارِ الْحَيَاةِ، وَاسْتِمْدَادِ الْقُوَّةِ عَلَىٰ مُوَاجَهَةِ مَشَقَّاتِ الطَّرِيقِ، وَلِذَلِكَ لَا يَكْفِي أَنْ نُصَلِّيَ؛ بَلْ لَا بُدَّ أَنْ نُحْسِنَ الصَّلَاةَ. فَجِسْمُهَا الْقِيَامُ وَالرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ، أَمَّا رُوحُهَا فَالْفَهْمُ وَالْخُشُوعُ وَحُضُورُ الْقَلْبِ. وَمَتَىٰ حَضَرَ الْقَلْبُ فِي الصَّلَاةِ، خَرَجَ الْمُسْلِمُ مِنْهَا بِقَلْبٍ أَنْقَىٰ، وَإِرَادَةٍ أَقْوَىٰ، وَنَفْسٍ أَبْعَدَ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ.

إِنَّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُصْلِحَ النَّاسَ، وَلَمْ يُصْلِحْ صِلَتَهُ بِاللهِ، سَرْعَانَ مَا يَنْقَطِعُ عَنِ الطَّرِيقِ؛ لِأَنَّ الْعَمَلَ لِلْإِسْلَامِ لَيْسَ حَمَاسًا عَابِرًا، بَلْ هُوَ صَبْرٌ وَمُجَاهَدَةٌ وَاحْتِمَالٌ، وَالصَّلَاةُ هِيَ الَّتِي تَمُدُّ الْعَامِلَ بِالْقُوَّةِ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا.

وَمِنْ هُنَا جَعَلَ الْإِمَامُ الْبَنَّا إِحْسَانَ الصَّلَاةِ أَوَّلَ الْخُطُوَاتِ الْعَمَلِيَّةِ. فَالْعَمَلِيَّةُ لَا تَبْدَأُ مِنْ كَثْرَةِ الْمَشْرُوعَاتِ فَقَطْ، بَلْ تَبْدَأُ مِنْ عَبْدٍ يُحْسِنُ الْوُقُوفَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ، ثُمَّ يَخْرُجُ

(47) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا [رسالة: هل نحن قوم عمليون؟]**. ص 92.

إِلَىٰ الْحَيَاةِ وَقَدْ امْتَلَأَ قَلْبُهُ إِيمَانًا، وَنَفْسُهُ عَزْمًا، وَسُلُوكُهُ اسْتِقَامَةً.

وَإِذَا كَانَتِ الصَّلَاةُ تُصْلِحُ مَا بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ تُصْلِحُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ.

## سَادِسًا: الزَّكَاةُ وَبِنَاءُ التَّكَافُلِ الِاجْتِمَاعِيِّ

إِذَا كَانَتِ الصَّلَاةُ تُصْلِحُ مَا بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ تُصْلِحُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ؛ فَهِيَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ مَالٍ يُخْرَجُ، بَلْ هِيَ تَرْبِيَةٌ لِلنَّفْسِ، وَتَطْهِيرٌ لِلْمَالِ، وَبِنَاءٌ لِمُجْتَمَعٍ يَشْعُرُ فِيهِ الْغَنِيُّ بِحَقِّ الْفَقِيرِ، وَيَشْعُرُ الْفَقِيرُ أَنَّهُ لَيْسَ مَنْسِيًّا وَلَا مَتْرُوكًا.

وَقَدْ قَرَّرَ الْإِمَامُ الْبَنَّا هَذَا الْمَعْنَىٰ فَقَالَ: «فَبِالصَّلَاةِ صَلَاحُ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ، وَبِالزَّكَاةِ صَلَاحُ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْخَلْقِ»(48).

تَأَمَّلْ هَذَا الْمِيزَانَ الدَّقِيقَ: عِبَادَةٌ تُرَبِّي فِي الْإِنْسَانِ صِلَتَهُ بِرَبِّهِ، وَعِبَادَةٌ تُرَبِّي فِيهِ صِلَتَهُ بِمُجْتَمَعِهِ. وَبِهَذَا لَا يَبْقَىٰ التَّدَيُّنُ شُعُورًا فَرْدِيًّا مُنْعَزِلًا، بَلْ يَتَحَوَّلُ إِلَىٰ رَحْمَةٍ وَبَذْلٍ وَتَكَافُلٍ. وَالزَّكَاةُ تُخْرِجُ الْإِنْسَانَ مِنْ أَسْرِ الْمَالِ؛ فَلَا يَعُودُ الْمَالُ مَالِكًا لَهُ، بَلْ يَصِيرُ وَسِيلَةً لِلْخَيْرِ. وَهِيَ تُعَوِّدُ النَّفْسَ السَّخَاءَ، وَتُعَالِجُ الشُّحَّ، وَتَنْزِعُ مِنَ الْقَلْبِ الْأَثَرَ الْخَفِيَّ لِلْأَنَانِيَّةِ وَالِاسْتِئْثَارِ.

إِنَّ الْمُجْتَمَعَ لَا يَسْتَقِيمُ إِذَا جَاعَ فِيهِ الْفَقِيرُ وَأَسْرَفَ فِيهِ الْغَنِيُّ، وَلَا إِذَا انْقَطَعَتْ فِيهِ صِلَةُ الرَّحْمَةِ بَيْنَ النَّاسِ. وَمِنْ هُنَا كَانَتِ الزَّكَاةُ فَرِيضَةً عِبَادِيَّةً وَنِظَامًا اجْتِمَاعِيًّا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ.

وَلِهَذَا لَمْ يَجْعَلِ الْإِمَامُ الْبَنَّا الْحَدِيثَ عَنِ الزَّكَاةِ وَعْظًا نَظَرِيًّا، بَلْ رَبَطَهَا بِالْعَمَلِ وَالتَّنْظِيمِ. فَقَدْ عَرَضَ تَجْرِبَةَ جَمْعِ الزَّكَاةِ وَتَوْزِيعِهَا فِي بَرْمَبَالَ، لِيُبَيِّنَ أَنَّ الْفَرِيضَةَ يُمْكِنُ أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَىٰ مَشْرُوعٍ عَمَلِيٍّ مُنَظَّمٍ، إِذَا وُجِدَتِ الثِّقَةُ، وَالطَّهَارَةُ، وَحُسْنُ التَّدْبِيرِ.

وَهُنَا تَظْهَرُ عَمَلِيَّةُ الْمَنْهَجِ بِوُضُوحٍ: لَا يَكْفِي أَنْ نُؤْمِنَ بِالزَّكَاةِ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ تُؤَدَّىٰ،

(48) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا** [رسالة: هل نحن قوم عمليون؟]. ص 96.

وَلَا يَكْفِي أَنْ تُؤَدَّىٰ فَرْدِيًّا فَقَطْ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ تُنَظَّمَ حَيْثُ أَمْكَنَ، حَتَّىٰ تَبْلُغَ مُسْتَحِقِّيهَا، وَتُحَقِّقَ غَايَتَهَا فِي التَّكَافُلِ وَالْإِصْلَاحِ.

فَالزَّكَاةُ فِي مَنْهَجِ الْإِمَامِ الْبَنَّا لَيْسَتْ شَعِيرَةً مَالِيَّةً فَقَطْ، بَلْ هِيَ تَرْبِيَةٌ لِلْفَرْدِ، وَحِمَايَةٌ لِلْمُجْتَمَعِ، وَتَدْرِيبٌ عَلَىٰ التَّنْظِيمِ، وَصُورَةٌ مِنْ صُوَرِ تَحْوِيلِ الْإِيمَانِ إِلَىٰ عَمَلٍ.

وَبَعْدَ أَنْ تَنَاوَلَ الْإِمَامُ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ، انْتَقَلَ إِلَىٰ مَعْنًىٰ أَوْسَعَ فِي الْبَذْلِ وَالْمُجَاهَدَةِ، فَتَحَدَّثَ عَنِ الْجِهَادِ بِوَصْفِهِ حَرَكَةَ قَلْبٍ وَفِكْرٍ وَعَمَلٍ وَتَضْحِيَةٍ.

## سَابِعًا: الْجِهَادُ مَفْهُومٌ شَامِلٌ لِلْبَذْلِ وَالْعَمَلِ

لَمْ يَعْرِضِ الْإِمَامُ الْبَنَّا الْجِهَادَ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ بِمَعْنًىٰ ضَيِّقٍ يَقْتَصِرُ عَلَىٰ الْقِتَالِ، بَلْ قَدَّمَهُ مَفْهُومًا شَامِلًا يَبْدَأُ مِنَ الْقَلْبِ، وَيَمْتَدُّ إِلَىٰ الْفِكْرِ، وَيَظْهَرُ فِي الْبَذْلِ وَالنُّصْحِ وَالْعَمَلِ.

فَالْجِهَادُ عِنْدَهُ يَبْدَأُ مِنْ عَاطِفَةٍ حَيَّةٍ تَتَأَلَّمُ لِحَالِ الْأُمَّةِ، وَتَغَارُ عَلَىٰ دِينِهَا وَكَرَامَتِهَا، وَلَا تَرْضَىٰ لَهَا الضَّعْفَ وَالْمَهَانَةَ. وَهَذِهِ الْعَاطِفَةُ لَيْسَتْ انْفِعَالًا عَابِرًا، بَلْ هِيَ الْبِدَايَةُ الَّتِي تَدْفَعُ صَاحِبَهَا إِلَىٰ الْفِكْرِ وَالْحَرَكَةِ.

ثُمَّ يَنْتَقِلُ الْجِهَادُ مِنَ الشُّعُورِ إِلَىٰ التَّفْكِيرِ الْجَادِّ؛ فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ حَزِنَ لِحَالِ الْمُسْلِمِينَ قَدْ أَدَّىٰ مَا عَلَيْهِ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَسْأَلَ نَفْسَهُ: مَا طَرِيقُ الْإِصْلَاحِ؟ وَمَا الْمَيْدَانُ الَّذِي أَسْتَطِيعُ أَنْ أَعْمَلَ فِيهِ؟ وَمَا الْجُهْدُ الَّذِي أَقْدِرُ عَلَىٰ تَقْدِيمِهِ؟

وَيُبَيِّنُ الْإِمَامُ هَذَا الِاتِّسَاعَ فِي الْمَعْنَىٰ فَيَقُولُ: «وَمِنَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ أَيُّهَا الْحَبِيبُ: أَنْ يَحْمِلَكَ هَذَا الْهَمُّ الدَّائِمُ وَالْجَوَىٰ اللَّاحِقُ عَلَىٰ التَّفْكِيرِ الْجِدِّيِّ فِي طَرِيقِ النَّجَاحِ وَتَلَمُّسِ سَبِيلِ الْخَلَاصِ»[49]. فَالْفِكْرُ الْجَادُّ فِي مَشْكِلَاتِ الْأُمَّةِ جُزْءٌ مِنَ الْجِهَادِ، مَا دَامَ يَقُودُ إِلَىٰ رُؤْيَةٍ وَعَمَلٍ، لَا إِلَىٰ الْجَدَلِ وَالْكَلَامِ الْمُجَرَّدِ.

(49) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا** [رسالة: هل نحن قوم عمليون؟]. ص 102.

وَمِنَ الْمَفَاهِيمِ الَّتِي أَبْرَزَهَا الْإِمَامُ كَذَلِكَ أَنَّ الْجِهَادَ قَدْ يَكُونُ بِالْوَقْتِ وَالْمَالِ وَالْجُهْدِ؛ فَمَنْ تَنَازَلَ عَنْ بَعْضِ رَاحَتِهِ، أَوْ أَنْفَقَ مِنْ مَالِهِ، أَوْ حَمَلَ عِبْئًا مِنْ أَعْبَاءِ الدَّعْوَةِ وَالْإِصْلَاحِ، فَهُوَ يُجَاهِدُ فِي مَيْدَانِهِ.

وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْمَعْنَىٰ أَيْضًا الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالنُّصْحُ، وَالدَّعْوَةُ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ. فَلَا يَقِفُ الْمُسْلِمُ مَوْقِفَ الْمُتَفَرِّجِ أَمَامَ الْفَسَادِ، وَلَا يَكْتَفِي بِإِنْكَارِهِ فِي نَفْسِهِ مَا دَامَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُسْهِمَ فِي إِصْلَاحِهِ.

وَبِهَذَا قَدَّمَ الْإِمَامُ الْبَنَّا الْجِهَادَ عَلَىٰ أَنَّهُ سُلَّمٌ مِنَ الْمَعَانِي وَالْأَعْمَالِ: يَبْدَأُ بِالِاهْتِمَامِ، ثُمَّ التَّفْكِيرِ، ثُمَّ الْبَذْلِ، ثُمَّ النُّصْحِ وَالدَّعْوَةِ، ثُمَّ يَبْلُغُ ذِرْوَتَهُ فِي الْقِتَالِ الْمَشْرُوعِ عِنْدَ تَحَقُّقِ شُرُوطِهِ وَأَسْبَابِهِ.

وَهُنَا تَظْهَرُ عَمَلِيَّةُ الْمَفْهُومِ؛ فَالْجِهَادُ لَيْسَ شِعَارًا بَعِيدًا عَنْ حَيَاةِ الْمُسْلِمِ، بَلْ وَاجِبٌ يَبْدَأُ مِمَّا يَقْدِرُ عَلَيْهِ كُلُّ فَرْدٍ فِي مَوْقِعِهِ. فَالْعَالِمُ يُجَاهِدُ بِعِلْمِهِ، وَالْمُرَبِّي بِتَرْبِيَتِهِ، وَالْغَنِيُّ بِمَالِهِ، وَصَاحِبُ الْقَلَمِ بِكَلِمَتِهِ، وَصَاحِبُ الْمَسْؤُولِيَّةِ بِعَدْلِهِ وَأَمَانَتِهِ.

فَالْمَقْصُودُ أَنْ يَخْرُجَ الْمُسْلِمُ مِنَ السَّلْبِيَّةِ إِلَىٰ الْمُشَارَكَةِ، وَمِنَ التَّأَلُّمِ لِلْوَاقِعِ إِلَىٰ الْعَمَلِ عَلَىٰ تَغْيِيرِهِ، وَمِنَ الْحَمَاسَةِ الْمُؤَقَّتَةِ إِلَىٰ الْبَذْلِ الْمُنَظَّمِ الْمُسْتَمِرِّ.

وَبَعْدَ أَنْ بَيَّنَ الْإِمَامُ مَيَادِينَ الْعَمَلِ فِي الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالْجِهَادِ، انْتَقَلَ إِلَىٰ الْأَصْلِ الَّذِي يَهْدِي هَذِهِ الْمَيَادِينَ كُلَّهَا، وَهُوَ الْقُرْآنُ.

## ثَامِنًا: حَقُّ الْقُرْآنِ بَيْنَ التَّعْظِيمِ وَالِاتِّبَاعِ

يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَنَّا مُبَيِّنًا الْمُفَارَقَةَ فِي عِلَاقَةِ الْمُسْلِمِينَ بِكِتَابِ رَبِّهِمْ: «مَا رَأَيْتُ ضَائِعًا أَشْبَهَ بِمُحْتَفَظٍ بِهِ، وَلَا مُهْمَلًا أَشْبَهَ بِمَعْنِيٍّ بِشَأْنِهِ، مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي أُمَّتِنَا هَذِهِ»[50]، فَالْقُرْآنُ مَوْجُودٌ فِي الْبُيُوتِ وَالْمَسَاجِدِ، وَيُتْلَىٰ فِي الْمَنَاسَبَاتِ، وَيَحْظَىٰ بِالتَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ، وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ غَائِبٌ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ عَنِ الْأَخْلَاقِ وَالْمُعَامَلَاتِ

(50) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا** [رسالة: هل نحن قوم عمليون؟]. ص 107.

وَنُظُمِ الْحَيَاةِ. فَهُوَ مَحْفُوظٌ فِي الصُّدُورِ وَالسُّطُورِ، وَلَكِنَّ أَحْكَامَهُ وَتَوْجِيهَاتِهِ قَدْ تُضَيَّعُ فِي الْوَاقِعِ.

وَلَيْسَ مَقْصُودُ الْإِمَامِ الْبَنَّا التَّقْلِيلَ مِنْ شَأْنِ التِّلَاوَةِ وَالْحِفْظِ؛ فَهُمَا مِنْ حُقُوقِ الْقُرْآنِ، وَلَكِنَّهُ يُنَبِّهُ إِلَىٰ أَنَّ الْحِفْظَ الْحَقِيقِيَّ لَا يَكْتَمِلُ بِحِفْظِ الْأَلْفَاظِ، بَلْ بِحِفْظِ الْمَعَانِي وَالْحُدُودِ، وَأَنَّ التَّعْظِيمَ الصَّادِقَ لَا يَقِفُ عِنْدَ تَقْبِيلِ الْمُصْحَفِ أَوْ تَزْيِينِ الْمَجَالِسِ بِتِلَاوَتِهِ، بَلْ يَظْهَرُ فِي الِاسْتِجَابَةِ لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ.

وَيُحَدِّدُ الْإِمَامُ لِلْأُمَّةِ ثَلَاثَةَ مَقَاصِدَ فِي عِلَاقَتِهَا بِالْقُرْآنِ: الْإِكْثَارَ مِنْ تِلَاوَتِهِ وَالتَّعَبُّدَ بِقِرَاءَتِهِ، وَجَعْلَهُ مَصْدَرًا لِأَحْكَامِ الدِّينِ وَشَرَائِعِهِ، وَجَعْلَهُ أَسَاسًا لِأَحْكَامِ الْحَيَاةِ وَنُظُمِهَا، فَحَقُّ الْقُرْآنِ لَا يَقْتَصِرُ عَلَىٰ أَنْ نَقْرَأَهُ، بَلْ أَنْ نَفْهَمَهُ وَنَحْتَكِمَ إِلَيْهِ، وَأَنْ نَنْقُلَهُ مِنْ مَجَالِ التِّلَاوَةِ إِلَىٰ مَجَالِ التَّوْجِيهِ وَالْعَمَلِ. وَإِلَّا وَقَعْنَا فِي التَّنَاقُضِ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ الْإِمَامُ: نُعَظِّمُ الْقُرْآنَ، وَلَكِنَّنَا نُخَالِفُهُ؛ وَنَذُودُ عَنْهُ، وَلَكِنَّنَا لَا نُمَكِّنُ لَهُ فِي حَيَاتِنَا.

## تَاسِعًا: الْمَنْهَجُ وَالْعَمَلُ الجَمَاعِيُّ أَسَاسُ النَّهْضَةِ

بَعْدَ أَنْ عَرَضَ الْإِمَامُ الْبَنَّا مَيَادِينَ الْعَمَلِ فِي الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالْجِهَادِ وَالْقُرْآنِ، خَتَمَ رِسَالَتَهُ بِالْحَدِيثِ عَنِ الْمَنْهَجِ؛ لِأَنَّ النَّهْضَةَ لَا تَقُومُ عَلَىٰ الْحَمَاسَةِ وَحْدَهَا، وَلَا تَبْلُغُ غَايَتَهَا بِجُهُودٍ مُتَفَرِّقَةٍ لَا يَجْمَعُهَا طَرِيقٌ وَاضِحٌ.

يَقُولُ الإِمَامُ البَنَّا: «أَنْتَ إِذَا رَاجَعْتَ تَارِيخَ النهَضَاتِ فِي الأُمَمِ المُختَلِفَةِ شَرقيةً وَغَربيةً، قَدِيمًا وَحَدِيثًا، رَأَيْتَ أَنَّ القَائِمِينَ بِكُلِّ نَهضَةٍ مُوفَّقةٍ نَجحَتْ وَأَثْمرَتْ كَانَ لَهُم مِنهَاجٌ مَحْدُودٌ عَلَيهِ يَعمَلُونَ، وَهَدفٌ مَحدُودٌ إِلَيْهِ يَقصِدُونَ .. حَتَّىٰ إِذَا حِيلَ بَينَهُمْ وَبَينَهُ وَانتَهَتْ تِلكَ الفَترَةُ القَصِيرَةُ فَترَةُ الحَيَاةِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، خَلَفَهُمْ مِنْ قَومِهِمْ غَيرُهُم، يَعمَلُونَ عَلَىٰ مِنْهَاجِهِم، وَيَبدؤونَ مِنْ حَيثُ انتَهَىٰ أُولئِكَ، لَا يَقطَعُونَ مَا وَصَلُوا، وَلَا يَهدِمُونَ مَا بَنَوْا، ولا يَنقُضُونَ مَا أَسَّسُوا وَشَادُوا، وَلَا يُخرِّبُونَ مَا عَمَّرُوا، فَإِمَّا زَادُوا البِنَاءَ طَبقَةً وَسَارُوا بِالأُمَّةِ شَوْطًا إِلَىٰ الغَايَةِ، حَيْثُ يَصِلُونَ بِهَا إِلَىٰ مَا تَبتَغِي أَوْ يَنصَرِفُونَ رَاشِدِينَ وَيَخْلُفُهُمْ غَيرُهُمْ.

رَاجِعْ تَارِيخَ الهَيئَاتِ وَالشُّعُوبِ تَرَ هَذَا القَوْلَ وَاضِحًا بَيِّنًا، وَأَنَّ أَسَاسَ النجَاحِ فِي كُلِّ نَهضَاتِهَا مَنهَجٌ مَحْدُودٌ، وَقَومٌ يَعمَلُونَ فِي حُدُودِ هَذَا المَنهَجِ، لَا يَملُّونَ وَلَا يَفتُرُونَ وَلَا يَسأَمُونَ وَلَا يَمتَنُّونَ، ذَلِكَ وَاضِحٌ جَلِيٌّ فِي الخُطَواتِ الّتِي سَلَكَتْهَا دَعْوَةُ الإِسْلَامِ الأُولَىٰ.

أَعْتَقِدُ - يَا عَزِيزِي - أَنَّ كُلَّ انقِلَابٍ تَارِيخِيٍّ، وَكُلَّ نَهضَةٍ فِي أُمَّةٍ تَسِيرُ طِبْقَ هَذَا القَانُونِ.. حَتَّىٰ النهَضَاتُ الدِّينيةُ الّتِي يَرْأَسُهَا الأَنبِيَاءُ وَالمُرسَلُونَ صَلواتُ اللهِ عَلَيهِمْ. إِلَّا أَنَّ هَذِهِ النَّهَضَاتِ يَرسُمُ مِنهَاجَهَا الحَقُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَيَهْدِي الرسُولُ وَمِنْ وَرَائِهِ قَومُهُ، وَيُرشِدُهُمْ إِلَىٰ خُطوَاتِ المَنهجِ خُطوةً خُطوةً، كُلُّ خُطوَةٍ فِي وَقْتِهَا المُناسِبِ، وَيُؤَيِّدُهُمْ فِي كُلِّ ذَلِكَ بِنَصْرِهِ فَتكُونُ النهضَةُ مُوفَّقَةً لَا مَحَالَةَ، ﴿**كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ [المجادلة: 21]، وَمِنْ أَينَ يَأتِي الخَطَأُ إِذَا كَانَ وَاضِعُ المَنْهَجِ العَلِيمَ الخَبِيرَ، وَمُنفِّذُهُ مَعْصُومٌ مِنَ الزَّلَلِ، مَحْفُوظٌ مِنَ الخَطَأِ مُؤَيَّدٌ بِالتوْفِيقِ وَالنَّصْرِ؟ وَمِنْ هُنَا كَانَتِ النُّبوَّاتُ رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ»[51].

وَمِنْ هُنَا دَعَا الإِمَامُ البَنَّا إِلَىٰ مَا لَمْ يَدْعُ إِلَيْهِ المُصْلِحُونَ الذِينَ بَدَأُوا قَبْلَهُ، دَعَا إِلَىٰ إِيجَادِ فِكْرَةٍ صَحِيحَةٍ بِالإِضَافةِ إِلَىٰ تَنظِيمٍ قَوِيٍّ يَحْمِلُ هَذِهِ الفِكْرَةَ وَيُؤَكِّدُهَا فِي الوَاقِعِ. وَفِكْرَةُ التَّنظِيمِ القَوِيِّ أَوِ العَمَلِ الجَمَاعِيِّ انفَرَدَ بِهَا الإِمَامُ البَنَّا عَنْ غَيرِهِ مِنَ المُصْلِحِينَ وَالجَماعَاتِ؛ لأَنَّهُ لَمْ يُخْدَعْ بِمَا خُدِعَ بِهِ الآخَرُونَ مِمَّنْ وَهِمُوا أَنَّ الفَرْدَ قَادِرٌ بِنَفْسِهِ أَنْ يُعْطِيَ أُمَّتَهُ كُلَّ مَا تَحتَاجُ إِلَيهِ، وَيُحقِّقَ لَهَا كُلَّ مَا تَبتَغِي، وَهَذِهِ خُدعَةٌ لأَنَّ أَعمَارَ الأَفرادِ قَصِيرَةٌ بِالنسْبَةِ لأَعْمَارِ النهَضَاتِ وَالشُّعُوبِ.

يقُولُ الإِمَامُ البنَّا لِكُلِّ أَخٍ يَتساءَلُ: هَل الإِخْوَان جَماعَةٌ عَملِيَّةٌ؟: «هَذِهِ جَماعَةُ الإِخوَانِ يَا عَزِيزِي فِي كُلِّ مَكانٍ تُنادِي النَّاسَ وَتَفتَحُ لَهُمْ قَلْبَهَا وَبَابَهَا وَنَادِيَهَا، فَهَلُمَّ فَإِنْ رَأَيْتَ مَا تُحِبُّ فَعلَىٰ بَرَكَةِ اللهِ وَإِنْ لَمْ تَرْ ذَلِكَ فَقُلْ كَمَا قَالَ بَشَّارٌ:

(51) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: هل نحن قوم عمليون]، ص 115، 116.

إِذَا أَنْكَرَتْنِي بَلْدَةٌ أَوْ نَكِرْتُهَا خَرَجْتُ مَعَ الْبَازِيِّ عَلَيَّ سَوَادُ[52]

أَوَلَا يَرَىٰ الأخُ مَعَنَا أنَّ الجَماعاتِ هِيَ الأَفرادُ مُنضمَّةً، فَإِذَا كَانَ كُلُّ فَرْدٍ يَسْأَلُ هَذَا السُّؤالُ فَأينَ الجَمَاعَةُ إِذَنْ؟ هَذِهِ خُدعَةٌ عَقليةٌ يَقَعُ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَأَنْتَ إِذَا شِئْتَ أَنْ تَعْرِفَ الكُرسِيَّ قُلْتَ هُوَ جِسْمٌ يَتركَّبُ مِنْ مَقْعَدٍ وَمَسْنَدٍ وَأَرْبَعَةِ أَرْجُلٍ، وَلَكِنْ أَلَسْتَ تَرىٰ أَنَّ هَذِهِ خَدِيعَةٌ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِصَحِيحٍ، فَهَلِ الجِسْمُ غَيرُ هَذِهِ الثَّلاثَةِ؟ وَإِذَا جَرَّدْتَ الكُرسِيَّ مِنْ أَرْجُلِهِ وَمَقْعَدِهِ وَمَسْنَدِهِ فَهَلْ يَبقَىٰ هُناكَ جِسْمٌ أَوْ أَثَرٌ يَصِحُّ أَنْ تُطلِقَ عَلَيهِ صِفةَ الوُجُودِ فَضْلًا عَنِ الصِّفَاتِ الأُخْرَىٰ؟

كَذَلِكَ يَخْدَعُ النَّاسُ أَنْفُسَهُم فِي قَضيَّةِ الجَمَاعَاتِ وَالأَفْرادِ، فَهُمْ يَظُنّونَ أَنَّ الجمَاعَاتِ شَيْءٌ وَالأفرادَ شَيْءٌ، وَمَا الجَمَاعَاتُ فِي الحَقيقَةِ إِلَّا أَفْرَادٌ، وَمَا الأَفْرادُ إِلَّا حَقائِقُ الجَماعَاتِ وَلَبِنَاتُ بِنَائِهَا، فَإِذَا تَنافَرتْ هَذِهِ اللَّبِنَاتُ وَأَخَذَ كُلُّ فَرْدٍ يَسْأَلُ عَنِ الجَماعَةِ... فَأَيْنَ الجَماعَةُ إِذَنْ؟ وَمَنِ السَّائِلُ وَمَنِ المَسْئُولُ؟ وَإِنَّما أَوْقَعَنا فِي هَذِهِ الوَرْطَةِ مَا تَعوَّدْنَاهُ مِنْ خُلُقِ التوَاكُلِ الذِي جَعَلَنا نَتْرُكُ العِبْءَ كُلَّهُ لِفَرْدٍ وَاحِدٍ أَوْ يَدْفَعُهُ كُلٌّ مِنَّا إِلَىٰ أَخِيهِ فَلَا يَزالُ مُهمَلًا لَا يَستقِرُّ عَلَىٰ حَالٍ وَلَا يَنهَضُ بِهِ أَحَدٌ، وَهَا أَنَا ذَا أُصَارِحُ كُلَّ الغَيُورِينَ مِنْ أَبنَاءِ الإِسْلامِ بِأَنَّ كُلَّ جَماعةٍ إِسْلاميّةٍ فِي هَذَا العَصْرِ مُحتَاجَةٌ أَشَدَّ الحَاجَةِ إِلَىٰ الفَردِ العَامِلِ المُفكِّرِ .. إِلَىٰ العُنْصُرِ الجَريءِ المُنْتِجِ. فَحرَامٌ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ آنَسَ مِنْ نَفسِهِ شَيئًا مِنْ هَذَا أَنْ يَتأَخَّرَ عَنِ النفِيرِ دَقِيقَةً وَاحِدَةً»[53].

إِنَّ النهضَاتِ تَحتَاجُ إِلَىٰ جُهْدٍ وَوَقْتٍ، تَحتَاجُ إِلَىٰ أَسْلافٍ يَبدَؤُونَ وَأَخْلافٍ يُتمُّونَ، وَهَذِهِ النهضَاتُ الّتِي تَرأَّسَهَا الأَنبِيَاءُ قَامَتْ بِهَذَا الأُسْلُوبِ: **حَرَكَةُ فَرْدٍ فِي حِمَايَةِ عُصْبَةٍ وَبِإِنجَازِ أُمّةٍ.**

وَيُقَرِّرُ الإِمَامُ «إِنَّ أَسَاسَ النَّجَاحِ فِي كُلِّ نَهْضَةٍ: مَنْهَجٌ مَحْدُودٌ، وَقَوْمٌ يَعْمَلُونَ فِي

(52) إِذَا لَمْ يَعْرِفْ أَهْلُ بَلْدَةٍ قَدْرِي، أَوْ لَمْ أَجِدْ فِيهَا مَا أَرْتَضِيهِ، غَادَرْتُهَا مُبَكِّرًا، وَمَعِي صَقْرُ الصَّيْدِ، وَلَا يَزَالُ شَيْءٌ مِنْ ظَلَامِ اللَّيْلِ بَاقِيًا. وَالْبَيْتُ يَدُلُّ عَلَىٰ عِزَّةِ النَّفْسِ، وَسُرْعَةِ الرَّحِيلِ عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي لَا يُكْرِمُ الْإِنْسَانَ أَوْ لَا يُلَائِمُهُ.

(53) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: هل نحن قوم عمليون]، ص 82، 83.

حُـدُودِ هَـذَا الْمَنْهَـجِ، لَا يَمَلُّـونَ وَلَا يَفْتُرُونَ وَلَا يَسْـأَمُونَ وَلَا يَمْتَنُّـونَ»[54].

تَأَمَّـلْ هَذَيْـنِ الرُّكْنَيْـنِ: مَنْهَـجٌ مَحْـدُودٌ، وَقَـوْمٌ عَامِلُـونَ. فَـلَا يَكْفِـي أَنْ يَكُـونَ الْمَنْهَـجُ صَحِيحًا، إِذَا لَـمْ يَحْمِلْـهُ رِجَـالٌ يَصْبِرُونَ عَلَيْهِ، وَلَا تَكْفِي الْهِمَـمُ الْعَالِيَـةُ إِذَا كَانَـتْ تَتَحَـرَّكُ بِـلَا خُطَّـةٍ وَلَا وِجْهَـةٍ.

## عاشرًا: أَسْبَابُ إِخْفَاقِ الـنَّهضَاتِ

يُرجِعُ الإِمَامُ البنَّا عِلَّةَ السُّقُوطِ فِي بِلادِنَا إِلَىٰ ثَـلاثَـةِ أُمُورٍ:

- خُلُقُ التَّسَرّعِ المَركُوزِ فِي طِبَاعِنَا.
- غُمُوضُ الوسَائِلِ، أَوْ تَعاكُسِهَا أَحْيَانًا.
- انْقِطَاعُ الصِّلَةِ بَينَ السَّابِقِ وَاللَّاحِقِ، فَلا يُتِمُّ اللاحِقُ ما بَدَأَهُ السَّابِـقُ.

يقُـولُ الإِمَـامُ البَنَّـا فِـي ذَلِـكَ: «أُلَاحِـظُ أَنَّ خُلُـقَ التَّسَـرُّعِ المَركُـوزِ فِـي طِباعِنَـا، وَسُـرْعَةَ التأَثُّـرِ وَهَيـاجَ العَواطِـفِ الـذِي يَبـدُو فِينَـا وَاضِحًـا، وَغَيرَهُمَـا مِـنْ أَسبَابٍ اجتِمَاعيـةٍ وَغَيـرِ اجتِمَاعيّـةٍ جَعَلَـتْ نَهْضَاتِنَـا فَـوْرَاتٍ عَاطفيـةً تَشتَـدُّ وَتَـقْوَىٰ بِقُـوَّةِ المُؤثِّـرِ الوَقْتِيِّ وَشِـدَّتِهِ، ثُمَّ تَخْمُـدُ وَتَـزُولُ كَأَنْ لَـمْ يَكُـنْ شَـيْءٌ. وَلَئِـنْ كَانَـتِ الغَايـةُ التِي نَعمَـلُ لَهَـا جَمِيعًـا وَاضِحَـةً مَعْرُوفَـةً لِلكَثِيريـنِ فَأَنَـا وَاثِـقٌ مِـنْ أَمْريـنِ يُلازِمَـانِ هَـذِهِ المَعرفـةَ:

**الأَمْـرُ الأَوَّلُ:** أَنَّ الوَسَائِـلَ غَيـرُ مَعرُوفَـةٍ وَلَا مُحـدَّدَةٍ، وَقَـدْ تَكُـونُ مُتعَاكِسَـةً يُحْبِـطُ بَعضُهَـا بَعضًـا وَنَحْـنُ لَا نَشْعُـرُ.

**وَالأَمْـرُ الثَّانِي:** أَنَّ الصِّلَـةَ مُنقَطِعَـةٌ تَمَامًـا بَيـنَ السَّـابِقِ وَاللاحِـقِ، فَقَدْ يَصِـلُ السَّـابِقُ إِلَـىٰ نِصْـفِ الطَّرِيـقِ، فَـإِذَا جَـاءَ اللاحِـقُ لَـمْ يَـتَّبِعْهُ لانْقِطَـاعِ الصِّلَـةِ بَيْنَهُمَـا، فَيبـدَأُ طَرِيقًـا جَدِيـدًا قَـدْ يَصِـلُ فِيـهِ إِلَـىٰ مِقْـدَارِ مَـا وَصَـلَ سَـابِقُه وَقَـدْ يُـقَصِّرُ عَنْهُ، وَقَـدْ يَسْـبِقُ قَلِيـلًا، وَلَكِنَّـهُ عَلَـىٰ كُلِّ حَـالٍ لَا يَصِـلُ بِالأُمَّـةِ إِلَـىٰ النِّهَايَـةِ"[55].

(54) حسـن البنـا: **مجموعـة رسـائل الإمـام البنـا**، [رسـالة: هـل نحـن قـوم عمليـون]، طبعـة دار النـداء- إسـطنبول. ص 111.

(55) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: هل نحن قوم عمليون]، ص 117.

لِذَلِكَ كَانَتْ دَعوةُ الإمَامِ البنَّا إِلَىٰ وُجُودِ عَملٍ جَماعِيٍّ مُنظَّمٍ، إِلَىٰ وُجُودِ كِيَانٍ قَوِيٍّ، إِلَىٰ حِمَايةِ عُصْبَةٍ، وَإِنجَازِ أُمَّةٍ، إِلَىٰ وَسَائِلَ مُتناسِقَةٍ لَا مُتعَاكِسَةٍ.

وقَدْ تَحدَّثَ الإِمَامُ البنَّا عَنِ المُصلِحِينَ الأوَائِلِ قَبلَهُ مِثْلَ الإِمَامِ مُحمَّد عَبْدُه وَالأَفغَانِيِّ، وَعبدِ الرَّحمن الرَّافِعِيِّ، وَالكَواكِبِيِّ، وَعَبدِ العَزِيزِ جَاوِيش وَغَيرِهِمْ، فأثنىٰ عَلَىٰ جُهودِهِمْ خَيرًا في مُذكِّراتِهِ، وَقَالَ: لَوْ أَنَّ الْأُمَّةَ اتَّبَعَتْهُمْ لَوَصَلَتْ إِلَىٰ بُغْيَتِهَا [56].

وعقَّب عَلَىٰ تِلْكَ الجُهودِ، حَيْثُ يُؤكِّدُ القَطِيعَةَ بَينَ السَّابِقِ وَاللاحِقِ، فَلَمْ يُتِمَّ أَحَدٌ جُهودَهُمْ، فَمَاتَتْ بِمَوتِهِمْ. يَقُولُ الإِمَامُ البنَّا مُعلِّقًا: «فَهِي سِلسلَة مُنظَّمَةٌ مُتَّصلَةُ الحَلقَاتِ تَتلاقَىٰ أَطرَافُها عِندَ مَيدَانٍ وَاحِدٍ. أَمَّا الآنَ فَقَدْ نَبغَ زُعمَاءُ أَغْرَارٌ لَم يُحنَّكُوا بِتَجارِبِ الزعَماءِ، فَرَضُوا مِنَ الغَنيمَةِ بِالإِيَابِ» [57].

فمِنْ أَكْبَرِ الْآفَاتِ الَّتِي رَآهَا الْإِمَامُ فِي مَشْرُوعَاتِ النَّهْضَةِ أَنَّهَا تَبْدَأُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ مِنْ جَدِيدٍ؛ فَيَصِلُ السَّابِقُ إِلَىٰ نِصْفِ الطَّرِيقِ، ثُمَّ يَأْتِي اللَّاحِقُ فَلَا يَبْنِي عَلَىٰ مَا أَنْجَزَهُ، بَلْ يَبْدَأُ مِنْ نُقْطَةِ الصِّفْرِ. وَهَكَذَا تُسْتَهْلَكُ الْأَعْمَارُ، وَتَتَكَرَّرُ التَّجَارِبُ، وَلَا تَصِلُ الْأُمَّةُ إِلَىٰ غَايَتِهَا.

## حَادِيَ عَشَرَ: الْعَمَلُ الـجَمَاعِيُّ وَالتَّنْظِيمُ طَرِيقُ التَّغْيِيرِ الْمَنْشُودِ

إنَّ مِمَّا أَدركَهُ الإمامُ البنَّا، أنَّه لَا يُمكِنُ لِفَردٍ مَهمَا كَانَتْ قُدراتُه أَنْ يُحقِّقَ ذَلِكَ التغْيِيرَ المَنشُودَ وَحْدَهُ، ولَا بُدَّ مِنْ عَملٍ جماعيٍّ، لَا بُدَّ مِنْ تَنظيمٍ قَوِيٍّ، يَستَطِيعُ أَنْ يَحمِلَ الفِكرَةَ الصَّحِيحَةَ وَيُبلِّغَهَا لِمَنْ بَعدَهُ وَيَعمَلَ عَلَىٰ حِمَايتِهَا، وَهَذَا مَا انفَردَ بِهِ الأستاذُ البنَّا عَن غَيرِهِ مِنَ المُصْلِحِينَ.

فَالمُصلِحُونَ الذينَ سَبقُوهُ لَمْ يُوجِدُوا التنظِيمَ الّذِي يَحمِلُ أَفكَارَهُمْ الإِصْلاحيَّةَ، وَيَجعَلَ مِنْهَا تَيارًا قَوِيًّا تَعتَدِلُ بِهِ لَهجَاتُ الكُتّابِ، كَمَا عَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ رُوبير جَاكسُون، وَهُوَ يتكَلَّمُ عَنِ الأُستاذِ البنَّا، وَعَنْ أَثَرِهِ فِي المُجتمَعِ المِصْرِيِّ، عِنْدَمَا يَقولُ: «وَلَمْ يَكُنِ الغَرْبُ لِيَقِفَ مَكتوفَ اليَدَينِ، أَمَامَ مِثْلِ هَذَا الرجُلِ الذِي أَعْلَىٰ كَلِمَةَ الإِسْلَامِ

(56) انظر حسن البنا: **مذكرات الدعوة والداعية**، ص 178.
(57) السابق: الصفحة نفسها.

عَلَىٰ نَحْوٍ جَديدٍ.. وَكَشَفَ لِرِجُلِ الشَّارِعِ حَقِيقَةَ وُجُودِهِ وَمَصِيرِهِ، وَجَمعَ النَّاسَ عَلَىٰ كَلِمَةِ اللهِ.. وَخَفَّتْ بِدَعْوَتِهِ رِيحُ التَّغْرِيبِ وَالجِنْسِ وَنَزعَاتُ القَوميَّةِ الضَّيقَةِ، وَاعْتدَلَتْ لَهجَاتُ الكُتَّابِ، وَبَدَأَ بَعضُهُم يَجرِيَ فِي رَكْبِ (الرّيحِ الإِسْلَاميَّةِ)»[58].

وَلَمْ يَكُنْ لِحَسَنِ البَنَّا أَنْ يُحِدَثَ ذلك التَأثِيرَ وَحْدَهُ، وَإِنّما أحدَثَهُ عِنْدَمَا أَوْجَدَ التَّيارَ القَوِيَّ الّذِي يَحْمِلُ هَذِهِ الفِكرَةَ وَيَنْهَضُ بِهَا مَعَهُ، وَيَقُومُ عَليهَا، وَيُبلِّغُها لِمَنْ وَراءَهُ، فَاستطَاعَ أَنْ يَبْدَأَ نَهضَةَ الأُمّةِ مِنْ كَبوَتِهَا، وَلِذَلِكَ كَانَتْ دَعوتُه دَائمًا إِلَىٰ العَملِ الجَماعِيِّ، بَل إِلَىٰ استِنفَارِ الغَيورِينَ مِنْ أَبناءِ الأُمّةِ الإِسْلامِيةِ عِنْدَمَا قَالَ: «كُلَّ جَماعةٍ إِسْلاميّةٍ فِي هَذَا العَصْرِ مُحتَاجَةٌ أَشَدَّ الحَاجَةِ إِلَىٰ الفَردِ العَامِلِ المُفكِّرِ .. إِلَىٰ العُنْصُرِ الجَريءِ المُنْتِجِ. فَحرَامٌ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ آنَسَ مِنْ نَفسِهِ شَيئًا مِنْ هَذَا أَنْ يَتأَخَّرَ عَنِ النفِيرِ دَقِيقَةً وَاحِدَةً»[59].

هَذِهِ دَعْوَةٌ نُقدِّمُهَا إِلَىٰ الذينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَعمَلُوا لِلإِسْلَامِ مِنْ أَبنَائِهِ الغَيُورِينَ، وَنَدعُوهُم بِدَعْوةِ الإِخوَانِ المُسلِمينَ، فَعَليهِمْ أَنْ يُجرِّبُوا وَلَا يَتواكَلُوا، وَلَا تَكُنْ تَجرِبَتُهُمْ حَائِلًا بَينَهُمْ وَبَينَ التقَدُّمِ»[60]، ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [التوبة: 105].

وَهَكَذَا أَجَابَ الْإِمَامُ الْبَنَّا عَنِ السُّؤَالِ الَّذِي صَدَّرَ بِهِ رِسَالَتَهُ: **هَلْ نَحْنُ قَوْمٌ عَمَلِيُّونَ؟**

(58) روبير جاكسون: **حسن البنا الرجل القرآني**، ص 19.
(59) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: هل نحن قوم عمليون]، ص 82، 83.
(60) انظر السابق: ص 84.

# رِسالَةُ «دَعوتنا»

فِـي «رِسَـالَةِ دَعْوَتُنَـا»[61] عَـرَضَ الْإِمَـامُ الْبَنَّـا طَبِيعَـةَ دَعْـوَةِ الْإِخْـوَانِ الْمُسْـلِمِينَ، وَغَايَتَهَـا، وَالْمَنْهَـجَ الَّـذِي تَقُـومُ عَلَيْـهِ، وَبَيَّـنَ مَوْقِفَهَـا مِـنْ وَاقِـعِ الْأُمَّـةِ وَمَـا أَصَابَهَـا مِـنْ ضَعْـفٍ وَتَفَـرُّقٍ، وَدَعَـا إِلَـىٰ إِعَـادَةِ بِنَائِهَـا عَلَـىٰ أَسَـاسِ الْإِسْـلَامِ فَهْمًـا وَعَمَـلًا، وَإِلَـىٰ الْجِـدِّ وَالتَّضْحِيَـةِ وَالثَّبَـاتِ فِـي سَـبِيلِ النُّهُـوضِ بِهَـا وَأَدَاءِ رِسَـالَتِهَا فِـي الْحَيَـاةِ.

(61) نُشِـرَتْ هَـذِهِ الرسَـالَةُ فِي مَجلّـةِ (الإخـوَانُ المُسـلمونَ) الأُسْـبُوعيّةِ، مُوزَّعَـةً عَلَـىٰ سَـبعَةِ مَقـالاتٍ، وَقَـد نُشِـرَ أَوَّلُ مَقـالٍ مِنْهَـا فِي العَـددِ (2) الصَّـادِرِ بتَاريخ 20 مُحرَّم 1354هـ المُوافِق 23 أَبريـل 1935م، وَتَوالَـىٰ نَشـرُ بَقِيّـةِ المَقـالاتِ تِبَاعًـا، حَتَّـىٰ نُشِـرَ آخِرُهَـا فِي العَـدَدِ (10) مِـنَ السَّـنةِ نَفْسِـهَا 1935م، ثُـمَّ أُعِيـدَ نَشـرُ هَـذِهِ الرِسَالَـةِ (دَعوَتُنَـا) مَـرةً أُخْـرَىٰ فِي مَجلّـةِ النذِيـرِ، بِالعَـدَدِ (39) الصَّـادِرِ بتَاريـخ 9 شَـوّال 1358هـ، المُوافِـق 21 نُوفـمِبرَ 1939م.(**مجموعـة رسـائل الإمـام البنا**[رسـالة دعوتنـا].دار النـداء- اسـطنبول- تركيـا 2014 ، ص117].

## الرُّوحُ الْعَامَّةُ لِلرِّسَالَةِ

تُهَيْمِنُ عَلَىٰ رِسَالَةِ «دَعْوَتُنَا» رُوحُ الْمُصَارَحَةِ الصَّادِقَةِ، وَالْإِشْفَاقِ عَلَىٰ الْأُمَّةِ، وَهِيَ ذَاهِلَةٌ عَنِ التكْليفِ الّذِي أَمرَهَا اللهُ بِهِ، وَهُوَ تَكلِيفُ الشَّهَادَةِ ﴿**وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَىٰ النَّاسِ**﴾[الحج: 78]، وَاسْتِنْفَارِهَا إِلَىٰ الْعَمَلِ وَالنُّهُوضِ.

وَمَا يَستدعِيهِ ذَلِكَ التَّكليفُ الضَّخمُ مِنْ إِقَامَةِ الدِّينِ حَتَّىٰ يَتمثَّلَ فِي أُمّةٍ؛ وَالإِشْفَاقِ عَلَيهَا أَنْ يَنزِلَ بِهَا عِقابُ اللهِ عِنْدَمَا لَا تَقومُ بِهَذَا التكْليفِ الضَّخْمِ.

عَرَضَ الْإِمَامُ الْبَنَّا غَايَةَ الدَّعْوَةِ وَمَنْهَجَهَا فِي وُضُوحٍ، وَكَشَفَ عَنْ عَاطِفَةٍ جَيَّاشَةٍ نَحْوَ قَوْمِهِ، أَقَضَّتِ الْمَضَاجِعَ، وَأَسَالَتِ الْمَدَامِعَ، وَدَفَعَتْ إِلَىٰ الْعَمَلِ لِإِنْقَاذِ الْأُمَّةِ وَإِعَادَةِ بِنَائِهَا.

وَتَقْتَرِنُ بِهَذِهِ الرُّوحِ رُوحُ الْجِدِّ وَالتَّضْحِيَةِ، وَالْبُعْدِ عَنِ التَّلَكُّؤِ وَالْيَأْسِ وَالِاسْتِسْلَامِ، مَعَ الثِّقَةِ بِأَنَّ عَوْدَةَ الْأُمَّةِ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ فَهْمًا وَعَمَلًا هِيَ سَبِيلُهَا إِلَىٰ الْعِلَاجِ وَالنُّهُوضِ، وَإِلَىٰ أَدَاءِ رِسَالَتِهَا فِي الْحَيَاةِ.

## مَحَاوِرُ شَرْحِ الرِّسَالَةِ

تَمْهِيدٌ: ظُرُوفُ الرِّسَالَةِ وَغَايَتُهَا.

أَوَّلًا: خُصُوصِيَّةُ الْأُمَّةِ وَأَثَرُهَا فِي رُوحِ الرِّسَالَةِ.

ثَانِيًا: أَصْنَافُ النَّاسِ أَمَامَ دَعْوَةِ الْإِخْوَانِ.

ثَالِثًا: حَقِيقَةُ دَعْوَتِنَا.

رَابِعًا: مُتَطَلَّبَاتُ دَعْوَتِنَا.

خَامِسًا: شَرَائِطُ إِنْجَازِ هَذَا التَّكْلِيفِ الضَّخْمِ، وَتَشْمَلُ:

1. أَدَاءَ الْوَاجِبِ.
2. فِقْهَ الْعَوَاقِبِ.

3. تَقْدِيمَ الْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ عَلَىٰ الْمَصْلَحَةِ الْخَاصَّةِ.
4. بَاعِثَ الْإِرَادَةِ.
5. بَاعِثَ الْبَلَاغِ وَحُدُودَهُ.
6. أَثَرَ الْمَثَلِ الْأَعْلَىٰ فِي الْعُمْرَانِ.
7. وَحْدَةَ رُوحِ الْأُمَّةِ وَإِرَادَتِهَا.
8. ضَرُورَةُ الْعَمَلِ الْجَمَاعِيِّ وَالْقِيَادَةِ الرَّاشِدَةِ.

## تَـمْهِيـدٌ: ظُرُوفُ الرِّسَالَةِ وَغَايَتُهَا

كُتِبَتْ رِسَالَةُ «دَعْوَتُنَا» فِي مَرْحَلَةٍ مُهِمَّةٍ مِنْ تَارِيخِ دَعْوَةِ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَقَدْ ذَهَبَ مُؤَرِّخُو الدَّعْوَةِ إِلَىٰ أَنَّ مَسِيرَتَهَا فِي حَيَاةِ الْإِمَامِ الْبَنَّا مَرَّتْ بِأَرْبَعِ مَرَاحِلَ رَئِيسَةٍ:

- مَرْحَلَةِ النَّشْأَةِ فِي الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ مِنْ عَامِ 1928م إِلَىٰ عَامِ 1932م.
- مَرْحَلَةِ الِانْتِقَالِ إِلَىٰ الْقَاهِرَةِ وَالدِّعَايَةِ الْعَامَّةِ وَتَكْوِينِ الْأَنْصَارِ مِنْ عَامِ 1932م إِلَىٰ عَامِ 1939م،
- مَرْحَلَةِ التَّكْوِينِ الدَّاخِلِيِّ إِدَارِيًّا وَتَرْبَوِيًّا مِنْ عَامِ 1939م إِلَىٰ عَامِ 1945م.
- مَرْحَلَةِ مُوَاجَهَةِ الْأَحْدَاثِ الْكُبْرَىٰ مِنْ عَامِ 1945م إِلَىٰ اسْتِشْهَادِ الْإِمَامِ الْبَنَّا عَامَ 1949م.

وَقَدْ كُتِبَتْ هَذِهِ الرِّسَالَةُ فِي الْمَرْحَلَةِ الثَّانِيَةِ، بَعْدَ انْتِقَالِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ الْقَاهِرَةِ؛ حَيْثُ خَرَجَتْ مِنْ نِطَاقِهَا الْمَحْدُودِ فِي الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ إِلَىٰ مَيْدَانِ الدَّعْوَةِ الْعَامَّةِ، وَبَدَأَتْ تَتَّصِلُ بِفِئَاتٍ جَدِيدَةٍ مِنَ الْمُجْتَمَعِ، وَبِخَاصَّةٍ الشَّبَابَ وَطُلَّابَ الْجَامِعَاتِ وَالْمُثَقَّفِينَ. وَكَانَ الْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا الِانْتِقَالِ تَحْقِيقَ أَمْرَيْنِ مُهِمَّيْنِ:

نَشْرَ الدَّعْوَةِ وَتَكْوِينَ الْأَنْصَارِ، بِتَوْثِيقِ صِلَتِهَا بِالْمُجْتَمَعِ الْمِصْرِيِّ وَقَضَايَاهُ، مِنْ خِلَالِ بَيَانِ أَهْدَافِهَا وَمَقَاصِدِهَا، وَتَوْضِيحِ مَوْقِفِهَا مِنَ الْأَفْكَارِ وَالدَّعَوَاتِ السَّائِدَةِ.

وَقَدْ أَثْمَرَتْ هَذِهِ الْمَرْحَلَةُ انْتِشَارَ الدَّعْوَةِ فِي أَوْسَاطٍ جَدِيدَةٍ؛ فَلَمَّا انْضَمَّ أَرْبَعَةٌ مِنْ شَبَابِ الْجَامِعَاتِ إِلَىٰ الْإِخْوَانِ، أَرْسَلَ الشَّيْخُ طَنْطَاوِي جَوْهَرِيٌّ، الْمُلَقَّبُ بِحَكِيمِ الْإِسْلَامِ وَصَاحِبُ «تَفْسِيرِ الْجَوَاهِرِ»، إِلَىٰ الْإِمَامِ الْبَنَّا رِسَالَةً عَنْوَنَهَا: «فَتْحٌ مِنَ اللهِ

وَنَصْرٌ قَرِيبٌ»؛ إِدْرَاكًا مِنْهُ لِمَا يَعْنِيهِ دُخُولُ شَبَابِ الْجَامِعَاتِ مِنِ اتِّسَاعِ مَجَالِ الدَّعْوَةِ وَانْتِقَالِهَا إِلَىٰ فِئَاتٍ جَدِيدَةٍ.

وَلَمْ يَقْتَصِرْ صَدَىٰ الدَّعْوَةِ عَلَىٰ الدَّاخِلِ، بَلْ بَدَأَ يَتَجَاوَزُ حُدُودَ مِصْرَ؛ فَقَدْ وَقَعَ عَدَدٌ مِنْ مَجَلَّةِ «الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ» فِي يَدِ الْأُسْتَاذِ عِزَّتْ رَاجِح، وَكَانَ يَدْرُسُ فِي جَامِعَةِ السُّورْبُونِ بِفَرَنْسَا، فَتَرْجَمَ «عَقِيدَتَنَا» وَعَرَضَهَا عَلَىٰ أَحَدِ أَسَاتِذَةِ الدِّرَاسَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ، فَرَأَىٰ فِيهَا كَلِمَاتٍ عَمِيقَةَ الْمَبْحَثِ وَالْمَقْصِدِ، مُسْتَمَدَّةً مِنَ الْمَنْهَجِ الَّذِي أَقَامَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّةً وَدَوْلَةً وَدِينًا، وَمُرَاعِيَةً لِرُوحِ الْعَصْرِ مَعَ التَّقَيُّدِ بِرُوحِ الْإِسْلَامِ.

وَقَدْ وَقَفَ الْإِمَامُ الْبَنَّا عِنْدَ هَذِهِ الشَّهَادَةِ، فَأَكَّدَ أَنَّ عَقِيدَةَ الْإِخْوَانِ إِسْلَامِيَّةٌ خَالِصَةٌ، مُسْتَمَدَّةٌ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَرُوحِ الْإِسْلَامِ الصَّحِيحِ، وَأَنَّ نَهْضَةَ الْمُسْلِمِينَ لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا بِاتِّبَاعِ السَّبِيلِ الَّتِي سَلَكَهَا النَّبِيُّ ﷺ وَصَحْبُهُ، مَعَ الْوَعْيِ بِصُعُوبَةِ الطَّرِيقِ، وَضَرُورَةِ مُوَاصَلَةِ الْعَمَلِ، وَعَدَمِ الِاسْتِسْلَامِ لِلْيَأْسِ.

وَمِنْ هُنَا جَاءَتْ رِسَالَةُ «دَعْوَتُنَا» لِتُصَارِحَ النَّاسَ بِغَايَةِ الدَّعْوَةِ وَمَنْهَجِهَا، وَتُعَرِّفَهُمْ بِحَقِيقَتِهَا وَخَصَائِصِهَا، وَتُبَيِّنَ مَوْقِفَهَا مِنَ النَّاسِ وَمِنَ الدَّعَوَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَمَنْهَجَهَا فِي عِلَاجِ أَمْرَاضِ الْأُمَّةِ وَإِعَادَةِ نَهْضَتِهَا.

## أَوَّلًا: خُصُوصِيَّةُ الْأُمَّةِ وَأَثَرُهَا فِي رُوحِ الرِّسَالَةِ

تَنْطَلِقُ رِسَالَةُ «دَعْوَتُنَا» مِنَ الشُّعُورِ بِخُصُوصِيَّةِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ فَهِيَ أُمَّةٌ رَبَّانِيَّةُ الْمَنْشَأِ، مُرْتَبِطَةٌ بِهَدْيِ اللهِ وَشَرْعِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**﴾ [الأنعام: 161].

وَهِيَ أُمَّةٌ ذَاتُ خَيْرِيَّةٍ مَرْهُونَةٍ بِقِيَامِهَا بِوَظِيفَتِهَا فِي الْإِيمَانِ وَالْإِصْلَاحِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ**﴾ [آل عمران: 110].

كَمَا أَنَّهَا أُمَّةٌ صَاحِبَةُ رِسَالَةٍ، مُكَلَّفَةٌ بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ النَّاسِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ

جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143].

وَلَيْسَتِ الشَّهَادَةُ عَلَى النَّاسِ مَكَانَةً تُتَفَاخَرُ بِهَا الْأُمَّةُ، بَلْ هِيَ تَكْلِيفٌ يَقْتَضِي حُسْنَ فَهْمِ الْإِسْلَامِ، وَتَمَثُّلَهُ فِي الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ، وَتَقْدِيمَ نَمُوذَجٍ صَالِحٍ لِلنَّاسِ. وَهَذِهِ وَظِيفَةٌ جَمَاعِيَّةٌ لَا يَسْتَقِلُّ بِهَا فَرْدٌ، وَإِنَّمَا تَقُومُ بِهَا أُمَّةٌ وَاعِيَةٌ مُتَعَاوِنَةٌ، تُقِيمُ الْعَدْلَ، وَتَدْفَعُ الظُّلْمَ، وَتَدُلُّ الْبَشَرَ عَلَى الْخَيْرِ.

وَمِنْ هَذَا الشُّعُورِ بِضَخَامَةِ التَّكْلِيفِ نَبَعَ إِشْفَاقُ الْإِمَامِ الْبَنَّا عَلَى الْأُمَّةِ؛ إِذْ رَآهَا غَافِلَةً عَنْ رِسَالَتِهَا، مُحَاطَةً بِأَسْبَابِ الضَّعْفِ وَالتَّفَرُّقِ، فَعَبَّرَ عَنْ حُبِّهِ لَهَا وَأَلَمِهِ لِحَالِهَا بِعَاطِفَةٍ صَادِقَةٍ، فَقَالَ: «وَنُحِبُّ أَنْ يَعْلَمَ قَوْمُنَا أَنَّهُمْ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَنْفُسِنَا، وَأَنَّهُ حَبِيبٌ إِلَى هَذِهِ النُّفُوسِ أَنْ تَذْهَبَ فِدَاءً لِعِزَّتِهِمْ إِنْ كَانَ فِيهَا الْفِدَاءُ... وَمَا أَوْقَفَنَا هَذَا الْمَوْقِفَ مِنْهُمْ إِلَّا هَذِهِ الْعَاطِفَةُ الَّتِي اسْتَبَدَّتْ بِقُلُوبِنَا، وَمَلَكَتْ عَلَيْنَا مَشَاعِرَنَا، فَأَقَضَّتْ مَضَاجِعَنَا، وَأَسَالَتْ مَدَامِعَنَا. وَإِنَّهُ لَعَزِيزٌ عَلَيْنَا جِدُّ عَزِيزٍ أَنْ نَرَى مَا يُحِيطُ بِقَوْمِنَا ثُمَّ نَسْتَسْلِمَ لِلذُّلِّ أَوْ نَرْضَى بِالْهَوَانِ أَوْ نَسْتَكِينَ لِلْيَأْسِ، فَنَحْنُ نَعْمَلُ لِلنَّاسِ فِي سَبِيلِ اللهِ أَكْثَرَ مِمَّا نَعْمَلُ لِأَنْفُسِنَا، فَنَحْنُ لَكُمْ لَا لِغَيْرِكُمْ أَيُّهَا الْأَحْبَابُ، وَلَنْ نَكُونَ عَلَيْكُمْ يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ»[62].

وَرُوحُ الْإِشْفَاقِ هَذِهِ تُوَاكِبُهَا وَلَا شَكَّ رُوحُ الِاسْتِنْفَارِ التَّامِّ وَالْكَامِلِ الَّتِي تَعْنِي رُوحَ الْجِدِّ، وَالْبُعْدَ عَنِ الْمُيُوعَةِ وَالِاسْتِهْتَارِ وَالتَّلَكُّؤِ؛ لِأَنَّ أَعْدَاءَنَا جَادُّونَ يُخَطِّطُونَ وَلَا يَنَامُونَ أَوْ يَغْفُلُونَ، وَبَيْنَمَا تُحَاكُ الْمُؤَامَرَاتُ، حَتَّى يُهَدَّدَ كِيَانُنَا الدِّينِيُّ - كَمَا ذَكَرَ الْإِمَامُ الْبَنَّا - بِالْإِلْحَادِ وَالْإِبَاحِيَّةِ، وَكِيَانُنَا الدُّنْيَوِيُّ بِغَلَبَةِ الْأَجْنَبِيِّ عَلَى خَيْرَاتِ الْبِلَادِ؛ نَجِدُ رُوحَ الْمُيُوعَةِ وَالِاسْتِهْتَارِ تَخْتَرِقُ نُفُوسَ الْمُسْلِمِينَ.

وَمَضَارُّ هَذِهِ الرُّوحِ أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِهَا، كَمَا يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَنَّا؛ لِأَنَّهَا قَدْ تُسِيءُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَهُوَ ذَلِكَ الشُّعُورُ الْفَيَّاضُ الَّذِي يَمْلَأُ نُفُوسَ أُمَّتِنَا الْإِسْلَامِيَّةِ، وَلَكِنْ دُونَ وَعْيٍ دَقِيقٍ، دُونَ وَعْيٍ بِكَيْفِيَّةِ خِدْمَةِ هَذَا الشُّعُورِ مِنْ أَجْلِ خِدْمَةِ الْإِسْلَامِ، فَهُوَ شُعُورٌ

(62) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: دعوتنا]، ص 122.

لَا يَأْخُذُ حَقَّهَ مِنَ الخِدْمَةِ وَلَا مِنَ العِنَايَةِ، لَا يَأْخُذُ حَقَّهُ مِنْ خِلَالِ الوَعْيِ الدَّقِيقِ بِحَيْثُ يُصبِحُ إِيمانًا مُنتِجًا، وَإِرَادَةً قَوِيةً عَلَىٰ فِعْلِ الخَيْرِ؛ وَمِنْ ثَمَّ جَمَعَتِ الرِّسَالَةُ بَيْنَ الْعَاطِفَةِ الصَّادِقَةِ وَالْحَرَكَةِ الْجَادَّةِ، وَبَيْنَ الْإِشْفَاقِ عَلَىٰ الْأُمَّةِ وَاسْتِنْهَاضِهَا لِتَقُومَ بِوَاجِبِهَا وَتَسْتَعِيدَ رِسَالَتَهَا.

## ثَانِيًا: أَصْنَافُ النَّاسِ أَمَامَ دَعْوَةِ الْإِخْوَانِ

نَظَرَ الْإِمَامُ الْبَنَّا إِلَىٰ النَّاسِ مِنْ حَوْلِهِ نَظَرَةَ الدَّاعِي الْبَصِيرِ بِأَحْوَالِ مُجْتَمَعِهِ، الْمُشْفِقِ عَلَىٰ أُمَّتِهِ، فَلَمْ يَتَنَاوَلْ عَقَائِدَهُمْ بِالْحُكْمِ، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِإِيمَانِهِمْ بِالتَّكْفِيرِ أَوِ التَّفْسِيقِ، وَإِنَّمَا نَظَرَ إِلَىٰ مَوْقِفِهِمْ مِنَ الدَّعْوَةِ، وَمَدَىٰ وَعْيِهِمْ بِهَا وَاسْتِعْدَادِهِمْ لِلْعَمَلِ فِي سَبِيلِهَا، يَقُولُ ابنُ تَيمِيةَ رَحِمَهُ اللهُ: «مِنْ عُيُوبِ أَهْلِ الْبِدَعِ تَكْفِيرُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَمِنْ مَمَادِحِ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُمْ يُخَطِّئُونَ وَلَا يُكَفِّرُونَ»[63].

وَقَدْ لَاحَظَ الْإِمَامُ الْبَنَّا أَنَّ الْمُشْكِلَةَ لَيْسَتْ دَائِمًا فِي فَقْدِ الْإِيمَانِ بِالْمَبْدَأِ، وَإِنَّمَا فِي خُمُولِ هَذَا الْإِيمَانِ وَعَجْزِهِ عَنْ دَفْعِ صَاحِبِهِ إِلَىٰ الْعَمَلِ؛ فَقَالَ: «وَالْفَرْقُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا، بَعْدَ اتِّفَاقِنَا فِي الْإِيمَانِ بِهَذَا الْمَبْدَأِ، أَنَّهُ عِنْدَهُمْ إِيمَانٌ مُخَدَّرٌ نَائِمٌ فِي نُفُوسِهِمْ، لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَنْزِلُوا عَلَىٰ حُكْمِهِ، وَلَا أَنْ يَعْمَلُوا بِمُقْتَضَاهُ، عَلَىٰ حِينِ أَنَّهُ إِيمَانٌ مُلْتَهِبٌ مُشْتَعِلٌ قَوِيٌّ يَقِظٌ فِي نُفُوسِ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ»[64].

وَهَذَا التَّفْرِيقُ بَيْنَ الْإِيمَانِ الْيَقِظِ وَالْإِيمَانِ الْمُخَدَّرِ يَكْشِفُ عَنْ دَاءٍ خَطِيرٍ رَآهُ الْإِمَامُ فِي حَيَاةِ الْأُمَّةِ؛ وَهُوَ الِانْفِصَالُ بَيْنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَبَيْنَ الْحَمَاسَةِ الْعَاطِفِيَّةِ وَالْإِرَادَةِ الْفَاعِلَةِ. فَقَدْ يَبْلُغُ إِيمَانُ الْإِنْسَانِ بِالْفِكْرَةِ فِي لَحْظَةِ الْحَدِيثِ عَنْهَا مَبْلَغًا عَظِيمًا، ثُمَّ إِذَا هَدَأَ الْكَلَامُ وَانْفَضَّ الْمَجْلِسُ، نَسِيَ فِكْرَتَهُ، وَلَمْ يَقُمْ لَهَا بِعَمَلٍ، بَلْ رُبَّمَا عَمِلَ عَلَىٰ خِلَافِهَا وَهُوَ يَشْعُرُ أَوْ لَا يَشْعُرُ.

وَلَمْ يَكُنْ مَقْصُودُ الْإِمَامِ الْبَنَّا مِنْ هَذَا التَّشْخِيصِ الطَّعْنَ فِي النَّاسِ، بَلْ إِيقَاظَ

(63) تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني (ت 728هـ): **منهاج السنة النبوية**، تحقيق د. محمد رشاد سالم، ط 1، جامعة الإمام محمد بن سعود، 1406هـ - 1986م، 5/ 251.
(64) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: دعوتنا]، ص 127.

الْإِسْلَامِ الْكَامِنِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَتَحْوِيلَ الْإِيمَانِ السَّاكِنِ إِلَىٰ إِرَادَةٍ وَعَمَلٍ. وَقَدْ عَبَّرَ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ الْغَزَالِيُّ عَنْ هَذَا الْمَعْنَىٰ بِقَوْلِهِ: «لَقَدْ بَدَأَ حَسَنُ الْبَنَّا عَمَلَهُ مِنَ الصِّفْرِ، وَشَرَعَ دُونَ ضَجِيجٍ يُحْيِي الْإِسْلَامَ الْمُسْتَكِنَّ فِي الْقُلُوبِ، وَيُوَجِّهُهُ لِلْعَمَلِ... وَيَكْفِي الإِمَامَ الشَّهِيدَ شَرَفًا أَنَّهُ صَانِعُ الشَّبَابِ الذِينَ نَسَفُوا مُعسْكَرَاتِ الإِنْجلِيزِ عَلَىٰ ضِفَافِ القَنَاةِ، وَمَا زَالُوا بِهِمْ حَتَّىٰ أَغْرَوْهُمْ بِالرَّحِيلِ!»[65].

وَمِنْ هُنَا دَعَا الْإِمَامُ الْبَنَّا كُلَّ إِنْسَانٍ إِلَىٰ أَنْ يُحَدِّدَ مَوْقِفَهُ مِنَ الدَّعْوَةِ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ؛ فَلَا يَكُونُ قُرْبُهُ مِنْهَا أَوْ بُعْدُهُ عَنْهَا نَاتِجًا عَنْ انْطِبَاعٍ عَابِرٍ، أَوْ مَيْلٍ غَيْرِ وَاعٍ، أَوْ حُكْمٍ قَائِمٍ عَلَىٰ الشَّائِعَاتِ. فَالْمَطْلُوبُ أَنْ يَعْرِفَ حَقِيقَةَ الدَّعْوَةِ، وَيَطَّلِعَ عَلَىٰ مَبَادِئِهَا وَغَايَاتِهَا، ثُمَّ يُحَدِّدَ مَوْقِفَهُ مِنْهَا فِي وَضُوحٍ وَوَعْيٍ.

وَعَلَىٰ هَذَا الْأَسَاسِ صَنَّفَ الْإِمَامُ الْبَنَّا النَّاسَ أَمَامَ الدَّعْوَةِ أَرْبَعَةَ أَصْنَافٍ: مُؤْمِنًا، وَمُتَرَدِّدًا، وَنَفْعِيًّا، وَمُتَحَامِلًا، وَوَضَعَ لِلتَّعَامُلِ مَعَ كُلِّ صِنْفٍ مِنْهَجًا يَجْمَعُ بَيْنَ الْوُضُوحِ وَالثَّبَاتِ، وَبَيْنَ الرِّفْقِ وَالْإِشْفَاقِ.

## ثَالِثًا: حَقِيقَةُ دَعْوَتِنَا

يُبَيِّنُ الْإِمَامُ الْبَنَّا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ حَقِيقَةَ دَعْوَةِ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَهِيَ دَعْوَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ خَالِصَةٌ، بَرِيئَةٌ مِنَ الْمَطَامِعِ الشَّخْصِيَّةِ وَالْمَنَافِعِ الْمَادِّيَّةِ، لَا تَقُومُ عَلَىٰ طَلَبِ الْجَاهِ أَوِ الْمَالِ، وَلَا تَتَعَلَّقُ بِالْأَشْخَاصِ وَالْمَصَالِحِ، وَإِنَّمَا تَدْعُو إِلَىٰ اللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ، وَتَبْتَغِي رِضْوَانَهُ وَحْدَهُ.

يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَنَّا: «وَنُحِبُّ مَعَ هَذَا أَنْ يَعْلَمَ قَوْمُنَا ـ وَكُلُّ الْمُسْلِمِينَ قَوْمُنَا ـ أَنَّ دَعْوَةَ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ دَعْوَةٌ بَرِيئَةٌ نَزِيهَةٌ، قَدْ تَسَامَتْ فِي نَزَاهَتِهَا حَتَّىٰ جَاوَزَتِ الْمَطَامِعَ الشَّخْصِيَّةَ، وَاحْتَقَرَتِ الْمَنَافِعَ الْمَادِّيَّةَ، وَخَلَّفَتْ وَرَاءَهَا الْأَهْوَاءَ وَالْأَغْرَاضَ»[66]. وَمِنْ ثَمَّ لَا يَكْفِي أَنْ يَمِيلَ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ الدَّعْوَةِ مَيْلًا عَاطِفِيًّا، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْرِفَ حَقِيقَتَهَا

(65) محمد الغزالي: **دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين**، ط 2، دار الشروق، 1426هـ - 2005م، ص 8.

(66) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: دعوتنا]، ص 122.

وَمَا تَطْلُبُهُ مِنْ عَمَلٍ وَتَضْحِيَةٍ؛ فَقَدْ يَظُنُّ أَنَّهَا طَرِيقٌ إِلَىٰ مَنْفَعَةٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ مَصْلَحَةٍ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ عَنْهَا عِنْدَ الِامْتِحَانِ وَوَقْتِ الْجِدِّ. وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ الْبَنَّا: «أَمَّا نَحْنُ فَمَغْمُورُونَ جَاهًا، فُقَرَاءُ مَالًا، شَأْنُنَا التَّضْحِيَةُ بِمَا مَعَنَا، وَبَذْلُ مَا فِي أَيْدِينَا، وَرَجَاؤُنَا رِضْوَانُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ»[67].

وَكَمَا أَنَّ الْمَيْلَ غَيْرَ الْوَاعِي لَا يَكْفِي، فَإِنَّ النُّفُورَ مِنَ الدَّعْوَةِ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ وَلَا تَبَيُّنٍ لَيْسَ مَوْقِفًا رَشِيدًا؛ فَقَدْ يَنْظُرُ الْإِنْسَانُ إِلَيْهَا مِنْ خِلَالِ الشَّائِعَاتِ وَالْأَوْهَامِ، فَلَا يَرَىٰ فِيهَا إِلَّا مَا رَسَخَ فِي نَفْسِهِ مِنْ شُكُوكٍ. وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَقَابِلِ الْإِمَامُ الْبَنَّا الْمُتَحَامِلَ بِالْخُصُومَةِ، بَلْ بِالدُّعَاءِ وَالْإِشْفَاقِ، فَقَالَ: «فَهَذَا نَدْعُو اللهَ لَنَا وَلَهُ أَنْ يُرِينَا الْحَقَّ حَقًّا وَيَرْزُقَنَا اتِّبَاعَهُ، وَالْبَاطِلَ بَاطِلًا وَيَرْزُقَنَا اجْتِنَابَهُ وَ أَنْ يُلْهِمَنَا وَإِيَّاهُ الرُّشْدَ، نَدْعُوهُ إِنْ قَبِلَ الدعَاءَ وَ نُنَادِيهِ إِنْ أَجَابَ النِّدَاءَ وَنَدعُو اللهَ فِيهِ وَهُوَ أَهْلُ الرجَاءِ، وَلَقَدْ أَنزَلَ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّهِ الكَرِيمِ فِي صِنْفٍ مِنَ النَّاسِ: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: 56]»[68].

وَهَكَذَا تَتَجَلَّىٰ حَقِيقَةُ هَذِهِ الدَّعْوَةِ فِي ثَلَاثَةِ مَعَانٍ رَئِيسَةٍ: نَزَاهَةُ الْغَايَةِ، وَإِخْلَاصُ الْمَقْصِدِ، وَوُضُوحُ الْمَوْقِفِ الَّذِي تَطْلُبُهُ مِنَ النَّاسِ؛ فَلَا اتِّبَاعَ عَلَىٰ غَيْرِ بَصِيرَةٍ، وَلَا نُفُورَ عَلَىٰ غَيْرِ عِلْمٍ، وَلَا تَعَلُّقَ بِمَغْنَمٍ أَوْ مَنْفَعَةٍ، وَإِنَّمَا إِيمَانٌ وَاعٍ يَتْبَعُهُ عَمَلٌ وَتَضْحِيَةٌ.

## رَابِعًا: مُتَطَلَّبَاتُ دَعْوَتِنَا

تَقُومُ الدَّعْوَةُ عَلَىٰ عَمَلَيْنِ مُتَكَامِلَيْنِ: عَمَلٍ فِي الْعُمْقِ، وَعَمَلٍ فِي الِاتِّسَاعِ. فَأَمَّا الْعَمَلُ فِي الْعُمْقِ، فَهُوَ تَجْلِيَةُ الْمَبْدَأِ، وَتَوْضِيحُ الْفِكْرَةِ، وَتَعْمِيقُ الْإِدْرَاكِ بِهَا، حَتَّىٰ تَكُونَ بَارِزَةً جَلِيَّةً بَعِيدَةً عَنِ اللَّبْسِ وَالْغُمُوضِ. وَأَمَّا الْعَمَلُ فِي الِاتِّسَاعِ، فَهُوَ إِيصَالُ هَذِهِ الْفِكْرَةِ إِلَىٰ النَّاسِ، وَفَتْحُ أَعْيُنِهِمْ عَلَىٰ مَا يُحِيطُ بِهِمْ مِنْ مَخَاطِرَ، وَتَهْيِئَةُ نُفُوسِهِمْ لِفَهْمِ الدَّعْوَةِ وَالِاسْتِجَابَةِ لَهَا[69]. فَلَا يَكْفِي أَنْ تَكُونَ الْفِكْرَةُ صَحِيحَةً وَوَاضِحَةً، بَلْ لَا

(67) السابق، ص 124.
(68) السابق، ص 125.
(69) جودت سعيد: **العمل قدرة وإرادة**، ط 2، وزارة الإعلام، دمشق، 1404هـ - 1984م، ص 2.

بُدَّ أَيْضًا مِنْ إِعْدَادِ الْمُجْتَمَعِ الَّذِي يَحْمِلُهَا وَيَنْهَضُ بِتَكَالِيفِهَا. وَمِنْ هُنَا حَرَصَ الْإِمَامُ الْبَنَّا عَلَىٰ أَمْرَيْنِ مُتَلَازِمَيْنِ:

- تَوْضِيحِ الدَّعْوَةِ وَتَجْلِيَةِ حَقِيقَتِهَا.
- وَإِيقَاظِ الْأُمَّةِ وَتَهْيِئَتِهَا لِحَمْلِهَا.

مِنْ خِلَالِ إِشَاعَةِ رُوحِ الْجِدِّ وَالْمَسْؤُولِيَّةِ، وَالْبُعْدِ عَنِ الْغَفْلَةِ وَالتَّلَكُّؤِ وَالِاسْتِهْتَارِ؛ وَلِذَلِكَ لَمْ يَدَعِ الْإِمَامُ الْبَنَّا النَّاسَ إِلَىٰ الِانْضِمَامِ إِلَى الدَّعْوَةِ عَلَىٰ غَيْرِ بَصِيرَةٍ، بَلْ دَعَا كُلَّ وَاحِدٍ إِلَىٰ أَنْ يَتَعَرَّفَ إِلَيْهَا، وَيَقْرَأَ عَنْهَا، وَيَتَّصِلَ بِأَهْلِهَا، ثُمَّ يُحَدِّدَ مَوْقِفَهُ مِنْهَا عَنْ وَعْيٍ.

فَقَالَ عَنِ **الْمُتَرَدِّدِ**: «وَإِمَّا شَخْصٌ لَمْ يَسْتَبِنْ وَجْهَ الْحَقِّ، وَلَمْ يَتَعَرَّفْ فِي قَوْلِنَا مَعْنَىٰ الْإِخْلَاصِ وَالْفَائِدَةِ، فَهَذَا نَتْرُكُهُ لِتَرَدُّدِهِ، وَنُوصِيهِ بِأَنْ يَتَّصِلَ بِنَا عَنْ كَثَبٍ، وَيَقْرَأَ عَنَّا مِنْ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ، وَيُطَالِعَ كِتَابَاتِنَا، وَيَزُورَ أَنْدِيَتَنَا، وَيَتَعَرَّفَ إِلَىٰ إِخْوَانِنَا، فَسَيَطْمَئِنُّ بَعْدَ ذَلِكَ لَنَا إِنْ شَاءَ اللهُ وَكَذَلِكَ كَانَ شَأْنُ الْمُتَرَدِّدِينَ مِنْ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلُ»[70].

وَكَذَلِكَ لَمْ يَيْأَسْ مِنَ **الْمُتَحَامِلِ**، وَلَمْ يُقَابِلْهُ بِالْخُصُومَةِ، بَلْ ظَلَّ يَرْجُو عَوْدَتَهُ إِلَىٰ الْحَقِّ، فَقَالَ: «وَهَذَا سَنَظَلُّ نُحِبُّهُ، وَنَرْجُو فَيْئَهُ إِلَيْنَا، وَاقْتِنَاعَهُ بِدَعْوَتِنَا، وَإِنَّمَا شِعَارُنَا مَعَهُ مَا أَرْشَدَنَا إِلَيْهِ الْمُصْطَفَىٰ ﷺ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»[71].

وَهَذَا يَكْشِفُ عَنْ أَنَّ مِنْ مُتَطَلَّبَاتِ الدَّعْوَةِ إِيقَاظَ الْوَعْيِ، وَبِنَاءَ الْقَنَاعَةِ، وَتَحْوِيلَ الْإِيمَانِ الْكَامِنِ إِلَىٰ إِرَادَةٍ وَعَمَلٍ؛ فَلَا يَكْفِي الِانْفِعَالُ الْعَاطِفِيُّ، وَلَا الْحَمَاسُ الْمُؤَقَّتُ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ فَهْمٍ عَمِيقٍ، وَمَوْقِفٍ وَاعٍ، وَاسْتِعْدَادٍ لِلتَّضْحِيَةِ وَتَحَمُّلِ التَّكَالِيفِ.

## خَامِسًا: شَرَائِطُ إِنْجَازِ هَذَا التَّكْلِيفِ الضَّخْمِ

لَا رَيْبَ أَنَّ كُلَّ عَمَلٍ أو إِنْجَازٍ بَشَرِيٍّ ضَخْمٍ يَتِمُّ وَفْقَ طَرَائِقَ تُشْتَرَطُ لِإِنْجَازِهِ،

(70) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: دعوتنا]، ص 124.
(71) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: دعوتنا]، ص 125.

وَبَـواعِثَ تَضْمَـنَ دَوامَـهُ وَاسـتِقرَارَهُ. وَالشَّـرائِطُ أَوِ الطَّرائِـقُ الّتِـي تُشتَـرَطُ لِإنْجَـازِ هَـذَا النَّشَـاطِ الضَّخْـمِ الّـذِي يُرِيـدُهُ الإِمَـامُ البَنَّـا مِـنَ الأُمَّـةِ وَيَسـتَنفِرُهَا مَعَـهُ؛ تَتمثَّـلُ فِـي عِـدَّةِ ضَوابِطَ يَقتَضِيهَـا إِنجَـازُ هَـذَا المَشرُوعُ النَّهضَـوِيُّ الضَّخْـمُ، وَأَهَـمُ هَـذِه الضوابطِ مَـا يَأتِي:

## 1 – أَدَاءُ الْوَاجِبِ

لَا رَيْـبَ أَنَّ كُلَّ عَمَـلٍ بَشَـرِيٍّ ضَخْـمٍ لَا يَتِـمُّ عَفْـوًا، وَلَا يَسْـتَقِرُّ بِغَيْـرِ شُـرُوطٍ وَضَوَابِـطَ تَحْكُـمُ مَسِيرَتَهُ، وَبَوَاعِـثَ تَضْمَـنُ دَوَامَـهُ وَاسْـتِمْرَارَهُ. وَإِذَا كَانَ الْإِمَـامُ الْبَنَّـا يَسْـتَنْفِرُ الْأُمَّـةَ لِلنُّهُـوضِ بِمَشْـرُوعٍ إِصْلَاحِـيٍّ كَبِيـرٍ، فَـإِنَّ هَـذَا الْمَشْـرُوعَ لَا بُـدَّ لَـهُ مِـنْ شَـرَائِطَ تَضْبِـطُ الْعَمَـلَ، وَتَحْمِـي الْعَامِلِيـنَ مِـنَ التَّـرَدُّدِ وَالْقُعُـودِ وَاسْـتِعْجَالِ النَّتَائِـجِ. وَفِـي مُقَدِّمَـةِ هَـذِهِ الشَّـرَائِطِ: أَنْ تُـؤَدِّيَ الْأُمَّـةُ وَاجِبَهَـا قَبْـلَ أَنْ تَبْحَـثَ عَـنْ حَقِّهَـا، وَأَنْ تَقُـومَ بِمَـا عَلَيْهَـا قَبْـلَ أَنْ تَنْتَظِـرَ مَـا يَعُـودُ عَلَيْهَـا مِـنْ فَائِـدَةٍ أَوْ مَنْفَعَـةٍ.

وَهَـذَا مَـا عَلَّمَنَـا إِيَّـاهُ رَسُـولُ اللهِ ﷺ حِيـنَ قَـالَ فِـي الْحَدِيـثِ: «إِنَّـهُ سَـيَكُونُ عَلَيْكُـمْ أُمَـرَاءُ، وَتَـرَوْنَ أَثَـرَةً»، قَالُـوا: يَـا رَسُـولَ اللهِ، فَمَـا يَصْنَـعُ مَـنْ أَدْرَكَ ذَلِـكَ مِنَّـا؟ قَـالَ: «أَدُّوا الْحَـقَّ الَّـذِي عَلَيْكُـمْ، وَسَـلُوا اللهَ الَّـذِي لَكُـمْ»[72].

فَالْحَدِيـثُ يُرَبِّـي الْمُسْـلِمَ عَلَـىٰ أَنْ يَبْـدَأَ بِوَاجِبِـهِ، وَأَلَّا يَجْعَـلَ حُصُولَـهُ عَلَـىٰ حَقِّـهِ شَـرْطًا لِأَدَاءِ مَـا عَلَيْـهِ؛ لِأَنَّ الْوَاجِـبَ لَا يَسْـقُطُ بِتَأَخُّـرِ الْحَـقِّ، وَلَا يَـزُولُ بِغِيَـابِ الْمَغْنَـمِ، وَلَا يَتَوَقَّـفُ عَلَـىٰ ضَمَـانِ النَّتِيجَـةِ، وَمِـنْ هُنَـا كَانَ الْأَخْـذُ عَلَـىٰ أَيْـدِي الظَّالِمِيـنَ وَاجِبًـا تُؤَدِّيـهِ الْأُمَّـةُ، وَلَـوْ لَـمْ تَجْـنِ مِـنْ وَرَائِـهِ مَنْفَعَـةً عَاجِلَـةً؛ لِأَنَّ الْعَـدْلَ لَا يَقُـومُ إِلَّا بِأُمَّـةٍ تَعْـرِفُ وَاجِبَهَـا، وَتَحْمِـلُ مَسْـؤُولِيَّتَهَا، وَلَا تَنْتَظِـرُ أَنْ يُهْـدَىٰ إِلَيْهَـا الْحَـقُّ مِـنْ غَيْـرِ بَـذْلٍ وَلَا مُجَاهَـدَةٍ.

وَقَـدْ أَشَـارَ الْإِمَـامُ مُحَمَّـدٌ عَبْـدُهُ إِلَـىٰ هَـذَا الْمَعْنَـىٰ فِـي تَفْسِـيرِ قَوْلِـهِ تَعَالَـىٰ: ﴿كُنْتُـمْ خَيْـرَ أُمَّـةٍ أُخْرِجَـتْ لِلنَّـاسِ﴾ [آل عمـران: 110]، فَقَـالَ: «**وَمِـنْ أَعْمَـالِ هَـذِهِ الْأُمَّـةِ الْأَخْـذُ عَلَـىٰ أَيْـدِي الظَّالِمِيـنَ، فَـإِنَّ الظُّلْـمَ أَقْبَـحُ الْمُنْكَـرِ، وَالظَّالِـمَ لَا يَكُـونُ إِلَّا قَوِيًّـا؛ وَلِذَلِـكَ اشْـتُرِطَ فِـي النَّاهِيـنَ عَـنِ الْمُنْكَـرِ أَنْ يَكُونُـوا أُمَّـةً؛ لِأَنَّ الْأُمَّـةَ لَا تُخَالَـفُ وَلَا تُغْلَـبُ... فَهِـيَ الَّتِـي تُقَـوِّمُ**

(72) إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين، وأخرجه مسلم (١٨٤٣)، وأحمد في مسنده (٣٦٤٠).

**عِوَجَ الْحُكُومَةِ... وَلَا مَعْرُوفَ أَعْرَفُ مِنَ الْعَدْلِ، وَلَا مُنْكَرَ أَنْكَرُ مِنَ الظُّلْمِ»**[73].

فَالْوَاجِبُ هُنَا مَنُوطٌ بِالْأُمَّةِ كُلِّهَا، وَلَا يُشْتَرَطُ لِلْقِيَامِ بِهِ مَغْنَمٌ دُنْيَوِيٌّ، أَوْ فَائِدَةٌ مَادِّيَّةٌ، أَوْ نَتِيجَةٌ عَاجِلَةٌ؛ لِأَنَّ الْأُمَّةَ لَا تَقُومُ بِوَاجِبِهَا تَفَضُّلًا، بَلْ تَقُومُ بِهِ لِأَنَّهُ حَقٌّ وَتَكْلِيفٌ وَمَسْؤُولِيَّةٌ، وَقَدْ أَكَّدَ الْإِمَامُ الْبَنَّا هَذَا الْمَعْنَىٰ فَقَالَ: «الْعَامِلُ يَعْمَلُ لِأَدَاءِ الْوَاجِبِ أَوَّلًا، ثُمَّ لِلْأَجْرِ الْأُخْرَوِيِّ ثَانِيًا، ثُمَّ لِلْإِفَادَةِ ثَالِثًا، وَهُوَ إِنْ عَمِلَ فَقَدْ أَدَّىٰ الْوَاجِبَ، وَفَازَ بِثَوَابِ اللهِ... وَبَقِيَتِ الْإِفَادَةُ، وَأَمْرُهَا إِلَىٰ اللهِ، فَقَدْ تَأْتِي فُرْصَةٌ لَمْ تَكُنْ فِي حِسَابِهِ تَجْعَلُ عَمَلَهُ يَأْتِي بِأَبْرَكِ الثَّمَرَاتِ، عَلَىٰ حِينِ أَنَّهُ إِذَا قَعَدَ عَنِ الْعَمَلِ فَقَدْ لَزِمَهُ إِثْمُ التَّقْصِيرِ، وَضَاعَ مِنْهُ أَجْرُ الْجِهَادِ، وَحُرِمَ الْإِفَادَةَ قَطْعًا» [74].

إِنَّهَا تَرْبِيَةٌ لِلْعَامِلِ عَلَىٰ أَنْ يَسْأَلَ أَوَّلًا: **مَا وَاجِبِي؟** لَا أَنْ يَسْأَلَ: **مَاذَا سَأَحْصُلُ عَلَيْهِ؟** وَأَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ مَوْقِعِهِ مِنَ التَّكْلِيفِ قَبْلَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ نَصِيبِهِ مِنَ الْغَنِيمَةِ. فَإِذَا عَمِلَ الْإِنْسَانُ، فَقَدْ أَدَّىٰ مَا عَلَيْهِ، وَاسْتَحَقَّ أَجْرَهُ عِنْدَ اللهِ، وَبَقِيَتِ النَّتَائِجُ فِي تَقْدِيرِ اللهِ وَتَوْقِيتِهِ. أَمَّا إِذَا قَعَدَ عَنِ الْعَمَلِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَرَ الثَّمَرَةَ قَرِيبَةً، فَقَدْ خَسِرَ الْوَاجِبَ وَالْأَجْرَ وَالْإِفَادَةَ مَعًا. وَمِنْ هُنَا كَانَتِ الْمُعَادَلَةُ الصَّعْبَةُ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَىٰ نُفُوسٍ رَبَّانِيَّةٍ صَادِقَةٍ أَنَّ: **الْوَاجِبُ قَبْلَ الْحَقِّ**

فَأَدَاءُ الْوَاجِبِ دُونَ انْتِظَارِ مَغْنَمٍ مِنْ أَهَمِّ شَرَائِطِ الْعَمَلِ الَّتِي تَبْعَثُ عَلَىٰ إِنْجَازِهِ، وَتُؤَدِّي إِلَىٰ دَوَامِ اسْتِقْرَارِهِ.

أَمْرٌ آخَرُ فِي غَايَةِ الْأَهَمِّيَّةِ يَتَّصِلُ بِأَدَاءِ الْوَاجِبِ، أَلَا وَهُوَ **فِقْهُ تَرْتِيبِ الْأَوْلَوِيَّاتِ**؛ فَلَيْسَ الْمَقْصُودُ مُجَرَّدَ الْعَمَلِ، بَلِ الْبَدْءُ بِمَا يَنْبَغِي أَنْ يُبْدَأَ بِهِ، وَتَقْدِيمُ الْأُصُولِ عَلَىٰ الْفُرُوعِ، وَالْوَسَائِلِ عَلَىٰ النَّتَائِجِ. وَقَدْ يَكُونُ مِنْ عِلَلِ إِخْفَاقِ الْعَمَلِ الْإِسْلَامِيِّ الْمُعَاصِرِ الَّتِي نَبَّهَ إِلَيْهَا الْأُسْتَاذُ الْبَنَّا: إِصْلَاحُ الْحُكْمِ قَبْلَ إِصْلَاحِ الْمُجْتَمَعِ؛ لِأَنَّ الْحُكْمَ قَبْلَ الْمُجْتَمَعِ **نَتِيجَةٌ قَبْلَ الْوَسِيلَةِ**.

---

(73) الشيخ محمد رشيد رضا: **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م 4/ 37.

(74) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة إلىٰ أي شيء ندعو الناس]، ص 73.

وَقَدْ تَكَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ تَحْتَ عُنْوَانِ »**فِي سَبِيلِ النُّهُوضِ**«، حَيْثُ قَالَ:«بَيْدَ أَنَّ زُعَمَاءَ خَلَقَتْهُمُ الظُّرُوفُ أَرَادُوا أَنْ يَسْتَعْجِلُوا النَّتَائِجَ قَبْلَ الْوَسَائِلِ، وَخَدَعَتْهُمْ غَرَارَتُهُمْ بِقِيَادَةِ الشُّعُوبِ وَمَكَائِدِ السِّيَاسَةِ، فَظَنُّوا السَّرَابَ مَاءً، وَجَرَوْا وَرَاءَهُ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهُ لَمْ يَجِدُوا شَيْئًا، بَعْدَ إِنْفَاقِ الْجُهْدِ وَتَضْحِيَةِ الْوَقْتِ وَفَنَاءِ الزَّادِ، فَاضْطُرُّوا إِلَىٰ الرُّجُوعِ مِنْ حَيْثُ بَدَؤُوا، وَتَقَهْقَرُوا وَخَسِرُوا وَلَمْ يَرْبَحُوا» (75).

وَلَا يَعْنِي أَدَاءَ الْوَاجِبِ دُونَ انْتِظَارِ مَغْنَمٍ أَنْ يَعْمَلَ الْإِنْسَانُ بِغَيْرِ وَعْيٍ، أَوْ أَنْ يُهْمِلَ النَّظَرَ فِي النَّتَائِجِ، أَوْ أَنْ يُعِيدَ تَكْرَارَ الْخَطَإِ وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُؤَدِّي وَاجِبَهُ؛ فَأَدَاءُ الْوَاجِبِ شَيْءٌ، وَإِهْمَالُ فِقْهِ الْعَوَاقِبِ شَيْءٌ آخَرُ.

## 2-فِقْهُ الْعَوَاقِبِ

وَلِذَلِكَ يَأْتِي **فِقْهُ الْعَوَاقِبِ** مُكَمِّلًا لِأَدَاءِ الْوَاجِبِ، لَا مُعَارِضًا لَهُ. فَلِكُلِّ عَمَلٍ مَقْصِدٌ، وَلِكُلِّ مَسِيرَةٍ غَايَةٌ، وَلِكُلِّ وَسِيلَةٍ نَتِيجَةٌ يُنْظَرُ فِي مَدَىٰ تَحَقُّقِهَا. فَإِذَا تَأَخَّرَتِ النَّتَائِجُ، أَوْ تَخَلَّفَتِ الْعَوَاقِبُ عَمَّا كَانَ مُتَوَقَّعًا، فَلَا بُدَّ مِنْ مُرَاجَعَةِ الْمَفَاهِيمِ وَالْوَسَائِلِ، وَتَقْوِيمِ الْأَخْطَاءِ، وَالْبَحْثِ عَنْ مَوَاطِنِ الْخَلَلِ.

فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُجْعَلَ الْقَدَرُ سِتَارًا تُخْفَىٰ خَلْفَهُ الْأَخْطَاءُ، وَلَا أَنْ تُنْسَبَ نَتَائِجُ التَّقْصِيرِ إِلَىٰ إِرَادَةِ اللهِ؛ فَقَدْ عَابَ الْقُرْآنُ عَلَىٰ مَنْ فَعَلُوا الْبَاطِلَ ثُمَّ نَسَبُوهُ إِلَىٰ اللهِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: 28].

وَمِنَ الْمَقُولَاتِ الَّتِي قَدْ تُفْهَمُ فَهْمًا خَاطِئًا: أَنَّ «السَّعْيَ الصَّالِحَ لَا يُحَتِّمُ النَّجَاحَ»، أَوْ أَنَّ «عَلَيَّ أَنْ أَسْعَىٰ وَلَيْسَ عَلَيَّ إِدْرَاكُ النَّجَاحِ». فَهَذِهِ الْعِبَارَاتُ تَصِحُّ إِذَا كَانَ الْمَقْصُودُ أَنَّ الْعَامِلَ لَا يَمْلِكُ تَوْقِيتَ النَّتِيجَةِ، وَلَا يَضْمَنُ أَنْ يَرَىٰ الثَّمَرَةَ فِي حَيَاتِهِ؛ وَلَكِنَّهَا تَصِيرُ خَطِيرَةً إِذَا أَدَّتْ إِلَىٰ إِهْمَالِ الْمُرَاجَعَةِ، أَوْ تَبْرِيرِ الْإِخْفَاقِ، أَوْ تَكْرَارِ الْوَسَائِلِ الْخَاطِئَةِ.

وَقَدْ دَعَا الْقُرْآنُ إِلَىٰ الْعَمَلِ الْمَشْهُودِ الَّذِي يَخْضَعُ لِلْحِسَابِ وَالتَّقْوِيمِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ:

(75) حسن البنا: **مذكرات الدعوة والداعية**. ص 177، 178.

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 105].

وَفِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: »يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ«(76).

فَالْمُرَاجَعَةُ هُنَا لَيْسَتْ تَرَاجُعًا عَنِ الْمَبْدَأِ، وَلَا شَكًّا فِيهِ، بَلْ هِيَ تَوْبَةٌ مِنَ الْخَطَأِ، وَتَصْحِيحٌ لِلْمَسَارِ، وَاسْتِدْرَاكٌ لِمَا فَاتَ. وَبِغَيْرِ هَذِهِ الرُّوحِ لَا يَتَقَدَّمُ عَمَلٌ، وَلَا تَنْضَجُ تَجْرِبَةٌ، وَلَا تَتَعَلَّمُ أُمَّةٌ مِنْ أَخْطَائِهَا.

وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ مِنْ أَدَاءِ الْوَاجِبِ دُونَ انْتِظَارِ مَغْنَمٍ أَنَّ الْعَامِلَ يَتَخَلَّىٰ عَنْ غَايَتِهِ، أَوْ لَا يَنْظُرُ فِي مَآلِ عَمَلِهِ؛ فَالْأَصْلُ أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ مَقْصِدًا، وَلِكُلِّ جُهْدٍ عَاقِبَةً. وَقَدْ يَرَىٰ الْعَامِلُ ثَمَرَةَ عَمَلِهِ، وَقَدْ لَا يَرَاهَا؛ وَلَكِنَّهُ فِي الْحَالَيْنِ مَأْمُورٌ بِالْعَمَلِ، وَمُطَالَبٌ بِإِحْسَانِهِ، وَمَسْؤُولٌ عَنْ وَسَائِلِهِ. وَقَدْ خَاطَبَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ فَقَالَ: ﴿**وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ**﴾ [يونس: 46].

فَلَيْسَ شَرْطًا أَنْ يَرَىٰ الدَّاعِي كُلَّ مَا وُعِدَ بِهِ، وَلَا أَنْ يَقْطِفَ كُلَّ مَا غَرَسَ؛ وَلَكِنَّهُ يَعْمَلُ مُطْمَئِنًّا إِلَىٰ وَعْدِ اللهِ، وَاثِقًا بِأَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ لَا يَضِيعُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا**﴾ [النور: 55].

وَهَكَذَا يَجْتَمِعُ الْمَعْنَيَانِ فِي نَفْسِ الْعَامِلِ: **يُؤَدِّي الْوَاجِبَ وَلَا يَعْبُدُ النَّتِيجَةَ، وَيَرْقُبُ الْعَوَاقِبَ وَلَا يُبَرِّرُ الْخَطَأَ**. يَعْمَلُ لِلَّهِ، وَلَكِنَّهُ يُحْسِنُ الْعَمَلَ، وَيَثِقُ بِوَعْدِ اللهِ، وَلَكِنَّهُ يُرَاجِعُ وَسَائِلَهُ، وَيَصْبِرُ عَلَىٰ تَأَخُّرِ الثَّمَرَةِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَرْضَىٰ بِالْفَشَلِ وَلَا يُقَدِّسُ الْأَخْطَاءَ.

فَأَدَاءُ الْوَاجِبِ يَحْمِي الْعَامِلَ مِنَ الْقُعُودِ وَالْأَثَرَةِ، وَفِقْهُ الْعَوَاقِبِ يَحْمِي الْعَمَلَ مِنَ الْعَشْوَائِيَّةِ وَتَكْرَارِ الْإِخْفَاقِ، وَبِهِمَا مَعًا يَثْبُتُ الْعَمَلُ، وَيَسْتَمِرُّ، وَيَقْتَرِبُ مِنْ غَايَتِهِ.

(76) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٥٧٧).

## 3- تَقْدِيمُ الْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ عَلَىٰ الْمَصْلَحَةِ الْخَاصَّةِ

مِنْ أَهَمِّ الشُّرُوطِ الَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَا الْعَمَلُ الْجَمَاعِيُّ النَّاجِحُ أَنْ يَتَجَرَّدَ الْعَامِلُونَ مِنَ الْأَثَرَةِ وَالْأَنَانِيَّةِ، وَأَنْ تَتَقَدَّمَ فِي نُفُوسِهِمْ مَصْلَحَةُ الْأُمَّةِ عَلَىٰ مَصَالِحِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْمَلُونَ لِذَوَاتِهِمْ، وَلَا يَسْعَوْنَ إِلَىٰ مَغْنَمٍ خَاصٍّ، وَلَا يَبْنُونَ مَجْدًا شَخْصِيًّا، وَإِنَّمَا يَقُومُونَ بِوَاجِبٍ يُصْلِحُونَ بِهِ أُمَّتَهُمْ، وَيَأْخُذُونَ بِيَدِهَا لِتَنْهَضَ مِنْ كَبْوَتِهَا، وَتَسْتَعِيدَ عِزَّتَهَا وَمَكَانَتَهَا.

وَهَذَا هُوَ مَعْنَىٰ الْإِيثَارِ فِي مَيْدَانِ الدَّعْوَةِ؛ أَنْ يَعْمَلَ الْإِنْسَانُ لِغَيْرِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْمَلُ لِنَفْسِهِ، وَأَنْ يَبْذُلَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ لَا يَجْنِي ثَمَرَةَ بَذْلِهِ، وَقَدْ لَا يَشْهَدُ النَّصْرَ الَّذِي عَمِلَ مِنْ أَجْلِهِ، وَلَكِنَّهُ يَرْضَىٰ أَنْ يَكُونَ جُهْدُهُ لَبِنَةً فِي بِنَاءٍ يَسْتَكْمِلُهُ مَنْ بَعْدَهُ.

فَلَيْسَ شَرْطًا فِي نَجَاحِ الْعَامِلِ أَنْ يَبْلُغَ هُوَ الْغَايَةَ، أَوْ أَنْ يَرَىٰ فِي حَيَاتِهِ مَا تَمَنَّاهُ لِأُمَّتِهِ؛ فَقَدْ يَكُونُ نَجَاحُهُ الْحَقِيقِيُّ أَنْ يَفْتَحَ طَرِيقًا لِغَيْرِهِ، أَوْ يَضَعَ أَسَاسًا يَبْنِي عَلَيْهِ الْجِيلُ التَّالِي، أَوْ يَغْرِسَ غَرْسًا لَا يَأْكُلُ مِنْ ثَمَرِهِ، وَلَكِنْ تَأْكُلُ مِنْهُ أُمَّتُهُ مِنْ بَعْدِهِ.

وَمِنْ هُنَا يَكُونُ الْعَمَلُ لِلْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ قِمَّةً فِي التَّضْحِيَةِ وَالْإِخْلَاصِ؛ لِأَنَّ الْعَامِلَ يَتَجَرَّدُ مِنْ حَظِّ نَفْسِهِ، وَيَضَعُ مَصْلَحَةَ الدَّعْوَةِ وَالْأُمَّةِ فِي الْمُقَدِّمَةِ، وَيَرْضَىٰ أَنْ يَذْهَبَ هُوَ وَيَبْقَىٰ الْعَمَلُ، وَأَنْ يَغِيبَ اسْمُهُ وَتَبْقَىٰ الثَّمَرَةُ.

وَفِي هَذَا الْمَعْنَىٰ تَتَجَلَّىٰ حَقِيقَةُ الْعَمَلِ لِلَّهِ؛ فَالْعَامِلُ الصَّادِقُ لَا يَرْبِطُ جُهْدَهُ بِحُضُورِ اسْمِهِ، وَلَا بِاعْتِرَافِ النَّاسِ بِفَضْلِهِ، وَلَا بِوُصُولِهِ هُوَ إِلَىٰ مَوْقِعِ الْقِيَادَةِ أَوِ التَّأْثِيرِ، وَإِنَّمَا يَهُمُّهُ أَنْ تَصِلَ الْأُمَّةُ، وَأَنْ يَنْتَصِرَ الْحَقُّ، وَأَنْ تَسْتَقِيمَ الْمَسِيرَةُ، سَوَاءٌ أَكَانَ هُوَ فِي مُقَدِّمَتِهَا أَمْ لَمْ يَكُنْ.

وَقَدْ عَبَّرَتْ سِيرَةُ الْعَامِلِينَ لِهَذَا الدِّينِ عَنْ هَذَا الْمَعْنَىٰ تَعْبِيرًا عَمَلِيًّا؛ إِذْ كَانُوا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ وَاجِبٍ، وَلَا يَقِفُونَ طَوِيلًا عِنْدَ مَا سَيَجْنُونَهُ هُمْ مِنْ ثَمَرَةٍ.

وَقَدْ ذُكِرَ عَنِ الْأُسْتَاذِ سَيِّدِ قُطْبٍ أَنَّهُ، حِينَ سُئِلَ فِي التَّحْقِيقِ عَمَّا حَمَلَهُ عَلَىٰ تَحَمُّلِ مَسْؤُولِيَّةٍ يَعْلَمُ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنْ عَوَاقِبَ، أَجَابَ بِمَا مَعْنَاهُ: إِنَّ هَذَا وَاجِبُهُ الدِّينِيُّ،

وَإِنَّ إِحْسَاسَهُ بِالتَّكْلِيفِ، وَإِشْفَاقَهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَأُمَّتِهِ، يَدْعُوَانِهِ إِلَىٰ الْقِيَامِ بِمَا يَرَاهُ وَاجِبًا، وَإِنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ قَدْ يُكَلِّفُهُ حَيَاتَهُ(77).

فَهُوَ لَمْ يَنْظُرْ إِلَىٰ عَاقِبَةِ مَوْقِفِهِ مِنْ حَيْثُ مَا يَعُودُ عَلَيْهِ هُوَ، بَلْ نَظَرَ إِلَىٰ مَا قَدْ يَسْتَفِيدُهُ غَيْرُهُ مِنْ بَعْدِهِ؛ فَقَدْ لَا يُؤَدِّي جُهْدُ الْعَامِلِ إِلَىٰ الْفَتْحِ عَلَىٰ يَدَيْهِ، وَلَكِنَّهُ يُمَهِّدُ لِلْفَتْحِ عَلَىٰ يَدَيْ مَنْ يَأْتِي بَعْدَهُ. وَهَذَا هُوَ الْعَمَلُ الَّذِي يَتَجَاوَزُ حُدُودَ الذَّاتِ، وَيَتَّصِلُ بِمَصِيرِ الْأُمَّةِ وَمُسْتَقْبَلِهَا.

وَتَذْكُرُ أُخْتُهُ **حَمِيدَةُ قُطْبٍ** فِي كِتَابِهَا «أَحْرَاشُ اللَّيْلِ» أَنَّ شَمْسَ بَدْرَانَ وَصَفْوَتَ الرُّوبِيَّ طَلَبَا مِنْهَا أَنْ تَذْهَبَ إِلَىٰ أَخِيهَا، قُبَيْلَ تَنْفِيذِ حُكْمِ الْإِعْدَامِ، وَأَنْ تُبَلِّغَهُ أَنَّ نَجَاتَهُ مُرْتَبِطَةٌ بِكِتَابَةِ كَلِمَاتٍ يَتَرَاجَعُ فِيهَا عَنْ مَوْقِفِهِ وَيُؤَيِّدُ السُّلْطَةَ، فَرَفَضَ ذَلِكَ، وَرَأَىٰ أَنَّ مَا يُطْلَبُ مِنْهُ كَذِبَةٌ كُبْرَىٰ لَا يَغْتَفِرُهَا التَّارِيخُ، ثُمَّ قَالَ لَهَا: إِنْ كَانَ اللهُ قَدْ قَدَّرَ مَمَاتِي، فَلَعَلَّ اللهَ يَصْنَعُ بِمَوْتِي شَيْئًا لِهَذَا الدِّينِ.

وَقَدْ أَكَّدَ الْإِمَامُ الْبَنَّا هَذَا الْمَعْنَىٰ حِينَ بَيَّنَ أَنَّ الْعَامِلَ فِي هَذِهِ النَّهْضَةِ يَكْسِبُ كُلَّ يَوْمٍ نَصْرًا جَدِيدًا، وَإِنْ لَمْ يُؤَدِّهِ جُهْدُهُ هُوَ إِلَىٰ الْفَتْحِ، فَسَيُؤَدِّي إِلَيْهِ مَنْ بَعْدَهُ بِفَضْلِ مَا قَدَّمَهُ مِنْ جُهْدٍ، ثُمَّ اسْتَشْهَدَ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [التوبة: 105].

فَلَيْسَ الْعَمَلُ الصَّادِقُ جُهْدًا ضَائِعًا، وَلَا التَّضْحِيَةُ الْمُخْلِصَةُ خُسْرَانًا، وَلَا مَوْتُ الْعَامِلِ نِهَايَةً لِأَثَرِهِ؛ فَقَدْ يَبْقَىٰ مِنْهُ مَا يَتَحَوَّلُ إِلَىٰ قُوَّةٍ فِي نُفُوسِ الْأَجْيَالِ، وَإِلَىٰ دَرْسٍ يُنِيرُ لَهَا الطَّرِيقَ، وَإِلَىٰ لَبِنَةٍ يَرْتَفِعُ فَوْقَهَا الْبِنَاءُ.

وَهُنَا يَلْتَقِي تَقْدِيمُ الْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ بِفِقْهِ الْعَاقِبَةِ؛ فَالْعَامِلُ يَنْظُرُ إِلَىٰ عَاقِبَةِ عَمَلِهِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَحْصُرُهَا فِي عُمْرِهِ، وَلَا يَقِيسُهَا بِمَا نَالَهُ هُوَ مِنْ مَغْنَمٍ. إِنَّهُ يَنْظُرُ إِلَىٰ عَاقِبَةٍ

(77) **لماذا أعدموني**: وثيقة كتبها في السجن بطلب من المحققين سنة 1965م، عرض فيها نشاطه وصلته بالتنظيم وما دار حوله من أسئلة التحقيق، ثم نُشرت لاحقًا بهذا العنوان.

أَوْسَعَ مِنْ ذَاتِهِ، وَأَبْعَدَ مِنْ زَمَانِهِ؛ عَاقِبَةٍ قَدْ تَظْهَرُ فِي جِيلٍ لَمْ يَرَهُ، وَفِي نَصْرٍ لَمْ يَشْهَدْهُ، وَفِي ثَمَرَةٍ لَمْ يَقْطِفْهَا.

وَمِنْ ثَمَّ فَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ أَنْ يُؤَدِّيَ الْعَامِلُ وَاجِبَهُ، وَأَنْ يَنْظُرَ فِي الْعَوَاقِبِ؛ إِنَّمَا الْخَطَرُ أَنْ يَجْعَلَ مَصْلَحَتَهُ الشَّخْصِيَّةَ هِيَ الْعَاقِبَةَ الْوَحِيدَةَ الَّتِي يَقِيسُ بِهَا نَجَاحَ الْعَمَلِ. فَقَدْ يَنْجَحُ الْعَمَلُ وَيَخْسَرُ الْعَامِلُ بَعْضَ دُنْيَاهُ، وَقَدْ تَنْتَصِرُ الْفِكْرَةُ بَعْدَ رَحِيلِ أَصْحَابِهَا، وَقَدْ يَكُونُ الْبَذْلُ الَّذِي لَمْ يَرَ صَاحِبُهُ ثَمَرَتَهُ هُوَ الَّذِي مَهَّدَ لِلنَّصْرِ الْكَبِيرِ.

وَهَذِهِ هِيَ الْمُعَادَلَةُ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا كُلُّ عَمَلٍ نَهْضَوِيٍّ صَادِقٍ: أَنْ يَنْظُرَ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ وَاجِبِهِ قَبْلَ حَقِّهِ، وَإِلَىٰ مَصْلَحَةِ أُمَّتِهِ قَبْلَ مَصْلَحَتِهِ، وَإِلَىٰ بَقَاءِ الْفِكْرَةِ قَبْلَ بَقَاءِ اسْمِهِ، وَإِلَىٰ مَا سَيَبْنِيهِ مَنْ بَعْدَهُ قَبْلَ مَا سَيَجْنِيهِ هُوَ فِي حَيَاتِهِ.

فَإِذَا اسْتَقَرَّ هَذَا الْمَعْنَىٰ فِي نُفُوسِ الْعَامِلِينَ، تَحَرَّرَ الْعَمَلُ مِنَ الْمُنَافَسَاتِ الشَّخْصِيَّةِ، وَالْأَهْوَاءِ الْخَفِيَّةِ، وَالْحِرْصِ عَلَىٰ الْمَوَاقِعِ وَالْمَكَاسِبِ، وَأَصْبَحَتِ الْأُمَّةُ هِيَ الْغَايَةَ، وَرِضْوَانُ اللهِ هُوَ الْمَقْصِدَ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ الطَّرِيقَ.

وَبِذَلِكَ يَكُونُ تَقْدِيمُ الْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ لَيْسَ خُلُقًا زَائِدًا فَحَسْبُ، بَلْ شَرْطًا مِنْ شُرُوطِ بَقَاءِ الدَّعْوَةِ وَنَجَاحِهَا؛ **لِأَنَّ الْعَمَلَ الَّذِي تَتَغَلَّبُ فِيهِ الْمَصَالِحُ الشَّخْصِيَّةُ يَتَفَكَّكُ، وَالْجَمَاعَةَ الَّتِي يَطْلُبُ أَفْرَادُهَا حُظُوظَ أَنْفُسِهِمْ تَضْعُفُ، أَمَّا الْعَمَلُ الَّذِي يَتَجَرَّدُ أَصْحَابُهُ لِلَّهِ، وَيُقَدِّمُونَ أُمَّتَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، فَهُوَ أَقْدَرُ عَلَىٰ الْبَقَاءِ وَأَجْدَرُ بِالنَّصْرِ.**

## 4-بَاعِثُ الْإِرَادَةِ

مِنْ أَهَمِّ الشُّرُوطِ الَّتِي تُعِينُ عَلَىٰ إِنْجَازِ هَذَا الْعَمَلِ الضَّخْمِ: بَاعِثُ الْإِرَادَةِ؛ فَالْإِنْسَانُ لَا يَبْذُلُ، وَلَا يُضَحِّي، وَلَا يَثْبُتُ فِي وَجْهِ الْمَشَقَّاتِ، إِلَّا إِذَا امْتَلَكَ إِرَادَةً قَوِيَّةً تَدْفَعُهُ إِلَىٰ الْعَمَلِ، وَتَحْمِلُهُ عَلَىٰ مُوَاصَلَةِ الطَّرِيقِ.

وَيُمْكِنُ أَنْ نُعَبِّرَ عَنْ بَاعِثِ الْإِرَادَةِ بِعُنْوَانٍ آخَرَ، هُوَ: بُرُوزُ الْمَثَلِ الْأَعْلَىٰ؛ لِأَنَّ الْإِرَادَةَ لَا تَقْوَىٰ إِلَّا إِذَا بَرَزَ أَمَامَهَا مَثَلٌ أَعْلَىٰ وَاضِحٌ، تَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ النُّفُوسُ، وَتَرَىٰ فِيهِ أَهْلِيَّةً لِلْبَقَاءِ وَالْخُلُودِ، وَقُدْرَةً عَلَىٰ إِصْلَاحِ النَّاسِ وَالْحَيَاةِ.

وَيُعَرِّفُ الدُّكْتُورُ مَاجِدُ الْكِيلَانِيُّ الْمَثَلَ الْأَعْلَىٰ بِأَنَّهُ نَمُوذَجُ الْحَيَاةِ الَّتِي يُرَادُ لِلْفَرْدِ الْمُسْلِمِ أَنْ يَحْيَاهَا، وَلِلْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ أَنْ تَعِيشَ وَفْقَهَا. وَهُوَ يَمُدُّ الْفَرْدَ بِالْأَهْدَافِ الَّتِي يَعِيشُ مِنْ أَجْلِهَا، وَيَمُدُّ الْأُمَّةَ بِالرِّسَالَةِ الَّتِي تَمْنَحُ وُجُودَهَا الْمَعْنَىٰ وَالْمَكَانَةَ. وَمَثَلُهُ مَثَلُ الْمُخَطَّطِ الَّذِي يَضَعُهُ الْمُهَنْدِسُ، ثُمَّ يُحَالُ إِلَىٰ وَاقِعٍ مَلْمُوسٍ طِبْقًا لِقَوَانِينِ الْبِنَاءِ أَوْ قَوَانِينِ الآلَاتِ..[78].

فَالْمَبْدَأُ الْغَامِضُ لَا يُوَلِّدُ إِرَادَةً، وَالْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ الَّذِي لَا يَرَىٰ النَّاسُ إِمْكَانَ تَحَقُّقِهِ لَا يَدْفَعُهُمْ إِلَىٰ الْعَمَلِ مِنْ أَجْلِهِ. وَإِنَّمَا تَقْوَىٰ الْإِرَادَةُ حِينَ يَظْهَرُ لِلنَّاسِ أَنَّ هَذَا الْمَبْدَأَ صَالِحٌ، وَأَنَّهُ قَابِلٌ لِلتَّحَقُّقِ، وَأَنَّ فِيهِ خَلَاصَهُمْ وَسَعَادَتَهُمْ وَإِصْلَاحَ حَيَاتِهِمْ.

وَهَذَا مَا أَكَّدَهُ الْإِمَامُ الْبَنَّا فِي مُطْلَعِ رِسَالَةِ «دَعْوَتُنَا»، حِينَ قَالَ: «نَحْنُ نَدْعُو النَّاسَ إِلَىٰ مَبْدَأٍ... مَبْدَأٍ وَاضِحٍ مَحْدُودٍ مُسَلَّمٍ بِهِ مِنْهُمْ جَمِيعًا، هُمْ جَمِيعًا يَعْرِفُونَهُ، وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَدِينُونَ بِأَحَقِّيَّتِهِ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ فِيهِ خَلَاصَهُمْ وَإِسْعَادَهُمْ وَرَاحَتَهُمْ... مَبْدَأٍ أَثْبَتَتِ التَّجْرِبَةُ وَحُكْمُ التَّارِيخِ صَلَاحِيَّتَهُ لِلْخُلُودِ، وَأَهْلِيَّتَهُ لِإِصْلَاحِ الْوُجُودِ»[79].

---

(78) وَيُقَرِّرُ القُرآنُ الكَرِيمُ أَنَّ اللهَ وَحْدَهُ هُوَ الخَالِقُ المُصَمِّمُ لِلإِنْسَانِ. وَلِذَلِكَ فَهُوَ الخَبِيرُ الحَقِيقِيُّ بِتَخْطِيطِ النمُوذَجِ أَوِ (المَثَلِ الأَعْلَىٰ) لِصُورَةِ الإِنْسَانِ الصَّالِحِ - المُصْلِحِ، وَأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُشَارِكَهُ تَعَالَىٰ أَحَدٌ فِي تَحْدِيدِ (المَثَلِ الأَعْلَىٰ) فِي الاعْتِقَادِ وَالتَّطْبِيقَاتِ العَمَلِيَّةِ، ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [الروم: 27]، وَحِينَ يَتَنَكَّرُ البَشَرُ المَخْلُوقُونَ لِلْمَثَلِ الأَعْلَىٰ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرِّسَالَةُ، وَيُحَاوِلُونَ أَنْ يَضَعُوا لِلْحَيَاةِ البَشَرِيَّةِ (مَثَلًا أَعْلَىٰ) فِي الاعْتِقَادِ وَالسُّلُوكِ، فَإِنَّهُم يَصْنَعُونَ نَمَاذِجَ سَيِّئَةً ضَارَّةً أَوْ (مَثَلَ سَوْءٍ): ﴿**لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [النحل: 60].
يَمُدُّ (المَثَلُ الأَعْلَىٰ) الفَرْدَ بِالأَهْدَافِ الَّتِي يَعِيشُ مِنْ أَجْلِهَا، وَيَعْمَلُ لِتَحْقِيقِهَا. وَهُوَ أَيْضًا يَمُدُّ الأُمَّةَ بِالرِّسَالَةِ الَّتِي تَمْنَحُ وُجُودَهَا المُبَرِّرَ وَالمَكَانَةَ.. وَتَتَقَرَّرُ قِيمَةُ (المَثَلِ الأَعْلَىٰ) بِمِقْدَارِ مَا تَشْهَدُ لَه ثَمَرَاتُ التَّطْبِيقِ العَمَلِيِّ وَحَقَائِقُ العِلْمِ وَقَوَانِينُ الاجْتِمَاعِ، وَطِبْقًا لِانسِجَامِهِ مَعَ طَبِيعَةِ الإِنْسَانِ، وَالإِسْهَامِ فِي بَقَائِهِ وَرُقِيِّهِ النَّوعِيِّ وَالمَادِّيِّ.
وَالمَثَلُ الأَعْلَىٰ الَّذِي تَرْجُوهُ التَّربِيَةُ الإِسْلَامِيَّةُ هُوَ (مَثَلُ أَعْلَىٰ حَقٌّ، وَتَطْبِيقٌ حَقٌّ)، وَهَذَا يُعْطِي نَتَائِجَ إِيجَابِيَّةً فِي حَيَاةِ الإِنْسَانِ، وَمِثَالُهُ نَمُوذَجُ (المَثَلِ الأَعْلَىٰ) الَّذِي اعتَمَدَتْهُ التَّربِيَةُ النَّبوِيَّةُ، إِذِ استَطَاعَ الرَّسُولُ ﷺ بِالمَثَلِ الأَعْلَىٰ الحَقِّ، وَالتَّطْبِيقِ الصَّائِبِ لِهَذَا المَثَلِ أَنْ يَرفَعَ إِرادَةَ الفَرْدِ المُسْلِمِ إِلَىٰ دَرَجَةِ بَذْلِ النَّفْسِ وَالمَالِ فِي سَبِيلِ خِدْمَةِ الرِّسَالَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا. كَذَلِكَ شَهِدَتْ ثِمَارُ التَّطْبِيقِ العَمَلِيِّ وَحَقَائِقُ العِلْمِ لِصِحَّةِ هَذَا المَثَلِ الأَعْلَىٰ، وَانْسِجَامِهِ مَعَ طَبِيعَةِ الإِنْسَانِ وَإِسْهَامِهِ فِي رُقِيِّ النَّوْعِ الإِنْسَانِيِّ. ينظر: د. ماجد عرسان الكيلاني: **مقومات الشخصية المسلمة أو الإنسان الصالح**، ط 1، سلسلة كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، بدولة قطر، ص 81، وَمَا بَعْدَهَا.
(79) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: دعوتنا]، ص 127.

فَالْإِمَامُ الْبَنَّا لَا يَدْعُو إِلَىٰ فِكْرَةٍ مُبْهَمَةٍ، وَلَا إِلَىٰ مَثَلٍ خَيَالِيٍّ بَعِيدٍ عَنْ حَيَاةِ النَّاسِ، وَإِنَّمَا يَدْعُو إِلَىٰ مَبْدَأٍ عَرَفَهُ النَّاسُ، وَآمَنُوا بِأَصْلِهِ، وَأَثْبَتَ التَّارِيخُ صَلَاحِيَّتَهُ، وَلَكِنَّ الْمَطْلُوبَ أَنْ يَعُودَ هَذَا الْإِيمَانُ إِلَىٰ الْحَيَاةِ، وَأَنْ يَتَحَوَّلَ مِنْ فِكْرَةٍ سَاكِنَةٍ إِلَىٰ إِرَادَةٍ مُتَحَرِّكَةٍ وَعَمَلٍ مُنْتِجٍ.

وَلَا يَكْفِي أَنْ يَكُونَ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ صَحِيحًا فِي ذَاتِهِ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ إِجَادَةِ عَرْضِهِ، وَالْبُرْهَانِ عَلَىٰ صَلَاحِيَّتِهِ، وَتَقْرِيبِهِ إِلَىٰ عُقُولِ النَّاسِ وَنُفُوسِهِمْ. **فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ حَمَلَ الْفِكْرَةَ أَحْسَنَ بَيَانَهَا، وَلَا كُلُّ مَنْ آمَنَ بِالْحَقِّ أَجَادَ الدَّلَالَةَ عَلَيْهِ.**

إِنَّ عَرْضَ الْمَثَلِ الْأَعْلَىٰ يَحْتَاجُ إِلَىٰ صَنْعَةٍ وَإِتْقَانٍ، وَإِلَىٰ مَعْرِفَةٍ بِالنَّاسِ وَأَحْوَالِهِمْ، وَبِمَا يُقَرِّبُ الْفِكْرَةَ إِلَىٰ عُقُولِهِمْ وَيَفْتَحُ لَهَا قُلُوبَهُمْ. وَتَخْتَلِفُ أَسَالِيبُ الْبُرْهَانِ بِاخْتِلَافِ الْأَزْمِنَةِ وَالْأَشْخَاصِ وَالثَّقَافَاتِ؛ فَمَا يُقْنِعُ شَخْصًا قَدْ لَا يُقْنِعُ غَيْرَهُ، وَمَا يَصْلُحُ فِي زَمَانٍ قَدْ يَحْتَاجُ إِلَىٰ صِيَاغَةٍ أُخْرَىٰ فِي زَمَانٍ آخَرَ، مَعَ بَقَاءِ الْحَقِّ وَاحِدًا لَا يَتَغَيَّرُ.

وَمِنْ هُنَا تَكَلَّمَ الْإِمَامُ الْبَنَّا عَنِ اخْتِلَافِ الدُّعَاةِ وَوَسَائِلِ الدَّعْوَةِ بَيْنَ الْأَمْسِ وَالْيَوْمِ، فَقَالَ: «وَالدُّعَاةُ الْيَوْمَ غَيْرُهُمْ بِالْأَمْسِ؛ فَهُمْ مُثَقَّفُونَ مُجَهَّزُونَ مُدَرَّبُونَ أَخِصَّائِيُّونَ - وَلَا سِيَّمَا فِي الْبِلَادِ الْغَرْبِيَّةِ - حَيْثُ تَخْتَصُّ بِكُلِّ فِكْرَةٍ كَتِيبَةٌ مُدَرَّبَةٌ، تُوَضِّحُ غَامِضَهَا، وَتَكْشِفُ عَنْ مَحَاسِنِهَا، وَتَبْتَكِرُ لَهَا وَسَائِلَ النَّشْرِ وَطَرَائِقَ الدِّعَايَةِ، وَتَتَلَمَّسُ لَهَا فِي نُفُوسِ النَّاسِ أَيْسَرَ السُّبُلِ، وَأَهْوَنَهَا، وَأَقْرَبَهَا إِلَىٰ الِاقْتِنَاعِ وَالِاتِّبَاعِ»[80].

ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ وَسَائِلَ الدِّعَايَةِ لَمْ تَعُدْ مَقْصُورَةً عَلَىٰ خُطْبَةٍ تُلْقَىٰ أَوْ رِسَالَةٍ تُكْتَبُ، بَلْ اتَّسَعَتْ لِتَشْمَلَ الصُّحُفَ وَالْمَجَلَّاتِ وَالْمَسَارِحَ وَوَسَائِلَ الْإِذَاعَةِ وَالصُّوَرِ الْمُتَحَرِّكَةِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يُذَلِّلُ سُبُلَ الْوُصُولِ إِلَىٰ النَّاسِ فِي بُيُوتِهِمْ وَمَتَاجِرِهِمْ وَمَصَانِعِهِمْ وَمَزَارِعِهِمْ.

وَهَذَا الْكَلَامُ يَكْشِفُ عَنْ بُعْدِ نَظَرِ الْإِمَامِ الْبَنَّا؛ فَقَدْ أَدْرَكَ أَنَّ صِحَّةَ الْفِكْرَةِ وَحْدَهَا لَا تَكْفِي، وَأَنَّ قُوَّةَ الْحَقِّ لَا تُعْفِي أَصْحَابَهُ مِنْ إِجَادَةِ عَرْضِهِ، وَأَنَّ الدَّاعِيَ الَّذِي لَا يَمْلِكُ

(80) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: دعوتنا]، ص 128.

أَدَوَاتِ عَصْرِهِ قَدْ يَعْجِزُ عَنْ بُلُوغِ النَّاسِ، فَيَتَقَدَّمُ عَلَيْهِ صَاحِبُ الْبَاطِلِ؛ لِأَنَّهُ أَحْسَنُ اسْتِخْدَامًا لِلْوَسَائِلِ.

وَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ تَعَدُّدِ أَسَالِيبِ الْبُرْهَانِ، مَعَ وَحْدَةِ الْحَقِيقَةِ الَّتِي يُرَادُ الدَّلَالَةُ عَلَيْهَا. فَقَدْ سَأَلَ الرَّجُلُ الَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ خَاوِيَةٍ عَلَىٰ عُرُوشِهَا: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: 259]، فَأَرَاهُ اللهُ آيَةَ الْإِحْيَاءِ فِي نَفْسِهِ وَفِي حِمَارِهِ.

وَسَأَلَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: 260]، فَجَاءَهُ الْبُرْهَانُ بِصُورَةٍ أُخْرَىٰ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [البقرة: 260].

وَلَمَّا جَادَلَ الْمُنْكِرُ فِي الْبَعْثِ، قَالَ: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: 78]، جَاءَهُ الْجَوَابُ الَّذِي يُخَاطِبُ الْعَقْلَ الْمُجَادِلَ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: 79].

فَالْمَوْضُوعُ وَاحِدٌ، وَهُوَ قُدْرَةُ اللهِ عَلَىٰ الْإِحْيَاءِ وَالْبَعْثِ، وَلَكِنَّ أَسَالِيبَ الْبُرْهَانِ تَعَدَّدَتْ بِاخْتِلَافِ السَّائِلِينَ، وَمَوَاقِفِهِمْ، وَالْأَزْمِنَةِ وَالْعُصُورِ، وَتَفَاوُتِ مَدَارِكِ الْعُقُولِ وَاسْتِعْدَادِهَا لِلِاقْتِنَاعِ. فَالْعَقْلُ الْإِنْسَانِيُّ قَدْ بَلَغَ مَرْحَلَةً مِنَ النُّضْجِ فِي عَصْرِ بَعْثَةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَجَاءَتْ مُعْجِزَتُهُ الْخَالِدَةُ، الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، مُخَاطِبَةً الْعَقْلَ وَالْفِكْرَ وَالْوِجْدَانَ، فِي حِينِ غَلَبَ عَلَىٰ مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِهِ الطَّابِعُ الْحِسِّيُّ.

وَمِنْ هُنَا كَانَ عَلَىٰ الدَّاعِي أَنْ يَفْقَهَ مَنْ يُخَاطِبُهُ، وَأَنْ يَعْرِفَ أَيَّ بُرْهَانٍ يُقَدِّمُ، وَبِأَيِّ أُسْلُوبٍ يُقَدِّمُهُ، وَمَتَىٰ يَتَكَلَّمُ، وَكَيْفَ يَصِلُ إِلَىٰ عَقْلِ الْإِنْسَانِ وَقَلْبِهِ. فَلَيْسَ الْمَقْصُودُ أَنْ يُقَالَ الْحَقُّ فَحَسْبُ، بَلْ أَنْ يُقَالَ عَلَىٰ نَحْوٍ يَكْشِفُهُ، وَيُزِيلُ مَا حَوْلَهُ مِنْ شُبُهَاتٍ، وَيَجْعَلُهُ قَادِرًا عَلَىٰ إِيقَاظِ الْإِرَادَةِ.

وَهَذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ دَعْوَةٍ تَمْلِكُ الْحَقَّ وَلَا تُحْسِنُ بَيَانَهُ، وَدَعْوَةٍ تَمْلِكُ الْحَقَّ وَتُحْسِنُ عَرْضَهُ وَالْبُرْهَانَ عَلَيْهِ؛ فَالْأُولَىٰ قَدْ تَبْقَىٰ مَعْزُولَةً فِي دَائِرَةٍ ضَيِّقَةٍ، وَالثَّانِيَةُ تَتَحَوَّلُ إِلَىٰ إِيمَانٍ فِي النُّفُوسِ، وَإِرَادَةٍ فِي الْقُلُوبِ، وَحَرَكَةٍ فِي الْوَاقِعِ.

وَقَدْ أَدْرَكَ الْإِمَامُ الْبَنَّا خُطُورَةَ وَسَائِلِ الدَّعَايَةِ وَالْإِعْلَامِ، وَقُدْرَتَهَا عَلَىٰ تَشْكِيلِ وَعْيِ النَّاسِ وَتَوْجِيهِ اهْتِمَامَاتِهِمْ؛ فَلَمْ يَعُدِ الْإِعْلَامُ مَجَرَّدَ وَسِيلَةٍ تَنْقُلُ الْأَفْكَارَ، بَلْ أَصْبَحَ قَادِرًا عَلَىٰ صُنْعِ الصُّوَرِ وَالِانْطِبَاعَاتِ، وَعَلَىٰ أَنْ يُقَرِّبَ الْحَقَّ مِنَ النَّاسِ أَوْ يَحْجُبَهُ عَنْهُمْ، وَعَلَىٰ أَنْ يُزَيِّنَ الْبَاطِلَ أَوْ يَكْشِفَ زَيْفَهُ.

وَلِذَلِكَ كَانَ مِنْ وَاجِبِ أَهْلِ الدَّعْوَةِ أَنْ يَمْتَلِكُوا أَدَوَاتِ عَصْرِهِمْ، وَأَنْ يُحْسِنُوا اسْتِخْدَامَ وَسَائِلِ التَّأْثِيرِ وَالْإِقْنَاعِ، لَا تَقْلِيدًا لِأَهْلِ الْبَاطِلِ، وَلَا تَنَازُلًا عَنِ الْمَبْدَأِ، بَلْ قِيَامًا بِوَاجِبِ الْبَيَانِ، وَوُصُولًا بِالْحَقِّ إِلَىٰ الْعُقُولِ وَالْقُلُوبِ.

وَفِي هَذَا يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَنَّا: «وَلِهَذَا كَانَ مِنْ وَاجِبِ أَهْلِ الدَّعْوَةِ أَنْ يُحْسِنُوا تِلْكَ الْوَسَائِلَ جَمِيعًا، حَتَّىٰ يَأْتِيَ عَمَلُهُمْ بِثَمَرَتِهِ الْمَطْلُوبَةِ» (81).

فَبَاعِثُ الْإِرَادَةِ لَا يَقُومُ عَلَىٰ الْحَمَاسَةِ وَحْدَهَا، بَلْ يَقُومُ عَلَىٰ مَثَلٍ أَعْلَىٰ وَاضِحٍ، وَبُرْهَانٍ مُقْنِعٍ، وَدَاعِيَةٍ مُؤَهَّلٍ، وَوَسِيلَةٍ مُنَاسِبَةٍ، وَخِطَابٍ يَعْرِفُ كَيْفَ يَصِلُ إِلَىٰ النَّاسِ.

وَإِذَا اجْتَمَعَتْ هَذِهِ الْعَنَاصِرُ، تَحَوَّلَ الْإِيمَانُ بِالْمَبْدَأِ إِلَىٰ إِرَادَةٍ قَوِيَّةٍ، وَتَحَوَّلَتِ الْإِرَادَةُ إِلَىٰ عَمَلٍ، وَتَحَوَّلَ الْعَمَلُ إِلَىٰ حَرَكَةٍ تَغَيِّرُ الْوَاقِعَ؛ وَهُنَا يَبْدَأُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي الْخُرُوجِ مِنْ عَالَمِ الْأَفْكَارِ إِلَىٰ عَالَمِ الْحَيَاةِ.

## 5- بَاعِثُ الْبَلَاغِ وَحُدُودُهُ

يَذْكُرُ الْإِمَامُ الْبَنَّا أَنَّ التَّكْلِيفَ الَّذِي نَحْنُ أَمَامَهُ هُوَ تَكْلِيفُ الْبَلَاغِ؛ وَهُوَ تَكْلِيفٌ يَحْتَاجُ إِلَىٰ جُهْدٍ جَهِيدٍ، وَكِفَايَةٍ عَالِيَةٍ، وَصَبْرٍ طَوِيلٍ؛ لِأَنَّ الدَّاعِيَ لَا يُبَلِّغُ عَنْ نَفْسِهِ، وَلَا يَدْعُو إِلَىٰ هَوًىٰ خَاصٍّ، وَإِنَّمَا يَحْمِلُ رِسَالَةً يَتَقَيَّدُ فِيهَا بِحُدُودِهَا وَمَقَاصِدِهَا وَوَسَائِلِهَا.

وَإِحْسَاسُ الدَّاعِي بِأَنَّهُ مُكَلَّفٌ بِالْبَلَاغِ يَعْصِمُهُ مِنْ أَنْ يَسْتَبِدَّ بِالدَّعْوَةِ، أَوْ يَتَجَاوَزَ مَنْهَجَهَا، أَوْ يَسْتَعْجِلَ النَّتَائِجَ قَبْلَ اسْتِكْمَالِ الْوَسَائِلِ وَالْمَرَاحِلِ؛ لِأَنَّهُ يُبَلِّغُ عَنِ اللهِ، وَمَنْ يُبَلِّغُ عَنِ اللهِ لَا يَمْلِكُ أَنْ يُغَيِّرَ طَرِيقَةَ الْبَلَاغِ بِهَوَاهُ، وَلَا أَنْ يَسْتَعْمِلَ مِنَ الْوَسَائِلِ مَا يُنَاقِضُ طَبِيعَةَ الرِّسَالَةِ.

(81) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: دعوتنا]، ص 128.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 67].

فَالْبَلَاغُ هُنَا تَكْلِيفٌ، وَالْعِصْمَةُ مُرْتَبِطَةٌ بِالْقِيَامِ بِهِ عَلَىٰ وَجْهِهِ الصَّحِيحِ؛ فَإِذَا الْتَزَمَ الدَّاعِي حُدُودَ مَا كُلِّفَ بِهِ، وَصَدَقَ فِي أَدَائِهِ، وَسَلَكَ الطَّرِيقَ الَّذِي رَسَمَهُ الشَّرْعُ، كَانَ أَبْعَدَ عَنِ الِانْحِرَافِ، وَأَقْرَبَ إِلَىٰ السَّدَادِ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ طَبِيعَةَ الْبَلَاغِ تَفْرِضُ عَلَىٰ الدَّاعِي أَلَّا يَعْتَسِفَ الْمَرَاحِلَ، وَلَا يَسْتَعْجِلَ النَّتَائِجَ، وَلَا يَرَىٰ أَنَّ الْغَايَةَ الصَّالِحَةَ تُبَرِّرُ كُلَّ وَسِيلَةٍ؛ فَالْوَسَائِلُ فِي الدَّعْوَةِ مَحْكُومَةٌ بِمَبَادِئِهَا، وَالطَّرِيقُ إِلَىٰ الْحَقِّ لَا يَكُونُ بِالْبَاطِلِ.

وَقَدْ جَاءَ فِي وَصِيَّةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ: »وَأَمَّا الْعَدْلُ فَلَا رُخْصَةَ فِيهِ فِي قَرِيبٍ وَلَا بَعِيدٍ، وَلَا فِي شِدَّةٍ وَلَا رَخَاءٍ، وَالْعَدْلُ ـ وَإِنْ رُئِيَ لَيِّنًا ـ فَهُوَ أَقْوَىٰ وَأَطْفَأُ لِلْجَوْرِ، وَأَقْمَعُ لِلْبَاطِلِ مِنَ الْجَوْرِ«[82].

فَلَا شَكَّ أَنَّكَ تَصِلُ إِلَىٰ الْحَقِيقَةِ، وَإِنْ طَالَ الْأَمَدُ وَبَعُدَتِ الْمَسَافَةُ، وَتَجْنِي مِنَ النَّتَائِجِ وَالْإِفَادَةِ مَا قَدَّرَهُ اللهُ لِعَمَلِكَ؛ فَالْإِفَادَةُ أَمْرُهَا إِلَىٰ اللهِ، وَقَدْ تَأْتِي فُرْصَةٌ لَمْ تَكُنْ فِي الْحُسْبَانِ، فَتَجْعَلُ لِعَمَلِكَ أَبْرَكَ الثَّمَرَاتِ.

وَلَكِنَّ الْمُهِمَّ أَنْ تَسِيرَ فِي الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ، وَأَنْ تَبْقَىٰ مُنْضَبِطًا بِشَرَائِطِ الْإِنْجَازِ؛ لِأَنَّنَا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَعْزِلَ النَّشَاطَ الْبَشَرِيَّ عَنِ الطَّرَائِقِ الَّتِي تُشْتَرَطُ لِإِنْجَازِهِ، وَلَا عَنِ الْبَوَاعِثِ الَّتِي تَضْمَنُ دَوَامَهُ وَاسْتِقْرَارَهُ. وَبَاعِثُ الْبَلَاغِ، إِذَا أُحْسِنَ فَهْمُهُ وَأَدَاؤُهُ، يَكُونُ أَقْطَعَ لِلْبَاطِلِ، وَأَعْصَمَ لِلْعَمَلِ مِنَ الِانْحِرَافِ وَالِارْتِطَامِ وَالصِّرَاعِ.

## وَلِمَاذَا يَكُونُ الْبَلَاغُ عِصْمَةً لِلْعَمَلِ؟

لِأَنَّ طَبِيعَةَ الْإِسْلَامِ تَقُومُ عَلَىٰ الْبَيَانِ وَالْإِقْنَاعِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ، لَا عَلَىٰ إِكْرَاهِ النَّاسِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 256]؛ فَالدَّاعِيَةُ مُكَلَّفٌ بِأَنْ يُبَلِّغَ الْحَقَّ، وَيُحْسِنَ عَرْضَهُ، وَيُقِيمَ الْحُجَّةَ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ مُكَلَّفًا أَنْ يَحْمِلَ النَّاسَ عَلَيْهِ بِالْقُوَّةِ. وَمِنْ هُنَا يَكُونُ الْبَلَاغُ حِمَايَةً لِلدَّعْوَةِ مِنَ الِانْزِلَاقِ إِلَىٰ صِرَاعٍ لَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَتُهَا، أَوْ إِلَىٰ

(82) محمد سالم الخضر: **البلاغة العمرية**، ط 1، الناشر مبرة الآل والأصحاب، 2014م، ص 278.

وَسَائِلَ تُنَاقِضُ رُوحَهَا وَمَقَاصِدَهَا.

وَلَيْسَ مَعْنَىٰ ذَلِكَ الضَّعْفَ أَوِ الِاسْتِسْلَامَ، بَلْ مَعْنَاهُ الْقُوَّةُ الْمُنْضَبِطَةُ، وَالْوُضُوحُ الَّذِي لَا يَتَحَوَّلُ إِلَىٰ عُنْفٍ، وَالثَّبَاتُ الَّذِي لَا يَنْقَلِبُ إِلَىٰ تَهَوُّرٍ. فَقَدْ يَبْدُو هَذَا الْمَسْلَكُ لَيِّنًا، وَلَكِنَّهُ أَقْطَعُ لِلْبَاطِلِ، وَأَبْقَىٰ أَثَرًا، وَأَقْرَبُ إِلَىٰ طَبِيعَةِ الدَّعْوَةِ.

وَلِذَلِكَ تَكَلَّمَ الْإِمَامُ الْبَنَّا عَنْ كَيْفِيَّةِ النَّصْرِ، فَقَالَ: «وَأَنْ نَسْلُكَ إِلَىٰ نَجَاحِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ مَا حَدَّدَ لَهَا الدِّينُ نَفْسُهُ مِنْ سُبُلٍ وَوَسَائِلَ»(83).

فَالنَّجَاحُ لَا يَتَحَقَّقُ بِمُجَرَّدِ صِحَّةِ الْغَايَةِ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ صِحَّةِ الطَّرِيقِ إِلَيْهَا، وَمُوَافَقَةِ الْوَسَائِلِ لِرُوحِ الدِّينِ وَأَحْكَامِهِ. فَلَا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ الْغَايَةُ صَالِحَةً وَالطَّرِيقُ إِلَيْهَا فَاسِدًا، وَلَا أَنْ نَطْلُبَ نُصْرَةَ الْحَقِّ بِوَسِيلَةٍ تُنَاقِضُهُ.

وَقَدْ عُرِضَتْ عَلَىٰ الْإِمَامِ الْبَنَّا، خِلَالَ سَيْرِهِ بِالدَّعْوَةِ، عُرُوضٌ مِمَّنْ كَانُوا يَتَعَجَّلُونَ الْخُطُوَاتِ قَبْلَ اسْتِكْمَالِ الْمَرَاحِلِ، وَيَدْعُونَ إِلَىٰ الدُّخُولِ فِي صِرَاعَاتٍ وَمُوَاجَهَاتٍ، وَإِلَىٰ اسْتِخْدَامِ الْقُوَّةِ قَبْلَ إِعْدَادِ الْأُمَّةِ وَتَهْيِئَتِهَا، فَرَفَضَ ذَلِكَ رَفْضًا حَاسِمًا.

وَمِنْ أَشْهَرِ مَا يُذْكَرُ فِي هَذَا السِّيَاقِ قِصَّةُ جَمَاعَةِ «شَبَابِ مُحَمَّدٍ»، وَمُحَمَّدِ عَطِيَّةَ خَمِيسٍ؛ إِذْ طَلَبُوا مِنَ الْإِمَامِ الْبَنَّا أَنْ يُغَيِّرَ مِنْهَاجَ الْجَمَاعَةِ، وَأَنْ يَعْتَمِدَ الْقُوَّةَ فِي تَحْقِيقِ الْأَهْدَافِ، فَأَبَىٰ أَنْ يُغَيِّرَ الطَّرِيقَ الَّذِي آمَنَ بِهِ، وَرَفَضَ أَنْ يَجْعَلَ الِاسْتِعْجَالَ بَدِيلًا عَنِ الْإِعْدَادِ، أَوِ الصِّرَاعَ بَدِيلًا عَنِ التَّرْبِيَةِ وَالْبَلَاغِ. وَقَدْ عَبَّرَ عَنْ ثَبَاتِهِ عَلَىٰ هَذَا الْمَنْهَجِ بِقَوْلِهِ: «وَلَسْتُ مُخَالِفًا هَذِهِ الْحُدُودَ الَّتِي اقْتَنَعْتُ كُلَّ الِاقْتِنَاعِ بِأَنَّهَا أَسْلَمُ طَرِيقٍ لِلْوُصُولِ» (84).

وَهَذَا الْمَوْقِفُ لَا يَدُلُّ عَلَىٰ لِينٍ فِي الْمَبْدَأِ، بَلْ عَلَىٰ ثَبَاتٍ عَلَىٰ الْمِنْهَاجِ؛ فَقَدْ كَانَ الْإِمَامُ الْبَنَّا مُدْرِكًا أَنَّ تَجَاوُزَ مَرْحَلَةِ إِعْدَادِ الْأُمَّةِ لَا يُقَرِّبُ النَّصْرَ، بَلْ قَدْ يَقُودُ إِلَىٰ الْحِرْمَانِ وَالْإِخْفَاقِ.

(83) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: دعوتنا]، ص 141.
(84) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: المؤتمر الخامس]، ص338.

وَلِذَلِكَ قَالَ: »فَلَا بُدَّ أَنْ تَتَذَرَّعَ الْأُمَّةُ بِالصَّبْرِ وَالْأَنَاةِ وَالْكِفَاحِ الطَّوِيلِ، وَكُلُّ أُمَّةٍ تُحَاوِلُ تَخَطِّيَ حَوَاجِزِ الطَّبِيعَةِ يَكُونُ نَصِيبُهَا الْحِرْمَانَ « (85).

وَالْمَقْصُودُ بِحَوَاجِزِ الطَّبِيعَةِ – هُنَا – السُّنَنُ الَّتِي لَا يَقُومُ النُّهُوضُ بِغَيْرِهَا؛ مِنْ تَرْبِيَةٍ إِيمَانِيَّةٍ طَوِيلَةِ الْأَمَدِ، وَإِعْدَادٍ لِلْإِنْسَانِ، وَبِنَاءٍ لِلْوَعْيِ، وَتَكْوِينٍ لِلْإِرَادَةِ، وَتَهْيِئَةٍ لِلْأُمَّةِ حَتَّىٰ تَقْدِرَ عَلَىٰ حَمْلِ الرِّسَالَةِ.

فَمَنْ تَخَطَّىٰ هَذَا الْإِعْدَادَ، وَأَرَادَ النَّتَائِجَ قَبْلَ مُقَدِّمَاتِهَا، وَالثَّمَرَةَ قَبْلَ غَرْسِهَا، وَالنَّصْرَ قَبْلَ تَكْوِينِ رِجَالِهِ وَأَسْبَابِهِ، كَانَ نَصِيبُهُ الْحِرْمَانَ، سَوَاءٌ أَكَانَ فَرْدًا أَمْ جَمَاعَةً أَمْ أُمَّةً.

وَهَكَذَا يَجْتَمِعُ فِي بَاعِثِ الْبَلَاغِ أَمْرَانِ لَا يَنْفَصِلُ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ: **الثَّبَاتُ عَلَىٰ الْغَايَةِ، وَالِانْضِبَاطُ بِالطَّرِيقِ**؛ فَلَا تَرَاجُعَ عَنِ الْحَقِّ، وَلَا تَجَاوُزَ لِسُنَنِ الْإِعْدَادِ، وَلَا اسْتِعْجَالَ لِلنَّتَائِجِ، وَلَا اسْتِخْدَامَ لِوَسَائِلَ تُفْسِدُ الْغَايَةَ الَّتِي نَسْعَىٰ إِلَيْهَا.

وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ بَاعِثَ الْبَلَاغِ يَقُومُ عَلَىٰ مَعَانٍ مُتَكَامِلَةٍ: الْإِحْسَاسِ بِالتَّكْلِيفِ، وَالِالْتِزَامِ بِحُدُودِ الرِّسَالَةِ، وَرَفْضِ الْإِكْرَاهِ وَالْعُنْفِ، وَعَدَمِ اسْتِعْجَالِ النَّتَائِجِ، وَالصَّبْرِ عَلَىٰ طُولِ الطَّرِيقِ، وَإِعْدَادِ الْأُمَّةِ قَبْلَ تَحْمِيلِهَا مَا لَا تُطِيقُ.

فَالْبَلَاغُ لَيْسَ مُجَرَّدَ كَلِمَةٍ تُقَالُ، بَلْ هُوَ مَنْهَجٌ يَحْكُمُ الدَّاعِيَ وَالدَّعْوَةَ وَالْوَسِيلَةَ وَالْغَايَةَ؛ وَبِقَدْرِ الِانْضِبَاطِ بِهَذَا الْمَنْهَجِ تَبْقَىٰ الدَّعْوَةُ نَقِيَّةً، وَيَبْقَىٰ الْعَمَلُ سَلِيمًا، وَيَتَحَقَّقُ التَّغْيِيرُ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ وَثَبَاتٍ.

## 6- أَثَرُ الْمَثَلِ الْأَعْلَىٰ فِي الْعُمْرَانِ

سَبَقَ الْحَدِيثُ عَنِ الْمَثَلِ الْأَعْلَىٰ وَأَثَرِهِ فِي بَعْثِ الْإِرَادَةِ، وَنَنْتَقِلُ هُنَا إِلَىٰ جَانِبٍ آخَرَ مُكَمِّلٍ لَهُ، وَهُوَ: **أَثَرُ هَذَا الْمَثَلِ فِي حَيَاةِ النَّاسِ وَعُمْرَانِهِمْ**؛ فَلَا يَكْفِي أَنْ يُعْرَضَ الْمَبْدَأُ فِي صُورَةٍ نَظَرِيَّةٍ جَمِيلَةٍ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ تَظْهَرَ ثَمَرَاتُهُ فِي الْإِنْسَانِ وَالْمُجْتَمَعِ، وَأَنْ يَرَىٰ النَّاسُ قُدْرَتَهُ عَلَىٰ صِنَاعَةِ الرِّجَالِ، وَإِقَامَةِ الْعَدْلِ، وَتَهْذِيبِ السُّلُوكِ، وَبِنَاءِ الْحَيَاةِ.

(85) حسن البنا: **مذكرات الدعوة والداعية**، ص 176.

وَقَدْ أَشَارَ الْإِمَامُ الْبَنَّا إِلَىٰ هَذَا الْمَعْنَىٰ حِينَ تَحَدَّثَ عَنِ الْمَبْدَأِ الْإِسْلَامِيِّ الَّذِي يَدْعُو النَّاسَ إِلَيْهِ، فَقَالَ إِنَّهُ مَبْدَأٌ: «أَثْبَتَتِ التَّجْرِبَةُ وَحُكْمُ التَّارِيخِ صَلَاحِيَّتَهُ لِلْخُلُودِ، وَأَهْلِيَّتَهُ لِإِصْلَاحِ الْوُجُودِ»(86).

فَلَمْ يَكُنِ الْإِسْلَامُ مَثَلًا أَعْلَىٰ مَفْرُوضًا عَلَىٰ النَّاسِ بِغَيْرِ دَلِيلٍ مِنَ الْوَاقِعِ، بَلْ شَهِدَ لَهُ التَّارِيخُ بِمَا أَحْدَثَهُ مِنْ تَحَوُّلٍ فِي النُّفُوسِ وَالْمُجْتَمَعَاتِ، وَبِمَا أَخْرَجَهُ مِنْ رِجَالٍ أَفْذَاذٍ، كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ نَمُوذَجًا حَيًّا لِقِيمِ الْإِسْلَامِ وَمَبَادِئِهِ.

وَيَتَجَلَّىٰ هَذَا الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي الْعَالَمِ الثَّقَافِيِّ وَالْأَخْلَاقِيِّ الَّذِي أَوْجَدَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَفِي نَوْعِيَّةِ الرِّجَالِ الَّذِينَ رَبَّاهُمْ عَلَىٰ عَيْنِهِ؛ فَلَمْ يَكُنِ الْإِسْلَامُ فِي حَيَاتِهِمْ أَفْكَارًا تُحْفَظُ، وَلَا شِعَارَاتٍ تُرَدَّدُ، بَلْ كَانَ بَاعِثًا عَلَىٰ الْعَمَلِ، وَضَابِطًا لِلسُّلُوكِ، وَمُوَجِّهًا لِلْإِرَادَةِ.

وَمِنْ هَذِهِ النَّمَاذِجِ الَّتِي أَخْرَجَتْهَا التَّرْبِيَةُ النَّبَوِيَّةُ سَيِّدُنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ رضي الله عنه؛ فَقَدْ ذَكَرَ الْبَلَاذُرِيُّ فِي(أَنْسَابُ الأَشْرَافِ) «أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ دَخَلَ عَلَيْهِ، فِي دُوَيْرِيَةٍ كَانَ قَدِ اتخذَهَا لِنَفْسِهِ بَعْدَ أَنْ سَلَّمَ أَهْلُ الْقُدْسِ عَلَىٰ أَمَانِ عُمَرَ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ إِذْ ذَاكَ أَمِيرُهُمْ فَمَا وَجَدَ عِنْدَهُ إِلَّا حَصِيرًا وَوِسَادَةً وَقَطِيفَةً يَتَغَطَّىٰ بِهَا إِذَا نَامَ، وَصَحْفَةً فِيهَا زَيْتٌ وَمِلْحٌ، وَكِسْرَةَ خُبْزٍ، وَجَرَّةَ مَاءٍ. فَاسْتَحْيَا عُمَرُ مِنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، وَقَالَ لَهُ: اتَّقِ اللهَ فِي نَفْسِكَ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ، فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَحَلَّ لَكَ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا، وَأَنْتَ أَمِيرٌ تَنْفَعُكَ الشَّارَةُ(87). فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: »لَيْسَ لِيَ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا مَا يُظِلُّنِي، وَيَسُدُّ جُوعِي، وَيَرْوِي ظَمَئِي، أَمَّا الشَّارَةُ يَا عُمَرُ فَهِيَ الْإِسْلَامُ«، فَبَكَىٰ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بُكَاءً شَدِيدًا، حَتَّىٰ أَقْبَلَ عَلَيْهِ أَبُو عُبَيْدَةَ يَسْأَلُهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْ نَفْسِهِ وَيَرْفُقَ بِهَا فَقَالَ: دَعْنِي أَبْكِي يَا أَبَا عُبَيْدَةَ، فَإِنَّمَا بُكَائِي مَحَبَّةٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِي خَرَّجَ مِثْلَكَ»(88).

---

(86) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: دعوتنا]، ص 127.

(87) الشَّارَةُ، والشَّوْرَةُ، وَالشَّوْرُ (بالفَتْحِ فِي الكُلِّ)، وَ(الشِّيَارُ)، ككِتَابٍ، وَ(الشَّوَارُ)، كَسَحَابٍ: الْحُسْنُ وَالْجَمَالُ والهَيْئَةُ واللِّبَاسُ والسِّمَنُ والزِّينَةُ.

(88) د. حسين مؤنس: **دستور أمة الإسلام، دراسة في أصول الحكم وطبيعته عند المسلمين**، ط 4، دار الرشاد، القاهرة، 1429هـ - 2008م، ص 8.

فَسَيِّدُنَا عُمَرُ، وَهُوَ الْمَعْرُوفُ بِزُهْدِهِ، يَرَىٰ أَمَامَهُ مَنْ هُوَ أَزْهَدُ مِنْهُ، مَعَ أَنَّهُ أَمِيرُ الْجُيُوشِ وَفَاتِحٌ مِنَ الْفَاتِحِينَ. وَهَذَا هُوَ أَثَرُ الْمَثَلِ الْأَعْلَىٰ حِينَ يَتَحَوَّلُ مِنْ قِيَمٍ نَظَرِيَّةٍ إِلَىٰ رِجَالٍ أَحْيَاءٍ، يَرَاهُمُ النَّاسُ فَيَرَوْنَ فِيهِمْ أَثَرَ الْإِسْلَامِ.

وَلَمْ يَكُنْ هَذَا الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ نَمُوذَجًا وَاحِدًا مَكْرُورًا، بَلْ أَخْرَجَ شَخْصِيَّاتٍ مُتَنَوِّعَةً تَجْمَعُهَا مَرْجِعِيَّةٌ وَاحِدَةٌ؛ فَنَرَىٰ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ فِي عَدْلِهِ وَحَزْمِهِ، وَعُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رضي الله عنه فِي سَمَاحَتِهِ وَكَرَمِهِ، وَعَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ فِي وَفَائِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَأَبَا عُبَيْدَةَ رضي الله عنه فِي زُهْدِهِ وَتَجَرُّدِهِ.

إِنَّهُمْ رِجَالٌ تَنَوَّعَتْ مَوَاهِبُهُمْ وَصِفَاتُهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ صَدَرُوا عَنْ مَثَلٍ أَعْلَىٰ وَاحِدٍ، وَتَرَبَّوْا فِي عَالَمٍ ثَقَافِيٍّ وَأَخْلَاقِيٍّ وَاحِدٍ، أَوْجَدَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

وَلَيْسَتِ الثَّقَافَةُ، فِي هَذَا الْمَعْنَىٰ، كَثْرَةَ مَا يَقْرَأُهُ الْإِنْسَانُ، وَلَا مَا يَحْمِلُهُ مِنْ شَهَادَاتٍ، وَإِنَّمَا هِيَ الْبَاعِثُ الَّذِي يَقِفُ وَرَاءَ أَعْمَالِهِ، وَالضَّوَابِطُ الَّتِي تَحْكُمُ مَوَاقِفَهُ وَسُلُوكَهُ. **فَالْمُثَقَّفُ الْحَقُّ هُوَ الَّذِي تَصْدُرُ أَعْمَالُهُ عَنْ فِكْرٍ بَصِيرٍ، وَتَنْضَبِطُ بِمَبْدَأٍ آمَنَ بِهِ وَالْتَزَمَهُ.**

وَقَدْ أَدْرَكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ خُطُورَةَ أَثَرِ الْقَائِدِ فِي رَعِيَّتِهِ، فَلَمَّا وَلَّىٰ أَبَا مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيَّ عَلَىٰ الْكُوفَةِ، كَتَبَ إِلَيْهِ يُحَذِّرُهُ مِنَ التَّرَفِ وَالتَّمَيُّزِ عَنِ النَّاسِ، وَقَالَ لَهُ: «... فَإِنَّمَا أَنْتَ رَجُلٌ مِنْهُم، غَيْرَ أَنَّ اللهَ جَعَلَكَ أَثْقَلَهُمْ حِمْلًا، وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُ نَشَأَ لَكَ وَلِأَهْلِ بَيْتِكَ هَيْئَةٌ فِي لِبَاسِكَ وَمَطْعَمِكَ وَمَرْكَبِكَ، لَيْسَ لِلْمُسْلِمِينَ مِثْلُهَا، فَإِيَّاكَ يَا عَبْدَ اللهِ أَنْ تَكُونَ بِمَنْزِلَةِ البَهِيمَةِ مَرَّتْ بِوَادٍ خِصْبٍ، فَلَمْ يَكُنْ لَهَا هَمٌّ إِلَّا التَّسَمُّنَ وَإِنَّمَا حَتْفُهَا فِي السِّمَنِ، **وَاعْلَمْ أَنَّ العَامِلَ إِذَا زَاغَ زَاغَتْ رَعِيَّتُهُ، وَأَشْقَىٰ النَّاسِ مَنْ شَقِيَتْ بِهِ رعِيَّتُهُ**»[89].

فَالْقَائِدُ لَا يُقَدِّمُ لِلنَّاسِ أَوَامِرَ فَحَسْبُ، بَلْ يُقَدِّمُ لَهُمْ نَمُوذَجًا؛ فَإِذَا اسْتَقَامَ اسْتَقَامَ بِاسْتِقَامَتِهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَإِذَا زَاغَ كَانَ زَيْغُهُ سَبَبًا فِي زَيْغِهِمْ وَشَقَائِهِمْ.

(89) انظر جلال الدين السيوطي: **جمع الجوامع**، 16/ 153.

وَمِنْ أَثَرِ الْمَثَلِ الْأَعْلَىٰ أَيْضًا أَنْ يُنْشِئَ فِي الْأُمَّةِ قِيَمًا ثَابِتَةً لَا تَتَبَدَّلُ بِتَبَدُّلِ الْمَوَاقِفِ وَالظُّرُوفِ؛ فَفِي غَزْوَةِ بَدْرٍ قَدَّمَ النَّبِيُّ ﷺ نَمُوذَجًا نَادِرًا فِي الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، حَتَّىٰ مَعَ الْمُشْرِكِينَ وَفِي ظَرْفِ الْحَرْبِ.

فَقَدْ رَوَىٰ مُسْلِمٌ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رضي الله عنه قَالَ: »مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا، إِلَّا أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي حُسَيْلٌ، قَالَ: فَأَخَذَنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ، قَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا، فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ، مَا نُرِيدُ إِلَّا الْمَدِينَةَ، فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ وَلَا نُقَاتِلُ مَعَهُ، فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ فَقَالَ: **انْصَرِفَا، نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ وَنَسْتَعِينُ اللهَ عَلَيْهِمْ**«[90].

وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَحْوَجَ مَا يَكُونُونَ إِلَىٰ الرِّجَالِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَجْعَلِ النَّبِيُّ ﷺ ضَرُورَةَ الْحَرْبِ مُسَوِّغًا لِنَقْضِ الْعَهْدِ؛ لِأَنَّ الْمَثَلَ الْأَعْلَىٰ الْإِسْلَامِيَّ لَا يَقُومُ عَلَىٰ قِيمٍ تُحْتَرَمُ فِي حَالِ السَّعَةِ ثُمَّ تُهْدَرُ فِي حَالِ الشِّدَّةِ، بَلْ عَلَىٰ قِيَمٍ تَثْبُتُ عِنْدَ الِاخْتِبَارِ.

وَهَذِهِ النَّمَاذِجُ كُلُّهَا تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْمَبْدَأَ الَّذِي نَدْعُو إِلَيْهِ قَدْ أَثْبَتَ فِي الْوَاقِعِ قُدْرَتَهُ عَلَىٰ صِنَاعَةِ الْإِنْسَانِ، وَإِقَامَةِ عَالَمٍ مِنَ الْقِيَمِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْعَدْلِ وَالْوَفَاءِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ رُؤْيَةَ هَذِهِ الثَّمَرَاتِ تَزِيدُ الْإِيمَانَ بِالْمَبْدَإِ، وَتَقْوِي الْإِرَادَةَ لِنُصْرَتِهِ؛ فَالنَّفْسُ الْبَشَرِيَّةُ تَحْتَاجُ إِلَىٰ أَنْ تَرَىٰ أَنَّ الْمَبْدَأَ الَّذِي تُدْعَىٰ إِلَيْهِ قَادِرٌ عَلَىٰ التَّحَقُّقِ، وَأَنَّهُ يَصْنَعُ رِجَالًا وَمُجْتَمَعَاتٍ، وَلَيْسَ مُجَرَّدَ أَمَلٍ بَعِيدٍ.

وَلَكِنَّ الْإِرَادَةَ وَحْدَهَا لَا تَكْفِي لِتَحْقِيقِ النَّجَاحِ؛ فَلِلنَّصْرِ سُنَنٌ، وَلِلنَّجَاحِ قُدْرَةٌ وَصِنَاعَةٌ، وَلَا يَتَحَقَّقُ النَّصْرُ إِذَا خُولِفَتْ سُنَنُهُ. وَقَدْ تَحَقَّقَ النَّجَاحُ لِهَذَا الْمَبْدَإِ بِتِلْكَ النَّوْعِيَّةِ مِنَ الرِّجَالِ الَّتِي أَخْرَجَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَرَبَّاهَا.

وَلِذَلِكَ حَرَصَ الْإِمَامُ الْبَنَّا عَلَىٰ أَنْ يُعِيدَ هَذِهِ النَّمَاذِجَ إِلَىٰ الْحَيَاةِ الْمُعَاصِرَةِ، لَا بِالْحَدِيثِ عَنْهَا فَحَسْبُ، بَلْ بِتَرْبِيَةِ رِجَالٍ يَرَىٰ النَّاسُ فِيهِمْ صِدْقَ الْمَبْدَإِ الَّذِي يَدْعُونَ

(90) صحيح مسلم، رقم (1787)، وهو من أفراد مسلم علىٰ البخاري.

إِلَيْهِ، وَيَشْهَدُونَ فِي أَخْلَاقِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ أَثَرَهُ الصَّالِحَ.

وَقَدْ كَشَفَ الْإِمَامُ الْبَنَّا عَنْ هَذَا الْمَقْصِدِ مُنْذُ شَبَابِهِ، فِي مَوْضُوعِ الْإِنْشَاءِ الَّذِي كَتَبَهُ لِأُسْتَاذِهِ فِي دَارِ الْعُلُومِ، حِينَ بَيَّنَ أَنَّ أَعْظَمَ آمَالِهِ بَعْدَ إِتْمَامِ دِرَاسَتِهِ أَمَلَانِ: أَمَلٌ خَاصٌّ يَتَعَلَّقُ بِأُسْرَتِهِ وَقَرَابَتِهِ، وَأَمَلٌ عَامٌّ، قَالَ فِيهِ: »وَهُوَ أَنْ أَكُونَ مُرْشِدًا مُعَلِّمًا، إِذَا قَضَيْتُ فِي تَعْلِيمِ الْأَبْنَاءِ سَحَابَةَ النَّهَارِ وَمُعْظَمَ الْعَامِ، قَضَيْتُ لَيْلِي فِي تَعْلِيمِ الْآبَاءِ هَدَفَ دِينِهِمْ، وَمَنَابِعَ سَعَادَتِهِمْ، وَمَسَرَّاتِ حَيَاتِهِمْ؛ تَارَةً بِالْخَطَابَةِ وَالْمُحَاوَرَةِ، وَأُخْرَىٰ بِالتَّأْلِيفِ وَالْكِتَابَةِ، وَثَالِثَةً بِالتَّجَوُّلِ وَالسِّيَاحَةِ«[91].

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ أَعَدَّ لِهَذَا الْعَمَلِ مِنَ الْوَسَائِلِ الْخُلُقِيَّةِ: **الثَّبَاتَ وَالتَّضْحِيَةَ**، وَرَأَىٰ أَنَّهُمَا أَلْزَمُ لِلْمُصْلِحِ مِنْ ظِلِّهِ، وَسِرُّ نَجَاحِهِ.

ثُمَّ يَذْكُرُ مَا أَعَدَّهُ مِنَ الْوَسَائِلِ الْعَمَلِيَّةِ لِتَحْقِيقِ هَذَا الْأَمَلِ، فَيَقُولُ: «أَعْدَدْتُ دَرْسًا طَوِيلًا، سَأُحَاوِلُ أَنْ تَشْهَدَ لِي بِهِ الْأَوْرَاقُ الرَّسْمِيَّةُ، وَتَعَرُّفًا بِالَّذِينَ يَعْتَنِقُونَ هَذَا الْمَبْدَأَ، وَيَعْطِفُونَ عَلَىٰ أَهْلِهِ، وَجِسْمًا تَعَوَّدَ الْخُشُونَةَ عَلَىٰ ضَآلَتِهِ، وَأَلِفَ الْمَشَقَّةَ عَلَىٰ نَحَافَتِهِ، وَنَفْسًا بِعْتُهَا لِلَّهِ صَفْقَةً رَابِحَةً، وَتِجَارَةً بِمَشِيئَتِهِ مُنْجِيَةً، رَاجِيًا مِنْهُ قَبُولَهَا، سَائِلَهُ إِتْمَامَهَا، وَلِكَلَيْهِمَا عِرْفَانًا بِالْوَاجِبِ وَعَوْنًا مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ، أَقْرَؤُهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿**إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾ [محمد:7] .. ذَلِكَ عَهْدٌ بَيْنِي وَبَيْنَ رَبِّي، أُسَجِّلُهُ عَلَىٰ نَفْسِي، وَأُشْهِدُ عَلَيْهِ أُسْتَاذِي، فِي وَحْدَةٍ لَا يُؤَثِّرُ فِيهَا إِلَّا الضَّمِيرُ، وَلَيْلٍ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: 10]»[92].فَلَمْ يَكُنِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ عِنْدَ الْإِمَامِ الْبَنَّا فِكْرَةً يُحَدِّثُ بِهَا غَيْرَهُ، بَلْ كَانَ عَهْدًا أَخَذَهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَبَرْنَامَجًا أَعَدَّ لَهُ أَخْلَاقَهُ وَعِلْمَهُ وَجِسْمَهُ وَحَيَاتَهُ.

وَمِنْ هُنَا يَظْهَرُ أَنَّ أَثَرَ الْمَثَلِ الْأَعْلَىٰ فِي الْعُمْرَانِ لَا يَبْدَأُ مِنَ الْمَشْرُوعَاتِ وَالْمُؤَسَّسَاتِ وَحْدَهَا، بَلْ يَبْدَأُ مِنْ صِنَاعَةِ الْإِنْسَانِ الَّذِي يَحْمِلُ الْمَبْدَأَ، وَيُجَسِّدُهُ فِي خُلُقِهِ وَعَمَلِهِ، ثُمَّ يَنْقُلُ أَثَرَهُ إِلَىٰ الْمُجْتَمَعِ.

(91) حسن البنا: **مذكرات الدعوة والداعية**، ص 76، 77.
(92) السابق.

فَإِذَا وُجِدَ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ الْحَقُّ، وَوُجِدَ الرِّجَالُ الَّذِينَ يُحْسِنُونَ تَطْبِيقَهُ، ظَهَرَ أَثَرُهُ فِي الْعَدْلِ وَالْوَفَاءِ وَالزُّهْدِ وَالتَّضْحِيَةِ، وَفِي صَلَاحِ الْإِنْسَانِ وَالْمُجْتَمَعِ؛ وَعِنْدَئِذٍ يُصْبِحُ الْعُمْرَانُ شَاهِدًا عَلَىٰ صِدْقِ الْمَبْدَإِ، وَبُرْهَانًا عَلَىٰ أَهْلِيَّتِهِ لِإِصْلَاحِ الْوُجُودِ.

وَلَمْ يَقِفْ أَثَرُ هَذَا الْمَثَلِ الْأَعْلَىٰ عِنْدَ بِنَاءِ الْفَرْدِ، بَلِ امْتَدَّ إِلَىٰ تَوْثِيقِ صِلَةِ الدَّعْوَةِ بِالْمُجْتَمَعِ؛ فَبَيَّنَ الْإِمَامُ الْبَنَّا فِي رِسَالَةِ «دَعْوَتُنَا» مَقَاصِدَ دَعْوَتِهِ وَأَهْدَافَهَا، وَتَبَنَّىٰ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ قَضَايَا الْمُجْتَمَعِ وَمَشْكِلَاتِهِ، إِدْرَاكًا مِنْهُ أَنَّ مِنْ أَسْبَابِ النَّجَاحِ أَنْ تَتَوَحَّدَ إِرَادَةُ الْأُمَّةِ حَوْلَ مَبْدَإٍ وَاحِدٍ وَغَايَةٍ وَاحِدَةٍ.

## 7- وَحْدَةُ رُوحِ الْأُمَّةِ وَإِرَادَتِهَا

إِذَا اسْتَمَدَّتِ الْأُمَّةُ رُوحَهَا مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ مَرْجِعِيَّةٍ وَاحِدَةٍ، وَمَثَلٍ أَعْلَىٰ وَاحِدٍ، وَغَايَةٍ وَاحِدَةٍ. وَلَكِنَّ هَذِهِ الْوَحْدَةَ لَا تَكْتَمِلُ إِلَّا بِإِرَادَةٍ مُوَحَّدَةٍ، وَقِيَادَةٍ رَاشِدَةٍ تَضْبِطُ حَرَكَةَ الْأُمَّةِ، وَتَجْمَعُ جُهُودَهَا، وَتَحْسِمُ مَا يَقَعُ بَيْنَ أَفْرَادِهَا مِنْ خِلَافٍ.

فَالْأُمَّةُ لَا تَضْعُفُ لِنَقْصِ الْعَدَدِ وَالطَّاقَاتِ فَحَسْبُ، بَلْ قَدْ تَضْعُفُ لِتَوَزُّعِ إِرَادَاتِهَا وَتَشَعُّبِ وَلَاءَاتِهَا؛ حِينَ يَتَّجِهُ بَعْضُ أَبْنَائِهَا إِلَىٰ مَبَادِئَ مُتَنَاقِضَةٍ، أَوْ يَرْتَبِطُونَ بِمَشْرُوعَاتٍ وَدُوَلٍ مُتَنَازِعَةٍ، فَتَفْقِدُ الْأُمَّةُ قُدْرَتَهَا عَلَىٰ الْحَرَكَةِ الْمُشْتَرَكَةِ، وَتَعْجِزُ عَنْ حَمْلِ رِسَالَتِهَا وَتَحْقِيقِ أَهْدَافِهَا.

وَلِذَلِكَ وَقَفَ الْإِمَامُ الْبَنَّا فِي وَجْهِ كُلِّ مَا يُهَدِّدُ هَذِهِ الرُّوحَ الْجَامِعَةَ؛ فَهَاجَمَ الْحِزْبِيَّةَ الْقَائِمَةَ عَلَىٰ التَّنَاحُرِ وَتَقْدِيمِ مَصْلَحَةِ الْحِزْبِ عَلَىٰ مَصْلَحَةِ الْأُمَّةِ، وَرَفَضَ التَّعَصُّبَ الْمَذْهَبِيَّ الَّذِي يُحَوِّلُ الِاخْتِلَافَ الْفِقْهِيَّ مِنْ مَظْهَرٍ لِلسَّعَةِ وَالِاجْتِهَادِ إِلَىٰ سَبَبٍ لِلتَّفَرُّقِ وَالتَّنَازُعِ.

وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ بِوَحْدَةِ رُوحِ الْأُمَّةِ إِلْغَاءَ الِاخْتِلَافِ وَالتَّنَوُّعِ، وَلَا صَبَّ النَّاسِ فِي قَالَبٍ وَاحِدٍ؛ فَقَدِ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ وَالْعُلَمَاءُ، وَتَنَوَّعَتْ اجْتِهَادَاتُهُمْ، وَبَقِيَتِ الْأُمَّةُ وَاحِدَةً. وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ أَنْ يَجْرِيَ هَذَا التَّنَوُّعُ فِي إِطَارٍ مِنَ الْمَحَبَّةِ وَالْمَوَدَّةِ، وَأَنْ يَبْقَىٰ الْجَمِيعُ مُجْتَمِعِينَ عَلَىٰ الْأُصُولِ وَالْمَقَاصِدِ الْكُبْرَىٰ.

وَقَدْ ذَكَرَ أَصْحَابُ السِّيَرِ أَنَّ غُلَامًا جَاءَ فِي وَفْدِ (تُجِيبَ) إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَسَأَلَهُ دُعَاءً خَاصًّا، فَدَعَا لَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ، وَاجْعَلْ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ«

ثُمَّ عَادَ الْوَفْدُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ، فَسَأَلَهُمْ عَنِ الْغُلَامِ، فَقَالُوا: مَا رَأَيْنَا مِثْلَهُ قَطُّ، وَلَا حُدِّثْنَا بِأَقْنَعَ مِنْهُ بِمَا رَزَقَهُ اللهُ؛ لَوْ أَنَّ النَّاسَ اقْتَسَمُوا الدُّنْيَا مَا نَظَرَ نَحْوَهَا وَلَا الْتَفَتَ إِلَيْهَا.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَمُوتَ جَمِيعًا**»، فَسَأَلَهُ رَجُلٌ: أَوَلَيْسَ يَمُوتُ الرَّجُلُ جَمِيعًا؟ فَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ تَتَشَعَّبُ أَهْوَاؤُهُ وَهُمُومُهُ فِي أَوْدِيَةِ الدُّنْيَا، فَيُدْرِكُهُ أَجَلُهُ فِي بَعْضِهَا، أَمَّا مَنْ وَحَّدَتِ الْغَايَةُ قَلْبَهُ وَهَمَّهُ فَإِنَّهُ يَحْيَا نَفْسًا وَاحِدَةً، وَيَمُوتُ جَمِيعًا[93].

وَهَذَا الْمَعْنَىٰ يَنْطَبِقُ عَلَىٰ الْفَرْدِ وَالْأُمَّةِ مَعًا؛ فَمَتَىٰ تَكُونُ إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ كُلُّهَا، وَنَفْسُهُ كُلُّهَا، وَطَاقَتُهُ كُلُّهَا فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ؟ إِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ حِينَ تَكُونُ رُوحُهُ وَاحِدَةً فِي خِدْمَةِ مَثَلٍ وَاحِدٍ. وَكَذَلِكَ الْأُمَّةُ لَا تَقْوَىٰ إِلَّا إِذَا اجْتَمَعَتْ إِرَادَتُهَا عَلَىٰ غَايَةٍ وَاحِدَةٍ.

وَمِنْ ثَمَّ كَانَ كُلُّ مَا يُشَتِّتُ رُوحَ الْأُمَّةِ، أَوْ يُوَزِّعُ إِرَادَتَهَا، خَطَرًا عَلَىٰ قُدْرَتِهَا عَلَىٰ الْعَمَلِ وَالِاسْتِمْرَارِ؛ سَوَاءٌ أَكَانَ ذَلِكَ فِي صُورَةِ حِزْبِيَّةٍ مُتَنَاحِرَةٍ، أَمْ عَصَبِيَّةٍ قَوْمِيَّةٍ تَسْتَعْلِي عَلَىٰ رَابِطَةِ الْأُمَّةِ، أَمْ تَعَصُّبٍ مَذْهَبِيٍّ يُحَوِّلُ الِاخْتِلَافَ إِلَىٰ تَنَازُعٍ وَقَطِيعَةٍ.

وَقَدْ أَرَادَ الْإِمَامُ الْبَنَّا أَنْ تَكُونَ الْأُمَّةُ رُوحًا وَاحِدَةً وَإِرَادَةً وَاحِدَةً؛ لِتَحْقِيقِ الْمَثَلِ الْأَعْلَىٰ، وَالْقِيَامِ بِالتَّكْلِيفِ الَّذِي حَمَّلَهَا اللهُ إِيَّاهُ مِنْ إِقَامَةِ الْعَدْلِ، وَحِفْظِ الْحُقُوقِ، وَحَقْنِ الدِّمَاءِ، وَإِصْلَاحِ الْحَيَاةِ.

وَإِنَّمَا يَتَحَقَّقُ هَذَا الِاجْتِمَاعُ حِينَ تَسْتَمِدُّ الْأُمَّةُ رُوحَهَا مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ

(93) ابن قيم الجوزية: **زاد المعاد في هَدي خير العباد**، تحقيق شعيب الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط، ط 1، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م، 3/ 569.

وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52].

فَالْقُرْآنُ هُوَ الَّذِي يَمْنَحُ الْأُمَّةَ مَرْجِعِيَّتَهَا وَمِيزَانَهَا وَغَايَتَهَا، وَيَجْمَعُ تَنَوُّعَهَا فِي إِطَارٍ مِنَ الْوَحْدَةِ، وَيَجْعَلُ اخْتِلَافَهَا اخْتِلَافَ تَنَوُّعٍ وَتَكَامُلٍ، لَا اخْتِلَافَ تَنَازُعٍ وَتَدَابُرٍ.

وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الِاخْتِلَافَ الْفِقْهِيَّ، إِذَا جَرَىٰ فِي إِطَارِ الْأَدَبِ وَالْمَحَبَّةِ، يَدُلُّ عَلَىٰ سَعَةِ الْأُمَّةِ، وَقُدْرَتِهَا عَلَىٰ اسْتِيعَابِ تَعَدُّدِ الِاجْتِهَادَاتِ، وَالْعَيْشِ فِي ظِلِّ مَرْجِعِيَّةٍ وَاحِدَةٍ. وَقَدْ قَدَّمَ التَّارِيخُ الْإِسْلَامِيُّ صُوَرًا وَاسِعَةً مِنْ تَعَايُشِ أَهْلِ الْعَقَائِدِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي ظِلِّ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ، آمِنِينَ عَلَىٰ دِينِهِمْ وَحُقُوقِهِمْ. وَلَكِنَّ الِاخْتِلَافَ قَدْ يَحْتَدُّ، وَقَدْ يَتَحَوَّلُ إِلَىٰ نِزَاعٍ يَحْتَاجُ إِلَىٰ مَرْجِعٍ يَحْسِمُهُ؛ وَمِنْ هُنَا تَبْرُزُ حَاجَةُ الْأُمَّةِ إِلَىٰ إِمَامٍ أَوْ سُلْطَةٍ رَاشِدَةٍ يَرْجِعُ إِلَيْهَا النَّاسُ، وَيَرْفَعُ حُكْمُهَا الْخِلَافَ فِي الْمَسَائِلِ الْعَمَلِيَّةِ.

وَقَدْ صَوَّرَ الْإِمَامُ الْبَنَّا هَذِهِ الثُّغْرَةَ، فَقَالَ: »وَثَمَّ أَمْرٌ آخَرُ جَدِيرٌ بِالنَّظَرِ؛ إِنَّ النَّاسَ كَانُوا إِذَا اخْتَلَفُوا رَجَعُوا إِلَىٰ الْخَلِيفَةِ، وَشَرْطُهُ الْإِمَامَةُ، فَيَقْضِي بَيْنَهُمْ وَيَرْفَعُ حُكْمُهُ الْخِلَافَ. أَمَّا الْآنَ فَأَيْنَ الْخَلِيفَةُ؟ وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَأَوْلَىٰ بِالْمُسْلِمِينَ أَنْ يَبْحَثُوا عَنِ الْقَاضِي، ثُمَّ يَعْرِضُوا قَضِيَّتَهُمْ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ اخْتِلَافَهُمْ مِنْ غَيْرِ مَرْجِعٍ لَا يَرُدُّهُمْ إِلَّا إِلَىٰ خِلَافٍ آخَرَ«[94].

فَوُجُودُ الْمَرْجِعِيَّةِ لَا يَعْنِي إِلْغَاءَ الِاجْتِهَادِ، بَلْ يَعْنِي مَنْعَ الِاخْتِلَافِ مِنَ التَّحَوُّلِ إِلَىٰ فَوْضَىٰ وَتَنَازُعٍ لَا يَنْتَهِي. وَقَدِيمًا قِيلَ: **إِنَّ مِنْ إِنْعَامِ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ الْجَمَاعَةَ وَالْإِمَامَ.**

## 8- دَوْرُ الْجَمَاعَةِ فِي الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

إِذَا كَانَتْ وَحْدَةُ الْأُمَّةِ وَإِرَادَتِهَا ضَرُورَةً لِلنُّهُوضِ، فَإِنَّ هَذِهِ الْوَحْدَةَ لَا تَتَحَقَّقُ بِجُهُودٍ فَرْدِيَّةٍ مُتَنَاثِرَةٍ، وَلَا بِرَغَبَاتٍ صَالِحَةٍ لَا يَجْمَعُهَا تَنْظِيمٌ وَلَا تَنْسِيقٌ؛ فَالْوَاجِبُ الضَّخْمُ الَّذِي نَهَضَتْ بِهِ الدَّعْوَةُ يَحْتَاجُ إِلَىٰ عَمَلٍ جَمَاعِيٍّ قَوِيٍّ مُنَظَّمٍ.

(94) حسن البنا: **مجموع رسائل الإمام البنا**، [رسالة: دعوتنا]، ص 139.

وَقَدْ يَسْمَعُ بَعْضُ الْعَامِلِينَ مَنْ يُحَذِّرُهُمْ مِنَ الْجَمَاعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَيَصِفُهَا بِالْبِدْعَةِ أَوِ الضَّلَالَةِ، مَعَ أَنَّ التَّكَالِيفَ الْعَامَّةَ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِإِصْلَاحِ الْمُجْتَمَعِ، وَمُقَاوَمَةِ الظُّلْمِ، وَحِمَايَةِ الْحُقُوقِ، لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا الْفَرْدُ وَحْدَهُ، وَإِنْ صَلَحَ وَصَدَقَ.

وَقَدْ بَيَّنَ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ عَبْدُه هَذَا الْمَعْنَىٰ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**﴾ [آل عمران: 110].

فَبَيَّنَ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَا سِيَّمَا فِي مُوَاجَهَةِ الظُّلْمِ، يَحْتَاجُ إِلَىٰ جَمَاعَةٍ مُتَّحِدَةٍ قَوِيَّةٍ، وَيَرَىٰ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ عَبْدُه أَنَّ هَذِهِ الْجَمَاعَةَ هِيَ الَّتِي تَضْمَنُ قِيَامَ الشُّورَىٰ، وَتَقْوِيمَ عِوَجِ السُّلْطَةِ؛ فَقَدْ يُؤْمَرُ الرَّئِيسُ بِالْمُشَاوَرَةِ، وَلَكِنْ إِذَا لَمْ تَقُمْ فِي الْأُمَّةِ قُوَّةٌ مُنَظَّمَةٌ تَحْمِلُهُ عَلَىٰ الْعَدْلِ وَتَرُدُّهُ عَنِ الظُّلْمِ، فَمَنْ يَضْمَنُ امْتِثَالَهُ؟

وَلِذَلِكَ قَالَ فِي تَفْسِيرِهِ مَا مَعْنَاهُ: إِنَّ الْآيَةَ تَفْرِضُ أَنْ تَكُونَ فِي النَّاسِ جَمَاعَةٌ مُتَّحِدَةٌ قَوِيَّةٌ، تَتَوَلَّىٰ الدَّعْوَةَ إِلَىٰ الْخَيْرِ وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَا مَعْرُوفَ أَعْرَفُ مِنَ الْعَدْلِ، وَلَا مُنْكَرَ أَنْكَرُ مِنَ الظُّلْمِ.

وَيُؤَكِّدُ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ عَبْدُه الْمَعْنَىٰ نَفْسَهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: 105].

فَيُبَيِّنُ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ وَضَعَ لِلْأُمَّةِ قَاعِدَةً تَرْجِعُ إِلَيْهَا عِنْدَ تَفَرُّقِ الْأَهْوَاءِ وَاخْتِلَافِ الْآرَاءِ، وَهِيَ الِاعْتِصَامُ بِحَبْلِ اللهِ، وَأَنَّهُ لَا تَقُومُ لِقَوْمٍ قَائِمَةٌ إِلَّا إِذَا كَانَتْ لَهُمْ جَامِعَةٌ تَضُمُّهُمْ، وَوَحْدَةٌ تَجْمَعُهُمْ وَتَرْبِطُ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ، فَيَكُونُونَ أُمَّةً حَيَّةً كَأَنَّهَا جَسَدٌ وَاحِدٌ(95).

وَمَعْنَىٰ ذَلِكَ أَنَّ تَوَحُّدَ الْأُمَّةِ وَاجْتِمَاعَهَا لَيْسَا أَمْرًا تَطَوُّعِيًّا يُفْعَلُ عِنْدَ التَّيَسُّرِ وَيُتْرَكُ عِنْدَ الْمَشَقَّةِ، بَلْ هُمَا مِنْ وَاجِبَاتِهَا الْكُبْرَىٰ. وَإِذَا غَابَتِ الدَّوْلَةُ الْجَامِعَةُ، وَافْتَقَدَتِ الْأُمَّةُ وَحْدَتَهَا السِّيَاسِيَّةَ، فَإِنَّ وَاجِبَ الِاجْتِمَاعِ وَالتَّعَاوُنِ وَتَنْظِيمِ الْجُهُودِ لَا يَسْقُطُ، بَلْ تَزْدَادُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ.

(95) الشيخ محمد رشيد رضا: **تفسير القرآن الحكيم** (تفسير المنار)، 4/ 22.

وَقَدْ جَاءَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: »إِنَّهُ لَا إِسْلَامَ إِلَّا بِجَمَاعَةٍ، وَلَا جَمَاعَةَ إِلَّا بِإِمَارَةٍ، وَلَا إِمَارَةَ إِلَّا بِطَاعَةٍ«[96].

فَالْجَمَاعَةُ لَا تَعْنِي مُجَرَّدَ الْكَثْرَةِ، بَلْ تَعْنِي وُجُودَ مَرْجِعِيَّةٍ وَقِيَادَةٍ وَنِظَامٍ وَطَاعَةٍ فِي الْمَعْرُوفِ؛ لِئَلَّا يَتَحَوَّلَ الْعَمَلُ إِلَىٰ جُهُودٍ مُتَنَازِعَةٍ، يَهْدِمُ بَعْضُهَا مَا يَبْنِيهِ بَعْضٌ.

وَلِهَذَا خَتَمَ الْإِمَامُ الْبَنَّا رِسَالَةَ «دَعْوَتُنَا» بِمَا يُؤَكِّدُ حَاجَةَ الْأُمَّةِ إِلَىٰ الِاجْتِمَاعِ تَحْتَ قِيَادَةٍ رَاشِدَةٍ، فَبَيَّنَ أَنَّ وَسِيلَةَ الْإِخْوَانِ لِتَحْقِيقِ فِكْرَتِهِمْ تَقُومُ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَرْكَانٍ:

الْمِنْهَاجُ الصَّحِيحُ، وَالْعَامِلُونَ الْمُؤْمِنُونَ، وَالْقِيَادَةُ الْحَازِمَةُ الْمَوْثُوقُ بِهَا.

فَالْمِنْهَاجُ الصَّحِيحُ يَضْبِطُ الْغَايَةَ وَالطَّرِيقَ، وَالْعَامِلُونَ الْمُؤْمِنُونَ يَحْمِلُونَ الْفِكْرَةَ وَيُحَوِّلُونَهَا إِلَىٰ عَمَلٍ، وَالْقِيَادَةُ الْحَازِمَةُ الْمَوْثُوقُ بِهَا تَجْمَعُ الْجُهُودَ، وَتُوَحِّدُ الْإِرَادَاتِ، وَتَحْفَظُ الْعَمَلَ مِنَ التَّشَتُّتِ وَالِانْحِرَافِ.

وَهَذِهِ الْأَرْكَانُ قَدْ تَبْدُو فِي بَدَايَةِ الطَّرِيقِ آمَالًا كُبْرَىٰ أَوْ أَحْلَامًا بَعِيدَةً، وَلَكِنَّ الْإِمَامَ الْبَنَّا لَمْ يَجْعَلْهَا أَحْلَامًا مُعَلَّقَةً فِي الْفَرَاغِ، بَلْ نَاطَ تَحْقِيقَهَا بِكُلِّ أَخٍ عَامِلٍ فِي الدَّعْوَةِ، وَخَاطَبَهُ بِقَوْلِهِ: **وَأَنْتَ يُوسُفُ هَذِهِ الْأَحْلَامِ**»[97]؛ أَيْ: أَنْتَ الَّذِي تُحَوِّلُ هَذِهِ الْآمَالَ مِنْ رُؤًى فِي الْأَذْهَانِ إِلَىٰ حَقَائِقَ فِي الْوَاقِعِ، بِإِيمَانِكَ وَعَمَلِكَ وَثَبَاتِكَ وَالْتِزَامِكَ بِالْمِنْهَاجِ وَالْجَمَاعَةِ وَالْقِيَادَةِ.

(96) رواه الدارمي في السنن (٢٥٧) وابن عبد البر في **جامع بيان العلم وفضله** (٣٢٦).
(97) حسن البنا: **مجموع رسائل الإمام البنا**، [رسالة: دعوتنا]، ص 152.

# رِسالَةُ «نحوَ النورِ»

أَرْسَلَ الإِمَامُ البَنَّا «رِسَالَةُ نَحْوَ النُّورِ»[98] - عَامِلًا بِمَبْدَأِ (الدِّينُ النَّصِيحَةُ) - إِلَىٰ الحُكَّامِ وَالمُلُوكِ يُوضِّحُ لَهُمْ حَالَ الأُمَّةِ، وَضَرُورَةَ النُّهُوضِ بِهَا عَلَىٰ أَسَاسٍ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَمِنْ ثَمَّ فَهِيَ تُواجِهُ صَفْوَةَ المُجتَمَعِ المِصْرِيِّ أَوْ نُخبَتَهُ، فِي ذَلِكَ الوَقْتِ، وَتُواجِهُ أَزْمَةَ تِلْكَ النُّخْبَةِ تِجَاهَ الإِسْلامِ، وَتُحدِّدُ عَوامِلَ هَذِهِ الأَزْمَةِ، وَتَذْكُرُ مَظاهِرَهَا، ثُمَّ تَتَقِدُ الأَزْمَةَ عَلَىٰ وَجْهِ العُمُومِ بِطَرْحِ الحُلُولِ وَالبَدائِلِ.

(98) صَدَرَتْ هَذِهِ الرِسَالَةُ عَنْ لَجنَةِ نَشْرِ رَسائل الإِخْوَانِ المُسلِمِينَ بِالمَركَزِ العَامِّ فِي رَجَب 1355هـ المُوافِقِ أكتوبر 1936م، وَأَعَادَتِ النَّذِيرُ نَشْرَهَا مَرَّةً أُخْرَىٰ فِي العَدَدِ (36) مِنَ السَّنةِ الثَّانيةِ، الصَّادِرِ بِتَاريخ 17 رَمَضَانَ 1358هـ المُوافِقِ 31 أُكْتُوبر 1939م. ينظر: حسن البنا: **مجموع رسائل الإمام البنا**، ص 155.

## الرُّوحُ الْعَامَّةُ لِلرِّسَالَةِ

تَـدُورُ رِسَـالَةُ «نَحْـوَ النُّـورِ» حَـوْلَ اسْـتِنْهَاضِ الْأُمَّـةِ وَتَوْجِيهِهَـا فِـي عَهْـدِ الِانْتِقَـالِ، وَدَعْـوَةِ قَادَتِهَا وَمُثَقَّفِيهَـا إِلَـىٰ بِنَـاءِ نَهْضَتِهَا عَلَـىٰ أُصُـولِ الْإِسْـلَامِ، لَا عَلَـىٰ التَّقْلِيـدِ الْمُجَـرَّدِ لِلْغَـرْبِ وَنَقْـلِ نُظُمِـهِ مِـنْ غَيْـرِ فَحْـصٍ وَتَقْوِيـمٍ. وَتُؤَكِّـدُ أَنَّ النَّهْضَـةَ لَا تَقُـومُ بِالنُّظُـمِ وَالْقَوَانِينِ وَحْدَهَـا، بَـلْ بِالْإِيمَـانِ بِصَلَاحِيَّـةِ الْمَنْهَـجِ، وَالشُّـعُورِ بِقُدْسِـيَّتِهِ، وَتَحْوِيلِـهِ إِلَـىٰ وَاقِـعٍ عَمَلِـيٍّ يَمُـدُّ الْأُمَّـةَ بِمُقَوِّمَـاتِ النَّهْضَـةِ وَالْقُـوَّةِ وَالِاسْـتِقْلَالِ.

## مَـحَاوِرُ شَرْحِ الـرِّسَالَـةِ

**تَمْهِيدٌ:** بَيْنَ عَهْدَينِ وَطَرِيقَينِ (الإِسْلَام أَمِ الغَرْب؟).

**أَوَّلًا:** الْعَوَاطِفُ وَالْمَشَاعِرُ وَأَثَرُهَا فِي إِقَامَةِ الْمَنْهَجِ الْإِسْلَامِيِّ.

**ثَانِيًا:** صُوَرٌ مُشْرِقَةٌ مِنْ حَيَاةِ الصَّحَابَةِ.

**ثَالِثًا:** قُدْرَةُ الْإِسْلَامِ عَلَىٰ تَقْدِيمِ صُوَرٍ حَضَارِيَّةٍ جَدِيدَةٍ.

**رَابِعًا:** أَزْمَةُ الْمُثَقَّفِينَ فِي اخْتِيَارِ مَنْهَجِ النَّهْضَةِ.

**خَامِسًا:** مَنْهَجُ «نَحْوَ النُّورِ» فِي عِلَاجِ الْأَزْمَةِ وَبِنَاءِ النَّهْضَةِ

## تَـمْهيدٌ: بَـيْنَ عَهْدَينِ وَطَرِيقَينِ (الإِسْلَام أَم الغَـرْب؟)

كُتِبَـتْ رِسَـالَةُ «نَحْـوَ النُّـورِ» فِـي مَرْحَلَـةٍ خَفَّـتْ فِيهَـا حِـدَّةُ النِّضَـالِ السِّيَاسِـيِّ (1355هـ/ 1936م) مِـنْ أَجْـلِ التَّحَـرُّرِ مِـنَ الِاحْتِلَالِ، وَبَـدَأَتِ الْأُمَّـةُ تَتَهَيَّـأُ لِمَرْحَلَـةٍ جَدِيـدَةٍ سَـمَّاهَا الْإِمَـامُ الْبَنَّـا «عَهْـدَ الِانْتِقَـالِ»؛ أَيْ مَرْحَلَـةَ الِانْتِقَـالِ مِـنْ مُقَاوَمَـةِ الِاحْتِلَالِ إِلَـىٰ بِنَـاءِ الدَّوْلَـةِ وَتَحْدِيـدِ مِنْهَـاجِ نَهْضَتِهَـا.

وَكَانَ الْمُثَقَّفُـونَ هُـمُ الْفِئَـةَ الْمُرَشَّـحَةَ لِقِيَـادَةِ هَـذَا التَّحَـوُّلِ؛ لِمَـا لَهُـمْ مِـنْ تَأْثِيرٍ فِـي تَوْجِيـهِ الْمُجْتَمَـعِ، وَلَا سِـيَّمَا فِـي ظِـلِّ مَـا كَانَ يُعَانِيـهِ الْمُجْتَمَـعُ الْمِصْـرِيُّ آنَـذَاكَ مِـنَ الْأُمِّيَّـةِ وَالْفَقْـرِ وَالْمَـرَضِ وَالِانْقِسَـامِ. غَيْـرَ أَنَّ قِسْـمًا مِـنْ هَـؤُلَاءِ الْمُثَقَّفِيـنَ كَانَ شَـدِيدَ التَّأَثُّـرِ بِالْحَضَـارَةِ الْغَرْبِيَّةِ، يَـرَىٰ فِـي نُظُمِهَـا وَمَنَاهِجِهَـا الطَّرِيـقَ الْأَقْـرَبَ لِبِنَـاءِ الْمُجْتَمَـعِ الْجَدِيـدِ.

وَمِـنْ هُنَـا جَـاءَتِ الرِّسَـالَةُ لِتُبَيِّـنَ أَنَّ الْقَضِيَّـةَ لَيْسَـتْ مُجَـرَّدَ اخْتِيَـارِ نُظُـمٍ إِدَارِيَّـةٍ أَوْ سِيَاسِـيَّةٍ، بَـلْ هِـيَ اخْتِيَـارُ الْمَرْجِعِيَّـةِ الَّتِـي تُبْنَـىٰ عَلَيْهَـا نَهْضَـةُ الْأُمَّـةِ، وَتَقْدِيـمُ الْمَنْهَـجِ الْإِسْـلَامِيِّ أَصْـلًا لِبِنَـاءِ الْحَيَـاةِ الْجَدِيـدَةِ.

## أَوَّلًا: الْعَوَاطِفُ وَأَثَـرُهَا فِي إِقَامَةِ الْمَنْهَجِ الْإِسْلَامِيِّ

لَيْـسَ الْأَسَـاسُ فِـي بِنَـاءِ الْحَضَـارَاتِ أَنْ تُقَـامَ النُّظُـمُ، وَتُوضَـعَ الْقَوَانِيـنُ وَالْقَوَاعِـدُ فَحَسْـبُ، بَـلْ لَا بُـدَّ أَنْ يَقُـومَ وَرَاءَ ذَلِـكَ شُـعُورٌ حَـيٌّ، وَعَاطِفَـةٌ صَادِقَـةٌ، وَإِيمَـانٌ يَمْلِـكُ الْقَلْـبَ، وَيَبْعَـثُ الْإِرَادَةَ، وَيَدْفَـعُ إِلَـىٰ الْعَمَـلِ وَالتَّضْحِيَةِ؛ فَالْفِكْـرَةُ لَا تَصْنَـعُ حَضَـارَةً مَـا لَـمْ تَتَحَـوَّلْ فِـي نُفُـوسِ أَصْحَابِهَـا إِلَـىٰ يَقِيـنٍ وَوِجْـدَانٍ وَحَرَكَـةٍ.

وَهَـذَا مَنْهَـجٌ قُرْآنِـيٌّ، وَأُسْـلُوبٌ نَبَـوِيٌّ فِـي بِنَـاءِ النُّفُـوسِ؛ فَإِنَابَـةُ الْقَلْـبِ هِـيَ الَّتِـي تَبْعَـثُ الْإِرَادَةَ، وَتُخْـرِجُ الطَّاقَـاتِ الْكَامِنَـةَ فِـي الْإِنْسَـانِ.

وَقَـدْ رَأَىٰ أَبُـو الْحَسَـنِ النَّـدْوِيُّ أَنَّ مِـنْ أَشَـدِّ نَكَبَـاتِ الْجَاهِلِيَّـةِ أَنَّهَـا أَضْعَفَـتِ الْإِيمَـانَ، وَأَضَاعَـتِ الْإِنَابَـةَ الْمُودَعَـةَ فِـي الْقَلْـبِ، وَعَطَّلَـتِ الْقُـوَىٰ الْغَنِيَّـةَ الْمُودَعَـةَ فِـي الْإِنْسَـانِ[99].

(99) انظر أبو الحسن الندوي: **النبوة والأنبياء في ضوء القرآن**، ط 3، بيروت 1387هـ، ص 126.

وَيَظْهَرُ هَذَا الْمَعْنَىٰ فِي قِصَّةِ أَحَدِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وَقَدْ ذَكَرَتْ بَعْضُ الرِّوَايَاتِ أَنَّهُ ضَمْرَةُ بْنُ جُنْدُبٍ، الَّذِي خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ مُهَاجِرًا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ فِي الطَّرِيقِ. فَلَمَّا بَلَغَهُ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: 97]، لَمْ يَرْضَ أَنْ يَبْقَىٰ مُتَخَلِّفًا عَنِ الْهِجْرَةِ، وَقَالَ لِأَبْنَائِهِ: احْمِلُونِي إِلَىٰ الْمَدِينَةِ. فَحَمَلُوهُ، فَلَمَّا بَلَغَ التَّنْعِيمَ أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ، فَنَزَلَ فِيهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ [النساء: 100] (100).

لَقَدْ غَلَبَتِ الْعِلَّةُ جَسَدَهُ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَغْلِبْ إِرَادَتَهُ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ كَانَ فِي قَلْبِهِ شُعُورًا حَيًّا، لَا مَعْرِفَةً سَاكِنَةً. وَهَذَا يُؤَكِّدُ أَنَّ وَرَاءَ كُلِّ عَمَلٍ نَاجِحٍ عَاطِفَةً صَادِقَةً، وَشُعُورًا حَيًّا، وَإِرَادَةً تَتَحَرَّكُ بِمُقْتَضَىٰ الْإِيمَانِ.

وَقَدْ رَبَّىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَصْحَابَهُ عَلَىٰ هَذِهِ الْعَاطِفَةِ الصَّادِقَةِ نَحْوَ الْإِسْلَامِ، فَلَمْ يَكُنِ الدِّينُ فِي نُفُوسِهِمْ مَجْمُوعَةَ أَفْكَارٍ تُعْرَفُ، بَلْ كَانَ حَقِيقَةً تُعَاشُ، وَعَهْدًا يُوفَىٰ بِهِ، وَمَبْدَأً تُبْذَلُ فِي سَبِيلِهِ النُّفُوسُ وَالْأَمْوَالُ.

وَهَذَا مَا أَكَّدَهُ الْإِمَامُ الْبَنَّا حِينَ بَيَّنَ أَنَّ نَجَاحَ النِّظَامِ الْإِسْلَامِيِّ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَىٰ وُجُودِ النُّصُوصِ وَالْقَوَاعِدِ فَحَسْبُ، بَلْ عَلَىٰ وُجُودِ وَجْدَانٍ حَيٍّ، وَشُعُورٍ حَقِيقِيٍّ بِقُدْسِيَّةِ هَذِهِ التَّعَالِيمِ، وَبِأَنَّ فِي الْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا وَصِيَانَتِهَا فَوْزَ الدُّنْيَا وَنَجَاةَ الْآخِرَةِ. وَمَرَدُّ مَا يُسَمَّىٰ فِي الِاصْطِلَاحِ الْحَدِيثِ بِالْوَعْيِ الْقَوْمِيِّ، أَوِ النُّضْجِ السِّيَاسِيِّ، أَوِ التَّرْبِيَةِ الْوَطَنِيَّةِ، إِلَىٰ حَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ، هِيَ: الِاعْتِقَادُ بِصَلَاحِيَّةِ النِّظَامِ، وَالشُّعُورُ بِفَائِدَةِ الْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ؛ إِذْ إِنَّ النُّصُوصَ وَحْدَهَا لَا تَنْهَضُ بِأُمَّةٍ كَامِلَةٍ، كَمَا لَا يَنْفَعُ الْقَانُونُ إِذَا لَمْ يُطَبِّقْهُ قَاضٍ عَادِلٌ نَزِيهٌ (101).

فَعُدَّةُ كُلِّ نِظَامٍ نَاجِحٍ هِيَ الِاعْتِقَادُ فِي صَلَاحِيَّتِهِ، وَالشُّعُورُ بِفَائِدَةِ الْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ.

(100) انظر محمد الطاهر بن عاشور: **التحرير والتنوير**، 5/ 181.
(101) حسن البنا: **مجموع رسائل الإمام البنا**، [رسالة: مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي]، ص 656.

وَمِنْ هُنَا لَفَتَ الْإِمَامُ الْبَنَّا أَنْظَارَ الْمُثَقَّفِينَ، وَهُمْ يُقْدِمُونَ عَلَىٰ عَمَلِيَّةِ التَّحَوُّلِ وَالنُّهُوضِ، إِلَىٰ مَزَايَا التَّوَجُّهِ الْإِسْلَامِيِّ؛ فَالْمِنْهَاجُ الْإِسْلَامِيُّ لَهُ مِنَ الْقُدْسِيَّةِ وَالِاسْتِقْرَارِ فِي نُفُوسِ الْأُمَّةِ مَا يُيَسِّرُ عَلَىٰ النَّاسِ فَهْمَهُ وَالِاسْتِجَابَةَ لَهُ وَالسَّيْرَ عَلَيْهِ مَتَىٰ أُحْسِنَ تَوْجِيهُهُمْ إِلَيْهِ؛ حَيْثُ يَقُولُ: «وَفِي السَّيْرِ عَلَىٰ هَذَا المِنْهَاجِ تَقْوِيَةٌ لِلوَحْدَةِ العَرَبِيّةِ أَوَّلًا، ثُمَّ لِلوَحْدَةِ الإِسْلَامِيّةِ ثَانِيًا، فَيُمِدُّنَا العَالَمُ الإِسْلامِيُّ كُلُّهُ بِرُوحِهِ وَشُعُورِهِ وَعَطْفِهِ وَتَأْيِيدِهِ، وَيَرَىٰ فِينَا إِخْوَةً يُنْجِدُهُمْ وَيُنجِدُونَهُ وَيُمِدُّهُمْ وَيُمِدُّونَهُ، وَفِي ذَلِكَ رِبْحٌ أَدَبِيٌّ كَبِيرٌ لَا يَزْهَدُ فِيهِ عَاقِلٌ»[102].

ثُمَّ أَشَارَ الإِمَامُ البَنَّا إِلَىٰ مَزايَا التَّوَجُّهِ الإِسْلامِيِّ، فَذَكَرَ مِنْهَا: «أَنَّ المِنْهَاجَ الإِسْلَامِيَّ قَدْ جُرِّبَ مِنْ قَبْلُ وَشَهِدَ التَّارِيخُ بِصَلاحِيّتِهِ، وَأَخْرَجَ لِلنَّاسِ أُمَّةً مِنْ أَقْوَىٰ الأُمَمِ وَأَفْضَلِهَا وَأَرْحَمِهَا وَأَبَرِّهَا وَأَبْرَكِهَا عَلَىٰ الإِنْسَانِيَّةِ جَمِيعًا؛ وَلَهُ مِنْ قُدسِيّتِهِ وَاستِقْرَارِهِ فِي نفُوسِ النَّاسِ مَا يُسهِّلُ عَلَىٰ الجَمِيعِ تَنَاوُلَهُ وَفِقْهَهُ وَالاستِجَابَةَ لَهُ وَالسَّيْرَ عَلَيهِ مَتَىٰ وُجِّهُوا إِلَيْهِ» [103].

وَلَيْسَ الْإِسْلَامُ نِظَامًا غَرِيبًا يُفْرَضُ عَلَىٰ الْأُمَّةِ مِنْ خَارِجِهَا، بَلْ هُوَ مِنْهَاجٌ تَسْتَقِرُّ أُصُولُهُ فِي عَقِيدَتِهَا وَوِجْدَانِهَا وَتَارِيخِهَا؛ وَقَدْ جُرِّبَ مِنْ قَبْلُ، وَشَهِدَ التَّارِيخُ بِصَلَاحِيَّتِهِ، وَأَخْرَجَ لِلنَّاسِ أُمَّةً مِنْ أَقْوَىٰ الْأُمَمِ وَأَفْضَلِهَا وَأَرْحَمِهَا وَأَبَرِّهَا بِالْإِنْسَانِيَّةِ.

وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ الْمُهِمَّةَ الْكُبْرَىٰ لَا تَقِفُ عِنْدَ وَضْعِ الْقَوَانِينِ، بَلْ تَتَجَاوَزُهَا إِلَىٰ إِيقَاظِ مَعَانِي الْقُدْسِيَّةِ وَالِاطْمِئْنَانِ فِي النُّفُوسِ، وَإِحْيَاءِ الِاعْتِقَادِ بِصَلَاحِيَّةِ الْمِنْهَاجِ، وَالشُّعُورِ بِفَائِدَةِ الْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ. فَقَدْ ظَلَّ هَذَا الْإِيمَانُ مَوْجُودًا فِي نُفُوسِ الْأُمَّةِ، وَلَكِنَّهُ فَقَدَ فَاعِلِيَّتَهُ، وَأَصْبَحَ كَأَنَّهُ إِيمَانٌ مُخَدَّرٌ لَا يَبْعَثُ عَلَىٰ النُّهُوضِ وَالْمُقَاوَمَةِ وَالتَّحَدِّي.

وَقَدْ ظَهَرَ هَذَا الشُّعُورُ بِقُدْسِيَّةِ الْإِسْلَامِ فِي مَوْقِفِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنْ مَانِعِي الزَّكَاةِ؛ فَلَمْ يَرَ الزَّكَاةَ حُكْمًا جُزْئِيًّا يَجُوزُ التَّسَاهُلُ فِيهِ، بَلْ رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ النِّظَامِ الْإِسْلَامِيِّ، وَقَالَ: »وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ

(102) حسن البنا: **مجموع رسائل الإمام البنا**، [رسالة: نحو النور]، ص 158.
(103) السابق.

لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَىٰ مَنْعِهِ«[104].

إِنَّهُ الشُّعُورُ الَّذِي يَحُولُ دُونَ التَّفْرِيطِ فِي أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ وَمَبَادِئِهِ، أَوِ التَّنَازُلِ عَنِ النِّظَامِ الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ. وَبِذَلِكَ يَكْتَمِلُ بِنَاءُ الْحَضَارَةِ: مَبْدَأٌ صَحِيحٌ، وَشُعُورٌ حَيٌّ بِقُدْسِيَّتِهِ، وَإِرَادَةٌ تَحْمِلُهُ، وَنِظَامٌ عَمَلِيٌّ يُحَوِّلُهُ إِلَىٰ حَيَاةٍ. فَلَا حَضَارَةَ بِالْقَوَانِينِ وَحْدَهَا، وَلَا بِالْعَوَاطِفِ الْمُجَرَّدَةِ وَحْدَهَا، وَإِنَّمَا بِالْتِقَائِهِمَا فِي نَفْسٍ مُؤْمِنَةٍ وَمُجْتَمَعٍ يُحْسِنُ التَّطْبِيقَ.

## ثَانِيًا: صُوَرٌ مُشْرِقَةٌ مِنْ حَيَاةِ الصَّحَابَةِ

ظَهَرَتْ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ فِي حَيَاةِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ؛ إِذْ تَحَوَّلَتْ مَبَادِئُ الْإِسْلَامِ فِي نُفُوسِهِمْ إِلَىٰ مَوَاقِفَ عَمَلِيَّةٍ مُشْرِقَةٍ، فَلَمْ يَبْقَ الْإِسْلَامُ أَفْكَارًا تُعْرَفُ، بَلْ أَصْبَحَ عَدْلًا وَرَحْمَةً وَشَجَاعَةً وَبَذْلًا وَوَفَاءً.

فَهَذَا **أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُقَدِّمُ نَمُوذَجًا فَرِيدًا فِي الْعَفْوِ وَسَلَامَةِ الصَّدْرِ، بَعْدَ مَا خَاضَ مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ فِي حَدِيثِ الْإِفْكِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يُنْفِقُ عَلَيْهِ لِقَرَابَتِهِ وَفَقْرِهِ، فَحَلَفَ أَلَّا يُنْفِقَ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿**وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [النور: 22].

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: «بَلَىٰ وَاللهِ، إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي»، ثُمَّ أَعَادَ إِلَىٰ مِسْطَحٍ نَفَقَتَهُ، وَقَالَ: «وَاللهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا»[105]. فَلَمْ يَكُنِ الْعَفْوُ عِنْدَهُ شِعَارًا يُرَدَّدُ، بَلْ خُلُقًا يَغْلِبُ أَلَمَ النَّفْسِ، وَيَنْتَصِرُ لِأَمْرِ اللهِ.

وَأَمَّا **عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَقَدْ تَجَسَّدَ الْإِسْلَامُ فِي حَيَاتِهِ عَدْلًا وَمَسْؤُولِيَّةً وَوَرَعًا. وَقَدْ رَآهُ الْمَرْزُبَانُ الْفَارِسِيُّ نَائِمًا مُتَبَذِّلًا مِنْ غَيْرِ حَرَسٍ، فَقَالَ:

(104) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ، كِتَابُ الِاعْتِصَامِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، بَابُ الِاقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، رقم (7284).

(105) أخرجه البخاري (7500)، ومسلم (2770).

«عَدَلْتَ فَأَمِنْتَ فَنِمْتَ. وَلَيْسَ شَيْءٌ أَسْرَعُ فِي خَرَابِ الْأَرْضِ وَلَا أَفْسَدُ لِضَمَائِرِ الْخَلْقِ مِنْ الْجَوْرِ»[106]. فَلَمْ يَشْهَدِ الْمَرْزُبَانُ كُلَّ مَوَاقِفِ عُمَرَ فِي الْعَدْلِ، وَلَكِنَّهُ رَأَىٰ ثَمَرَتَهَا: خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ يَنَامُ آمِنًا، لَا يَخْشَىٰ صَاحِبَ مَظْلَمَةٍ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ حُرَّاسٍ يَحُولُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ.

وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَشْعِرُ الْمَسْؤُولِيَّةَ عَنِ الْحَيَوَانِ قَبْلَ الْإِنْسَانِ، فَقَالَ: «وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ، لَوْ أَنَّ جَمَلًا هَلَكَ ضَيَاعًا بِشَطِّ الْفُرَاتِ، لَخَشِيتُ أَنْ يَسْأَلَنِي اللهُ عَنْهُ»[107]. وَكَانَ أَشَدَّ النَّاسِ تَحَرُّزًا مِنْ مُحَابَاةِ أَهْلِهِ؛ فَلَمَّا رَأَىٰ بَعِيرَيْنِ لِابْنِهِ عَبْدِ اللهِ قَدْ سَمِنَا فِي إِبِلِ الصَّدَقَةِ، أَمَرَهُ أَنْ يَبِيعَهُمَا، وَيَأْخُذَ رَأْسَ مَالِهِ، وَيَرُدَّ الْفَضْلَ إِلَىٰ بَيْتِ الْمَالِ[108]. فَهَذَا هُوَ الْعَدْلُ حِينَ يَبْدَأُ مِنَ النَّفْسِ وَالْأَهْلِ قَبْلَ أَنْ يُطْلَبَ مِنَ الْآخَرِينَ.

وَفِي سِيرَةِ **عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ تَتَجَلَّىٰ قِيمَةُ الْبَذْلِ وَالتَّضْحِيَةِ؛ فَقَدْ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ، وَجَعَلَ بِئْرَ رُومَةَ فِي خِدْمَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَجَاءَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ بِمَالٍ كَثِيرٍ فِي وَقْتٍ شَدِيدٍ، حَتَّىٰ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا ضَرَّ ابْنَ عَفَّانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ»[109]. فَكَانَ مَالُهُ فِي يَدِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي قَلْبِهِ، وَسَخَّرَهُ لِنُصْرَةِ الدَّعْوَةِ وَإِغَاثَةِ الْأُمَّةِ.

وَقَدَّمَ **عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ نَمُوذَجًا فِي الشَّجَاعَةِ وَالْفِدَاءِ؛ فَنَامَ فِي فِرَاشِ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةَ الْهِجْرَةِ، وَقَدْ أَحَاطَ الْمُشْرِكُونَ بِالدَّارِ يُرِيدُونَ قَتْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَلَمْ تَكُنْ شَجَاعَتُهُ انْدِفَاعًا عَابِرًا، بَلْ كَانَتْ ثَمَرَةَ إِيمَانٍ عَمِيقٍ، وَثِقَةٍ بِاللهِ، وَاسْتِعْدَادٍ لِبَذْلِ النَّفْسِ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ.

وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْمَوَاقِفُ وَقْفًا عَلَىٰ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ؛ فَفِي سِيرَةِ بَقِيَّةِ الصَّحَابَةِ صُوَرٌ

---

(106) أبو الحسن الماوردي: **أدب الدنيا والدين**، ص 139.

(107) هَذَا الأَثَرُ بِهَذَا اللفْظِ رُوِيَ مِنْ عِدَّةِ طُرُقٍ، لَا يَخْلُو إِسْنَادُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مِنْ ضَعْفٍ، لِكِنَّهَا تَتَقَوَّىٰ بِمَجْمُوعِ الطُّرُقِ، أَمَّا مَا أُثِرَ عَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): "لَوْ عَثَرَتْ بَغْلَةٌ فِي طَرِيقِ العِرَاقِ لَسَأَلَنِي اللهُ عَنْهَا لِمَ لَمْ تُصْلِحْ لَهَا الطَّرِيقَ يَا عُمَرُ؟"، فَقَدْ يَكُونُ هُوَ المَشْهُورَ الشَّائِعَ بَيْنَ النَّاسِ، لَكِنْ لَا أَصْلَ لَهُ بِهَذَا اللَّفْظِ.

(108) أخرجه البيهقي في «سننه الكبير»، رقم (11929) وابن أبي شيبة في «مصنفه»، رقم (33588).

(109) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، رقم (20630)، وأخرجه في فضائل الصحابة، رقم (738).

مُشْرِقَةٌ كَثِيرَةٌ. وَمِنْهَا مَوْقِفُ **أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَعَ أَهْلِ حِمْصَ؛ فَلَمَّا خَشِيَ أَنْ يَعْجِزَ الْمُسْلِمُونَ عَنْ حِمَايَتِهِمْ، أَمَرَ بِرَدِّ مَا أُخِذَ مِنْهُمْ مِنَ الْجِزْيَةِ، وَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّمَا رَدَدْنَا عَلَيْكُمْ أَمْوَالَكُمْ؛ لِأَنَّا كَرِهْنَا أَنْ نَأْخُذَ أَمْوَالَكُمْ وَلَا نَمْنَعَ بِلَادَكُمْ» (110). فَكَانَ هَذَا الْمَوْقِفُ صُورَةً عَمَلِيَّةً لِلْعَدْلِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، لَا مُجَرَّدَ كَلِمَاتٍ تُقَالُ.

وَلَسْنَا نَسْتَقْصِي مَنَاقِبَ الصَّحَابَةِ وَمَوَاقِفَهُمْ، وَإِنَّمَا نَذْكُرُ مِنْهَا مَا يُؤَكِّدُ أَنَّ الْإِسْلَامَ صَاغَ شَخْصِيَّاتِهِمْ صِيَاغَةً جَدِيدَةً، فَأَظْهَرَ فَضَائِلَهُمْ فِي مَوَاقِفَ عَمَلِيَّةٍ، وَصَنَعَ مِنْهُمْ رِجَالًا تَحَوَّلَتِ الْعَقِيدَةُ فِي حَيَاتِهِمْ إِلَىٰ عَدْلٍ وَرَحْمَةٍ وَشَجَاعَةٍ وَبَذْلٍ وَوَفَاءٍ.

فَهَذِهِ نَمَاذِجُ مِنَ الْأَدَاءِ الْفَرِيدِ صَنَعَهَا الْإِسْلَامُ، وَسَتَظَلُّ مَاثِلَةً فِي الْأَذْهَانِ؛ لِأَنَّهَا تُثْبِتُ أَنَّ الْإِسْلَامَ تَحَقَّقَ فِي الْحَيَاةِ حِينَ وَجَدَ أُنَاسًا يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيُحْسِنُونَ تَطْبِيقَ نِظَامِهِ. وَإِنَّمَا انْحَسَرَ الْمَدُّ الْإِسْلَامِيُّ حِينَ ضَعُفَ الْإِسْلَامُ فِي نُفُوسِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَنَاقَضَتْ أَفْعَالُهُمْ مَعَ عَقِيدَتِهِمْ، وَقَلَّتْ فِيهِمُ النَّمَاذِجُ الْعَمَلِيَّةُ الَّتِي تَتَجَلَّىٰ فِيهَا قِيَمُهُ قَوْلًا وَفِعْلًا.

وَنَقُولُ: قَلَّتْ وَلَمْ تَنْعَدِمْ؛ لِأَنَّ الْخَيْرِيَّةَ لَا تَزَالُ كَامِنَةً فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، تَنْتَظِرُ مَنْ يَبْعَثُهَا وَيُجَدِّدُهَا فِي النُّفُوسِ.

## ثَالِثًا: قُدْرَةُ الْإِسْلَامِ عَلَىٰ تَقْدِيمِ صُوَرٍ حَضَارِيَّةٍ جَدِيدَةٍ

يَلْفِتُ الْأُسْتَاذُ سَيِّدُ قُطْبٍ إِلَىٰ أَنَّ الصُّوَرَ التَّارِيخِيَّةَ الَّتِي قَدَّمَهَا الْإِسْلَامُ فِي أَوَّلِ فَيْضِهِ لَيْسَتْ كُلَّ الصُّوَرِ الْمُمْكِنَةِ، كَمَا يَتَصَوَّرُ بَعْضُ النَّاسِ؛ فَالْبَشَرِيَّةُ بِمَا أَحْرَزَتْهُ مِنْ تَقَدُّمٍ، وَمَا امْتَلَكَتْهُ مِنْ أَدَوَاتِ الْعِلْمِ وَوَسَائِلِ الْعُمْرَانِ، قَادِرَةٌ عَلَىٰ أَنْ تُقَدِّمَ فِي ظِلِّ الْإِسْلَامِ صُوَرًا حَضَارِيَّةً أُخْرَىٰ، قَدْ يَنْتَظِرُهَا مُسْتَقْبَلُ الْأَجْيَالِ(111).

وَلِلشَّيْخِ مُحَمَّدٍ عَبْدُه (ت 1905م) رَأْيٌ قَرِيبٌ مِنْ ذَلِكَ؛ إِذْ يَرُدُّ عَلَىٰ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ أَدَّىٰ دَوْرَهُ، وَأَنَّ الزَّمَنَ لَمْ يَعُدْ يَتَّسِعُ لِنَهْضَةٍ جَدِيدَةٍ، فَيَقُولُ: «يَقُولُ بَعْضُ

(110) نقلًا عن الشيخ محمد رشيد رضا: **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، 10/ 261.
(111) انظر سيد قطب: **نحو مجتمع إسلامي**، ص 42.

أَعْدَاءِ الْقُرْآنِ: إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ أَقْبَلَ عَلَىٰ آخِرِهِ، وَإِنَّ السَّاعَةَ أَوْشَكَتْ أَنْ تَقُومَ، وَإِنَّ مَا وَقَعَ فِيهِ النَّاسُ مِنَ الْفَسَادِ، وَمَا مُنِيَ بِهِ الدِّينُ مِنَ الْكَسَادِ، وَمَا عَرَضَ عَلَيْهِ مِنَ الْعِلَلِ، وَمَا نَرَاهُ مِنَ الْخَلَلِ، إِنَّمَا هُوَ أَعْرَاضُ الشَّيْخُوخَةِ وَالْهَرَمِ، فَلَا فَائِدَةَ فِي السَّعْيِ، وَلَا ثَمَرَةَ لِلْعَمَلِ، فَلَا حَرَكَةَ إِلَّا إِلَىٰ الْعَدَمِ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَمْتَدَّ بَصَرُنَا إِلَّا إِلَىٰ الْعَدَمِ، وَلَا أَنْ نَنْتَظِرَ مِنْ غَايَةٍ لِأَعْمَالِنَا سِوَىٰ الْعَدَمِ، نَعُوذُ بِاللهِ.

هَؤُلَاءِ حَفَدَةُ الْجَهْلِ، وَأَعْوَانُ الْيَأْسِ، يَهْرِفُونَ بِمَا لَا يَعْرِفُونَ. مَاذَا عَرَفُوا مِنَ الزَّمَانِ حَتَّىٰ يَعْرِفُوا أَنَّهُ كَادَ يَنْقَطِعُ عَنْ نِهَايَتِهِ؟ إِنَّ الَّذِي مَضَىٰ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَبْدَإِ الْإِسْلَامِ أَلْفٌ وَثَلَاثُمِائَةٍ وَعِشْرُونَ عَامًا، وَإِنَّمَا هِيَ يَوْمٌ وَبَعْضُ يَوْمٍ، أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ فَقَطْ، مِنْ أَيَّامِ اللهِ تَعَالَىٰ. وَإِنَّ آيَاتِ اللهِ فِي الْكَوْنِ، وَإِنْ كَانَتْ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ مَا مَضَىٰ عَلَىٰ الْخَلِيقَةِ مِنَ الدُّهُورِ الدَّهَارِيرِ، تَشْهَدُ بِأَنَّ مَا بَقِيَ لِهَذَا النِّظَامِ الْعَظِيمِ يَقْصُرُ عَنْ تَقْدِيرِهِ كُلُّ تَقْدِيرٍ: ﴿فَمَا لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: 78]» (112).

فَالْإِمَامُ مُحَمَّدٌ عَبْدُه يَرْفُضُ مَنْطِقَ الْيَأْسِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّ الْإِسْلَامَ قَدِ اسْتَنْفَدَ طَاقَتَهُ، أَوْ أَنَّ الصُّوَرَ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي تَارِيخِهِ هِيَ غَايَةُ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَدِّمَهُ. فَمَا زَالَ أَمَامَ الْبَشَرِيَّةِ زَمَنٌ وَاسِعٌ، وَمَجَالٌ فَسِيحٌ، لِتَتَعَمَّقَ فِيهِ مَعَانِي الْإِسْلَامِ، وَتَظْهَرَ آثَارُهَا فِي صُوَرٍ جَدِيدَةٍ تُنَاسِبُ تَطَوُّرَ الْحَيَاةِ وَتَقَدُّمَ الْعِلْمِ.

فَالْإِسْلَامُ لَا يَقِفُ عِنْدَ صُوَرِ التَّطْبِيقِ الَّتِي عَرَفَهَا الْمَاضِي، وَلَا يَرْفُضُ مُنْجَزَاتِ الْعَصْرِ وَفُتُوحَ الْحَضَارَةِ، بَلْ يَسْتَوْعِبُ مَا يَسْتَجِدُّ مِنْ مَعَارِفَ وَوَسَائِلَ، وَيَنْتَفِعُ بِهَا فِي تَحْقِيقِ مَقَاصِدِهِ الْكُلِّيَّةِ. فَيُمْكِنُهُ، فِي ظِلِّ تَقَدُّمِ الْعِلْمِ وَاتِّسَاعِ إِمْكَانَاتِ الْإِنْسَانِ، أَنْ يُقَدِّمَ صُوَرًا أَعْمَقَ لِلْعَدْلِ، وَالشُّورَىٰ، وَكَرَامَةِ الْإِنْسَانِ، وَالتَّكَافُلِ، وَحِفْظِ الْحُقُوقِ.

وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ أَنْ نُعِيدَ صُوَرَ الْمَاضِي بِتَفَاصِيلِهَا، بَلْ أَنْ نَسْتَلْهِمَ الْمَبَادِئَ الَّتِي أَنْشَأَتْ تِلْكَ الصُّوَرَ، ثُمَّ نُحْسِنَ تَنْزِيلَهَا عَلَىٰ وَاقِعِنَا، وَنَنْتَفِعَ بِأَدَوَاتِ عَصْرِنَا فِي تَحْقِيقِهَا؛ فَالثَّابِتُ هُوَ الْمَبَادِئُ وَالْمَقَاصِدُ، وَالْمُتَجَدِّدُ هُوَ الصُّوَرُ وَالْوَسَائِلُ الَّتِي تَتَحَقَّقُ

(112) الإمام محمد عبده: **الإسلام بين العلم والمدنية**، كلمات عربية للترجمة والنشر، ص 133.

بِهَا تِلْكَ الْمَبَادِئُ فِي حَيَاةِ النَّاسِ.

وَمِنْ هُنَا جَاءَتْ رِسَالَةُ «نَحْوَ النُّورِ» لِتُقَدِّمَ الْإِسْلَامَ مِنْهَاجًا صَالِحًا لِبِنَاءِ الدَّوْلَةِ وَالْمُجْتَمَعِ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ، وَلِتَرُدَّ عَلَىٰ دَعْوَىٰ بَعْضِ الْمُثَقَّفِينَ الَّذِينَ ظَنُّوا أَنَّ النَّهْضَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِاتِّبَاعِ الْغَرْبِ وَنَقْلِ نُظُمِهِ. فَبَيَّنَ الْإِمَامُ الْبَنَّا أَنَّ الْإِسْلَامَ لَا يَعْجِزُ عَنْ مُوَاجَهَةِ مُقْتَضَيَاتِ الْعَصْرِ، بَلْ يَمْلِكُ مِنَ الْمَبَادِئِ وَالْمَقَاصِدِ مَا يُمَكِّنُهُ مِنْ تَوْجِيهِهَا وَالِانْتِفَاعِ بِهَا.

وَوَاجِبُنَا أَنْ نُحْسِنَ عَرْضَ الْإِسْلَامِ، وَأَنْ نُقَدِّمَهُ لِلنَّاسِ فِي صُورَةٍ حَيَّةٍ، تُبَيِّنُ قُدْرَتَهُ عَلَىٰ بِنَاءِ الْإِنْسَانِ وَالْمُجْتَمَعِ، وَعَلَى الْإِجَابَةِ عَنْ أَسْئِلَةِ الْعَصْرِ وَمُشْكِلَاتِهِ؛ فَلَا يَكْفِي أَنْ نُؤَكِّدَ صَلَاحِيَّتَهُ بِالْقَوْلِ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ نُقَدِّمَهُ مُتَرْجَمًا فِي نِظَامٍ، وَمُمَثَّلًا فِي مُجْتَمَعٍ، وَمُتَجَسِّدًا فِي حَيَاةٍ.

## رَابِعًا: أَزْمَةُ الْمُثَقَّفِينَ فِي اخْتِيَارِ مَنْهَجِ النَّهْضَةِ

لَمْ تَكُنْ أَزْمَةُ بَعْضِ الْمُثَقَّفِينَ تِجَاهَ الْإِسْلَامِ قَضِيَّةً نَظَرِيَّةً مُجَرَّدَةً، بَلْ كَانَتْ مُتَّصِلَةً اتِّصَالًا مُبَاشِرًا بِالسُّؤَالِ الَّذِي تَدُورُ حَوْلَهُ رِسَالَةُ «**نَحْوَ النُّورِ**» «عَلَىٰ أَيِّ مَنْهَجٍ تُبْنَىٰ نَهْضَةُ الْأُمَّةِ فِي عَهْدِ الِانْتِقَالِ؟ أَعَلَىٰ أُصُولِ الْإِسْلَامِ وَقَوَاعِدِهِ، أَمْ عَلَىٰ نَقْلِ نُظُمِ الْغَرْبِ وَمَنَاهِجِهِ؟

وَقَدْ تَنَاوَلَ الدُّكْتُورُ مُحْسِنُ عَبْدُ الْحَمِيدِ هَذِهِ الْأَزْمَةَ بِالتَّفْصِيلِ فِي كِتَابِهِ «**أَزْمَةُ الْمُثَقَّفِينَ تِجَاهَ الْإِسْلَامِ**»[113]، فَبَيَّنَ أَسْبَابَهَا الدَّاخِلِيَّةَ وَالْخَارِجِيَّةَ، وَكَشَفَ عَنْ أَبْرَزِ مَظَاهِرِهَا. وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ هُنَا اسْتِقْصَاءَ تِلْكَ الْأَسْبَابِ، وَإِنَّمَا بَيَانُ مَا يَتَّصِلُ مِنْهَا بِمَقْصِدِ رِسَالَةِ «**نَحْوَ النُّورِ**».

(113) د. محسن عبد الحميد: **أزمة المثقفين تجاه الإسلام**، ط 1، دار الصحوة، القاهرة، 1405هـ - 1984م.

## أَسْبَابُ الْأَزْمَةِ

ظَلَّ الْإِسْلَامُ عَبْرَ قُرُونٍ طَوِيلَةٍ الْمُوَجِّهَ الْأَسَاسِيَّ لِحَيَاةِ الْمُسْلِمِينَ وَحَرَكَتِهِمُ الْفِكْرِيَّةِ وَالْحَضَارِيَّةِ. وَلَمْ يَكُنِ الْمُسْلِمُونَ مُنْغَلِقِينَ عَنْ ثِمَارِ الْحَضَارَاتِ الْأُخْرَىٰ، بَلِ انْتَفَعُوا بِهَا مِنْ خِلَالِ رُؤْيَةٍ عَقَدِيَّةٍ وَاضِحَةٍ، حَفِظَتْ شَخْصِيَّتَهُمْ، وَمَكَّنَتْهُمْ مِنَ الْأَخْذِ وَالرَّدِّ وَالْمُوَازَنَةِ.

غَيْرَ أَنَّ الْحَيَاةَ الْفِكْرِيَّةَ فِي الْقُرُونِ الْمُتَأَخِّرَةِ أَصَابَهَا شَيْءٌ مِنَ الْجُمُودِ، وَضَعُفَتْ صِلَةُ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ بِحَرَكَةِ الْمُجْتَمَعِ وَمُشْكِلَاتِهِ، وَتَرَاجَعَ الِاجْتِهَادُ، وَغَلَبَتِ الْجُزْئِيَّاتُ عَلَىٰ الْمَقَاصِدِ، وَالْجَدَلُ عَلَىٰ الْعَمَلِ، فَنَشَأَ فَرَاغٌ فِكْرِيٌّ وَحَضَارِيٌّ.

وَتَزَامَنَ ذَلِكَ مَعَ اسْتِبْدَادِ بَعْضِ الْحُكَّامِ، وَضَعْفِ قِيَامِ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ بِوَاجِبِ النُّصْحِ وَالْإِصْلَاحِ، وَتَرَاجُعِ دَوْرِ الْعَامَّةِ فِي مُقَاوَمَةِ الظُّلْمِ وَالْفَسَادِ. فَوَجَدَتِ الْأُمَّةُ نَفْسَهَا أَمَامَ الْحَضَارَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْحَدِيثَةِ وَهِيَ فِي حَالٍ مِنَ الضَّعْفِ وَالتَّفَكُّكِ.

وَأَمَّا **الْعَوَامِلُ الْخَارِجِيَّةُ**، فَكَانَ مِنْ أَبْرَزِهَا: الِاسْتِشْرَاقُ، وَمُؤَسَّسَاتُ التَّعْلِيمِ وَالثَّقَافَةِ الَّتِي أَنْشَأَهَا الِاسْتِعْمَارُ، وَنَقْلُ التَّجْرِبَةِ الْغَرْبِيَّةِ فِي الصِّرَاعِ مَعَ الْكَنِيسَةِ إِلَىٰ الْمُجْتَمَعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ. فَنَشَأَ جِيلٌ مِنَ الْمُثَقَّفِينَ تَلَقَّىٰ الْفِكْرَ الْغَرْبِيَّ وَمَنَاهِجَهُ، وَلَمْ يَتَلَقَّ مِنَ الْإِسْلَامِ مَا يُمَكِّنُهُ مِنْ فَهْمِهِ وَتَقْوِيمِ تِلْكَ الْمَنَاهِجِ فِي ضَوْئِهِ.

وَقَدْ عَبَّرَ الدُّكْتُورُ زَكِيٌّ نَجِيبٌ مَحْمُودٌ عَنْ هَذِهِ الْحَالَةِ حِينَ قَالَ: «فَهُوَ وَاحِدٌ مِنْ أُلُوفِ الْمُثَقَّفِينَ الْعَرَبِ الَّذِينَ فُتِّحَتْ عُيُونُهُمْ عَلَىٰ فِكْرٍ أُورُوبِّيٍّ قَدِيمٍ أَوْ جَدِيدٍ، حَتَّىٰ سَبَقَتْ إِلَىٰ خَوَاطِرِهِمْ ظُنُونٌ بِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْفِكْرُ الْإِنْسَانِيُّ لَا فِكْرَ سِوَاهُ؛ لِأَنَّ عُيُونَهُمْ لَمْ تُفَتَّحْ عَلَىٰ غَيْرِهِ لِتَرَاهُ[114]».

وَيَعْتَرِفُ الْأُسْتَاذُ سَيِّدُ قُطْب وَهُوَ يَكْتُبُ (**نَحْوَ مُجْتَمَعٍ إِسْلَامِيٍّ**)، بِأَنَّه رُغْمَ اتِّجَاهِهِ الْإِسْلَامِيِّ الْقَوِيِّ فِي ذَلِكَ الْحِينِ، فَإِنَّ رَوَاسِبَ الثَّقَافَةِ الْغَرْبِيَّةِ كَانَتْ تَمْلَأُ حِسِّي وَعَقْلِي وَتَطْمِسُ بَصِيرَتِي وَبَعْدَ أَنْ كَانَ سَيَكْتُبُ نَحْوَ مُجْتَمَعٍ إِسْلَامِيٍّ مُتَحَضِّرٍ رَجَعَ

(114) انظُر د. محسن عبد الحميد: **أزمة المثقفين تجاه الإسلام**، ص 49 – 55.

عَنْ ذَلِكَ وَكَتَبَ (نَحْوَ مُجتَمَعٍ إِسْلامِيٍّ)، لأَنَّه أَينَمَا وُجِدَ المُجْتَمَعُ الإِسْلامِيُّ وُجِدَتِ الحَضَارَةُ الإِسْلامِيَّةُ، أَيْ أَنَّ الأُستَاذَ سَيِّدَ قُطبٍ عَدَّ إِضَافَةَ كَلِمَةِ (مُتَحَضِّرٍ) إِلَىٰ مُجْتَمَعٍ مَوصُوفٍ بِأَنَّهُ إِسْلَامِيٌّ؛ ضَرْبًا مِنَ اللَّغْوِ لَا يُضِيفُ جَدِيدًا[115]. وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ الجُهْدِ الضَّخْمِ الَّذِي بَذَلَهُ الاسْتِشرَاقُ الغَربِيّ لِزَرْعِ الكَراهِيَّةِ تِجَاهَ الإِسْلامِ وَالمُسلِمِينَ.

هَذَا المَنْهَجُ العَلْمَانِيُّ الغَربِيُّ العَقْلانِيُّ هُوَ الَّذِي وَجَّهَ الثقَافةَ فِي العَالَمِ الإِسْلامِيِّ، وَهُوَ الَّذِي أَنْتَجَ الفِصَامَ الحَادَّ بَينَ العُلُومِ الإِنْسَانِيَّةِ وَالكَوْنِيَّةِ وَبَينَ الإِسْلَامِ، فَغَدَا مِنَ العَيْبِ وَالخُرافَةِ وَالغَيبِيَّةِ أَنْ يُحْشَرَ الدِّينُ فِي تِلكَ العُلُومِ، كُلُّ ذَلِكَ نَقْلًا وَتَقلِيدًا دُونَ مُوازَنَةٍ بَينَ الدِّينَينِ الإِسْلامِ وَالنَّصْرانِيَّةِ، وَبَينَ الحَضارَتَينِ الإِسْلامِيةِ وَالغَربِيةِ وَتَطوُّرِهِمَا.

وَهَكَذَا نَجِدُ أَنَّ الأَسْبَابَ الَّتِي تَحدَّثْنَا عَنْهَا قَدْ أَنتَجَتْ أُمَّةً مِنَ المُتعلِّمِينَ وَالمُثَقَّفِينَ المُحْدَثِينَ عَزلَتْهُمْ عَنِ الإِسْلامِ الحَقِّ عَزْلًا كَامِلًا، فَلَمْ يَعرِفُوا شَيْئًا ذَا قِيمَةٍ، فَامتَلأَتْ عُقُولُهُمْ وَكِتَابَاتُهُمْ بِالانحِرَافَاتِ وَالمَفاهِيمِ الخَاطِئَةِ وَمَظَاهِرِ الجَهْلِ المُطْبِقِ الَّتِي قَضَتْ عَلَىٰ وَحْدَةِ الأُمَّةِ الفِكْرِيَّةِ وَحَرَّفَتْ مَسَارَهَا الحَضَارِيَّ التَّارِيخِيَّ وَأَخْرَجَتْهَا مِنْ أَصَالَتِهَا وَشَخْصِيَّتِهَا المُستَقِلَّةِ وَوَضَعَتْ أَمَامَهَا حُلُولًا مَنقُولَةً جَاهِزَةً مِنْ أَوْضَاعِ الأُمَمِ الغَربِيَّةِ، دُونَ أَدْنَىٰ مُرَاعَاةٍ لِخَصَائِصِ أُمَّتِنَا العَقَدِيَّةِ وَالحَضَارِيَّةِ، فَزَعْزَعَتْ حَيَاتَهَا وَقَادَتْهَا إِلَىٰ الاضْطِرَابِ وَالبَلْبَلَةِ وَالتَّمزُّقِ، وَكَانَ نَتِيجَتُهَا الحَضَارِيَّةُ ضَيَاعَ قَرنٍ كَامِلٍ فِي حَيَاةِ أُمَّتِنَا دُونَ أَنْ تَضَعَ قَدَمَهَا عَلَىٰ الخَطِّ الصَّحِيحِ فِي التطَوُّرِ وَالتَّغْيِيرِ البَنَّاءِ[116].

فَلَمْ تَكُنِ الْمُشْكِلَةُ فِي الِانْتِفَاعِ بِمُنْجَزَاتِ الْغَرْبِ، وَإِنَّمَا فِي تَلَقِّيهَا مِنْ مَوْقِعِ الْهَزِيمَةِ وَالِانْبِهَارِ، وَالظَّنِّ أَنَّ نَقْلَهَا بِكُلِّ أُصُولِهَا الْفَلْسَفِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ هُوَ الطَّرِيقُ الْوَحِيدُ لِلنَّهْضَةِ.

(115) انظر سيد قطب: **معالم في الطريق**، ط 6، دار الشروق، 1399هـ – 1979م، ص 106، 107.
(116) انظُر د. محسن عبد الحميد: **أزمة المثقفين تجاه الإسلام**، ص 56.

## مظَاهِرُ الْأَزْمَةِ

تَجَلَّتْ أَزْمَةُ بَعْضِ الْمُثَقَّفِينَ تِجَاهَ الْإِسْلَامِ فِي ثَلَاثَةِ مَظَاهِرَ رَئِيسَةٍ:

### 1 - الْجَهْلُ بِحَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ

لَـمْ يَكُـنِ الْمُـرَادُ مُجَـرَّدَ الْجَهْـلِ بِبَعْـضِ الْأَحْـكَامِ، بَـلِ الْجَهْـلُ بِطَبِيعَـةِ الْإِسْـلَامِ وَخَصَائِصِـهِ وَمَقَاصِـدِهِ وَتَارِيخِـهِ وَقُدْرَتِـهِ عَلَىٰ بِنَاءِ الْحَيَاةِ. وَنَشَـأَ عَـنْ ذَلِـكَ فَصْـلُ الْعُلُـومِ وَالثَّقَافَـةِ عَـنِ الْمَرْجِعِيَّـةِ الْإِسْـلَامِيَّةِ، وَتَقْدِيـمُ حُلُـولٍ مَنْقُولَـةٍ مِـنْ بِيئَـاتٍ أُخْـرَىٰ، مِـنْ غَيْـرِ مُرَاعَـاةٍ لِخَصَائِـصِ الْأُمَّـةِ وَعَقِيدَتِهَـا وَتَارِيخِهَـا.

وَرِسَـالَةُ «نَحْـوَ النُّـورِ» تُوَاجِـهُ هَـذَا الْجَهْـلَ بِعَـرْضِ الْإِسْـلَامِ مِنْهَاجًـا شَـامِلًا، يُمِـدُّ الْأُمَّـةَ بِالْأَمَـلِ وَالْقُـوَّةِ وَالْعِلْـمِ وَالْخُلُـقِ، وَيَقْـدِرُ عَلَـىٰ تَنْظِيـمِ شُـؤُونِ الْفَـرْدِ وَالْمُجْتَمَـعِ وَالدَّوْلَـةِ.

### 2 - الْخَلْطُ بَيْنَ الْوَحْيِ وَالتُّرَاثِ

الْوَحْـيُ مَعْصُـومٌ، أَمَّـا التُّـرَاثُ فَهُـوَ جُهْـدٌ بَشَـرِيٌّ يَرْتَبِـطُ بِظُـرُوفِ عَصْـرِهِ، وَيُؤْخَـذُ مِنْـهُ وَيُـرَدُّ. وَالْخَلْـطُ بَيْنَهُمَـا يُؤَدِّي إِلَـىٰ أَحَـدِ طَرَفَيْـنِ: إِمَّـا تَقْدِيـسِ كُلِّ مَا وَرَدَ فِـي التُّـرَاثِ، وَإِلْزَامِ الْعَصْـرِ بِصُـوَرٍ اجْتِهَادِيَّـةٍ قَدِيمَـةٍ؛ وَإِمَّـا رَفْـضِ الْإِسْـلَامِ نَفْسِـهِ بِسَـبَبِ بَعْـضِ الِاجْتِهَـادَاتِ التَّارِيخِيَّـةِ.

وَقَـدْ ضَبَـطَ الْإِمَـامُ الْبَنَّـا هَـذِهِ الْقَضِيَّـةَ بِقَوْلِـهِ: «لَا نُـقَيِّدَ أَنْفُسَـنَا بِغَيْـرِ مَـا يُـقَيِّدُنَا اللهُ بِـهِ، وَلَا نُلْـزِمُ عَصْرَنَـا لَـونَ عَصْـرٍ لَا يَتَّفِـقُ مَعَـهُ، وَالْإِسْـلَامُ دِيـنُ الْبَشَـرِيَّةِ جَمِيعًـا»[117].

فَنَظْرَتُنَـا إِلَـىٰ التُّـرَاثِ غَيْـرُ نَظْرَتِنَـا إِلَـىٰ الْوَحْـيِ، كَمَـا يَقُـولُ الْإِمَـامُ الْبَنَّـا فِـي الْأَصْـلِ الثَّانِـي مِـنْ أُصُـولِ الْفَهْـمِ الْعِشْـرِينَ: «وَالْقُـرْآنُ الْكَرِيـمُ وَالسُّـنَّةُ الْمُطَهَّـرَةُ مَرْجِـعُ كُلِّ مُسْـلِمٍ فِي تَعَـرُّفِ أَحْـكَامِ الْإِسْـلَامِ، وَيُفْهَـمُ الْقُـرْآنُ طِبْقًـا لِقَوَاعِـدِ اللُّغَـةِ الْعَرَبِيَّـةِ مِـنْ غَيْـرِ تَكَلُّـفٍ وَلَا تَعَسُّـفٍ، وَيُرْجَـعُ فِـي فَهْـمِ السُّـنَّةِ الْمُطَهَّـرَةِ إِلَـىٰ رِجَـالِ الْحَدِيـثِ الثِّقَـاتِ»[118].

(117) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة المؤتمر الخامس]، ص 335.
(118) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة التعاليم]، ص 275.

وَقَالَ فِي الْأَصْلِ السَّادِسِ مِنْ أُصُولِ الْفَهْمِ: «وَكُلُّ أَحَدٍ يُؤْخَذُ مِنْ كَلامِهِ وَيُتْرَكُ إِلَّا المَعْصُومُ ﷺ، وَكُلُّ مَا جَاءَ عَنِ السَّلَفِ الصَّالِحِ (رِضْوَانُ اللهِ عَلَيهِمْ) مُوافِقًا لِلكِتابِ وَالسُّنَّةِ قَبِلْنَاهُ، وَإِلَّا فَكِتَابُ اللهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ أَوْلَىٰ بِالاتِّبَاعِ، وَلَكِنَّا لَا نَعْرِضُ لِلأَشْخَاصِ - فِيمَا اختُلِفَ فِيهِ - بِطَعْنٍ أَوْ تَجْرِيحٍ وَنَكِلُهُمْ إِلَىٰ نِيَّاتِهِمْ وَقَدْ أَفْضَوْا إِلَىٰ مَا قَدَّمُوا»[119].

فَالْمَنْهَجُ الصَّحِيحُ لَيْسَ فِي قَطْعِ الصِّلَةِ بِالتُّرَاثِ، وَلَا فِي تَقْدِيسِ جَمِيعِ تَفَاصِيلِهِ، بَلْ فِي رَدِّهِ إِلَىٰ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالِانْتِفَاعِ بِاجْتِهَادَاتِهِ، وَتَجْدِيدِ صُوَرِ التَّطْبِيقِ بِمَا يُنَاسِبُ الْعَصْرَ وَيُحَقِّقُ مَقَاصِدَ الْإِسْلَامِ.

وَأَبْرَزُ هَذِهِ الْأَحْكَامِ أَحْكَامُ الذِّمِّيِّينَ وَالْمُعَاهَدِينَ وَالْكِتَابِيِّينَ الْمَوْجُودَةُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ فِي التُّرَاثِ. فَالْفَتَاوَىٰ وَنَظْرَةُ الْعُلَمَاءِ كَانَتْ حَسَبَ الظُّرُوفِ الَّتِي عَلَيْهَا عَصْرُهُمْ.

وَبَعْضُ الْجَمَاعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ تَأْخُذُ هَذِهِ الْأَحْكَامَ جُمْلَةً دُونَ نَظَرٍ وَلَا تَمْحِيصٍ وَلَا تَفْصِيلٍ، وَتُلْحِقُ بِنَفْسِهَا الْأَذَىٰ وَالْعَنَتَ؛ وَلِذَلِكَ عِنْدَمَا سُئِلَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ الْبَنَّا مَرَّةً عَنِ الْجِزْيَةِ، فَقَالَ كَلِمَةً مَشْهُورَةً فِي حَقِّ الذِّمِّيِّينَ الَّذِينَ يَعِيشُونَ فِي نَفْسِ الْوَطَنِ: «يَقُولُ النَّاسُ: وَمَا تَفْعَلُونَ بِالْأَجَانِبِ وَبِغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمُوَاطِنِينَ؟ فَنَقُولُ: يَا سُبْحَانَ اللهِ، لَقَدْ حَلَّ الْإِسْلَامُ هَذَا الْإِشْكَالَ، وَصَانَ وَحْدَةَ الْأُمَّةِ عَنِ التَّشَقُّقِ وَالِانْقِسَامِ، وَقَرَّرَ حُرِّيَّةَ الْعَقِيدَةِ وَالتَّعَبُّدِ وَمَا يَلْحَقُ بِهِمَا، فَقَالَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، كَمَا كَانَ شِعَارُ التَّعَامُلِ بَيْنَ الْمُوَاطِنِينَ فِي أَرْضِ الْإِسْلَامِ دَائِمًا: «لَهُمْ مَا لَنَا وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْنَا»، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ التَّسَامُحِ زِيَادَةٌ لِمُسْتَزِيدٍ»[120]. فَسَقَطَ عَقْدُ الذِّمَّةِ، وَقَامَ عَهْدُ الْمُوَاطَنَةِ، لَنَا مَا لَهُمْ، وَعَلَيْنَا مَا عَلَيْهِمْ.

وَهَذَا نَوْعٌ مِنَ الْفِقْهِ وَالتَّخَلُّصِ مِنَ الْمَآزِقِ حَتَّىٰ لَا نَدْخُلَ فِي مَتَاهَاتٍ. وَهَذِهِ الْمَعَانِي دَلِيلٌ عَلَىٰ سَعَةِ فِقْهِ الْإِمَامِ الْبَنَّا إِذْ كَانَ يَأْخُذُ مِنَ الْإِسْلَامِ مَا يُنَاسِبُ عَصْرَهُ. «لَا نُقَيِّدُ أَنْفُسَنَا بِغَيْرِ مَا قَيَّدَنَا اللهُ بِهِ، وَلَا نُلْزِمُ عَصْرَنَا لَوْنَ عَصْرٍ لَا يَتَّفِقُ مَعَنَا، وَالْإِسْلَامُ

(119) السابق.

(120) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة رؤساء المناطق والشعب]، ص 578.

دِينُ الْبَشَرِيَّةِ جَمِيعًا»[121]؛ فَكُلُّ عَصْرٍ يُنَزَّلُ عَلَيْهِ مِنْ أَحْكَامِ الإِسْلاَمِ مَا يُنَاسِبُ وَاقِعَهُ فِي إِطَارِ أُصُولِهِ وَثَوَابِتِهِ.

وَمِنَ الْقَضَايَا الْمَطْرُوحَةِ أَيْضًا قَضِيَّةُ الْجِهَادِ، الَّتِي ـ كَمَا قَالَ الإِمَامُ الْبَنَّا فِي رِسَالَةِ «الْجِهَادِ» ـ قَالَ بَعْضُ الأَحْنَافِ: **الْجِهَادُ فِي الشَّرِيعَةِ قَتْلُ الْكُفَّارِ وَنَحْوُهُ، مِنْ ضَرْبِهِمْ وَنَهْبِ أَمْوَالِهِمْ وَهَدْمِ مَعَابِدِهِمْ وَكَسْرِ أَصْنَامِهِمْ، وَالْمُرَادُ الاِجْتِهَادُ فِي تَقْوِيَةِ الدِّينِ بِنَحْوِ قِتَالِ الْحَرْبِيِّينَ وَالذِّمِّيِّينَ إِذَا نَقَضُوا، وَالْمُرْتَدِّينَ الَّذِينَ هُمْ أَخْبَثُ الْكُفَّارِ؛ لِلنَّقْضِ بَعْدَ الإِقْرَارِ، وَالْبَاغِينَ بَدْءًا مِنَّا، فَرْضُ كِفَايَةٍ... إِلَخْ»**[122].

وَهَذَا الَّذِي ذُكِرَ فِي الْجِهَادِ لَا يَنْطَبِقُ مَعَ عَصْرِنَا، وَلَا نُلْزِمُ بِهِ عَصْرَنَا؛ لِأَنَّهُ لَا يَتَّفِقُ مَعَنَا. وَقَدْ فَهِمَ الْأُسْتَاذُ الإِمَامُ الْبَنَّا ذَلِكَ عِنْدَمَا عَلَّقَ عَلَيْهِ وَقَالَ: «فَهَا أَنْتَ تَرَىٰ كَيْفَ أَجْمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَىٰ أَنَّ الْجِهَادَ فَرْضُ كِفَايَةٍ عَلَىٰ الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ لِنَشْرِ الدَّعْوَةِ، وَفَرْضُ عَيْنٍ لِدَفْعِ هُجُومِ الْكُفَّارِ، وَالْمُسْلِمُونَ الْآنَ ـ كَمَا تَعْلَمُ ـ مُسْتَذَلُّونَ لِغَيْرِهِمْ، مَحْكُومُونَ بِالْكُفَّارِ، قَدْ دِيسَتْ أَرْضُهُمْ، وَانْتُهِكَتْ حُرُمَاتُهُمْ، وَتَحَكَّمَ فِي شُؤُونِهِمْ خُصُومُهُمْ، وَتَعَطَّلَتْ شَعَائِرُ دِينِهِمْ فِي دِيَارِهِمْ، فَضْلًا عَنْ عَجْزِهِمْ عَنْ نَشْرِ دَعْوَتِهِمْ، فَوَجَبَ وُجُوبًا عَيْنِيًّا لَا مَنَاصَ مِنْهُ أَنْ يَتَجَهَّزَ كُلُّ مُسْلِمٍ، وَأَنْ يَنْطَوِيَ عَلَىٰ نِيَّةِ الْجِهَادِ وَإِعْدَادِ الْعُدَّةِ لَهُ، حَتَّىٰ تَحِينَ الْفُرْصَةُ، وَيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا»[123].

فَالنُّصُوصُ الْمُتَعَدِّدَةُ الَّتِي وَرَدَتْ فِي الْجِهَادِ تُفْهَمُ فِي ضَوْءِ الْمَرَاحِلِ التَّارِيخِيَّةِ الْمُتَجَدِّدَةِ، كَمَا قَالَ الْأُسْتَاذُ سَيِّدٌ قُطْبٌ، وَبِهَذَا تَأْخُذُ كُلُّ قَضِيَّةٍ حَقَّهَا، عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ حُكْمٍ كَانَ مُرْتَبِطًا بِعَصْرٍ مُعَيَّنٍ وَبِرُوحٍ مُعَيَّنَةٍ. فَالْخَلْطُ بَيْنَ الْوَحْيِ وَالتُّرَاثِ كَانَ مِنْ مَظَاهِرِ هَذِهِ الْأَزْمَةِ، وَكَانَ الْغَرَضُ مِنْهُ سَيِّئًا جِدًّا؛ مِنْ أَجْلِ الدَّفْعِ بِالإِسْلَامِ خَارِجَ الْحَيَاةِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ لِلْأُمَّةِ، عَلَىٰ أَنَّهُ مَرْحَلَةٌ تَارِيخِيَّةٌ انْتَهَتْ وَمَضَتْ.

(121) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا، [رسالة المؤتمر الخامس]**، ص 335.
(122) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا، [رسالة الجهاد]**، ص 619.
(123) السابق. ص 622.

## 3 – إِسْقَاطُ الْمَفْهُومِ الْغَرْبِيِّ لِلدِّينِ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ(التَّلْفِيقُ)

نَشَأَ فِي أُورُوبَّا مَفْهُومٌ لِلدِّينِ يَجْعَلُهُ عَلاقَةً فَرْدِيَّةً بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، لَا صِلَةَ لَهَا بِنِظَامِ الْحَيَاةِ وَالدَّوْلَةِ وَالْمُجْتَمَعِ، وَكَانَ هَذَا الْمَفْهُومُ نَتِيجَةً لِصِرَاعٍ تَارِيخِيٍّ خَاصٍّ بَيْنَ الْكَنِيسَةِ وَالْعِلْمِ وَالْعَقْلِ. وَقَدْ نَقَلَ بَعْضُ الْمُثَقَّفِينَ هَذَا الْمَفْهُومَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُدْرِكُوا الْفَرْقَ الْجَوْهَرِيَّ بَيْنَ التَّجْرِبَتَيْنِ؛ فَفَسَّرُوا الْإِسْلَامَ عَلَىٰ أَنَّهُ رَابِطَةٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، وَأَمْرٌ شَخْصِيٌّ لَا عِلَاقَةَ لَهُ بِالْحَيَاةِ، وَجَعَلُوا الدِّينَ مَسْؤُولًا عَنْ كِيَانِ الْإِنْسَانِ الدَّاخِلِيِّ، وَالْعَقْلَ مَسْؤُولًا عَنْ كِيَانِهِ الْخَارِجِيِّ، وَظَنُّوا أَنَّ ثَبَاتَ الْقِيَمِ الدِّينِيَّةِ يُنَاقِضُ حَرَكَةَ الْحَيَاةِ وَتَطَوُّرَهَا؛ فَنَادَوْا بِفَصْلِ الدِّينِ عَنِ الْحَيَاةِ، وَبِفَصْلِ الدِّينِ عَنِ السِّيَاسَةِ، وَرَدَّدُوا مَقُولَاتٍ مِنْ نَوْعِ»: **دَعْ مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ، وَمَا لِلَّهِ لِلَّهِ**«، وَ«لَا سِيَاسَةَ فِي الدِّينِ، وَلَا دِينَ فِي السِّيَاسَةِ». وَهَذَا نَوْعٌ مِنَ **التَّلْفِيقِ** النَّاشِئِ عَنْ خَلْطٍ وَجَهْلٍ بِطَبِيعَةِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ، وَعَنْ نَقْلِ نَتَائِجِ تَجْرِبَةٍ تَارِيخِيَّةٍ أُورُوبِّيَّةٍ خَاصَّةٍ إِلَىٰ بِيئَةٍ دِينِيَّةٍ وَحَضَارِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ[124].

وَالْإِسْلَامُ لَمْ يُقَدِّمْ نَفْسَهُ بَدِيلًا عَنِ الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ، بَلْ دَعَا إِلَيْهِمَا، وَجَعَلَ النَّظَرَ فِي الْكَوْنِ سَبِيلًا إِلَىٰ الْمَعْرِفَةِ وَالْعُمْرَانِ. وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ الْبَنَّا فِي **الْأَصْلِ الثَّامِنَ عَشَرَ**: «وَالإِسْلام يُحرِّرُ العَقلَ، وَيَحُثُّ عَلَىٰ النظرِ فِي الكَونِ، وَيَرفع قَدْرَ العِلْمِ وَالعُلَمَاءِ، وَيُرحِّبُ بِالصَّالِحِ والنَّافِعِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَالحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤمِنِ أَنَّىٰ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا»[125].

وَقَالَ فِي **الأَصْلِ التَّاسِعَ عَشَرَ**: «وَقَدْ يَتنَاوَلُ كُلٌّ مِنَ النظَرِ الشَّرْعِيِّ وَالنظَرِ العَقْلِيِّ مَا لَا يَدْخُلُ فِي دَائِرَةِ الآخَرِ، وَلَكِنَّهُمَا لَنْ يَخْتَلِفَا فِي القَطْعِيِّ؛ فَلَنْ تَصْطَدِمَ حَقِيقَةٌ عِلْمِيَّةٌ صَحِيحَةٌ بِقَاعِدَةٍ شَرعِيَّةٍ ثَابِتَةٍ، وَيُؤَوَّلُ الظَّنِّيُّ مِنْهُمَا لِيَتَّفِقَ مَعَ القَطْعِيِّ، فَإِنْ كَانَا ظَنِّيَّيْنِ فَالنظَرُ الشَّرعِيُّ أَوْلَىٰ بِالاتِّبَاعِ، حَتَّىٰ يَثبُتَ العَقلِيُّ أَو يَنهَارَ»[126].

(124) انظر: د. محسن عبد الحميد. **أزمة المثقفين تجاه الإسلام**. ص 66،67.
(125) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة التعاليم]، ص 277.
(126) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة التعاليم]، ص 277.

فَلَا تَعَارُضَ فِي الْإِسْلَامِ بَيْنَ الْوَحْيِ الصَّحِيحِ وَالْعَقْلِ الصَّرِيحِ، وَلَا بَيْنَ الدِّينِ وَالْعِلْمِ، وَلَا بَيْنَ تَزْكِيَةِ الْفَرْدِ وَإِصْلَاحِ الْمُجْتَمَعِ؛ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ عَقِيدَةٌ وَشَرِيعَةٌ، وَعِبَادَةٌ وَقِيَادَةٌ، وَدِينٌ وَدَوْلَةٌ.

وَكِفَاحُ النَّبِيِّ ﷺ وَسِيرَتُهُ تُؤَكِّدُ أَنَّ الإِسْلامَ دِينٌ وَدَوْلَةٌ، وَعِقِيدَةٌ وَوَطَنٌ وَمُصْحَفٌ وَسَيْفٌ، مِنْ أَجْلِ إِقَامَةِ النظَامِ وَإِقَامَةِ السُّلْطَةِ، فَلَيْسَ هُنَاكَ نِظَامٌ إِسْلامِيٌّ بِغَيْرِ سُلْطَةٍ إِسْلامية، وَهَذَا أَمْرٌ مَعْروفٌ بَدَاهَةٌ.

هَذِهِ كَانَتْ مَظَاهِرَ الْأَزْمَةِ: الْجَهْلُ بحقيقة الإسلام، وَالْخَلْطُ بَيْنَ الْوَحْيِ وَالتُّرَاثِ، وَإِسْقَاطُ الْمَفْهُومِ الْغَرْبِيِّ لِلدِّينِ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ(التَّلْفِيقُ).

وَلِذَلِكَ جَاءَتْ هَذِهِ الرِّسَالَةُ، «نَحْوَ النُّورِ» ؛ لِتُخْرِجَ الْمُثَقَّفِينَ مِنْ أَزْمَتِهِمْ بَعِيدًا عَنِ السَّطْحِيَّةِ وَالِاسْتِسْهَالِ، وَدَعْوَةً إِلَىٰ الدِّرَاسَةِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْمَوْضُوعِيَّةِ، بَعِيدًا عَنِ التَّكْفِيرِ وَالتَّفْسِيقِ وَالتَّفْجِيرِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ هُنَاكَ عَوَامِلُ كَثِيرَةٌ مِنْ عَوَامِلِ الْهَدْمِ أَثَّرَتْ فِيمَا صَرَّحَ بِهِ الْأُسْتَاذُ الْبَنَّا فِي أَوَّلِ حَدِيثِهِ عَمَّا يَحْتَكِرُهُ الْإِسْلَامُ مِنْ قَدَاسَةٍ فِي الْحَدِيثِ، وَمِنِ اسْتِقْرَارٍ فِي الْقُلُوبِ وَالْمَشَاعِرِ، مِمَّا يُسَهِّلُ عَلَىٰ الْجَمِيعِ تَنَاوُلَهُ وَفِقْهَهُ وَالِاسْتِجَابَةَ لَهُ وَالسَّيْرَ عَلَيْهِ مَتَىٰ وُجِّهُوا إِلَيْهِ. وَلَكِنَّ هَذِهِ الْقَدَاسَةَ وَهَذَا الِاسْتِقْرَارَ تَعَرَّضَا لِعَوَامِلَ كَثِيرَةٍ مِنْ عَوَامِلِ الْهَدْمِ؛ وَلِذَلِكَ يَحْتَاجُ الْأَمْرُ إِلَىٰ جُهْدٍ ضَخْمٍ جِدًّا فِي إِعَادَةِ الْعَرْضِ، وَإِعَادَةِ التَّنَاوُلِ، عَرْضًا لَائِقًا كَرِيمًا يَتَّفِقُ وَرُوحَ الْعَصْرِ.

## خَامِسًا: مَنْهَجُ «نَحْوَ النُّورِ» فِي عِلَاجِ الأَزْمَةِ وَبِنَاءِ النَّهْضَةِ

لَمْ تَقِفْ رِسَالَةُ «نَحْوَ النُّورِ» عِنْدَ نَقْدِ مَوْقِفِ الْمُثَقَّفِينَ، بَلْ قَدَّمَتِ الْبَدِيلَ، وَبَيَّنَتْ صَلَاحِيَّةَ الْمِنْهَاجِ الْإِسْلَامِيِّ لِبِنَاءِ النَّهْضَةِ الْحَدِيثَةِ.

فَقَدْ بَيَّنَتْ أَنَّ الْإِسْلَامَ لَيْسَ مَاضِيًا يُسْتَحْضَرُ، وَلَا تُرَاثًا يُنْقَلُ بِصُوَرِهِ الْقَدِيمَةِ، بَلْ مَرْجِعِيَّةٌ تَمْلِكُ أُصُولًا ثَابِتَةً، وَتَتَّسِعُ لِاجْتِهَادَاتٍ وَصُوَرٍ مُتَجَدِّدَةٍ. وَهِيَ لَا تَرْفُضُ مَا عِنْدَ الْغَرْبِ مِنْ عِلْمٍ وَتَنْظِيمٍ وَخِبْرَةٍ مِمَّا لَا يَتَعَارَضُ مَعَ أُصُولِ الْإِسْلَامِ وَقِيَمِهِ، وَلَكِنَّهَا تَرْفُضُ أَنْ تَفْقِدَ الْأُمَّةُ شَخْصِيَّتَهَا، أَوْ أَنْ تَسْتَوْرِدَ النُّظُمَ وَالْفَلْسَفَاتِ مِنْ غَيْرِ فَحْصٍ

وَتَقْوِيمٍ.

وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ عِلَاجَ الْأَزْمَةِ يَقُومُ عَلَىٰ إِعَادَةِ تَقْدِيمِ الْإِسْلَامِ تَقْدِيمًا عِلْمِيًّا نَاضِجًا، يَتَّفِقُ مَعَ رُوحِ الْعَصْرِ، وَيَكْشِفُ عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَىٰ تَوْجِيهِ الْحَيَاةِ وَحَلِّ مُشْكِلَاتِهَا. فَالْمُهِمَّةُ لَيْسَتْ أَنْ نُكَرِّرَ أَنَّ الْإِسْلَامَ صَالِحٌ، بَلْ أَنْ نُبَيِّنَ هَذِهِ الصَّلَاحِيَّةَ فِي نُظُمٍ وَبَرَامِجَ وَمَشْرُوعَاتٍ وَاقِعِيَّةٍ.

وَبِهَذَا تَتَّصِلُ هَذِهِ الْقَضِيَّةُ بِالرُّوحِ الْعَامَّةِ لِرِسَالَةِ «**نَحْوَ النُّورِ**»؛ فَهِيَ دَعْوَةٌ إِلَىٰ تَجَاوُزِ الِانْبِهَارِ وَالتَّقْلِيدِ، وَإِلَىٰ الِانْطِلَاقِ مِنَ الْإِسْلَامِ فِي بِنَاءِ الدَّوْلَةِ وَالْمُجْتَمَعِ، مَعَ الْأَخْذِ بِكُلِّ صَالِحٍ وَنَافِعٍ، وَالِانْفِتَاحِ الْوَاعِي عَلَىٰ مُنْجَزَاتِ الْعَصْرِ، مِنْ غَيْرِ ذَوَبَانٍ وَلَا انْغِلَاقٍ. وَبِهَذَا يُعْلِنُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ الْبَنَّا فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ حَاجَتَنَا إِلَىٰ فِقْهٍ، أَوْ إِلَىٰ فَهْمٍ نَضِيجٍ، يَجْعَلُ لِصَحْوَتِنَا أَعْظَمَ الْآثَارِ، مِنَ الِاعْتِقَادِ فِي صَلَاحِيَّةِ الْإِسْلَامِ، وَالشُّعُورِ بِفَائِدَةِ الْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ.

# رِسالَةُ «المؤتمرِ الخامسِ»

تُمَثِّلُ «رِسَالَةُ الْمُؤْتَمَرِ الْخَامِسِ» نَصَّ الْخِطَابِ الَّذِي أَلْقَاهُ الْإِمَامُ الْبَنَّا فِي الْمُؤْتَمَرِ الْخَامِسِ، الَّذِي عُقِدَ فِي تَمَامِ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ مَسَاءَ يَوْمِ الثَّالِثَ عَشَرَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةَ 1357هـ، الْمُوَافِقِ 2 فِبْرَايِرَ 1939م، بِسَرَايِ آلِ لُطْفِ اللهِ بِالزَّمَالِكِ، بِمُنَاسَبَةِ مُرُورِ عَشْرِ سَنَوَاتٍ عَلَىٰ تَأْسِيسِ دَعْوَةِ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ[127].

(127) انظر: حسن البنا، **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة المؤتمر الخامس]، ص 327.

## الروحُ العَامّـةُ للرِّسالَةِ

الـرُّوحُ الْعَامَّـةُ فِـي الرِّسَـالَةِ، هِـيَ ضَخَامَـةُ الْمُهِمَّـةِ الَّتِـي يَجِـبُ أَنْ نَضْطَلِـعَ بِهَـا، وَهِـيَ إِعَـادَةُ الْخِلَافَـةِ، فَوُقُـوعُ الْمُسْـلِمِينَ فِـي أَسْـرِ الْمَنَاهِـجِ الْمُسْـتَوْرَدَةِ، وَخُضُوعُهُـمْ لِلْهَيْمَنَـةِ الْأَجْنَبِيَّـةِ، أَمْـرٌ يُنَاقِـضُ طَبِيعَـةَ الدِّيـنِ نَفْسِـهِ؛ لِأَنَّ الْإِسْـلَامَ يَأْبَـىٰ عَلَـىٰ أَبْنَائِـهِ إِلَّا أَنْ يَكُونُـوا سَـادَةً فِـي أَوْطَانِهِـمْ، وَأَئِمَّـةً فِـي دِيَارِهِـمْ.

وَمُهِمَّـةُ إِعَـادَةُ الْخِلَافَـةِ لَـنْ تَسْـتَطِيعَ أَيُّ جَمَاعَـةٍ، مَهْمَـا كَانَـتْ مَوَاهِبُهَـا، وَمَهْمَـا كَانَـتْ قُوَاهَـا، وَمَهْمَـا كَانَ عَـدَدُ أَفْرَادِهَـا، أَنْ تَقُـومَ بِهَـا وَحْدَهَـا؛ وَلِذَلِـكَ كَانَـتْ دَعْـوَةُ الْإِمَـامِ الْبَنَّـا إِلَـىٰ الْأُمَّـةِ كَـيْ تَأْخُـذَ دَوْرَهَـا فِـي النُّهُـوضِ بِهَـذِهِ الْمُهِمَّـةِ.

## مَحَاوِرُ شَرْحِ الرِّسَالَةِ

مُقدّمَـةٌ

أَوَّلًا: وَاقِعُ الْأُمَّةِ الْبَئِيسُ

ثانيا: دَوْرُ الْخُصُومِ فِي وَاقِعِ الْأُمَّةِ الْبَئِيسِ.

ثالثا: دَعْوَةُ الْأُمَّةِ كَيْ تَأْخُذَ دَوْرَهَا.

رابعًا: سَبِيلُ إِعْدَادِ الْأُمَّةِ لِلنُّهُوضِ.

خامسًا: ثَـنَاءُ الإِمَامِ الْبَنَّا عَلَىٰ رُوَّادِ الإِصْلَاحِ وَصِنَاعَةُ القِيَادَةِ وَالزَّعَامَةِ.

سادسًا: مَنْهَجُ الْإِخْوَانِ فِي التَّرْبِيَةِ وَالْإِعْدَادِ.

سابعًا: الْوَاجِبُ أَوَّلًا.

ثامنًا: نَحْنُ وَالْخِلَافَةُ.

تاسعًا: البُعْدُ عَنْ مَوَاطِنِ الخِلَافِ ضَرُورَةٌ لِتَوْحِيدِ الأُمَّةِ.

عاشرًا: لَسْنَا مُتَهَوِّرِينَ.

## مُقدّمَةٌ

لَا شَكَّ أنَّ المؤتمَرَ الخَامِسَ مِنْ أَهمِّ المُؤتمرَاتِ الّتِي عَقدَهَا الإخوَانُ فِي أواخرِ الثَّلاثِينيَّاتِ المِيلاديةِ (1939م)؛ فَفِي هَذَا المؤتمَرِ تَكلَّم الأستاذُ البنَّا عَنْ غَايةِ الإخْوَانِ وَعَنْ مَناهجِهم، وَوَسائلِهِمْ، وَمَوقفِهم مِنَ الهَيئَاتِ وَالأحزابِ، وَمَوقفِهم كذلكَ مِنَ الدُّولِ الكُبرَىٰ. ثُمَّ أَنْهىٰ كَلِمَتَه بحَديثٍ عَنِ **التضْحيَةِ وَالجِهَادِ**، وَهُمَا مِنْ أَهمِّ الدعَائمِ الّتِي قَامَ عَلَيهَا الدينُ الإسْلامِيُّ فِي عهدِ الأسلافِ الكِرَامِ رِضوانُ اللهِ تَعالىٰ عَلَيهِمْ. ثُمَّ بَثَّ الأملَ فِي نفُوسِ الإخوَانِ، وَأَنَّهم قَادرُونَ - بِإذْنِ اللهِ - عَلَىٰ أنْ يُعيدُوا هَذَا المَجْدَ مَرةً أُخْرَىٰ لَو سَلكُوا مَا سَلكَهُ الأسْلافُ الكِرامُ بِهِمّةٍ وَعَزيمَةٍ.

كَانَ مِنْ أَهمِّ مَقَاصِدِ الْمُؤْتَمَرِ الْخَامِسِ أَنْ يُزِيلَ الْإِمَامُ الْبَنَّا مَا الْتَبَسَ عَلَىٰ النَّاسِ مِنْ حَقِيقَةِ دَعْوَةِ الْإِخْوَانِ؛ فَهِيَ لَيْسَتْ حِزْبًا سِيَاسِيًّا يَطْلُبُ السُّلْطَةَ لِذَاتِهَا، وَلَا جَمْعِيَّةً خَيْرِيَّةً يَنْحَصِرُ عَمَلُهَا فِي الْمُسَاعَدَاتِ، وَلَا طَرِيقَةً تَنْعَزِلُ بِالْمُرِيدِينَ عَنِ الْحَيَاةِ، بَلْ هِيَ دَعْوَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ شَامِلَةٌ، تَأْخُذُ الْإِسْلَامَ بِكُلِّيَّتِهِ، وَتَعْمَلُ لِإِصْلَاحِ الْفَرْدِ وَالْمُجْتَمَعِ وَالدَّوْلَةِ.

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ الرِّسَالَةَ مَلِيئَةٌ بِالْمَعَانِي الْجَزْلَةِ، وَتَشْتَمِلُ عَلَىٰ مَحَاوِرَ أَسَاسِيَّةٍ فِي دَعْوَةِ الْإِخْوَانِ؛ وَسَنَتَنَاوَلُ فِيمَا يَأْتِي أَبْرَزَ هَذِهِ الْمَحَاوِرِ، وَالرُّوحَ الْعَامَّةَ الَّتِي تَهَيْمِنُ عَلَىٰ الرِّسَالَةِ.

## أَوَّلًا: وَاقِعُ الأُمَّةِ البَئِيسُ

كَتبَ الإمَامُ البنَّا هَذِهِ الرسالةَ، فِي وقتٍ كَانَ العَالَمُ الإسلامِيُّ يَعيشُ فِيهِ واقعًا بَئِيسًا. يدلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ الكلماتُ الّتِي ذكرَهَا فِي هَذِهِ الرسَالَةِ عِندَمَا قَالَ: «أَضْحكَنِي وَأَبكَانِي حُكْمٌ فِقهِيٌّ رَأيتُه عَرَضًا فِي كِتَابِ (الشَّرحُ الصَّغيرُ عَلَىٰ أَقْرَبِ المَسالِكَ)، قَالَ مُؤلِّفُهُ:(مَسألَةٌ: امرَأةٌ مُسلِمَةٌ سُبيَتْ بِالمَشْرِقِ وجَبَ عَلَىٰ أَهْلِ المَغْرِبِ تَخْلِيصُهَا وَافتِدَاؤُهَا وَلَو أَتَىٰ ذَلِكَ عَلَىٰ جَميعِ أموَالِ المُسلِمِينَ)، وَرَأَيْتُ مِثْلَه قَبلَ ذَلِكَ فِي كِتَابِ (مَجمَعُ الأَنْهُرِ فِي شَرحِ مُلتقَىٰ الأَبْحُرِ) نَقْلًا عَنْ كِتَابِ (البَحْرُ) فِي مَذهَبِ

الأَحنَافِ، رَأَيتُ هَذَا فَضَحِكْتُ وَبَكَيْتُ، وَقُلْتُ لِنَفْسِي: أَينَ عُيونُ هَؤلاءِ الكَاتِبِينَ لِتنظُرَ المُسلِمِينَ جَميعًا فِي أَسْرِ غَيرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الكُفْرِ وَ العُدوَانِ؟؟»[128].

بِهذَا يُحدِّدُ الإمامُ البنَّا هَذِهِ الرُّوحَ الّتِي تَشُدُّ إِلَيْهَا الرسَالَةَ كُلَّها. ضَخَامةُ المُشكِلَةِ الّتِي يَجِبُ أَنْ نَضطَلِعَ بِهَا، وَهِيَ وقوعُ المُسلِمينَ جَمِيعًا فِي أَسْرِ أَهْلِ الكُفرِ وَالعُدوانِ، وَهُوَ أمرٌ يُناقِضُ طَبيعةَ الدِّينِ نَفسِهِ، فالإسلامُ كَمَا يَذكرُ الأُستاذُ البَنَّا: «فَرَضَ عَلَىٰ المُسلِمينَ أَنْ يَكونُوا أئمَّةً فِي دِيارِهِمْ، سَادَةً فِي أَوْطانِهِمْ، بَلْ لَيسَ ذَلِكَ فَحسْبُ، بَلْ إِنَّ عَلَيهِمْ أَنْ يَحمِلُوا غَيرَهُم عَلَىٰ الدُّخُولِ فِي دَعوتِهِمْ وَالاهتِدَاءِ بِأَنوَارِ الإِسْلامِ التِي اهتَدَوْا بِهَا مِنْ قَبْلُ»[129].

## ثَانِيًا: دَورُ الْخُصومِ فِي وَاقِعِ الأُمَّةِ البئِيسِ

يُؤَكِّدُ الإمَامُ البنَّا دَوْرَ الخُصومِ الأَقوِيَاءِ الأَذكِيَاءِ، تَقديرًا منهُ لِلواقِعِ البَئِيسِ الّذِي تَعيشُه الأُمَّةُ، فَهَؤلاءِ الخصُومُ أَبعَدُوا الأمّةَ تَمامًا عَنْ مَظاهِرِ الحَياةِ الإِسْلاميّةِ الّتِي يَجِبُ عَلَيهَا أنْ تَعيشَهَا، وَسَهَّلُوا لَهَا أَنْ تَعبُدَ اللهَ فِي المَسْجِدِ وَتَعبُدَ غَيرَهُ خَارِجَهُ، وَتَظُنّ بِذلِكَ أَنّها تَأخُذُ بِتَعاليمِ الدِّينِ، وَأَنَّها تَأخُذُ بِتَعاليمِ الإِسْلامِ. وَهِيَ فِي الحَقيقَةِ تَعيشُ نَوعًا مِنْ أَطوارِ التعَاسَةِ وَالبُعدِ عَنْ دِينِهَا.

أَوْ كَما وَصفَها الأستاذُ البنَّا فَقَالَ:«أَنْ تَنزِلَ عَلَىٰ حُكْمِهِ [يَقصِدُ الإِسلامَ]، وَأَنْ تُسايِرَ قَواعِدَهُ وَتَعالِيمَهُ وَتَستَمِدَّ مِنْهَا مَا دَامَتِ الأُمّةُ تُرِيدُ أَنْ تَكونَ مُسلِمَةً إِسْلامًا صَمِيمًا أَمَّا إِذَا أَسْلَمَتْ فِي عِبَادَاتِهَا، وَقَلَّدَتْ غَيرَ المُسلِمِينَ فِي بَقِيّةِ شُؤونِهَا، فَهِيَ أُمَّةٌ ناقصَةُ الإِسْلامِ تُضاهِئُ الذِينَ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:85]»[130].

(128) انظر حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة المؤتمر الخامس]، ص 372.
(129) السابق.
(130) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة المؤتمر الخامس]، ص 335.

وَلَا يَفعَلُ ذَلِكَ إِلَّا جَاهِلٌ بِالإِسْلامِ، أَوْ خَصْمٌ لَه بَيَّتَ النِّيةَ لِهَدْمِهِ. فَالأُمةُ تَعيشِ حَالتَينِ مُتناقِضَتَينِ؛ لَقَدِ استطَاعَ هؤلاءِ الخصومُ الأذكياءُ الأقوياءُ أَنْ يَصبُغُوا حَياةَ الأمةِ الإِسْلاميةِ بِغَيرِ مَظاهرِ الإِسْلامِ، ولعلَّ أبلغ مَا يدل عَلَىٰ ذَلِكَ مَا قَالَهُ مُصطفَىٰ لُطفِي المَنفلُوطِيِّ فِي نظَراتِهِ عِندَمَا وَصَفَ نَجَاحَ المُحتلّ الغَاصِبِ فِي مَحْوِ مَعالِمِ الإِسْلامِ مِنَ المَدرسَةِ وَالْبيتِ كَذَلِكَ، حَيثُ قَالَ: «وَحَتَّىٰ أَصْبَحَ السَّيدُ فِي مَنزلِهِ يَستَحِي مِنْ خَادِمَةِ مَطبخِهِ الأُوروبيّةِ أَنْ تَطَّلِعَ مِنهُ عَلَىٰ جَهلٍ بِبَعضِ عَاداتِهَا وَعَادَاتِ قَومِهَا حَتَّىٰ لبسِ الرِّدَاءِ، وَخَلْعِ الحِذَاءِ، أَكْثَرَ مِمَّا يَستَحِي مِنَ اللهِ»[131].

وَحَديثِ الإِمَامِ البنَّا عَمّا أسمَاهُ (الجِيلَ المُخضْرَمَ)، وَأَرَادَ بِه كُلَّ مَفتُونٍ بِالغَربِ مِنْ بَنِي جِلدَتِنَا، وَهَذَا الجِيلُ قَدْ «دَفعَ بالشعُوبِ مُغافلةً إِلَىٰ مَا يُرِيدُ، بَل إِلَىٰ مَا أَلِفَ، وَهِيَ لَا تَدرِي مَا يُرَادُ بِهَا وَلا مَا تَصِيرُ إِلَيهِ، وَارتفَعَتْ أَصوَاتُ الدُّعاةِ إِلَىٰ الفِكرَةِ الطَّاغيَةِ: أَنْ خَلِّصُونَا مِمَّا بَقِيَ مِنَ الإِسْلامِ وَآثَارِ الإِسْلامِ» [132].

هَذهِ الطبقَةُ (أَبناءُ أُورُبَّا المُدلَّلُونَ)، أَوِ (الأذكيَاءُ الأَقويَاءُ) الّتِي أَوْجَدَهَا المُحتَلُّ الغَاصِبُ، لِيُبْقِيَ عَلَىٰ حَالةِ التَّبعيَّةِ وَالتخَلُّفِ، وَلِيُؤمِّنَ اسْتِحْوَاذَهُ عَلَىٰ مُقدَّرَاتِ الأُمّةِ الماديةِ والمعنويةِ؛ فَلا تَسْعَدُ بِاستِقْلَالِهَا السِّيَاسِيِّ أَوِ العَسْكَرِيِّ، لأَنَّها فِي الحَقيقَةِ لَمْ تَستَقِلَّ رُوحِيًّا وَلَا ثَقَافِيًّا. وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ ذَلِكَ- كَما سَبَقَ أنْ ذَكَرنَا- الحَمْلَةُ الفَرنسِيّةُ، الّتِي دَعَا بَعضُ المِصرِيِّينَ المُتأثِّرِينَ بِالاتجَاهِ العَلمَانِيّ، إِلَىٰ الاحتِفَالِ بِمُرورِ قَرنيْنِ مِنَ الزمَانِ عَلَىٰ دُخُولِهَا إِلَىٰ مِصْرَ.

وَيَصِفُ هَذِهِ الحَالةَ الدّكتُورُ مُحمَّد حُسَينِ فِي كِتَابِهِ (الاتِّجَاهاتُ الوَطنيةُ فِي الأدبِ المُعاصِرِ) فَيقُولُ: إِنَّ الحَملةَ الفرنسيةَ نَجحَتْ فِي ثلاثة أمور: أَنْ تُخْفِيَ الغَرضَ مِنْهَا فهي حملة استعمارية فيحين قدمت نفسها علىٰ أنها تنويرية، وَالأمر الثاني: نَجَحَتْ فِي أَنْ تُظهِرَ الغَربيَّ أَوِ الأوربيَّ فِي صُورَةِ المُتحضِّرِ والمسلم في صورة المتخلِّف، وَنَجحَتْ ثَالِثًا فِي أَنْ تُحِلَّ القانونَ الوَضْعِيَّ النَّابليُونِيَّ مَحلَّ أَحكامِ الشرِيعَةِ الإسلامية.

(131) مصطفىٰ لطفي المنفلوطي: **النظرات**، 1/ 31.
(132) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة الإخوان تحت راية محمد ﷺ]، ص 386.

هَـذِهِ صُـورَةُ النجَـاحِ الحقيقيَّـةِ لِلحملَـةِ الفَرنسـيَّة. وَرُغـمَ أَنَّهـا طُـردَتْ مِـنْ مِصْـرَ فَـإنَّ طَرْدَهَـا لَـمْ يَكُـنْ حَقِيقيًّـا أو كامـلًا، لأنَّ آثارَهَـا لَا تَـزالُ مَوجُـودَةً. كَمـا صَـوَّرَ ذَلِـكَ المَنفلُوطِـيُّ فِـي كَلِمَتـهِ السَّـابقَةِ.

إِنَّهـا صُـورَةُ الواقـعِ البَئِيـسِ الّـذِي صَـوَّرَهُ الإمَـامُ البنَّـا، ولذلِـكَ كانَ النـاسُ فِـي ذهـولٍ عِندَمَا طَـرحَ الإِسْـلامَ هَـذَا الطرحَ؛ حَيْـثُ يقـولُ فِي بعـضِ خُطبِهِ: إنَّنـا نَعيـشُ وَسْـطَ شَـعبٍ استطاعَ الخصُـومُ الأذكيـاءُ الأقوِيَـاءُ أَنْ يَصبُغُـوا مَظاهِـرَ حَياتِـهِ بِصِبْغَـةٍ غَيـرِ إِسْـلاميَّةٍ.

وَحِينَمَـا دَعَـا إِلَـىٰ حَقِيقَـةِ الإسـلامِ بوصفِـهِ: عَقِيـدَةً وَعِبـادَةً، وَوَطَنًـا وَجِنسـيّةً، وَدِينًـا وَدَولَـةً، وَرُوحَانِيـةً وَعَمـلًا، وَمُصحَفًـا وَسَـيفًا، وَجيشًـا وَفِكـرَةً، وَثَقافـةً وَقَانُونًـا، وَعِلْمًـا وَقَضـاءً؛ التبـسَ عَلَـىٰ الشـعبِ هَـذَا الفَهْـمُ، لأنّـه عَـاشَ فَـترةً طَويلـةً مُعجبًـا بِالخَصْـمِ الأَجْنَبِـيِّ يقلـده فِـي كُلِّ مَـا صَـدَرَ عَنـهُ.

## ثَالِثًا: دَعْوَةُ الأُمَّةِ كَيْ تَأْخُذَ دَوْرَهَا

كَتـبَ الإمَـامُ البنَّـا هَـذِهِ الرسَـالَة، وَهَـذَا وَاقِـعُ الأمَّـةِ لِيُظهِـرَ ضَخامـةَ التَّبِعَـةِ، والثَّمَـنِ البَاهِـظِ الّـذِي سَـتَدفَعُهُ الأمـةُ حَتَّـىٰ تَسـتَعِيدَ رِسَـالتَهَا وَمَكَانَتَهـا فِـي الحَيَـاةِ مَـرَّةً أُخْـرَىٰ. ﴿**لِتَكُونُـوا شُـهَدَاءَ عَلَـىٰ النَّـاسِ**﴾؛ وَهَـذَا يَعْنِـي دَعْوَتَـهُ لِلْأُمَّـةِ أَنْ تَأْخُـذَ دَوْرَهَـا فِـي أَشَـدِّ الظُّـرُوف حَرَجًـا، لِأَنَّ أَيَّ جَمَاعَـةٍ مَهْمَـا كَانَـتْ مَوَاهِبُهَـا، وَمَهْمَـا كَانَـتْ نَتَائِجُهَـا، وَمَهْمَـا كَانَـتْ قُوَاهَـا، وَمَهْمَـا كَانَ عَـدَدُ أَفْرَادِهَـا لَا تَسْـتَطِيعُ أَنْ تَقُـومَ وَحْدَهَـا بِهَذِهِ الْمُهِمَّـةِ الضَّخْمَةِ.

وَالْعَالَـمُ الْآنَ مِـنْ حَوْلِنَـا هُـوَ عَالَـمُ التَّكتـلات وَالْكِيَانـاتِ الْكُبْـرَىٰ، وَهَـذَا مِـنْ الْأُمُـورِ الَّتِي أَثْبَتَـتْ صِـدْقَ حَـدْسِ الْإِمَـامِ الْبَنَّـا رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُ، عِنْدَمَـا كَانَ يَدْعُـو فِـي هَـذَا الْوَقْـتِ الْبَاكِـرِ، تِلْـكَ الدَّعْـوَةَ الْبَاكِـرَةَ الْفَرِيـدَةَ فِي دَعْوَتِـهِ لِلْأُمَّـةِ أَنْ تَأْخُـذَ دَوْرَهَـا، وَأَنْ تَضْطَلِـعَ بِهَـذِهِ الْمُهِمَّـةِ، لِأَنَّهَـا مُهِمَّـةٌ مِـنْ الضَّخَامَـة بِحَيْـث تَتَكَلَّـفُ مِـنْ الثَّمَـنِ الْبَاهِـظِ مَـا لَا تَسْـتَطِيعُ أَيّ جَمَاعَةٍ مَهْمَا كَانَتْ قُوَاهَا وَمَوَاهِبُ أَفْرَادِهَا أَنْ تَقُومَ بِهَا وَحْدَهَا.

إنَّ العالَـمَ اليَـومَ هُـوَ عالَـمُ الكِيانـاتِ الضخمَـةِ وَالتكـتّلاتِ الـكُبرَىٰ، هَـذَا مَـا وَضَّحَـهُ الأستاذُ البنّا عِندَمَا كانَ يَتكلَّـمُ عَـن مَوقـفِ الجمَاعـةِ مِـنَ الـدُّولِ الأُوربيّـةِ الّتِي احتَلَّـتْ بِلادَ

المُسلمِينَ. الكِيانَاتُ الكُبرَىٰ الآنَ تَطرَحُ بَرامِجَهَا، ثُم تَطرَحُ الثمَنَ الّذِي تُنَفَّذُ بِهِ هَذِهِ البرامجُ. وَهِيَ برامجُ تِقنيّةٌ بَاهِظَةُ التكَاليفِ، لَا تَستطِيعُ أُمَّةٌ بِمُفردِهَا مَهمَا كَانَتْ مِنَ الغِنَىٰ وَالثروَةِ أَنْ تَقومَ بِدَفْعِ نَصيبِهَا مِنْ هَذِهِ التكَاليفِ بَاهِظَةِ الثَّمَنِ؛ ولِذَلِكَ تَدخُلُ الأُمَمُ فِي الكِيَانَاتِ الكُبرَىٰ أَوِ اتحَادَاتِ الأُمَمِ حَتَّىٰ تَستطِيعَ أَنْ تُحافِظَ عَلَىٰ بَرامِجِ التِّقنيَةِ بَاهِظَةِ التكَاليفِ. وَمَنْ لَا يَستطِيعُ مُجارَاةَ ذَلِكَ، فإنَّ عَلَيهِ أنْ يَرضَىٰ بِالدُّونِ، فإنّه لَن يَستطِيعَ أَنْ يَحكُمَ نَفسَهُ فَضلًا عَنْ أَنْ يَحكُمَ غَيرَهُ. حَتَّىٰ الشَّركَاتُ الكُبرَىٰ فِي العَالَمِ تَتعاوَنُ فِيمَا بَينَهَا حَتَّىٰ تَستَطِيعَ أَنْ تَحتَفِظَ بِإبدَاعِهَا المَادِّيِّ الّذِي وَصَلَتْ إِلَيهِ، وَيَقِفُ العَالَمُ عَلَىٰ قِمَّتِهِ الآنَ.

ولِهَذَا أَيقَنَ الإمامُ البنَّا أَنَّنا وَحدَنَا لَن نكونَ القُوةَ الضَّاربةَ مَهْمَا كَانَ جُهدُنَا، أَوْ قُدراتُ أَفرادِنَا وَمَواهِبُهُم، وَلِذَلِكَ تَجِدُ مِن تَعبيرَاتِهِ فِي هَذِهِ الرسَالةِ: «فَلْتَعلَمِ الأمّةُ ذَلِكَ، وَلْتُطالِبْ حُكَّامَهَا بِحُقوقِهَا الإسْلاميَّةِ، وَلْيَعمَلِ الإخوَانُ المُسلِمُونَ»، وَمِنْهَا: «فَلْيَعْلَمْ ذَلِكَ مَنْ لَمْ يَكُنْ يَعلَمُهُ مِنَ الإِخْوَانِ وَمِنْ غَيرِ الإِخوَانِ»[133]. كَانَ يَتوجَّهُ بِخطَابِه إِلَىٰ الأُمّةِ بِوَصْفِهَا القُوةَ الضَّاربَةَ.

## رابعًا: سَبيلُ إعدادِ الأمَّة للنُّهوضِ

إِنَّ الواقِعَ البَئِيسَ الّذِي كَانَتْ تَعيشُهُ الأُمّةُ - وَمَا زَالَتْ - هُوَ الّذِي دَفَعَ الإمَامَ البَنَّا لِكَيْ يَتصَرَّفَ هَذَا التصَرُّفَ الحَكِيمَ، فَلَم يُوظِّفْ فِي حَقِّ هَذَا الشَّعْبِ تِلكَ الأَحْكَامَ الجُزافِيّةَ الّتِي تُلغِي عَقائدَهُ وَإِيمَانَهُ إِلْغَاءً كُلِّيًّا. إِنَّمَا نَظرَ إِلَيْهِ نظرةَ الطبيبِ إِلَىٰ المَريضِ الّذِي يَحتاجُ إِلَىٰ العِلاجِ، وَالمُعَلِّمِ الّذِي يَصبرُ عَلَىٰ طَلابِهِ، ويَحْلُمُ وعَلَيهِمْ. وَلِذَلِكَ كَانَ يَقولُ: إِنّما تَتربَّىٰ الأمةُ بِالأُسوَةِ وَالقُدوَةِ لا بِالغِلْظَة والشِّدَّةِ.

لَقَدْ كَانَ هَذَا مَنهجُهُ فِي تَربيَةِ الأُمّةِ، حَتَّىٰ تَستَطِيعَ أَنْ تَتحمَّلَ تَبعَاتِ الجِهَادِ طَوِيلِ الأَمَدِ، وَحَتَّىٰ تُحرَّرَ أَخلاقُهَا وَتُهَذَّبَ نُفوسُها؛ إِذْ يَقُولُ: « ذَلِكَ أَنَّ الإِسلامَ يَعتَبِرُ الأُمّةَ الإِسلاميَّةَ أَمينةً عَلَىٰ رِسَالَةِ اللهِ فِي أَرضِهِ، وَلَهَا فِي العَالَمِ مَرتبةُ الأُسْتَاذيةِ - وَلَا نَقولُ السيَادَةِ - بِحُكْمِ هَذِهِ الأَمانَةِ، فَلا يُسْمَحُ لَهَا أَنْ تَذِلَّ لأَحَدٍ، أَوْ تُستَعبَدَ لأَحَدٍ، أَوْ تَلِينَ

(133) انظر حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة المؤتمر الخامس]، ص 356.

قَناتُهَا لِغَامزٍ، أَوْ تَخضَعَ لِغَاصِبٍ مُعتَدٍ أَثيمٍ: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:141]» (134).

وحَتَّىٰ تَسْتَطِيعَ الْأُمَّةُ أَنْ تَقُومَ بِوَاجِبِهَا، لَا بُدَّ أَنْ تَأْخُذَ بِسُنَنِ النَّهْضَةِ، وَأَنْ تَبْدَأَ بِتَرْبِيَةِ أَبْنَائِهَا وَإِعْدَادِهِمْ لِحَمْلِ الْمَسْؤُولِيَّةِ. وَقَدْ أَوْجَزَ الإِمَامُ مُحَمَّدٌ عَبْدُه هَذَا الْمَعْنَىٰ فِي قَوْلِهِ: «**أُمَّةٌ لَمْ تَتَرَبَّ أُمَّةٌ لَنْ تُفْلِحَ**». وَلِهَذَا الْمَعْنَىٰ أَصْلٌ ظَاهِرٌ فِي تُرَاثِنَا؛ إِذْ يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ: »فَإِنَّ أَرْوَاحَ الْبَشَرِ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ كَالْأَطْفَالِ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ آبَائِهِمْ، بَلْ دُونَ هَذِهِ النِّسْبَةِ بِكَثِيرٍ، وَلِهَذَا كُلُّ رُوحٍ لَمْ تُرَبِّهَا الرُّسُلُ لَمْ تُفْلِحْ وَلَمْ تَصْلُحْ لِصَالِحَةٍ:

وَمَنْ لَا يُرَبِّيهِ الرَّسُولُ وَيَسْقِهِ ... لِبَانَ هُدًىٰ قَدْ دَرَّ مِنْ ثَدْيِ قُدْسِهِ
فَذَاكَ لَقِيطٌ مَا لَهُ نِسْبَةُ الْوَلَا ... وَلَا يَتَعَدَّىٰ طَوْرَ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ (135)

وَمَعْنَىٰ هَذَا أَنَّ الْأُمَّةَ لَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تَحْمِلَ رِسَالَتَهَا، أَوْ أَنْ تَنْهَضَ بِالتَّبِعَاتِ الْكُبْرَىٰ الَّتِي يَدْعُوهَا إِلَيْهَا الإِمَامُ الْبَنَّا، مَا لَمْ تَسْبِقْ ذَلِكَ تَرْبِيَةٌ تُصَحِّحُ الْعَقِيدَةَ، وَتَبْنِي الإِرَادَةَ، وَتُعِدُّ الإِنْسَانَ لِلتَّضْحِيَةِ وَحَمْلِ الْمَسْؤُولِيَّةِ.

وَحِينَ نَتَحَدَّثُ عَنْ تَرْبِيَةِ الأُمَّةِ، وَتَرْبِيَةِ جِيلٍ يُحْدِثُ التغييرَ المَنْشُودَ بِالأُسْوَةِ وَالقُدْوَةِ؛ فَلَسْنا بَعِيدِينَ عَنِ رِسَالَتِنَا، بَلْ نَحْنُ فِي صَمِيمِهَا؛ لأَنَّ النَّاسَ يَسْهُلُ عَلَيْهِمُ الاقْتِدَاءُ بِمَنْ هُوَ مِثْلُهُم وَهُمْ يَرَوْنَهُ يُوَاجِهُ مَا يُوَاجِهُه فِي سَبِيلِ مَا يُؤْمِنُ بِهِ وَلَا يَكْتَرِثُ بِمَا يُصِيبُه. أُنَاسٌ مِثْلُهُم يُوَاجِهُونَ مِنَ الشِّدَّةِ وَاللأْوَاءِ، ثُمَّ لَا يَكْتَرِثُونَ بِمَا يُصِيبُهُم. هَذَا هُوَ مَعْنَىٰ القُدْوَةِ.

إِنَّ النَاسَ يَلْتَفِتُونَ إِلَىٰ تِلْكَ المُثُلِ وَالنمَاذِجِ الفَذّةِ. وَهَذَا مَا أَرَادَهُ الإِمَامُ البَنَّا فِي التَّربِيَةِ، لأَنَّ الأُمّةِ مَحطُّ الأَمَلِ وَمَنَاطُ الرجَاءِ، فَهِيَ القُوةُ الضَّارِبَةُ الحَقِيقِيّةُ. فكُلُّ عَمل مُنفَصِل عَنهَا يَظَلُّ طَافِيًا عَلَىٰ السَّطْحِ. فَكيفَ يَصِلُ إِلَىٰ الأُمَّةِ؟ بِإيجَادِ مِثْلِ هَذِهِ النمَاذِجِ الَّتِي تُعِينُ عَلَىٰ تَربِيَةِ الأُمّةِ. وَتُرَبَّىٰ الأمّةُ بِأَنْ يَتحَوَّلَ الوطَنُ إِلَىٰ مَدرسَةٍ كَبِيرَةٍ يَظهَرُ فِيهَا الزعَماءُ نَمَاذِجَ فَذَّةً بِأفعَالِهِمْ وَأَخلاقِهِمْ. وَهُمْ يُوَاجِهُونَ بِإِيمَانِهِمُ الشَّرَّ

(134) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي]، ص 646.
(135) ابن القيم: **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، تحقيق عبد الرحمن بن حسن بن قائد، ط 3، دار عطاءات العلم (الرياض)، 1440هـ - 2019م، 1/ 180.

وَيَتحمَّلُونَ الأَلَمَ، ثُمَّ لَا يَكترثُونَ بِمَا يُصِيبُهُمْ.

كَمَا يَقولُ الأُستَاذُ البَنَّا: «أَيّهَا الإِخوَانُ: أَنْتُمْ لَسْتُمْ جَمعيةً خَيريةً وَلَا حِزبًا سِيَاسِيًا، وَلَا هَيئَةً مَوضِعيَّةً لِأَغراضٍ مَحدُودَةِ المَقاصِدِ. وَلَكِنّكُمْ رُوحٌ جَديدٌ يَسْرِي فِي قَلْبِ هَذهِ الأُمّةِ فَيُحْيِيهِ بِالقُرآنِ، وَنُورٌ جَدِيدٌ يُشرِقُ فَيبَدِّدُ ظَلامَ المَادَّةِ بِمَعرفَةِ اللهِ، وَصَوْتٌ دَاوٍ يَعلُو مُردِّدًا دَعوَةَ الرسُولِ ﷺ، وِمِنَ الحَقِّ الذِي لَا غُلوَّ فِيهِ أَنْ تَشْعُروا أَنّكُمْ تَحمِلُونَ هَذَا العِبْءَ بَعدَ أَنْ تَخَلَّىٰ عَنهُ النَّاسُ» (136). ولا ريبَ أنَّ إحساسَ أيِّ أخٍ فِي دَعوَتِنَا بِأنّهُ يُؤدِّي وَاجِبًا غَفلَ الناسُ عَنْهُ، يُشعِرُهُ بِالارتيَاحِ وَالرِّضَا. هَذِهِ هِيَ القُدوةُ الحَقيقيَّةُ، وَقَدْ تَكَلَّمَ الإِمَامُ الْبَنَّا عَنِ الإِعْدَادِ الْمُتكَامِلِ، فَجَمَعَ بَيْنَ الإِعْدَادِ الْعَقَدِيِّ وَالإِيمَانِيِّ، وَالثَّقَافِيِّ وَالْفِكْرِيِّ، وَالنَّفْسِيِّ وَالرُّوحِيِّ، وَالْعَمَلِيِّ، وَذَلِكَ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنِ التَّدَرُّجِ فِي الْخُطُوَاتِ.

## خَامِسًا: ثَنَاءُ الإِمَامِ البَنَّا عَلَىٰ رُوَّادِ الإِصْلَاحِ

كَانَ الإِمَامُ البنَّا عَبقرِيًّا حِينَمَا أَثْنىٰ عَلَىٰ مَن سَبقُوهُ، فَلَمْ يَغمِطْ مُصلِحًا سَعَىٰ فِي خَيرِ هَذِهِ الأُمَّةِ حَقَّهُ، فَكانَ يُثنِي عَلَىٰ مُصطَفىٰ كَامِل (ت 1908م)، وَمُحمّد فَرِيد (ت 1919م)، وَعَبدِ العزيزِ جَاوِيش (ت 1929م)، وَالأفغَانِي (ت 1897م)، وَمُحمَّد عَبدُه (ت 1905م)، وَالكَواكِبِيِّ (ت 1902م)، وَعَبدِ الرَّحمَنِ الرَّافِعِيِّ (ت 1966م). وَقَالَ إِنّهُم حَاولُوا جَميعًا تَربيةَ الأُمّةِ وَإِعدَادَهَا حَتَّىٰ لَا تَلِينَ لَها قَناةٌ، وَتَقِفَ فِي وَجْهِ المُستعْمِرِ، وَتَتخلَّصَ مِنْ تِلكَ العَاداتِ الّتِي لَحِقتْ بِها.

«كَانَ مُصطَفىٰ كَامِل وَرِجَالُه يُرِيدونَ إِعدَادَ الأُمّةِ لِكفَاحٍ طَوِيلٍ تَتحرّرُ فِيهِ نُفوسُهَا وَأَخْلاقُها فَلا تَلِينُ لَها قَناةٌ، وَتَعْلَمُ مَكانَ الخِدَاعِ وَالكَيْدِ، فَلا تَقعُ فِي مَهوَاةِ الرَّدَىٰ. نَادَىٰ مُصطَفىٰ كَامِل بِوَزارَةِ المَعارِفِ الأَهْلِيةِ، وَوَضَعَ جَاوِيشُ مَشرُوعَ المَدارسِ التَّهذِيبِيةِ اللَّيليةِ لِلعُمَّالِ وَطبقَاتِ الشعْبِ، وَاستَقلَّ عَبدُ الرّحمَنِ الرَّافِعِيِّ بِالتأليفِ فِي حُقوقِ الأُمّةِ، فَهِي سِلسلَة مُنظّمَةٌ مُتَّصلَةُ الحَلقَاتِ تَتلاقَىٰ أَطرَافُها عِندَ مَيدَانٍ

(136) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة بين الأمس واليوم]، ص 529.

وَاحدٍ. أمَّا الآنَ فَقدْ نَبغَ **زُعمَاءُ أَغْرَارٌ** لَم يُحنَّكُوا بِتَجارِبِ الزعَماءِ، فَرَضُوا مِنَ الغَنيمَةِ بِالإيَابِ.

وَكَانَ جَمالُ الدِّينِ وَمُحمَّد عَبدُه وَالكَواكِبيُّ يَسيرُونَ بِالناسِ دِينيًّا وَخُلُقِيًّا إِلَىٰ نَاحيَةٍ مُثمِرَةٍ هِيَ تَصحِيحُ العَقائدِ، وَتقويمُ الأفكَارِ فِي نَاحيَةِ جَمعِيّاتِنَا الإِسْلاميّةِ وَالآنَ لَا بُدَّ مِن تَوزِيعٍ مُتناسِقٍ لِفُروعِ النهْضَةِ» (137).

وَيقُولُ الإمامُ البنَّا قَبلَ ذَلِكَ: «يَجبُ أَنْ تَكونَ دِعامةُ النهْضَةِ (التَّربيَةَ)، فَتُربَّىٰ الأمةُ أَوَّلًا، وَتَفهَمُ حُقوقَها تمامًا، وَتَتعلَّمَ الوَسائِلَ التِي تَنالُ بِها هَذهِ الحُقوقَ، وَتُربَّىٰ عَلَىٰ الإيمَانِ بِهَا، وَيُبَثَّ فِي نَفسِهَا هَذَا الإيمَانَ بِقُوةٍ، أو بِعِبَارةٍ أُخرَىٰ: تَدرُسُ مِنهَاجَ نَهضَتِها دَرْسًا نَظريًّا وَعَمليًّا وَرُوحِيًّا... وَمِنْ أَجلِ هَذَا يَجِبُ أَنْ تُعِدَّ البلادُ التِي تَودُّ النهضَةَ مَدرَسَةً، طَلبَتُهَا كُلُّ المُواطِنِينَ وَأَساتِذَتُهَا الزَعَماءُ وَأعوانُهم، وَعُلومُها الحُقُوقُ وَالواجِبَاتُ العَامَّةُ أَوِ الغَايةُ وَالوَسِيلَةُ، وَمِنْ أَجلِ ذَلِكَ أَيْضا يَجِبُ أَنْ يُنظَّمَ أَمرَانِ مُهمَّانِ، هُمَا: المَنهَجُ وَ الزَّعَامَة»(138).

وَيُفهَمُ مِنَ الكَلامِ السالفِ أَنَّ أَسَاسَ النهضَاتِ فِي رُؤيَةِ الإِمَامِ البنَّا رَكيزَتَانِ، هُمَا: المَنهَجُ وَالزَّعَامَةُ؛ وَقَدْ وَضَّحَ الإِمَامُ البَنَّا مِنهَاجَ النهضَاتِ(139)، أَوْ هَاتينِ الرَّكيزَتينِ، فَقَالَ: «فَأَمَّا **المَنْهَجُ** فَيجِبُ أَنْ تَكُونَ مَوادُّهُ قَليلةً، بِقَدْرِ الإِمكَانِ، عَمليةً بَحتةً مَلمُوسةَ النتَائجِ مَهْمَا قَلَّتْ، وَأَمَّا **الزَّعَامَةُ** فَيَجِبُ أَنْ تُختَارَ وَتُنتَقَدَ حَتَّىٰ إِذَا وَصَلَتْ إِلَىٰ دَرَجَةِ الثقَةِ أُطِيعَتْ وَأُوزِرَتْ وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ الزَّعِيمُ زَعِيمًا تَربَّىٰ لِيكُونَ كَذلِكَ. لَا زَعِيمًا خَلقَتْهُ الضَّرُورَةُ وَزَعَّمَتْهُ الحَوادِثُ فَحَسْبُ أَوْ زَعِيمًا حَيثُ لَا زَعِيمَ. عَلَىٰ هَذهِ القَواعِدِ بَنَىٰ مُصطفَىٰ كَامِل وَفَرِيدٌ وَمِنْ قَبْلِهِمَا جَمالُ الدّينِ وَالشَّيخُ مُحمَّدُ عَبدُه نَهضةَ مِصْرَ، وَلَوْ سَارَتْ فِي طَرِيقِهَا هَذَا، وَلَمْ تَنحَرِفْ عَنهُ لَوصَلَتْ إِلَىٰ بُغيَتِهَا أَوْ عَلَىٰ الأقَلِّ لتَقدَّمَتْ، وَلَم تَتقَهْقَرْ، وَكَسَبَتْ وَلَم تَخْسَرْ.

---

(137) حسن البنا: **مذكرات الدعوة والداعية**، ص 178.

(138) حسن البنا: **مذكرات الدعوة والداعية**، في سبيل النهوض، ص 176.

(139) هُناكَ كَلامٌ طَويلٌ عَنِ الوسَائلِ الّتِي تَتحقَّقُ بِهَا النهضَةُ، وَقَدْ أَورَدْنَاهُ كَامِلًا فِي رِسَالَةِ: (هَل نَحنُ قَومٌ عَمليّونَ)، وَهُوَ يُتمِّمُ مَا ذَكرنَاهُ هُنا عَن أَسَاسِ النهضَاتِ، فنرجُو الرجوعَ إِلَيْهِ فِي مَكانِهِ.

بيدَ أنَّ زُعمَاءَ خَلقَتْهُمُ الظروفُ أَرادُوا أَنْ يَستَعْجِلُوا النّتائِجَ قَبلَ الوَسائلِ، وَخَدَعَتْهُم غَرَارَتُهُمْ بِقيادَةِ الشعُوبِ وَمَكائدِ السّياسَةِ، فَظنُّوا السَّرابَ مَاءً وَجَرَوْا وَرَاءَهُ، حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهُ لَم يَجِدُوا شَيئًا بَعدَ إِنْفَاقِ الجُهدِ وَتَضحِيَةِ الوَقْتِ، وَفَناءِ الزَّادِ، فَاضْطُرُّوا إِلَىٰ الرجُوعِ مِنْ حَيثُ بَدَؤُوا وَتَقهْقَرُوا وَخَسِرُوا وَلَمْ يَربَحُوا»[140].

وَالحَقُّ أنّ مَصائِبَ الشعُوبِ فِي أَنْ يَتولَّىٰ أمرَهَا، وَيتزَعَّمها هَذَا الصّنفُ مِنَ الزعَماءِ الذِينَ لَم يَأخذُوا حَقَّهُمْ مِنْ التربيَةِ وَالإِعْدَادِ. أَمَّا الزَّعَامةُ الحَقَّةُ الجَديرَةُ بالقيادَةِ، فإنّها تَتجَلَّىٰ فِي قِصّةِ مُوسَىٰ عَلَيهِ السَّلامُ؛ فَحِينَ شَاءَتْ إِرَادَةُ اللهِ تَعالَىٰ أَنْ تُخرِجَ شَعبًا مُستضعَفًا مُستَذَلًّا مُستعبَدًا مِنْ قَبضَةِ حَاكمٍ مُستَبدٍّ ظَالمٍ؛ اختَارَتْ لَهُ زَّعِيمًا صَنَعَهُ اللهُ عَلَىٰ عَينِهِ، وَرَبَّاهُ مِنَ المِيلَادِ وَالنَّشْأَةِ: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [القصص: 7].

وَيُؤَكِّدُ الإِمَامُ البنَّا عَلَىٰ أن التربيَةَ شَرطُ الزَّعَامَة، وَكُلَّمَا بَدَأَتْ تربيةُ القَائدِ مِنَ المِيلادَ والنشْأَةِ، أَخذَ حَقَّهُ مِنَ الإِعْدَادِ وَالتَّكْوِينِ؛ وَبِهذَا يَستطِيعُ أَنْ يَصِلَ بِالأمَّةِ إِلَىٰ بُغيَتِهَا. أَمَّا مَنْ أَتَتْ بِهِمُ الضَّرورَاتُ فَهؤلاءِ زَعُمَاءُ لَمْ تُحنِّكْهُمُ التجَارِبُ، وَمَا أكثرَ مَا يَستعجِلُونَ النتَائِجَ قَبلَ الوَسَائلِ، أَوْ يَرضَوْنَ مِنَ الغَنيمَةِ بِالإِيابِ – كَمَا يَقُولُونَ – وَهَذَا الصِّنفُ أَخطَرُ مَا تُبتَلَىٰ بِه الأُمَمُ وَالشُّعُوبُ، أَوْ يُبتَلَىٰ بِهِ العَملُ الإِسْلامِيُّ المُعاصِرُ. وَيَجِبُ أَنْ نَنتبِهَ إِلَىٰ ذَلِكَ تَمامًا. فَزعِيمُ الضَّرورَةِ غَيرُ ذَلِكَ الّذِي أخذَ حَقَّهُ مِنَ التّربيةِ وَالإِعدَادِ.

وَكانَ الإِمَامُ البنَّا حَرِيصًا كُلَّ الحِرْصِ عَلَىٰ أَنْ يُخصِّصَ مُؤتمرًا كَامِلًا يَتناوَلُ فِيهِ برنَامجَ الإِخْوانِ، وَمَراحِلَ طَرِيقِهِم، وغَايتَهُم وَوَسَائِلَهُمْ.

كَمَا التَفَتَ الإِمَامُ البنَّا خلالَ حَديثِهِ عَنِ القِيَادَةِ وَالزَّعَامَةِ، إِلَىٰ دَرجَاتِ العُضويّةِ وَالانتِمَاءِ؛ لأَنَّ هَذَا الهَيكَلَ الإِداريَّ إِنَّما يَخدُمُ فِي حَقيقَتِهِ غَايةً رُوحِيّةً. فَكَثِيرًا مَا كَانَ يَقولُ: «غَايةُ الإِخوَانِ المُسلِمِينَ غَايةٌ رُوحِيّة عَمَليّةٌ، قَبلَ أَنْ تَكُونَ إِداريّةً مَظهَرِيَّةً،

(140) حسن البنا: **مذكرات الدعوة والداعية**، ص 177.

فَعلَىٰ الإخوَانِ أَنْ يُلاحِظُوا ذَلِكَ تَمامًا، وَأَنْ يَعتَقِدُوا أَنَّ هَذِهِ النُّظُمَ الإدَارِيّةَ لَيسَتْ إلَّا وَسَيلةً مِنْ وَسائلِ النظَامِ فَحَسْبُ» (141).

غايتُنا أنْ نربِّيَ الإخوانَ تربيةً نَفسيةً صالحةً تَتفِقُ مَع مَبادئِهِم، وَتَمَيُّزِ هَذِهِ المَبادِئِ فِي نفُوسِهِمْ، وَمِنْ أَجلِ تَحقيقِ ذَلِكَ تكونُ دَرجاتُ العُضْويّةِ عَلَىٰ النحْوِ الآتِي:

فِي المُؤتَمرِ الثَّالِثِ (1935م) تَكلَّمَ الإمَامُ البنَّا عَنِ المَظهَرِ الإدَارِيِّ وَدَرجَاتِ العُضويةِ، وَأَنَّ هَذِهِ الدرجاتِ تُحقِّقُ هَذَا المعْنَىٰ التربوِيَّ. وَكُلُّ دَرجةٍ مِنْ دَرجاتِ العُضويّةِ تُميِّزُ جَانِبًا مِنَ المبَادئِ فِي نفُوسِ الإخوَانِ، بِحَيْثُ إذَا اكْتَملَتْ هَذِهِ الدرجَاتُ وَتَحقَّقتْ فِيهِ، بَدْءًا مِنَ (الانضِمَام العَامِّ) الّذِي لَيسَ فِيهِ أكثَرُ مِنَ احترَامِ النظَام، وَالوَعْدِ بِالمُحافظَةِ عَلَىٰ المَبادِئِ. ثُمَّ بَعدَ أَنْ يَتميّزَ هَذَا الواجِبُ فِي النفْسِ، ينتَقِلُ إِلَىٰ الدرَجَةِ الأُخْرَىٰ وَهِيَ (الانضِمَامُ الأَخَوِيُّ)، وَهِيَ دَرجَةٌ لَها وَاجِبَاتُها، ثُمَّ إذَا تَميزَتْ هَذِهِ المبادئُ وَظَهرَتْ آثَارُهَا فِي النفُوسِ، دَخلَ بعدَ ذَلِكَ إِلَىٰ الدرجَةِ الثالثةِ وَهِيَ (الانْضِمَامُ العَملِيُّ)، وَعَليهِ مَجمُوعَةٌ مِنَ الوَاجِبَاتِ، يُمكِنُ الرجُوعُ إِلَيْهَا فِي (مُذكِّراتُ الدعوةِ وَالدَّاعيَةِ)(142). فإذَا تَميّزتْ هَذِهِ الآثارُ فِي الأخِ انتقَلَ إِلَىٰ الدرجَةِ الّتِي تَلِيهَا، وَهِيَ (الانضِمَامُ الجِهَادِيُّ). وَمَنْ يَقرَأْ مُذكرَاتِ الأستاذِ حَامدِ أَبُو النصْرِ، يَلحَظْ أنّه ينصُّ عَلَىٰ دَرَجَةِ العُضويّةِ لِلأخِ الذِي يتَحدَّثُ عَنهُ أَوْ يُشيرُ إليْهِ؛ كَأَنْ يَقُولَ: (حَضَرَ مَعِي المُقابلَة الأخُ المُجاهِدُ فُلانٌ)، وَهَكَذَا.

وَكَانُوا فِي دَرجةِ (الانضِمَام الجِهَادِيِّ) يبايعُونَ الإمَامَ البنَّا عَلَىٰ عِدّةِ وَاجباتٍ؛ كَانَ مِن أَهَمِّهَا (حَمْلُ المُصْحَفِ)، حَتَّىٰ يُذكِّرَهُمْ بِواجِبِهِمْ نَحوَهُ، إِلَىٰ غَيرِ ذَلِكَ مِنَ الوَاجبَاتِ الأُخْرَىٰ الّتِي تُميِّزُ المُجاهِدَ مِنْ غَيرِهِ. وَهَذِهِ الدرَجَةُ تَأخذُ حَقَّهَا مِنَ التربيةِ وَالإعدادِ، حَتَّىٰ تَتميّزَ هَذِهِ المَبادِئُ فِي نفُوسِهِمْ. هَذِهِ هِيَ التَّربيةُ الّتِي كَانَ يَعنِيهَا الإمَامُ البنَّا.

**والتربيَةُ الّتِي تُولِّدُ الزَّعَامةَ الحقيقيةَ هِيَ الّتِي تُنتِجُ فِقْهًا، وَلَا تُفْرِزُ شُعورًا.** بمعْنَىٰ أنَّ

(141) حسن البنا: **مذكرات الدعوة والداعية**، ص 245.
(142) انظر حسن البنا: **مذكرات الدعوة والداعية**، ص 243.

التربيةَ الّتي تُفرِزُ شُعورًا فَقَطْ، تسقط عَنَدْ أَوَّلِ اختبارٍ؛ فَلَا تَثبُتُ فِي مُواجَهةِ العَقباتِ وَالمِحَنِ أَوِ الشّدّةِ وَاللأواءِ، وإنَّما تَتبرَّمُ وَتتضَجَّرُ، وَتَضِيقُ ذرعًا بتَحمُّلِ المَسؤُوليّةِ، لأنَّها لَمْ تُرَبَّىٰ جَيِّدًا فتجلّىٰ تكوِينُهَا الهَشُّ فِي الشُّعُورِ فحسبُ؛ مجردُ عَاطِفَةٍ، أَوْ نَزوَةٍ عَابِرَةٍ، أَوْ حَماسَةٍ فَائِرَةٍ، لَا تَصْمُدُ فِي مُواجهَةِ المِحَنِ وَالابتِلاءَاتِ.

وَقَدْ شَهِدْنَا فِي الستِّينيّاتِ بَعضَ الأَسْمَاءِ اللامِعَةِ فِي الجَماعَةِ، لَكِنَّهَا تَساقَطَتْ لِلأسَفِ، وَخَارَتْ قُواهَا وَضَعُفَتْ، فَأَيَّدَتِ المُستبدّينَ الطُّغَاةَ؛ لأنّها كَانَتْ مِنَ الصِّنفِ الّذِي تَربَّىٰ تربيةً أَفرزَتِ شُعُورًا وعواطفَ، وَلَمْ تُنتِجْ فِقْهًا، وَمِنْ ثَمَّ ضَعُفَتْ أَمَامَ الابتِلاءِ، وَلَمْ تَستَطِعِ الوفَاءَ بِبَيعَتِهَا.

أَمَّا مَنْ تَربَّوْا تَربيةً صَالحةً، وَأُعِدُّوا أَحْسَنَ إِعْدَادٍ، عَلَىٰ مَهلٍ وَأَنَاةٍ، حَتَّىٰ تَميزَتْ تِلكَ النفوسُ وَهَذِهِ المَبادئُ فِي نفُوسِهِم تَميُّزًا صَحِيحًا؛ فَقَدْ ثَبَتُوا وَصمَدُوا وَاحْتَسَبُوا، وَصَبَرُوا صَبْرًا يَشُقُّ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَتصَوَّرُوهُ. فَمِنْهُم مَنْ قَضَىٰ 20 عَامًا فِي السِّجْنِ، وَعُذْرُهُ قَائِمٌ وَتَعلَّتُه حَاضِرَةٌ - كَمَا يَقُولُونَ - فَكانَ بَعضُهم بَسِيطًا جِدًّا وَفَقِيرًا جِدًّا، بَلْ مُعدَمًا، وَمِنْهُم مَنْ كَانَتْ هَذِهِ حَالُه وَعِندَهُ مَا يَربُو عَلَىٰ سَبعَةِ أَولادٍ، وَكَانَتْ زَوجتُه تُحضِرُ لَه أولادَهُ عِندَ الزيَارَةِ شِبهَ عَرايَا، حُفاةَ الأقدَامِ، وَتَقولُ لَه: هَذِهِ هِيَ الحَالُ الّتِي هُمْ عَلَيهَا الآنَ، فَكَانَتْ تَزيدُهُ هَمًّا، وَتُؤَنِّبُه بقَولِهَا: (خَلِّيكْ قَاعِدْ مَعَ النَّاسْ دُولْ خَلِّيهُمْ ينفَعُوكْ وَيرَبُّولَكْ أَولادَكْ).

وَكَانَ يَسأَلُها عَنْ بَعضِ أَولادِهِ، فَأينَ عَبدُ اللهِ؟ أَوْ فُلان؟ فَتقُول: (إِنَّنِي وَضَعْتُهم فِي المَلْجَأِ لأَنّنِي مِشْ عَارْفَه أَرَبِيهُمْ). وَكَانَ رَجُلًا بَسِيطًا مُتطَوِّعًا فِي الجَيشِ، وَفُصِلَ، وَلَم يَكُنْ لَهُ رَاتِبٌ، وَالقُيودُ الشَّديدَةُ فِي تِلْكَ الفَترَةِ كَانَتْ تَمنَعُ أَيّ نَوعٍ مِن أنوَاعِ المَعونَةِ المَاليّةِ لِمِثْلِ هَذِهِ الأُسَرِ، نَاهِيكَ بِأنَّ العَملَ كَانَ سِرّيًّا؛ مِمَّا كَانَ سَببًا فِي ضَيَاعِ هذه الأسرة وأمثالِها، وَلِهَذَا عُنِيَ الإِمَامُ البنَّا بِالجَانِبِ الاقتِصَادِيِّ؛ لأَنَّ حَالَ الفَقْرِ المَحْضِ الّذِي يُعانِيهِ النّاسُ تَجعَلُ النُّهوضَ الرُّوحِيَّ أَمْرًا غَيرَ مَيسُورٍ، مَا لَمْ يَتوفَّرْ لَهُمُ القُوتُ الذِي لَا يَجِدُهُ الكَثِيرُ مِنْهُم إِلَّا بِشِقِّ النَّفْسِ).

وَلَا رَيْبَ أنَّ عَوَزَ الأُسْرَةِ وَفَقرَهَا، قَد يَكُونُ أَشَقَّ عَلَىٰ الأخِ مِنْ أَلَمِ السّجنِ وَمَا

يَلقَاهُ فِيهِ مِنْ عَنَتٍ وَأَذًى، ورُغْمَ ذَلِكَ كنا نَرىٰ الأخَ رَافِعَ الرّأسِ، رَابِطَ الجَأْشِ. فَمَا الّذِي يُلْقِي فِي رُوعِهِ هَذَا الثبات، وَذَلكَ الاطْمئْنَانَ؟ لَقَدْ كَانَ يَعودُ كَأنَّ شَيئًا لَمْ يَحدُثْ. بَل جَاءَهُ ذَاتَ يَومٍ تِلغرَافٌ مِن زَوجَتِهِ تُخبِرهُ بِأنَّ ابنَهَ عَبدَ اللهِ (أكبرَ أوْلَادِهِ) قَد مَاتَ غَرقًا فِي المَلْجَأ، بَعثَتْ بِهَذَا التلغرَافِ زِيَادَةً فِي تَبكِيتِهِ وَتَأنِيبِهِ. وَرُغْمَ هَذِهِ الظروفِ العَصِيبَةِ لَمْ يُؤيِّدِ الطغاةَ، وَلَم يَتراجَعْ أَوْ يَتزَحْزَح، وَكَانَ الأَمْرُ سَهلًا، فَلوْ أَيَّدَ الطغاةَ وَتَنكَّرَ لِمَبادِئِهِ لَخَرجَ، كَما فَعلَ آخَرونَ، ولَكنّه لَمْ يَفعَلْ وَظَلّ صَابِرًا مُحتَسِبًا. وَأَعَانَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ تِلْكَ التَّرْبِيَةُ عَمِيقَةُ الْأَثَرِ، طَوِيلَةُ الْأَمَدِ، الَّتِي وَلَّدَتْ حَالَةً إِيمَانِيَّةً عَالِيَةً لَا تَهْتَزُّ أَمَامَ الْبَاطِلِ مَهْمَا عَلَا، وَتَتَحَمَّلُ تَبِعَاتِ الطَّرِيقِ مَهْمَا كَلَّفَهَا ذَلِكَ مِنَ الْعَنَاءِ وَالْعَذَابِ؛ فَالْعِوَضُ الْحَقِيقِيُّ كَامِنٌ فِي يَقِينِهِ بِأَنَّ اللهَ يَرْضَىٰ عَنْهُ وَيَتَقَبَّلُهُ، وَأَنَّهُ قَدْ أَدَّىٰ الْوَاجِبَ الَّذِي عَلَيْهِ، مَهْمَا عَظُمَتْ التَّضحيَّاتُ.

وَقَد أَشَارَ أ. سَيّد قُطْب، إِلَىٰ أَنَّ تَصَوُّرَ المِسْلِمِ لِغَايتِهِ، كَمَا أَرَادَهَا الإِسْلَامُ يَرفَعُ مِنْ قِيمَتِهِ فِي نَظَرِ نَفسِهِ، كَمَا يَرفَعُ مِنَ اهتِمَامَاتِهِ، بِقَدْرِ مَا يُشعِرُهُ بِضَخَامَةِ التَّبِعَةِ المُلقَاةِ عَلَىٰ عَاتِقِهِ(143).

أَمَا غَايةُ المُسْلِمِ فِي التَّصَوُّرِ الإِسْلامِيِّ؛ فَهِيَ أَنْ يَستَشْعِرَ أنَّه أَكْرَمُ مَخْلُوقٍ فِي هَذَا الكَوْنِ، وَأَنَّ مِنْ مُقتَضيَاتِ خِلافتِهِ وَتكريمِهِ أَلَّا يَترُكَ المُنكَرَ بِغَيرِ جِهَادٍ، وَلَا الحَقَّ بِغَيرِ نُصرَةٍ، وَلَا الأَرْضَ بِغَيرِ خِلافَةٍ؛ يقولُ الأستاذُ سيدُ قُطْب: «يَسْتَشْعِرُ المُسْلِمَ أَنَّ وُجُودَهُ عَلَىٰ الأَرْضِ لَيسَ فَلْتةً عَابِرَةً، إِنّمَا هُوَ قَدَرٌ مَقدُورٌ، مَرسُومٌ لَه طَرِيقُه وَوِجْهَتُه وَغَايَةُ وُجُودِهِ، وَأَنَّ وُجُودَه عَلَىٰ الأَرْضِ يَقتَضِيهِ حَركةً وَعَملًا إِيجَابِيًّا، فِي ذَاتِ نَفسِه، وَفِي الآخَرينَ مِنْ حَولِهِ، وَفِي هَذهِ الأَرْضِ التِي هُوَ مُستخْلَفٌ فِيهَا، وَفِي هَذَا الكَوْنِ المَحْسُوبِ حِسَابُه فِي تَصْمِيمِهِ، وَأنّه لَا يَبلُغُ شُكْرَ نِعْمَةِ اللهِ عَليهِ بِالوجُودِ، وَنِعْمَةِ اللهِ عَليهِ بِالإِيمَانِ، وَلَا يَطْمَعُ فِي النَّجَاةِ مِنْ حِسَابِ اللهِ وَعَذابِهِ، إِلَّا بِأَنْ يُؤَدِّيَ دَوْرَهُ الإِيجَابِيَّ فِي خِلافَةِ الأَرْضِ، وَفْقَ شَرْطِ اللهِ وَمَنهَجِهِ، وَتَطبِيقِ هَذَا المَنْهَجِ فِي حَياتِهِ وَحَياةِ غَيرِهِ، وَالجِهَادِ لِدَفْعِ الفَسَادِ عَنْ هَذِهِ الأَرْضِ التِي هُوَ قَيِّمٌ عَلَيْهَا، وَالفَسَاد إِنّما يَنشَأُ مِنْ عَدمِ تَطبِيقِ مَنهَجِ اللهِ فِي عَالَمِ الوَاقِعِ، وَدُنْيَا النَّاسِ، وَحَياةِ الجَماعَاتِ، وَأَنَّ

(143) انظر سيد قطب: **خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**، دار الشروق، القاهرة، ص 168.

وِزْرَ هَـذَا الفَسَـادِ – حِيـنَ يَقـعُ – وَاقِـعٌ عَلَـىٰ عَاتِقِـهِ هُـوَ، مَـا لَـمْ يُـؤَدِّ الشـهَادَةَ للهِ فِـي نَفسِـهِ، وَفِـي غَيـرِهِ، وَفِـي الأَرْضِ كُلِّهَـا مِـنْ حَوْلِـهِ»(144).

فهـذَا الإِحسَـاسُ يَمـلأُ نَفسَـه بِالارتيَـاحِ وَالرضَـا، حَتَّـىٰ وَهُـوَ يُواجِـهُ الشَّـرَّ وَيتحمَّـلُ الأَلَـمَ. تَـذَوُّقُـهُ لِلحيَـاةِ مُختلِـفٌ بِهَـذِهِ العَقِيـدَةِ، وَهَـذِهِ الغَايـةِ أَوِ المُهِمّـةِ التِـي يشـعرُ أَنّـهُ مُكلَّـفٌ بِأَدَائِهَـا. وَهُـوَ فِيمَـا يَـرىٰ الأُسـتاذُ سَـيِّدُ قُطْـب مُعَـانٌ عَلَـىٰ هَـذِهِ الخِلافَـةِ: مُعـانٌ مِـنَ اللهِ سُـبحانَه بِجَعْـلِ النّوامِيسِ الكَونيّـةِ وَطبيعَـةِ الكَـوْنِ الـذِي يَعيـشُ فِيـهِ مُعاونَـةً لَـه .. وَهُـوَ مُعـانٌ مِـنَ اللهِ كَذلِـكَ بِمَـا وَهَبَـهُ مِـنَ القُـوَىٰ وَالاسـتِعْدَادَاتِ الذَّاتِيّـةِ، وَهُـوَ يُكلِّفُـهُ أَمـرَ الخِلافَـةِ(145).

وَقَـدْ أَفَـادَ الإِمَـامُ البَنَّـا مِـنَ الشَّـيخِ مُحمَّـدِ سَـعيدِ العَرفِيِّ–عالـم ديـر الـزور–(146) أَنَّ

(144) السابق، ص 167.
(145) انظر سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، ص 165.
(146) **مُحَمَّـدُ سَـعِيدٌ الْعُرْفِـيُّ**: عَالِـمٌ وَمُصْلِـحٌ سُـورِيٌّ مِـنْ دَيْـرِ الـزَّوْرِ، وَنَائِبُهَـا السَّـابِقُ فِـي مَجْلِـسِ النُّـوَّابِ السُّـورِيِّ، وَمِـنْ رِجَـالِ مُقَاوَمَـةِ الظُّلْـمِ وَالِاحْتِلَالِ الْفَرَنْسِـيِّ. صَـادَرَ الْفَرَنْسِـيُّونَ أَمْلَاكَـهُ وَكُتُبَـهُ، وَحَكَمُـوا عَلَيْـهِ بِالنَّفْـيِ، فَأَقَـامَ فِـي مِصْـرَ فِـي عَيْـشٍ مُتَوَاضِـعٍ، مُتَعَفِّفًـا عَـنِ السُّـؤَالِ، يَأْكُـلُ مِـنْ عَمَـلِ يَدِهِ فِـي تَصْحِيـحِ الْكُتُـبِ. وَكَانَ وَاسِـعَ الْعِلْـمِ بِالْمَعْقُـولِ وَالْمَنْقُـولِ، جَمَـعَ بَيْـنَ الْعِلْـمِ وَالطِّـبِّ وَالْخِبْـرَةِ الْعَسْـكَرِيَّةِ، وَعُـرِفَ بِالشَّـجَاعَةِ وَالنَّجْـدَةِ وَعُلُـوِّ الْهِمَّـةِ وَالْعِبَـادَةِ وَالزُّهْـدِ. وَكَانَ أَدِيبًـا مُؤَرِّخًـا، حُلْـوَ الْحَدِيـثِ، حَاضِـرَ الْبَدِيهَـةِ، حَسَـنَ الدُّعَابَـةِ. وَصَحِبَـهُ الْإِمَـامُ حَسَـنُ الْبَنَّـا، وَأَفَـادَ مِـنْ تَوْجِيهَاتِـهِ التَّرْبَوِيَّـةِ وَالدَّعَوِيَّـةِ، وَمِـنْ أَشْـهَرِهَا تَأْكِيـدُهُ أَنَّ الدَّعْـوَةَ مُسْتَشْـفًى لِإِصْلَاحِ الْمُقَصِّرِيـنَ. وَمِـنْ أَبْـرَزِ تَوْجِيهَاتِـهِ التَّرْبَوِيَّـةِ الَّتِـي نَقَلَهَـا عَنْـهُ الْإِمَـامُ الْبَنَّـا قَوْلُـهُ:
وَكَانَ يَقُـولُ لِـي دَائِمًـا: اسْـمَعْ، لَا تَتَحَـرَّجْ أَبَـدًا مِـنْ أَنْ تَضُـمَّ إِلَـىٰ الدَّعْـوَةِ الْمُقَصِّرِيـنَ فِـي الطَّاعَـاتِ، الْمُقْبِلِيـنَ عَلَـىٰ بَعْـضِ الْمَعَاصِـي الْخَسِيسَـةِ، مَـا دُمْـتَ تَعْـرِفُ مِنْهُـمْ خَـوْفَ اللهِ، وَاحْتِـرَامَ النِّظَـامِ، وَحُسْـنَ الطَّاعَـةِ؛ فَـإِنَّ هَـؤُلَاءِ سَـيَتُوبُونَ مِـنْ قَرِيـبٍ، وَإِنَّمَـا الدَّعْـوَةُ مُسْتَشْـفًىٰ، فِيـهِ الطَّبِيـبُ لِلـدَّوَاءِ، وَفِيـهِ الْمَرِيـضُ لِلِاسْـتِشْفَاءِ. فَلَا تُغْلِـقِ الْبَـابَ فِـي وَجْـهِ هَـؤُلَاءِ، بَـلْ إِنِ اسْـتَطَعْتَ أَنْ تَجْتَذِبَهُـمْ بِـكُلِّ الْوَسَـائِلِ فَافْعَـلْ؛ لِأَنَّ هَـذِهِ هِـيَ مُهِمَّـةُ الدَّعْـوَةِ الْأُولَـىٰ.
وَلَكِـنِ احْـذَرْ مِـنْ صِنْفَيْـنِ حَـذَرًا شَـدِيدًا، وَلَا تُلْحِقْهُمَـا بِصُفُـوفِ الدَّعْـوَةِ أَبَـدًا: الْمُلْحِـدِ الَّـذِي لَا عَقِيـدَةَ لَـهُ، وَإِنْ تَظَاهَـرَ بِالصَّـلَاحِ؛ فَإِنَّـهُ لَا أَمَـلَ فِـي إِصْلَاحِـهِ، وَهُـوَ بَعِيـدٌ عَنْكُـمْ بِأَصْـلِ الْعَقِيـدَةِ، فَمَـا تَرْجُـونَ مِنْـهُ؟ وَالصَّالِـحِ الَّـذِي لَا يَحْتَـرِمُ النِّظَـامَ، وَلَا يُقَـدِّرُ مَعْنَـىٰ الطَّاعَـةِ؛ فَإِنَّ هَـذَا يَنْفَـعُ مُنْفَـرِدًا، وَيُنْتِـجُ فِـي الْعَمَـلِ وَحْـدَهُ، وَلَكِنَّـهُ يُفْسِـدُ نُفُـوسَ الْجَمَاعَـةِ؛ يُغْرِيهَـا بِصَلَاحِـهِ، وَيُفَرِّقُهَـا بِخِلَافِـهِ. فَـإِنِ اسْـتَطَعْتَ أَنْ تَسْـتَفِيدَ مِنْـهُ وَهُـوَ بَعِيـدٌ عَـنِ الصُّفُـوفِ فَافْعَـلْ، وَإِلَّا فَسَـدَ الصَّـفُّ وَاضْطَـرَبَ. وَالنَّـاسُ إِذَا رَأَوْا وَاحِـدًا خَـارِجَ الصَّـفِّ لَا يَقُولُـونَ: خَـرَجَ وَاحِـدٌ، وَلَكِـنْ يَقُولُـونَ: صَـفٌّ أَعْـوَجُ؛ فَاحْتَـرِسْ مِـنْ هَـذَا كُلَّ الِاحْتِـرَاسِ.
وَهُـوَ الَّـذِي اقْتَـرَحَ تَسْـمِيَةَ أَوَّلِ مَدْرَسَـةٍ أَنْشَـأَتْهَا الدَّعْـوَةُ فِـي الْإِسْـمَاعِيلِيَّةِ بِـ«مَعْهَـدِ حِـرَاءَ». انْظُـرْ: [الإمام الشهيد حَسَـنُ الْبَنَّـا، **مُذَكِّـرَاتُ الدَّعْـوَةِ وَالدَّاعِيَـةِ**، فَصْـلُ: «الشَّـيْخُ مُحَمَّـدٌ سَـعِيدٌ الْعُرْفِـيُّ». نشر مركز الحضارة والبحوث والدراسات والتدريب، ص150].

قُوةَ الإيمَانِ أهَمُّ مِنْ قُوَّةِ النفْسِ أَوِ الجَسَدِ؛ لأنَّ قُوَّةَ النفْسِ نَوعٌ مِنَ الجَلادَةِ يُمكِنُ أَنْ يَفقِدَهَا الإنْسَانُ فِي مَرحَلَةٍ مِنْ مَراحِلِ الطَّرِيقِ؛ أَمَّا قُوَّةُ الإيمَانِ، فَقَدَ وَصَفَهَا الشَّيخُ سَعيدٌ العَرْفِيّ بِأنَّهَا أَقْوَىٰ أَسلِحَةِ العَامِلِينَ، فَقَالَ: « العَالَمُ مُعَلَّقٌ بِخُيوطٍ مِنَ الوَهْمِ. وَإِنَّمَا يَكشِفُ الإيمَانُ وَحدَهُ الحقَائِقَ أَمَامَ المُؤمِنِينَ، وَلِهذَا يَنتصِرُونَ وَإِنْ ضَعُفَتْ قُوتُهُمْ، وَيُهزَمُ غَيرُهُمْ وَإِنِ استَعَدَّ، **وَمِنْ هُنَا كَانَ الإيمَانُ أَقْوَىٰ أَسْلِحَةِ العَامِلِينَ فِي الحَيَاةِ**»(147).

## سادِسًا: مَنْهجُ الإِخْوانِ فِي التّربيةِ وَالإِعْدَادِ

إِنَّ إحسَاسَ الإِمَامِ البنَّا بِهذَا الوَاجِبِ، وَشُعورَهُ بِالمَسؤُولِيّةِ هُوَ الذِي حَمَلَه عَلَىٰ التقَدُّمِ إِلَىٰ الأُمَّةِ بِهذَا المَشْرُوعِ الحَضارِيِّ، عِنْدَمَا سَقطَتِ الخِلافَةُ، وَهِيَ العِقْدُ الذِي كَانَ يَربِطُ الأُمَّةَ الإِسْلَامِيّةِ، وَيُظهِرُهَا ذَاتَ كِيانٍ فِي أَعْيُنِ أَعْدَائِهَا، وَلِهَذَا دَعَا الإِمامُ البنّا إِلَىٰ وُجُوبِ الجِدِّ وَالعمَلِ، لأنَّ إعادةَ الخلافَةِ وَاجِبٌ ضَخْمٌ، وَهُوَ مَشروعٌ طَويلُ الأمَدِ يَحتاجُ إِلَىٰ التَّحلِّي بِالصَّبْرِ وَالأنَاةِ فِي مُوَاجهَةِ تَكتُّلٍ عَالمِيٍّ.

وَهَذَا الصَّبرُ هُوَ الذِي جَعلَ الأستَاذَ سَيّد قُطْب يَثبُتُ أَمَامَ الإِغرَاءَاتِ، وَأَمَامَ التعْذيبِ وَالأذَىٰ كَذلِكَ؛ فَعِنْدَمَا اعترَفَ عَلَيهِ عَددٌ مِنْ أفرادِ المَجمُوعَةِ الّتِي كانتْ مَعَه (مِنَ الشَّبابِ)، فَضغَطُوا عَلَيهِ لِكَيْ يَتكلَّم، بَعدَ اعتِرَافِهِمْ عَلَيهِ، لَكِنَّهُ كَانَ يَقولُ: إِنّه حَرامٌ عَلَىٰ المُسْلِمْ - وَانظُرْ إِلَىٰ شُعورِهِ بِالوَاجِبِ - أَنْ يَدُلَّ عَلَىٰ مَقاتِلِ أَخيهِ أَوْ أَنَ يَكشِفَ عَورَتَه، إِنِّي أَتحمَّلُ مَسؤولِيّةَ هَؤلاءِ جَميعًا، لَا أَدُلُّ عَليهِم؛ لأنّهم خَيرُ شَبابٍ حَملَتْهُ الأَرْضُ فِي هَذَا الجيل، وَلَكَ أَنْ تَتخَيّلَ أَنَّ الأستَاذَ سَيدَ قُطْب يَشهَدُ لِمَنِ اعترَفُوا عَلَيهِ بِأنّهم أَفْضَلُ جِيل؛ لأَنَّه يَعلَمُ أنّها لَحظَةُ ضَعفٍ اعْتَرتْهُمْ، أَوْ أَنّها مِحنَةٌ فَوقَ طَاقتِهِم، فَقَدْ كَانَ زَبانيَةُ التَّعذِيبِ يَعرفُونَ كَيفَ يُنطِقُونَ ضَحايَاهُمْ!

إِنَّها أَخْلَاقُ الكِبَارِ الذِينَ تَربَّوْا عَلَىٰ مَائِدَةِ الكِتَابِ وَالسُّنّةِ؛ فَعَلَينَا أَنْ نتحلَّىٰ بِسَعَةِ الصَّدْرِ، وأنْ نتَحمَّلَ مِثْلَ هَذِهِ الصُّورِ مِنْ صُورِ الضَّعْفِ وَالنقْصِ الّذِي يَعتَرِي البَشَرَ، وَهَذَا هُوَ الفِقْه الّذِي تُولِّدُهُ التَّربِيَةُ عميقة الأثر طويلة المدىٰ؛ وَلِأَنَّ الأَخْطاءَ الّتِي

(147) حسن البنا: **مذكرات الدعوة والداعية**، ص 150.

تَحْدُثُ فِي دَعْوَتِنَا قَد تَكُونُ بِحُمْقِ غَيرِنَا فِي التَّعامُلِ مَعَهَا، وَهَذِهِ طبيعَةُ الدَّعوَةِ؛ لأنّها تُواجِهُ الظُّلْمَ وَالطُّغيَانَ وَتنصُرُ الحَقَّ وَتَكشِفُ مَساوِئَ الأنظِمَةِ المُستبِدَّةِ الظَّالِمَةِ، وَتَقِفُ حَاجِزًا مَنِيعًا فِي وَجْهِ مَطامِعِهَا.

لِذَلِكَ أَدْرَكَ الإِمَامُ البنَّا أَنَّ هَذِهِ الدَّعوَةَ ستُعاديهَا الحُكُومَاتُ، وَسَيَحْقِدُ عَليهَا الرؤَسَاءُ وَالزُّعمَاءُ وَذُوُو الجَاهِ وَالسُّلْطَانِ، وَهَذَا لِطَبيعَةِ الدَّعْوَةِ، فَهِيَ تَتعَارَضُ مَعَ مَصالِحِهِمُ الدُّنيويّةِ، وَلِذَلِكَ نَصَحَ الإِمَامُ البنَّا إخوَانَهُ بأَنْ يَعتَمِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، فَقَالَ: «أَلَا فليَعْلَمْ هَؤلاءِ، وَلْيَعْلَمْ غَيرُهُم أَنَّ الإِخوَانَ المُسلِمِينَ لَا يَبخَلُونَ عَلَىٰ دَعوَتِهِمْ يَومًا مِنَ الأيّام بِقُوتِ أَولَادِهِمْ وَعُصَارَةِ دِمَائِهِم، وَثَمَنِ ضَرورِيّاتِهِمْ، فَضْلًا عَنْ كَمالِيّاتِهِم وَالفَائِضِ مِنْ نَفقَاتِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَومَ أَنْ حَمَلُوا هَذَا العِبْءَ عَرفُوا جَيدًا أَنَّها دَعْوَةٌ لَا تَرضَىٰ بِأَقَلَّ مِنَ الدَّمِ وَالمَالِ، فَخرَجُوا عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ للهِ وَفَقِهُوا مَعنَىٰ قَولِهِ تَعالَىٰ: ﴿**إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ**﴾ [التوبة:111]، فَقَبِلُوا البَيْعَ وَقَدَّمُوا البِضَاعَةَ عَنْ رِضًا وَطِيبِ نَفْسٍ، مُعتقِدِينَ أنَّ الفَضْلَ كُلَّهُ للهِ، فَاستَغْنَوْا بِمَا فِي أَيدِيهِمْ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَمَنحَهُمُ اللهُ البرَكَةَ فِي القَلِيلِ فَأَنتَجَ الكَثِيرَ»[148]. وَلَأَنّنا سَوْفَ نَعتَمِدُ عَلَىٰ أنفُسِنَا فَيجِبُ أَنْ تَكُونَ تربيَتُنَا عَلَىٰ هَذَا المُستوَىٰ النفْسِيِّ الصَّالِحِ الّذِي يُميِّزُ مَبادِئَنَا فِي نفُوسِنَا.

هَذَا، وَقَدْ كَانَ الأُسْتَاذُ الْهُضَيْبِيُّ أَوَّلَ قَاضٍ يَتَوَلَّىٰ قِيَادَةَ حَرَكَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ سِيَاسِيَّةٍ فِي الشَّرْقِ الأَوْسَطِ، كَمَا يَقُولُونَ. وَقَدْ تَوَلَّىٰ مَنْصِبَ الإِرْشَادِ الْعَامِّ سَنَةَ 1951م، بَعْدَ أَعْوَامٍ قَلِيلَةٍ مِنِ اغْتِيَالِ الْمُسْتَشَارِ أَحْمَدِ الْخَازِنْدَارِ، وَكَانَ هُوَ أَيْضًا قَاضِيًا مُسْتَشَارًا. وَلِذَلِكَ كَانَ تَوَلِّيهِ الْإِرْشَادَ مُفَاجَأَةً لِلزُّعَمَاءِ وَالسِّيَاسِيِّينَ وَكِبَارِ رِجَالِ الدَّوْلَةِ، بَلْ وَلِرِجَالِ الْقَضَاءِ أَيْضًا؛ إِذْ كَانَ وَكِيلَ مَحْكَمَةِ النَّقْضِ، وَهِيَ أَعْلَىٰ سُلْطَةٍ قَضَائِيَّةٍ فِي مِصْرَ، ثُمَّ تَوَلَّىٰ قِيَادَةَ جَمَاعَةٍ كَانَتْ مُتَّهَمَةً بِالْمَسْؤُولِيَّةِ عَنِ اغْتِيَالِ النُّقْرَاشِيِّ وَالْخَازِنْدَارِ؛ سنة1948م. وَهَذَا يَدلُّ عَلَىٰ التربِيَةِ الّتِي أَنتَجَتْ فِقْهًا، فَهُوَ يَعرِفُ الفِكرَةَ، وَيَعرِفُ أنّه مِنَ المُمكِنِ أَنْ تَحدُثَ بَعضُ الأخطاءِ مِنْ أَفرادٍ يَنتمُونَ إِلَيهَا، وَلَكِنَّهَا قَدْ تَحْدُثُ – كَمَا ذَكَرَ الإِمَامُ

(148) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة المؤتمر الخامس] ص 351.

البنَّا – بِحُمْقِ غَيرِنَا، صُورةٌ مِنَ الاستفْزازِ أَدَّتْ إِلَىٰ فِعْلٍ مُتهَوِّرٍ. لَا يُنكَرُ هَذَا، لكنَّ الأخطَاءَ فِي طَرِيقِ الدَّعْوةِ لَا تُسوِّغُ تَدمِيرَهَا.

وَكَانَ بَعضُ الإِخْوَانِ يَرفضُونَ تَولِّيَ الأستَاذِ الهُضَيبِيِّ مَسؤُولِيّةَ الجَماعَةِ، لأنّهُ لَمْ يَكُنْ مَعرُوفًا، وَتَهوَّرَ عَلَيهِ بَعضُ الشبَابِ مِنَ الإِخوَانِ وَأَرَادُوا مِنهُ أَنْ يَكتُبَ استِقَالتَهُ وَهَدَّدُوهُ بِأَنْ يُسِيئُوا إِلَيْهِ إِنْ لَمْ يَستَقِلْ، وَظَلَّ الرجُلُ صَامِدًا وَأَنكَرَ عَلَيهِمْ مَا فَعلُوا، وَرَفَضَ أَنْ يَكتُبَ استقالتَهُ، لأنّه مُختَارٌ وَمُنتخَبٌ مِنْ إِخوَانِهِ، وَلا اختِيارَ لَه فِي ذَلِكَ.

فَالفِقْهُ الّذِي كَانَ لَدَىٰ الأستَاذِ الهُضيبِيِّ وَقتذَاكَ أَنَّه كانَ يَرَىٰ الجَماعةَ –مِنْ حَيْثُ الفِكْرَةِ – فَكِرَةً سَلِيمَةً مُبرّأَةً، وَيَراهَا – مِنْ حَيثُ الحَركَةِ – أَنْجَحَ حَركةٍ فِي الإِعدَادِ وَالتربيَةِ مُنذُ أَربعَةِ قُرونٍ خَلَتْ، وَأَنّ الأخطاءَ فِي طَرِيقِهَا لَا تُسوِّغُ تَدميرَهَا، وَلَا سِيَّما أَنْ يَكُونَ الخَطأُ مِنَ المُتعَامِلِينَ مَعَهَا. ويقول الأستاذُ سيدُ قُطْب: إِنَّ الخَطَأَ ليسَ مَعرَّةً، وَإِنَّ اكتِشَافَه لَيْسَ ضَررًا، مَا دُمنَا قَادِرِينَ عَلَىٰ تَصحيحِهِ وتصويبِهِ فِي مَرحلَةٍ قَادمَةٍ، وقَالَ فِي بَعضِ كَلمَاتِه قَبلَ إِعْدَامِهِ وَاستشهادِهِ: إِنَّنا فِي هَذِهِ المِحْنَةِ لَمْ نَكُنْ عَلَىٰ المُستوَىٰ اللائقِ وَلَا التَّضحيَةِ المَرجُوَّةِ، نَقولُ ذَلِكَ لِنَتدارَكَ الأَجيَالُ القَادمَةُ هَذِهِ النقائصَ، ثُمَّ يَقولُ عَنْ هَذِهِ المِحْنَةِ: حَسْبُنا أَنّنا لَم نَكُنْ سَببًا فِيهَا[149].

وَالأَصْلُ فِي دَعْوتِنَا: أَلَّا نَخْطُوَ خطوةً بِغَيرِ هَدَفٍ، وَأَنْ نَعلَمَ أَنَّ أَقدَارَ اللهِ أَرْشَدُ مِنْ تَقديرِنَا لأنفُسِنَا، وَنَحنُ بَعدَ ذَلِكَ كَمَا قَالَ الإِمَامُ البنَّا: «إِمَّا مُخطِئُونَ فَلَنَا أَجْرُ العَاملينَ المُجتَهِدِينَ، وَإِمَّا مُصِيبُونَ فَلنَا مَعَ ذَلِكَ ضِعْفُ الفَائِزِينَ المُصِيبِينَ»[150]، لأنَّ النشَاطَ الّذِي يُؤجَرُ عَلَيهِ الإِنسَانُ فِي الإِسْلَامِ فِي حَالَتَيْ الصَّوابِ وَالخَطأِ هُوَ النشَاطُ العَقْلِي، وَهِيَ دَعوةٌ إِلَىٰ الأخذِ بِالهِمَّةِ وَالعَزِيمَةِ. وَقَبلَ العَملِ يَكونُ التفْكِيرُ الطَّوِيلُ (فَكِّرُوا طَوِيلًا قَبلَ أَنْ تَعمَلُوا كَثِيرًا)، وَإِنَّكُم تَبتَغُونَ بِعَملِكُمْ وَجْهَ اللهِ، وَتَحصِيلَ مَثوبَتِهِ وَرِضْوَانِهِ، وَذَلِكَ مَكفُولٌ لَكُمْ مَا دُمتُمْ مُخلِصِينَ[151].

(149) **لماذا أعدموني**. وهي عبارة عن محاضر التحقيقات التي أجريت معه، ونشرت بعد ذلك.
(150) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة المؤتمر الخامس] ص 343.
(151) السابق.

وَرُبَّمَا تَصَوَّرَ بَعضُنَا أَنَّنا بِهَذِهِ الكَلِمَاتِ نُسَوِّغُ الأَخطَاءَ أَوْ نُهَوِّنُهَا، وَالإِمَامُ البَنَّا لَمْ يَقصِدْ ذَلِكَ قَطْعًا، فَخَطأُ المُجتَهِدِ لَه شُروطُه، وَقَدْ قَالَ الإمامُ البَنّا نَفسُه: «ولَكِنَّ الإِخوَانَ المُسلِمينَ أَعْمقُ فِكرًا وَأَبعدُ نَظرًا مِنْ أَنْ تَستَهْوِيَهُم سَطحيةُ الأَعْمَالِ وَالفِكَرِ، فَلا يغوصُوا فِي أَعْماقِهَا وَلَا يَزِنُوا نَتائِجَهَا وَمَا يُقْصَدُ مِنهَا وَمَا يُرادُ بِهَا»[152].

وَيَنبغِي أَلَّا يُفهَمَ مِن كَلامِ الإِمَامِ البَنَّا أَنَّهُ يَمدَحُ الإِخوَانَ بِعُمقِ الفِكْرِ وَبُعْدِ النظَرِ، وَلكنَّهُ يَنصَحُهُمْ أَنْ يَكونُوا كَذلِكَ، حَتَّىٰ يُدرِكُوا عَواقِبَ الأُمُورِ وَمَآلاتِهَا، فَتكُونَ خُطوَاتُهُم مَحسُوبةً مَبنيةً عَلَىٰ الشُّورَىٰ، وَالأَخْذِ بِكُلِّ الأَسبَابِ التِي مِنْ شَأنِهَا أَنْ تُحقِّقَ الفَائِدَةَ المَرْجُوَّةَ مِنْ كُلِّ خُطوةٍ أَوْ قَرارٍ، وَالنتَائجُ بَعدَ ذَلِكَ مَوكُولَةٌ إِلَىٰ اللهِ تَعالَىٰ.

وَعِندَمَا قَالَ الإِمَامُ البَنَّا: «أَيهَا الإِخْوَانُ المُسلِمونَ: إِنَّكم تَبتغُونَ وَجهَ الله وتَحصيلَ مَثوبتِهِ وَرِضوَانِه، وَذلِكَ مَكفُولٌ لَكُم مَا دُمتُم مُخلِصِينَ. وَلَم يُكلِّفْكُم اللهُ نتائِجَ الأعمالِ ولكنْ كَلفَكُم صِدْقَ التَوَجُّهِ وَحُسْنَ الاستِعدَادِ، ونَحنُ بَعدَ ذَلِكَ إِمَّا مُخطئونَ فلنَا أَجْرُ العَامليِنَ المُجتهدِينَ، وَإِمَّا مُصيبُونَ فَلنَا ضِعْفُ الفائِزِينَ المُصِيبِينَ»[153]؛ فَإِنّه أَرادَ أَنْ يَلفِتَ الانتِبَاهَ إِلَىٰ هَذَا الأمرِ المُهِمِّ فِي مَشرُوعِ قِيَامِ الدوْلَةِ. لأَنَّ البَعْضَ يَتصَوَّرُ استِسْهَالَ عَمليةِ الخَطأِ، فَيَرَاهُ أَمْرًا عَادِيًّا، وَيظنُّ أَنَّنا غَيرُ مُكلَّفِينَ بِنَتائِجِ الأَعمالِ، أَوْ أَنّنا مُطَالَبُونَ بِالنيَّةِ فَحَسْبُ.

وَالفَهْمُ الحَقِيقِيُّ لِهذِهِ الكَلمَاتِ الّتِي ذَكرَهَا الإمامُ أننَا يَجِبُ أَلَّا نَخْطُوَ خُطوةً دُونَ غَايَةٍ أَو هَدفٍ، فالارتِجَاليةُ وَالعشْوائيةُ تُؤَدِّي إِلَىٰ الضَّياعِ وَالهَلكَةِ. وقَدْ أُثِرَ عَنهُ أنهُ قَالَ: لَن نُضحِّيَ بغيرِ رِبحٍ، وَلَن أُجْرِّحَ بِدونِ إِصْلاحٍ، ولَن أَخْطُوَ بغَيرِ غَايةٍ، ولَن أَسْعَىٰ بغَيرِ هَدفٍ، غَايتِي المَصلحَةُ وكَفَىٰ.

وَقَالَ المُفسِّرُونَ فِي قَولِهِ تَعالَىٰ:﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: 56]؛ مَا مَعنَاهُ: أَنَّ كَثيرًا مِنَ الدعَاةِ يَسلكُونُ بَدعوَاتِهِمْ إِلَىٰ غَاياتٍ وَمقاصِدَ، فَإِذَا بِهِمْ يَصلُونَ بِدَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ غَيرِ مَا قَصَدُوا وَمَا

(152) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة المؤتمر الخامس]، ص 353.
(153) السابق.

أَرَادُوا، وَيَمضِي الزمَنُ وتَنطَوِي الغَايَاتُ وَالمقَاصِدُ، فَإِذَا بِالدعْوَةِ كَانَتْ أَهْدَىٰ طَرِيقًا مِنْ أَصحَابِهَا، تَصِلُ إِلَىٰ غايَاتٍ أُخرَىٰ وَمَقاصِدَ أُخرَىٰ.

وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنْ سِيرَةِ النبيِّ ﷺ، حَيثُ أرادَ لأهلِ مَكةَ أَنْ يُسْلِمُوا فَلَمْ يُسْلِمُوا، وَتَأَبَّوْا عَلَيهِ فَخرجَ إِلَىٰ المَدِينَةِ، وَلَولَا هَذَا الخُروجُ، لَرُفِعَتِ الهِجرَةُ مِنْ تاريخِ الإِسلامِ، وَمَا فِيهَا مِنْ دُروسٍ وَعِبَرٍ، فَالإِسْلامُ مُمتَدٌّ مُنذُ آلافِ السِّنينَ، وَدَرسُ الهِجرَةِ أَنهُ إِدرَاكٌ لِلخطَأِ وَالفسَادِ، وَمَعرفةٌ بِالوسَائِلِ، وَإِحدَاثٌ لِتَغييرٍ سريعٍ، وَالانتِقَالُ مِنْ بِيئَةٍ عَقيمَةٍ إِلَىٰ بِيئَةٍ خِصْبَةٍ.

تَغييرُ المَواقِعِ وَسُرعَةُ الخُروجِ مِنَ الأزمَاتِ، التفْكِيرُ المُستَمِرُّ فِي مَصائِرِنَا وَمَا نَزلَ بِنَا وَبِغيرِنَا، إِنّها الهِجرَةُ وَمَالَها مِنْ آثَارٍ فِي الإِسْلامِ، فَماذَا لَو أَنَّ أَهْلَ مَكةَ أَسْلَمُوا؟ يُعلِّقُ الشيخُ الغَزالِيُّ فِي فقه السيرة عَلَىٰ ذَلِكَ فيقولُ: إِلَّا أَنَّ أقدَارَ اللهِ أَرْشَدُ مِنْ تَقديرِنَا لأنفُسِنَا.

حَدَّدْنَا الأهدَافَ وَسَعينَا فِي سَبيلِ تَحقيقِهَا بالوسائلِ، وَمَعنَىٰ (إِنَّما الأعمَالُ بالنياتِ) أَنَّ كُلَّ عَملٍ إِنَّما هُوَ حركَةٌ بِقَصْدٍ، وَالذِي لَا يتوافَرُ فيهِ هَذَا المَعنَىٰ لَيسَ عَمَلًا.

فالحركةُ لَهَا قَصْدٌ، وَمِنْ وَرائِهَا نِيّةٌ. وَأَصحابُ الدعواتِ يَقطعُونَ طَرِيقَهم إِلَىٰ غاياتٍ ومَقاصِدَ، لكنْ بَعدَ أَنْ يَقطعُوا الطُّرقَ يَجِدُونَ أنفسَهُم قَد وَصَلُوا إِلَىٰ غَاياتٍ وَمَقاصِدَ لَم يُفكِّرُوا فِيهَا وَلَمْ يُريدُوهَا، وعِندَمَا يَمضِي الزمَنُ وَتَنطوِي هَذِهِ الغاياتُ وَتِلْكَ المَقاصِدُ، تَجِدُ أَنَّ الدعْوةَ قَد صَارَتْ بِأَهْلِهَا فِي طَرِيقٍ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْ تدبيرِ أَصْحَابِهَا لها.

فَالسِّريَّةُ فِي عامِ (1965م) كَانَتْ مُطلقَةٌ، مَجاهِيلُ يَلتقِي بَعضُهُم بَعضًا، ثُمَّ يَنفَضُّونَ، وَمَعَ ذَلِكَ انكشفَتِ الحَركةُ رُغْمَ السِّريَّةِ المُطْلَقَةِ، إِنّها إِرادَةُ اللهِ وَقَدَرُهُ الأَرْشَدُ مِنْ تَقديرِنَا ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾[الكهف: 21]. وَكَانَتِ المُحاكَمَةُ، وَكَانَ الدَّوِيُّ الّذِي حَدَثَ حَولَ كِتَابَيْ: (الظِلَالِ)، وَ(مَعَالِمُ فِي الطريقِ).

وَيَحكِي الأستاذُ سَيدُ قُطب أَنّه رَأَىٰ فِي المَنام أنهُ يَفتحُ دُرْجَ المَكتَبِ فَوجَدَ نَحْلًا يُفرِزُ عَسَلًا، وَإِذَا بِالعَسَلِ يَنزِلُ مِنَ المَكتَبِ، وَخَرجَ إِلَىٰ البيتِ وَمِنَ البَيتِ إِلَىٰ الشوَارِعِ، وَكَانَ ذَلِكَ، حَيثُ انتشَرَتْ كُتُبُه وَانتشَرَ الظِّلالُ، وَلأَوَّلِ مَرّةٍ يَرتفِعُ ذِكرُ الإخوَانِ وَيَبقَىٰ مَرفُوعًا مَذكُورًا مِنْ عَامِ (1965م) حَتَّىٰ الآنِ، وَكَانَ قَبلَ هَذَا العَامِ لَا يُذكَرُ أَبدًا، إِنَّمَا كَانَ الحَديثُ عَنِ الثَّورَةِ وانتِصَارَاتِهَا وَالوحدَةِ الوَطنيّةِ وَثَورَةِ اليَمَنِ. وَانتَهَىٰ ذِكْرُ الجَماعَةِ بَعدَ مِحنَةِ (1954م) العَصِيبَةِ؛ إِذْ تَصوَّرَ الكُلُّ أَنَّ الجَماعةَ قَدْ قُضِيَ عَلَيهَا، فَإِذَا بِهَا تَخرجُ مِنْ جَديدٍ، أُناسٌ فِيهِمُ العَزمُ وَالقُوَّةُ لِيُعيدُوا لِلإِسْلامِ مَجدَهُ وَلِلجَمَاعَةِ ذِكْرَهَا، وَهَذَا العزمُ والإصرارُ هُوَ الّذِي جعلَ الناسَ تَلتفِتُ إِلَىٰ الجَماعَةِ مَرّةً أُخْرَىٰ، وَتَشعُرُ بِأنّها فِكرَةٌ لَن تَمُوتَ، وَأَنّها الدَّعوةُ التِي يَنتظِرُهَا العَالَمُ كَما قَالَ الإِمَامُ البنَّا: «**إِنَّ الزمَانَ سَيتمخَّضُ عَن كَثيرٍ مِنَ الحَوادِثِ الجِسَامِ، وَإِنَّ الفُرصَ سَتَسنَحُ لِلأَعْمَالِ العَظِيمَةِ، وَإِنَّ العَالَمَ يَنظُرُ دَعْوَتَكُمْ دَعْوَةَ الهِدايَةِ وَالفَوْزِ وَالسَّلامِ لِتُخَلِّصَهُ مِمَّا هُوَ فِيهِ مِنْ آلامٍ، وَإِنَّ الدَّوْرَ عَليكُمْ فِي قِيَادَةِ الأُمَمِ وَسِيَادَةِ الشُّعُوبِ، وَتِلْكَ الأيّامُ نُداوِلُهَا بَينَ النَّاسِ، وَتَرجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرجُونَ، فَاستَعِدُّوا وَاعمَلُوا اليَوْمَ، فَقَدْ تَعجِزُونَ عَنِ العَمَلِ غَدًا. لَقَدْ خَاطَبْتُ المُتحمِّسِينَ مِنْكُمْ أَنْ يَتريّثُوا وَيَنتَظِرُوا دَوْرَةَ الزمَانِ، وَإِنِّي لأُخاطِبُ المُتقاعِدِينَ أَنْ يَنهضُوا وَيَعمَلُوا، فَلَيسَ مَعَ الجِهَادِ رَاحَةٌ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:69]، وَإِلَىٰ الأَمامِ دَائِمًا... وَاللهُ أَكْبَرُ وَلِلهِ الحَمْدُ**»[154]، وَهَكذَا انتَشَرَتِ الدَّعْوَةُ، وَإِذَا بِأقدَارِ اللهِ أَرْشَدُ مِنْ كُلِّ تَقديرٍ.

## سابِعًا: الوَاجِبُ أَوّلًا

فِي تَصْديرِ كِتابِهِ (هُروبِي إِلَىٰ الحُريّةِ): «مَا يُطالِعُه القَارِئُ (وَرُبمَّا سَيقْرأُهُ) هُوَ هُروبِي إِلَىٰ الحُريةِ. وَللأسَفِ، بِالطبعِ، لَمْ يَكُنْ هُروبًا حَقِيقيًّا، وَلَكِنْ كُنْتُ أَتمَنَّىٰ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ. كَانَ هَذَا هُوَ الهُروبَ الوَحِيدَ المُتاحَ مِنْ سِجْنٍ فُوتْشَا بِجُدرانِهِ العَالِيَةِ وَقُضبَانِهِ الحَديدية، **هُرُوبُ الرُّوحِ وَالفِكْرِ. وَلَو كَانَ بِإمكَانِي أَنْ أَهرِبَ، لاختَرْتُ**

(154) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة المؤتمر الخامس] ص 376.

**الهُـروبَ الحَقِيقِـيَّ، الهُـروبَ الجَسَـدِيَّ»**[155].

ويقـولُ فِـي مُذكِّرَاتِـهِ: إنّنِـي كُنـتُ أَنتظِـرُ حُكْـمَ القضَـاءِ وَأَنَـا فِـي الزنزَانَـةِ، وَقَـدْ مَـرَّ عَلـيَّ خَمسُ سَـنوَاتٍ. وَكُنْـتُ أَسـأَلُ نَفسِـي (مَـا الّـذِي يَدفَعُنِي إِلَـىٰ تَحمُّـلِ كُلِّ هَـذَا؟) فَلَـوْ خَرجْـتُ وَقُمْـتُ عَلَـىٰ تَربيَـةِ أَوْلَادِي، أو خَرجْـتُ وَمارَسْـتُ عَملِـي فِـي مَكتَبِـي (مَكتَـبِ المُحامَـاةِ) أَوْ خرجـتُ ودَعـوتُ إِلَـىٰ اللهِ حَسْـبَ مَـا تَيسَّـرَ لِـي ذَلِـكَ، أَو اشـتغلْتُ بِتأْلِيـفِ الكُتـبِ. وَكَثِيـرًا مَـا كانَ يَفعَـلُ ذَلِـكَ. إِذَنْ فَمَـا الّـذِي يَدفعُـه إِلَـىٰ أنْ يَجلِـسَ بَيـنَ أَربعَـةِ جُـدرانٍ، وَقَـد مَضَـىٰ عَلَيـهِ خمسُ سَـنواتٍ وَينتَظِـرُ تِسْـعَ سَـنوَاتٍ أُخَـرَ. يقـولُ كَثِيـرًا مَـا كنـتُ أَسـأَلُ نَفسِـي: مَـا الّـذِي يَدفَعُنِي إِلَـىٰ تَحمُّـلِ كُلِّ هَـذَا؟ وكَانَ الجَـوابُ أَنّـه شَـيءٌ وَاحِدٌ ولكنّـه يَكفِـي: **إِنّـه يَجِـبُ عَلَـيَّ ذَلِـكَ**، فَالواجِـبُ أَوَّلًا.

والإمَـامُ البنَّـا يقـولُ: «العَامِـلُ يَعمَـلُ لأداءِ الواجبِ أولًا، ثُـم للأجْـرِ الأُخْـروِيِّ ثَانيًـا، ثُـمَّ للإفَـادَةِ ثَالثًـا، وَهُـو إِنْ عَمِـلَ فَقَـدْ أَدَّىٰ الواجِـبَ»[156].

وَكَثِيـرٌ مِـنَ النَّـاسِ التَبـسَ عَلَيـهِ ذَلِـكَ؛ فَـإِذَا قُلنَـا إِنَّ الأمـةَ وَهِـيَ تتربَّـىٰ بَعيـدًا عَـن حَقائـقِ هَـذَا الدِّيـنِ يَلتبِـسُ عَلَيهَـا مَفاهِيمُـهُ الصَّحِيحَـةُ. أَصَابَهَـا الذهُـولُ الّـذِي يَنبغِـي أَنْ يَتلقَّـاهُ الدَّاعيَـةُ بِالحِلْـمِ وَالأنَـاةِ وَسَـعةِ الصَّـدْرِ. إِنّه ذُهُـولُ التَّابِـعِ. ذُهُـولُ الأمَّـةِ وَهِـيَ تَواجَـهُ بِحَقَائـقِ دِينهـا، لَكنَّهـا مُتعَجِّبَـةٌ لأنّهـا تربَّـتْ عَلَـىٰ غَيـرِ ذَلِـكَ قُرونًـا طَويلَـةً. وَلِهَـذَا جعـلَ الإمَـامُ البنَّـا «مِـنْ غَايَـاتِ الإِخـوَانَ وَمُهِمَّتِهِـم مُقارَعَـةَ جُيـوشِ الجَهالَـةِ وَالأُميَّـة وَالمـرَضِ وَالفَقْـرِ وَالأحقَـادِ وَالأضْغَـانِ وَخِفَّـةِ الأَحـلام وَتَقطِيـعِ الأَرْحَـام، وتَنْظِيـفَ رَوَاسِـبَ قُـرونٍ عِـدَّةٍ سَـرَىٰ الفَسَـادُ فِيهَـا إِلَـىٰ كُلِّ مَـكانٍ»[157].

«إِنَّ مُهِمَّـةَ الإِخـوانِ هِـيَ إِيقَـاظُ الأُمّـةِ، وَإِفهَامُهَـا، وَإِقنَاعُهَـا وإِيقَـاظُ شُـعورِهَا مِـنْ كُلِّ نَواحِيـهِ عَلَـىٰ قَواعـدِ الإسـلامِ وَتَعاليـمِ الإِسْـلامِ وَمَبـادِئِ الإِسْـلامِ، وَهَـذِهِ غَايَـةٌ لَا تُـدرَكُ فِي

(155) علي عزت بيجوفيتش: **هروبي إلىٰ الحرية**، ط 2، مدارات للأبحاث للنشر، 1437هـ – 2016م، ص 23.
(156) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة إلىٰ أي شيء ندعو الناس]، ص 73.
(157) حسن البنا: **مذكرات الدعوة والداعية**، ص 293.

أَيَّامٍ، وَلَا تُنالُ بِأعوَامٍ قَليلَةٍ، وَلَكنَّه الجِهَادُ الدَّائِبُ، وَالعَملُ المُتواصِلُ[158].

وَلَا رَيبَ أَنَّ هَذِهِ المُهمّة سَتقِفُ أمَامَها عَقباتٌ دَلَّنا عَليهَا الإمَامُ البنَّا كَذَلِكَ، وَأَوّلُ هَذهِ العَقبَاتِ: إنكَارُ عُلماءِ الدِّينِ الرّسميّينَ فَهمَنا الصَّحيحَ لِلإسْلام، وَالعقبَةُ الثانِيَةُ: جَهْلُ الشَّعبِ بِحقيقَةِ الإسْلام، وَمَعْنىٰ ذَلِكَ أنَّ مُهمَّتَنا شَاقَّةٌ تَحتَاجُ إِلَىٰ جُهْدٍ مُضنٍ وَعَملٍ مُتواصِلٍ دَؤُوبٍ، وَهِيَ مَحفُوفَةٌ بِالمَخاطِرِ وَالتَّضحِيّاتِ؛ وَلَا يَنهَضُ بِهَا إِلَّا مَنْ كَانَ يَرجُو لِقَاءَ رَبِّهِ وَالدَّارَ الآخِرَةَ.

فالأستاذُ سَيّد قُطْب، كَانَ بِاستطاعتِهِ أَنْ يَكسبَ مِنْ وَراءِ قَلمِهِ - وَهُوَ كَاتِبٌ عظيم ومُفكِّرٌ، وَشَاعِرٌ وَنَاقِدٌ مَوهُوبٌ - آلافَ الجُنيهَاتِ. وَقَدْ عُرِضَتْ عَلَيهِ أَعْظَمُ الوَظائفِ الثقَافيةِ، بَلْ عُرِضَ عليهِ أَنْ يكونَ مُستشارًا لرئيسِ إحدَىٰ الدولِ رَفَضَ ذِلكَ كُلَّه، وَكَانَ يُمكِنُه أَنْ يَكتُبَ كَلمةً وَاحِدةً تُرضِي الطغاةَ، وَيَخرُجَ من السّجنِ فَورًا، ولَكنَّه كَانَ يَرفضُ تَمامًا. فَمَا الّذِي كانَ يَدعُوهُ إِلَىٰ ذَلِكَ؟ إِنّه الشُّعُورُ بِالوَاجِبِ (إنَّه يجبُ عليَّ ذلك).

وَيَذكرُ الأستاذُ سَيدُ قُطْب فِي أثنَاءِ التَّحقيقاتِ الّتِي جَرتْ قَبلَ إعدَامِهِ، عِندَما كَانَ يَسألُه المُحقِّقُونَ عَنِ السَّببِ فِي قِيامِهِ بِتوَلِّي قِيادةَ التنْظيم، فَيَقُولُ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَقدْ كُنتُ وَأَنا أدرسُ فِي أَمريكَا عَامَ (1949م)، وَهوَ العامُ الذِي اغْتِيلَ فِيهِ الإمامُ البنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ. يَقُولُ الأُسْتَاذُ سَيِّدٌ: عِنْدَمَا كُنْتُ هُنَاكَ قَرَأْتُ كِتَابَ «الِاتِّجَاهَاتِ الدِّينِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ فِي مِصْرَ الْحَدِيثَةِ» لِلْمُؤَرِّخِ الْبِرِيطَانِيِّ جِيمْسِ هَيْوُورْث-دَنِّ (Dunne-Heyworth James) وَقَدْ تَحَدَّثَ الْمُؤَلِّفُ عَنِ الْحَرَكَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي مِصْرَ، وَرَأَىٰ أَنَّ خُطُورَتَهَا لَا تَقْتَصِرُ عَلَىٰ تَهْدِيدِ مَصَالِحِ الْغَرْبِ، بَلْ تَمْتَدُّ إِلَىٰ تَحَدِّي ثَقَافَتِهِ وَقِيَمِهِ وَحَضَارَتِهِ.

وكَذلِكَ قَرأَ - فيما بعد - تَقْرِيرَ جُونْسْتُونَ عَنْ نَهْرِ الأُرْدُنِّ، وَيَذْكُرُ أَنَّهُ وَجَدَ فِيهِ إِشَارَاتٍ إِلَىٰ ضَرُورَةِ إِجْهَاضِ الْحَرَكَاتِ الإِصْلَاحِيَّةِ فِي الشَّرْقِ بسياط وطنية. كَمَا حدثَ فِيمَا بَعدُ بِقيَامِ الانقلابَاتِ العَسكَرِيّةِ فِي مَنطِقَةِ الشَّرقِ الإِسْلامِيِّ.

(158) انظر السابق: الصفحة نفسها.

وَحِينَما عادَ الأستاذُ سَيِّدُ رَحِمَهُ اللهُ، إِلَىٰ مِصْرَ، وَجَدَ بِدايةَ الخِلافِ بَينَ حَركةِ الإخوَانِ وَرِجَالِ الثَّورَةِ، ثُمَّ كَانَ اعتِقَالُهُ فِي سنة 1954م وَسَجْنُه لِمُدَّةِ عَشرِ سَنواتٍ.

يَقولُ الأستاذُ سيدُ: وَكنتُ أَسمَعُ وَأنَا فِي السِّجنِ بِالتحوُّلِ الكَبيرِ الّذِي حدَثَ فِي وَاقعِ المُجتمَعِ المِصْرِيِّ. وَعِندَمَا خَرجْتُ عَامَ 1964م رَأَيْتُ أَنَّ كُلَّ مَا سَمِعْتُ وَأَنَا دَاخِلَ السِّجْنِ إِنَّما هُوَ دُونَ الحَقِيقَةِ بِكَثيرٍ، لَقَدْ تَحوَّلَ المُجتمعُ إِلَىٰ مُستنقَعٍ كَبيرٍ، وكأنَّ (الجَماعَةَ) كَانَتْ سَدًّا انْهارَ وَانطلَقَ بَعدَهُ التَّيّارُ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ دَعَانِي وَاجِبِي – يَقولُ لِلمُحقِّقِينَ سَنةَ 1965– بِمَفهُومِي الإسْلامِيِّ فِيمَا بَينِي وَبينَ رَبِّي أَنْ أَتوَلَّىٰ قِيادَةَ هَذِهِ الحَركَةِ لِتَقِفَ فِي وَجْهِ التَّيّارِ حَتَّىٰ يَعُودَ وَبِسُرْعَةٍ ذَلِكَ النمُوذجُ وَالمَثَلُ الأَعْلَىٰ الفَذُّ، وَيَعُودَ كَذلِكَ تَطبيقُهُ الحَسَنُ والجَيِّدُ[159].

فليسْرعْ المُنقذون بالأعْمالِ؛ «لأنَّ التأخُّرُ فِي أَيّةِ نَاحِيَةٍ مِنَ النوَاحِي ضَارٌّ بِفكرَتِنَا مُخالِفٌ لِتعَاليمِ دِينِنَا..»[160]. كمَا يَقُولُ الإِمَامُ البنَّا.

ثُمَّ يُكمِلُ الأستاذُ سَيّدُ كَلامَه فَيقُولُ: وَكُنتُ أَعلَمُ أنَّ هَذَا العمَلَ الّذِي أَقُومُ بِهِ لَا تَرضَىٰ عَنهُ الأنظمَةُ وَلا الحَكومَاتُ وَهَذَا أَمرٌ لَا يُهمُّنِي فَإِنَّ الأنظِمَةَ وَالحُكومَاتِ تُخطِئُ وَتُصِيبُ. وَكنتُ أَعلَمُ أنَّ هَذَا العمَلَ هُوَ فِي قَوانِينِهِم جَريمةٌ تَستَحِقُ الإعدام. وَلَستُ أُبالِي فَقد آنَ الأوَانُ لِأن يقَدِّمَ رَجُلٌ رَأسَهُ فِدَاءً مِن أَجْلِ القِيَامِ بِحركَةٍ إِسلاميةٍ تَكونُ قَاعدَةً لِبنَاءِ نِظَامٍ إِسْلامِيٍّ جَديدٍ. ثُمَّ يَقُولُ: إِنَّمَا هِيَ كَلِمَةٌ أَقُولُهَا فِي النهَايةِ أَستَقبِلُ بِهَا وَجْهَ رَبِّي، وَأُبَلِّغُ بِهَا دَعوَتِي، وَأُخَلِّصُ بِها ضَميرِي: إِنَّ هَذِهِ الحَركَةَ يَعنِي (الإِخْوَانَ المُسلِمِينَ)، هِيَ أَنجَحُ حَركةٍ فِي التّربيَةِ وَالإعدَادِ مُنذُ أَربعَةِ قُرونٍ خَلَتْ، وَإِنَّ الأَخطَاءَ فِي طَرِيقِهَا لَا تُسَوِّغُ تَدمِيرَهَا، وَبِخَاصَّةٍ إِذَا كَانَ الخطَأُ نَاشِئًا عَنِ الخَطأِ فِي التَّعَامُلِ مَعَهَا[161].

(159) في وثيقة: **لماذا أعدموني؟** وهي عبارة عن محاضر التحقيقات التي أجريت معه، ونشرت بعد ذلك.

(160) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة إلىٰ الشباب عامة وإلىٰ الطلبة خاصة] ص 426.

(161) لماذا أعدموني.

لَقَدْ كَانَ فَوْتُ المَوْتِ سَهْلًا فَرَدَّهُ
إِلَيْهِ الْحِفَاظُ المُرُّ وَالخُلُقُ الْوَعْرُ[162]

فَالوَاجِبُ أَوّلًا... وَالذِي يُرِيدُ الأجْرَ يُمكِنُ أَنْ يَبتَغِيَهُ فِي أَيِّ شَيْءٍ؛ بِنَاءِ مَسجِدٍ، أَدَاءِ عُمرَةٍ، صُلْحٍ بَينَ اثْنينِ، صَدقَةٍ، قِيَامِ لَيلٍ، لَكِنْ رُغمَ كُلّ ذَلِكَ يَظَلُّ الوَاجِبُ مُهمَلًا مُضَيَّعًا لَا يَنهَضُ بِهِ أَحدٌ وَلَا يَستقِرّ عَلَىٰ حالٍ.

وَالواجِبُ فِي هَذَا الوقْتِ هُوَ العمل عَلَىٰ إقامة الدِّين حتىٰ يتمثَّل َ في أُمَّة وإعادةُ بناءِ الأمَّةِ حتىٰ يُؤدِّي الدِّينُ دَوْرَه. ولهذا « فَالإِخْوَانُ الْمُسْلِمُونَ يَعْمَلُونَ لِيَتَأَيَّدَ النِّظَامُ بِالإِمَامِ، وَلِتَحْيَا مِنْ جَدِيدٍ دَوْلَةُ الإِسْلَامِ، وَلِتَشْمَلَ بِالنَّفَاذِ هَذِهِ الأَحْكَامُ، وَلِتَقُومَ فِي النَّاسِ حُكُومَةٌ مُسْلِمَةٌ، تُؤَيِّدُهَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ، تَنْتَظِمُ حَيَاتَهَا شَرِيعَةٌ مُسْلِمَةٌ، أَمَرَ اللهُ بِهَا نَبِيَّهُ ﷺ فِي كِتَابِهِ؛ حَيْثُ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ۝﴾ [الجاثية: 18-19]»[163].

لأَنَّ الوَاجِبَ كَذلِكَ، هُوَ تَخلِيصُ المُسلِمِينَ مِنْ أَسْرِ أَهْلِ الكُفْرِ وَالعُدوَانِ. وَمَا لَا يَتِمُّ الوَاجِبُ إِلا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ، وَلِذَلِكَ يَقولُ الإمام أَبُو حَامِدٍ الغَزالِيُّ فِي إِحْيَائِهِ: « وَترْكُ الترتيبِ بَينَ الخيرَاتِ مِنْ جُملَةِ الشُّرُورِ ، بَل قَد يَتعَيَّنُ عَلَىٰ الإنسانِ فَرضَانِ: أَحدُهُمَا يَفوتُ، والآخرُ لَا يفُوتُ، أوْ فَضْلَانِ أحدُهما يَضِيقُ وقتُه، والآخَرُ يَتَّسِعُ وَقتُه، فَإِنْ لَم يَحفَظِ التَّرتِيبَ فيهِ كَانَ مَغْرُورًا»[164]. وَقَد رَوَىٰ أَبُو حَامِدٍ الغَزالِيُّ كَذلِكَ قَولَ عَبدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ: «فِي آخِرِ الزَّمَانِ يَكْثُرُ الْحَاجُّ بِلَا سَبَبٍ، يَهُونُ عَلَيْهِمُ السَّفَرُ، وَيُبْسَطُ لَهُمْ فِي الرزقِ، وَيَرْجِعُونَ مَحْرُومِينَ مَسْلُوبِينَ، يَهْوِي بِأَحَدِهِمْ بَعِيرُهُ بَيْنَ الرِّمَالِ

(162) البيت من قصيدة أبي تمام التي مطلعها:
كَذا فَليَجِلَّ الخَطبُ وَليَفدَحِ الأَمرُ فَلَيسَ لِعَينٍ لَم يَفِض ماؤُها عُذرُ

(163) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا** [رِسَالَةَ الْمُؤْتَمَرِ السَّادِسِ]. ص433.

(164) أبو حامد الغزالي: **إحياء علوم الدين**، ط 1، دار المنهاج، السعودية، 1432هـ - 2011م، 6/ 684.

وَالْقِفَارِ، وَجَارُهُ مَأْسُورٌ إِلَىٰ جَنْبِهِ لَا يُوَاسِيهِ»[165]. إِنَّهُ تَركُ تَرتِيبِ الخَيرَاتِ وَإِنَّه لَمِنْ أَعظَمِ الشُّرورِ.

وَالحَقُّ أَنَّ فِقهَ تَرتيبِ الخَيرَاتِ مُستَمَدٌّ مِنَ الهَدْيِ النَّبوِيِّ؛ حَيثُ عَلَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ صَحَابتَه فِقهَ الأَوْلَوِيَّاتِ، فَعنْ أَبِي هُرِيرةَ أَنَّه قَالَ: «مَرَّ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِشِعْبٍ فِيهِ عُيَيْنَةٌ مِنْ مَاءٍ عَذْبَةٌ فَأَعجَبَتْهُ لِطِيبِهَا، فَقَالَ: لَوِ اعتَزلْتُ النَاسَ فأَقَمْتُ فِي هذَا الشِّعْبِ، وَلَنْ أَفعَلَ حَتَّىٰ أَستَأْذِنَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: لَا تَفْعلْ فَإِنَّ مُقامَ أَحدِكُمْ فِي سَبيلِ اللهِ أَفْضَلُ مِنْ صَلاتِهِ فِي بَيتِهِ سَبْعِينَ عَامًا، أَلَا تُحبُّونَ أَنْ يَغفِرَ اللهُ لَكُمْ، وَيُدخِلَكُمُ الجَنَّةَ؟ اغْزُوا فِي سَبيلِ اللهِ، مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فُوَاقَ نَاقَةٍ وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ»[166].

وَقَالَ الذَّهَبِيُّ: «وَرَوَىٰ: عَبْدُ اللهِ بنُ مُحَمَّدٍ قَاضِي نَصِيبِيْنَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بنُ إِبْرَاهِيْمَ بنِ أَبِي سُكَيْنَةَ، قَالَ: أَمْلَىٰ عَلَيَّ ابْنُ المُبَارَكِ سَنَةَ سَبْعٍ وَسَبْعِيْنَ وَمائَةٍ، وَأَنفَذَهَا مَعِي إِلَىٰ الفُضَيْلِ بنِ عِيَاضٍ مِنْ طَرَسُوْسَ:

يَا عَابِدَ الحَرَمِيْنِ لَوْ أَبْصَرْتَنَا ... لَعَلِمْتَ أَنَّكَ فِي الْعِبَادَةِ تَلْعَبُ
مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خَدَّهُ بِدُمُوعِهِ ... فَنُحُورُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ
أَوْ كَانَ يُتْعِبُ خَيْلَهُ فِي بَاطِلٍ ... فَخُيُولُنَا يَوْمَ المَعَارِكِ تَتْعَبُ
رِيْحُ العَبِيْرِ لَكُمْ وَنَحْنُ عَبِيْرُنَا ... رَهَجُ السَّنَابِكِ وَالغُبَارُ الأَطْيَبُ
وَلَقَدْ أَتَانَا مِنْ مَقَالِ نَبِيِّنَا ... قَوْلٌ صَحِيْحٌ صَادِقٌ لاَ يُكْذَبُ:
لاَ تَسْتَوِي أَغْبَارُ خَيْلِ اللهِ فِي ... أَنْفِ امْرِئٍ وَدُخَانُ نَارٍ تَلهبُ
هَذَا كِتَابُ اللهِ يَنْطِقُ بَيْنَنَا ... لَيْسَ الشَّهِيْدُ بِمَيِّتٍ لاَ يُكْذَبُ

فَلَقِيْتُ الْفُضَيْلَ بِكِتَابِهِ فِي الحَرَم، فَقَرَأَهُ وَبَكَىٰ ثُمَّ قَالَ: صَدَقَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَنَصَح»[167].

---

(165) أبو حامد الغزالي: **إحياء علوم الدين**، 6/ 703.

(166) حديث حسن، أخرجه الترمذي (1650) واللفظ له، وأحمد (10786). **وفُوَاقَ نَاقَةٍ** (بِضَمِّ الْفَاءِ وَفَتْحِهَا): قَدْرُ مَا بَيْنَ الْحَلْبَتَيْنِ مِنَ الرَّاحِلَةِ؛ لِأَنَّهَا تُحْلَبُ، ثُمَّ تُتْرَكُ سُوَيْعَةً تُرْضِعُ الْفَصِيلَ لِتُدِرَّ، ثُمَّ تُحْلَبَ.

(167) شمس الدين الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين، ط 3، مؤسسة الرسالة، 1405هـ-1985م، 8/ 412.

إِنَّهُ الوَاجِبُ أَوَّلًا، وَمَنْ لَمْ يَقُمْ بِهِ فَقَدْ لَزِمَهُ إِثْمُ التَّقصِيرِ، وَحُرِمَ ثَوابَ اللهِ مَا فِي ذَلِكَ شَكٌّ، وَحُرِمَ الإِفادَةَ قَطعًا مِنَ النصْرِ وَالتمْكِينِ.. إلخ. وَالإِفَادَةُ أَمرُهَا إِلَىٰ اللهِ، فَقَدْ تَأتِي فُرصَةٌ لَمْ تَكُنْ فِي الحُسْبَانِ تَمْنَحُ العَمَلَ أَبرَكَ الثمَراتِ.

## ثامِنًا: نَحنُ وَالْخِلافَةُ

إِنَّ سُقوطَ الخِلافةِ الإِسلاميّةِ أَدَّىٰ إِلَىٰ الوَاقعِ البَئِيسِ الّذِي يَعيشُهُ المُسلِمُونَ وَتَعيشُهُ الأُمَّةُ كلُّها فِي ذَلِكَ الوَقْتْ وَمَا زالَتْ.

وَالخِلافَةُ كَمَا يقولُ الإِمَامُ البنَّا: «رَمزُ الوَحدةِ الإِسْلامية، وَمَظهرُ الارتبَاطِ بينَ أُمَمِ الإِسْلَام، وَأَنّها شَعيرَةٌ إِسْلاميَّةٌ يَجبُ عَلَىٰ المُسلِمينَ التفكِيرُ فِي أَمْرِهَا وَالاهتِمَام بِشَأنِهَا، وَالخَليفَة مَناطُ كَثيرٍ مِنَ الأَحْكَامِ فِي دِينِ اللهِ، وَلِهَذَا قَدَّمَ الصَّحَابةُ، رِضوَانُ اللهِ عَليهِمُ، النظَرَ فِي شَأنِهَا عَلَىٰ النظَرِ فِي تَجهيزِ النبِيِّ ﷺ وَدَفْنِهِ، حَتَّىٰ فَرغُوا مِنْ تِلْكَ المُهِمَّةِ وَاطْمَأَنُّوا إِلَىٰ إِنجَازِهَا ... وَالإِخوَانُ المُسلِمُونَ لِهذَا يَجعَلُونَ فِكرَةَ الخِلافةِ وَالعَملَ لإِعَادتِهَا فِي رَأْسِ مَناهجِهِم، وَهُمْ مَعَ هَذَا يعتقدونَ أَنَّ ذَلِكَ يَحتاجُ إِلَىٰ كَثيرٍ مِنَ التمْهِيدَاتِ الّتِي لَا بُدَّ مِنْهَا، وَأَنَّ الخُطوَةَ المُباشِرةَ لإِعَادَةِ الخِلافَةِ لَا بُدَّ أَنْ تَسبِقَهَا خُطُواتٍ» (168).

وَيَكْشِفُ هَذَا النَّصُّ عَنْ أَمْرَيْنِ مُتكَامِلَيْنِ فِي تَصَوُّرِ الإِمَامِ الْبَنَّا لِلْخِلَافَةِ: أَوَّلُهُمَا أَنَّهَا لَيْسَتْ مَسْأَلَةً شَكْلِيَّةً أَوْ تَارِيخِيَّةً، وَإِنَّمَا هِيَ رَمْزٌ لِوَحْدَةِ الأُمَّةِ، وَمَظْهَرٌ لِارْتِبَاطِ شُعُوبِهَا، وَوِعَاءٌ لِعَدَدٍ مِنَ الأَحْكَامِ وَالْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ. وَثَانِيهِمَا أَنَّ الْعَمَلَ لِإِعَادَتِهَا لَا يَقُومُ عَلَىٰ الِاسْتِعْجَالِ أَوِ الْقَفْزِ إِلَىٰ النَّتِيجَةِ النِّهَائِيَّةِ، وَإِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ تَمْهِيدَاتٍ وَخُطُوَاتٍ سَابِقَةٍ تُهَيِّئُ الأُمَّةَ لَهَا. وَمِنْ هُنَا جَاءَتِ الْخِلَافَةُ فِي الْمَرْتَبَةِ السَّادِسَةِ مِنْ مَرَاتِبِ رُكْنِ الْعَمَلِ عِنْدَ الإِمَامِ الْبَنَّا، بَعْدَ مَرَاحِلَ تَسْبِقُهَا فِي بِنَاءِ الْفَرْدِ وَالْبَيْتِ وَالْمُجْتَمَعِ وَتَحْرِيرِ الْوَطَنِ وَالْحُكُومَةِ؛ وَهُوَ مَا يَكْشِفُ عَنْ ارْتِبَاطِ فِكْرَةِ الْخِلَافَةِ عِنْدَهُ بِمَنْهَجِهِ الْعَامِّ فِي التَّغْيِيرِ، الْقَائِمِ عَلَىٰ التَّدَرُّجِ، وَالإِعْدَادِ، وَبِنَاءِ الأُمَّةِ قَبْلَ الِانْتِقَالِ إِلَىٰ الْمَرَاحِلِ الْعُلْيَا مِنَ الْمَشْرُوعِ الإِسْلَامِيِّ.

(168) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة المؤتمر الخامس]، ص 364، 366.

## تاسِعًا: البُعْدُ عَنْ مَواطِنِ الخِلافِ ضَرُورَةٌ لِتَوْحِيدِ الأُمَّةِ

مِنْ أَبْرَزِ خَصَائِصِ دَعْوَةِ الْإِخْوَانِ أَنَّهَا دَعْوَةٌ جَامِعَةٌ، تَحْرِصُ عَلَىٰ تَوْحِيدِ جُهُودِ الْمُسْلِمِينَ حَوْلَ أُصُولِ الْإِسْلَامِ وَمَقَاصِدِهِ الْكُلِّيَّةِ، وَلَا تَجْعَلُ مِنَ الْمَسَائِلِ الْفَرْعِيَّةِ وَالْخِلَافَاتِ الِاجْتِهَادِيَّةِ سَبَبًا لِلتَّفَرُّقِ وَالتَّنَازُعِ. فَالْمُهِمَّةُ الَّتِي تَنْهَضُ بِهَا الْأُمَّةُ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ تُبَدِّدَ طَاقَاتُهَا فِي خِلَافَاتٍ طَالَ فِيهَا النِّقَاشُ، وَلَمْ تَمْنَعْ أَئِمَّةَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ التَّعَاوُنِ وَالتَّرَاحُمِ. وَمِنْ هُنَا كَانَ **الْبُعْدُ عَنْ مَوَاطِنِ الْخِلَافِ** مِنْ أَبْرَزِ خَصَائِصِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ؛ حِفَاظًا عَلَىٰ وَحْدَةِ الصُّفُوفِ، وَتَوْجِيهًا لِلْجُهُودِ نَحْوَ الْوَاجِبَاتِ الْكُبْرَىٰ الَّتِي اجْتَمَعَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ.

وَلَمَّا كَانَتْ مُهِمَّةُ إِعادَةُ الخلافَةِ تَحتاجُ إلىٰ جُهْدٍ عَظِيمٍ، وَثَمنٍ باهظٍ، لَا تَستَطيعُهُ أيُّ جَماعةٍ مَهما كَانَتْ، فَإِنَّ نَظرةَ الإِمَامِ البنَّا إِلَىٰ الأمّةِ بِوصفِهَا القُوةَ الضَّاربةَ، جَعلتهُ يؤكِّد أنَّ كَلَّ مَا يُؤدِّي إِلَىٰ تَفريقِ الأُمَّةِ وَتَشتِيتِ جُهودِهَا يَجبُ تَقْيِيدُهُ، بَلْ إِلْغَاؤُهُ، **وَمِنْ أَجلِ تَوحيدِ جُهودِ الأمّةِ كَان (البُعدُ عَنْ مَواطنِ الخِلافِ) مِنْ أَهَمِّ خَصَائصِ دَعوتِنَا.**

جَعلَ الإِمَامُ البنَّا هذهِ الخَاصيّةَ **(البُعدُ عَنْ مَواطنِ الخِلافِ)، أَهَمَّ خَصائصِ دَعوةِ الإِخوَانِ؛** لأنَّ مَواطِنَ الخِلافِ هِيَ الّتِي ستُفَرِّقُ الأمّةَ. وذَلِكَ حَتَّىٰ تَستَطِيعَ الأمةُ أَنْ تَقومَ بِالواجِبِ الّذِي يُناطُ بِهَا، وَهُوَ أَدَاءُ هَذَا التكْليفِ البَاهظِ الثَّمَنِ، وَهُوَ إخراجُ المُسلِمينَ مِنْ أَسْرِ أَهلِ الكُفرِ وَالعُدوانِ.

وَمَا دَامَ الحَديثُ قَدْ تَطَرَّقَ بِنَا إِلَىٰ هَذِهِ الخَاصِّيّةِ (البُعدُ عَنْ مَواطنِ الخِلافِ)، فَقَدْ ذَكرَ الإِمَامُ البنَّا فِي مُذكرَاتِهِ قِصَّةً طَويلةً عَنْ رَجُلٍ أَحبَّ أَنْ يُورِّطَهُ فِي مَسأَلَةِ (التَّوسُّلِ)، وَهِيَ مَسألةٌ خِلافيةٌ، وَقَدْ أَحْسَنَ الإِمَامُ البنَّا التَّخلُّصَ مِنْ هَذهِ الفِتنَةِ، بَلْ وَظَّفَهَا فِي تعاهُدِ الحَاضِرينَ عَلَىٰ أَنْ تَكُونَ وَحْدَةُ الأُمّةِ هِيَ غَايتَهُم، وَأَنْ يَتجنَّبوا مَواطِنَ الخِلافِ التِي تُفرِّقُ الأمَّةُ وَتُمزِّقُهَا، وَيَحْسُنُ أَنْ نَذكُرَ رِوايةَ الإِمَامِ البنَّا نَفْسَهُ لِهذِهِ القِصَّةِ، فَإِنَّ فِيهَا خَيْرًا كَثِيرًا، يَقُولُ: «وَفِي إِحْدَىٰ اللَيَالِي، شَعرْتُ بِروحٍ غَريبةٍ: رُوحِ تَحفُّزٍ وَفُرقةٍ، وَرَأَيتُ المُستَمِعينَ قَدْ تَميّزَ بَعضُهُم مِنْ بَعضٍ، حَتَّىٰ فِي الأَمَاكنِ، وَلَمْ أَكدْ أَبدَأُ حَتَّىٰ فُوجِئْتُ بِسُؤالٍ: مَا رَأيُ الأستَاذِ فِي مَسألَةِ التَّوسُّلِ؟ فَقلْتُ لَه: يَا

أخِي، أَظُنّكَ لَا تُرِيدُ أَنْ تَسأَلَنِي عَن هَذهِ المَسأَلَةِ وَحْدَهَا، وَلكِنّكَ تُرِيدُ أَنْ تَسأَلَنِي كَذلِكَ فِي الصَّلاةِ وَالسَّلامِ بَعدَ الأذَانِ، وَفِي قِراءَةِ سُورَةِ الكَهْفِ يَومَ الجُمُعَةِ، وَفِي لَفظِ السَّيادَةِ لِلرسُولِ ﷺ فِي التَّشهُّدِ، وَفِي أَبَوَيِ النَّبيِّ ﷺ، وَأَيْنَ مَقرُّهُمَا، وَفِي قِرَاءَةِ القُرآنِ وَهَلْ يَصلُ ثَوابُهَا إِلَىٰ المَيِّتِ أَوْ لَا يَصِلُ، وَفِي هَذهِ الحَلقاتِ التِي يُقيمُهَا أهلُ الطُّرقِ، وَهَلْ هِيَ مَعصيَةٌ أَوْ قُربَةٌ إِلَىٰ اللهِ!. وَأَخذْتُ أَسرُدُ لَه مَسائِلَ الخِلافِ جَميعًا التِي كَانَتْ مَثارَ فِتنَةٍ سَابقَةٍ وَخِلافٍ شَديدٍ فِيمَا بَينَهُم، فَاستَغرَبَ الرجُلُ، وَقَالَ: نَعَم، أُرِيدُ الجَوابَ عَلَىٰ هَذا كُلِّهِ؟

فَقلْتُ لَه: يَا أَخِي أنا لَستُ بِعَالِمٍ، وَلكِنِّي رَجُلٌ مُدرِّسٌ مَدَنِيٌّ أَحْفَظُ بَعضَ الآيَاتِ، وَبَعضَ الأحَادِيثِ النَّبويّةِ الشَّرِيفَةِ وَبَعضَ الأحْكَامِ الدِّينيةِ مِنَ المُطالعَةِ فِي الكُتُبِ، وَأَتطَوَّعُ بتَدرِيسِهَا لِلنَّاسِ؛ فَإِذَا خَرَجْتُ عَنْ هَذا النِّطاقِ فَقدْ أَحرَجْتَنِي، وَمَنْ قَالَ: لَا أَدْرِي، فَقَدْ أَفْتَىٰ، فَإِذَا أَعجَبكَ مَا أَقولُ، وَرَأيتَ فِيهِ خَيرًا، فَاسْمَعْ مَشكُورًا، وَإِذَا أَردْتَ التوَسُّعَ فِي المَعرفَةِ فَسَلْ غَيرِي مِنَ العُلماءِ وَالفُضلاءِ المُختَصِّينَ، فَهُمْ يَستطِيعُونَ إِفتَاءَكَ فِيمَا تُرِيدُ، وأَمَّا أَنَا فَهذَا مَبلَغُ عِلْمِي، وَلَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسعَهَا، فَأخذَ الرجُلُ بِهَذَا القَولِ، وَلَمْ يَجِدْ جَوابًا وَأَخَذْتُ عَليهِ، بِهذَا الأسلوبِ، سَبِيلَ الاسْترسَالِ، وَارتَاحَ الحَاضِرُونَ أَوْ مُعظَمُهُمْ إِلَىٰ هَذَا التَّخَلُّصِ، وَلَكِنِّي لَمْ أُرِدْ أَنْ تَضيعَ الفُرصةُ فَالتفَتُّ إِلَيهِم وَقُلْتُ لَهُمْ: «يَا إِخوَانِي، أَنَا أَعلَمُ تَمامًا أَنَّ هَذَا الأخَ السَّائِلَ، وَأَنَّ الكَثِيرَ مِنْ حَضرَاتِكُمْ، مَا كَانَ يُرِيدُ مِنْ وَراءِ هَذَا السّؤَالِ إِلَّا أَنْ يَعرِفَ هَذَا المُدرِّسَ الجَدِيدَ مِنْ أَيِّ حِزْبٍ هُوَ؟ أَمِنْ حِزْبِ الشَّيخِ مُوسَىٰ أَوْ مِنْ حِزْبِ الشَّيخِ عَبدِ السَّمِيعِ؟! وَهَذِهِ المَعرفَةُ لَا تُفِيدُكُم شَيئًا، وَقَد قَضيتُم فِي جَوِّ الفِتنَةِ ثَمانِيَ سَنواتٍ، وَفِيهَا الكِفَايةُ. وَهَذِهِ المَسائلُ اختَلفَ فِيهَا المُسلِمُونَ مِئاتِ السِّنينَ، وَمَا زَالُوا مُختلِفِينَ، وَاللهُ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ يَرضَىٰ مِنّا بِالحُبِّ وَالوَحدَة، وَيكرَهُ مِنَّا الخِلافَ وَالفُرقَةَ، فَأرجُو أَنْ تُعاهِدُوا اللهَ أَنْ تَدعُوا هَذِهِ الأُمورَ الآنَ، وَتَجتَهِدُوا فِي أَنْ نَتعَلَّمَ أُصُولَ الدِّينِ وَقواعِدَهُ، وَنَعمَلَ بِأخلَاقِهِ وَفَضائلِهِ العَامَّةِ وَإِرشَادَاتِهِ المُجمَعِ عَلَيْهَا، وَنُؤدِّيَ الفَرائِضَ وَالسُّنَنَ وَنَدَعَ التكَلُّفَ وَالتَّعمُّقَ حَتَّىٰ تَصْفُوَ النفُوسُ، وَيَكُونَ غَرضُنَا جَميعًا مَعرِفَةَ الحَقِّ، لَا مُجرَّدَ الانتِصَارِ لِلرَّأيِ، وَحِينَئِذٍ نَتدارَسُ هَذِهِ الشؤُونَ كُلَّها مَعًا فِي ظِلِّ الحُبِّ وَالثقَةِ

وَالوَحْدَةِ وَالإِخْلاصِ، وَأَرْجُو أَنْ تَتَقَبَّلُوا مِنِّي هَذَا الرأْيَ وَيكونُ عَهدًا فِيمَا بَيْنَنَا عَلَىٰ ذَلِكَ. وَقَدْ كَانَ، وَلَمْ نَخْرُجْ مِنَ الدرْسِ إِلّا وَنحنُ مُتعاهِدُونَ علَىٰ أنْ تكونَ وِجْهتُنَا التعَاوُنَ وَخِدمةَ الإِسْلامِ الحَنيفِ، وَالعمَلَ لَهُ يَدًا وَاحِدَةً، وَطَرْحَ مَعانِي الخِلَافِ، وَاحتِفَاظَ كُلٍّ بِرأْيِهِ فِيهَا، حَتّىٰ يَقضِيَ الله أمرًا كَانَ مَفعُولًا»[169].

إِنَّ الإِمَامَ البنَّا يَلفِتُنَا بذلكَ إِلَىٰ القَضيّةِ الأَساسِيّةِ الّتِي يَنبغِي أَنْ نَنشَغِلَ بِهَا، وَهِيَ قَضيّةُ **ضَياعِ الخِلافَةِ وَسُقُوطِهَا**، وَلَيسَ يَخْفَىٰ أنّ كَثيرًا مِنْ أَحْكَامِ الدِّينِ متعلقةٌ بِوُجُودِ الخِلافَةِ، فَضْلًا عَنْ أنّها مَهْوَىٰ الأفئِدَةِ، وَواسِطَةُ العِقْدِ، وَمَجْمَعُ الشَّمل وَظِلُّ اللهِ فِي أَرضِهِ، وَمِنْ ثَمَّ فإِنَّ ضَياعَ هَذِهِ الشَّعيرَةِ يَجعَلُ المُسلِمِينَ يَضعُونَها عَلَىٰ رَأْسِ أَوْلَوِيّاتِهِمْ، وَيُفكِّرُونَ بِعَزمٍ وَقُوةٍ، كَيفَ يُعِيدُونَهَا مَرةً أُخْرَىٰ؟ مِنْ أَجْلِ هَذَا يَنبغِي أَنْ تَتضامَنَ قُوَىٰ الأمةِ، وَأَنْ تَبتَعِدَ تمَامًا عَن كُلِّ مَا يُؤدِّي إِلَىٰ تَفرُّقِهَا وَاختِلافِهَا. وَلِذلِكَ دَعَا رَحِمَهُ اللهُ إِلَىٰ البُعدِ عَنْ مَواطنِ الخِلافِ. وَكَانَتْ هَذِهِ أَوَّل خَاصِّيَةٍ فِي دَعَوةِ الإِخْوَانِ.

## عاشِرًا: لَسْنَا مُتهوِّرِينَ

إِنَّ عَملَنَا هَذَا مَحكُومٌ بِضَوابطِ الشَّرعِ؛ أَيْ أَننَا لَسْنَا مُتهوِّرِينَ، رُغْمَ الظُّروفِ العَصِيبةِ الّتِي تُواجِهُهَا الدعْوَةُ، وَرُغْمَ هَذِهِ التكتّلاتِ العَالميّةِ الّتِي تَعملُ دُونَ إِقَامةِ هَذَا النمُوذَجِ الفَذِّ مِنَ الحَياةِ الّتِي يُرِيدُ رَبُّنَا أَنْ نَحيَاهَا. وَلَنْ يَدفَعُنَا الغَضَبُ إِلَىٰ مُواجَهَةٍ مَا نُقابِلُه مِنْ مِحَنٍ وَلأوَاءٍ وَشِدَّةٍ بِمَا يَعودُ بِالنتَائجِ الوَخِيمَةِ عَلَىٰ دَعْوَتِنَا. فَنحنُ نَعمَلُ فِي ظِلِّ ضَوابطِ الشرعِ وَالمُسلِمُ مَنْ حَصرَ نَفْسَهُ فِي هَذِهِ الضوابطِ.

يَقُولُ الإِمَامُ البنَّا: «عَلَىٰ أنَّ التجَارِبَ فِي المَاضِي وَالحَاضرِ قَدْ أَثبتَتْ أَنّهُ لَا خَيرَ إِلَّا فِي طَرِيقِكُمْ، وَلَا إِنتَاجَ إِلَّا مَعَ خُطَّتِكُمْ، وَلَا صَوابَ إِلَّا فِيمَا تَعمَلُونَ، فَلا تُغامِرُوا بِجُهودِكُم وَلَا تُقَامِرُوا بِثِمَارِ نَجَاحِكُمْ. وَاعمَلُوا وَاللهُ مَعكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ، وَالفَوزُ لِلعَامليِنَ ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة:143]»[170].

(169) حسن البنا: **مذكرات الدعوة والداعية**، ص 77، وما بعدها.

(170) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة المؤتمر الخامس]، ص 343.

إنّها ضَوابطُ التَّضحيَةِ، وَمِثْلُ هَذِهِ الضوَابطِ تَعصِمُ العَملَ مِنَ الانكِسَارِ والَانحرافِ وَالبَذلِ دُونَ هَدفٍ. وَعِنْدَمَا أَقدَمَ حِزبُ مِصْرَ الفَتاةِ عَلَىٰ إِرَاقَةِ الخُمورِ فِي الشَّوارِعِ وَتكسِيرِ الحَانَاتِ، قَالَ الإِمامُ البَنَّا مُعلِّقًا: «وَنَحْنُ نَعتَقِدُ أَنَّ هَذَا التَّحدِّي لَمْ يَحِنْ وُقتُهُ بَعدُ، وَلَا بُدَّ مِنْ تَخيُّرِ الظَّرفِ المُناسِبِ، وَاستِخْدامِ مُنتَهَىٰ الحِكْمَةِ فِيهِ، وَإِنفَاذِهِ بِصُورَةٍ أَخَفَّ ضَرَرًا وَأَبلَغَ فِي الدِّلالَةِ عَلَىٰ المَقْصِدِ، مِنْ لَفْتِ نَظَرِ الحُكُومَةِ إِلَىٰ وَاجِبِهَا الإِسْلَامِيِّ»[171].

فَانظُرْ إِلَىٰ ضوابطِ الشَّرعِ وَالعمَلِ، وَأَنّها تَمنعُه أَنْ يُضحِّيَ بِمَنْ مَعَهُ، أَوْ يُهْدِرَ أَوْقَاتَهُمْ أَوْ أَعْمَارَهُمْ دُونَ طَائِلٍ.

وَقَدْ عُرِفَ عَنِ الإمامِ البَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ أنّه إِذَا رَأَىٰ مَندُوحَةً أَسرَعَ إِلَيْهَا. كَانَ يَضِنُّ بأوقاتِ الإخوَانِ وَدِمائِهِم وَأعمَالِهِم أَنْ تُنفَقَ فِي غيرِ طَائِلٍ، وَهُوَ حَرِيصٌ عَلَىٰ أَنْ يَخرُجَ بِالجمَاعةِ مِنْ أيِّ أَزمَةٍ تَعترِضُهَا أَوْ صُراعٍ يُواجِهُهَا، فَكَانَ - كَمَا يَقُولُ رُوبِير جَاكسُون - «وَاسِعَ الأُفُقِ إِلَىٰ أَبعَدِ حَدٍّ، يَفتَحُ النوَافِذَ لِلهوَاءِ الطَّلْقِ، فَلا يَكرَهُ حُريَّةَ الرَّأْيِ وَلَا يَضِيقُ بِالرَّأْيِ المُعارِضِ، وَقَدِ استَطاعَ أَنْ يَحمِلَ الرأْيَ الجَديدَ إِلَىٰ الجَماهِيرِ دُونَ أَنْ يَصطَدِمَ بِهِمْ»[172]، وَإِنَّك لَتَستَشْعِرُ حِكْمَةَ الإمامِ البَنَّا وَسَعَةَ أُفُقِه فِي تَعلِيقِهِ السَّالفِ عَلَىٰ فِعْلَةِ (مِصْر الفَتَاة)، وَبِهذِهِ الحِكْمَةِ استَطاعَ الرَّجُلُ أَنْ يَنطَلِقَ بِالجمَاعَةِ وَسْطَ الأَعاصِيرِ الهُوجِ دُونَ ارتِطَامٍ أَوْ صِرَاعٍ.

وَعِنْدَمَا تَكلَّمَ عَنْ **قِيَامِ الدِّينِ** قَالَ: «أَيّها الإخوَانُ المُسلمُونَ: لَا تيأسُوا فَلَيسَ اليأسُ مِن أخلاقِ المُسلِمِينَ، وَحقائقُ اليَوْمِ أَحلامُ الأمسِ، وَأحلامُ اليومِ حَقائقُ الغَدِ. وَلَا زَالَ فِي الوَقْتِ مُتَّسَعٌ، وَلَا زَالَتْ عَناصِرُ السَّلامةِ قَويةً عَظيمةً فِي نُفُوسِ شُعوبِكُمْ المُؤمِنَةِ رُغْمَ طُغيانِ مَظاهِرِ الفَسَادِ. وَالضَّعيفُ لَا يَظلُّ ضَعِيفًا طُولَ حَياتِهِ، وَالقَوِيُّ لَا تَدُومُ قُوتُهُ أَبدَ الآبِدِينَ: ﴿**وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾ [القصص: 5]»[173].

(171) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة المؤتمر الخامس]، ص 372.
(172) روبير جاكسون: **حسن البنا الرجل القرآني**، ص 18.
(173) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة المؤتمر الخامس]، ص 376.

فَهُناكَ ضَابطٌ يَضبِطُ عَمليَّة الجِهَادِ: **أَنَّنَا لَسنَا مُتهوِّرينَ**، وَهَذَا يَجعَلُ الصَّفَّ مُطمئنًّا إِلَىٰ أنَّ قِيادَتَه، الّتِي لها هَذَا السَّبقُ، وَهُوَ السَّبقُ الشَّرعِيُ أَوْ التَّأصِيلِيُّ. تَعرِفُ مَتَىٰ تُجاهِدُ وَمَتىٰ تتقَدَّمُ. وَهَذِهِ الضَّوَابِطَ تَجعلُ الصَّفَّ مُطمَئِنًّا.

وَآفَةُ الدِّينِ – كَمَا يقولُ الإمَامُ مُحمَّدُ عَبدُه – ثلاثٌ: وُقُوعُه فِي يَدِ مَنْ لَا يَفْهَمُهُ، أَوْ يَفهَمُهُ وَيَغْلُو فِيهِ، أَوْ مَنِ امتزَجَ حُبّ الدِّينِ بِقَلبِهِ، وَضَاقَتْ سَعَةُ عَقلِه عَنْ تَصريفِهِ كَتصريفِ الأَنبيَاءِ لَهُ.

وَلِهَذَا قَالَ الإمَامُ البَنَّا: «لَا نُقيّدَ أَنفُسَنَا بِغَيرِ مَا يُقيدُنَا اللهُ بِهِ، وَلَا نُلزِمُ عَصْرَنَا لَونَ عَصرٍ لَا يَتفِقُ مَعهُ، والإسلامُ دينُ البشَريةِ جَمِيعًا»[174].

(174) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة المؤتمر الخامس]، ص 335.

# رِسالَة «الإخوانُ تحتَ رايةِ القُرآنِ»

أُلْقِيَتْ هَـذِهِ الرِّسَـالَةُ فِـي المَرْكَـزِ العَـامِّ لِلْإِخْـوَانِ بِالعَتَبَـةِ يَـوْمَ 4 أَبْرِيـلَ 1939م، ثُـمَّ نُشِـرَتْ فِـي مَجَلَّـةِ **النَّذِيـرِ**، العَـدَدِ (8)، السَّـنَةِ الثَّانِيَـةِ، فِـي 20 صَفَـر 1358هـ، المُوَافِـقِ 11 أَبْرِيـلَ 1939م، بِعُنْـوَانِ: «**الإِخْـوَانُ المُسْـلِمُونَ تَحْـتَ رَايَـةِ مُحَمَّـدٍ رَسُـولِ اللهِ وَفِـي سَـبِيلِ هَدْيِـهِ**». ثُـمَّ أُعِيـدَ نَشْـرُهَا فِي كُتَيِّـبٍ أَصْدَرَتْـهُ دَارُ الكِتَـابِ العَرَبِـيِّ بِعُنْـوَانِ: «**الإِخْـوَانُ تَحْـتَ رَايَـةِ القُـرْآنِ**»، وَهُـوَ العُنْـوَانُ الَّـذِي اشْـتَهَرَ فِـي طَبَعَـاتِ **مَجْمُوعَـةِ رَسَـائِلِ الإِمَـامِ البَنَّـا** المُتَدَاوَلَـةِ[175].

(175) انظر: **مجموعة رسائل الإمام البنا**. إعداد البصائر للبحوث والدراسات، طبعة اسطنبول- تركيا 2014. ص377. (وقَدْ اعْتَمَدَ الأُسْتَاذُ المُحَاضِرُ فِي شَرْحِهِ العُنْوَانَ المُتَدَاوَلَ آنَذَاكَ: «**الإِخْوَانُ تَحْتَ رَايَةِ القُرْآنِ**»، وَبَنَىٰ بَعْضَ مَعَانِي شَرْحِهِ عَلَىٰ دَلَالَةِ هَذَا العُنْوَانِ؛ وَلِذَلِكَ أُبْقِيَ العُنْوَانُ الَّذِي اعْتَمَدَهُ).

# مُقدِّمَةٌ

كُتِبَتْ هَذِهِ الرّسَالَةُ فِي الفَترةِ الحَرجَةِ الّتِي كَانَتْ تُواجِهُهَا الأمةُ الإسْلاميّةُ فِي ذَلِكَ الوقتِ (1358هـ - 1939م)، عِنْدَمَا سَقطَتْ تِلكَ السَّقْطةَ البَشِعَةَ، وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي التَّارِيخِ لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ - كَمَا يَذْكُرُ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ الْغَزَالِيُّ - دَوْلَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ نَجَتْ مِنَ الِاسْتِعْمَارِ وَالِاحْتِلَالِ فِي أَرْجَاءِ الْعَالَمِ الإِسْلَامِيِّ.

مِسَاحَاتٌ وَاسِعَةٌ مِنْ أَرضِ عَالَمِنَا الإسلامِيِّ سَقطَتْ تَحتَ قَبضَةِ الاحتِلَالِ، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا فَحسْبُ، وَإِنَّمَا قَد نَجحَ الأجْنبِيُّ الغَاصِبُ فِي أنْ يُدمِّرَ هَذَا العَالَمَ الإِسْلامِيَّ أَوِ المُجتمَعَ الإِسْلامِيَّ مِنْ دَاخلِهِ، وَقَدِ استَغرَقَ ذَلِكَ قَرْنًا مِنَ الزمَانِ بَعدَمَا نَجحَ فِي الاستيلاءِ عَلَيهِ مِن خارجِهِ، فَكانَتِ الأمةُ الإسلاميةُ لِلأسَفِ مُنقَادَةً بِغَيرِ إِرَادَةٍ مِنهَا فِي عَامِ 1939م تُواجِهُ الحَرْبَ العالميّةَ الثانيةَ [176]، حيثُ كَانَ العَالَمُ كُلُّه يَستَعِدُّ لِخَوْضِ غِمَارِ الحَربِ الضَّرُوسِ كَما يقولُ الإمَامُ البنّا الّتِي أكلتِ الأَخْضَرَ وَاليَابِسَ.

فِي هَذِهِ الظروفِ الحَرِجَةِ أدرَكَ الأستاذُ الإمَامُ البنّا رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ مِن طَبيعَةِ دَعوتِهِ أَنْ يَقُومَ بِوَاجِبِه إزاءَ أُمتِهِ الإسلاميةِ مِنْ نَاحيةٍ، وَإِزَاءَ العَالَمِ أَجْمَعَ مِن نَاحِيَةٍ أُخْرَىٰ؛ لأنّها الرسَالَةُ الخَاتمَةُ وَالحَلْقةُ الأخيرَةُ فِي سِلْسِلَةِ البَعْثِ، ولأنَّ قُرآنَنا هُوَ خَاتَمُ الكُتُبِ، وَنَبيّنا ﷺ هُوَ خَاتَمُ الأنبيَاءِ.

فَقَدْ هَدَاهُ فَهْمُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ، لِهذِهِ المُهمّةِ وَفَهْمُهُ لِطَبيعَةِ دَعوتِهِ، إِلَىٰ أنَّ عَلَيهِ أَنْ يُقدِّمَ لِلعالَمِ أَجمَعَ مِنْ خِلالِ دعوةِ (الإخوَانِ المُسلمِينَ) - تِلكَ الطَّليعَةِ الّتِي أعدَّهَا لِتُخرِجَ الأمةَ مِنْ مَأزِقِهَا- المَشروعَ الّذِي قدَّمَه للعَالَمِ أَجْمَعَ، وَلِذلِكَ تَجِدُ أنَّ هَذِهِ الرسَالَةَ هِيَ الوَحيدَةُ فِي كُلِّ رَسائلِ الأستَاذِ الإمَامِ البنَّا الّتِي يَتكَلَّمُ فِيهَا بِـ(أَيُّهَا الإخوَانُ المُسلِمُونَ.. أَيّها الناسُ أَجْمَعُونَ) يُخاطِبُ العَالَمَ كُلَّه مِنْ خِلالِ خِطابِهِ لِلإخوَانِ؛ مِمَّا

(176) **الحَرْبُ العَالَمِيَّةُ الثَّانِيَةُ**: اندلَعَتْ فِي 1 سِبتمبر 1939م باجتِيَاحِ ألمَانيَا لِبُولندَا، وَامتدَّتْ إِلَىٰ مُعظَمِ أَنحَاءِ العَالَمْ، وَشَارَكَتْ فِيهَا دُولُ المِحْوَرِ، وَفِي مُقدِّمَتِهَا أَلمَانيَا وَإِيطَاليَا وَاليَابَانِ، فِي مُواجَهَةِ دُولِ الحُلفاءِ، وَفِي مُقدمتِهَا بريطَانيَا وَفَرنسَا ثُمَّ الاتحَادُ السُّوفيتِيّ وَالولايَاتُ المُتحِدَةُ. وَانتهَتْ الحربُ فِي سِبتَمبرَ 1945م بعدَ نَحوِ سِتِّ سَنواتٍ مِنَ القِتَالِ، وَخَلَّفَتْ خَسائِرَ بَشريةً وَمَاديةً هَائلَةً، وَأَدَّتْ إِلَىٰ تَحولاتٍ كَبيرَةٍ فِي مَوازِينِ القُوَىٰ وَالنظَامِ الدَّوْلِيّ.

يـدلُّ أيضًـا عَلَـىٰ إدرَاكِـهِ لِعِظَـمِ هَـذِهِ المُهمّـةِ، وَإحسَاسِـهِ بقَـدْرِ هَـذِهِ الجَماعَـةِ، وَالكِيَـانِ الّـذِي أنشَـأهُ لِيواجِـهَ بِـهِ العالَـمَ مِـنْ حَولِـهِ.

ودَليـلُ ذَلِـكَ؛ مَـا قَصَّـهُ الأستاذُ حامـدُ أبـو النصـرِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مُذكِّراتِـه[177]: تَحْـتَ عُنْوانِ: «**الإِخْـوَانُ وَالإِنْجِلِيزُ**»:

«فِـي أَوَائِـلِ الأَرْبَعِينِيَّـاتِ، بَعْـدَ انْتِهَـاءِ الحَـرْبِ العَالَمِيَّـةِ الثَّانِيَـةِ، طَلَـبَ مِنِّـي وَكِيـلُ بَنْـكِ بَارْكْلَيْـز، فَـرْعٍ مَنْفَلُـوطَ، دَفْـعَ مَبْلَـغٍ مِـنَ المَـالِ كَتَبَـرُّعٍ لِلْجُنْـدِيِّ المَجْهُـولِ، أُسْـوَةً بِالأَعْيَـانِ وَأَصْحَـابِ الرُّتَـبِ وَكِبَـارِ التُّجَّـارِ، فَرَفَضْـتُ أَنْ أَدْفَـعَ مِلِّيمًـا وَاحِـدًا فِـي مَشْـرُوعٍ أَوْ عَمَـلٍ تَقُـومُ عَلَيْـهِ الحُكُومَـةُ البِرِيطَانِيَّـةُ.

فَسَأَلَنِي: لِمَاذَا؟

قُلْـتُ: إِنَّ إِنْجِلْتَـرَا وَفَرَنْسَـا كَانَتَـا قَـدْ وَعَدَتَـا، فِـي لَجْنَـةٍ مُشْـتَرَكَةٍ، بِالجَـلَاءِ عَـنْ سُـورِيَا وَلُبْنَـانَ بَعْـدَ انْتِهَـاءِ الحَـرْبِ، وَلَـمْ تَفِيَـا بِوَعْدِهِمَـا، كَمَـا أَنَّهَـا لَـمْ تَسْـتَجِبْ لِطَلَـبِ رِفْعَـةِ النَّحَّـاسِ بَاشَـا، رَئِيـسِ الحُكُومَـةِ، فِـي هَـذَا الشَّـأْنِ.

فَقَالَ لِي وَكِيلُ البَنْكِ: هَذَا كَلَامٌ خَطِيرٌ، وَلَا دَاعِيَ لِذِكْرِهِ.

فَقُلْتُ: نَعَمْ، إِنَّهُ كَلَامٌ خَطِيرٌ، لَكِنِّي أَتَحَمَّلُ مَسْؤُولِيَّتَهُ.

وَبَعْـدَ أُسْـبُوعٍ مِـنْ هَـذَا الحَدِيـثِ، فُوجِئْـتُ بِزِيَـارَةِ ضَابِـطِ مُخَابَـرَاتٍ إِنْجِلِيـزِيٍّ يُدْعَـىٰ (**بَاتْـرِك**)، وَمَعَـهُ مُرَاسِـلُ «الأَهْـرَام» بِأَسْـيُوطَ كَمُتَرْجِـمٍ، وَبَعْـدَ أَنْ شَـرِبْنَا القَهْـوَةَ سَـأَلَنِي الضَّابِـطُ: هَـلْ لَكُـمْ رَأْيٌ مُعَيَّـنٌ فِـي السِّيَاسَـةِ الَّتِـي تَنْتَهِجُهَـا الحُكُومَـةُ البِرِيطَانِيَّـةُ فِـي الشَّـرْقِ الأَوْسَـطِ؟

فَقُلْـتُ لَـهُ: إِنَّ هُنَـاكَ مَوْقِفًـا يُمْكِـنُ لِبِرِيطَانِيَـا أَنْ تَسْـتَغِلَّهُ لِإِثْبَـاتِ حُسْـنِ نَوَايَاهَـا وَصِـدْقِ

(177) محمَّـد حامـد أبـو النصـر (1913–1996م)، المرشـد العـام الرابـع لجماعـة الإخـوان المسـلمين. والمذكـرات المشـار إليهـا، هـي: **حقيقـة الـخلاف بيـن الإخـوان المسـلمين وعبـد الناصـر**، ط2، دار التوزيـع والنشـر الإسلاميـة، القاهـرة، 1408هـ/ 1988م، ص27–29.

وُعُودِهَا؛ وَهُوَ أَنْ تَقُومَ بِالضَّغْطِ عَلَىٰ حُكُومَةِ فَرَنْسَا لِلْجَلَاءِ عَنْ سُورِيَا وَلُبْنَانَ فَوْرًا.

ثُمَّ سَأَلَنِي: هَلْ هُنَاكَ مَنْ يَرَىٰ رَأْيَكُمْ مِنَ الإِخْوَانِ المُسْلِمِينَ؟

فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ جُمْهُورَ مِائَةِ شُعْبَةٍ لِلإِخْوَانِ المُسْلِمِينَ بِمُدِيرِيَّةِ أَسْيُوطَ يُطَالِبُ بِتَحْقِيقِ هَذَا المَطْلَبِ.

فَقَالَ: إِنَّ حُكُومَتَهُ يَهُمُّهَا أَنْ تَعْرِفَ مَطَالِبَ الشُّعُوبِ الصَّدِيقَةِ؛ لِتَبْنِيَ عَلَاقَاتِهَا مَعَهُمْ عَلَىٰ أَسَاسٍ مِنْ هَذِهِ السِّيَاسَةِ، وَإِنِّي أَعِدُكَ أَنْ أَرْفَعَ هَذَا المَطْلَبَ إِلَىٰ المَسْؤُولِينَ فِي السِّفَارَةِ. ثُمَّ انْصَرَفَ.

وَبَعْدَ أُسْبُوعٍ مِنْ تِلْكَ الزِّيَارَةِ وَصَلَنِي خِطَابٌ مِنَ الضَّابِطِ (**بَاتْرِك**) يَشْكُرُنِي فِيهِ، وَيُخْبِرُنِي أَنَّ (**المِيجُرَ لَانْدِل**)، مَبْعُوثَ السِّفَارَةِ البِرِيطَانِيَّةِ، يَرْغَبُ فِي زِيَارَتِي وَيَطْلُبُ تَحْدِيدَ المَوْعِدِ.

وَعَلَىٰ ذَلِكَ أَرْسَلْتُ خِطَابًا إِلَىٰ الإِمَامِ الشَّهِيدِ، عَلَىٰ اعْتِبَارِ أَنَّهُ قَائِدُ الجَمَاعَةِ وَالمَسْؤُولُ عَنْ سِيَاسَتِهَا، شَرَحْتُ لَهُ مَا دَارَ فِي الزِّيَارَةِ المَذْكُورَةِ، فَرَدَّ عَلَيَّ هَاتِفِيًّا بِمُوَافَقَتِهِ عَلَىٰ اللِّقَاءِ، وَأَفْهَمَنِي أَنَّهُ سَيَبْعَثُ إِلَيَّ بِرِسَالَةٍ مُفَصَّلَةٍ.

وَلَقَدْ وَصَلَتْنِي الرِّسَالَةُ مُرْفَقًا بِهَا خِطَابٌ مِنْ صُورَتَيْنِ؛ إِحْدَاهُمَا كُتِبَتْ بِالعَرَبِيَّةِ لِتُلْقَىٰ فِي الحَفْلِ، وَالأُخْرَىٰ بِالإِنْجِلِيزِيَّةِ تُسَلَّمُ لِلْمِيجُرِ لَانْدِل.

وَمِمَّا أَذْكُرُ أَنَّهُ قَالَ لِي فِي الرِّسَالَةِ: إِنَّ هَذَا البَابَ أَرَادَ اللهُ أَنْ يُفْتَحَ عَلَىٰ أَيْدِيكُمْ، وَيَهُمُّنِي أَنْ تَعْرِفَ كُلُّ الشُّعُوبِ وَالحُكُومَاتِ حَقِيقَةَ دَعْوَةِ الإِخْوَانِ المُسْلِمِينَ.

وَعَلَيْهِ تَحَدَّدَ مَوْعِدُ اللِّقَاءِ مَعَ **المِيجُرِ لَانْدِل**، وَكُنْتُ قَدْ دَعَوْتُ لِتَنَاوُلِ الغَدَاءِ مَعَهُ نُخْبَةً مِنْ رُؤَسَاءِ الأَدْيَانِ وَكِبَارِ المُوَظَّفِينَ وَالأَعْيَانِ بِمَنْفَلُوطَ.

وَعِنْدَمَا دَلَفَ المِيجُرُ لَانْدِلُ إِلَىٰ حُجْرَةِ الِاسْتِقْبَالِ رَأَىٰ صُورَةَ الإِمَامِ الشَّهِيدِ حَسَنِ البَنَّا، فَوَقَفَ أَمَامَهَا يَنْظُرُ مَلِيًّا، وَمَعَهُ المُتَرْجِمُ، فَسَأَلَنِي: صُورَةُ مَنْ هَذِهِ؟

قُلْتُ: إِنَّهَا صُورَةُ المُرَبِّي الرُّوحِيِّ الأُسْتَاذِ حَسَنِ البَنَّا، المُرْشِدِ العَامِّ لِجَمَاعَةِ الإِخْوَانِ المُسْلِمِينَ.

قَالَ: وَمَا هِيَ مَكَانَةُ المُرَبِّي الرُّوحِيِّ عِنْدَكُمْ؟

قُلْتُ: إِنَّهُ يَأْمُرُ فَيُطَاعُ دُونَ تَرَدُّدٍ.

وَمَا إِنْ سَمِعَ المِيجُرُ لَانْدِلُ هَذَا حَتَّىٰ رَفَعَ قُبَّعَتَهُ إِجْلَالًا لِصَاحِبِ هَذِهِ الصُّورَةِ.

وَبَعْدَ أَنْ تَنَاوَلْنَا طَعَامَ الغَدَاءِ، سَلَّمْتُ المِيجُرَ لَانْدِلَ صُورَةَ الخُطْبَةِ المَكْتُوبَةِ بِالإِنْجِلِيزِيَّةِ، وَأَلْقَيْتُ صُورَتَهَا العَرَبِيَّةَ.

وَمِنْ أَهَمِّ مَا جَاءَ بِالخُطْبَةِ أَنَّ الإِخْوَانَ المُسْلِمِينَ يُعْلِنُونَ حَقِيقَةَ مَبَادِئِهِمْ، وَطَرِيقَةَ إِصْلَاحِهِمْ، وَوَسَائِلَهُمْ، وَأَوْضَحُوا أَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ عَلَىٰ تَرْبِيَةِ النَّشْءِ عَلَىٰ مَبَادِئِ القُرْآنِ الكَرِيمِ، وَيُرَحِّبُونَ بِأَنْ يُنْشِئَ أَصْحَابُ الأَدْيَانِ الأُخْرَىٰ أَبْنَاءَهُمْ عَلَىٰ مَبَادِئِ الإِنْجِيلِ وَالتَّوْرَاةِ.

وَبِذَلِكَ يُوجَدُ فِي العَالَمِ المُجْتَمَعُ المُتَدَيِّنُ، وَالمُجْتَمَعَاتُ المُتَدَيِّنَةُ لَا تَقَعُ فِيمَا بَيْنَهَا حُرُوبٌ، كَمَا هُوَ قَائِمٌ الآنَ بَيْنَ الشُّعُوبِ الَّتِي بَاعَدَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَقِيقَةِ أَدْيَانِهَا، فَأَصْبَحَتِ الحَرْبُ الضَّرُوسُ الَّتِي أَتَتْ عَلَىٰ الأَخْضَرِ وَاليَابِسِ، فَلَا رَحْمَةَ وَلَا عَدَالَةَ وَلَا مُسَاوَاةَ.

وَلَقَدْ حَيَّا الحَاضِرُونَ المَعَانِيَ الَّتِي تَضَمَّنَتْهَا الكَلِمَةُ بِالتَّصْفِيقِ وَالِارْتِيَاحِ، وَاخْتُتِمَ الحَفْلُ، وَأُلْقِيَتْ كَلِمَةُ شُكْرٍ مِنَ المِيجُرِ لَانْدِلَ لِصَاحِبِ الدَّعْوَةِ وَالمَدْعُوِّينَ.

وَمَا إِنْ وَصَلَ المِيجُرُ لَانْدِلُ إِلَىٰ دَارِ السِّفَارَةِ البِرِيطَانِيَّةِ بِالقَاهِرَةِ حَتَّىٰ أَرْسَلَ إِلَيَّ خِطَابًا يَشْكُرُنِي، وَيُبْدِي رَغْبَتَهُ فِي اللِّقَاءِ مَعِي فِي القَاهِرَةِ.

وَأَثْنَاءَ وُجُودِي بِالقَاهِرَةِ الْتَقَيْتُ بِهِ بَعْدَ اسْتِئْذَانِ الإِمَامِ الشَّهِيدِ وَإِذْنِهِ لِي بِالزِّيَارَةِ.

وَفِي اللِّقَاءِ سَأَلَنِي المِيجُرُ لَانْدِلُ: مَا رَأْيُكُمْ فِي الجَلَاءِ عَنْ مِصْرَ؟

قُلْتُ لَهُ: إِنَّ الأُمَّةَ جَمِيعَهَا تُطَالِبُ بِالجَلَاءِ فَوْرًا.

ثُمَّ قَالَ: مَاذَا لَوْ جَاءَ الرُّوسُ وَاحْتَلُّوا مِصْرَ؟

قُلْتُ: عِنْدَئِذٍ نَتَعَاوَنُ كَأَصْدِقَاءَ، وَلَيْسَ كَأَتْبَاعٍ.

قَالَ: وَمَا رَأْيُكُمْ فِي مُشْكِلَةِ فِلَسْطِينَ؟

قُلْتُ: تُتْرَكُ لِأَهْلِهَا يُنَظِّمُونَ شُؤُونَهُمْ بِطَرِيقَتِهِمْ، مُتَعَاوِنِينَ وَمُتَّحِدِينَ كَشَعْبٍ وَاحِدٍ.

وَانْتَهَى اللِّقَاءُ، وَقَدْ نَقَلْتُ إِلَىٰ فَضِيلَةِ الإِمَامِ الشَّهِيدِ الحَدِيثَ فَاسْتَحْسَنَهُ.

وَبَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ مَضَتْ، عَلِمْتُ أَنَّ الوَزِيرَ البِرِيطَانِيَّ المَسْؤُولَ عَنِ الشَّرْقِ الأَوْسَطِ، وَمَعَهُ سَفِيرُ بِرِيطَانِيَا فِي مِصْرَ، وَوَفْدٌ مِنْ دَارِ السِّفَارَةِ، زَارُوا المَرْكَزَ العَامَّ لِلْإِخْوَانِ المُسْلِمِينَ بِالقَاهِرَةِ، وَتَقَابَلُوا مَعَ الإِمَامِ الشَّهِيدِ حَسَنِ البَنَّا، وَعَرَضُوا مَعُونَةً مَالِيَّةً كَبِيرَةً، وَالمُسَاهَمَةَ فِي تَقْدِيمِ سَيَّارَاتٍ وَتَبَرُّعَاتٍ أُخْرَىٰ لِلْجَمَاعَةِ.

لَكِنَّ فَضِيلَةَ الإِمَامِ الشَّهِيدِ رَفَضَ كُلَّ هَذِهِ العُرُوضِ بِصَلَابَةٍ وَحَزْمٍ، قَائِلًا لَهُمْ: «إِنَّ جُهُودَ الإِخْوَانِ تَقُومُ - بَعْدَ فَضْلِ اللهِ تَعَالَىٰ - عَلَىٰ القُرُوشِ القَلِيلَةِ الَّتِي يَدْفَعُهَا الإِخْوَانُ مِنْ جُيُوبِهِمُ الخَاصَّةِ، وَنَحْنُ نَرْفُضُ أَيَّ مَعُونَةٍ مِنْ أَيَّةِ حُكُومَةٍ أَوْ مِنْ أَيَّةِ دَوْلَةٍ، وَنَحْنُ فِي طَرِيقِنَا لِعَرْضِ مَبَادِئِنَا بِكُلِّ مَا نَسْتَطِيعُ مِنْ قُوَّةٍ وَإِرَادَةٍ».

وَانْتَهَتِ المُقَابَلَةُ.

وَالشَّاهِدُ مِنْ هَذِهِ الوَاقِعَةِ أَنَّ الإِمَامَ البَنَّا كَانَ يَنْظُرُ إِلَىٰ دَعْوَتِهِ بِوَصْفِهَا رِسَالَةً تَتَجَاوَزُ حُدُودَ الجَمَاعَةِ وَالوَطَنِ إِلَىٰ النَّاسِ أَجْمَعِينَ؛ وَمِنْ هُنَا جَاءَ نِدَاؤُهُ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ **(الإِخْوَانُ تَحْتَ رَايَةِ القُرْآنِ)**: «**أَيُّهَا الإِخْوَانُ المُسْلِمُونَ.. أَيُّهَا النَّاسُ أَجْمَعُونَ**»[178]، وَهُوَ نِدَاءٌ يَكْشِفُ عَنْ فَهْمِهِ لِطَبِيعَةِ الدَّعْوَةِ وَعَالَمِيَّةِ رِسَالَتِهَا لِطبيعَةِ دَعوتِهِ وَ بِأنّها دَعوةُ إنقاذٍ لِلبشريةِ كُلِّهَا.

(178) **مجموعة رسائل الإمام البنا**. [الإِخْوَانُ تَحْتَ رَايَةِ القُرْآنِ]. إعداد البصائر للبحوث والدراسات، طبعة اسطنبول- تركيا 2014. ص377.

وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّهُ كَانَ يَتَوَافَرُ فِي دَارِ السِّفَارَةِ الْبِرِيطَانِيَّةِ أَرْشِيفٌ خَاصٌّ بِجَمَاعَةِ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ، وَصُورَةٌ لِلْإِمَامِ الشَّهِيدِ حَسَنِ الْبَنَّا، وَقَدْ كُتِبَ تَحْتَهَا عِبَارَةٌ: «**أَخْطَرُ رجلٍ فِي الشَّرقِ الأَوْسَطِ**».

وَبَدَأَتْ عَمليّاتُ المُراقبَةِ وَالمُتابعَةِ لِلأستَاذِ الإمَامِ البنَّا مِنْ ذَلِكَ الوَقْتِ، رَغمَ إدرَاكِ الإنجليز طَبِيعَةَ العقليةِ الّتِي يتعَامَلُون مَعهَا وَأُفقهَا الوَاسِعَ، فإنَّهُ بِلَا شَكٍّ أَدرَكُوا خُطورَةَ بقَائِهِ، وَلَمْ يَكُنِ العَالَمُ الغَربيُّ -كَمَا يَقولُونَ- يَقِفُ مَكتُوفَ الأَيْدِي أَمَامَ الإمَامِ البنَّا، وَقَد شَعرَ رَجُلُ الشَّارِعِ بِدَعوتِهِ وَحَقيقَةِ جُهُودِه وَغَايةِ حيَاتِه، فَهتفَ مِنْ أَعمَاقِهِ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ(162)﴾ [الأنعام]. وَلَقَد اعتدَلَتْ لَهجةُ الكُتَّابِ بتأثيرِ هَذِهِ الدعوَةِ القَويّةِ، وَخَفَّتْ رُوحُ الإباحيّةِ وَالإلحَادِ وَالجِنْسِ، وَاعتَدلَتْ لَهجَةُ الكُتَّابِ لِتَجرِيَ مَعَ الريحِ الإسْلَاميَّةِ.

فِي هَذِه الرِّسَالة أَظهرَ الأستاذُ البنَّا تَصوُّرَهُ لِلخروجِ بِالأمّةِ الإسْلاميَّةِ مِنْ مَأزِقِهَا، وَأن هَذَا لَن يَتمَّ إلا بمُهمّةٍ تتلخَّصُ فِي: إقامةِ بِنَاءِ الأُمَّةِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَإعادةِ السُّلْطَةِ الإسْلاميّةِ مِن نَاحيَةٍ أُخْرَىٰ؛ لأنهُ لَن يَتحَقَّقَ للنظَامِ الإسْلامِيِّ هَدفُه وَلَن يُحقِّقَ غَايتَه إِلَّا مِن خِلالِ السُّلطَةِ الإسْلامية؛ ولأنَّ المُجتمعَ الإسلاميَّ فِي حقيقتِه هُوَ عبارَةٌ عَن مُجتمَعٍ وَحُكْمٍ، أَوْ أُمةٍ وَحُكومةٍ، فَالمجتمعُ بِغيرِ حُكومةٍ أَو بِغَيرِ سُلطةٍ عَاجِزٌ ناقصٌ، والحكومةُ بغَيرِ مُجتمعٍ أَو بِغَيرِ أُمَّةٍ وَهْمٌ وسَرابٌ، أَوْ جَوْرٌ وظُلْمٌ؛ لأنه لَا يُمكنُ أَنْ تُطبَّقَ أحكَامٌ عَلَىٰ أناسٍ لَا تُؤمِنُ بِهذهِ الأحكام، وَلَا تَنتمِي إِلَيْهَا، وَلا يُوجَدُ بَينَهَا وَبينَ هَذِهِ الأحكامِ أيّ نَوعٍ مِنَ المَحبةِ وَالشعُورِ.

فالنظامُ الإسلاميُّ إنمَا يقومُ عَلَىٰ هاتينِ الدِّعامتينِ: **أُمَّةٌ وحُكومةٌ، أَوْ مُجتمَعٌ وَسُلطةٌ**. وَهَذِهِ حقائقُ كَانَ الأستاذ الإمامُ البنَّا لَا يَخجَلُ مِنَ التحدُّثِ عَنهَا، وَلَا يَتردَّدُ فِي تَناوُلِهَا، فَليسَ فِي ديننا - كَمَا كَانَ يَقولُ الأستَاذُ سَيدُ قُطب - مَا نَخجلُ مِنَ التحدُّثِ عَنهُ أَو نَتّردَّدُ فِيهِ أو نتلعثَمُ عِندَ الإعلانِ عَنهُ.

وَليسَ يَخفَىٰ أنَّ الدافعَ وَراءَ هَذهِ المُهمّةِ التي بَيَّنَهَا الإمَامُ البنَّا، وَتَحدَّثَ عَنهَا بَعدَ

ذَلِكَ إِجْمَالًا وَتَفْصِيلًا؛ هُوَ القُرْآنُ: «السِّرّ فِي هَذَا القرآنِ الّذِي بينَ أَيدِينَا هُوَ أنهُ يَضعُ فِي نفسِ كُلِّ مَنْ يَقرَؤُهُ وَيُؤمِنُ بِهِ نَزعَةَ التَّبليغِ، وَهِيَ العملُ لَه، وَهُوَ نوعٌ مِنَ الشُّعورِ بِالمَسؤوليةِ الأَدبيّةِ تِجاهَ مَا يؤمنُ بهِ، ويَعتزُّ بالانتِسَابِ إِلَيْهِ، وَهُوَ القرآنُ الكريمُ، وَهَذَا السِّرُّ لَا يُوجدُ فِي غيرِهِ مِنَ الأَدْيَانِ أوِ الكُتبِ السمَاوِيّةِ الّتِي نَزَلَتْ مِنْ قَبلُ.

يَقولُ مَالِكُ بنُ نَبيٍّ فِي كِتَابِهِ (الظاهرةُ القُرآنيةُ)، وَهُوَ يُشِيرُ إِلَىٰ هَذَا المعْنَىٰ الخَفيِّ الدَّقيقِ: «إِنَّ القَومَ **الذِينَ يَدينُونَ اليومَ بِدينِ مُوسَىٰ** - أَي اليَهُودِ - يَفقِدُونَ، لأسبابٍ نَفسِيّةٍ لَا سَبيلَ لِشَرْحِهَا هُنَا، نَزعةَ التَّبليغِ، فَلا يَشعرُونَ بِضَرورَةِ تَبليغِ دِينِهِم إِلَىٰ غَيرِهِمْ مِنَ الأُمَمِ»[179]؛ لأنَّ المُعجزَةَ الّتِي وَاكَبَتْ ظُهورَ النبيِّ مُوسَىٰ عَلَيهِ السلامُ (وَهِيَ العَصَا وَاليدُ)، قَدِ انتَهَتِ الحَاجةُ التَّاريخيَّةُ إِلَيهَا، فَلا ضَرورَةَ لَهَا؛ وَلِذَلِكَ بِمُجرَّدِ فِقدَانِ هَذِهِ الحَاجةِ فُقِدَتْ نَزعَةُ التَّبليغِ مِنْ نَفْسِ مَنْ يُؤمِنُ بِهذِهِ الرسَالَةِ الّتِي تُعضِّدُهَا وَتُؤكِّدُهَا هَذِهِ المُعجِزَةُ المَاديّةِ الّتِي انتَهَتْ بِزوَالِهَا أَوْ بِالحَاجَةِ التَّاريخيّةِ إِلَيهَا؛ وَلِذَلِكَ لَا نَسمَعُ عَن يَهودِيٍّ يَدعُو إِلَىٰ تَركِ الوَثنيّةِ؛ فَاليهُودُ مُجتمعٌ مُتقوقِعٌ (مُغلَقٌ عَلَىٰ نَفْسِهِ)، رَغمَ هَذِهِ السنِينَ الطَّويلَةِ.

**وَالمَسيحيةُ** كَذلِكَ لَيسَ لَديهَا هَذِهِ النزعَةُ النفسِيّةُ وَالتاريخيّة، فَالمسيحِيُّ قَلَّمَا يَدعُو؛ لأنه لَا تُوجَدُ نَزعَةُ التبليغِ النفْسِيّةُ لَديهِ؛ فَقَدِ انتَهتْ كَذلِكَ المُعجزاتُ الّتِي واكبَتْ ظُهورَ المَسيحِ عَلَيهِ السَّلامُ، وَانتهتِ الحاجةُ التاريخيةُ إِلَيْهَا؛ لأنّه فِي عِلْمِ اللهِ تَمهيدٌ لدينٍ آخَرَ، فَرِسَالةُ عيسىٰ (عليه السلام) انتهتِ الحاجَةُ إِلَيْهَا بِرَفْعِهِ، فَلَم تَعُد هناكَ نَزعَةٌ لِلتبلِيغِ، وَإِنْ حَدثَ - كَما يَقولُ مَالِكُ بنُ نَبيٍّ رَحِمَهُ اللهُ - كانَ وَراءَ ذَلِكَ أمورٌ أُخرَىٰ مِنَ المصَالحِ وَالمطَامعِ، فَليسَتِ النزعَةُ الدِّينيةُ وَرَاءَ تَبليغِ دِينِهِ، وَإِنَّمَا هِيَ مَصَالِحُ وَمطامِعُ مِنْ أَجلِ السَّطوَةِ وَالتسَلُّطِ وَالاستغْلالِ، نَاهِيكَ بِأنَّ كُتبَ الرِّسَالاتِ السَّابِقَةِ مَشكُوكٌ فِي صِحَّتِهَا أَصْلًا! كَمَا يَذكرُ مَالِكُ بنُ نَبيٍّ فِي كِتابِهِ (الظاهرةُ القرآنيةُ)»[180].

(179) مالك بن نبي: **الظاهرة القرآنية**، ترجمة د. عبد الصبور شاهين، ط 4، دار الفكر – دمشق، سورية، 1420 هـ – 2000م، ص 66.
(180) السابق.

وَلَقدِ امتازَ القُرآنُ الكريمُ بِمَيزةٍ فَريدةٍ هِيَ أَنّه تَنقَّلَ مُنذُ أَربعةَ عَشرَ قَرنًا، دُونَ أَنْ يَتعرَّضَ لأدْنَىٰ تَحريفٍ أَو رَيْبٍ، وَلَيسَتْ هَذهِ حَالَ العَهدِ القَديمِ (التَّورَاةِ)، الذِي لَمْ تَعترفْ لَه بِالصِّحةِ الدرَاسَةُ النقْدِيةُ لِلشُّراحِ المُحدَثِينَ، فِيمَا عَدَا وَاحِدًا مِنْ كُتُبِه هُوَ كِتَابُ (أَرْمِيَاء). وَلَيسَ العَهدُ الجَديدُ (الإنجيلُ) بِأَسْعدَ حَالًا، فَقَدْ أَلغَىٰ مَجمعُ أَساقِفَةِ (نِيقيّةَ) كَثِيرًا مِنْ أَخبارِهِ، مِمَّا زَرعَ الشَّكَّ حَولَ مَا تَبقَّىٰ مِنهُ، وَهُوَ (الإنجيلُ)» [181]، وَمِنْ ثَمَّ انتفَتْ نَزعةُ التبلِيغِ نَفْسِيًّا وتَاريخيًّا فِي هؤلاءِ فَلَمْ تَعدْ مُوجُودةً.

لكنَّ القرآنَ الكَريمَ - وَلا شَكَّ - أُنزِلَ لِيَبقَىٰ؛ وَلأنَّ الإسْلامَ يَحتاجُ إِلَيْهِ كَوسِيلَةٍ مِنْ وَسائلِ تَبليغِهِ، مَوجُودَةَ مَعَ كُلِّ مُسْلمٍ يُؤمِنُ بِالقُرآنِ، وَيَستَشعِرُ المَسؤُوليةَ الأَخْلاقِيَّة تِجَاهَ مَا يُؤمِنُ بِهِ، وَيَعتزُّ بِالانتِسَابِ إِلَيهِ، وَهَذَا فِي الواقعِ هُوَ حَقيقَةُ البلَاغِ وَحَقيقَةُ التَّبليغِ لِلنَّاسِ أَجمَعِينَ.

وَهَذَا كَانَ وَراءَ اختيارِ الأستاذِ الإمامِ البنَّا (**الإِخْوَان تَحتَ رَايةِ القرآن**) أَنْ يتقدَّمَ بِدعوتِه إِلَىٰ الإخوانِ المُسلِمِينَ، وَإِلَىٰ الناسِ أَجمعِينَ، وَلَا شَكَّ أَنَّ القرآنَ لَمْ يَنفرِدْ بِهَذِهِ المُهمةِ - رَغمَ صُعوبتِهَا - وإِنَّما أَكدَتْهَا السنّةُ المطهرَةُ كذلكَ، ومِنْ ثَمَّ نَجِدُ نَزعَةَ التَّبليغِ وَالحَركَةِ بِهذَا الدِّينِ سِّرًا كَامِنًا فِي أُصُولِ دِينِنَا (قُرآنًا وسنةً)؛ لإقَامةِ نِظامٍ يُمثِّلُه؛ **لأنَّ أَيّ نظامٍ إِنَّما يمثلُه الذِينَ يُقيمُونَه أَكثرَ مِنَ الأَفْكارِ الّتِي تَدعُو إِلَيهِ.**

وَهَذَا هُوَ شُعُورُ المُسلِمِ تِجاهَ دِينِه، تَمثِيلُه وَاقعًا وَحَياةً؛ لأنَّ النَّاسَ بِطَبيعَتِهِمْ وَالنفُوسَ بِفِطْرَتِهَا لَا تُؤمِنُ بِأَيِّ فِكرَةٍ مُجردَةٍ مَا لَمْ تَتبلْوَرْ فِي حَياةٍ، وَتُترجَمَ إِلَىٰ مُجتمَعٍ، وَتَتمثَّلَ فِي نِظَامٍ.

وَالسُّنةُ المُطهرَةُ أكدتْ هَذَا المعنَىٰ أيضًا، فَقد بَدَا رَسولُ اللهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الوَداعِ كأَنَّه مُرتَحِلٌ يُودِّعُ الدُّنيَا، وَهُوَ يُلقِي بوصَايَاهُ فِي خُطبةِ الوَداعِ بينَ تِلكَ الجموعِ الصَّامِتَةِ الخَاشِعَةِ الّتِي كَانَتْ تَستَمِعُ إِلَيهِ، عِنْدَمَا صَرخَ فِيهَا بِصَوتِهِ: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟»، فَتُجِيبُهُ تِلْكَ الجُموعُ الخَاشِعَةُ فِي صَوْتٍ وَاحِدٍ:

(181) مالك بن نبي: **الظاهرة القرآنية**، ص 103.

«اللهمَّ نَعَمْ»، فيقول ﷺ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ» وَقَالَ: «لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَىٰ مِنْ سَامِعٍ»[182]. وَكَانَتْ هَذِهِ وَصِيَّتُه -ﷺ- الأَخِيرَةُ: وَقَالَ: «لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَىٰ مِنْ سَامِعٍ»، فَالسُّنةُ المُطهرةُ تُؤكِّدُ هَذَا المعنىٰ وَهُوَ (مَعْنَىٰ التبْليغ)؛ تِلكَ النزعَةُ النفْسِيةُ الّتِي يُودِعُهَا القرآنُ فِي نفُوسِ أَصحابِه، الذِينَ يَقرَؤُونَه وَيَفهَمُونَه وَيَعمَلُونَ بِهِ.

## الرُّوحُ العَامَّةُ لِلرِّسَالَةِ

تَسْرِي فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ رُوحُ **اسْتِشْعَارِ مَسْؤُولِيَّةِ حَمْلِ الإِسْلَامِ وَتَبْلِيغِهِ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ**؛ فَالإِمَامُ البَنَّا يَنْظُرُ إِلَىٰ الإِسْلَامِ بِوَصْفِهِ رِسَالَةَ هِدَايَةٍ وَإِصْلَاحٍ لِلْأُمَّةِ وَالإِنْسَانِيَّةِ، لَا دِينًا يَنْحَصِرُ أَثَرُهُ فِي حَيَاةِ أَفْرَادِهِ فحَسْبُ.

وَمِنْ هُنَا جَاءَ خِطَابُهُ مُتَوَجِّهًا إِلَىٰ «**الإِخْوَانِ المُسْلِمِينَ**» وَ«**النَّاسِ أَجْمَعِينَ**»، دَاعِيًا إِلَىٰ اسْتِعَادَةِ هَدْيِ الإِسْلَامِ، وَمُوَاجَهَةِ مَا أَبْعَدَ الأُمَّةَ عَنْهُ، وَإِعْدَادِ جِيلٍ مُؤْمِنٍ يَحْمِلُ هَذِهِ الرِّسَالَةَ، وَيُحَوِّلُ مَبَادِئَهَا إِلَىٰ وَاقِعٍ وَحَيَاةٍ.

وَتَقْتَرِنُ هَذِهِ المَسْؤُولِيَّةُ فِي الرِّسَالَةِ بِالثِّقَةِ فِي صَلَاحِيَّةِ الإِسْلَامِ لِلنُّهُوضِ بِالأُمَّةِ وَهَدَايَةِ البَشَرِيَّةِ، وَبِأَنَّ القِيَامَ بِهَذِهِ المُهِمَّةِ يَحْتَاجُ إِلَىٰ إِيمَانٍ رَاسِخٍ، وَإِعْدَادٍ، وَبَذْلٍ، وعَمَلٍ فَرْدِيٍّ وَجَمَاعِيٍّ.

## مِفْتَاحُ هَذِهِ الرِّسَالَةِ

يَتَلَخَّصُ مِفْتَاحُهَا فِي أُمُورٍ ثَلَاثَةٍ:

**أَوَّلُهَا**: الدَّافِعُ؛ نَزْعَةُ التَّبْلِيغِ وَالشُّعُورُ بِالمَسْؤُولِيَّةِ الَّتِي يَبْعَثُهَا القُرْآنُ وَالسُّنَّةُ فِي نَفْسِ المُؤْمِنِ.

**ثَانِيهَا**: المُهِمَّةُ؛ حَمْلُ الإِسْلَامِ إِلَىٰ النَّاسِ، وَإِخْرَاجُ الأُمَّةِ مِنْ مَأْزِقِهَا.

(182) الْحَدِيثُ – مَعَ اخْتِلَافٍ فِي الْأَلْفَاظِ – عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه فِي: مُسْلِمٍ 2/ 890 (كِتَابُ الْحَجِّ، بَابُ حَجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ)، والْمُسْنَدِ، طبعة الْحَلَبِيِّ: 4/ 367.

**ثَالِثُهَا**: الوَسِيلَةُ: إِقَامَةُ النِّظَامِ الإِسْلَامِيِّ عَلَىٰ دِعَامَتَيِ الأُمَّةِ وَالسُّلْطَةِ، أَوِ المُجْتَمَعِ وَالحُكْمِ، وَهُوَ مَا يُعَبِّرُ عَنْهُ الإِمَامُ البَنَّا فِي قَوْلِهِ:«لَوْ كَانَتْ لَنَا حُكُومَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ».

## مَحَاوِرُ شَرْحِ الرِّسَالَةِ

أَوَّلًا: وَاقِعُ الأُمَّةِ وَعَلَاقَتُهَا بِدِينِهَا

1 - الْمُشْكِلَةُ الْحَقِيقِيَّةُ (الْجَهْلُ بِحَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ)
2 - اعْتِزَازُ الأُمَّةِ بِدِينِهَا.
3 - الدِّينُ أَسَاسُ المَشْرُوعِ.

ثَانِيًا: التَّصَوُّرُ الإِسْلَامِيُّ لِلْإِنْسَانِ وَالمُجْتَمَعِ

1 - حَقِيقَةُ الدِّينِ.
2 - لَا يَكْتَمِلُ الجُهْدُ الرُّوحِيُّ إِلَّا بِجُهْدٍ مَادِّيٍّ.
3 - تَنْظِيمُ المُجْتَمَعِ بَيْنَ الإِسْلَامِ وَالرُّؤْيَةِ الغَرْبِيَّةِ.
4 - لَا تَنَاقُضَ بَيْنَ عَقِيدَةِ الإِسْلَامِ وَحُبِّ الأَوْطَانِ.

ثَالِثًا: مَنْهَجُ الإِمَامِ البَنَّا فِي الإِصْلَاحِ وَالتَّرْبِيَةِ

1 - مَنْهَجُ البَنَّا.
2 - مُوَاكَبَةُ العَصْرِ وَتَطْوِيرُ وَسَائِلِ الدَّعْوَةِ.
3 - القُدْوَةُ العَمَلِيَّةُ أَبْعَدُ أَثَرًا فِي النُّفُوسِ.
4 - ثَمَنُ الصِّدْقِ مَعَ الأُمَّةِ.
5 - إِنَّمَا الزَّعِيمُ مَنْ تَرَبَّىٰ.

رَابِعًا: فِقْهُ الوَسَائِلِ وَالوَاقِعِ
1 - بَيْنَ الوَسَائِلِ وَالنَّتَائِجِ.
2 - الوَعْيُ بِالوَاقِعِ وَحُسْنُ اغْتِنَامُ الفُرَصِ

خَامِسًا: بِنَاءُ الأُمَّةِ وَمَوْقِعُ السُّلْطَةِ (الأُمَّةُ قَبْلَ السُّلْطَةِ)

## أولًا: وَاقِعُ الأُمَّةِ وَعَلَاقَتُهَا بِدِينِهَا

### 1-المُشْكِلَةُ الحَقِيقِيَّةُ (الجهلُ بحقيقةِ الإِسْلامِ)

وَضَعَ الإِمَامُ الْبَنَّا يَدَهُ عَلَىٰ مَكْمَنِ الدَّاءِ فِي الْأُمَّةِ، فَرَأَىٰ أَنَّ مِنْ أَبْرَزِ أَسْبَابِ أَزْمَتِهَا الْجَهْلَ بِحَقِيقَةِ الإِسْلَامِ، وَقَدْ تَمَثَّلَ ذَلِكَ فِي اتِّجَاهَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ:

**الِاتِّجَاهُ الْأَوَّلُ: الْجُمُودُ فِي فَهْمِ الدِّينِ وَعَرْضِهِ.**

وَيُمَثِّلُهُ مَنْ ضَيَّقُوا دَائِرَةَ فَهْمِ الإِسْلَامِ، وَلَمْ يُحْسِنُوا رَبْطَ أَحْكَامِهِ وَمَقَاصِدِهِ بِمُتَغَيِّرَاتِ الْوَاقِعِ وَحَاجَاتِ النَّاسِ؛ فَأَدَّىٰ ذَلِكَ - مَعَ إِخْلَاصِ كَثِيرٍ مِنْهُمْ - إِلَىٰ إِيجَادِ فَجْوَةٍ بَيْنَ الدِّينِ وَالْحَيَاةِ، وَإِلَىٰ عَجْزِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ عَنْ إِدْرَاكِ سَعَةِ الإِسْلَامِ وَقُدْرَتِهِ عَلَىٰ مُوَاجَهَةِ مُشْكِلَاتِ الْعَصْرِ. وَقَدْ سَبَقَ الْحَدِيثُ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي عَنْ هَذَا الْجَانِبِ، وَعَنْ أَثَرِ الْجُمُودِ وَضَعْفِ الِاجْتِهَادِ وَغَلَبَةِ الْجُزْئِيَّاتِ عَلَىٰ الْمَقَاصِدِ فِي إِضْعَافِ فَاعِلِيَّةِ الْفِكْرِ الإِسْلَامِيِّ[183].

**وَالِاتِّجَاهُ الثَّانِي: المثقَّفونَ المُتغرِّبونَ وَالِانْبِهَارُ بِالنَّمُوذَجِ الْغَرْبِيِّ.**

وَيُمَثِّلُهُ بَعْضُ الْمُثَقَّفِينَ الَّذِينَ تَلَقَّوْا الْفِكْرَ الْغَرْبِيَّ وَمَنَاهِجَهُ، ثُمَّ رَأَوْا أَنَّ سَبِيلَ نَهْضَةِ الْأُمَّةِ هُوَ مُحَاكَاةُ الْغَرْبِ فِي نَمَطِ حَيَاتِهِ وَثَقَافَتِهِ وَقِيَمِهِ، لَا فِي الْإِفَادَةِ مِنْ مُنْجَزَاتِهِ وَوَسَائِلِهِ فَحَسْبُ.

وهَؤلَاءِ مَنْ سَمَّاهُمُ الإِمَامُ البَنَّا (الجِيلَ المُخْضَرَمَ)[184]، وَقَالَ عَنْهُمْ: «وَنَشَأَ فِي كُلِّ الأُمَمِ الإسلامية جِيلٌ مُخضْرَمٌ، إِلَىٰ غَيرِ الإِسْلامِ أَقرَبَ، تَصَدَّرَ فِي تَصريفِ

(183) انظر الجزء الثاني: **في ظلال الرسائل**: شرح رسالة « **نحو النور**»، مبحث «**أزمة المثقفين في اختيار منهج النهضة**»، وما ورد فيه عن أسباب الأزمة والجمود وضعف الاجتهاد والجهل بحقيقة الإسلام. فقد تناول الجزء الثاني هذه الجوانب تفصيلًا.

(184) الجيل المُخَضْرَم: يُطلَق عَلَىٰ مَنْ أَدرَكَ عَصرينِ مُتباينَينِ وَانتقَلَ مِن أَحدِهِمَا إِلَىٰ الآخَرِ. وأَصلُ المصطلح في التراث الإسلامِيِّ يُستعمل لمن عاشَ فِي الجاهلية ثم أدركَ الإسلام، وإن لَمْ يَلْقَ النبي ﷺ عندَ جمهورِ أهلِ العلم، ثم تُوسِّعَ فِي استِعمَالِه فأصبحَ يُطلَق علىٰ كل جيلٍ شَهِدَ انتِقالًا بين مرحلتينِ تَاريخِيَتَينِ مُختلفَتَينِ.

أُمورِهَا، وَاحتَلَّ مَكانَ الزَّعَامَةِ الفِكْرِيةِ وَالرُّوحيّةِ وَالسياسِيّةِ وَالتنفيذِيةِ مِنهَا، فدفعَ بالشعُوبِ مُغافلةً إِلَىٰ مَا يُرِيدُ، بَل إِلَىٰ مَا أَلِفَ، وَهِيَ لَا تَدرِي مَا يُرَادُ بِهَا وَلا مَا تَصِيرُ إِلَيهِ، وَارتفعَتْ أَصوَاتُ الدُّعاةِ إِلَىٰ الفِكرَةِ الطَّاغيَةِ: أَنْ خَلِّصُونَا مِمَّا بَقِيَ مِنَ الإِسْلامِ وَآثَارِ الإِسْلامِ»[185].

وَقَدْ سَبَقَ الْحَدِيثُ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي عَنْ هَذَا الِاتِّجَاهِ التَّغْرِيبِيِّ، وَعَنْ أَثَرِ الِانْبِهَارِ بِالْغَرْبِ وَنَقْلِ نُظُمِهِ وَمَنَاهِجِهِ إِلَىٰ الْمُجْتَمَعَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ دُونَ مُرَاعَاةٍ لِخَصَائِصِ الْأُمَّةِ وَمَرْجِعِيَّتِهَا[186]. وَالَّذِي يَعْنِينَا هُنَا هُوَ أَثَرُ هَذَيْنِ الِاتِّجَاهَيْنِ فِي تَعْمِيقِ الْفَجْوَةِ بَيْنَ الْأُمَّةِ وَمَشْرُوعِ نَهْضَتِهَا.

فَقَدْ وَقَعَتِ الْجَمَاهِيرُ بَيْنَ طَرَفَيْنِ: طَرَفٍ يُقَدِّمُ لَهَا الإِسْلَامَ فِي صُورَةٍ ضَيِّقَةٍ لَا تُجِيبُ عَنْ أَسْئِلَةِ الْحَيَاةِ، وَطَرَفٍ آخَرَ يَدْعُوهَا إِلَىٰ نَمُوذَجٍ مُنْفَصِلٍ عَنْ رُوحِهَا وَمَرْجِعِيَّتِهَا. وَمِنْ هُنَا نَشَأَتْ حَالَةٌ مِنَ **الْبِطَالَةِ الْمُتَبَادَلَةِ**؛ فَالْأُمَّةُ مُتَمَسِّكَةٌ بِإِسْلَامِهَا مِنْ حَيْثُ الْعَاطِفَةُ وَالِانْتِمَاءُ، وَلَكِنَّهَا لَا تَمْلِكُ فَهْمًا وَاضِحًا يُمَكِّنُهَا مِنْ صِيَاغَةِ حَيَاتِهَا عَلَىٰ أَسَاسِهِ، وَالْمَشْرُوعَاتُ الَّتِي تُقَدَّمُ لَهَا بَعِيدَةٌ عَنْ رُوحِهَا وَمَرْجِعِيَّتِهَا، فَلَا تَتَفَاعَلُ مَعَهَا التَّفَاعُلَ الَّذِي يَصْنَعُ نَهْضَةً حَقِيقِيَّةً.

وَهُنَا تَبْرُزُ دِقَّةُ تَشْخِيصِ الإِمَامِ الْبَنَّا حِينَ حَذَّرَ إِخْوَانَهُ قَائِلًا: «**سَيَقِفُ جَهْلُ الشَّعْبِ بِحَقِيقَةِ الإِسْلَامِ عَقَبَةً فِي طَرِيقِكُمْ**»[187].

فَالْمُشْكِلَةُ لَمْ تَكُنْ فِي انْعِدَامِ الْمَحَبَّةِ لِلْقُرْآنِ أَوِ الِانْتِمَاءِ إِلَىٰ الإِسْلَامِ، وَإِنَّمَا فِي الْجَهْلِ بِحَقِيقَتِهِ وَمَبَادِئِهِ وَمَقَاصِدِهِ، وَفِي الْعَجْزِ عَنْ تَحْوِيلِ هَذَا الِانْتِمَاءِ إِلَىٰ مَنْهَجٍ لِلْحَيَاةِ وَالْعَمَلِ.

فَقَدْ يَقْرَأُ الْإِنْسَانُ الْقُرْآنَ وَيُعَظِّمُهُ وَيَتَبَرَّكُ بِهِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَمْتَلِكُ الْفَهْمَ الَّذِي يُمَكِّنُهُ

(185) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة الإخوان تحت راية القرآن]، ص 386.
(186) انظر في هذا الكتاب: شرح رسالة «**نحو النور**»، ولا سيما ما ورد في الحديث عن أثر الاستعمار، والتعليم والثقافة الغربية، ونقل النماذج الغربية إلىٰ البيئة الإسلامية دون ميزان نقدي أو مرجعية إسلامية.
(187) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة الإخوان تحت راية القرآن]، ص 395.

مِنْ تَحْوِيلِ هِدَايَتِهِ إِلَىٰ وَاقِعٍ؛ وَمِنْ ثَمَّ يَفْقِدُ الْإِخْلَاصُ جُزْءًا كَبِيرًا مِنْ أَثَرِهِ الْفَعَّالِ إِذَا لَمْ يَصْحَبْهُ فَهْمٌ صَحِيحٌ وَوَعْيٌ بِمَقَاصِدِ الدِّينِ وَطَبِيعَةِ الْوَاقِعِ.

## 2-اعْتِزَازُ الأُمَّةِ بِدِينِهَا

رَغْمَ الجُهُودِ الَّتِي تُبْذَلُ لِحَرْفِ أُمَّتِنَا عَنْ دِينِهَا، فَإِنَّ الأمةَ بفطرتِهَا تَرفضُ كَل نموذجٍ يُقدَّمُ لَها، إِذَا كانَ بَعيدًا عَنْ دِينِهَا، وَلذلِكَ لَم تُقابِلْ مِثلَ هَذِهِ المشاريعِ الكثيرَةِ الّتِي قُدّمَتْ مِن أَجْلِ خُروجِ الأمّةِ مِنْ مَأزِقِهَا إِلَّا بِالنفُورِ وَالمُقاومَةِ، لأنّها مشاريعُ تجمعُ الأمّةَ عَلَىٰ غيرِ الإسلامِ، وَإِنْ دُفِعَ الناسُ دَفعًا إِلَىٰ التزامِ هَذِهِ المشاريعِ، أَوْ مُحاولَةِ تَحقيقِهَا فِي وَاقِعِهِمْ، فَكانَتِ النتيجةُ الفشَلَ الذريعَ؛ لإحساسِ المجتمَعِ المسلمِ بأنّ مَا يُقدَّمُ بَعيدٌ عَنْ دِينِهِ، وَهَذَا دليلٌ عَلَىٰ ارتباطِ الأمةِ بدينِهَا وَإخلاصِهَا لقُرآنِهَا، رَغْمَ أنّها لَا تَعرِفُ كَيفَ تُظهِرُ هَذَا الإخلاصَ، وَكيفَ تَحمِلُ هَذَا الدِّينُ الّذِي تُؤمِنُ بِهِ، لَكنَّهَا تُعلِنُ اعتزَازَهَا بِالانتسابِ إِلَيْهِ، كلّمَا حَانتِ الفُرصةُ لإمكانيّةِ تَحقيقِهِ.

إِنَّ رَجُلَ الشارعِ العَاديِّ مُستعِدٌّ لِلتضحيَةِ وَتَحمُّلِ الأذَىٰ، إِذَا بَدتْ مِنْ أَيِّ جَماعةٍ أَوْ أصحَابِ مَشَاريعَ؛ إمكانيةُ تَحقيقِ الإسْلامِ، بدأَ جَمالُ عَبدِ الناصرِ إِحْدَىٰ خُطبهِ بِـ (الحَمْدُ للهِ)، فصفَّقَتِ الجَماهيرُ تَصفِيقًا حَارًّا، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا مِنْ عَادتِهِ، وأخذَتِ الجَماهيرُ تُصفِّقُ تَصفِيقًا مُثِيرًا للدهشَةِ والإعجَابِ، **وَإِنْ دلَّ ذَلِكَ التصفيقُ عَلَىٰ شيءٍ، فإِنَّمَا يَدلُّ عَلَىٰ صِلَةِ الجماهيرِ بِالإسلامِ عَنْ مَحبّةٍ وشُعورٍ وَوِجْدانٍ، لَا عَنْ فِكرةٍ وَقَانونٍ، رَغمَ كُلِّ مَظاهرِ الانحرَافِ أَوِ البُعدِ عَنِ الدِّينِ، ولكنْ هَذِهِ هِيَ حقيقةُ النفوسِ**، حتَّىٰ السادَاتُ تَعوَّدَ أَنْ يَبدَأَ خُطبَه بِبِسْمِ اللهِ وَبعضِ الآيَاتِ، وَيَختمَهَا أيضًا بقَولِهِ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:٨]، فَكَانَ يَجِدُ لِذَلِكَ قَبُولًا مِنْ عَامّةِ النّاسِ، لِارتبَاطِهِم بِالدِّينِ.

إِنَّ إمكانيةَ تَحقيقِ الإسْلامِ وَإِنْ بَدا فِي مِثْلِ هَذِهِ الشعَارَاتِ، وَلَمْ يَسنِدْهُ شَيْءٌ مِنَ الوَاقِعِ، لَكِنَّ مُجرّدَ أَنْ يَبدُوَ فِي شَيءٍ مِنَ الشّعَارِ فإِنَّ الأملَ يَعودُ لِلنَّاسِ، وَيَعنِي ذَلِكَ أنّها مُمكِنٌ أَنْ تَرتبِطَ مَرةً أخرَىٰ بِدينِهَا وَتَصُوغَ حَياتَها عَلَىٰ أَسَاسِهِ؛ لأنَّ هَذَا فِي

أعمَاقِ النفْسِ مَطلَبٌ إِلَهِيٌ.

إِنَّ الإِنْسَانَ يَعِيشُ وَفْقَ مَثَلِهِ الأَعْلَىٰ؛ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ الأُسْوَةُ الْحَسَنَةُ فِي تَجْسِيدِ هُدَىٰ اللهِ وَشَرْعِهِ، وَالْقُرْآنُ هُوَ الْمِيزَانُ وَالْهَادِي.

فالناسُ مُرتبطَةٌ بكِتَابِ رَبِّهَا وَبِسنَّةِ نَبِيِّهَا، وَكُلَّما أَتَتْ فُرصَةٌ لِلتعْبيرِ عَن ذَلِكَ، فَإِنّها تُسرِعُ فِي التَّعبيرِ عَنهُ.

وَمِنَ الأَمْثِلَةِ الشَّاهِدَةِ عَلَىٰ ذَلِكَ مَا وَقَعَ حِينَ أَعْلَنَتْ إِحْدَىٰ مُذِيعَاتِ الْفَضَائِيَّاتِ[188] ارْتِدَاءَهَا الْحِجَابَ؛ فَقَدْ لَقِيَ هَذَا الْحَدَثُ تَرْحِيبًا وَاسِعًا مِنْ عُمُومِ الْمُسْلِمِينَ، وَخَاصَّةً أَنَّهُ وَقَعَ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، فَدَعَا لَهَا كَثِيرٌ مِنَ الْمُصَلِّينَ، وَوَرَدَتْ إِلَيْهَا رَسَائِلُ وَتَهَانٍ مِنْ مَكَانَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَتَنَاوَلَتِ الصُّحُفُ الْعَلْمَانِيَّةُ الْحَدَثَ أَيْضًا. وَإِنْ دَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ شَيْءٍ فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَىٰ بَقَاءِ التَّعَلُّقِ بِالدِّينِ فِي نُفُوسِ النَّاسِ، وَإِنْ ضَعُفَ فَهْمُهُمْ لَهُ أَوْ قَلَّ التِزَامُهُمْ بِبَعْضِ أَحْكَامِهِ. وَهَذَا هُوَ الْمَعْنَىٰ الَّذِي أَكَّدَهُ الإِمَامُ الْبَنَّا حِينَ نَهَىٰ إِخْوَانَهُ عَنِ الْيَأْسِ، رَغْمَ مَا يَبْدُو فِي الْمُجْتَمَعِ مِنْ مَظَاهِرِ الِانْحِرَافِ.

يقولُ الإمامُ البنَّا: «أَيّها الإخوَانُ المُسلمُونَ: لَا تيأسُوا فَلَيسَ اليأسُ مِن أخلاقِ المُسلِمِينَ، وَحقائقُ اليَوْمِ أَحلامُ الأمسِ، وَأحلامُ اليومِ حَقائقُ الغَدِ. وَلَا زَالَ فِي الوَقْتِ مُتّسَعٌ، وَلَا زَالَتْ عَناصِرُ السَّلامةِ قَويةً عَظيمةً فِي نُفُوسِ شُعوبِكُمْ المُؤمِنَةِ رَغمَ طُغيانِ مَظاهرِ الفَسَادِ. وَالضَّعيفُ لَا يَظلُّ ضَعِيفًا طُولَ حَياتِهِ، وَالقَوِيُّ لَا تَدُومُ قُوتُهُ أَبدَ الآبِدِينَ: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: 5، 6]»[189].

## 3-الدِّينُ أَساسُ المشْرُوعِ

لَقد بُنِي الإسلامُ عَلَىٰ الحُبِّ وَالتعارُفِ، وَأَرادَ الأستاذُ البنَّا أَنْ يُظهِرَ هَذَا الكِيانَ،

(188) المقصود الإعلامية الجزائرية خديجة بن قنّة، مذيعة قناة الجزيرة، التي أعلنت ارتداء الحجاب في أواخر شهر رمضان سنة 1424هـ/ 2003م، وقد أثار قرارها تفاعلًا واسعًا في عدد من البلدان الإسلامية، ونقلت الصحافة تهنئة آلاف المصلين لها في المسجد الأقصىٰ. انظر: صحيفة الحياة، 27 نوفمبر 2003م.

(189) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة المؤتمر الخامس]، ص 376.

وَيُظهِرَ سِماتِه بِهذِهِ الصُّورَةِ، فَحِينَ طَرَحَ فِيهِ مَشرُوعَهُ لِكَيْ نَخرُجَ بالأمَّةِ مِنْ مَأزِقِهَا، اعتَمَدَ (الدِّينَ) أَسَاسًا لِهَذَا المشروعِ، لأنّهُ أَدْرَكَ أنَّ الأمةَ تَرتَبِطُ بِهِ فِي أعمَاقِ نَفسِهَا ارتِبَاطَ مَحبَّةٍ وَوِجْدَانٍ، وَلَيسَ ارْتِبَاطَ فِكرَةٍ وقَانُونٍ، وَمِنْ ثَمَّ لَا يَكَادُ رجلُ الشارعِ العَادِيِّ يَرىٰ أيّ مُحاولَةٍ لِتحْقيقِ الإِسْلَامِ، أَوْ يَستَشْعِرُ إمكانيةَ إِقَامَتِهِ؛ حَتَّىٰ تَجِدَهُ يُبدِي استِعدَادَهُ للكفاحِ وَتَحمُّلِ الأذَىٰ، وَبخَاصَّةٍ عِندَمَا يَرىٰ الصِّدْقَ فِعلًا فِي دُعَاةِ أيِّ مَشرُوعٍ يحاولُ إخرَاجَ الأمّةِ مِن مَأزِقِهَا، وَلِهذَا أَسَّسَ الإمامُ البنَّا مَشرَوعَهُ أَوْ فِكرَتَه عَلَىٰ القُرآنِ وَالسَّنةِ، ولَعلَّكَ تَلحظُ أنّه سَمَّىٰ هَذِهِ الرسَالَةَ: **(الإِخْوَانُ تَحتَ رايةِ القُرآنِ)**.

## ثانيًا: التَّصَوُّرُ الإِسْلَامِيُّ لِلْإِنْسَانِ وَالمُجْتَمَعِ

### 1-حَقِيقَةُ الدِّينِ

حاولَ الإمامُ البنَّا - حِينَمَا تَقدَّمَ بِفكرتِهِ إِلَىٰ الأمةِ - أَنْ يَتجنَّبَ المَأزِقَ الّذِي وقع فِيهِ مَن سَبقَهُ، مِمَّنْ كَرَّسُوا الجُمودَ فأغلقُوا بَابَ الاجتِهَادِ، وَعَدُّوا كُلَّ محاولةٍ لِفَهْمِ الشَّريعَةِ فَهمًا وَاسِعًا رَحِيبًا، تَهَجُّمًا محرمًا عَلَىٰ الدِّينِ، فَظَلَّ الدِّينُ يُراوحُ فِي مكانٍ وَاحدٍ، وَكَأنَّه غَيرُ قَادرٍ عَلَىٰ النهوضِ بالناسِ روحيًّا وماديًّا، حَتَّىٰ وَهِمَ بعضُ الناسِ أنَّ هَذِهِ هِيَ طبيعَةُ هَذَا الدِّينِ.

أَمَّا الإِمَامُ البنَّا فَأَكَّدَ تَكامُلَ الجَانبينِ الرُّوحِيِّ وَالمَادِّي فِي حَضَارَتِنَا الإسلاميّةِ، وَلَقدِ اكتَوىٰ العَالَمُ كُلُّه بنيرَانِ الحَضارَةِ الغَربيّة؛ لأنّهَا غَلَّبتِ الجَانِبَ المَاديَّ عَلَىٰ الرُّوحِيِّ، يَقولُ الإمَامُ البنَّا: «وَإِلَىٰ هَذَا اللَّونِ مِنَ التفْكيرِ الذِي يَجمَعُ بَينَ العَقليتَينِ الغَيْبيّةِ وَالعِلْمِيّةِ نَدعُو الناسَ. لقَدْ عَاشَ الغَربُ أُخريَاتِ أيَّامِهِ مَادِّيَ النزعَةِ لَا يَشعُرُ بِغَيرِ المَادَّةِ وَلا يَعترفُ بِغَيرِ المَادَّةِ وَلَا يُحِسُّ بوجُودِ غَيرِهَا حَتَّىٰ مَاتَتْ فِي نُفُوسِ أَبنَائِهِ عَواطِفُ الرَّحْمَةِ الإنسَانيّةِ، وَخَبَتْ أَنواعُ الرُّوحَانيّةِ الرَّبانيّةِ. وَهَيمَنَ الغَربُ عَلَىٰ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا بعُلُومِهِ وَمَعارِفِهِ وَمَباهِجِهِ وَزَخارِفِهِ وَكُشوفِهِ وَمُخترعَاتِهِ وَجُنودِهِ وَأَموالِهِ، وَصَبغَ الفِكْرَ البشَرِيَّ فِي كُلِّ مَكانٍ بِصِبْغَتِهِ هَذِهِ. وَالآنَ وَالدُّنْيَا كُلُّهَا تَكتَوِي بِهذِهِ النِّيرانِ تَنبثِقُ هذِهِ الدعوَةُ مِنْ جَانبٍ جَديدٍ لِتُهِيبَ بِالنَّاسِ فِي الشَّرْقِ وَالغَربِ

مَعًا أَنْ يَمزِجُوا المَادَّةَ بِالرُّوحِ، وَأَنْ يُؤمِنُوا بِالغَيبِ وَالشَّهادَةِ، وَأَنْ يَتَعَرَّفُوا مِنْ جَدِيدٍ إِلَىٰ اللهِ: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذريات:50]»[190].

## 2-لَا يَكْتَمِلُ الجُهْدُ الرُّوحِيُّ إِلَّا بِجُهْدٍ مَادِّيٍّ

إِنَّ الإِسْلامَ يَصوغُ المُجتمعَ وَالإنسَانَ خُلقِيًّا وَرُّوحِيًّا، وَيُيَسِّرُ لَهُ في الوقتِ ذاتِهِ حَياتَهُ المَادية، وَيَنهَضُ بِهَا كَذلِكَ، وَهَذِهِ هِيَ طَبيعةُ الإِسْلامِ عِنْدَمَا يُحاوِلُ أَنْ يَنهضَ بِالإنسَانِ، فَلا يَعتَنِي بِالجَانِبِ الرُّوحِيِّ أَوِ الأخلاقِيِّ أَوِ التَّعبُّدِيِّ فَحسْبُ، وَإِنّما يَعتنِي أَيضًا بالجانبِ المَادِّي وَيُيسِّرُهُ وَيُعينُ عَلَىٰ النهوضِ بِهِ كَذلِكَ، هَذِهِ هِيَ غايةُ الدِّينِ، وَذَلكَ أَنَّ كُلَّ نُهوضٍ رُوحِيٍّ إِنَّما يَتِمُّ بِجُهْدٍ مَادِّيٍّ، فَالصَّلاةُ تَبدأُ بِالوضُوءِ وَهُوَ عملٌ مَادِّيٌّ يَتمثَّلُ فِي (الطهارَةِ)، وَرَغمَ أَنَّ الصلاةَ أَعظَمُ تَّعبيرٍ رُّوحِيٍّ عَنْ صِلَةِ الإنسانِ بربِّه، فإنّهَا لَيْسَتْ جُهدًا رُوحِيًّا فقَط، وَإِنَّما تُمهِّدُ وَتُوَطِّأُ بِجُهدٍ مَادِّيٍّ (الطهارةِ وَالوضوءِ): ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222].

وَكَذَلِكَ الصِّيامُ، يَجْمَعُ بينَ الجُهْدَينِ الماديِّ والرُّوحيِّ؛ فالجُهدُ المَادِّيُ، يَتمثّلُ فِي الامتِنَاعِ عَنِ الطَّعامِ وَالشرَابِ ابتِغَاءَ الجَزاءِ مِنَ اللهِ عَزّ وَجَلَّ، وَكَذلِكَ الحَجُّ جُهدٌ مَادِّي ضَخمٌ، لِكَيْ يُحقِّقَ ذَلِكَ مَعنًىٰ رُّوحِيًّا أَوْ نُهوضًا رُوحِيًّا، فَهَذِهِ حقيقةُ الدِّينِ، وَهَذِهِ طَبيعَةُ الإِسْلامِ وَفلسَفَتُه.

إِنَّ كُلَّ جُهدٍ رُوحِيٍّ يَكتَمِلُ بِجُهدٍ مَادِّيٍّ، وَبذَلكَ تَرتبطُ الحضَارَةُ بالثقَافةِ فِي الإِسْلامِ، فَهِيَ لَيسَتْ مُنفصِلَةً عن الرُّوحِ، فَالمادَّةُ تَخدُمُ الرُّوحَ، وَهَذَا هُوَ الّذِي يُميِّزُنَا عَنْ غَيرِنَا مِنَ الدَّعَواتِ كَمَا ذكَرَ الإِمَامُ البنَّا فِي آخرِ هَذِهِ الرسَالةِ (الإِخوَانُ تَحتَ رَايةِ القُرْآنِ)، فَقَالَ: «أَيّها الإِخوانُ المُسلمُونَ: هَذِهِ مَنزلَتُكُمْ، وَتِلْكَ طَبيعَةُ دَعوَتِكُمْ، فَلا تَصْغُرُوا فِي أَنفُسِكُمْ، فَتقِيسُوا أنفُسَكُمْ بِغَيرِكُمْ، أَوْ تَسلُكُوا فِي دَعوتِكُمْ سَبِيلا غَيرَ سَبيلِ المُؤمنِينَ، أَوْ تُوازِنُوا بَينَ دَعْوَتِكُمْ التِي تَتخِذُ نُورَهَا مِنْ نُورِ اللهِ وَمِنهَاجَهَا مِنْ سُنةِ رَسُولِهِ، بِغَيرِهَا مِنَ الدعوَاتِ التِي تَخْلُقُهَا الضَّرورَاتُ، وَتَذْهَبُ بِهَا الحوَادِثُ

(190) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة دعوتنا في طور جديد]، ص 483.

وَالأَيَّامُ»[191].

وَفِي إِطَارِ هَذَا التَّكَامُلِ حَرَصَ الإِمَامُ البَنَّا عَلَىٰ التَّقَدُّمِ المَادِّيِّ، فَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَىٰ تَرْبِيَةِ الإِيمَانِ وَإِعْدَادِ النَّفْسِ لِلْبَذْلِ وَالتَّضْحِيَةِ وَالكِفَاحِ، وَإِنَّمَا أَكَّدَ أَهَمِّيَّةَ التَّقَدُّمِ المَادِّيِّ وَالنُّبُوغِ العِلْمِيِّ؛ لِأَنَّ التَّخَلُّفَ المَادِّيَّ وَالعِلْمِيَّ يُؤَثِّرُ فِي الوَسَائِلِ وَطُرُقِ التَّفْكِيرِ، وَيَحُدُّ مِنْ قُدْرَةِ الدَّعْوَةِ عَلَىٰ التَّأْثِيرِ وَالنَّجَاحِ.

وَمِنْ هُنَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَ الإِمَامِ البَنَّا هَذَا الفِصَامُ النَّكِدُ بَيْنَ المَادَّةِ وَالرُّوحِ، بَلْ وَضَعَ نُصْبَ عَيْنَيْهِ - وَهُوَ يُؤَسِّسُ هَذِهِ الجَمَاعَةَ - أَنْ يُرَبِّيَ إِخْوَانَهُ عَلَىٰ الجَانِبَيْنِ الرُّوحِيِّ وَالمَادِّيِّ مَعًا؛ فَدَعَا إِلَىٰ نِظَامٍ مِنَ التَّعَارُفِ وَالتَّكَافُلِ وَالتَّفَاهُمِ بَيْنَ الإِخْوَانِ، حَتَّىٰ لَا يَشْعُرَ الأَخُ بِأَنَّهُ غَرِيبٌ فِي مُجْتَمَعِهِ، أَوْ يَعِيشَ الوَحْدَةَ وَالغُرْبَةَ وَالجَفْوَةَ وَالخِذْلَانَ وَالحِرْمَانَ. وَتِلْكَ صُورَةٌ عَمَلِيَّةٌ مِنَ التَّرْبِيَةِ، لَا مُجَرَّدُ شِعَارَاتٍ؛ لِأَنَّ صَفَّ الإِخْوَانِ يُمَارِسُهَا، فَيَتَعَلَّمُهَا بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ.

وَعِنْدَمَا تَكَلَّمَ الإِمَامُ البَنَّا عَنِ (التَّكَافُلِ)، وصفَهُ بأنهُ: صَرِيحَ الإِيمَانِ وَلُبَّ الأُخوةِ؛ كَيْ يَحرِصَ إِخوَانُه عَليهِ، فَقَالَ: «وَالتَّكَافُلُ: هُوَ الرُّكْنُ الثَّالِثُ، فَتَكَافَلُوا، وَلْيَحْمِلْ بَعْضُكُمْ عِبْءَ بَعْضٍ، **وَذَلِكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ وَلُبُّ الأُخُوَّةِ**، فَلْيَتَعَهَّدْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِالسُّؤَالِ وَالزِّيَارَةِ وَالبِرِّ، وَلْيُبَادِرْ إِلَىٰ مُسَاعَدَتِهِ مَا وَجَدَ إِلَىٰ ذَلِكَ سَبِيلًا، وَتَصَوَّرُوا قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: (لَأَنْ يَمْشِيَ أَحَدُكُمْ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَعْتَكِفَ فِي مَسْجِدِي هَذَا شَهْرًا)[192]، (مَنْ أَدْخَلَ السُّرُورَ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ مِنَ المُسْلِمِينَ لَمْ يَرَ اللهُ لَهُ جَزَاءً دُونَ الجَنَّةِ)[193]، وَاللهُ يُؤَلِّفُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ بِرُوحِهِ، إِنَّهُ نِعْمَ المَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ»[194].

وَكَانَ بَعْضُ إِخْوَانِنَا يَحْكِي هَذِهِ القِصَّةَ: لَمَّا دَخَلَ الإِخْوَانُ السُّجُونَ فِي عَامِ (1954م)

(191) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [الإخوان المسلمون تحت راية محمد ﷺ]، ص 395.
(192) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [نظام الأسر]، ص 535.
(193) أخرجَهُ الحَاكِمُ فِي مُستدرَكِهِ، طَبعة دَار الكتب العلمية، (4/ 300)، بِهذَا اللَّفْظِ: «لَأَنْ يَمْشِيَ أَحَدُكُمْ مَعَ أَخِيهِ فِي قَضَاءِ حَاجَتِهِ أَفْضَلُ مِنْ أَنْ يَعْتَكِفَ فِي مَسْجِدِي هَذَا شَهْرَيْنِ، وَأَشَارَ بِإِصْبَعِهِ».
(194) رواه الطبراني في (الأوسط) عن عائشة رضيَ اللهُ عنهَا بهذا اللفظ: «مَنْ أَدْخَلَ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سُرُورًا لَمْ يَرْضَ اللهُ لَهُ ثَوَابًا دُونَ الْجَنَّةِ»، رقم (7519).

كُلِّف أَحدُ الإخوةِ، وَهُوَ من الإخوانِ القُدامىٰ، كَانَ شَابًّا وَقْتَها فِي الثانويّةِ لَمّا حَدثتِ هذِهِ المِحنَةُ، وَكُلِّفَ مِن مَسؤوليهِ أَنْ يُرسِلَ مَبلغًا مِنَ المَالِ (عَمليّة التكَافُل) لأخَوينِ مِنَ الإخْوَةِ مَسجُونَينِ يَقضِيَانِ خَمسةً وَعِشرينَ سَنةً فِي السِّجْنِ، فَذهبَ إِلَىٰ عائلَةِ الأوَّلِ مِنهُم، فَوجدَ أُسْرَةً فَقِيرةً تَعيشُ تَحتَ خَطِّ الفَقْرِ فِي قَريَةٍ مِنَ القُرىٰ التابعَةِ لِلجِيزَةِ فِي ذَلِكَ الوَقتِ، وَلمَّا طَرقَ البابَ، وَجدَ أُمًّا كبيرَةً عَجُوزًا، وعَلَيها آثارُ الفَقرِ وَالحِرمَانِ وَالعوَزِ، وَلمَّا فَتحَتِ البَابَ وَجدَ إخْوةً صِغَارًا شِبهَ عَرايَا، وقالَ أَنا جِئتُ بِالمبلَغِ هَذَا مِنْ فُلانٍ (ابنِكِ الّذِي فِي السِّجْنِ) فَسَبَّتْ وَلَعنَتْ وقَالَتْ لَه: أنتُمُ الذِينَ فَعلتُم فِيهِ كَذا وَكَذَا، وتَحمَّلَ بَعضَ الإيذَاءِ وَتَركَها وَانصرَفَ، وذَهَبَ لِلأَخِ الآخرِ، فَوَجدَ أُسْرةً مُستريحَةً تَعيشُ عيشةَ الكرَامَةِ لَا الرفَاهيةِ، تَعِيشُ عِيشَةً كَريمَةً، لكنّهَا لَيسَتْ مرُفَّهةً طَبعًا، تَحتاجُ إِلَىٰ بعضِ المُساعدَةِ القَليلَةِ، فَلمَّا فُتِحَ لَه قَابلتْهُ زَوجَةُ الأخِ الّذِي كَانَ فِي السِّجْنِ، فَرحَّبَتْ بِه تَرحيبًا كَبِيرًا، فوجَدَ البَيتَ مَسْتُورَ الحَالِ، وَكَانَ عِنْدَه ثَمانيَةُ أَوْلادٍ أَكبَرُهُم فِي الابتدَائِيّةِ، ولكنْ قَابلتْهُ مُقابلَةً طَيبةً وَشَكرتْهُ وَدَعتْ لَه: «رَبّنَا مَعكُم وَيُفرِّجُ كُربتكُمْ»، فيقُولُ: أَدرَكْتُ أَنّ صَاحِبَ البَيتِ الأَوّلِ لَنْ يَستَطِيعَ أَنْ يَستمِرَّ فِي السِّجْنِ، فَظُروفُ الأُسْرَةِ عَلَىٰ هَذِهِ الحَالةِ سَوفَ تَضغَطُ عَليهِ، أمَّا الآخرُ فَيُمْكِنُ أَنْ يَستَمِرَّ وَيَصبِرَ وَيثبُتَ.

وَيُكمِلُ الأخ قائلًا: وبعدَ سَنواتٍ قِصَارٍ، تَنكَّرَ هَذَا الأخُ صَاحِبُ البيتِ الفَقِيرِ المُعدمِ، لِمَبادِئِهِ، وَأَيَّدَ الحُكومةَ فِيمَا عُرِفَ بِـ(مِحْنَةِ التّأييدِ)؛ لِكَيْ يَخرُجَ مِنَ السِّجنِ بَعدَ خَمسِ سَنواتٍ بَعدمَا كَانَتْ تَنتظِرُهُ خَمسَةٌ وعشرونَ سَنةً وَرَاءَ الأَسْوَارِ، فَشَقَّ طَرِيقَهُ بعدَمَا خَرجَ بَعِيدًا عَنِ الدَّعوَةِ تَمامًا. وأمَّا الآخَرُ فَثبَتَ وَعَاشَ اثْنينِ وَعشرينَ سِنةً، وَلَقد رَأيتُه فِي السِّجْنِ، كُلُّ الأولادِ الصِّغَارِ كَبُرُوا والبنَاتُ تَزَوَّجْنَ، وَالأولَادُ الذكُورُ تَخرَّجُوا، مِنْهُم مَنْ أَصبحَ طَبِيبًا ومَنْ أَصبحَ مُهنْدِسًا، والرجلُ ثَبتَ وَخَرجَ وظَلَّ مُرتَبِطًا بِدعْوتِهِ حَتَّىٰ وَافاهُ الأجلُ، وَمَاتَ رَحِمَهُ اللَّهُ بعدَ خُروجِهِ مِنَ السِّجْنِ بِفترَةٍ وَجِيزَةٍ، بعدَ اثْنينِ وَعشرينَ عَامًا قضاها في السِّجن.

وَالشَّاهِدُ مِنْ هَذِهِ القِصَّةِ أَنَّ النُّهُوضَ الرُّوحِيَّ لِلْإِنْسَانِ لَا يَنْفَصِلُ عَنْ أَوْضَاعِهِ المَادِّيَّةِ؛ فَالعَوَزُ الشَّدِيدُ وَالحَاجَةُ المُلحَّةُ قَدْ يَسْتَنْفِدَانِ قُوَّةَ الإِنْسَانِ، وَيَجْعَلَانِ الثَّبَاتَ

وَالصَّبْرَ عَلَيْهِ أَشَقَّ. وَإِذَا كَانَتْ قُوَّةُ الرُّوحِ هِيَ الَّتِي تَحْفَظُ لِلْإِنْسَانِ تَمَاسُكَهُ فِي المِحَنِ، فَإِنَّ تَوْفِيرَ الحَدِّ الَّذِي يَصُونُهُ وَأُسْرَتَهُ مِنَ العَوَزِ يُعِينُ هَذِهِ الرُّوحَ عَلَىٰ الثَّبَاتِ وَالنُّهُوضِ. وَمِنْ هُنَا لَمْ يَكُنِ التَّكَافُلُ فِي المَنْهَجِ التَّرْبَوِيِّ أَمْرًا مَادِّيًّا مُجَرَّدًا، بَلْ كَانَ سَنَدًا لِلبِنَاءِ الرُّوحِيِّ وَالتَّرْبَوِيِّ، وَتَجْسِيدًا لِتَكَامُلِ المَادَّةِ وَالرُّوحِ فِي التَّصَوُّرِ الإِسْلَامِيِّ.

هَذِهِ حَقِيقَةٌ تُبَشِّرُ بِهَا دَعْوَتُنَا، مَا دَامَتْ تَسْتَقِي قِيَمَهَا مِنْ أُصُولِ الْإِسْلَامِ (الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ)؛ فَلَا يَكْتَمِلُ الْجُهدُ الرُّوحِيُّ إِلَّا بِجُهْدٍ مَادِّيٍّ، وَأَبْرَزُ مِثَالٍ لِهَذَا الْمَعْنَىٰ هُوَ (الصَّلَاةُ)، فَقَدْ أَشَرْنَا مِنْ قَبْلُ إِلَىٰ أَنَّهَا لَا تَكْتَمِلُ، بَلْ لَا تَصِحُّ بِغَيْرِ الطَّهَارَةِ وَالْوُضُوءِ؛ عَلَىٰ حِينِ نَجِدُ فِي الدِّيَانَاتِ الْأُخْرَىٰ كَالنَّصْرَانِيَّةِ مَا يُسَمَّىٰ (الْقَذَارَةَ الْمُقَدَّسَةَ)، فَبَعْضُ الرُّهْبَانِ لَا يَمَسُّ الْمَاءُ أَقْدَامَهُمْ إِلَّا عِنْدَ عُبُورِ الْأَنْهَارِ فَقَطْ، وَلَا يَمَسُّ أَجْسَادَهُمْ أَبَدًا؛ إِنَّهَا هَدْمٌ لِلْبِنَاءِ الْمَادِّيِّ لِلْجِسْمِ أَوِ الْبَدَنِ، وَمُحَاوَلَةُ الِابْتِعَادِ عَنْ مَطَالِبِهِ الْمَادِّيَّةِ وَحِرْمَانِهِ مِنْهَا.

لَكِنَّ الْإِسْلَامَ جَاءَ بِشَيْءٍ مُخَالِفٍ تَمَامًا.

وَيَكْفِي أَنَّ (يُوحَنَّا) وَيُسَمَّىٰ (سَيِّدَنَا يَحْيَىٰ) أَوْ (يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانَ) أَوْ (الْمُغْتَسِلَ)؛ وَذَلِكَ لِكَثْرَةِ اغْتِسَالِهِ بِالْمَاءِ، لِكَيْ يُبْعِدَ عَنْهُمُ الْأَفْكَارَ الْغَرِيبَةَ هَذِهِ الَّتِي جَاءَتْ إِلَيْهِمْ مِنْ مَوْرُوثَاتِ الْفَلْسَفَاتِ الْقَدِيمَةِ، هَذِهِ الْأَفْكَارُ الْبَالِيَةُ الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ طَبِيعَةِ الدِّينِ، وَلَكِنَّهُ التَّحْرِيفُ الَّذِي لَحِقَ بِكُلِّ شَيْءٍ يَتَّصِلُ بِهَذِهِ الدِّيَانَاتِ.

أَمَّا الإِسْلَامُ فَقَدْ ظَلَّ مَحفُوظًا، لأَنَّ اللهَ تَكفَّلَ بحِفْظِ كِتَابِه، وَمِنْ ثَمَّ تَجِدُ الجُهْدَ الرُّوحِيَّ فِي الإِسْلامِ يَكتَمِلُ بِجُهدٍ مَادِّيٍّ؛ فَالوضوءُ بِالماءِ أَوِ التَّيَمُّمُ جُهدٌ مَادِّيٌّ، وَالصِّيام جُهدٌ مَادِّيٌّ وَرُوحِيٌّ، والحجُّ كَذلِكَ، وَفِي الزكَاةِ جُهدُ مَشَقَّةٍ وَعَملٌ وَادِّخَارٌ، ثُمَّ إنفَاقٌ لِلمَالِ مِنْ أَجْلِ المَنفعَةِ العَامَّةِ وَالاقتِطَاعِ مِنهُ مِنْ أَجْلِ النفْعِ العَامِّ، حَتَّىٰ لَا يَشْعُرَ الإِنْسَانُ فِي المُجتمَعِ بِأنّهُ وَحِيدٌ فَرِيدٌ، أَوْ يَشعُرَ بِالغُربَةِ أَوِ العُزلَةِ، وَلَا يَشعُرَ فِي الوقتِ ذَاتِهِ بِالخِذْلَانِ وَالحِرمَانِ.

إِنَّ الفَقْرَ المَحضُ يَجعَلُ النهُوضَ الرّوحِيَّ أَمرًا غَيرَ مَيسُورٍ؛ إِذْ كَيفَ أَدْعُو إِلَىٰ اللهِ،

وَأَسعَىٰ إِلَىٰ نَهضَةِ الأمَّةِ، وأَثبُتُ للشَّدَائِدِ والمِحَنِ، وَأَنَا لَا أَجِدُ الطَّعَامَ؟!. صَحيحٌ أنَّ هُناكَ مَنْ ثَبتَ رَغْمَ فَقرِهِ، لَكنَّهم قَلِيلُونَ، ونَحنُ نَتكلَّمُ عَنْ عُمومِ الأمّةِ، ولذلِكَ تَحدَّثَ الأستاذُ البنَّا مَعَ عَلِي مَاهِر بَاشَا رَئيسِ الوُزراءِ، وَهُوَ يَشرَحُ لَه حَالَ الأمَّةِ، بِأنَّهَا أُمَّةٌ مُتعَبَةٌ، ويقُولُ لَه: كَيفَ تَنهضُ، وأنتُم تَسرقُونَها وَتَنهبُونَهَا ولَا تُعطُونَها إِلَّا الفُتَاتَ، وَتَطلبونَ مِنهَا أَنْ تَنهضَ مَعكُمْ.

قَالَ الإمامُ البنَّا هَذَا الكلامَ فِي رِسَالةٍ وَجَّهَهَا إِلَىٰ عَلي مَاهِر بَاشَا(ت 1960م) فِي ذَلِكَ الوقتِ، وقَالَ لَه هَذَا النَّصَّ الّذِي وَردَ فِي الرسَالَةِ « إِنَّ الفَقْرَ المَحْضَ يَجعَلُ النهُوضَ الرُّوحِيَّ أَمْرًا غَيرَ مَيسُورٍ » ، وَلِذلِكَ حَرصَ الإِسلامُ، وَهُو يؤسسُ النهوضَ الرُّوحِيَّ، عَلَىٰ أَنْ يوازيَهُ نُهوضٌ مَادِّيٌّ كذلكَ لِتَسييرِ الحَيَاةِ.

وللأُستاذِ عَليٍّ عِزت بِيجُوفيتش(ت2003م) كلمةٌ رائعةٌ، حَيثُ يَقولُ: لأنَّ هَذَا الدينَ دِينٌ دُنيويٌّ مُرتبِطٌ بِالحيَاةِ وَالعيشِ، فَهُوَ يقبلُ كُلَّ مَا يُغيِّرُ وَجهَ الحيَاةِ بِشَرْطِ أَنْ يتَوافرَ فِيهِ عُنصُرانِ:

- أَنْ يَكونَ إِنسَانيًّا لأقصَىٰ الحُدُودِ.
- وأَنْ يَكونَ فَعَّالًا بِلا حُدودٍ.

أَلَا يَتفقُ هَذَا الكلامُ معَ قَولِ الإِمَامِ البَنَّا فِي **الأَصْلِ الثَّامِنَ عَشَرَ مِن أُصُولِ الفَهْمِ**: «وَالإِسْلامُ يُحرِّرُ العَقلَ، وَيَحُثُّ عَلَىٰ النظَرِ فِي الكَونِ، وَيَرفعُ قَدْرَ العِلْمِ وَالعُلَمَاءِ، وَيُرحِّبُ بِالصَّالِحِ والنَّافِعِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَالحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤمِنِ أَنَّىٰ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا»[195].

ولئنْ تحدَّثَ عليّ عِزت بِيجُوفيتش عَنِ الإنسَانِ النَّاجِحِ، أَوِ (الإنسَانيةِ الفَعَّالَة)، لَقَدْ تَحدَّثَ حَسنُ البنَّا عَنِ (النَّافِعِ الصَّالِحِ).

فَكُلُّ مَا يُنضِّرُ وَجهَ الحيَاةِ وَيُيسِّرُهَا، يَنْبَغِي أَنْ يُضْبَطَ وَلَا يُلْغَىٰ ، وَهَذَا مَا فَهِمَهُ حَسنُ البنَّا، وَحَرصَ عَليهِ وَهُوَ يُربِّي هَذَا الجيلَ لِكَيْ يَخرُجَ بالأمَّةِ مِنْ مَأزِقِهَا.

(195) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة التعاليم]، ص 277.

لَـمْ يَقتَصِـرْ مفهـومُ التّربيـةِ لَـدىٰ الإمـام البنَّـا عَلَـىٰ الخُلُـقِ الحَسـنِ وَالاستِقامةِ الصَّارمَـةِ فَحَسْـبُ، وَإِنَّمـا اتَّسـعَ مَعناهَـا لِيشْـمَلَ العَقـلَ المُستنِيرَ وَالحيَـاةَ الكَريمَـةَ، إِنّهـا الكَرامَـةُ لَا الرفَاهِيـةُ، كَمـا يَقـولُ الإِمَـامُ: «وَلَـنْ يَستَشْـعِرَ أحـدٌ العِـزّةَ وَالكرامـةَ، وَيتـذَوَّقَ طَعـمَ الحَيـاةِ الكَريمَـةِ إِلَّا إِذَا شَـبِعَ بَطنُـه وَاسـتَغْنَىٰ عَـنْ غَيـرِهِ، وَتَوفَّـرتْ لَـهُ ضَروريّـاتُ حَياتِـهِ، وإِلَـىٰ ذَلِكَ نظَـرَ الإِسْـلامُ فَلَـمْ يُهمِـلِ المعَانِيَ الاقتِصَادِيّـةَ وَلَـم يَتغافَـلْ عَـن الإِصلاحِ المَالِي، بَـلْ إِنّـهُ وَضَـعَ لِذلِـكَ أَفضَـلَ القَواعِـدِ التِي تُنمِّـي وَحْـدَةَ الأُمّـةِ أَفـرَادًا وَجَماعَـاتٍ، وَتَـرْفَعُ مُستَوَىٰ المَعِيشَـةِ وَتُـقرِّبُ بيـنَ الطبقَـاتِ، وَتُؤمِّـنُ الجَميـعَ عَلَـىٰ أَنْـفُسِهِمْ وَذَرَارِيهِـم وَأَولادِهِـمْ، وَتَضمَـنُ لَهـم العَدالَـةَ الاجتِمَاعيـةَ الصَّحيحَـةَ، وَتُوفِّـرُ الفُـرصَ المُتكافِئَـةَ لِلجَميـعِ عَلَـىٰ السَّـوَاءِ»[196].

فَليسَ كُلّ النَّاسِ أَغنيَـاءَ، لَكنَّهـم مِـنْ حَقِّهـم أَنْ يَعِيشُـوا كُرمَـاءَ، أَنْ نُوفِّـرَ لَهُـم هَـذَا الحَـدَّ (حَـدَّ الكَرامـةِ لَا الرفَاهِيَـةِ). وَهَـذا مَـا حَـاوَلَ الإِمـامُ البنَّـا أَنْ يُوفِّـرَهُ، وَلِذلِـكَ كَانـتْ فكـرةُ (الاشْـتِرَاكِ المَالِي)، بحيـثُ يُسْـهِمُ كُلٌّ بِجُـزءٍ مِـنْ مَالِـهِ، مَهْمَـا كَانَ ضَئِيـلًا، وَأَنْ يَدخِـرَ مِنهُ للطـوارِئِ، وَأَلَّا يَتـورَّطَ فِـي الكمَاليَّـاتِ.

وَهَـذِهِ المَعَانِي كُلُّهَا مِـنْ أَجْـلِ تَرْبِيَـةِ الإِنْسَـانِ وَبِنَائِهِ، وَلِذَلِـكَ لَا بُـدَّ مِـنْ إِقَامَـةِ الجَانِـبِ المَـادِّيِّ وَتَيْسِـيرِهِ، حَتَّـىٰ يَسْـتَمِرَّ النُّهُـوضُ الرُّوحِـيُّ الَّـذِي يَدْعُـو إِلَيْـهِ.

## 3-تَـنْظِيمِ الـمُجْتَمَعِ بَـيْنَ الإِسْلَامِ وَالـرُّؤْيَـةِ الغَرْبِيَّةِ

لَا يُمْكِـنُ لِلْقَوَانِيـنِ وَحْدَهَـا أَنْ تُنْشِـئَ نِظَامًـا صَالِحًـا؛ لِأَنَّ الْمُجْتَمَـعَ لَا تُنَظِّمُـهُ النُّصُـوصُ وَالْقَوَانِيـنُ بِذَاتِهَـا، وَإِنَّمَـا يُنَظِّمُـهُ الإِنْسَـانُ الَّـذِي يُطَبِّقُهَـا. وَمِـنْ هُنَـا كَانَـتْ مَهَمَّـةُ الدَّعْـوَةِ الإِصْلَاحِيَّـةِ هِـيَ بِنَـاءَ الإِنْسَـانِ قَبْـلَ بِنَـاءِ النُّظُـمِ وَالتَّشْـرِيعَاتِ، وَهَـذَا مَـا جَعَـلَ دَعْـوَةَ الإِمَـامِ الْبَنَّـا تَتَمَيَّـزُ عَـنْ غَيْرِهَـا مِـنَ الدَّعَـوَاتِ؛ فَقَـدْ نَصَـحَ إِخْوَانَـهُ أَلَّا يُوَازِنُـوا بَيْـنَ دَعْوَتِهِـمُ الَّتِـي تَسْـتَمِدُّ نُورَهَـا مِـنْ نُـورِ اللهِ، وَمِنْهَاجَهَـا مِـنْ سُـنَّةِ رَسُـولِهِ ﷺ، وَبَيْـنَ الدَّعَـوَاتِ الَّتِـي تُنْشِـئُهَا الضَّـرُورَاتُ، وَتَذْهَـبُ بِهَـا الْحَـوَادِثُ وَالأَيَّـامُ؛ فَقَـالَ: «أَيُّهَـا الإِخْـوَانُ الْمُسْـلِمُونَ: هَـذِهِ مَنْزِلَتُكُـمْ، وَتِلْـكَ طَبِيعَـةُ دَعْوَتِكُـمْ، فَـلَا تَصْغُـرُوا فِـي أَنْفُسِـكُمْ، فَتَقِيسُـوا أَنْفُسَـكُمْ بِغَيْرِكُـمْ،

(196) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة رؤساء المناطق والشعب]، ص 557.

أَوْ تَسْلُكُوا فِي دَعْوَتِكُمْ سَبِيلًا غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ تُوَازِنُوا بَيْنَ دَعْوَتِكُمُ الَّتِي تَتَّخِذُ نُورَهَا مِنْ نُورِ اللهِ، وَمِنْهَاجَهَا مِنْ سُنَّةِ رَسُولِهِ، بِغَيْرِهَا مِنَ الدَّعَوَاتِ الَّتِي تُبَرِّرُهَا الضَّرُورَاتُ، وَتَذْهَبُ بِهَا الْحَوَادِثُ وَالْأَيَّامُ» (197).

لأنَّ هُناكَ فرقًا كَبيرًا بينَ المُجتمَعِ الّذِي يَتصَوَّر الغَربيُّونَ المَادِّيونَ أَنَّه تُنظِّمُهُ القَوانِينُ، وَبَينَ الإِسْلامِ الّذِي يُقيمُ المُجتَمَعَ عَلَىٰ الإِنْسَانِ،، فَهُوَ الذِي يُنظِّمُ المُجتمَعَ، بَلْ يَرىٰ عَلِيُّ عِزّتْ بيجُوفِيتش أنَّ كثرة القَوانينِ فِي مُجتمَعٍ مَا دَلِيلٌ علىٰ أنَّه مجتمعٌ بالٍ؛ لِذَا يَقُولُ: «يُؤْمِنُ الأُورُوبِّيُّ بأنّهُ فِي الإِمْكَانِ تَنظِيمُ المُجتَمَعِ بقُوَّةِ القَانُونِ... إِنَّ كَثرَةَ القَوانينِ فِي مُجتمَعٍ مَا وَتَشَعُّبها وَالتعقيدَاتِ التشْرِيعيَّةَ عَلامةٌ مُؤكَّدَةٌ عَلَىٰ وُجُودِ شَيءٍ فَاسِدٍ فِي المُجتمَعِ، وَفِي هَذَا دَعوَةٌ لِلتَّوقُّفِ عَنْ إِصدَارِ مَزيدٍ مِنَ القَوانِينِ وَالبَدْءِ فِي تَعليمِ النَّاسِ وَتربِيَتِهِمْ. فَعندَمَا يَتجاوَزُ الفَسَادُ فِي بِيئةٍ مَا حَدًّا مُعيّنًا يُصبِحُ القَانونُ عَقِيمًا» (198).

وَهَذَا يُفَسِّرُ قِلَّةَ الأَحْكَامِ التَّشْرِيعِيَّةِ التَّفْصِيلِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، مُقَارَنَةً بِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ آيَاتِ الإِيمَانِ وَالتَّزْكِيَةِ وَالتَّرْبِيَةِ، لأَنَّهُ بَدأَ بالإنسَانِ أَوَّلًا، كَكِيَانٍ يُصْلِحُه وَيُربِّيهِ عَلَىٰ هَدَفٍ كَبِيرٍ هُوَ الإِيمَانُ، وَيُربِّيهِ عَلَىٰ وَاجبِهِ وَمَسؤُوليتِهِ الأَدبيّةِ تِجَاهَ هَذَا الدِّينِ، وَهَذَا الإِيمَانِ.

أَمَّا المُجتمعَاتُ المَاديّةُ فَإِنَّمَا تَعتَنِي بِكثرَةِ القَوانِينِ الّتِي تَعنِي أنَّ فِي المُجتمعِ شَيئًا فاسدًا، إِنَّ هُناكَ شَيئًا مَا يَسِيرُ بِشَكْلٍ خَاطِئٍ فِي حَياتِنَا عِندَمَا تَكثُرُ القَوانِينُ، أَمَّا الإِسلامُ فَقَدْ أَنْهَىٰ بِآيَةٍ وَاحِدَةٍ ثَلاثَ صُورٍ مِنْ صُورِ المُعَاصِي الّتِي عَمَّتْ قَبائِلَ العَرَبِ فِي الجَاهلِيةِ، وَهِيَ (الخمرُ وَالمَيسِرُ وَالشَّعْوَذَةُ)، هَذِهِ المَعَاصِي الثلاثَةُ انتَهَتْ كُلُّها بآيةٍ وَاحدَةٍ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[المائدة: 90]، بِمُجرَّدِ أَنَّها ذُكِرَتْ فِي سِيَاقِ

(197) انظر: حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة الإخوان تحت راية القرآن]، ص 395.
(198) علي عزت بيجوفيش: **الإعلان الإسلامي**، تقديم وترجمة محمد يوسف عدس، ط 1، مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، 1430هـ – 2009م، ص 90، 91.

المُحرَّمَاتِ، انتَهَىٰ كُلُّ شَيءٍ، لِمَاذَا؟ لأنَّ الإنْسَانَ قَدْ تَربَّىٰ، وَكَمَا يَقولُ الشيخُ الغَزالِيُّ: أَدْرَكَ النَّبِيُّ ﷺ أنَّ الإنَاءَ المَثلُومَ لَا يُمسِكُ سُؤْرًا، فَصحَّحَ الكِيانَ الإنسَانِيَّ لِكَيْ يُمسِكَ قِيمَ هَذَا الدِّينِ؛ صَحَّحَهُ بِالإيمانِ مِن نَاحيةٍ وَبِالمسؤُوليّةِ الأَدبيةِ تِجَاهَ هَذَا الإيمَانِ مِنْ نَاحيَةٍ أُخْرَىٰ، وَقَامَ المُجتَمعُ بعدَ ذَلِكَ عَلَىٰ قلةٍ مِنَ القَوانينِ الّتِي حَفلَ بِهَا القُرآنُ الكَريمُ، وَقَدْ ذَكرْنَا قَبلُ حَدِيثَ أُمِّنَا عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا التِي أَشَارَتْ فِيهِ إِلَىٰ تَدرُّجِ القُرآنِ فِي تَحريمِ رَذائلِ الجَاهِليَّةِ؛ لأَنَّه كَانَ يُربِّي الإنْسَانَ وَيُعَلِّمُهُ المَسؤُولِيّةَ تجاهَ دِينِهِ، وَيُشعِرُهُ بِرقَابَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، قَبلَ أَنْ يُثقِلَهُ بِالأوامرِ وَالنَّواهِي، وَظَلَّ الصَّحَابَةُ الكِرامُ يَشعُرُونَ بِمَسئُولِيّتِهِم تِجاهَ هَذَا الدينِ، يَستَوِي فِي ذَلِكَ الشُّعورِ المُهاجِرونَ وَالأنْصَارُ.

وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ الإسْلَامَ لَمْ يَجْعَلْ إِصْلَاحَ الْمُجْتَمَعِ رَهِينًا بِكَثْرَةِ الْقَوَانِينِ، وَإِنَّمَا بِبِنَاءِ الإِنْسَانِ الَّذِي يَحْمِلُ هَذِهِ الْقَوَانِينَ فِي ضَمِيرِهِ قَبْلَ أَنْ يَحْمِلَهَا فِي يَدِهِ؛ فَإِذَا صَلَحَ الإِنْسَانُ، اسْتَقَامَتِ الْقَوَانِينُ، وَإِذَا فَسَدَ الإِنْسَانُ، عَجَزَتِ الْقَوَانِينُ عَنْ إِصْلَاحِهِ مَهْمَا كَثُرَتْ.

## 4-لَا تَنَاقُضَ بَينَ عَقِيدَةِ الإِسْلَامِ وَحُبِّ الأَوْطَانِ

كَانَ رَسولُ الله ﷺ أوَّلَ مَن عَلّمَ المُسلِمِينَ الانتِمَاءَ لِهذَا الدِّينَ، وَالانتِصَارَ لِمَبادِئِهِ، فَحِينَ فَتحَ اللهُ عَليهِ مَكةَ، وَدَخَلَ النَاسُ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا، لَمْ يَرجِعْ إِلَىٰ مَكةَ لِكَيْ يعيشَ فِيهَا، وَفِي استِطَاعَتِهِ أَنْ يَفعَلَ ذَلِكَ، لَكنَّهُ وَفَّىٰ بِوَعْدِهِ للأنصَارِ، إِذْ بَايعُوهُ عَلَىٰ أَنْ يَحمُوهُ مِمَّا يَحمُونَ مِنْهُ أَنْفُسَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَبَايعَهُمْ عَلَىٰ أَلَّا يَرجِعَ إِلَىٰ قَومِهِ وَيَدعَهُمْ. فَفِي بَيعَةِ العَقبةِ الثَّانيةِ، وَبَينَمَا كَانَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ يَعِدُ رسولَ اللهِ ﷺ بِالنُّصْرَةِ وَالحِمَايةِ، اعْتَرَضَ كَلامَهُ أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيِّهَانِ، فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّجَالِ حِبَالًا، وَإِنَّا قَاطِعُوهَا - يَعْنِي الْيَهُودَ - فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللهُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَىٰ قَوْمِكَ وَتَدَعَنَا؟ قَالَ: فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: بَلْ الدَّمَ الدَّمَ، وَالْهَدْمَ الْهَدْمَ، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ، وَأُسَالِمُ مَنْ

سَالَمْتُمْ»[199].

فَالرسُولُ ﷺ يُعلِّمُنَا أَنْ نَفِيَ بِالعُهودِ، وَأَنْ نَحترمَ المَبادئَ، وَأَنْ نَنتمِيَ لِهَذَا الدِّينِ وَلِمَنْ نَصرَهُ، قَبلَ أَنْ نَنتمِيَ إِلَىٰ أَرْضٍ أَوْ نَسبٍ أَوْ أَيِّ عَرَضٍ مِنْ أَعرَاضِ الدُّنيَا، وَلَقَدْ دَفعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ أَجْلِ تَرسيخِ هَذَا المَعنَىٰ ثَمنًا بَاهِظًا، إِذْ حُرِمَ مِنْ أَرْضِهِ (مَكةَ) وَهِيَ أَحَبُّ بِلادِ اللهِ إِلَىٰ قَلبِهِ؛ لأَنَّ المَبادِئَ لَا تَرسخُ فِي نُفوسِ النَّاسِ، حَتَّىٰ يُدفَعَ مِنْ أَجْلِهَا استِحقَاقٌ بَاهِظٌ، هُنَا تَثبُتُ فِي نُفُوسِ النَّاسِ هَذِهِ المَعَانِي، وَيَظَلُّ مَعنَىٰ (**جِنسيّةِ المُسْلِمِ عَقيدَتُهُ**) باقيًا إِلَىٰ قِيامِ السَّاعَةِ، عَلَىٰ نَحوِ مَا أَشَارَ الأستَاذُ سَيِّدُ قُطْب؛ لأَنَّ الاعتِمَادَ الحقيقيَّ لِلفكْرَةِ وَالعقِيدَةِ، وَلَيسَ بِالأَهْلِ وَالأَوْطَانِ. وَهُمْ لِكَيْ يُؤَكِّدُوا هَذَا المَعْنَىٰ ظَلُّوا غُربَاءَ!

حِينَ استَنفَرَ سَيِّدُنَا عُمرُ النَّاسَ لِغَزْوِ فَارِس، وَجَدَ كَسَلًا لَدَىٰ بعضِ النفُوسِ، وَكَانَ وَجْهُ فَارِسَ مِنْ أَكْرَهِ الْوُجُوهِ إِلَيْهِمْ وَأَثْقَلِهَا عَلَيْهِمْ، لِشِدَّةِ سُلْطَانِهِمْ وَشَوْكَتِهِمْ وَعِزِّهِمْ وَقَهْرِهِمُ الأُمَمَ... قَامَ عُمَرُ رَحِمَهُ اللهُ فِي النَّاسِ، فَقَالَ:

إِنَّ الْحِجَازَ لَيْسَ لَكُمْ بِدَارٍ إلا عَلَىٰ النُّجْعَةِ[200]، وَلا يَقْوَىٰ عَلَيْهِ أَهْلُهُ إلا بِذَلِكَ، أَيْنَ الطُّرَّاءُ الْمُهَاجِرُونَ[201] عَنْ مَوْعُودِ اللهِ! سِيرُوا فِي الأَرْضِ الَّتِي وَعَدَكُمُ اللهَ فِي الْكِتَابِ أَنْ يُورِثَكُمُوهَا، فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ﴾، وَاللهُ مُظْهِرٌ دِينَهُ، وَمُعِزٌّ نَاصِرَهُ، وَمُوَلِّي أَهْلَهُ مَوَارِيثَ الأُمَمِ.. أَيْنَ عِبَادُ اللهِ الصَّالِحُونَ! [202].

**إِنَّ الحِجَازَ لَيْسَتْ لَكُمْ بِدَارٍ**: تأكيدٌ لِمَعنَىٰ الانتِمَاءِ إِلَىٰ الفِكْرَةِ وَالعَقِيدَةِ، لَا إِلَىٰ

(199) عبد الملك بن هشام: **السيرة النبوية**، تحقيق مصطفىٰ السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، ط 2، مطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1375هـ - 1955م: 1/ 442.

(200) النُّجعةُ: الارتحالُ مِنَ الديارِ إِلَىٰ غَيرِهَا طلبًا للرزقِ أَوِ المَصلحَةِ، وَأَصْلُهَا: الخُروجُ لِطَلَبِ الكَلأِ وَالمَاءِ.

(201) الطُّرَّاءُ الْمُهَاجِرُونَ (مفْرَدُهَا الطَّارِئُ الْمُهَاجِرُ): أي الوافِدُونَ المُهاجرونَ الذينَ تَركُوا أوطانَهُم استجَابَةً لأَمرِ اللهِ، وَطَمعًا فِي وَعْدِهِ بِالنصْرِ وَالتمْكِينِ.

(202) انظر: ابن جرير الطبري: **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 2، دار المعارف بمصر، 1387 هـ - 1967م: 3/ 444.

الأهْـلِ وَالأَوْطَـانِ.

إِنَّ قَـوْلَ عُمَـرَ رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُ: «إِنَّ الْحِجَـازَ لَيْسَـتْ لَكُـمْ بِـدَارٍ» لَيْسَ نَفْيًا لِحُـبِّ الْوَطَـنِ، وَإِنَّمَـا هُـوَ تَأْكِيـدٌ لِأَنَّ الْعَقِيـدَةَ هِـيَ أَصْـلُ الانْتِمَـاءِ، وَأَنَّ رِسَـالَةَ الإِسْـلَامِ تَتَجَـاوَزُ حُـدُودَ الأَوْطَـانِ، فَـلَا يَحْبِـسُ الْمُؤْمِـنَ عَـنْ أَدَاءِ وَاجِبِـهِ تَعَلُّقُـهُ بِأَرْضِـهِ وَبَلَـدِهِ. وَهَـذَا مَعْنًـى مُهِـمٌّ يَجِـبُ أَنْ نَفْهَمَـهُ.

## ثَالِثًا: مَنْهَجُ الإِمَامِ البَنَّا فِي الإِصْلَاحِ وَالتَّرْبِيَةِ

### 1-مَنْهَجُ البنَّا

عَلَـى هَـذَا المَعْنَـى رَبَّـى الإمَـامُ البنَّـا هَـذِهِ الجماعـة وَهَـذَا الصـفَّ كَذَلِـكَ، ظَـلَّ يُرسِّـخُ فِـي نفُـوسِ الإخـوَانِ هَـذَا المعنَـى: إِنَّ انتمَـاءَكَ الحَقِيقِـيَّ لِفكرَتِـكَ وَعَقِيدَتِـكَ، وَبِذَلِـكَ يَكـونُ الأخُ «جُنـدِيَّ فِكـرَةٍ وَعَقِيـدَةٍ لَا جُنـدِيَّ غَـرضٍ وَمَنفَعَـةٍ»[203]، وَيَتحَقَّـقُ هَـذَا بـأنْ تَـقِفَ حَياتَـكَ مِـنْ أَجلِ نُصرَةِ هَـذَا الدِّينِ. وكانَ الإمـامُ البنَّـا يَقـولُ فِي وَصْـفِ المُجَاهِـدِ: «أَستَطِيعُ أنْ أَتَصَـوَّر المُجاهِـدَ شَـخصًا قَـدْ أَعَـدَّ عُدَّتَـهُ وَأَخَـذَ أُهبتَـه وَمَلَـكَ عَلَيـهِ التفْكِيـرُ فِيمَـا هُـوَ فِيـهِ نواحِـيَ نَفسِـهِ وَجَوَانِـبَ قَلبِـه، فَهُـوَ دَائِـمُ التفكِيـرِ، عَظِيـمُ الاهتِمَـامِ عَلَـى قـدمِ الاستعدَادِ أَبـدًا، إِنْ دُعِـيَ أَجَـابَ أَوْ نُـودِيَ لَـبَّى غُـدُوُّهُ وَرَوَاحُـه، وحديثُـه وَكَلَامُـهُ، وَجِـدُّهُ وَلَعِبُـه لَا يتعَـدَّى المَيـدَانَ الّـذِي أعـدَّ نَـفْسَهُ لَـهُ، وَلَا يَتناوَلُ سِـوَى المُهِمَّـةِ الّتِي وَقـفَ حَياتَه عَليهَـا، تَقـرَأُ فِـي قَسـمَاتِ وَجْهِـهِ وَتَـرى فِـي بَرِيـقِ عَينَيْـهِ، وتسـمعُ مِـنْ فَلتَـاتِ لِسَـانِه مَـا يَدلُّـكَ عَلَـى مَـا يَضطَـرِمُ فِي قَلبِـهِ مِـنْ جَـوًى لاصِـقٍ وَأَلَـمٍ دَفِيـنٍ، وَمَـا تَـفِيضُ بِـهِ نفسُـهُ مِـنْ عَزِيمَـةٍ صَادِقَـةٍ، وَهِمَّـةٍ عَاليَـةٍ، وَغَايـةٍ بَعِيـدَةٍ»[204]، ذَلِـكَ شـأنُ المُجاهِدِيـنَ مِـنَ الأَفـرادِ وَالأُمَـمِ.

وَنَجـحَ الأسـتاذُ البنَّـا رَحِمَهُ اللهُ فِـي تَكويـنِ هَـذَا الجيـلَ. لَقَـدْ رَأَى ذَلِـكَ بنَفْسِـه، رَأَى هَـذَا

(203) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة التعاليم]، ص 278.

(204) من مقال بعنوان: (**أمة في ميدان الجهاد**)، للإمام حسن البنا – رحمه الله – نشر في جَريدةِ الإخوان المسلمينَ، العدد (18) بتاريخ 14 جماد أول 1354هـ، الموافق 13 أغسطس 1935م. **وانظر**: عبد الحميد البلالي: **المصفَّى من صفات الدعاة**، ط ١، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، 1421هـ – 2000م، ص 176.

الجيلَ الّذِي يُعلِنُ انتماءَهُ لِهذهِ الدعوَةِ، وَيعتَدّ بِالانتسَابِ إليهَا، وَقَد وَقَفَ حَياتَهُ وَرَهَنَ مَصالِحَهُ كُلَّها مِنْ أَجلِ أَنْ تَقومَ وَتَنهَضَ.

وَكَانَ الشَّهيدُ عَبْدُ الْفَتَّاحِ إِسْمَاعِيلُ فِي مِحْنَةِ (١٩٦٥م) يَقُولُ: «أَنْتُمْ تُرِيدُونَ الشَّهَادَةَ أَم الشَّهَادَةَ؟» أَيْ: أَتُرِيدُونَ شَهَادَةَ الآخِرَةِ أَمْ شَهَادَاتِ الدُّنْيَا؟ وَكَانَ يُرِيدُ بِذَلِكَ أَنْ يُخَيِّرَ الإِخْوَانَ بَيْنَ مَشْرُوعِهِمُ الشَّخْصِيِّ وَمَشْرُوعِ الدَّعْوَةِ؛ فَإِنْ نَوَيْتُمْ إِكْمَالَ مَشْرُوعِ حَيَاتِكُمْ، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنَالَ أَعْلَىٰ الشَّهَادَاتِ الْعِلْمِيَّةِ، أَمَّا إِنْ كُنْتُمْ تَطْلُبُونَ مَا عِنْدَ اللهِ، فَأَجِّلُوا مَصَالِحَكُمُ الشَّخْصِيَّةَ حَتَّىٰ تُؤَدِّيَ الدَّعْوَةُ رِسَالَتَهَا؛ فَإِنَّ تَقْدِيمَ الْمَصْلَحَةِ الشَّخْصِيَّةِ عَلَىٰ مَصْلَحَةِ الدَّعْوَةِ يُفْضِي إِلَىٰ تَأَخُّرِهَا وَضَعْفِ مَسِيرَتِهَا. وَبِخَاصَّةٍ أَنَّ الدَّعْوَةَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كَانَتْ تُعَانِي قِلَّةَ الْعَدَدِ وَضَعْفَ الأَنْصَارِ.

أَوْ كَمَا قَالَ الإِمَامُ البَنَّا: «فَإِذَا أَديتُم هَذِهِ الوَاجِبَاتِ الفَرديةَ وَالاجتمَاعيّةَ فَإِنَّ أركَانَ هذا النظام سَتتحَقَّقُ وَلَا شَكَّ، وَإِذَا قَصّرتُم فَسَيتَضَاءَلُ حَتَّىٰ يَموتَ، وفِي مَوتِهِ أكبرُ خَسَارَةٍ لِهَذِهِ الدعْوَةِ، وَهِيَ اليَوْمَ أملُ الإِسْلامِ وَالمُسلِمِينَ» (205). وَنَتيجَةُ ذَلِكَ أَنَّهم لَنْ يَعتَبِرُوا تَعبكُم وَجُهودَكُمُ العِلميةَ فَسَوفَ يَدوسُونَهَا إِنْ لَمْ تَخدُمْ مَصالِحَهُمْ.

وَلِهَذَا نَصَحَ الأستاذُ الإمامُ البنَّا كَلَّ أخٍ مِنْ إِخوَانِهِ بِأَنْ يَكُونَ لَه عَمَلٌ اقتصَادِيٌّ حُرٌّ، فَقَالَ فِي **الوَاجِبِ الخَامِسَ عَشرَ مِنْ (وَاجِبَاتِ الأخِ العَامِلِ)**: «أَنْ تُزَاوِلَ عَملًا اقتصَاديًّا مَهمَا كُنْتَ غَنيًّا، وَأَنْ تُقْدِمَ عَلَىٰ العَمَلِ الحُرِّ مَهمَا كانَ ضَئِيلًا، وَأَنْ تَزجَّ بِنَفْسِكَ فِيهِ مَهمَا كَانَتْ مَواهِبُكَ العِمليّةُ» (206)؛ لأَنَّهُ لَيسَ هُناكَ مَنْ سَيقَدِّرُهَا مَا دَامَتْ تُعارِضُ مَصالِحَهُمْ، وَسَوفَ يَدوسُونَ عَلَيهَا وَلَا يَنظرُونَ إِليهَا، مَهْمَا كَانَتْ مَواهِبُكَ العِلميةُ، لَا تَظنُّوا أَنَّهُم سَيُقدِّرُونَ مَواهِبَكُمْ، مَا لَمْ تَحترمُوهُمْ، وَإِنْ لَمْ تَخْدِمُوهُمْ فَسَوْفَ يَقسِرُونَكُمْ عَلَىٰ الخَطأ. وَلَو قَبلتُمُوهُ، فَمَعنَىٰ ذلكَ أنكُمْ رَضِيتُم بحَياةِ الذلِّ والهوانِ، حَيثُ لَا شَرفَ ولا مُروءةَ مِنْ كَلماتِ الشَّهيدِ عَبدِ الفَتَّاحِ إِسمَاعِيل رَحِمَهُ اللَّهُ . وَهُوَ فلاحٌ بَسِيطٌ، **ولكنَّه لَم يَكُنْ يَتلجْلَجُ وَلَا يَتردَّدُ وَلَا يَخجَلُ**. وَهُوَ يَعرِضُ عَلَىٰ الإِخوانِ هَذَا،

(205) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: نظام الأسر]، ص 536.
(206) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: التعاليم]، ص 287.

كَانَ عَلينَا أَنْ نَدفَعَ ثَمنًا بَاهِظًا قَبلَ أَنْ نُبايعَهُ. فقَالَ: إِذَا بَايعتُمُونِي، فَاعلمُوا أَنَّ مَصالِحَكُمْ سَوفَ تَتأَخَرُ، مَصالحُكُم الخَاصَّةُ مُؤجَّلَةٌ الآنَ، لَكِنْ سَوفَ تَفوزُونَ فَوْزًا عَظِيمًا؛ لِأَنَّكُمْ سَوْفَ تُؤَكِّدُونَ لِلنَّاسِ هَذَا الْمَعْنَىٰ الَّذِي غَرُبَ عَنْهُمْ: أَنَّ الانْتِمَاءَ الْحَقِيقِيَّ إِنَّمَا هُوَ لِلْفِكْرَةِ وَالْعَقِيدَةِ، وَأَنَّ الإِيمَانَ لَا يَأْتِي اتِّفَاقًا، بَلْ هُوَ الْتِزَامٌ وَمِنْهَاجُ حَيَاةٍ.

فَأَمَّا مَنِ التزَمَ فَقدْ فَازَ، **وَأَمَّا مَنْ قعدَ عَنِ العَملِ فَقَدْ لَزِمَهُ إِثْمُ التقْصِيرِ**، كَمَا يَقُولُ الإِمَامُ البنّا رَحِمَهُ اللَّهُ[207].

وَلَقَدْ رَضِيَ الجَمعُ كُلُّهم وَقَامُوا حَولَ الأستاذِ سَيِّد حُشُودًا مُبايعِينَ. وَفِعْلًا دَفَعُوا ثَمنًا بَاهِظًا، فَحُكِمَ عَلَىٰ الجَميعِ بالسجْنِ المُؤبّدِ (25 سَنَة)، مَا عدا اثنَينِ بِعَشرِ سَنواتٍ، وَخرجَ الجَمِيعُ ونفُوسُهُمْ رَاضِيَةٌ مرتاحَةٌ، لأنّهُمْ يَعلمُونَ أَنَّ مَا عِندَ اللهِ خَيرٌ وَأَبْقَىٰ، وَأَنَّ الآخِرَةَ وَحْدَهَا مَوْعِدُ الفَصْلِ وَالجَزَاءِ.

## 2-مُوَاكَبَةُ العَصْرِ وَتَطْوِيرُ وَسَائِلِ الدَّعْوَةِ

أَدركَ الأُستاذُ البنَّا - وَهُوَ يَحمِلُ هَذَا الدينَ وَيُقدِّمُهُ لِلنَّاسِ - أنّه أَمامَ عَالَمٍ مُكتَظٍّ بالأَفكَارِ وَالمَبادِئِ، وَفِي الوَقْتِ نَفْسِهِ مُنضَبِطٌ بِالنظَامِ، بَعِيدٌ عَن الفَوْضَىٰ، وَقَد شَرحَ ذَلِكَ فِي أَوَّلِ الرسَالَةِ عِندَمَا قَالَ: «فِي هَذَا الصَّخَبِ الدَّاوِي مِنْ صَدَىٰ الحَوادِثِ الكَثِيرَةِ المَرِيرَةِ الّتِي تَلدُهَا اللياليِ الحَبالَىٰ فِي هَذَا الزمَانِ، وَفِي هَذَا التَّيارِ المُتدفِّقِ الفَيّاضِ مِنَ الدعوَاتِ التِي تَهتِفُ بِهَا أرجَاءُ الكَوْنِ، وَتَسرِي بِهَا أَمواجُ الأَثِيرِ فِي أَنحَاءِ المَعمُورَةِ، مُجهَّزةً بِكُلِّ مَا يُغرِي وَيَخدَعُ مِنَ الآمَالِ وَالوُعُودِ وَالمظَاهِرِ. نَتقدَّمُ بِدعْوتِنَا نَحنُ الإِخوَانَ المُسلمين»[208].

فِي الوَقْتِ الّذِي يَكتَظُّ فِيهِ العَالَمُ، وَيُتخَمُ بِالكَثِيرِ مِنَ الأَفكَارِ وَالآرَاءِ وَالمَذاهِبِ الّتِي تَسرِي بِهَا مَوجَاتُ الأثيرِ وَتَهتِفُ بِهَا أَرجَاءُ الكَونِ، مُجهَّزةً بِكُلِّ مَا يُغرِي مِنَ الوُعُودِ وَالآمَالِ وَالمصَالِحِ وَالمطامِعِ.

(207) انظر حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا** [رسالة إلىٰ أي شيء ندعو الناس]، ص 73.
(208) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة الإخوان تحت راية القرآن]، ص 379.

وَفِي مَوضعٍ آخَرَ يَكَشِفُ الإمَامُ البنَّا عَنْ تَطوُّرِ الدَّعَاةِ وَوَسَائِلِهِمْ فِي الدَّعْوَةِ، حتَّىٰ بَاتَ لِكُلِّ دَعوةٍ كَتيبَةٌ مِنَ المُتخصِّصينَ تُقدِّمُهَا لِلنَّاسِ، أَوْ كَما يَقولُ الإمَامُ البنَّا: «وَالدُّعَاةُ اليومَ غَيرُهُم بِالأَمسِ؛ فَهُمْ مُثقَّفونَ مُجهَّزُونَ مُدرَّبُونَ إِخْصَائِيّونَ - وَلَا سِيّمَا فِي البِلادِ الغَربيّةِ - حَيثُ تَختَصُّ بِكُلِّ فِكرَةٍ كَتِيبةٌ مُدربَةٌ تُوضِّحُ غَامِضَهَا، وَتَكشِفُ عَنْ مَحاسِنِهَا، وَتَبتكِرُ لَها وَسَائِلَ النَّشْرِ وَطَرَائِقَ الدِّعَايَةِ، وَتَتلمَّسُ لَهَا فِي نُفُوسِ النَاسِ أَيْسَرَ السُّبلِ وَأَهوَنَها وَأَقْربَها إِلَىٰ الاقْتِنَاعِ وَالاتّبَاعِ»[209].

وَلَو أَدْرَكَ الإمَامُ البنّا عَصرَنَا الذِي نَعيشُ فِيهِ، لَرأَىٰ كُلَّ دَعوَةٍ تَقتَحِمُ عَلَىٰ النَّاسِ قُلُوبَهم وَعقُولَهُم فِي مَتاجِرِهِمْ وَمصَانِعِهم وَفِي بُيوتِهم وَمَزارِعِهِمْ. وَلِذَلِكَ عِندَمَا جَاءَ يَتقَدَّمُ بِدَعْوتِهِ كَانَ حَرِيصًا عَلَىٰ أَنْ يَمتَلِكَ حَوَاسَّ عَصْرِهِ؛ بِحَيْثُ يَستَطِيعُ أَنْ يُواجِهَ ذَلِكَ العَالَمَ المُتخَمَ بِالأفكَارِ وَالآراءِ وَالمَذاهبِ وَالعقَائِدِ؛ فَلَيْسَ الأمرُ كَمَا يَتصوَّرُ بَعْضُنَا أَنَّهُ عِندَما نَعلِنُ دَعوتَنا عَلَىٰ الناسِ سَوفَ يَقبلُها النَّاسُ جَمِيعًا بمجرَّدِ الإعلانِ عَنهَا وَبَسطِ الحَقِّ وَعَرضِهِ أَمامَ النَّاسِ.

**إِنَّ القَضيةَ لَيسَ مُجرَّدَ أَنْ تَعرِضَ مَا عِندَكَ، إِنَّما أَنْ تُحسِنَ عَرضَهُ**، وَلِهَذَا جَعلَ أَوَّلَ مَقاصِدِ الدعْوَةِ وَوَسَائِلِها أَنْ تُحسِنَ عَرْضَهَا، فَقَالَ: «تَصحِيحُ فَهْمِ المُسلِمِينَ لِدِينِهِمْ وَشَرحُ دَعوةِ القُرآنِ الكَرِيمِ شَرْحًا وَاضِحًا، وَعَرْضُهَا عَرْضًا كَرِيمًا يُوافِقُ رُوحَ العَصْرِ، وَيَكْشِفُ عَمّا فِيهَا مِنْ رَوعةٍ وَجَمالٍ، وَيَرُدُّ عَنهَا الأَباطِيلَ وَالشُّبهَاتِ»[210].

## 3-القُدوَةَ العَمليَّةَ أَبعَدُ أَثَرًا فِي النفُوسِ

نَجَحَ الإمَامُ البنَّا فِي أَنْ يُربِّيَ للأمَّةِ صفًّا يَهتِفُ بِالإسْلام، وَيَعمَلُ لَهُ، وَيَسْعَىٰ لإقَامتِهِ فِي حَياةِ النَّاسِ، وَلَمْ يَكتَفِ بِالشِّعَاراتِ، لأنَّ القُدوَةَ العَمليَّةَ أَبعَدُ أَثَرًا فِي النفُوسِ، فَلا يَكفِي أَنْ نَقُولَ للنَّاسِ كُونُوا صَالِحِينَ، بالكَلام فَقَطْ، فَالأمَّةُ تَتربَّىٰ بِالأسْوَةِ وَالقُدوَةِ وَلَا تَتربَّىٰ بالأمْرِ وَالشِّدةِ؛ لِذَلِكَ كَانَ عَلَيهِ أَنْ يُقدِّمَ مِثْلَ هَذِهِ النمَاذِجِ الّتِي تُحرِّكُ مُخيلةَ الشُّعوبِ، لِكَيْ تَنهضَ مَعَهُ، وَقَد نَجحَ فِي ذَلِكَ بِفَضْلِ اللهِ تَعالَىٰ.

(209) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة دعوتنا]، ص 128.
(210) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة رؤساء المناطق والشعب]، ص 557.

وَالمواهبُ العِلميَّةُ مَهْمَا بَلغَتْ فإنّهَا لَا تَشفَعُ لأَصْحَابِهَا، فَمَوْهِبَةُ رَجُلٍ كَالأستاذِ عَبدِ القَادِرِ عُودَة، مِمَّا لا يختلفُ فِيهَا اثنَانِ، فَهُوَ صَاحِبُ كِتَابِ (التشريعُ الجِنَائِيُّ في الإسلام)، وَهُوَ كتابٌ فِي التشْريعِ المُقارنِ، وَقَدْ كَتبَ عَنهُ كَثيرٌ مِنَ البَاحِثينَ، دراساتٍ أكاديميةً، وَمَنْ يَقرَأْ هَذَا الكِتَابَ، يَلْحَظْ مَا فيهِ مِنْ جُهْدٍ عَقليٍّ ضَخْمٍ وَعِلْمٍ غَزيرٍ. وَرَغمَ ذَلِكَ لَمْ تَشفَعْ لَهُ مَوهبتُه العِلميةُ، فَكانَ أَحَدَ الستَّةِ الذِينَ أُعدِمُوا فِي سَنةِ (1965م).

وَكذلكَ القَاضِي الفَاضِلُ المُسْتَشَارُ حَسَنُ الهُضَيْبِيُّ، أَحَدُ أَعْلَامِ الْقَضَاءِ الْمِصْرِيِّ، فهو نائبُ رئيسِ محكمةِ النقضِ بمصر، والعَالِمُ الذِي لَمْ يَجِدْ مَجلسُ الشُّيوخِ غَيرَهُ، لكيْ يُقدِّمَ شَيئًا عَنِ الشَّريعَةِ الإِسْلاميّةِ وَمُقارنَتِهَا بِالقَوانينِ الوَضْعِيّةِ، وَتَوضِيحِ مُميزَاتِ الشريعَةِ الإِسْلاميةِ وَمُحاولَةِ تَطبيقِهَا مُقارنةً بِالقَانُونِ الوَضْعِيِّ، وَلَمْ يَكُنْ حِينَئِذٍ مُرشِدًا لِلإخوَانِ المُسلِمينَ؛ أَيْ أَنَّ هَذهِ المَواهِبَ والقدراتِ العقليةَ كَانَتْ تَكْفيهِ، وَلكنَّها لَم تَمنعِ السلطَةَ مِنَ إِيذَائِهِ وَالتَّضْييقِ عَلَيهِ؛ فَحدَّدَتْ إِقامتَهُ لِسنواتٍ طَويلةٍ، لَا يَزُورُهُ أَحدٌ وَلا يَتَّصِلُ بِهِ أَحدٌ، وَسُجِنَ كَذلِكَ سَنواتٍ طَويلةً!

وَأَمَّا الأستاذُ سَيدُ قُطْب وَمَوهِبتُه الأدبيةُ الفَذَّةُ فَحَدِّثْ وَلَا حَرَجَ، فَلقَدْ كَتَبَ رَحِمَهُ اللهُ فِي النقْدِ، وَالفِكْرِ، وَتفسِيرِ القُرآنِ العَظيمِ، وَرَبطِهِ بِالوَاقعِ لأَوَّلِ مَرةٍ بِالصُّورَةِ الجَديدَةِ الّتِي لَمْ يَسبِقْهُ إِليهَا إِلَّا القَليلُ، بِحَيثُ جَعَلَه كائنًا حَيًّا أَمامَكَ. وَلَمْ تَشفع لَه كُلُّ هذهِ المواهبِ العِلْميَّة، وَأُعْدِمَ كذلكَ فِي سنةِ (1965م)!

وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ القُدْوَةُ العَمَلِيَّةُ مُجَرَّدَ التِزَامٍ خُلُقِيٍّ، بَلْ تَجَسَّدَتْ فِي البَذْلِ وَالتَّضْحِيَةِ وَتَحَمُّلِ تَبِعَاتِ الدَّعْوَةِ.

لِذَلِكَ أَدرَكَ الأستَاذُ البنَّا رَحِمَهُ اللهُ ضرورةَ تربيةِ الأمَّةِ عَلَىٰ هَذِهِ المَبادِئِ، **فَتُوقِنَ أَنَّ دَعوتَها لَنْ تَتحقَّقَ أَبَدًا إِلَّا بِالبذْلِ وَالتضحِيَةِ وَالكِفَاحِ وَالجِهَادِ**؛ لأنَّ كُلَّ دَعوةٍ مَهْمَا كانَتْ حَاجةُ النَّاسِ إِليهَا، لَا يُنْصِتُ إِلَيْهَا العَالَمُ، وَلَا يَرضَاهَا أَوْ يُرحِّبُ بِهَا عَفْوًا بِغَيرِ جِهَادٍ، هَذِهِ هِيَ طَبيعَةُ الأشيَاءِ؛ وَلِهذَا علَّمَ الإمامُ البنَّا رَحِمَهُ اللهُ إِخوانَه أَنَّ هَذهِ الدعوةَ تَقتَضِي جِهادًا دَائمًا، فَقالَ: «وَالإِسلامُ لَا يَكتفِي مِنَ المُسْلِمِ بِالوَعْظِ وَالإِرْشَادِ، ولكنَّه

يَحدُوهُ دَائمًا إِلَىٰ الكفاحِ وَالجِهَادِ ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:69] »[211].

إِنَّ إعلانَ المُجتَمَعِ المُسلِمِ انتِسَابَهُ لهَذَا الدينِ؛ لَا يَتأَتَّىٰ إِلّا عِنْدَمَا يَرىٰ نمَاذِجَ أمامَهُ يُؤمِنُونَ بِهذهِ الدعْوَةِ، ثُمَّ لَا يَكترِثُونَ بِمَا يُصيبُهم فِي سَبيلِ اللهِ. وَهَذَا مَا حرَصَ عَلَيهِ الأستَاذُ الإِمامُ رَحِمَهُ اللهُ فِي إعدادِهِ لِهَذَا الصَّفِّ، الّذِي كوَّنَه وَرَبَّاهُ للأخذِ بيدَ الأمَّةِ لِلخرُوجِ بِهَا مِنْ مَأزِقِهَا، لأنَّ الأمةَ وَهِيَ تُعلِنُ إيمَانَها وانتِسَابَها لِهَذَا الدينِ؛ لَا يُمكِنُ أَنْ تُعطِيَ حَماسَهَا لِفئَةٍ مَا، إِلَّا عِندَمَا تَطمئِنُّ إِلَىٰ أنّها لَا تَخْدِمُ مَصالِحَها الخاصّةَ، وَإِنَّما تَخدُمُ الأمَّةَ وَتَخدُمُ نفسَهَا مِن خلالِ مَا تَبذلُه مِنْ تضحياتٍ فِي سَبيلِ هَذِهِ الدعوَةِ.

وَقَدْ أَشَارَ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ، وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنِ الأَنْبِيَاءِ فِي «رِسَالَةِ التَّوْحِيدِ»، إِلَىٰ أَنَّهُمْ جَاءُوا بِالحَقِّ وَالصِّدْقِ، وَأَيَّدَهُمُ اللهُ بِالمُعْجِزَاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ صِدْقِ رِسَالَتِهِمْ. وَمَعَ ذَلِكَ، فَإِنَّ أَثَرَ الدَّاعِيَةِ لَا يَقُومُ عَلَىٰ البُرْهَانِ المُجَرَّدِ وَحْدَهُ، بَلْ يَتَّصِلُ كَذَلِكَ بِمَا يَرَاهُ النَّاسُ فِي سِيرَتِهِ وَخُلُقِهِ وَصِدْقِهِ.

وَفِي هَذَا المَعْنَىٰ يَقُولُ الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ عَبْدُ اللهِ دِرَازُ فِي كِتَابِهِ (النَّبأُ العَظِيمُ): «بَلْ كَانَ النَّاظِرُ إِلَيهِ إِذَا قَوِيَتْ فِطنتُه وَحَسُنَتْ فِراسَتُه يَرىٰ أخلاقَهُ العَالِيَةَ تَلوحُ فِي مُحيّاهُ وَلَو لَمْ يَتكلَّمْ أَوْ يَعمَلْ. وَمِن هُنا كَانَ كَثِيرٌ مِمّنْ شَرحَ اللهُ صُدُورَهُمْ لِلإسلامِ لَا يَسأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَىٰ مَا قَالَ بُرهَانًا؛ فَمِنْهُم العَشِيرُ الذِي عَرفَه بِعظَمةِ سِيرَتِهِ، وَمِنهُم الغَرِيبُ الذِي عَرفَه بِسيمَاهُ فِي وَجْهِهِ»[212].

وَهَذَا هُوَ المَعْنَىٰ الَّذِي أَدْرَكَهُ الإِمَامُ البَنَّا رَحِمَهُ اللهُ فَلَمْ يَكْتَفِ بِعَرْضِ المَبَادِئِ، بَلْ حَرَصَ عَلَىٰ إِعْدَادِ نَمَاذِجَ بَشَرِيَّةٍ تَتَجَسَّدُ فِيهَا هَذِهِ المَبَادِئُ، فَتَكُونُ القُدْوَةُ العَمَلِيَّةُ أَبْعَدَ أَثَرًا فِي النُّفُوسِ مِنَ القَوْلِ المُجَرَّدِ.

(211) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا** [رسالة المؤتمر السادس]، ص 446.
(212) محمد عبد الله دراز: **النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم**، ط 12، دار القلم للنشر والتوزيع، القاهرة، 1439هـ – 2018م، ص 64.

## 4-ثَمنُ الصِّدْقِ مَعَ الأُمَّةِ

يُذكَرُ أنّه لَمَّا قَامَتْ ثَورَةُ يُوليُو (1952م)، كَانَ أَوَّلُ سُؤالٍ سَأَلَهُ زُعماءُ الأحزابِ فِي مِصْرَ لِلأستَاذِ حَسَنِ الهُضيبِيِّ: هَل تَعرِفُ هَؤلاءِ الأشْخَاصَ؟ نَحْنُ لَا نَعرِفُهُم، لَكِنْ نَعرِفُكُمْ أَنْتُمْ، يَقصِدُونَ الإِخوَانَ.. مَا رَأْيُكُمْ أَنتُمْ فِيهِمْ؟

فكانَ رَدُّ الأستَاذِ الهُضَيبِيِّ: إِنَّهُم لَيسُوا مِنَّا. وَكَانَ هَذَا هُوَ أولَ قَرارٍ صَارِمٍ يُصدِرُهُ فِي حَقِّ هَؤلاءِ المُسَمَّوْنَ بِـ(الضباطِ الأحرارِ)، وَقَدْ صَدَمَ هَذَا القَرَارُ كَثيرًا مِنَ الإِخوَانِ، لأنّها كَانَتِ الحَقيقَةَ المُرَّةَ، خَسارَةٌ أَنْ يُقَالَ عَنْهُم: وَطَنيّونَ أَوْ أَخْلصُوا نِيَّتَهُم للهِ. إِنّهُم يَعمَلُونَ لِمَصالحِهِمُ الشَّخصيّةِ.

إِنّهُمْ لَيسُوا مِنَّا: كلمَةٌ دَفعَ الأستاذُ الهُضَيبيُّ، والجَماعةُ والصفُّ كُلُّهُ ثَمنَهَا بَاهِظًا، وَلَوْ قَالَ الأستَاذُ الهُضيبيُّ كَلِمَةً غَيرَها، فَإِنَّ الأمةَ لَنْ تُصدِّقَنَا بَعدَ ذَلِكَ. فكانَ عَلَىٰ هَذَا الجِيلِ أَنْ يُضحِّيَ حَتَّىٰ تَثبُتَ فِيهِ مَعانِي الصِّدْقِ؛ لأنَّ الأمةَ لِكَيْ تُصدِّقَكَ وَتُطِيعَ حَماسَكَ، لَا بدَّ أَنْ تَطمئِنَّ إِلَىٰ مَدَىٰ صِدْقِكَ فِعْلًا.. هَذَا الاطمِئْنانُ يَحتاجُ إِلَىٰ ثَمنٍ بَاهِظٍ يُدفَعُ، وَقَد دَفعَ الإِخوانُ فِي تِلكَ الحِقبَةِ الثمَنَ بَاهِظًا مِنَ القَتلِ وَالسَّجْنِ وَالتعْذيبِ.. إلخ.

وَقَبلَ إعدامِ الأستَاذِ سَيدِ قُطْب رَحِمَهُ اللهُ، أَتَوْا بأختِهِ السيدَةِ حَميدَةَ قُطْب فِي الزنزَانةِ الّتِي كانَ فِيهَا قبلَ سَاعاتٍ مِنَ الإعدَامِ، وعَرَفْنَا القِصَّةَ بعدَمَا رَوَتْهَا فِي مُذكِّرَاتِهَا[213]، وَسَمعْنَاهَا مِنْ شُهودٍ كَانُوا مَوجُودِينَ فِي المُستَشْفَىٰ مَعَ الأستاذِ سَيدِ قُطْبٍ مِنَ الإخوَانِ الذين لَا يَزال بعضهم أَحياءَ كَانُوا فِي الزنْزانَةِ الّتِي بِجَانبِهِ، وَلَمْ يَكُنْ لِزنزَانتِه بَابٌ، وإِنَّما كَانُوا يَضعُونَ عَلَيهَا بطَّانيّةً فَقَطْ، لأنَّ كَانَ يُعَانِي مِنْ ضِيقِ التَّنفسِ إِذَا أُغلِقَ البَابُ لِمرَضِهِ، بَلْ لأمرَاضٍ كَثِيرَةٍ اجتمعَتْ عَلَىٰ جَسَدِهِ النَّحِيلِ، مثلَ القَلْبِ وَالأوعِيَةِ الدمَويةِ وَالضغْطِ وَضَعفِ الرِّئَتينِ، فَسَمِعَ أُختَهُ حِينَ دَخلَتْ عَلَيهِ تقولُ لَه يَا أَخِي هُمْ يَقولُونَ لَكِ: «لَوْ تَكتبُ تَتنكَّرُ لإِخْوَانِكَ، وَتَشهَدُ لَهُم [تَقصِدُ لِنظَامَ الثَّورَةِ] فَسَوْفَ يُبرِّؤُونَكَ وَيُخفِّفُونَ الحُكْمَ عَلَيْكَ»، فَرفَضَ الأستَاذُ سَيِّدُ وَهَدَّأَ مِنْ رَوْعِهَا وَهِيَ تَبكِي

(213) حميدة قطب: **رحلة في أحراش الليل**. ط 1، دار الشروق، القاهرة، 1418هـ - 1998م.

أَمَامَـهً، وَلَـكَ أَنْ تَتخيَّلَ الموقفَ؛ فالأستاذُ سيدٌ رَجلٌ كبيرٌ فِي الستِّينَ من عمره، وَأختُهُ فِي العِشْرِينَ، أَتَي بِهَا عَسكرِيٌّ فِي نِصْفِ الليْلِ، وَرَمَاهَا أمَامَهُ، وقَالَ لَهَا: قُولِي لَـهُ الكَلامَ الّذِي قُلنَاهُ لَكِ.

كَانَ صَفوتُ الـرُّوبيُّ أَحَدَ المُعذِّبينَ وَالجَلادِينَ فِي السِّجْنِ الحَربيِّ، قُولِي لَـهُ مَاذَا قُلنَا لَـكِ الآنَ. فَقالَـتْ لأَخِيهَا سَيّد: يَا أَخِي إِنَّهم يقولـونَ كَـذَا وكـذَا، قَـالَ لَهَا: هَـذَا الـكلامُ أَأَنْـتِ تَقُولِينَـه لأنّكِ خَائفَـةٌ عَلَـيَّ أَمْ هُـمْ أَمْلُـوهُ عَليكِ؟

قَالَـتْ: نَعـمْ هُـمْ أَمْلُوهُ. قَـالَ: لَـو شَـهِدْتُ فِيهِـمْ شَـهادَةً غَيرَ حَقيقِيّةٍ فَإنّهَا كِذْبَـةٌ كُبْرَىٰ لَا يَغفِرُهَـا التَّارِيـخُ، وَلَـو قَـدَّرَ اللهُ مَماتِي، فَلعَـلَّ اللهَ أَنْ يَصنَـعَ مِـنْ هَـذَا القَـدَرِ شَـيئًا رَائِعًا لِهَـذَا الدِّيـنِ.

وَرَفَضَ فِعلًا أن يكتُبَ كَلمةً يَحْمِي بِهَا رَأْسَهُ مِنْ حَبلِ المِشْنَقَةِ وَلَـم تَمْضِ سَاعَةً، حَتَّىٰ أُخِذَ وَأُعْدِمَ.

وَقَـدْ كَانَ فَـوْتُ المَـوْتِ سَهْـلًا فَـرَدَّهُ
إِلَيْـهِ الْحِـفَاظُ المُـرُّ وَالخُلُـقُ الْوَعْـرُ[214]

وَسَـمِعْنَا فِي إِذَاعَـةِ الصَّبـاحِ البَاكـرِ أَنَّـه تَـمَّ فَجْـرَ اليـوْمِ إِعـدَامُ فُـلانٍ وَفُـلانٍ. **وَالـدرْسُ وَالعِبـرةُ** أَنَّ الرجُـلَ لَـم يَـرضَ أَنْ يَقُـولَ كَلِمَـةً يَنْقِـذُ بِهَـا رَأْسَـهُ مِـنْ حَبـلِ المِشْـنَقَةِ. لِمَـاذَا؟ لأنَّ النـاسَ تَنتظِـرُ مِنَّا الصِّـدْقَ دَائمًـا، وَإِنْ أَدَّىٰ ذَلِـكَ إِلَـىٰ تَضحيّـاتٍ كَثِيـرَةٍ، وَدفَعْنَـا الثمَـنَ بَاهِظًـا. كَانَ ضُبَّـاطُ حَرَكَـةِ يُولْيُـو يَنْتَظِـرُونَ مِـنَ الإِخْـوَانِ كَلِمَـةَ مَـدْحٍ أَوْ ثَنَـاءٍ أَوْ تَزْكِيَـةٍ لَهُـمْ؛ فَـكَانَ الجَـوَابُ: «**هَـؤُلَاءِ لَيْسُـوا مِنَّـا**»، وَدَفَـعَ الإِخْـوَانُ ثَمَـنَ هَـذِهِ الكَلِمَـةِ غَالِيًـا.

## 5- إِنَّـمَا الزَّعِيمُ مَنْ تَرَبَّىٰ

وَهَـذَا الّـذِي حـدَثَ بِالفعْـلِ، انظُـرْ إِلَـىٰ مَـا بذَلَـه الإِخـوَانُ مَـعَ أُولئِـكَ الضبَّـاطِ فِـي أَوَّلِ الثـورَةِ مِـنْ جُهـودٍ، وَكيـفَ تَنكَّـروا لَهـم بَعدَمَـا اطْمَأَنّـوا إِلَـىٰ انتِصَارِهِـمْ وَتَمكُّنِهـم، تَنكـرُوا

(214) البيتُ مِنْ قَصيدَةِ: «كَذا فَليَجِلَّ الخَطبُ وَليَفدَحِ الأَمرُ». للشاعر العباسي أبي تمام، الذي وُلد عام 190 هـ / 805 م في بلدة جاسم من قرىٰ حوران في سوريا، وتوفي عام 231 هـ / 845 م في مدينة الموصل.

لِلإِخْوَانِ لَمَّا اطْمأَنُّوا إِلَىٰ أنّهم قَدْ تَمكّنُوا، إِذَنْ هِيَ لَيسَتْ سُلطةً مُنبثِقَةً مِنَ الأمَّةِ، كَمَّا قالَ الإمامُ البَنَّا قَدِيمًا: الزَّعِيمُ زَعِيمٌ تَربَّىٰ، وَلَيْسَ مَنْ زَعَّمَتْهُ الحَوَادِثُ وَأَتَتْ بِهِ الضَّرُورَاتُ، تَأتِي بِهِ أَحدَاثٌ هَائِجَةٌ، فِي مُظاهراتٍ أَوْ فِي ثَورَاتٍ، يَأتِي فَجْأَةً، أَوْ كَمَا يقُولُ الأستاذُ سَيدُ قُطب في قصيدته (هُبَلُ):

زَعَمُوا لَهُ مَا لَيْسَ عِنْدَ الأَنْبِيَاء
مَلِكٌ تَجَلْبَبَ بِالضِّيَاءِ وَجَاءَ مِنْ كَبِدِ السَّمَاء

وَقَدْ رَوَىٰ الأستاذُ أَحمَدُ سَيفُ الإسلام أنَّ وَالِدَهُ الإمامَ البَنَّا أَلْقَىٰ خُطبةً عَامَ 1946، فِي ذِكرَىٰ وَفاةِ الزعِيمِ مُصطفَىٰ كَامِل قَالَ فِيهَا: «**الزُّعمَاءُ ثَلاثةٌ: زَعِيمٌ صَنعَ نَفْسَهُ، وَزَعِيمٌ صَنعَتْهُ الظُّروفُ، وَزَعِيمٌ صَنعَهُ اللهُ عَلَىٰ عَيْنِهِ**» (215)، وَلاَ رَيبَ أنَّ الإمامَ البَنَّا كانَ يُرِيدُ لأُمتِنَا الصنفَ الثالِثَ مِنَ الزعمَاءِ.

وَلا يَعنِي هَذَا أنَّ الأمةَ لَا دَوْرَ لَها فِي صِناعَةِ قَادَتِهَا، فإنّ دَورَها مُقدَّمٌ عَلَىٰ غَيرِهَا؛ فَهِي مَنْ تَختارُهُم وتَنتقِدُهُمْ، وَعَليهَا أَنْ تُحسِنَ الاختِيَارَ، فَإِذَا اختِيرَتِ القِيَادَةُ، وَحَازَتِ الثقَةَ أُطِيعَتْ وأُعِينَتْ وأُوزِرَتْ، وَلِذَلِكَ حَرصَ الإمامُ البَنَّا رَحِمَهُ اللهُ عَلَىٰ أَنْ تَكُونَ الأُمَّةُ أَوَّلًا، ثُمَّ السُّلطَة ثَانيًا.. أمَّا التفكيرُ المقْلُوبُ، فَلا بُدَّ أَنْ يُؤدِّيَ إِلَىٰ تِلكَ النتائجِ الخَطِيرَةِ. وَإِنّها عِبرَةُ التارِيخِ، وَمَا زِلْنَا نُعَانِي مِنْهَا إِلَىٰ الآنِ.

## رَابِعًا: فِقْهُ الوَسَائِلِ وَالوَاقِعِ

### 1- بَينَ الوَسائِلِ وَالنتَائِجِ

قَدَّمَ الإمامُ البَنَّا فِكرَتَه مُدعَّمَةً بِالأدلّةِ والبراهِينِ؛ لِيُدلِّل عَلَىٰ مَدَىٰ صِدْقِهَا، وَمَدىٰ واقعيتِهَا فِي الوَقْتِ نفسِهِ، وَمَدىٰ فائدَتِهَا للناسِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ لَا يُؤْمِنُونَ بِشَيْءٍ إِلَّا إِذَا اعْتَقَدُوا صَلَاحِيَّتَهُ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَشَعَرُوا بِفَائِدَةِ الْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَىٰ، فَعِندَئذٍ يُؤمِنُون بِذلِكَ الشَّيءِ وَيَعملُون لَه وَيَبذلُون فِي سَبيلِه أَقْصَىٰ مَا لَديهِم مِنْ جُهدٍ؛ لأنّه رَضوا بِهِ وَارتَاحَوا إليهِ.

(215) محمد عبد الجواد: **أسرار التميز الإداري الإمام البنا** [رسالة المؤتمر السادس]، ص 104.

لذلكَ يُخْطِئُ مَنْ يَستَعْجِلُ النتائِجَ قَبلَ الوَسائلِ؛ يَقولُ: السُّلطَةُ أَوّلًا، وَهِيَ الّتِي تُربِّي، وَبِهَذَا نَختَصِرُ الوَقْتَ. فَتأتِي هَذِهِ السُّلطَةُ، فَإِذَا بِهَا مَجمُوعَةٌ مِنَ الشُّطّارِ[216] تَعمَلُ لمصَالحِهَا فَقط، لَا دِينَ، وَلَا خُلُقَ، وَلَا مَبادئَ.

وَلِذَلِكَ عَلَّمنَا الأستاذُ البنَّا أَنَّنا لَسْنَا كَغَيرِنَا مِنَ الدعَواتِ أَوِ الأحزَابِ وَالهَيئَاتِ التِي لَا يُهِمُّهَا إلّا شَيءٌ وَاحِدٌ، هُوَ التمَاثُلُ فِي الرأْيِ وَالمَصْلَحَةِ، مَصلحَتِي مَعَ مَصلحَتِكَ وَرَأيِي مَعَ رَأيِكَ، لَا يُهمُّنِي الجَانبُ الخُلقيُّ وَلَا إعدَادُ النفْسِ وَتَربيتُهَا، وَلَا الجَانِبُ الرُّوحِيُّ، وَلا مُقتَضياتُ الإيمَانِ لَدىٰ أَفرَادِهَا، كُلّ هَذَا لَا تُفكِّرُ فِيهِ تِلْكَ الهَيئاتُ، وَمِنْ ثَمَّ فَهِيَ أَحزابٌ سِياسِيةٌ وَلَيسَتْ حَركةً أَخلاقيّةً، ولهذا نهانا الإمام البنا عن المقارنة بين دعوتنا وهذه الهيئات.

صَحِيحٌ أَنَّ غَيرَنَا قَدْ يَنجَحُ، وَيَصِلُ إلىٰ السُّلطَةِ؛ لأنّهُمْ لَيسُوا مِثْلَنَا؛ مَقاييسُهُمْ غيرُ مَقاييسِنَا، وَمَوازِينهم غيرُ مَوازِينِنا، وَمِنْ ثَمَّ فَخُطَّتُهُمْ غيرُ خُطَّتِنَا، وَنَجَاحُهُمْ جُزئِيٌّ أَوْ مُؤقَّتٌ سِرعَانَ مَا يَظهَرُ عوارُهُ، أَمَّا خُطَّتنَا، فَهِيَ أَكِيدَةُ النَّجَاحِ وَإِنْ تَأَخَّرَ، مَا دَامَتْ تَهتَدِي بِنُورِ اللهِ تَعالَىٰ، وَلَا غَرْوَ أن يقول الإمامُ البنَّا مطمئنًّا واثقًا:

«عَلَىٰ أَنَّ التجَارِبَ فِي المَاضِي وَالحَاضِرِ قَدْ أَثبتَتْ أَنّهُ لَا خَيرَ إِلَّا فِي طَرِيقِكُمْ، وَلَا إِنتَاجَ إِلَّا مَعَ خُطَّتِكُمْ، وَلَا صَوابَ إِلَّا فِيمَا تَعمَلُونَ، فَلا تُغامِرُوا بِجُهودِكُم وَلَا تُقَامِرُوا بِثِمَارِ نَجَاحِكُمْ. وَاعمَلُوا وَاللهُ مَعكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ، وَالفَوزُ لِلعَامِلينَ ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة:143] »[217].

إِنَّ لَنَا خُطَّةً تَختلِفُ عَن خُطةِ غَيرِنَا مِنَ الأحزابِ والهيئَاتِ، كَما تَختلِفُ مَوازِينُنَا عَنْ مَوازِينِهِم، وَلِهذَا قَالَ الأستاذُ البنَّا تَحتَ عُنوانِ (البعدُ عَنِ الهَيئاتِ وَالأحزَابِ): «لِهذَا آثَرْنَا أَنْ نَتجنَّبَ الجَميعَ، وَأَنْ نَصبِرَ عَلَىٰ الحِرمَانِ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ العنَاصِرِ الصَّالِحَةِ، حَتَّىٰ يَنكشِفَ الغِطَاءُ، وَيُدرِكَ النَّاسُ بَعضَ الحقَائقِ المَستُورَةِ عَنهُم، فَيعُودُوا إِلَىٰ

(216) الشُّطَّارُ: جمعُ شاطِر، ويُرادُ به هنا أهلُ المكر والحيلة والاحتيال.
(217) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة المؤتمر الخامس]، ص 343.

الخُطَّة المُثلَىٰ بَعدَ التَّجرِبَـةِ، وَقَدِ امتَلأَتْ قُلوبُهُم بِاليقِينِ وَالإيمَانِ» (218).

فَقَدْ تَجِدُ عُنصرًا صَالِحًا أَمَامَكَ يُماثِلُكَ أَوْ يَتماثَلُ مَعكَ فِي الرَّأْيِ وَالمَصْلَحةِ، وَلَكِنَّكَ لَسْتَ مُطمَئِنًّا إِلَىٰ الجَانِبِ الإيمَانِي وَاليقِينِ وَالتربِيَةِ وَالإِعْدَادِ النفْسِيِّ الهَائِلِ، إِذَنْ فَلنَصْبِرْ عَلَىٰ الحِرمَانِ مِنهُ.

وَقَدْ نَصَحَ أَحَدُ شُيُوخِ سُورِيَا الأَفَاضِلِ الإِمَامَ البَنَّا بِهَذَا الكَلَامِ، وَهُوَ الشَّيْخُ سَعِيدُ العَرْفِيُّ، عِنْدَمَا قَالَ لَهُ: إِيَّاكَ أَنْ تَضُمَّ إِلَىٰ جَمَاعَتِكَ اثْنَيْنِ: الشُّيُوعِيَّ أَوِ المُلْحِدَ الَّذِي لَا عَقِيدَةَ لَهُ، وَإِنْ تَظَاهَرَ بِالصَّلَاحِ؛ فَإِنَّهُ لَا أَمَلَ فِي إِصْلَاحِهِ، وَهُوَ بَعِيدٌ عَنْكُمْ بِأَصْلِ العَقِيدَةِ، فَمَا تَرْجُونَ مِنْهُ؟

وَلَا تَضُمَّ الصَّالِحَ الَّذِي لَا يَحْتَرِمُ النِّظَامَ، وَلَا يُقَدِّرُ مَعْنَىٰ الطَّاعَةِ؛ فَإِنَّهُ يُغْرِي الجَمَاعَةَ بِصَلَاحِهِ، وَيُفَرِّقُهَا بِخِلَافِهِ» (219).

وَالمَعنَىٰ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ الإِمَامُ البَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ أَيْضًا هُوَ أَنْ نَبتعِدَ عَنْ كُلِّ صَداقاتٍ ضَالَّةٍ أَوْ خُصومَاتٍ حَادَّةٍ.

لَقَدْ جَاءَ إِلَيْهِ أَحْمَدُ حُسَيْنٍ، زَعِيمُ حِزْبِ (مِصْرَ الفَتَاةِ)، عِنْدَمَا حُلَّ الحِزْبُ وَمُنِعَ نَشَاطُهُ، وَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَنْضَمَّ إِلَىٰ الإِخْوَانِ، فَرَأَىٰ الأُسْتَاذُ البَنَّا أَنَّ الأَنْسَبَ لَهُ أَنْ يَعْمَلَ لِلإِسْلَامِ فِي مَجَالِهِ؛ لأَنَّ الجَمَاعَةَ لَهَا إِطَارُهَا وَنِظَامُهَا، وَتَقُومُ عَلَىٰ الشُّورَىٰ وَالالْتِزَامِ بِقَرَارِهَا. وَقَدْ أَدْرَكَ الإِمَامُ البَنَّا اخْتِلَافَ طَبِيعَةِ الرَّجُلِ وَأُسْلُوبِهِ عَنْ طَبِيعَةِ العَمَلِ الجَمَاعِيِّ المُنَظَّمِ؛ فَرَأَىٰ أَنَّ اسْتِقْلَالَ كُلٍّ مِنْهُمَا بِمَجَالِ عَمَلِهِ أَنْفَعُ لِلدَّعْوَةِ وَأَبْعَدُ عَنِ الخِلَافِ.

وَرَأَيْنَا أَيْضًا بَعْضَ أَتْبَاعِهِ فِي السِّجْنِ عَامَ (1965م)، مِنْ أَنْصَارِ حِزْبِ (مِصْرُ الفَتَاةِ)،

(218) السابق. ص 340.

(219) انظر: حسن البنا، **مذكرات الدعوة والداعية**، ط1، مركز الإعلام العربي، الجيزة، 1432هـ-2011م، ص 83. أشرنا إلىٰ تفاصيل هذه النصيحة في الجزء الثاني، فليُرجع إليه.

وَكَانُوا رِجَالًا كِبَارًا يَشْغَلُونَ وَظَائِفَ مَرْمُوقَةً فِي المُجْتَمَعِ آنَذَاكَ، وَقَدْ جُمِعُوا مَعَنَا فِي السِّجْنِ لِاشْتِرَاكِهِمْ فِي مُعَارَضَةِ نِظَامِ يُولْيُو. وَكَانَ أَحَدُهُمْ مَعَنَا فِي الزِّنْزَانَةِ، فَلَاحَظْنَا فِي سُلُوكِهِ ضَعْفًا فِي مُرَاعَاةِ حُقُوقِ الآخَرِينَ فِي بَعْضِ شُؤُونِ الحَيَاةِ اليَوْمِيَّةِ. وَلَا يَصِحُّ أَنْ نُعَمِّمَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ التَّجْرِبَةِ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ تُذَكِّرُنَا بِالفَرْقِ بَيْنَ مُجَرَّدِ الِاجْتِمَاعِ عَلَىٰ رَأْيٍ أَوْ مَوْقِفٍ سِيَاسِيٍّ، وَبَيْنَ العَمَلِ الَّذِي يَقُومُ عَلَىٰ التَّرْبِيَةِ وَالِالْتِزَامِ وَحُسْنِ الإِعْدَادِ.

## 2-الوَعْيُ بِالوَاقِعِ وَحُسْنُ اغْتِنَامِ الفُرَصِ

لقدْ أدركَ الأستاذُ البنَّا أيْضًا أنّه أمَامَ عَالَمٍ بَعيدٍ عَنِ الفَوضَىٰ مُنظَّمٍ مُرتَّبٍ مُنضبِطٍ تَحكمُه القوانينُ وَالمُعاهدَاتُ وَالمصالحُ، كانَ لَه كَلمِةٌ جَميلَةٌ تَحتَ عُنوَانِ: (**انْتِهَازُ الفُرصَةِ**): يَتحدَّثُ فِيهَا عَنِ انْتِصَارُ الحُلَفَاءِ[220] فِي الحَرْبِ العَالَمِيَّةِ، وَيُصوِّرُ كَيفَ يَغتَنِمُ أَعدَاؤُنَا الفُرصَ، فَيقُولَ:«ثُمَّ تَأكَّدُوا بَعدَ ذَلِكَ أنّها الفُرصَةُ السَّانحَةُ التِي لَا تُعوَّضُ، وَمَاذَا تَنتظِرونَ بَعدَ ذلكَ؟ وَقَدِ انتَهتْ هَذهِ الحَربُ الضَّروسُ وَخَرجَ مِنهَا الحُلفَاءُبِنَصرٍ لَمْ يَكُونُوا يَتوقَّعُونَه، وَسَلَّمَ لَهم أَعداؤُهُم بِغَيرِ قَيدٍ وَلَا شَرطٍ، وَعَرفَتْ حُكومَاتُهم وَهَيئاتُهم وَشُعوبُهم قِيمَةَ الوَقتِ، فَلَمْ يُضيِّعُوهُ سُدًى، وَلَمْ يُنفِقُوهُ هَباءً فِي الجَدلِ الفَارغِ وَالخُصومَةِ القَاتلَةِ وَالنوْمِ العَميقِ، وَلكنَّهُم كَانُوا يُحاربُونَ وَيُرتبُونَ، حَتَّىٰ إِذَا وَضَعتِ الحَربُ أَوزَارَهَا، كَانَ مُؤتَمَرُ سَانْ فرانْسِيسكُو[221]وَمُؤتَمرُ بُوتسْدَام[222]،

(220) وَاجَهَتْ دُوَلُ الحُلفَاءِ دُوَلَ المِحْوَرِ، التِي ضَمَّتْ أَلمَانيَا وَإِيطَالِيَا وَاليابَانِ، وَكَانَ مِنْ أَبْرَزِ دُوَلِ الحُلفاءِ بِريطَانيَا العُظْمَىٰ وَالوِلَايَاتِ المُتَّحِدَةِ وَالاتِّحَادِ السُّوفْيتِّي. وَقَدِ انْضَمَّتْ إِلَىٰ دُوَلِ المِحْوَرِ خِلَالَ الحَرْبِ العَالَمِيّةِ الثَّانِيَةِ خَمْسُ دُولٍ أُخْرَىٰ، هِيَ: المَجَرُ، ورُومَانيَا، وَبُلغَاريَا، وَسُلُوفَاكيَا، وَكُرُوَاتْيَا.

(221) **مُؤتَمرُ سَان فَرانْسِيسْكُو**: مُؤتمرٌ دَولِي عُقِدَ فِي مَدينَةِ سَان فَرانْسِيسكُو بِالوَلَايَاتِ المُتَّحِدَةِ (25 أبريل – 26 يونيو 1945)، عَقِبَ اقتِرَابِ نِهَايَةِ الحَربِ العَالميّةِ الثَّانيَةِ، بِمُشَارَكَةِ خَمسِينَ دَوْلَةً، لِوَضْعِ مِيثَاقِ الأُمَمِ المُتَّحِدَةِ، وَتنظِيمِ النظَامِ الدَّوْلِيِّ الجَديدِ، وَانتَهَىٰ بِالتوْقِيعِ عَلَىٰ مِيثَاقِ الأُمَمِ المُتَّحِدَةِ فِي 26 يونيُو 1945، الذِي أَصْبَحَ الأَسَاسَ القَانُونِيَّ لِإِنْشَاءِ المُنظمَةِ الدَّوْلِيّةِ.

(222) **مُؤتَمرُ بُوتسْدَام**: عُقِدَ فِي مَدينَةِ بُوتسدَامَ بألمَانيَا (مِنْ 17يوليُو إِلَىٰ 2 أَغُسْطُس 1945م)، عَقِبَ هَزيمَةِ أَلْمَانيَا النَّازيّةِ بِقِيَادَةِ أَدُولْف هِتْلَر فِي الحَرْبِ العَالمِيَّة الثَّانيَةِ، وَشَارَكَ فيهِ قَادَةُ الوِلَايَاتِ المُتحِدَةِ وَالاتِّحَادِ السُّوفيتِّي وَبريطَانيَا لِوَضْعِ تَرتيبَاتِ مَا بَعدَ الحَربِ، وَهُوَ مِنْ أَهَمِّ المؤتمَرَاتِ التِي أَرْسَتْ أُسُسَ النظَامِ الدَّولِيِّ بَعدَ الحَربِ العَالَمِيّةِ الثَّانِيَةِ، وَمَهَّدَتْ لِبَدَايةِ الحَرْبِ البَارِدَةِ.

وَمُؤتمرُ وُزراءِ الخَارجيةِ فِي لَندنَ[223]، وَلَمْ تَبقَ عَليهِ إلاَّ لَيالٍ وَأيّام، وَفِي خِلالِ ذَلِكَ مُقابَلاتٌ وَاجتِمَاعَاتٌ وَتَصريحَاتٌ وَقَراراتٌ، وَخُطَبٌ وَمَقالاتٌ، وَحُكومَاتٌ إِثْرَ حُكومَاتٍ، وَهَكذَا تَسِيرُ الدُّوَلُ الكُبرَىٰ وَتَتأهَّلُ الدُّوَلُ الأُخْرَىٰ، فِي سُرعَةٍ وَيَقظَةٍ وَاهتِمَام، وَيُقرَّرُ مَصائِرُ العَالَمِ وَيُحدَّدُ مُستقبَلُ الأُممِ وَالشعُوبِ فِي هَذهِ السَّاعاتِ الفَاصلَةِ فِي تَاريخِ النَّاسِ، **فَإِذَا وَقَعَ الأَمْرُ فَقلَّما يَتغيّرُ إِلَّا بِالمَجهُودِ العَنيفِ وَالدَّأَبِ المُخيفِ** فَمَا الذِي تَنتظِرُونَ؟ وَالْأَمْرُ أَمْرُكُمْ، وَأَنْتُمْ مَوْضِعُ الْبَحْثِ وَالتَّقْرِيرِ، عَلَىٰ مَصَالِحِكُمْ يَشْتَدُّ الْجَدَلُ وَالْخِلَافُ، وَإِلَيْهَا تَتَّجِهُ الْمَطَامِعُ وَالْآمَالُ، أَفَلَا تَرَوْنَ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ أَنَّهَا سَاعَاتٌ لَهَا مَا بَعْدَهَا، بَلْ إِنَّهَا أَحْرَجُ السَّاعَاتِ فِي تَارِيخِنَا الْحَدِيثِ؟»[224].

وَمَا أَشْبَهَ الليلةَ بِالبارِحَةِ؛ فَقَدْ عَرفَ الإِمَامُ البنَّا أنَّ دَعوتَهُ تُواجِهُ عَالَمًا مُنظَّمًا بَعيدًا عَنِ الفوضىٰ، تَحكمُه المُعاهدَاتُ وَالمَصالِحُ وَالقَوانينُ وَالمُؤتمرَاتُ؛ وَلِذلِكَ لَا يُمكِنُ أَنْ يُواجَهَ كَيفَمَا اتَّفَقَ، أَوْ خَبطَ عَشْوَاءَ، وَإِنَّمَا لَا بُدَّ أَنْ يُواجَهَ بِكِيانٍ مُنظَّمٍ وَفِكْرٍ نَاضِجٍ، ودَعوةٍ نَاضِجَةٍ صَادقةٍ، تُواجِهُ هَذِهِ الدعوَاتِ الّتِي تَسرِي بِهَا مَوجَاتُ الأثيرِ وَتَهتِفُ بِهَا أَرجَاءُ الأَرْضِ.

## خَامِسًا: بِنَاءُ الأُمَّةِ وَمَوْقِعُ السُّلْطَةِ(الأُمَّةُ قَبلَ السُّلطَةِ)

مِنَ الأُمُورِ المُهِمَّةِ الَّتِي وَعَاهَا الإِمَامُ البَنَّا أَنَّ الجُزْءَ الآخَرَ مِنَ النِّظَامِ الإِسْلَامِيِّ، وَهُوَ (السُّلْطَةُ)، لَا بُدَّ أَنْ يَنْبَثِقَ مِنَ الأُمَّةِ؛ لِأَنَّ القِيَادَةَ الَّتِي تَصْنَعُهَا السُّلْطَةُ مِنْ أَعْلَىٰ، بَعِيدًا عَنْ إِرَادَةِ الأُمَّةِ وَتَكْوِينِهَا، تَكُونُ أَبْعَدَ عَنِ الطَّابَعِ الإِصْلَاحِيِّ.

إنّها عِبرَةُ التاريخِ؛ فَكُلُّ سُلطَةٍ تُفرَضُ عَلَىٰ الأُمَّةِ أَوْ تَأتِيهَا مِنْ أَعْلَىٰ، لَا يُنتَظَرُ مِنهَا خيرٌ؛ لِذلِكَ كَانَ الإمامُ البنَّا حَرِيصًا عَلَىٰ أَنْ تَخرُجَ هَذِهِ السُّلْطَةُ مِنْ رَحِمِ الأُمَّةِ؛ فالأُمَّةُ هِيَ الّتِي تُقدِّمُهَا لِتَحْمِلَ عِبئَهَا. وَمِنْ ثَمّ يَكونُ الخَطَرُ حِينَما تَحرِصُ أيُّ دعوةٍ

(223) **مُؤتَمَرُ وُزَرَاءِ الخَارِجِيّةِ فِي لَنْدَنَ**: اجْتِمَاعٌ عُقِدَ فِي لنْدَنَ سَنةَ 1945م، لِوُزَرَاءِ خَارجِيّةِ الدُّوَلِ الكُبرَىٰ المُنتصرَةِ فِي الحَرْبِ العَالميَّةِ الثَّانِيَةِ، لِبَحْثِ تَرتيبَاتِ مَا بَعدَ الحَربِ، وَمُتابعَةِ تَنفيذِ مَا تَقرَّرَ فِي مُؤتمرَاتِ الحُلفَاءِ، وَلَا سِيَّمَا مَا يتعلَّق بِأَلمَانيَا وَأُورُوبَّا وَالنظامِ الدَّوْلِيِّ الجَديدِ.

(224) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة مؤتمر رؤساء المناطق والشعب]، ص 564.

أَوْ جَماعـةٍ عَلَىٰ الوُصُـولِ إِلَـىٰ السُّـلطةِ قَبـلَ تَحقيـقِ بِنَـاءِ الأُمَّـةِ.

وَهَـذَا مَيـلٌ نَظـرِيٌّ لَـدىٰ الجميـعِ، لأنـهُ فِـي الحقيقَـةِ هُـروبٌ مِـن تَبِعَـاتِ الجِهَـادِ، وَأَوَّلُهـا جِهَـادُ النفْسِ وَتَربيـةُ النَّـاسِ، فَيُصبِحُ الوُصـولُ إِلَـىٰ السلطَةِ هُـوَ الطريـقَ السـهلَ، لأنّهـا هِـيَ الّتِي تُحقِّـقُ أهدَافَنا، لأنـهُ لَيسَ هُنـاكَ نِظـامٌ إِسْـلامِيٌّ يُحقِّـقُ هَدَفَـهُ إِلَّا مِـنْ خِـلَالِ السُّـلْطَةِ الإِسْلاميَّةِ.

وَهَـذهِ رُؤْيَـةٌ لَا يُنكِرُهَـا أَحـدٌ، وَهِـيَ إيجَـادُ السُّـلطَةِ الّتِي تُوجِـدُ المُجتمَـعَ الإِسْـلامِيَّ، وَلَكنَّهـا فِـي الوَقْـتِ نَـفْسِهِ مُعادلَـةٌ مَغْلوطة، **لأنَّ النـاسَ وَالدعَاةَ يهربُـونَ مِنْ أَصعَـبِ مَرحلةٍ قَبـلَ السُّـلطةِ وَهِـيَ تَربيـةُ الأمـةِ الّتِي سَـتُفرِزُ هَـذِهِ السُّـلطة**، وَلِذلِـكَ كَانَ الإِمَـامُ البنَّـا كَثيـرًا مَـا يقـولُ: «فَـلا بُـدَّ أَنْ تَتـذرَّعَ الأُمّـةُ بِالصَّـبرِ وَالأنَـاةِ وَالكِفَـاحِ الطَّويـلِ، وَكُلُّ أُمَّـةٍ تُحَـاوِلُ تَخطِّـيَ حَواجِـزَ الطَّبيعَـةِ يَكُـونُ نَصيبُهَـا الحِرْمَـانَ»[225].

وَالمقصـودُ بِالحواجـزِ هُنَـا (التربيـةُ)؛ لأنَّ الأسـئلةَ الحائـرَةَ الّتِي لَا تَـزَالُ تَـدورُ عِندَمَـا تُوجَـدُ سُلطَـةٌ مَـا لِتحَقِّـقَ أهدَافًـا مَـا سَـيكُونُ السـؤالُ: مِـن أَيـنَ أَتَـتْ هَـذِهِ السـلطةُ؟ ومَـن الّـذِي يُهيمِـنُ عَلَـىٰ سلُوكِهَا وَيُقوِّمُهـا، وَمِـن الّـذِي يَضمَـنُ أَلَّا تَنحـرِفَ لخِدْمَـةِ نَـفْسِهَا بَعيـدًا عَـنْ خِدمَـةِ الأُمَّـةِ؟ مَـنِ الّـذِي يَضمَـنُ هَـذَا؟

وَمِـنْ هُنَـا لَـمْ يَكُـنْ مَشْـرُوعُ الإِمَـامِ البنَّـا مَشْـرُوعًا سِيَاسِـيًّا يَسْـتَهْدِفُ السُّـلْطَةَ فَحَسْـبُ، بَـلْ كَانَ مَشْـرُوعًا شَـامِلًا لِبنَـاءِ الأُمَّـةِ، فَحَقِيقَـةُ الإِخْـوَانُ التِي تُميزُهُـم عَـن غَيرِهِـمْ عَبَّـرَ عَنْهَـا الإِمـامُ البنَّـا عِنْدَمَـا قَـالَ: «لَسْـنَا شَـيْئًا مِـنْ هَـذهِ التشْـكِيلَاتِ، فَإِنّهـا جَميعًـا تخلقهَـا غَايـةٌ مَوضِعيّـةٌ مَحْـدُودَةٌ لِمُـدّةٍ مَعـدودَةٍ، وَقَـد لَا يُوحِـي بتَأليفِهَـا إِلَّا مُجـرَّدُ الرغبةِ فِي تَأليـفِ هَيئةٍ، وَالتحلّـي بِالألقَـابِ الإِدَاريّـةِ فِيهَـا. **وَلكنَّنـا أيهَـا النـاسُ: فِكـرةٌ وَعَقيـدَةٌ، وَنِظـامٌ وَمِنهـاجٌ، لَا يُحـدِّدُهُ مَوضِـعٌ، وَلَا يُقيِّـدُهُ جِنسٌ، وَلَا يَقِـفُ دُونَـه حَاجِـزٌ جُغرافِـيٌّ، وَلَا يَنتَهِـي بِأَمْـرٍ حَتَّـىٰ يَـرِثَ اللهُ الأرضَ وَمَـنْ عَليهَـا، ذَلِـكَ لأنّـه نِظـامُ رَبِّ العَالميـنَ، وَمِنهَـاجُ رَسُـولِهِ الأميـنِ .. نَحـنُ أيّهـا النـاسُ - وَلَا فَخْـرَ - أَصحَـابُ رَسُـولِ اللهِ، وَحمَلَـةُ رَايتِـه مِـنْ بَعـدِهِ، وَرَافِعُـو لِوائِـهِ كَمَـا رَفَعُـوه، وَنَاشِـرُو لِوَائـه كَمَـا نَشـرُوهُ، وَحَافِظُـو قُرآنِـهِ كَمَـا حَفظُـوهُ، وَالمُبشِّـرُونَ**

(225) حسن البنا: **مذكرات الدعوة والداعية**، ص 176.

**بِدعْوتِه كَمَا بَشَّرُوا، ورَحْمةُ اللهِ لِلعَالَمينَ ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨]»**[226].

لأننَا نجتمعُ عَلَىٰ عُنصرٍ آخرَ مختلفٍ، وَهُوَ عنصرُ الإيمَانِ وَالانتمَاءِ إِلَيْهِ وَالاعتِزَازِ بِهِ وَالمَسؤوليّةِ الأَدبيةِ تِجَاهَه، نَحنُ نُعِدّ أَنفسَنَا لِلبذْلِ وَالتضْحيَةِ وَالكِفَاحِ وَنتذرَّعُ بِالصبْرِ وَالأناةِ لِكفَاحٍ طَويلٍ، حَتَّىٰ لَا تلينَ لَنا قَناةٌ ونَحنُ نُواجِهُ مِثْلَ هَذِهِ الصعوباتِ وَالضغُوطاتِ، لَا يُمكِنُ أَنْ تَأتِيَ هَذِهِ الحكومَةُ أَوَّلًا، عَلَيْنَا أَنْ نُكوِّنَ الأُمَّةَ أَوّلًا الّتِي تَنبثِقُ مِنْهَا الحُكومَةُ أَوْ تَنبثِقُ مِنْهَا هَذِهِ السُّلطَةِ، وَتَبقَىٰ مَضبوطَةً بِهذِهِ الضَّوابطِ. فَهُناكَ مَنْ يَعرِفُها وَهُناكَ مَنْ يُحاسِبُهَا وَهُناكَ مَن يُهيمِنُ عَلَىٰ سُلُوكِهَا وَهُناك مَنْ يُقوِّمُهَا، وَهُناكَ مَن يَقِفُ ضِدّهَا، وَيَمنَعُها أَنْ تَستغِلَّ تِلكَ التضحِيّاتِ مِنْ أَجلِ خِدمَةِ مَصالحِهَا، وَلا يُمكِنُ لهَذَا أن يتحقَقَ إِلَّا فِي وُجودِ أمّةٍ نَاضجةٍ وَاعيةٍ آمَنَتْ بِالفكرَةِ، وَبذلَتْ فِي سَبيلِهَا، وَطَوَّرَتْ نَفْسَهَا بِمَا يتفِقُ مَعَ العَصْرِ، وَاعتمَدَتِ التقدُّمَ المادِّيَّ وَالمواهِبَ العِلميَّةَ.

وَمِنْ كَلماتِ الإمَامِ البنَّا: «وَيُخطِئُ مَنْ يَظنُّ أَنّ الإخوَانَ المُسلِمِينَ دُعاةُ كَسَلٍ أَوْ إهمَالٍ، فَالإخوانُ يُعلِنُونَ فِي كُلِّ أوقَاتِهم أَنَّ المُسلِمَ لَا بُدَّ أَنْ يَكونَ إِمَامًا فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَلَا يَرضَوْنَ بِغَيرِ القِيَادَةِ وَالعمَلِ وَالجِهَادِ وَالسّبقِ فِي كُلِّ شَيْءٍ: فِي العِلْمِ وَفِي القُوّةِ وَفِي الصِّحةِ وَفِي المَالِ. وَالتأخُّرُ فِي أَيّةِ نَاحِيَةٍ مِنَ النوَاحِي ضَارٌّ بِفكرَتِنَا مُخالِفٌ لِتعَاليمِ دِينِنَا»[227].

وَهَذَا المَبْدَأُ، أَيْ مَبْدَأُ السَّبْقِ وَالتَّقَدُّمِ فِي مَجَالَاتِ الحَيَاةِ، مِنَ الأُسُسِ المُهِمَّةِ جِدًّا لِعَمَلِيَّةِ النُّهُوضِ؛ لِأَنَّهُ يُيَسِّرُ حَيَاةَ الأُمَّةِ وَيُعِينُهَا عَلَىٰ النُّهُوضِ.

**وَمِنْ أَخْطَرِ الأَسْئِلَةِ الَّتِي تُوَاجِهُ أَيَّ حَرَكَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ:** مَتَىٰ تَنْتَقِلُ مِنْ مَرْحَلَةِ الإِعْدَادِ وَالتَّرْبِيَةِ إِلَىٰ مَرْحَلَةِ امْتِلَاكِ القُوَّةِ وَاسْتِخْدَامِ وَسَائِلِهَا؟

إِنَّ الأُمَّةَ قَبْلَ السُّلْطَةِ، وَلِهَذَا أَوْلَىٰ الأُسْتَاذُ البَنَّا التَّرْبِيَةَ هَذَا الِاهْتِمَامَ؛ فَالِانْتِقَالُ

(226) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة الإخوان تحت راية القرآن]، ص 395.
(227) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة إلىٰ الشباب عامة وإلىٰ الطلبة خاصة]، ص 426.

إِلَىٰ مَرْحَلَةِ القُوَّةِ لَا يَكُونُ إِلَّا **عِنْدَمَا تَتَوَفَّرُ القُوَّةُ المَعْنَوِيَّةُ وَالعَدَدِيَّةُ**، وَيَكُونُ الِاسْتِعْدَادُ النَّفْسِيُّ لِلْبِنَاءِ لَا لِلْهَدْمِ، لأَنَّ كِلَا الاسْتِعْدَادينِ يَختلِفُ أَحدُهُما عَنِ الآخَرِ، وَعِندَمَا يَتوفَرُ هَذَان الاستِعدَادانِ تَستَطِيعُ فِعلًا أَنْ تَخطُوَ تِلكَ الخُطوةَ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ تَأخِيرَهَا ضَارٌّ إِذَا مَا سَنَحتِ الفُرصَةُ، وَتوفَّرتِ القُوةُ المَعنويةُ؛ وَهِيَ الاستِعدَادُ النفْسِيُّ لِلبنَاءِ، كَذلِكَ القُوّة العَدديّةُ، وَمَعنَاهَا الهَيبةُ وَالوَفْرَةُ، إِذَا تَوفَّرَ ذَلِكَ بَقِيَ التبكيرُ عِندَمَا نَجِدُ الظُّروفَ مُواتيَةً. وَإِذَا كَانتِ الوَسيلَةُ بَعيدَةً عَن أفكَارِ الحَركَةِ الأخلاقيَّةِ، وَإِذَا كُنَّا لَمْ نَعتَنِ بِالصَّفِّ وَبِنائِهِ؛ فَهيهاتَ أَنْ تَتحقَّقَ الأهدافُ، إِذَنْ لَن يَستطيعَ أَنْ يُحقِّقَ الهدَفَ إِلَّا أُناسٌ حَنَّكتْهُمُ التجَارِبُ، وَثَبتَ إخلاصُهُم، وَتَراصَّتْ صُفوفُهُمْ.

أَمَّا إِنْ بَدَتْ فِي الأُفُقِ ظُرُوفٌ مُوَاتِيَةٌ دُونَ تَوَفُّرِ **القُوَّتَيْنِ المَادِّيَّةِ وَالمَعْنَوِيَّةِ**، فَإِنَّ التَّبْكِيرَ هُنَا خَطَأٌ، مِثْلَمَا يَكُونُ التَّأْخِيرُ خَطَأً إِذَا تَوَفَّرَ الصَّفُّ المُعْتَنَىٰ بِبِنَائِهِ؛ لِأَنَّ التَّأْخِيرَ يُصْبِحُ حِينَئِذٍ تَفْوِيتًا لِفُرْصَةٍ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ إِضَاعَةَ هَذِهِ الفُرْصَةِ تَعْنِي فَتْحَ الطَّرِيقِ أَمَامَ ضَرَبَاتٍ قَاسِيَةٍ تَتَعَرَّضُ لَهَا الدَّعْوَةُ. وَكَمَا يُفْهَمُ مِنْ كَلَامِ الإِمَامِ البَنَّا، **فَهُوَ أَمْرٌ دَقِيقٌ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِتَوْفِيقٍ**.

وَبِهَذَا تَتَّضِحُ المَلَامِحُ العَامَّةُ لِلرِّسَالَةِ؛ فَقَدْ بَيَّنَ الإِمَامُ البَنَّا مِنْ خِلَالِهَا أَنَّ الدَّافِعَ إِلَىٰ هَذِهِ الدَّعْوَةِ، وَالسِّرَّ البَاعِثَ عَلَيْهَا، هُوَ مَا يَمُدُّ بِهِ القُرْآنُ نَفْسَ المُؤْمِنِ مِنْ نَزْعَةِ التَّبْلِيغِ وَالحَرَكَةِ بِهِ وَتَمَثُّلِهِ فِي وَاقِعِ الحَيَاةِ. ثُمَّ تَأْتِي الوَسِيلَةُ لِتَحْقِيقِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ مِنْ خِلَالِ إِقَامَةِ النِّظَامِ الإِسْلَامِيِّ الَّذِي يَقُومُ عَلَىٰ دِعَامَتَيْنِ: المُجْتَمَعِ وَالحُكْمِ، أَوِ الأُمَّةِ وَالسُّلْطَةِ.

وَقَد نَصحَنَا الإمَامُ البَنّا رَحِمَهُ اللهُ ألَّا نُوازِنَ أنفُسَنَا بغَيرِنَا مِنَ الدعَواتِ وَألا نُصغِّرَ أنفسنَا، لأنَّه نَوعٌ مِنَ التراجُعِ وَالهزيمَةِ النفْسِيةِ، عِندَمَا نُقارِنُ أنفسَنَا بِغَيرِنَا ونُوازِنُ دَعوتَنا الّتِي تَستَمِدُّ مَنهجَهَا وَنُورَهَا مِن نُورِ اللهِ عزَّ وجَلَّ وَسُنةِ رَسُولِه ﷺ بِغَيرِهَا مِنَ الدعَوَاتِ الّتِي أتتْ بِهَا الضروراتُ، وَأَوْجَدتْها الحَوادِثُ وَالأيّامُ.

بَلَ كَانَتْ ثقةُ الإمَامِ البنَّا رَحِمَهُ اللهُ بِدَعوتِه وَمِنهاجِهِ المُستمَدِّ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنةِ، تَجعَلُه يَدعُو المُسلِمينَ أَجمَعِينَ (أَفرَادًا وَجَماعَاتٍ وَهَيئَاتٍ)، إِلَىٰ الانضِمَامِ تَحتَ لِوَاءِ هَذِهِ

الدَّعـوةِ المُباركَـةِ؛ فَإنّهـا مَأمُونَـةُ الخُطَـىٰ مَضمُونَـةُ النَّتائـجِ؛ يَقـولُ الإمَـامُ البنَّـا: «فَمَـنْ تَبعِنَـا الآنَ فَقَـدْ فَـازَ بِالسَّـبقِ، وَمَـن تَقاعَـدَ عَنَّا مِـنَ المُخلِصِيـنَ اليَـوْمَ فَسيَلْحَقُ بِنَـا غَـدًا، وَلِلسَّـابقِ عَليـهِ الفَضْـلُ. وَمَـنْ رَغِـبَ عَـنْ دَعوَتِنَـا زَهَـادَةً، أَوْ سُـخريَةً بِهَـا، أَوِ اسْـتِصْغَارًا لَهـا، أَوْ يَائِسًـا مِـنَ انتِصَارِهَـا، فَسـتُثْبِتُ لَـه الأيَّـامُ عَظِيـمَ خَطئِهِ، وَسَـيقذِفُ اللهُ بِحَقِّنَـا عَلَـىٰ بَاطلِـه فَيدْمَغُـه فَـإِذَا هُـوَ زَاهِـقٌ.

فَإِلَيْنَـا إِلَيْنَـا أَيهَـا المُؤمِنُـونَ العَاملـونَ، وَالمُجاهِـدُونَ المُخلِصُـونَ، فَهُنَـا الطَّرِيـقُ السَّـوِيُّ، وَالصـرَاطُ المُسـتَقِيمُ، وَلَا تُوزِّعُـوا القُـوَىٰ وَالجُهـودَ: ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِـي مُسْـتَقِيمًا فَاتَّبِعُـوهُ وَلاَ تَتَّبِعُـواْ السُّـبُلَ فَتَفَـرَّقَ بِكُـمْ عَـن سَـبِيلِهِ ذَلِكُـمْ وَصَّاكُـم بِـهِ لَعَلَّكُـمْ تَتَّقُـونَ﴾ [الأنعـام:153]»[228].

(228) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة الإخوان تحت راية القرآن]، ص 395.

# رِسالَةُ
# «إِلَىٰ الشبابِ عامةً وَإِلَىٰ الطَّلَبَةِ خاصةً»

هَـذِهِ رِسَـالَةٌ خَصَّصَهَـا الإِمَـامُ البَنَّـا لِلشَّـبَابِ، رَدَّ فِيهَـا عَلَـىٰ بَعْـضِ الشُّـبُهَاتِ الَّتِـي أُلْصِقَـتْ بِالجَمَاعَـةِ، وَفَنَّدَهَـا وَكَشَـفَ زَيْفَهَـا، كَمَـا تَحَـدَّثَ عَـنْ أَهْـدَافِ الجَمَاعَـةِ، وَبَيَّـنَ أَنَّهَا تَبْـدَأُ بِالفَـرْدِ المُسْـلِمِ، ثُـمَّ البَيْـتِ المُسْـلِمِ، ثُـمَّ المُجْتَمَـعِ المُسْـلِمِ، ثُـمَّ الحُكُومَـةِ الإِسْـلَامِيَّةِ، ثُـمَّ أُسْـتَاذِيَّةِ العَالَـمِ. وَهَـذِهِ الأَهْـدَافُ المُتَتَالِيَـةُ لَا يُمْكِـنُ القَفْـزُ عَلَيْهَـا، أَوِ اخْتِصَـارُ مَرْحَلَـةٍ مِـنْ مَرَاحِلِهَـا.

يُرجَّـحُ أَنَّ هَـذِه الرِسَالَـةَ صَـدَرَتْ بَيْـنَ عَامَـيْ 1940م وَ1941م، أَثْنَـاءَ مَنْـعِ صُـدُورِ صُحُفِ الإِخْـوَانِ وَمَجَلَّاتِهِمْ[229].

(229) جاء في **مجموعة رسائل الإمام البنا**: «اعْتَمَدْنَا عَلَىٰ مَا نَشَرَتْهُ دَارُ الكِتَابِ العَرَبِيِّ فِي عَام 1951م، وَقَدْ ذَكَرَتْ فِي مُقَدِّمَةِ الرِّسَالَةِ أَنَّهَا صَدَرَتْ مُنْذُ عَشْرِ سَنَوَاتٍ، مِمَّا يُرَجِّحُ أَنَّ تِلْكَ الرِّسَالَةَ صَدَرَتْ بَيْنَ عَامَيْ 1940م وَ1941م، أَثْنَاءَ مَنْعِ صُدُورِ صُحُفِ الإِخْوَانِ وَمَجَلَّاتِهِمْ». انظر: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، الطبعة الثالثة، دار النداء- إسطنبول، 2014. ص411.

## الرُّوحُ العَامَّةُ لِلرِّسَالَةِ

الرُّوحُ الَّتِي تَسْرِي فِي الرِّسَالَةِ هِيَ اسْتِنْهَاضُ الشَّبَابِ لِحَمْلِ مَشْرُوعِ نَهْضَةِ الأُمَّةِ، وَبَيَانُ سَبِيلِ نَجَاحِ الفِكْرَةِ عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ، عَنْ وَعْيٍ وَإِيمَانٍ وَمَسْؤُولِيَّةٍ.

فَالإِمَامُ البَنَّا لَا يُخَاطِبُ الشَّبَابَ بِوَصْفِهِمْ فِئَةً عُمُرِيَّةً تَحْتَاجُ إِلَىٰ الوَعْظِ وَالتَّوْجِيهِ فَحَسْبُ، وَإِنَّمَا يَرَاهُمُ القُوَّةَ المُؤَهَّلَةَ لِحَمْلِ الفِكْرَةِ وَتَحْوِيلِهَا إِلَىٰ عَمَلٍ؛ وَلِذَلِكَ **فَهَذِهِ الرِّسَالَةُ فِي حَقِيقَتِهَا مَشْرُوعٌ لِتَكْوِينِ جِيلٍ يَحْمِلُ مَسْؤُولِيَّةَ التَّغْيِيرِ، وَيَمْلِكُ مُقَوِّمَاتِ إِنْجَاحِ الفِكْرَةِ الَّتِي يَحْمِلُهَا.**

## مَحَاوِرُ شَرْحِ الرِّسَالَةِ

أَوَّلًا: الشَّبَابُ عِمَادُ النَّهْضَةِ وَحَمَلَةُ الرِّسَالَةِ.

ثَانِيًا: وُضُوحُ الطَّرِيقِ، وَاسْتِعْلَاءُ الْإِيمَانِ، وَالْوَعْيُ بِالرِّسَالَةِ.

ثَالِثًا: حَقِيقَةُ الدَّعْوَةِ وَمَرْجِعِيَّتُهَا الْإِسْلَامِيَّةُ.

رَابِعًا: مَرَاتِبُ الْعَمَلِ وَتَدَرُّجُ مَشْرُوعِ النَّهْضَةِ.

خَامِسًا: مَنْ هُمُ الْإِخْوَانُ الْمُسْلِمُونَ؟

سَادِسًا: الثَّبَاتُ وَالتَّجَرُّدُ وَالْعَمَلُ لِحَمْلِ الرِّسَالَةِ.

## أَوَّلًا- الشَّبَابُ عِمَادُ النَّهْضَةِ وَحَمَلَةُ الرِّسَالَةِ

### 1- الشَّبَابُ عِمَادُ النَّهْضَةِ

لَمْ يَكُنِ اهْتِمَامُ الإِمَام البَنَّا بِالشَّبَابِ طَارِئًا فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ؛ فَقَدْ أَوْلَاهُمُ العِنَايَةَ مُنْذُ السَّنَوَاتِ الأُولَىٰ لِلدَّعْوَةِ، وَرَأَىٰ فِي إِقْبَالِهِمْ عَلَيْهَا بُشْرَىٰ بِمُسْتَقْبَلِهَا. «وَفِي أَوَاخِرِ عَام 1933م تَكَوَّنَتْ أَوَّلُ رَابِطَةٍ لِطُلَّابِ الإِخْوَانِ مِنْ سِتَّةٍ مِنَ الطُّلَّابِ، حَتَّىٰ إِنَّ الشَّيْخَ طَنْطَاوِي جَوْهَرِي عَدَّ انْضِمَامَهُمْ إِلَى الدَّعْوَةِ «**فَتْحًا مُبِينًا**»[230]. وَهَذَا يَكْشِفُ عَنِ الوَعْيِ المُبَكِّرِ بِأَنَّ الشَّبَابَ هُمْ رِهَانُ الدَّعْوَةِ عَلَى المُسْتَقْبَلِ، وَأَنَّ نَجَاحَ الفِكْرَةِ مَرْهُونٌ بِوُجُودِ جِيلٍ يُؤْمِنُ بِهَا وَيَحْمِلُهَا وَيُحَوِّلُهَا إِلَىٰ عَمَلٍ.

تَبْدَأُ الرِّسَالَةُ بِالحَدِيثِ عَنْ (**نَجَاحِ الفِكْرَةِ**)؛ فَلَيْسَتِ العِبْرَةُ بِعَظَمَةِ الفِكْرَةِ فِي ذَاتِهَا، وَإِنَّمَا بِقُدْرَةِ حَامِلِيهَا عَلَىٰ تَحْوِيلِهَا إِلَىٰ عَمَلٍ مُثْمِرٍ فِي الوَاقِعِ؛ فَكَمْ مِنْ فِكْرَةٍ عَظِيمَةٍ بَقِيَتْ حَبِيسَةَ الأَذْهَانِ؛ لِأَنَّهَا لَمْ تَجِدْ مَنْ يُحَوِّلُهَا إِلَىٰ وَاقِعٍ عَمَلِيٍّ. وَمِنْ هُنَا يَبْدَأُ الإِمَامُ البَنَّا رِسَالَتَهُ بِبَيَانِ مُقَوِّمَاتِ نَجَاحِ الفِكْرَةِ، وَهِيَ مُقَوِّمَاتٌ تَتَّصِلُ اتِّصَالًا وَثِيقًا بِخَصَائِصِ مَرْحَلَةِ الشَّبَابِ، وَتَجْعَلُهُمْ أَقْدَرَ عَلَىٰ حَمْلِ الفِكْرَةِ وَتَحْوِيلِهَا إِلَىٰ وَاقِعٍ: «إِنَّمَا تَنْجَحُ الفِكْرَةُ إِذَا قَوِيَ الإِيمَانُ بِهَا، وَتَوَفَّرَ الإِخْلَاصُ فِي سَبِيلِهَا، وَازْدَادَتِ الحَمَاسَةُ لَهَا، وَوُجِدَ الاسْتِعْدَادُ الَّذِي يَحْمِلُ عَلَىٰ التَّضْحِيَةِ وَالعَمَلِ لِتَحْقِيقِهَا»[231].

وَلِهَذَا جَمَعَ الإِمَامُ البَنَّا أَرْبَعَةَ مُقَوِّمَاتٍ: **الإِيمَانَ، وَالإِخْلَاصَ، وَالحَمَاسَةَ، وَالاسْتِعْدَادَ لِلتَّضْحِيَةِ وَالعَمَلِ**. فَالإِيمَانُ يَمْنَحُ الفِكْرَةَ قُوَّتَهَا فِي النَّفْسِ، وَالإِخْلَاصُ يُحَرِّرُ صَاحِبَهَا مِنْ حُظُوظِ النَّفْسِ وَالمَصَالِحِ الشَّخْصِيَّةِ، وَالحَمَاسَةُ تَمْنَحُهُ قُوَّةَ الدَّفْعِ وَالحَرَكَةِ، ثُمَّ يَأْتِي الاسْتِعْدَادُ لِلتَّضْحِيَةِ وَالعَمَلِ لِيَنْقُلَ الفِكْرَةَ مِنْ عَالَمِ الاقْتِنَاعِ وَالتَّمَنِّي إِلَىٰ عَالَمِ الإِنْجَازِ وَالتَّغْيِيرِ.

---

(230) عُقِدَ أَوَّلُ مُؤتمرٍ لطُلَّابِ الإخوانِ تَحتَ رِئاسةِ الإمامِ البنَّا، وَقَد نُشِرَتْ هَذِهِ الكَلِمَةُ فِي كُتيِّبٍ صَادرٍ عَن لَجنةِ المؤتمرِ بدارِ الإخوانِ المسلمينَ 5 ميدان العَتبة بتاريخ محرم 1357هـ الموافق مارس 1938م. انظر: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة مؤتمر طلبة الإخوان المسلمين]. ص227-225.

(231) مجموعة رسائل الإمام البنا.[**رسالة إلىٰ الشباب عامة وإلىٰ الطلبة خاصة**]. ص414.

وَيَضَعُ الإِمَامُ البَنَّا هُنَا قَاعِدَةً مُهِمَّةً فِي حَيَاةِ الدَّعَوَاتِ؛ هِيَ أَنَّ الأَفْكَارُ لَا تَنْتَصِرُ بِمُجَرَّدِ صِحَّتِهَا، وَلَا يَكْفِي أَنْ تَكُونَ الفِكْرَةُ عَظِيمَةً حَتَّىٰ تَجِدَ طَرِيقَهَا إِلَىٰ الوَاقِعِ، وَإِنَّمَا تَحْتَاجُ إِلَىٰ رِجَالٍ يُؤْمِنُونَ بِهَا، وَيُخْلِصُونَ لَهَا، وَيَتَحَمَّسُونَ لِتَحْقِيقِهَا، ثُمَّ يُحَوِّلُونَ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَىٰ عَمَلٍ. وَهَكَذَا كَانَ صَحَابَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِينَ رَبَّاهُمْ مِنْ حَوْلِهِ؛ آمَنُوا بِالرِّسَالَةِ، وَتَكَوَّنُوا عَلَيْهَا، ثُمَّ حَمَلُوهَا إِلَىٰ العَالَمِينَ، فَتَحَوَّلَ الإِيمَانُ فِي نُفُوسِهِمْ إِلَىٰ عَمَلٍ وَبَذْلٍ وَحَرَكَةٍ غَيَّرَتْ وَجْهَ التَّارِيخِ.

«لِأَنَّ أَسَاسَ الإِيمَانِ القَلْبُ الذَّكِيُّ، وَأَسَاسَ الإِخْلَاصِ الفُؤَادُ النَّقِيُّ، وَأَسَاسَ الحَمَاسَةِ الشُّعُورُ القَوِيُّ، وَأَسَاسَ العَمَلِ العَزْمُ الفَتِيُّ وَهَذِهِ كُلُّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِلشَّبَابِ. وَمِنْ هُنَا كَانَ الشَّبَابُ قَدِيمًا وَحَدِيثًا فِي كُلِّ أُمَّةٍ عِمَادَ نَهْضَتِهَا، وَفِي كُلِّ نَهْضَةٍ سِرَّ قُوَّتِهَا، وَفِي كُلِّ فِكْرَةٍ حَامِلَ رَايَتِهَا»[232].

وَهَذَا المَعْنَىٰ تَشْهَدُ لَهُ نَمَاذِجُ كَثِيرَةٌ فِي القُرْآنِ وَالسِّيرَةِ؛ فَقَدْ لَفَتَ القُرْآنُ النَّظَرَ إِلَىٰ فِتْيَةِ أَصْحَابِ الكَهْفِ فَقَالَ: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًىٰ﴾ [الكهف: ١٣]، فَجَمَعَ لَهُمْ بَيْنَ صِغَرِ السِّنِّ وَقُوَّةِ الإِيمَانِ وَالثَّبَاتِ عَلَىٰ الحَقِّ. وَفِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ نَرَىٰ كَثِيرًا مِنْ حَمَلَةِ الدَّعْوَةِ الأُوَلِ مِنَ الشَّبَابِ؛ فَكَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَمُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَغَيْرُهُمْ نَمَاذِجَ لِمَا يُمْكِنُ أَنْ يَحْمِلَهُ الشَّبَابُ مِنْ تَبِعَاتِ الدَّعْوَةِ وَالعَمَلِ.

فَالشَّبَابُ عِنْدَ الإِمَامِ البَنَّا لَيْسُوا مُجَرَّدَ قِطَاعٍ مِنْ قِطَاعَاتِ المُجْتَمَعِ، وَإِنَّمَا هُمْ رَصِيدُ الأُمَّةِ فِي النُّهُوضِ وَالتَّغْيِيرِ. فَحِينَ تَمْلِكُ الأُمَّةُ شَبَابًا يَعْرِفُونَ مَاذَا يُرِيدُونَ، وَيُؤْمِنُونَ بِمَا يَحْمِلُونَ، وَيَسْتَعِدُّونَ لِلْبَذْلِ فِي سَبِيلِهِ، فَإِنَّهَا تَمْلِكُ أَهَمَّ عَنَاصِرِ النَّهْضَةِ.

وَهَذَا المَعْنَىٰ أَصَّلَهُ الإِمَامُ البَنَّا فِي رِسَالَةِ «**إِلَىٰ أَيِّ شَيْءٍ نَدْعُو النَّاسَ؟**» حِينَ جَعَلَ تَكْوِينَ الأُمَمِ، وَتَرْبِيَةَ الشُّعُوبِ، وَتَحْقِيقَ الآمَالِ مُحْتَاجًا إِلَىٰ قُوَّةٍ نَفْسِيَّةٍ عَظِيمَةٍ.

(232) السابق.

«إِنَّ تَكْوِينَ الأُمَمِ، وَتَرْبِيَةَ الشُّعُوبِ، وَتَحْقِيقَ الآمَالِ، وَمُنَاصَرَةَ المَبَادِئِ، تَحْتَاجُ مِنَ الأُمَّةِ الَّتِي تُحَاوِلُ هَذَا، أَوْ مِنَ الفِئَةِ الَّتِي تَدْعُو إِلَيْهِ عَلَىٰ الأَقَلِّ، إِلَىٰ قُوَّةٍ نَفْسِيَّةٍ عَظِيمَةٍ تَتَمَثَّلُ فِي عِدَّةِ أُمُورٍ: إِرَادَةٌ قَوِيَّةٌ لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهَا ضَعْفٌ، وَوَفَاءٌ ثَابِتٌ لَا يَعْدُو عَلَيْهِ تَلَوُّنٌ وَلَا غَدْرٌ، وَتَضْحِيَةٌ عَزِيزَةٌ لَا يَحُولُ دُونَهَا طَمَعٌ وَلَا بُخْلٌ، وَمَعْرِفَةٌ بِالمَبْدَإِ وَإِيمَانٌ بِهِ وَتَقْدِيرٌ لَهُ يَعْصِمُ مِنَ الخَطَإِ فِيهِ، وَالانْحِرَافِ عَنْهُ، وَالمُسَاوَمَةِ عَلَيْهِ، وَالخَدِيعَةِ بِغَيْرِهِ»[233].

وَهَكَذَا تَلْتَقِي الرِّسَالَتَانِ فِي أَنَّ النَّهْضَةَ لَا تَصْنَعُهَا الشِّعَارَاتُ وَالأَمَانِيُّ، وَإِنَّمَا تَصْنَعُهَا نُفُوسٌ آمَنَتْ بِالفِكْرَةِ، وَتَكَوَّنَتْ عَلَيْهَا، وَاسْتَعَدَّتْ لِتَحَمُّلِ تَبِعَاتِهَا وَتَحْوِيلِهَا إِلَىٰ عَمَلٍ.

## 2- الشَّبَابُ وَمَسْؤُولِيَّةُ إِنْقَاذِ الأُمَّةِ

«وَمِنْ هُنَا كَثُرَتْ وَاجِبَاتُكُمْ، وَمِنْ هُنَا عَظُمَتْ تَبِعَاتُكُمْ، وَمِنْ هُنَا تَضَاعَفَتْ حُقُوقُ أُمَّتِكُمْ عَلَيْكُمْ، وَمِنْ هُنَا ثَقُلَتِ الأَمَانَةُ فِي أَعْنَاقِكُمْ»[234].

وَهَذَا هُوَ المِيزَانُ الَّذِي يَضَعُهُ الإِسْلَامُ لِلقُوَّةِ وَالقُدْرَةِ؛ فَلَيْسَتِ القُوَّةُ امْتِيَازًا يَسْتَأْثِرُ بِهِ صَاحِبُهَا، وَإِنَّمَا هِيَ أَمَانَةٌ يَزْدَادُ بِهَا التَّكْلِيفُ. وَفِي الحَدِيثِ: «المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ»[235]، ثُمَّ يَأْتِي التَّوْجِيهُ مُبَاشَرَةً إِلَىٰ العَمَلِ: «احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ»[236]. فَالقُوَّةُ فِي المَنْظُورِ الإِسْلَامِيِّ مُرْتَبِطَةٌ بِالنَّفْعِ وَالعَمَلِ وَمُقَاوَمَةِ العَجْزِ، وَهُوَ مَا يَنْسَجِمُ مَعَ تَحْمِيلِ الإِمَامِ البَنَّا الشَّبَابَ مَسْؤُولِيَّةً أَكْبَرَ بِقَدْرِ مَا أُوتُوا مِنْ قُوَّةٍ وَاسْتِعْدَادٍ.

هُنَا يَلْفِتُ الإِمَامُ البَنَّا النَّظَرَ إِلَىٰ مَعْنًىٰ مُهِمٍّ: **الامْتِيَازُ يُسَاوِي المَسْؤُولِيَّةَ**. فَإِذَا كَانَ الشَّبَابُ أَقْدَرَ عَلَىٰ حَمْلِ النَّهْضَةِ، فَإِنَّ نَصِيبَهُمْ مِنْ وَاجِبَاتِهَا أَكْبَرُ. وَمِنْ ثَمَّ لَا يُصَوِّرُ

(233) مجموعة رسائل الإمام البنا. [**رسالة إلىٰ أي شيء ندعو الناس**]. ص49.
(234) مجموعة رسائل الإمام البنا. [**رسالة إلىٰ الشباب عامة وإلىٰ الطلبة خاصة**]. ص414.
(235) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، عن أبي هريرة رضي الله عنه، رقم (2664).
(236) بقية الحديث.

لَهُمُ الشَّبَابَ بِوَصْفِهِ مَرْحَلَةً لِلاسْتِمْتَاعِ بِالْحَيَاةِ وَانْتِظَارِ الْمُسْتَقْبَلِ، وَإِنَّمَا بِوَصْفِهِ مَرْحَلَةَ تَكْلِيفٍ وَعَطَاءٍ وَبَذْلٍ.

«وَجَبَ عَلَيْكُمْ أَنْ تُفَكِّرُوا طَوِيلًا، وَأَنْ تَعْمَلُوا كَثِيرًا، وَأَنْ تُحَدِّدُوا مَوْقِفَكُمْ، وَأَنْ تَتَقَدَّمُوا لِلْإِنْقَاذِ، وَأَنْ تُعْطُوا الأُمَّةَ حَقَّهَا كَامِلًا مِنْ هَذَا الشَّبَاب»[237].

وَلَاحِظِ الأَفْعَالَ الَّتِي اخْتَارَهَا الإِمَامُ الْبَنَّا: تُفَكِّرُوا، اعْمَلُوا، حَدِّدُوا مَوْقِفَكُمْ، تَقَدَّمُوا لِلْإِنْقَاذِ. فَهُوَ لَا يُرِيدُ شَبَابًا يَتَحَمَّسُونَ ثُمَّ يَقِفُونَ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ مِنْهُمْ أَوَّلًا الفَهْمَ وَالتَّفْكِيرَ، ثُمَّ تَحْدِيدَ الْمَوْقِفِ، ثُمَّ العَمَلَ وَالْمُبَادَرَةَ.

وَالتَّرْبِيَةَ لَا تَنْفَصِلُ عَنْ وَاقِعِ الأُمَّةِ. فَلَيْسَ الْمَطْلُوبُ أَنْ يُرَبَّىٰ الشَّابُّ لِنَفْسِهِ وَحْدَهَا؛ لِيَنْجَحَ فِي دِرَاسَتِهِ وَعَمَلِهِ، وَيُصْلِحَ سُلُوكَهُ فَحَسْبُ، بَلْ **لَا بُدَّ أَنْ يَنْتَقِلَ مِنْ هَمِّ الذَّاتِ إِلَىٰ هَمِّ الأُمَّةِ.**

يَقُولُ الإِمَامُ الْبَنَّا: «قَدْ يَنْشَأُ الشَّابُّ فِي أُمَّةٍ وَادِعَةٍ هَادِئَةٍ... وَقَدْ يَنْشَأُ فِي أُمَّةٍ جَاهِدَةٍ عَامِلَةٍ قَدِ اسْتَوْلَىٰ عَلَيْهَا غَيْرُهَا... وَحِينَئِذٍ يَكُونُ مِنْ أَوْجَبِ الوَاجِبَاتِ عَلَىٰ هَذَا الشَّبَابِ أَنْ يَنْصَرِفَ إِلَىٰ أُمَّتِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْصَرِفُ إِلَىٰ نَفْسِه»[238]. **وَهَذِهِ العِبَارَةُ تَكْشِفُ جَانِبًا أَصِيلًا فِي مَنْهَجِ الإِمَامِ الْبَنَّا التَّرْبَوِيِّ، وَهُوَ نَقْلُ الشَّابِّ مِنَ الانْشِغَالِ بِذَاتِهِ إِلَىٰ حَمْلِ هَمِّ أُمَّتِهِ وَتَحَمُّلِ مَسْؤُولِيَّةِ الإِصْلَاحِ فِيهَا.**

وَيَزْدَادُ هَذَا الْمَعْنَىٰ وُضُوحًا إِذْ يَنْظُرُ الإِمَامُ الْبَنَّا إِلَىٰ مَا تَمُرُّ بِهِ الأُمَّةُ مِنْ مَشَقَّةٍ وَصِرَاعٍ لَا بِاعْتِبَارِهِ شَرًّا مَحْضًا، بَلْ بِاعْتِبَارِهِ فُرْصَةً لِتَكْوِينِ الرِّجَالِ وَإِيقَاظِ مَعَانِي البَذْلِ وَالعَمَلِ وَتَحَمُّلِ الْمَسْؤُولِيَّةِ فِي نُفُوسِهِمْ.

«وَلَعَلَّ مِنْ حُسْنِ حَظِّنَا أَنْ كُنَّا مِنَ الفَرِيقِ الثَّانِي، فَتَفَتَّحَتْ أَعْيُنُنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ دَائِبَةِ الجِهَادِ، مُسْتَمِرَّةِ الكِفَاحِ فِي سَبِيلِ الحَقِّ وَالحُرِّيَّة»[239].

---

(237) السابق.

(238) مجموعة رسائل الإمام البنا. [**رسالة إلىٰ الشباب عامة وإلىٰ الطلبة خاصة**]. ص414.

(239) السابق. ص415.

وَهَذَا الفَهْمُ لِلابْتِلَاءِ لَيْسَ غَرِيبًا عَنْ مَنْهَجِ القُرْآنِ فِي تَرْبِيَةِ المُؤْمِنِينَ؛ فَالِابْتِلَاءُ فِي المَنْظُورِ القُرْآنِيِّ لَيْسَ حَدَثًا عَارِضًا فِي طَرِيقِ الدَّعْوَةِ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ سُنَنِ التَّمْحِيصِ وَالتَّمْيِيزِ وَالإِعْدَادِ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ**﴾ [العنكبوت: 2-3]، وَقَالَ: ﴿**وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [آل عمران: 141].

وَقَدْ كَانَتِ المَرْحَلَةُ المَكِّيَّةُ فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ نَمُوذَجًا وَاضِحًا لِهَذَا المَعْنَىٰ؛ فَلَمْ تَكُنْ سَنَوَاتُ الاضْطِهَادِ وَالحِصَارِ وَالأَذَىٰ سِنِينَ انْتِظَارٍ مُعَطَّلٍ، بَلْ كَانَتْ سِنِينَ تَكْوِينٍ لِجِيلٍ تَعَلَّمَ الثَّبَاتَ وَالصَّبْرَ وَالتَّجَرُّدَ وَحَمْلَ التَّبِعَاتِ، ثُمَّ حَمَلَ الرِّسَالَةَ بَعْدَ ذَلِكَ. وَمِنْ هُنَا يُفْهَمُ قَوْلُ الإِمَامِ البَنَّا: «وَلَعَلَّ مِنْ حُسْنِ حَظِّنَا...»؛ فَلَيْسَ المَقْصُودُ تَمَنِّيَ المِحَنِ، وَإِنَّمَا إِدْرَاكُ مَا يُمْكِنُ أَنْ تُنْتِجَهُ المِحْنَةُ مِنْ تَكْوِينٍ إِذَا أُحْسِنَ التَّعَامُلُ مَعَهَا.

وَلَفْظُ «حُسْنِ حَظِّنَا» لَافِتٌ؛ لِأَنَّ الإِمَامَ البَنَّا لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ مَا تَمُرُّ بِهِ الأُمَّةُ مِنْ مِحْنَةٍ وَكِفَاحٍ مِنْ زَاوِيَةِ الأَلَمِ وَالمَشَقَّةِ وَحْدَهَا، وَإِنَّمَا يَرَاهُ مَيْدَانًا أَوْسَعَ لِأَدَاءِ الوَاجِبِ وَالبَذْلِ فِي سَبِيلِ الحَقِّ. فَالمُسْلِمُ صَاحِبُ رِسَالَةٍ، وَكُلَّمَا عَظُمَتِ التَّبِعَاتُ وَاتَّسَعَتْ

مَيَادِينُ العَمَلِ وَالجِهَادِ، اتَّسَعَتْ أَمَامَهُ فُرَصُ التَّضْحِيَةِ وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ وَابْتِغَاءِ ثَوَابِ اللهِ. وَمِنْ هُنَا لَمْ يَكُنْ عَيْشُ الشَّبَابِ فِي أُمَّةٍ مُجَاهِدَةٍ مَحْضَ حِرْمَانٍ وَمَشَقَّةٍ، بَلْ كَانَ – فِي هَذَا التَّصَوُّرِ – فُرْصَةً لِلتَّكَوُّنِ وَالبَذْلِ وَالارتِقَاءِ بِمَعْنَىٰ الرِّسَالَةِ وَالمَسْؤُولِيَّةِ.

وَهُنَا يَظْهَرُ بُعْدٌ مُهِمٌّ فِي التَّرْبِيَةِ عِنْدَ الإِمَامِ البَنَّا؛ فَالتَّرْبِيَةُ لَا تَسْعَىٰ إِلَىٰ حِمَايَةِ الشَّابِّ مِنْ مَشَقَّاتِ الحَيَاةِ، وَإِنَّمَا إِلَىٰ إِعْدَادِهِ لِمُوَاجَهَتِهَا. وَالفَارِقُ كَبِيرٌ بَيْنَ تَرْبِيَةٍ تُعِدُّ الإِنْسَانَ لِحَيَاةٍ مُرِيحَةٍ، وَتَرْبِيَةٍ تُعِدُّهُ لِحَمْلِ رِسَالَةٍ؛ فَالأُولَىٰ قَدْ تَجْعَلُ النَّجَاحَ الشَّخْصِيَّ غَايَتَهَا، أَمَّا الثَّانِيَةُ فَتَجْعَلُ الإِنْسَانَ نَفْسَهُ أَدَاةً فِي نَهْضَةِ أُمَّتِهِ.

وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ حَدِيثَ الإِمَامِ البَنَّا عَنِ الشَّبَابِ لَا يَقِفُ عِنْدَ بَيَانِ مَكَانَتِهِمْ، بَلْ يَنْتَقِلُ مِنْهَا مُبَاشَرَةً إِلَىٰ **التَّكْلِيفِ**: فَمَنْ كَانَ عِمَادَ النَّهْضَةِ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُتَفَرِّجًا عَلَىٰ أَزَمَاتِ أُمَّتِهِ، وَمَنْ كَانَ حَامِلَ رَايَةِ الفِكْرَةِ فَلَا يَكْفِيهِ أَنْ يُعْجَبَ بِهَا، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَفْهَمَهَا،

وَيُحَدِّدَ مَوْقِفَهُ مِنْهَا، وَيُعِدَّ نَفْسَهُ لِتَبِعَاتِهَا، ثُمَّ يَتَقَدَّمَ لِحَمْلِهَا.

وَبِهَذَا يَكْتَمِلُ المَعْنَىٰ الأَوَّلُ فِي الرِّسَالَةِ: الشَّبَابُ عِمَادُ النَّهْضَةِ، وَلَكِنَّ هَذِهِ المَكَانَةَ لَيْسَتْ تَشْرِيفًا مُجَرَّدًا، بَلْ هِيَ تَكْلِيفٌ يَسْتَلْزِمُ الإِيمَانَ وَالإِخْلَاصَ وَالعَمَلَ وَتَحَمُّلَ المَسْؤُولِيَّةِ.

ثُمَّ يَنْتَقِلُ الإِمَامُ البَنَّا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَىٰ سُؤَالٍ أَعْمَقَ: إِذَا كَانَ الشَّبَابُ مُطَالَبِينَ بِحَمْلِ رِسَالَةٍ وَأَدَاءِ وَاجِبِهِمْ نَحْوَ أُمَّتِهِمْ، فَبِأَيِّ فِكْرَةٍ يَتَحَرَّكُونَ؟ وَأَيَّ مَنْهَجٍ يَخْتَارُونَ فِي زَمَنٍ تَعَدَّدَتْ فِيهِ الدَّعَوَاتُ وَاخْتَلَطَتِ الصَّيْحَاتُ وَتَبَايَنَتِ الطُّرُقُ؟ وَمِنْ هُنَا يَنْتَقِلُ الحَدِيثُ مِنْ وَاجِبِ الشَّبَابِ تُجَاهَ أُمَّتِهِمْ إِلَىٰ ضَرُورَةِ وُضُوحِ الفِكْرَةِ وَحُسْنِ اخْتِيَارِ المَنْهَجِ.

## ثانيًا- وُضُوحُ الطَّرِيقِ، وَاسْتِعْلَاءُ الإِيمَانِ، وَالوَعْيُ بِالرِّسَالَةِ

### 1- حسْنُ اخْتِيَارِ المَنْهَجِ

«لَعَلَّ مِنْ أَخْطَرِ النَّوَاحِي فِي الأُمَّةِ النَّاهِضَةِ -وَهِيَ فِي فَجْرِ نَهْضَتِهَا- اخْتِلَافَ الدَّعَوَاتِ، وَاخْتِلَاطَ الصَّيْحَاتِ، وَتَعَدُّدَ المَنَاهِجِ، وَتَبَايُنَ الخُطَطِ وَالطَّرَائِقِ، وَكَثْرَةَ المُتَصَدِّينَ لِلتَّزَعُّمِ وَالقِيَادَةِ»(240).

يَنْتَقِلُ الإِمَامُ البنَّا هُنَا مِنَ الحَمَاسَةِ لِلْعَمَلِ إِلَىٰ البَصِيرَةِ فِي اخْتِيَارِ العَمَلِ. فَلَيْسَتْ كُلُّ دَعَوَاتِ الإِصْلَاحِ سَوَاءً، وَلَيْسَتْ كَثْرَةُ المُبَادَرَاتِ دَلِيلًا دَائِمًا عَلَىٰ القُوَّةِ؛ فَقَدْ تَتَحَوَّلُ كَثْرَتُهَا إِلَىٰ تَفْرِيقٍ لِلْجُهُودِ وَتَوْزِيعٍ لِلْقُوَىٰ.

«وَمِنْ هُنَا كَانَتْ دِرَاسَةُ هَذِهِ الدَّعَوَاتِ وَالمُوَازَنَةُ بَيْنَهَا أَمْرًا أَسَاسِيًّا لَا بُدَّ مِنْهُ لِمَنْ يُرِيدُونَ الإِصْلَاحَ»(241).

وَهَذَا المَنْهَجُ فِي النَّظَرِ وَالاخْتِيَارِ يَلْتَقِي مَعَ التَّوْجِيهِ القُرْآنِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: 17-18]. فَالاسْتِمَاعُ

(240) السابق.
(241) السابق.

يَسْبِقُ الاتِّبَاعَ، وَالنَّظَرُ يَسْبِقُ الاخْتِيَارَ؛ وَمِنْ ثَمَّ فَلَيْسَ المَطْلُوبُ مِنَ الشَّابِّ أَنْ يَنْدَفِعَ وَرَاءَ كُلِّ دَعْوَةٍ تُثِيرُ حَمَاسَتَهُ، وَإِنَّمَا أَنْ يَفْهَمَ وَيُوَازِنَ، ثُمَّ يَخْتَارَ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ[242].

وَهَذَا المَعْنَىٰ لَيْسَ اسْتِنْبَاطًا مِنْ هَذِهِ الرِّسَالَةِ وَحْدَهَا، بَلْ صَرَّحَ بِهِ الإِمَامُ البَنَّا فِي رِسَالَةِ «**هَلْ نَحْنُ قَوْمٌ عَمَلِيُّونَ؟**»، حِينَ قَالَ: «**وَلَقَدْ أَعْجَبَنِي مِنْ صَدِيقٍ دَعَوْتُهُ إِلَىٰ جَمَاعَتِنَا أَنَّهُ كَانَ يُرَاجِعُنِي فِي كُلِّ كَلِمَةٍ، وَيَقِفُ أَمَامَ كُلِّ عِبَارَةٍ، وَيُنَاقِشُ كُلَّ وَسِيلَةٍ، حَتَّىٰ إِذَا اقْتَنَعَتْ نَفْسُهُ قَالَ كَلِمَتَهُ، فَمَا زَالَتْ مَرْعِيَّةَ الجَانِبِ، مُحَقِّقَةَ المَعْنَىٰ، وَاضِحَةَ الأَثَرِ**»[243].

وَقَدْ ظَهَرَ أَثَرُ هَذَا المَعْنَىٰ فِي بَعْضِ رِجَالِ الدَّعْوَةِ الَّذِينَ تَرَبَّوْا عَلَىٰ يَدِ الإِمَامِ البَنَّا؛ فَقَدْ رُوِيَ عَنِ الأُسْتَاذِ مُحَمَّدٍ حَامِدٍ أَبِي النَّصْرِ أَنَّهُ حِينَ عُرِضَ عَلَيْهِ فِي المِحْنَةِ مَا يُخَفِّفُ عَنْهُ وَيُفْضِي إِلَىٰ خُرُوجِهِ، فِي سِيَاقِ مَا عُرِفَ بِـ«مِحْنَةِ التَّأْيِيدِ»، أَبَىٰ أَنْ يَتَرَاجَعَ عَمَّا الْتَزَمَهُ، وَقَالَ: «**لَقَدْ بَايَعْتُ الإِمَامَ البَنَّا وَأَنَا رَجُلٌ مَوْفُورُ الرُّجُولَةِ**». وَكَانَ مَعْنَىٰ كَلِمَتِهِ أَنَّهُ بَايَعَ عَنْ اخْتِيَارٍ وَإِرَادَةٍ، فَلَا يَرْجِعُ عَمَّا اخْتَارَهُ لِمُجَرَّدِ مِحْنَةٍ أَوْ أَذًى. وَهُنَا نَرَىٰ الصِّلَةَ بَيْنَ الاقْتِنَاعِ وَالثَّبَاتِ؛ فَكُلَّمَا كَانَ الاخْتِيَارُ وَاعِيًا، كَانَ الالْتِزَامُ أَقْدَرَ عَلَىٰ الصُّمُودِ عِنْدَ الابْتِلَاءِ.

فَالإِمَامُ البَنَّا لَا يَطْلُبُ انْتِمَاءً يَسْبِقُ الاقْتِنَاعَ، وَلَا يُقَدِّمُ نَمُوذَجًا لِشَابٍّ تَابِعٍ يَتَحَمَّسُ ثُمَّ يَسْأَلُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ شَابًّا وَاعِيًا يَدْرُسُ الدَّعَوَاتِ وَالمَنَاهِجَ، وَيُمَيِّزُ بَيْنَ الغَايَاتِ وَالوَسَائِلِ، وَيُرَاجِعُ وَيُنَاقِشُ، ثُمَّ يَتَّخِذُ مَوْقِفَهُ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ؛ فَإِذَا اقْتَنَعَ كَانَتْ كَلِمَتُهُ أَقْوَىٰ وَأَثْبَتَ، وَكَانَ التِزَامُهُ أَرْسَخَ وَأَبْقَىٰ.

## 2- اسْتِعْلَاءُ الإِيمَانِ وَالوَعْيُ بِالرِّسَالَةِ

ثُمَّ يَبْدَأُ الإِمَامُ البَنَّا مِنْ مَصْدَرِ العِزَّةِ قَبْلَ أَنْ يَدْعُوَ الشَّابَّ إِلَىٰ الثِّقَةِ بِقُدْرَتِهِ عَلَىٰ حَمْلِ الرِّسَالَةِ وَأَدَاءِ وَاجِبِهِ؛ فَعِزَّةُ المُسْلِمِ - فِي هَذَا التَّصَوُّرِ - لَا تَنْبَعُ مِنْ ذَاتِهِ، وَلَا مِنْ

(242) انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، تفسير سورة الزمر، الآيتين 18-17.
(243) **مجموعة رسائل الإمام البنا**، رسالة [هل نحن قوم عمليُّون؟]، ص 64.

جِنْسِهِ أَوْ قَوْمِهِ أَوْ مَا يَمْلِكُهُ مِنْ قُوَّةٍ وَمَكَانَةٍ، وَإِنَّمَا تَنْبَعُ مِنْ انْتِسَابِهِ إِلَىٰ اللهِ، وَإِيمَانِهِ بِهِ، وَتَنَشُّئِهِ عَلَىٰ دِينِهِ. وَمِنْ هُنَا يَتَكَوَّنُ فِي نَفْسِ الشَّابِّ شُعُورٌ بِالعِزَّةِ وَالكَرَامَةِ، لَا يَهْتَزُّ بِتَغَيُّرِ الظُّرُوفِ، وَلَا يَنْهَارُ أَمَامَ تَفَوُّقِ غَيْرِهِ فِي بَعْضِ مَظَاهِرِ القُوَّةِ وَالحَيَاةِ.

وَفِي هَذَا المَعْنَىٰ يَقُولُ: «أَيُّهَا الشَّبَابُ: إِنَّ اللهَ قَدْ أَعَزَّكُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، وَالإِيمَانِ بِهِ، وَالتَّنْشِئَةِ عَلَىٰ دِينِهِ، وَكَتَبَ لَكُمْ بِذَلِكَ مَرْتَبَةَ الصَّدَارَةِ مِنَ الدُّنْيَا، وَمَنْزِلَةَ الزَّعَامَةِ مِنَ العَالَمِينَ، وَكَرَامَةَ الأُسْتَاذِ بَيْنَ تَلَامِذَتِهِ. ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ [آل عمران: 110]. ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَىٰ النَّاسِ﴾ [البقرة: 143].

فَأَوَّلُ مَا نَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ أَنْ تُؤْمِنُوا بِأَنْفُسِكُمْ، وَأَنْ تَعْلَمُوا مَنْزِلَتَكُمْ، وَأَنْ تَعْتَقِدُوا أَنَّكُمْ سَادَةُ الدُّنْيَا، وَإِنْ أَرَادَ لَكُمْ خُصُومُكُمُ الذِّلَّةَ، وَأَسَاتِذَةُ العَالَمِينَ، وَإِنْ ظَهَرَ عَلَيْكُمْ غَيْرُكُمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»[244].

وَيَسْتَشْهِدُ الإِمَامُ البَنَّا بِقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَىٰ النَّاسِ﴾؛ لِيُبَيِّنَ أَنَّ الخَيْرِيَّةَ وَالوَسَطِيَّةَ هُنَا لَيْسَتَا مَكَانَةً تُورِثُ الغُرُورَ، وَإِنَّمَا هُمَا تَكْلِيفٌ وَرِسَالَةٌ؛ فَالأُمَّةُ خَيْرُ أُمَّةٍ بِقَدْرِ مَا تَقُومُ بِهِ مِنَ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، وَالإِيمَانِ بِاللهِ، وَهِيَ أُمَّةٌ وَسَطٌ لِتَقُومَ بِوَظِيفَةِ الشَّهَادَةِ عَلَىٰ النَّاسِ.

وَيَلْفِتُ النَّظَرَ أَنَّ القُرْآنَ لَمْ يَذْكُرْ خَيْرِيَّةَ الأُمَّةِ مُطْلَقَةً عَنْ وَظِيفَتِهَا، بَلْ قَرَنَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾؛ فَالخَيْرِيَّةُ هُنَا مَسْؤُولِيَّةٌ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ تَشْرِيفًا، وَالشَّهَادَةُ عَلَىٰ النَّاسِ تَكْلِيفٌ يَقْتَضِي حَمْلَ الهُدَىٰ وَبَيَانَهُ وَتَقْدِيمَ النَّمُوذَجِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ. وَبِهَذَا يُفْهَمُ حَدِيثُ الإِمَامِ البَنَّا عَنِ «الصَّدَارَةِ» وَ«الزَّعَامَةِ»؛ فَهِيَ صَدَارَةُ رِسَالَةٍ وَمَسْؤُولِيَّةٍ، لَا صَدَارَةُ تَعَالٍ وَاسْتِعْلَاءٍ عَلَىٰ النَّاسِ[245].

---

(244) **السابق**. ص417-416.

(245) انظر: الطبري، جامع البيان، تفسير قوله تعالىٰ: ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ [آل عمران: 110].

وَعَلَىٰ هَـذَا الأَسَـاسِ يَجِـيءُ قَوْلُـهُ: «وَكَتَـبَ لَكُـمْ بِذَلِـكَ مَرْتَبَـةَ الصَّـدَارَةِ مِـنَ الدُّنْيَـا، وَمَنْزِلَـةَ الزَّعَامَـةِ مِـنَ العَالَمِيـنَ، وَكَرَامَـةَ الأُسْـتَاذِ بَيْـنَ تَلَامِذَتِـهِ». فَـلَا يُرِيـدُ بِالصَّـدَارَةِ وَالزَّعَامَـةِ تَفَوُّقًـا عَلَـىٰ النَّـاسِ لِـذَاتِ التَّفَـوُّقِ، وَإِنَّمَـا يَرْبِطُهُمَـا بِمَسْـؤُولِيَّةِ الهِدَايَـةِ وَالقِيَـادَةِ وَتَقْدِيـمِ النَّمُـوذَجِ. فَالأُسْـتَاذُ لَا يَكُـونُ أُسْـتَاذًا لِيَتَعَالَـىٰ عَلَـىٰ تَلَامِيـذِهِ، وَإِنَّمَـا لِيُعَلِّمَهُـمْ، وَيُرْشِـدَهُمْ، وَيَحْمِـلَ مَسْـؤُولِيَّةَ تَوْجِيهِهِـمْ

وَمِـنْ هُنَـا نَفْهَـمُ قَوْلَـهُ بَعْـدَ ذَلِـكَ: «**فَـأَوَّلُ مَـا نَدْعُوكُـمْ إِلَيْـهِ أَنْ تُؤْمِنُـوا بِأَنْفُسِـكُمْ، وَأَنْ تَعْلَمُـوا مَنْزِلَتَكُـمْ**». فَالإِيمَـانُ بِالنَّفْسِ لَيْسَ نُقْطَةَ البِدَايَةِ فِي ذَاتِهِ، وَإِنَّمَـا هُـوَ ثَمَـرَةُ الإِيمَـانِ بِـاللهِ وَالوَعْـيِ بِالرِّسَـالَةِ، فَالشَّـابُّ يَثِـقُ بِنَفْسِـهِ لِأَنَّـهُ يَعْـرِفُ مَـنْ هُـوَ، وَإِلَـىٰ مَـنْ يَنْتَسِـبُ، وَمَـا الرِّسَـالَةُ الَّتِـي يَحْمِلُهَـا، وَمَـا الوَاجِـبُ الَّـذِي كُلِّـفَ بِـهِ.

وَبِهَـذَا يَبْنِـي الإِمَـامُ البَنَّـا فِـي الشَّـابِّ عِـزَّةً مُرْتَبِطَـةً بِالعُبُودِيَّةِ لِلـهِ، وَثِقَـةً مُرْتَبِطَـةً بِالتَّكْلِيفِ، وَشُـعُورًا بِالمَكَانَـةِ مُرْتَبِطًـا بِالمَسْـؤُولِيَّةِ؛ فَـلَا تَتَحَـوَّلُ العِـزَّةُ إِلَـىٰ كِبْـرٍ، وَلَا الثِّقَـةُ إِلَـىٰ غُـرُورٍ، وَلَا الشُّـعُورُ بِالصَّـدَارَةِ إِلَـىٰ طَلَـبٍ لِلسِّـيَادَةِ لِذَاتِهَـا، بَـلْ تَتَحَـوَّلُ هَـذِهِ المَعَانِـي كُلُّهَـا إِلَـىٰ دَافِـعٍ لِحَمْـلِ الرِّسَـالَةِ وَالقِيَـامِ بِوَاجِبِهَـا.

وَمِـنْ ثَـمَّ فَالِانْتِسَـابُ إِلَـىٰ اللهِ يُـورِثُ العِـزَّةَ، وَالوَعْـيُ بِالرِّسَـالَةِ يُـورِثُ مَعْرِفَـةَ المَنْزِلَـةِ، وَالمَعْرِفَـةُ بِالمَنْزِلَـةِ تُـورِثُ الثِّقَـةَ بِالنَّفْـسِ وَالاسْـتِعْدَادَ لِحَمْـلِ المَسْـؤُولِيَّةِ.

ثُـمَّ يُقَـدِّمُ الإِمَـامُ البَنَّـا سِلْسِـلَةً وَاضِحَـةً لِبِنَـاءِ القُـوَّةِ: الإِيمَـانُ، ثُـمَّ الوَحْـدَةُ، ثُـمَّ العَمَـلُ، ثُـمَّ النَّصْـرُ. فَالقُـوَّةُ عِنْـدَهُ لَا تَبْـدَأُ مِـنْ كَثْـرَةِ العَـدَدِ، وَلَا مِـنْ وَفْـرَةِ الوَسَـائِلِ، وَإِنَّمَـا تَبْـدَأُ مِـنْ إِنْسَـانٍ قَـوِيٍّ مِـنْ دَاخِلِـهِ.

يَقُـولُ: «فَجَـدِّدُوا - أَيُّهَـا الشَّـبَابُ - إِيمَانَكُـمْ، وَحَـدِّدُوا غَايَاتِكُـمْ وَأَهْدَافَكُـمْ، وَأَوَّلُ القُـوَّةِ الإِيمَـانُ، وَنَتِيجَـةُ هَـذَا الإِيمَـانِ الوَحْـدَةُ، وَعَاقِبَـةُ الوَحْـدَةِ النَّصْـرُ المُـؤَزَّرُ المُبِيـنُ. فَآمِنُـوا وَتَآخَـوْا وَاعْمَلُـوا وَتَرَقَّبُـوا بَعْـدَ ذَلِـكَ النَّصْـرَ»[246].

وَهَـذَا التَّرْتِيـبُ لَيْـسَ بَعِيـدًا عَمَّـا نَـرَاهُ فِـي السِّـيرَةِ النَّبَوِيَّـةِ؛ فَقَـدْ بَـدَأَ بِنَـاءُ الجِيـلِ الأَوَّلِ

(246) السابق. ص417.

بِالإِيمَانِ وَتَرْبِيَةِ النُّفُوسِ، ثُمَّ تَكَوَّنَتِ الجَمَاعَةُ المُؤْمِنَةُ، وَتَوَثَّقَتْ رَوَابِطُ الأُخُوَّةِ بَيْنَ أَفْرَادِهَا، ثُمَّ انْطَلَقَتْ لِلْعَمَلِ وَحَمْلِ الرِّسَالَةِ. وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»(247). فَالْوَحْدَةُ الَّتِي يَتَحَدَّثُ عَنْهَا الإِمَامُ البَنَّا لَيْسَتْ تَجَمُّعًا شَكْلِيًّا، وَإِنَّمَا هِيَ ثَمَرَةُ إِيمَانٍ يَجْمَعُ القُلُوبَ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَىٰ تَعَاوُنٍ وَعَمَلٍ.

ثُمَّ يَنْتَقِلُ الإِمَامُ البَنَّا إِلَىٰ مَعْنًىٰ مَحْوَرِيٍّ فِي دَعْوَتِهِ، وَهُوَ أَنَّ فِي رِسَالَةِ الإِسْلَامِ إِنْقَاذًا لِلْبَشَرِيَّةِ مِنْ حَيْرَتِهَا وَاضْطِرَابِهَا، فَيَقُولُ: «**إِنَّ العَالَمَ كُلَّهُ حَائِرٌ يَضْطَرِبُ، وَكُلُّ مَا فِيهِ مِنَ النُّظُمِ قَدْ عَجَزَ عَنْ عِلَاجِهِ، وَلَا دَوَاءَ لَهُ إِلَّا الإِسْلَامُ، فَتَقَدَّمُوا بِاسْمِ اللهِ لِإِنْقَاذِهِ، فَالجَمِيعُ فِي انْتِظَارِ المُنْقِذِ، وَلَنْ يَكُونَ المُنْقِذُ إِلَّا رِسَالَةَ الإِسْلَامِ الَّتِي تَحْمِلُونَ مِشْعَلَهَا وَتُبَشِّرُونَ بِهَا**»(248).

وَهَذَا مَعْنًىٰ يَتَكَرَّرُ فِي رَسَائِلِ الإِمَامِ البَنَّا؛ فَهُوَ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ الإِسْلَامِ عَلَىٰ أَنَّهُ رِسَالَةٌ خَاصَّةٌ بِالمُسْلِمِينَ وَحْدَهُمْ، وَإِنَّمَا يَرَاهُ هِدَايَةً لِلْإِنْسَانِ وَمَنْهَجًا لِإِصْلَاحِ الحَيَاةِ. وَمِنْ هُنَا يَرَىٰ أَنَّ حَيْرَةَ البَشَرِيَّةِ وَاضْطِرَابَهَا يَرْجِعَانِ إِلَىٰ بَحْثِهَا عَنِ الخَلَاصِ فِي نُظُمٍ بَشَرِيَّةٍ قَاصِرَةٍ، تَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرِ الأَهْوَاءِ وَالمَصَالِحِ، وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُقِيمَ التَّوَازُنَ بَيْنَ الرُّوحِ وَالمَادَّةِ، وَالفَرْدِ وَالمُجْتَمَعِ، وَالحُرِّيَّةِ وَالمَسْؤُولِيَّةِ، وَالحَقِّ وَالوَاجِبِ.

وَلِمَاذَا يَرَىٰ الإِمَامُ البَنَّا أَنَّ الإِسْلَامَ هُوَ المُنْقِذُ؟ لِأَنَّهُ فِي تَصَوُّرِهِ لَيْسَ تَجْرِبَةً بَشَرِيَّةً مَحْدُودَةً، وَلَا نِظَامًا وَلَدَتْهُ ظُرُوفٌ تَارِيخِيَّةٌ عَابِرَةٌ، وَإِنَّمَا هُوَ رِسَالَةٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ إِلَىٰ العَالَمِينَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]. فَرِسَالَةُ الإِسْلَامِ - فِي هَذَا التَّصَوُّرِ - لَا تَقِفُ عِنْدَ حُدُودِ قَوْمٍ أَوْ وَطَنٍ، بَلْ تَحْمِلُ هِدَايَةً وَرَحْمَةً لِلْإِنْسَانِ أَيْنَمَا كَانَ، وَمِنْ ثَمَّ فَحَمْلُ رِسَالَةِ الإِسْلَامِ عِنْدَ الإِمَامِ البَنَّا لَا يَعْنِي مُجَرَّدَ الدِّفَاعِ عَنْ هُوِيَّةٍ خَاصَّةٍ، بَلْ يَعْنِي حَمْلَ رِسَالَةٍ يَرَاهَا قَادِرَةً عَلَىٰ إِخْرَاجِ الإِنْسَانِ مِنَ الحَيْرَةِ، وَإِقَامَةِ حَيَاتِهِ عَلَىٰ العَدْلِ وَالتَّوَازُنِ وَالاسْتِقْرَارِ.

(247) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه.
(248) مجموعة رسائل الإمام البنا. [**رسالة إلىٰ الشباب عامة وإلىٰ الطلبة خاصة**]. ص417.

## ثالثًا- حَقِيقَةُ الدَّعْوَةِ وَمَرْجِعِيَّتُهَا الإِسْلَامِيَّةُ

### 1- دَعْوَةُ الإِسْلَامِ فِي القَرْنِ الرَّابِعَ عَشَرَ الهِجْرِيِّ

يُحَدِّدُ الإِمَامُ البَنَّا مُنْذُ البِدَايَةِ طَبِيعَةَ الدَّعْوَةِ الَّتِي يُقَدِّمُهَا لِلشَّبَابِ، فَيَصِفُهَا بِأَنَّهَا «دَعْوَةُ الإِخْوَانِ المُسْلِمِينَ، أَوْ دَعْوَةُ الإِسْلَامِ فِي القَرْنِ الرَّابِعَ عَشَرَ الهِجْرِيِّ»[249]. وَهَذِهِ العِبَارَةُ تَكْشِفُ أَنَّ الإِخْوَانَ - فِي تَصَوُّرِهِ - لَا يُقَدِّمُونَ فِكْرَةً مُسْتَقِلَّةً عَنِ الإِسْلَامِ، وَإِنَّمَا يَسْعَوْنَ إِلَىٰ إِحْيَاءِ مَعَانِي الإِسْلَامِ وَتَحْقِيقِهَا فِي الوَاقِعِ مِنْ خِلَالِ دَعْوَةٍ وَمَنْهَجِ عَمَلٍ. فَالأَصْلُ هُوَ الإِسْلَامُ، وَالدَّعْوَةُ وَسِيلَةٌ لِإِحْيَائِهِ وَتَحْقِيقِهِ فِي الوَاقِعِ.

### 2- الفِكْرَةُ الجَدِيرَةُ بِأَنْ تُحْمَلَ

«لَقَدْ آمَنَّا إِيمَانًا لَا جِدَالَ فِيهِ وَلَا شَكَّ مَعَهُ، وَاعْتَقَدْنَا عَقِيدَةً أَثْبَتَ مِنَ الرَّوَاسِي، وَأَعْمَقَ مِنْ خَفَايَا الضَّمَائِرِ، بِأَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ إِلَّا فِكْرَةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ الَّتِي تُنْقِذُ الدُّنْيَا المُعَذَّبَةَ، وَتُرْشِدُ الإِنْسَانِيَّةَ الحَائِرَةَ، وَتَهْدِي النَّاسَ سَوَاءَ السَّبِيلِ... هَذِهِ الفِكْرَةُ هِيَ الإِسْلَامُ الحَنِيفُ»[250].

لَا يَبْدَأُ الإِمَامُ البَنَّا بِالحَدِيثِ عَنِ الجَمَاعَةِ، وَإِنَّمَا يَبْدَأُ بِالحَدِيثِ عَنِ الإِسْلَامِ. فَهُوَ لَا يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ ارْتِبَاطُ الشَّبَابِ بِاسْمٍ أَوْ تَنْظِيمٍ هُوَ الأَصْلَ، وَإِنَّمَا **يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ الفِكْرَةُ الَّتِي تَمْلَأُ قُلُوبَهُمْ، وَيُضَحُّونَ مِنْ أَجْلِهَا، هِيَ الإِسْلَامُ ذَاتُهُ. «فَفِكْرَتُنَا لِهَذَا إِسْلَامِيَّةٌ بَحْتَةٌ، عَلَىٰ الإِسْلَامِ تَرْتَكِزُ، وَمِنْهُ تَسْتَمِدُّ، وَلَهُ تُجَاهِدُ، وَفِي سَبِيلِ إِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ تَعْمَلُ»**[251].

وَهُنَا يَجِبُ أَنْ نَنْتَبِهَ إِلَىٰ أَنَّ الإِمَامَ البَنَّا لَا يُقَدِّمُ دَعْوَةً تُنَافِسُ الإِسْلَامَ، وَلَا مَنْهَجًا يَقِفُ بِجِوَارِهِ، وَإِنَّمَا يَرَىٰ أَنَّ وَظِيفَةَ الدَّعْوَةِ أَنْ تَرُدَّ المُسْلِمِينَ إِلَىٰ الإِسْلَامِ فَهْمًا وَعَمَلًا وَحَرَكَةً. وَمِنْ هُنَا كَانَتِ العِبْرَةُ عِنْدَهُ بِالمَضْمُونِ لَا بِالاسْمِ، وَبِالإِسْلَامِ لَا بِالجَمَاعَةِ لِذَاتِهَا.

(249) السابق. ص415.
(250) السابق.
(251) السابق.

وَهَـذَا يُحَـدِّدُ مُنْـذُ البِدَايَـةِ مَرْكَـزَ الـوَلَاءِ فِي المَشْـرُوعِ التَّرْبَـوِيِّ؛ فَالإِسْـلَامُ هُـوَ الأَصْـلُ، وَالدَّعْـوَةُ إِنَّمَـا هِـيَ طَرِيـقٌ لِخِدْمَتِـهِ وَالعَمَـلِ لَـهُ.

## 3- الفَهْمُ الصَّحِيحُ وَالعَمَلُ بِالفِكْرَةِ

«فَأَوَّلُ وَاجِبَاتِنَا نَحْـنُ الإِخْـوَانَ أَنْ نُبَيِّـنَ لِلنَّـاسِ حُدُودَ هَـذَا الإِسْـلَامِ وَاضِحَةً كَامِلَـةً بَيِّنَةً، لَا زِيَـادَةَ فِيهَـا وَلَا نَقْـصَ بِهَـا وَلَا لَبْـسَ مَعَهَـا، وَذَلِكَ هُـوَ الجُزْءُ النَّظَـرِيُّ مِـنْ فِكْرَتِنَا»[252].

حَمْـلُ الإِسْـلَامِ لَا يَبْـدَأُ بِالحَرَكَـةِ قَبْـلَ أَنْ يَبْـدَأَ بِالفَهْـمِ الصَّحِيـحِ؛ لِأَنَّ مِـنْ مَصَـادِرِ الخَلَـلِ فِي العَمَـلِ أَنْ يَتَحَـرَّكَ الإِنْسَـانُ قَبْـلَ أَنْ تَتَّضِـحَ لَـهُ الفِكْـرَةُ الَّتِي يَتَحَـرَّكُ مِـنْ أَجْلِهَـا. فَـإِذَا اضْطَـرَبَ الفَهْـمُ اضْطَـرَبَ العَمَـلُ، وَإِذَا اخْتُـزِلَ الإِسْـلَامُ فِـي جَانِـبٍ وَاحِـدٍ اخْتُـزِلَ المَشْـرُوعُ كُلُّـهُ مَعَـهُ.

وَهَـذَا يَلْتَقِـي مَـعَ قَوْلِـهِ تَعَالَـىٰ: ﴿قُـلْ هَـذِهِ سَـبِيلِي أَدْعُـو إِلَـىٰ اللهِ عَلَـىٰ بَصِيـرَةٍ أَنَـا وَمَـنِ اتَّبَعَنِـي﴾؛ فَالدَّعْـوَةُ فِـي القُـرْآنِ لَا تَقُـومُ عَلَـىٰ الحَمَاسَـةِ المُجَـرَّدَةِ، وَإِنَّمَـا عَلَـىٰ البَصِيـرَةِ وَالعِلْـمِ وَوُضُـوحِ الطَّرِيـقِ. وَمِـنْ هُنَـا نَفْهَـمُ لِمَـاذَا جَعَـلَ الإِمَـامُ البَنَّـا «الفَهْـمَ» أَوَّلَ أَرْكَانِ البَيْعَـةِ؛ فَقَبْـلَ أَنْ يَتَحَـرَّكَ الإِنْسَـانُ لِلْفِكْـرَةِ لَا بُـدَّ أَنْ يَعْـرِفَ مَـا الَّـذِي يَحْمِلُـهُ، وَلِمَـاذَا يَحْمِلُـهُ، وَإِلَـىٰ أَيْـنَ يَتَحَـرَّكُ بِـهِ.

ثُـمَّ يُؤَكِّـدُ أَصْـلًا مُهِمًّـا فِـي الحِفَـاظِ عَلَـىٰ مَنْهَـجِ الدَّعْـوَةِ وَمُنْطَلَقَاتِهَـا، وَهُـوَ أَنَّ المَرْجِعِيَّـةَ لَا تَكُـونُ لِلأَهْـوَاءِ، وَلَا لِلظُّـرُوفِ المُتَقَلِّبَـةِ، وَلَا لِلأَشْـخَاصِ، وَإِنَّمَـا لِكِتَـابِ اللهِ، وَالسُّـنَّةِ الصَّحِيحَـةِ، وَالسِّـيرَةِ المُطَهَّـرَةِ لِسَـلَفِ هَـذِهِ الأُمَّـةِ. فَيَقُـولُ: «وَعِمَادُنَـا فِـي ذَلِـكَ كُلِّـهِ كِتَـابُ اللهِ الَّـذِي لَا يَأْتِيـهِ البَاطِـلُ مِـنْ بَيْـنِ يَدَيْـهِ وَلَا مِـنْ خَلْفِـهِ، وَالسُّـنَّةُ الصَّحِيحَـةُ الثَّابِتَـةُ عَـنْ رَسُـولِ اللهِ ﷺ، وَالسِّـيرَةُ المُطَهَّـرَةُ لِسَـلَفِ هَـذِهِ الأُمَّـةِ»[253].

وَهَـذِهِ المَرْجِعِيَّـةُ هِـيَ الَّتِي تَحْمِـي الدَّعْـوَةَ مِـنْ أَنْ تَـدُورَ مَـعَ الأَشْـخَاصِ أَوِ الظُّـرُوفِ؛ فَالأَشْـخَاصُ يَذْهَبُـونَ، وَالأَحْـوَالُ تَتَغَيَّـرُ، أَمَّـا المَرْجِـعُ فَبَـاقٍ. وَقَـدْ أَكَّـدَ الإِمَـامُ البَنَّـا هَـذَا

(252) السابق. ص416.
(253) السابق.

المَعْنَىٰ فِي الأَصْلِ الثَّانِي مِنَ الأُصُولِ العِشْرِينَ، فَقَالَ: «**وَالقُرْآنُ الكَرِيمُ وَالسُّنَّةُ المُطَهَّرَةُ مَرْجِعُ كُلِّ مُسْلِمٍ فِي تَعَرُّفِ أَحْكَامِ الإِسْلَامِ...**»[254]؛ فَالمَرْجِعِيَّةُ عِنْدَهُ لِلوَحْيِ، لَا لِلأَشْخَاصِ وَلَا لِلظُّرُوفِ وَالأَهْوَاءِ.

وَهَكَذَا يَبْدَأُ الشَّابُّ بِالإِيمَانِ بِالفِكْرَةِ، وَيَفْهَمُهَا مِنْ مَصَادِرِهَا الصَّحِيحَةِ، ثُمَّ يَعْمَلُ لِتَحْقِيقِهَا، وَتَظَلُّ الغَايَةُ الَّتِي تَضْبِطُ عَمَلَهُ هِيَ إِرْضَاءَ اللهِ، وَأَدَاءَ الوَاجِبِ، وَهِدَايَةَ النَّاسِ.

وَتُعَدُّ قَضِيَّةُ الإِخْلَاصِ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ نَجَاحِ الدَّعَوَاتِ، وَقَدْ جَعَلَهُ الإِمَامُ البَنَّا الرُّكْنَ الثَّانِيَ بَعْدَ الفَهْمِ؛ لِمَا لَهُ مِنْ أَهَمِّيَّةٍ فِي التَّرْبِيَةِ وَالعَمَلِ. وَفِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ يَقُولُ: «**لَا نَبْتَغِي مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ إِلَّا إِرْضَاءَ اللهِ، وَأَدَاءَ الوَاجِبِ، وَهِدَايَةَ البَشَرِ، وَإِرْشَادَ النَّاسِ**»[255]. وَهَذَا التَّرْتِيبُ لَهُ دَلَالَتُهُ؛ فَالبِدَايَةُ إِرْضَاءُ اللهِ، ثُمَّ أَدَاءُ الوَاجِبِ، ثُمَّ يَتَّسِعُ أَثَرُ العَمَلِ إِلَىٰ هِدَايَةِ البَشَرِ وَإِرْشَادِ النَّاسِ. فَالدَّعْوَةُ عِنْدَ الإِمَامِ البَنَّا لَا تَنْطَلِقُ مِنْ طَلَبِ المَكَانَةِ أَوِ النُّفُوذِ، وَلَا مِنْ تَحْقِيقِ مَصْلَحَةٍ لِلجَمَاعَةِ، وَإِنَّمَا تَنْطَلِقُ مِنْ إِرْضَاءِ اللهِ وَاسْتِشْعَارِ الوَاجِبِ، ثُمَّ تَتَوَجَّهُ إِلَىٰ نَفْعِ النَّاسِ وَهِدَايَتِهِمْ.

وَهُنَا يَظْهَرُ أَنَّ الإِمَامَ البَنَّا لَا يَفْصِلُ بَيْنَ صِحَّةِ الفَهْمِ وَصِدْقِ الإِخْلَاصِ وَحَرَكَةِ العَمَلِ؛ فَالفِكْرَةُ الَّتِي تَبْقَىٰ فِي حُدُودِ المَعْرِفَةِ الذِّهْنِيَّةِ لَا تُحَقِّقُ وَظِيفَتَهَا، وَالإِخْلَاصُ الَّذِي لَا يَتَحَوَّلُ إِلَىٰ بَذْلٍ وَعَمَلٍ يَبْقَىٰ نَاقِصَ الأَثَرِ. وَمِنْ هُنَا كَانَتِ الدَّعْوَةُ عِنْدَهُ فَهْمًا يُبَصِّرُ، وَإِخْلَاصًا يُصَحِّحُ القَصْدَ، وَعَمَلًا يُحَوِّلُ الفِكْرَةَ إِلَىٰ وَاقِعٍ.

وَهُنَا يَظْهَرُ أَنَّ الإِمَامَ البَنَّا لَا يَفْصِلُ بَيْنَ صِحَّةِ الفَهْمِ وَصِدْقِ الإِخْلَاصِ وَحَرَكَةِ العَمَلِ؛ فَالفِكْرَةُ الَّتِي تَبْقَىٰ فِي حُدُودِ المَعْرِفَةِ الذِّهْنِيَّةِ لَا تُحَقِّقُ وَظِيفَتَهَا، وَالإِخْلَاصُ الَّذِي لَا يَتَحَوَّلُ إِلَىٰ بَذْلٍ وَعَمَلٍ يَبْقَىٰ نَاقِصَ الأَثَرِ. وَمِنْ هُنَا كَانَتِ الدَّعْوَةُ عِنْدَهُ فَهْمًا يُبَصِّرُ، وَإِخْلَاصًا يُصَحِّحُ القَصْدَ، وَعَمَلًا يُحَوِّلُ الفِكْرَةَ إِلَىٰ وَاقِعٍ.

يَقُولُ: «وَأَنْ نُطَالِبَهُمْ بِتَحْقِيقِهَا، وَنَحْمِلَهُمْ عَلَىٰ إِنْفَاذِهَا، وَنَأْخُذَهُمْ بِالعَمَلِ بِهَا،

(254) **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة التعاليم]، الأصل الثاني من الأصول العشرين، ص 213.
(255) **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة إلىٰ الشباب عامة وإلىٰ الطلبة خاصة]. ص417.

وَذَلِكَ هُوَ الجُزْءُ العَمَلِيُّ فِي هَذِهِ الفِكْرَةِ»[256].

وَبِهَذَا يَنْتَقِلُ الحَدِيثُ مِنْ تَحْدِيدِ الفِكْرَةِ وَمَرْجِعِيَّتِهَا وَغَايَتِهَا إِلَىٰ بَيَانِ كَيْفَ تَتَحَوَّلُ إِلَىٰ عَمَلٍ؛ وَهُوَ مَا يَنْقُلُنَا إِلَىٰ مَرَاتِبِ العَمَلِ وَتَدَرُّجِهِ فِي مَشْرُوعِ النَّهْضَةِ.

## رابعًا- مَرَاتِبُ العَمَلِ وَتَدَرُّجُ مَشْرُوعِ النَّهْضَةِ

### 1- تَكَامُلُ دَوَائِرِ الإِصْلَاحِ

«إِنَّ مِنْهَاجَ الإِخْوَانِ المُسْلِمِينَ مَحْدُودُ المَرَاحِلِ، وَاضِحُ الخُطُوَاتِ، فَنَحْنُ نَعْلَمُ تَمَامًا مَاذَا نُرِيدُ، وَنَعْرِفُ الوَسِيلَةَ إِلَىٰ تَحْقِيقِ هَذِهِ الإِرَادَةِ»[257].

هَذَا مِنَ النُّصُوصِ المِفْتَاحِيَّةِ فِي فَهْمِ مَنْهَجِ الإِمَامِ البَنَّا فِي التَّغْيِيرِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَقِفُ عِنْدَ تَحْدِيدِ الغَايَةِ، بَلْ يَرْسُمُ الطَّرِيقَ الَّذِي يُفْضِي إِلَيْهَا، وَيَجْعَلُ لَهُ مَرَاحِلَ مُتَدَرِّجَةً، يَبْنِي بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ، وَتَتَّسِعُ فِيهَا دَائِرَةُ الإِصْلَاحِ مِنَ الإِنْسَانِ إِلَىٰ البَيْتِ، وَمِنَ البَيْتِ إِلَىٰ المُجْتَمَعِ، ثُمَّ إِلَىٰ الدَّوْلَةِ وَالأُمَّةِ وَالمَجَالِ الإِنْسَانِيِّ الأَوْسَعِ.

وَهَذَا التَّدَرُّجُ لَا يَعْنِي أَنَّ كُلَّ مَرْتَبَةٍ تُغْلَقُ تَمَامًا قَبْلَ بَدْءِ الَّتِي تَلِيهَا؛ فَمَرَاتِبُ العَمَلِ مُتَدَاخِلَةٌ، وَيُسْنِدُ بَعْضُهَا بَعْضًا. وَهُوَ مَا نَرَاهُ أَيْضًا فِي «رِسَالَةِ التَّعَالِيمِ»، حَيْثُ جَمَعَ الإِمَامُ البَنَّا بَيْنَ إِصْلَاحِ النَّفْسِ، وَتَكْوِينِ البَيْتِ المُسْلِمِ، وَإِرْشَادِ المُجْتَمَعِ؛ فَالتَّرْبِيَةُ عِنْدَهُ لَا تَعْنِي الانْعِزَالَ عَنِ المُجْتَمَعِ حَتَّىٰ يَكْتَمِلَ التَّكْوِينُ، بَلْ تَكْوِينٌ وَحَرَكَةٌ يَتَقَدَّمُ أَحَدُهُمَا بِالآخَرِ.

وَيَبْدَأُ هَذَا المَنْهَجُ **بِالرَّجُلِ المُسْلِمِ**؛ لِأَنَّ الإِنْسَانَ هُوَ اللَّبِنَةُ الأُولَىٰ فِي بِنَاءِ المُجْتَمَعِ. وَالمُرَادُ لَيْسَ إِصْلَاحَ جَانِبٍ وَاحِدٍ مِنْ شَخْصِيَّتِهِ، وَإِنَّمَا تَكْوِينُهُ فِي فِكْرِهِ وَعَقِيدَتِهِ، وَخُلُقِهِ وَعَاطِفَتِهِ، وَعَمَلِهِ وَتَصَرُّفِهِ. فَالبِنَاءُ العَامُّ لَا يَبْدَأُ -فِي هَذَا التَّصَوُّرِ- مِنَ المُؤَسَّسَةِ أَوِ السُّلْطَةِ، وَإِنَّمَا مِنَ الإِنْسَانِ الَّذِي سَيَحْمِلُ المَشْرُوعَ وَيُقِيمُ مُؤَسَّسَاتِهِ.

(256) السابق.
(257) السابق.

ثُـمَّ تَنْتَقِـلُ دَائِـرَةُ التَّكْوِيـنِ إِلَـىٰ **البَيْـتِ المُسْـلِمِ**؛ لِأَنَّ الفَـرْدَ لَا يَعِيـشُ مُنْفَصِـلًا عَـنْ بِيئَتِـهِ الأُسَـرِيَّةِ، وَلِأَنَّ القِيَـمَ الَّتِي تتكَـوَّنُ فِي الفَـرْدِ لَا تَسْـتَقِرُّ فِي المُجْتَمَـعِ إِلَّا إِذَا تَحَوَّلَـتْ إِلَـىٰ ثَقَافَـةٍ وَسُـلُوكٍ دَاخِـلَ الأُسْـرَةِ. وَمِـنْ هُنَـا جَعَلَ الإِمَـامُ العِنَايَـةَ بِالمَـرْأَةِ وَالطُّفُولَـةِ جُـزْءًا مِـنْ هَـذَا التَّكْوِيـنِ.

ثُـمَّ تَتَّسِـعُ دَائِـرَةُ المَشْـرُوعِ إِلَـىٰ **الشَّـعْبِ المُسْـلِمِ**؛ فَـلَا يَبْقَـىٰ الإِصْـلَاحُ مَحْصُـورًا فِـي أَفْـرَادٍ وَبُيُـوتٍ مُتَفَرِّقَـةٍ، وَإِنَّمَـا يَتَحَـوَّلُ إِلَـىٰ حَالَـةٍ عَامَّـةٍ فِـي المُجْتَمَـعِ، تَصِـلُ فِيهَـا الفِكْـرَةُ إِلَـىٰ النَّـاسِ، وَتَنْتَشِـرُ قِيَمُهَـا، وَتَتَّسِـعُ دَائِـرَةُ حَامِلِيهَـا.

وَبَعْـدَ بِنَـاءِ الإِنْسَـانِ وَالأُسْـرَةِ وَالمُجْتَمَـعِ يَنْتَقِـلُ المَنْهَـجُ إِلَـىٰ دَائِـرَةِ **الحُكْـمِ وَالدَّوْلَـةِ**؛ وَهُنَـا تَظْهَـرُ دَلَالَـةُ التَّرْتِيـبِ: فَالحُكُومَـةُ لَيْسَـتْ أَوَّلَ مَرْتَبَـةٍ فِـي مَشْـرُوعِ الإِصْـلَاحِ، وَلَا هِـيَ بَدِيـلٌ عَـنْ بِنَـاءِ الإِنْسَـانِ وَالمُجْتَمَـعِ، وَإِنَّمَـا تَأْتِـي فِـي سِـيَاقِ مَشْـرُوعٍ سَـبَقَهَا فِيـهِ التَّكْوِيـنُ الفَـرْدِيُّ وَالأُسَـرِيُّ وَالمُجْتَمَعِـيُّ.

ثُـمَّ لَا يَقِـفُ المَشْـرُوعُ عِنْـدَ حُـدُودِ الدَّوْلَـةِ القُطْرِيَّـةِ، بَـلْ يَتَّسِـعُ إِلَـىٰ **الوَطَـنِ الإِسْـلَامِيِّ** وَإِعَـادَةِ وَحْدَتِـهِ، ثُـمَّ إِلَـىٰ حَمْـلِ رِسَـالَةِ الإِسْـلَامِ إِلَـىٰ العَالَـمِ. وَهُنَـا نَكُـونُ أَمَـامَ مَشْـرُوعٍ تَتَّسِـعُ دَوَائِـرُهُ عَلَـىٰ نَحْـوٍ مُتَـدَرِّجٍ: **فَـرْدٌ، فَأُسْـرَةٌ، فَمُجْتَمَـعٌ، فَدَوْلَـةٌ، فَأُمَّـةٌ، فَرِسَـالَةٌ إِنْسَـانِيَّةٌ عَالَمِيَّـةٌ.**

وَهَـذَا التَّرْتِيـبُ يَلْتَقِـي مَـعَ مَـا عَبَّـرَ عَنْـهُ الإِمَـامُ فِـي **رِسَـالَةِ التَّعَالِيـمِ بِـ مَرَاتِـبِ العَمَـلِ**؛ إِذْ يَبْـدَأُ العَمَـلُ بِإِصْـلَاحِ النَّفْـسِ، ثُـمَّ تَكْوِيـنِ البَيْـتِ المُسْـلِمِ، ثُـمَّ إِرْشَـادِ المُجْتَمَـعِ، وَيَتَّسِـعُ بَعْـدَ ذَلِـكَ إِلَـىٰ إِصْـلَاحِ الحُكْـمِ وَتَحْرِيـرِ الوَطَـنِ وَإِعَـادَةِ كِيَـانِ الأُمَّـةِ، حَتَّـىٰ يَبْلُـغَ حَمْـلَ الرِّسَـالَةِ إِلَـىٰ الإِنْسَـانِيَّةِ.

وَاللَّافِـتُ أَنَّ رِسَـالَةَ «**إِلَـىٰ الشَّـبَابِ**» تَعْـرِضُ هَـذِهِ المَرَاتِبَ فِي صُـورَةِ أَهْدَافٍ لِلمَشْـرُوعِ، فِـي حِيـنِ أَنَّ «**التَّعَالِيـمَ**» تَعْرِضُهَـا فِـي صُـورَةِ مَرَاتِـبَ لِلعَمَـلِ المَطْلُـوبِ؛ وَالمَعْنَـىٰ فِـي الحَالَتَيْـنِ مُتَقَـارِبٌ: **أَنَّ النَّهْضَـةَ لَا تَتَحَقَّـقُ بِخُطْـوَةٍ وَاحِـدَةٍ، وَلَا بِـإِصْلَاحِ جُـزْءٍ وَتَـرْكِ بَقِيَّـةِ**

**البِنَاءِ، وَإِنَّمَا بِمَشْرُوعٍ مُتَدَرِّجٍ مُتكَامِلٍ، تَبْدَأُ دَائِرَتُهُ مِنَ الإِنْسَانِ وَتَتَّسِعُ حَتَّىٰ تَبْلُغَ الأُمَّةَ وَالعَالَمَ.**

وَمِنْ هُنَا فَالتَّدَرُّجُ عِنْدَ الإِمَامِ البَنَّا لَيْسَ مُجَرَّدَ تَرْتِيبٍ زَمَنِيٍّ لِلْخُطُوَاتِ، بَلْ هُوَ **مَنْطِقُ بِنَاءٍ**؛ فَكُلُّ مَرْتَبَةٍ تُمَهِّدُ لِمَا بَعْدَهَا، وَكُلُّ دَائِرَةٍ تَسْتَنِدُ إِلَىٰ مَا تَكَوَّنَ فِي الدَّائِرَةِ الَّتِي قَبْلَهَا. وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ القَفْزَ عَلَىٰ مَرْحَلَةٍ لَا يَعْنِي تَسْرِيعَ النَّهْضَةِ، بَلْ قَدْ يَعْنِي إِضْعَافَ الأَسَاسِ الَّذِي تَقُومُ عَلَيْهِ المَرْحَلَةُ التَّالِيَةُ.

فَاتِّسَاعُ الغَايَةِ لَا يُلْغِي التَّدَرُّجَ فِي البِنَاءِ، وَبُعْدُ الهَدَفِ لَا يُبَرِّرُ القَفْزَ عَلَىٰ مَرَاتِبِ العَمَلِ.

وَتَكْرَارُ كَلِمَةِ «سَنُرَبِّي» يَكْشِفُ أَنَّ الأَدَاةَ الرَّئِيسَةَ لِلانْتِقَالِ بَيْنَ المَرَاحِلِ هِيَ التَّرْبِيَةُ. فَلَيْسَتِ القَضِيَّةُ أَنْ نَبْدَأَ بِالسُّلْطَةِ ثُمَّ نَطْلُبَ التَّغْيِيرَ، وَإِنَّمَا أَنْ نَبْدَأَ بِالتَّرْبِيَةِ، وَمِنَ التَّرْبِيَةِ يَنْشَأُ التَّغْيِيرُ.

«**سَنُرَبِّي** أَنْفُسَنَا لِيَكُونَ مِنَّا الرَّجُلُ المُسْلِمُ، **وَسَنُرَبِّي** بُيُوتَنَا لِيَكُونَ مِنْهَا البَيْتُ المُسْلِمُ، **وَسَنُرَبِّي** شَعْبَنَا لِيَكُونَ فِي مِصْرَ الشَّعْبُ المُسْلِمُ... »[258].

## 2- بَيْنَ عِظَمِ الغَايَةِ وَوَاقِعِيَّةِ الطَّرِيقِ

يُعَالِجُ الإِمَامُ هُنَا وَاحِدَةً مِنْ أَخْطَرِ مُشْكِلَاتِ العَمَلِ لِلنَّهْضَةِ، وَهِيَ اسْتِعْظَامُ الغَايَةِ حَتَّىٰ تَتَحَوَّلَ فِي النَّفْسِ إِلَىٰ عَجْزٍ عَنِ الحَرَكَةِ. فَصُعُوبَةُ الطَّرِيقِ لَا تَعْنِي اسْتِحَالَتَهُ، وَبُعْدُ الغَايَةِ لَا يَعْنِي التَّخَلِّيَ عَنْهَا.

يقول الإمام البنا: «لَسْتُمْ أَضْعَفَ مِمَّنْ قَبْلَكُمْ مِمَّنْ حَقَّقَ عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ هَذَا المِنْهَاجَ، فَلَا تَهِنُوا وَلَا تَضْعُفُوا وَضَعُوا نُصْبَ أَعْيُنِكُمْ قَوْلَ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173]»[259].

(258) **مجموعة رسائل الإمام البنا**. [رسالة إلىٰ الشباب عامة وإلىٰ الطلبة خاصة]. ص419.
(259) السابق.

وَهُوَ هُنَا **يُرَبِّي الشَّابَّ عَلَىٰ نَوْعٍ مِنَ الثِّقَةِ التَّارِيخِيَّةِ**؛ فَالمَشْرُوعُ الَّذِي يَدْعُوهُ إِلَيْهِ لَيْسَ فِكْرَةً لَمْ تُجَرَّبْ، وَإِنَّمَا هُوَ امْتِدَادٌ لِطَرِيقٍ سَلَكَهُ قَبْلَهُ رِجَالٌ، وَوَاجَهُوا فِيهِ مِنَ الصُّعُوبَاتِ مَا وَاجَهُوا، ثُمَّ أَنْجَزُوا مَا كُلِّفُوا بِهِ. وَمِنْ ثَمَّ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَحَوَّلَ النَّظَرُ إِلَىٰ ضَخَامَةِ التَّحَدِّيَاتِ إِلَىٰ مَصْدَرٍ لِلْوَهَنِ، بَلْ إِلَىٰ دَافِعٍ لِلِاسْتِعْدَادِ وَبَذْلِ الوُسْعِ، وَالثِّقَةِ فِي الطَّرِيقِ وَالمَنْهَجِ.

وَهَذَا التَّوْجِيهُ مُهِمٌّ فِي تَرْبِيَةِ الشَّبَابِ؛ لِأَنَّ الشَّابَّ قَدْ يَقْتَنِعُ بِصِحَّةِ الفِكْرَةِ، وَلَكِنَّهُ يَتَرَدَّدُ أَمَامَ اتِّسَاعِ المَشْرُوعِ وَكَثْرَةِ العَقَبَاتِ. وَهُنَا لَا نُصَغِّرُ الغَايَةَ حَتَّىٰ تَبْدُوَ سَهْلَةً، وَلَا نُخَفِّفُ مِنْ وَطْأَةِ الوَاقِعِ، وَإِنَّمَا نَبْنِي فِي النَّفْسِ قُدْرَتَهَا عَلَىٰ مُوَاجَهَةِ الطَّرِيقِ كَمَا هُوَ.

ثُمَّ يَقُولُ: «وَسَنَسِيرُ بِخُطُوَاتٍ ثَابِتَةٍ إِلَىٰ تَمَامِ الشَّوْطِ، وَإِلَىٰ الهَدَفِ الَّذِي وَضَعَهُ لَنَا، لَا الَّذِي وَضَعْنَاهُ لِأَنْفُسِنَا وَسَنَصِلُ بِمَعُونَةِ اللهِ، وَيَأْبَىٰ اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ»[260].

وَهُنَا تَظْهَرُ مُوَازَنَةٌ دَقِيقَةٌ بَيْنَ ثَبَاتِ الغَايَةِ وَالتَّدَرُّجِ فِي السَّيْرِ نَحْوَهَا. فَالغَايَةُ لَا تُصَغَّرُ حَتَّىٰ تَتَّفِقَ مَعَ ضَعْفِ الوَاقِعِ، وَالطَّرِيقُ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ لَا يُخْتَصَرُ بِالقَفْزِ فَوْقَ مَرَاحِلِهِ.

وَلَفْظُ «بِخُطُوَاتٍ ثَابِتَةٍ» مُهِمٌّ؛ فَهُوَ لَا يَقُولُ: سَنَصِلُ سَرِيعًا، وَلَا يَعِدُ الشَّبَابَ بِنَصْرٍ قَرِيبٍ لِمُجَرَّدِ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ فِكْرَةٍ يَرَوْنَهَا حَقًّا، وَإِنَّمَا يَرْبِطُ الوُصُولَ بِالسَّيْرِ الثَّابِتِ. وَهَذَا يَنْقُلُ الشَّابَّ مِنْ نَفْسِيَّةِ الاسْتِعْجَالِ إِلَىٰ نَفْسِيَّةِ البِنَاءِ الطَّوِيلِ.

**وَقَوْلُهُ: «إِلَىٰ الهَدَفِ الَّذِي وَضَعَهُ لَنَا، لَا الَّذِي وَضَعْنَاهُ لِأَنْفُسِنَا»**. يَرُدُّ الغَايَةَ إِلَىٰ مَرْجِعِيَّتِهَا؛ فَهِيَ لَيْسَتْ طُمُوحًا تَنْظِيمِيًّا أَوْ مَشْرُوعًا لِمَجْدٍ جَمَاعِيٍّ، وَإِنَّمَا هِيَ – فِي تَصَوُّرِ الإِمَامِ – تَكْلِيفٌ يَنْطَلِقُ مِنْ فَهْمِ الإِسْلَامِ وَوَاجِبِ العَمَلِ لَهُ. وَهَذَا يَحْفَظُ الشَّابَّ مِنْ أَنْ يَتَحَوَّلَ طُمُوحُهُ إِلَىٰ بَحْثٍ عَنِ النَّجَاحِ لِذَاتِهِ، أَوْ عَنِ السُّلْطَةِ لِذَاتِهَا.

(260) السابق.

## 3- الثِّقَةُ فِي نَجَاحِ الفِكْرَةِ

يَقُولُ الإِمَامُ البَنَّا: «**وَسَنَصِلُ بِمَعُونَةِ اللهِ، وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ**»[261]. وَهَذِهِ العِبَارَةُ تَحْمِلُ مَعْنًى تَرْبَوِيًّا مُهِمًّا فِي خِطَابِ الشَّبَابِ؛ فَالشَّابُّ لَا يَكْفِيهِ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ الفِكْرَةَ صَحِيحَةٌ فَحَسْبُ، بَلْ يَحْتَاجُ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ يَثِقَ بِإِمْكَانِ نَجَاحِهَا وَبُلُوغِ غَايَتِهَا.

وَمِنْ هُنَا يَبْنِي الإِمَامُ البَنَّا فِي نَفْسِ الشَّابِّ طُمَأْنِينَةً إِلَى الفِكْرَةِ وَالطَّرِيقِ، وَيَقِينًا بِإِمْكَانِ الوُصُولِ بِمَعُونَةِ اللهِ. وَهَذِهِ الثِّقَةُ تُورِثُ الطُّمَأْنِينَةَ وَالثَّبَاتَ، وَتَحْمِي صَاحِبَهَا مِنَ التَّرَدُّدِ وَالتَّقَلُّبِ وَالتَّفَلُّتِ؛ فَلَا يَظَلُّ، كُلَّمَا ظَهَرَتْ دَعْوَةٌ أُخْرَى أَوْ مَنْهَجٌ جَدِيدٌ، مُعَرَّضًا لِلتَّخَلِّي عَمَّا اخْتَارَهُ عَلَى بَصِيرَةٍ.

وَلَكِنَّ هَذِهِ الثِّقَةَ لَا تَقُومُ عَلَى التَّفَاؤُلِ المُجَرَّدِ، وَلَا عَلَى وَعْدٍ بِنَجَاحٍ سَهْلٍ أَوْ قَرِيبٍ؛ فَقَدْ سَبَقَهَا الحَدِيثُ عَنِ السَّيْرِ (**بِخُطُوَاتٍ ثَابِتَةٍ**)، وَيَلِيهَا الحَدِيثُ عَنْ (**إِيمَانٍ لَا يَتَزَعْزَعُ، وَعَمَلٍ لَا يَتَوَقَّفُ، وَثِقَةٍ بِاللهِ لَا تَضْعُفُ**). فَنَجَاحُ الفِكْرَةِ لَا يَنْفَصِلُ عَنِ الإِيمَانِ بِهَا، وَالثَّبَاتِ عَلَيْهَا، وَالعَمَلِ لَهَا، وَالأَخْذِ بِأَسْبَابِ نَجَاحِهَا.

وَكُلُّ أَمْرٍ عَظِيمٍ يَحْتَاجُ إِلَى حَيَاةٍ مَوْصُولَةٍ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَوْلُ الإِمَامِ البَنَّا: «**بِمَعُونَةِ اللهِ**» يَضَعُ هَذِهِ الثِّقَةَ فِي مَوْضِعِهَا الصَّحِيحِ. فَهِيَ لَيْسَتْ ثِقَةً مُطْلَقَةً فِي القُدْرَةِ البَشَرِيَّةِ، أَوِ التَّنْظِيمِ، أَوِ الوَسَائِلِ، وَإِنَّمَا هِيَ ثِقَةٌ تَجْمَعُ بَيْنَ بَذْلِ الأَسْبَابِ وَالاعْتِمَادِ عَلَى اللهِ؛ فَهُمْ يَسِيرُونَ وَيَعْمَلُونَ وَيُضَحُّونَ، وَيَعْلَمُونَ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ أَنَّ التَّوْفِيقَ وَالنَّصْرَ وَتَمَامَ الأَمْرِ مِنْ عِنْدِ اللهِ.

وَبِهَذَا فَالثِّقَةُ فِي نَجَاحِ الفِكْرَةِ عِنْدَ الإِمَامِ البَنَّا لَيْسَتْ وَعْدًا بِنَصْرٍ سَرِيعٍ، وَإِنَّمَا هِيَ طُمَأْنِينَةٌ إِلَى صِحَّةِ الطَّرِيقِ، وَيَقِينٌ بِإِمْكَانِ الوُصُولِ بِمَعُونَةِ اللهِ.

(261) السابق.

## 4- الإيمَانُ وَالعَمَلُ وَالثِّقَةُ عُدَّةُ الثَّبَاتِ

وَالدَّعَـوَاتُ مُبْتَـلَاةٌ دَائِمًـا بِأَهْـلِ البَاطِـلِ وَالمُخَذِّلِيـنَ، قَـالَ تَعَالَـىٰ: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ**﴾ [الفرقان: 31].

وَلَيْسَتْ دَعْوَةُ الإِخْوَانِ بِدْعًا فِي ذَلِكَ؛ فَأَدَوَاتُ التَّثْبِيطِ وَالتَّشْكِيكِ كَثِيرَةٌ. وَقَدْ أَشَارَ الإِمَامُ البَنَّا إِلَىٰ بَعْضِهَا فِي رِسَالَةِ «بَيْنَ الأَمْسِ وَاليَوْمِ»، فَقَالَ: «سَيَقِفُ جَهْلُ الشَّعْبِ بِحَقِيقَةِ الإِسْلَامِ عَقَبَةً فِي طَرِيقِكُمْ، وَسَتَجِدُونَ مِنْ أَهْلِ التَّدَيُّنِ وَمِنَ العُلَمَاءِ الرَّسْمِيِّينَ مَنْ يَسْتَغْرِبُ فَهْمَكُمْ لِلْإِسْلَامِ وَيُنْكِرُ عَلَيْكُمْ جِهَادَكُمْ فِي سَبِيلِهِ، وَسَيَحْقِدُ عَلَيْكُمُ الرُّؤَسَاءُ وَالزُّعَمَاءُ وَذَوُو الجَاهِ وَالسُّلْطَانِ، وَسَتَقِفُ فِي وَجْهِكُمْ كُلُّ الحُكُومَاتِ عَلَىٰ السَّوَاءِ، وَسَتُحَاوِلُ كُلُّ حُكُومَةٍ أَنْ تَحُدَّ مِنْ نَشَاطِكُمْ وَأَنْ تَضَعَ العَرَاقِيلَ فِي طَرِيقِكُمْ... وَسَيَتَذَرَّعُ الغَاصِبُونَ بِكُلِّ طَرِيقٍ لِمُنَاهَضَتِكُمْ وَإِطْفَاءِ نُورِ دَعْوَتِكُمْ... وَسَيُثِيرُ الجَمِيعُ حَوْلَ دَعْوَتِكُمْ غُبَارَ الشُّبُهَاتِ وَظُلَمَ الاتِّهَامَاتِ، وَسَيُحَاوِلُونَ أَنْ يُلْصِقُوا بِهَا كُلَّ نَقِيصَةٍ، وَأَنْ يُظْهِرُوهَا لِلنَّاسِ فِي أَبْشَعِ صُورَةٍ»[262].

وَفِي رسالتنا هَذِهِ (إلىٰ الشباب) يَلْتَفِتُ إِلَىٰ صِنْفٍ آخَرَ مِنَ المُخَذِّلِينَ، وَهُمُ الَّذِينَ يُشَكِّكُونَ فِي إِمْكَانِ الوُصُولِ إِلَىٰ غَايَاتِ الدَّعْوَةِ، وَيَصِفُونَ مَشْرُوعَهَا بِأَنَّهُ خَيَالٌ وَوَهْمٌ، فَيَقُولُ: «**لِيَقُلِ القَاصِرُونَ الجُبَنَاءُ**: إِنَّ هَذَا خَيَالٌ عَرِيقٌ، وَوَهْمٌ اسْتَوْلَىٰ عَلَىٰ نُفُوسِ هَؤُلَاءِ النَّاسِ، وَذَلِكَ هُوَ الضَّعْفُ الَّذِي لَا نَعْرِفُهُ وَلَا يَعْرِفُهُ الإِسْلَامُ، ذَلِكَ هُوَ الوَهْنُ الَّذِي قُذِفَ فِي قُلُوبِ هَذِهِ الأُمَّةِ فَمَكَّنَ لِأَعْدَائِهَا فِيهَا، وَذَلِكَ هُوَ خَرَابُ القَلْبِ مِنَ الإِيمَانِ، وَهُوَ عِلَّةُ سُقُوطِ المُسْلِمِينَ... »[263].

وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ التَّشْكِيكِ خَطِيرٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يُنَاقِشُ خُطْوَةً أَوْ وَسِيلَةً فَحَسْبُ، بَلْ يَضْرِبُ الثِّقَةَ فِي الطَّرِيقِ نَفْسِهِ، وَإِذَا اسْتَشْرَىٰ فِي النُّفُوسِ أَوْرَثَ الأُمَّةَ وَهْنًا يُضْعِفُ إِرَادَتَهَا وَيُقْعِدُهَا عَنِ العَمَلِ.

وَهُنَا يُخْبِرُنَا رسول الله ﷺ عَنْ حَقِيقَةِ هَذَا الوَهْنِ، فَيَقُولُ:(يُوشِكُ أن تَدَاعَىٰ عليكم

(262) **مجموعة رسائل الإمام البنا**، رسالة [بين الأمس واليوم]، ص 408

(263) **مجموعة رسائل الإمام البنا**. [رسالة إلىٰ الشباب عامة وإلىٰ الطلبة خاصة]. ص 419.

الأمـمُ مـن كلِّ أُفُـقٍ ، كمـا تَدَاعَـىٰ الْأَكَلَـةُ إلـىٰ قَصْعَتِهـا ، قيـل : يـا رسـولَ اللهِ ! فمِـن قِلَّـةٍ يَوْمَئِذٍ ؟ قـال لا ، ولكنكـم غُثَـاءٌ كغُثَـاءِ السَّـيْلِ ، يُجْعَـلُ الْوَهَـنُ في قلوبِكـم ، ويُنْـزَعُ الرُّعْـبُ مـن قلـوبِ عَدُوِّكـم ؛ لِحُبِّكُـمُ الدنيـا وكَرَاهِيَتِكُـم المـوتَ)[264].

وَاللَّافِتُ أَنَّ الإِمَامَ البَنَّا يَسْتَعْمِلُ اللَّفْظَ النَّبَوِيَّ نَفْسَهُ: «الوَهْنُ»، وَيَرَىٰ أَنَّهُ إِذَا اسْتَقَرَّ فِي قُلُوبِ الأُمَّةِ مَكَّنَ لِأَعْدَائِهَا فِيهَا.

فَالوَهْـنُ هُنَـا لَيْـسَ مُجَـرَّدَ ضَعْـفٍ يَعْـرِضُ لِفَـرْدٍ، وَإِنَّمَـا دَاءٌ إِذَا سَـرَىٰ فِـي الأُمَّـةِ أَضْعَـفَ عَزِيمَتَهَـا، وَأَوْهَـنَ إِرَادَتَهَـا، وَجَعَلَهَـا أَسْـرَعَ إِلَـىٰ الخَـوْفِ وَالتَّرَاجُـعِ وَاسْـتِعْظَامِ قُـوَّةِ خُصُومِهَـا؛ فَلَيْسَـتِ القَضِيَّـةُ قِلَّـةَ العَـدَدِ وَلَا ضَخَامَـةَ قُـوَّةِ الخَصْـمِ فَحَسْـبُ، وَإِنَّمَـا مَـا يُصِيبُ دَاخِـلَ الأُمَّـةِ مِـنْ ضَعْـفِ الإِرَادَةِ وَفُتُـورِ العَزِيمَـةِ وَالخَـوْفِ مِـنَ التَّبِعَـاتِ، وَهُـوَ مَـا عَبَّـرَ عَنْـهُ الإِمَـامُ البَنَّـا بِقَوْلِـهِ: «ذَلِـكَ هُـوَ الوَهْـنُ الَّـذِي قُـذِفَ فِـي قُلُـوبِ هَـذِهِ الأُمَّـةِ فَمَكَّـنَ لِأَعْدَائِهَـا فِيهَـا».

وَمِـنْ هُنَـا يُبَيِّـنُ الإِمَـامُ البَنَّـا **العُـدَّةَ الَّتِـي يُوَاجَـهُ بِهَـا هَـذَا التَّخْذِيـلُ**، فَيَقُـولُ: «وَقَـدْ أَعْدَدْنَـا لِذَلِـكَ إِيمَانًـا لَا يَتَزَعْـزَعُ، وَعَمَـلًا لَا يَتَوَقَّـفُ، وَثِقَـةً بِـاللهِ لَا تَضْعُـفُ»[265].

وَهُنَـا تَجْتَمِـعُ ثَلَاثَـةُ أُسُـسٍ لِلثَّبَـاتِ: إِيمَـانٌ يَحْفَـظُ الفِكْـرَةَ فِـي النَّفْـسِ، وَعَمَـلٌ يَحْفَـظُ الحَرَكَـةَ مِـنَ التَّوَقُّـفِ، وَثِقَـةٌ بِـاللهِ تَحْفَـظُ صَاحِـبَ الدَّعْـوَةِ مِـنَ اليَـأْسِ عِنْـدَ طُـولِ الطَّرِيـقِ وَتَأَخُّـرِ الثِّمَـارِ.

فَالإِيمَـانُ مِـنْ غَيْـرِ عَمَـلٍ قَـدْ يَبْقَـىٰ شُـعُورًا دَاخِلِيًّـا، وَالعَمَـلُ مِـنْ غَيْـرِ إِيمَـانٍ قَـدْ يَفْقِـدُ دَافِعَـهُ عِنْـدَ المَشَـقَّةِ وَطُـولِ الطَّرِيـقِ، أَمَّـا الثِّقَـةُ بِـاللهِ فَتَمْنَـحُ النَّفْـسَ السَّـكِينَةَ وَالقُـدْرَةَ عَلَـىٰ الاسْـتِمْرَارِ، وَلَا تَجْعَلُهَـا أَسِـيرَةَ النَّتَائِـجِ العَاجِلَـةِ.

وَالثِّقَـةُ بِـاللهِ هُنَـا لَيْسَـتِ انْتِظَـارًا سَـلْبِيًّا لِلنَّصْـرِ، وَإِنَّمَـا هِيَ قُـوَّةٌ تُعِينُ عَلَـىٰ مُوَاصَلَـةِ العَمَلِ؛

(264) أخرجـه أبـو داود في سـننه، كتـاب الملاحـم، بـاب في تداعـي الأمـم علـىٰ الإسلام، ح (4297)، مـن حديـث ثوبـان رضـي الله عنـه، وصححـه الألبـاني.
(265) السابق.

فَقَدْ جَمَعَ الإِمَامُ فِي عِبَارَةٍ وَاحِدَةٍ بَيْنَ «**عَمَلٍ لَا يَتَوَقَّفُ**» وَ«**ثِقَةٍ بِاللهِ لَا تَضْعُفُ**»، فَلَا تَكُونُ الثِّقَةُ بَدِيلًا عَنِ العَمَلِ، وَلَا يَكُونُ العَمَلُ مُسْتَغْنِيًا عَنِ الثِّقَةِ بِاللهِ.

وَبِهَذَا يَجْمَعُ الإِمَامُ البَنَّا لِصَاحِبِ الرِّسَالَةِ بَيْنَ قُوَّةِ الدَّافِعِ، وَدَوَامِ العَمَلِ، وَسَكِينَةِ القَلْبِ؛ وَهَذِهِ هِيَ العُدَّةُ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا مَنْ يَحْمِلُ غَايَةً كَبِيرَةً وَيَسْلُكُ إِلَيْهَا طَرِيقًا طَوِيلًا.

## خامسًا- مَنْ هُمُ الإِخْوَانُ المُسْلِمُونَ؟

لَا يُقَدِّمُ الإِمَامُ البَنَّا فِي هَذَا المَوْضِعِ تَعْرِيفًا نَظَرِيًّا مُجَرَّدًا لِلْإِخْوَانِ المُسْلِمِينَ، وَلَا يَكْتَفِي بِسَرْدِ جُمْلَةٍ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي تُمَيِّزُهُمْ، وَإِنَّمَا يَخْتَارُ طَرِيقًا أَكْثَرَ دَلَالَةً؛ إِذْ يُصَحِّحُ مَجْمُوعَةً مِنَ الصُّوَرِ الخَاطِئَةِ الَّتِي قَدْ تَتَكَوَّنُ عَنْهُمْ، وَيُكَرِّرُ فِي ذَلِكَ قَوْلَهُ: «**يُخْطِئُ مَنْ يَظُنُّ**». وَمِنْ خِلَالِ نَفْيِ هَذِهِ الصُّوَرِ تَتَّضِحُ حَقِيقَةُ الدَّعْوَةِ، وَطَبِيعَةُ فَهْمِهَا لِلْإِسْلَامِ، وَصِفَاتُ الإِنْسَانِ الَّذِي تُرِيدُ تَرْبِيَتَهُ.

وَهُوَ هُنَا يُجِيبُ - بِطَرِيقَةٍ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ - عَنْ سُؤَالٍ: مَنْ هُمُ الإِخْوَانُ المُسْلِمُونَ؟ وَبِهَذِهِ التَّصْحِيحَاتِ تَتَّضِحُ مَلَامِحُ الشَّخْصِيَّةِ الَّتِي تُرِيدُ الدَّعْوَةُ تَكْوِينَهَا: فَهْمٌ شَامِلٌ لِلْإِسْلَامِ، وَانْتِمَاءٌ صَادِقٌ إِلَىٰ أَوْطَانِهِمْ، وَفَاعِلِيَّةٌ فِي مَيَادِينِ الحَيَاةِ، وَتَسْخِيرٌ لِلْقُدُرَاتِ فِي خِدْمَةِ الأُمَّةِ، وَعَدْلٌ فِي التَّعَامُلِ مَعَ المُخَالِفِ، وَاسْتِقْلَالٌ فِي حَمْلِ دَعْوَتِهِمْ.

### 1- الإِخْوَانُ لَيسُوا جَمَاعَةَ دَرَاوِيشَ

يَقُولُ الإِمَامُ البَنَّا: «يُخْطِئُ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ الإِخْوَانَ المُسْلِمِينَ دَرَاوِيشُ قَدْ حَصَرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي دَائِرَةٍ ضَيِّقَةٍ مِنَ العِبَادَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ، كُلُّ هَمِّهِمْ صَلَاةٌ وَصَوْمٌ وَذِكْرٌ وَتَسْبِيحٌ»(266).

يَبْدَأُ الإِمَامُ البَنَّا بِنَفْيِ صُورَةِ التَّدَيُّنِ المُنْعَزِلِ عَنِ الحَيَاةِ؛ فَهُوَ لَا يَنْتَقِصُ مِنْ شَأْنِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالذِّكْرِ، وَإِنَّمَا يَرْفُضُ اخْتِزَالَ الإِسْلَامِ فِيهَا، وَكَأَنَّهَا كُلُّ مَا يَطْلُبُهُ الدِّينُ

(266) السابق. ص420.

مِنَ الإِنْسَانِ. وَلِهَذَا يَعْرِضُ فَهْمًا أَوْسَعَ لِلْإِسْلَامِ فَيَقُولُ: «وَلَكِنَّهُمْ آمَنُوا بِهِ عَقِيدَةً وَعِبَادَةً، وَوَطَنًا وَجِنْسِيَّةً، وَخُلُقًا وَمَادَّةً، وَثَقَافَةً وَقَانُونًا، وَسَمَاحَةً وَقُوَّةً، وَاعْتَقَدُوهُ نِظَامًا كَامِلًا يَفْرِضُ نَفْسَهُ عَلَىٰ كُلِّ مَظَاهِرِ الحَيَاةِ، وَيُنَظِّمُ أَمْرَ الدُّنْيَا كَمَا يُنَظِّمُ الآخِرَةَ»(267).

وَهَذِهِ العِبَارَةُ لَا تُحَدِّدُ مَيَادِينَ الإِسْلَامِ فَحَسْبُ، وَإِنَّمَا تَكْشِفُ أَيْضًا نَوْعَ الشَّخْصِيَّةِ الَّتِي تَسْعَىٰ التَّرْبِيَةُ إِلَىٰ تَكْوِينِهَا؛ فَالْمُسْلِمُ لَا يُرَبَّىٰ عَلَىٰ عِبَادَةٍ مُنْفَصِلَةٍ عَنِ الخُلُقِ، وَلَا عَلَىٰ خُلُقٍ مُنْفَصِلٍ عَنِ المُجْتَمَعِ وَالوَطَنِ، وَلَا عَلَىٰ الرُّوحِ بِمَعْزِلٍ عَنِ القُوَّةِ وَالعَمَلِ وَالقُدْرَةِ عَلَىٰ الإِنْجَازِ.

وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ شُمُولَ الإِسْلَامِ يَقْتَضِي شُمُولَ التَّرْبِيَةِ؛ فَلَا يَكْفِي أَنْ يَكُونَ الاهْتِمَامُ بِالشَّابِّ مُنْصَبًّا عَلَىٰ عِبَادَتِهِ وَحْدَهَا، بَلْ يَمْتَدُّ إِلَىٰ فِكْرِهِ، وَخُلُقِهِ، وَعِلْمِهِ، وَصِحَّتِهِ، وَعَمَلِهِ، وَعَلَاقَتِهِ بِالنَّاسِ، وَمَوْقِفِهِ مِنْ قَضَايَا مُجْتَمَعِهِ وَأُمَّتِهِ. وَلِهَذَا كَانَ وَصْفُ الإِمَامِ البَنَّا لِلرَّجُلِ المُسْلِمِ وَصْفًا شَامِلًا: «**فِي تَفْكِيرِهِ وَعَقِيدَتِهِ، وَفِي خُلُقِهِ وَعَاطِفَتِهِ، وَفِي عَمَلِهِ وَتَصَرُّفِهِ**»(268).

فَالإِخْوَانُ -فِي هَذَا التَّصَوُّرِ- لَيْسُوا أَصْحَابَ تَدَيُّنٍ يَهْرُبُ مِنَ الحَيَاةِ، وَإِنَّمَا أَصْحَابُ تَدَيُّنٍ يَدْخُلُ الحَيَاةَ لِيُصْلِحَهَا، مَعَ بَقَاءِ الصِّلَةِ بِاللهِ هِيَ المَنْبَعَ الَّذِي يَمُدُّ هَذَا العَمَلَ بِالإِيمَانِ وَالاسْتِقَامَةِ وَالمُرَاقَبَةِ.

## 2- الإِخْوَانُ أَكْثَرُ النَّاسِ وَطَنِيَّةً

ثُمَّ يُصَحِّحُ الإِمَامُ البَنَّا صُورَةً أُخْرَىٰ رُسِمَتْ عَنِ الإِخْوَانِ وَهِيَ أَنَّ قُوَّةَ انْتِمَائِهِمْ إِلَىٰ العَقِيدَةِ الإِسْلَامِيَّةِ تَجْعَلُهُمْ لَا يُقِيمُونَ لِلْوَطَنِ وَالوَطَنِيَّةِ وَزْنًا، أَوْ أَنَّ انْتِمَاءَهُمُ العَقَدِيَّ يَأْتِي عَلَىٰ حِسَابِ حَقِّ الوَطَنِ؛ فَيَقُولُ: «**وَيُخْطِئُ مَنْ يُعْلِنُ أَنَّ الإِخْوَانَ المُسْلِمِينَ يَتَبَرَّمُونَ بِالوَطَنِ وَالوَطَنِيَّةِ؛ فَالإِخْوَانُ المُسْلِمُونَ أَشَدُّ النَّاسِ إِخْلَاصًا لِأَوْطَانِهِمْ، وَتَفَانِيًا فِي خِدْمَةِ هَذِهِ الأَوْطَانِ، وَاحْتِرَامًا لِكُلِّ مَنْ يَعْمَلُ لَهَا مُخْلِصًا**»(269).

(267) السابق.
(268) السابق. ص417.
(269) السابق. 420.

وَيَـرُدُّ عَلَـىٰ هَـذَا التَّصَـوُّرِ بِالتَّأْكِيـدِ أَنَّ الانْتِمَـاءَ إِلَـىٰ الإِسْـلَامِ لَا يُلْغِـي الانْتِمَـاءَ إِلَـىٰ الوَطَـنِ، بَـلْ يَجْعَـلُ خِدْمَتَـهُ وَالإِخْـلَاصَ لَـهُ وَالعَمَـلَ لِنَهْضَتِـهِ جُـزْءًا مِـنَ الوَاجِـبِ الَّـذِي يَحْمِلُـهُ المُسْـلِمُ.

وَمِـنْ هُنَـا فَـإِنَّ القَضِيَّـةَ لَيْسَـتْ مُفَاضَلَـةً بَيْـنَ العَقِيـدَةِ وَالوَطَـنِ، وَلَا تَضْحِيَـةً بِأَحَدِهِمَـا لِصَالِـحِ الآخَـرِ؛ فَالعَقِيـدَةُ هِـيَ المَرْجِعِيَّـةُ الَّتِـي يَسْـتَمِدُّ مِنْهَـا المُسْـلِمُ قِيَمَـهُ وَوَاجِبَاتِـهِ، وَالوَطَـنُ مَيْـدَانٌ مِـنْ مَيَادِيـنِ هَـذِهِ الوَاجِبَـاتِ، يَخْدُمُـهُ وَيَـذُودُ عَنْـهُ وَيَعْمَـلُ لِنَهْضَتِـهِ.

ثُـمَّ يُحَـدِّدُ المَرْجِعِيَّـةَ الَّتِـي تَنْطَلِـقُ مِنْهَـا هَـذِهِ الوَطَنِيَّـةُ بِقَوْلِـهِ: «وَلَكِـنَّ الفَـارِقَ بَيْـنَ الإِخْـوَانِ وَبَيْـنَ غَيْرِهِـمْ مِـنْ دُعَـاةِ الوَطَنِيَّـةِ المُجَـرَّدَةِ أَنَّ أَسَـاسَ وَطَنِيَّـةِ الإِخْـوَانِ العَقِيـدَةُ الإِسْـلَامِيَّةُ»(270).

فَالعَقِيـدَةُ لَا تُلْغِي الوَطَـنَ، وَإِنَّمَـا تَجْعَـلُ خِدْمَتَـهُ مَسْـؤُولِيَّةً أَخْلَاقِيَّـةً وَتَكْلِيفًـا. وَمِـنْ هُنَـا يَتَرَبَّـىٰ الشَّـابُّ عَلَـىٰ أَلَّا يَقِـفَ مِـنْ وَطَنِـهِ مَوْقِـفَ المُتَفَـرِّجِ أَوِ النَّاقِـدِ مِـنْ بَعِيـدٍ، وَإِنَّمَـا يَعُـدُّ نَفْسَـهُ شَـرِيكًا فِـي إِصْلَاحِـهِ وَنُهُوضِـهِ.

وَهَـذَا يَتَّصِـلُ بِمَـا قَـرَّرَهُ فِـي أَوَّلِ الرِّسَـالَةِ حِيـنَ طَالَـبَ الشَّـبَابَ أَنْ يُفَكِّـرُوا وَيَعْمَلُـوا وَيَتَقَدَّمُـوا لِلْإِنْقَـاذِ، وَأَنْ يُعْطُـوا الأُمَّـةَ حَقَّهَـا كَامِـلًا مِـنْ شَـبَابِهِمْ.

«وَجَـبَ عَلَيْكُـمْ أَنْ تُفَكِّـرُوا طَوِيـلًا، وَأَنْ تَعْمَلُـوا كَثِيـرًا، وَأَنْ تُحَـدِّدُوا مَوْقِفَكُـمْ، وَأَنْ تَتَقَدَّمُوا لِلْإِنْقَاذِ، وَأَنْ تُعْطُوا الأُمَّةَ حَقَّهَا كَامِلًا مِنْ هَذَا الشَّبَا ب» (271).
فَخِدْمَـةُ الوَطَـنِ فِـي هَـذَا السِّـيَاقِ جُـزْءٌ مِـنْ الانْتِقَـالِ مِـنْ هَـمِّ الـذَّاتِ إِلَـىٰ هَـمِّ الأُمَّـةِ؛ إِذْ لَا يَكْفِـي أَنْ يَنْجَـحَ الشَّـابُّ فِـي شَـأْنِهِ الخَـاصِّ، وَإِنَّمَـا يُسْـأَلُ أَيْضًـا: مَـاذَا أَضَـافَ هَـذَا النَّجَـاحُ إِلَـىٰ مُجْتَمَعِـهِ وَوَطَنِـهِ؟

وَبِهَـذَا تَكُـونُ الوَطَنِيَّـةُ انْتِمَـاءً يَتَحَـوَّلُ إِلَـىٰ عَمَـلٍ: حُـبٌّ لِلْوَطَـنِ، وَشُـعُورٌ بِمَسْـؤُولِيَّتِهِ، وَمُشَـارَكَةٌ فِـي نَهْضَتِـهِ، وَاسْـتِعْدَادٌ لِبَـذْلِ الجُهْـدِ فِـي خِدْمَتِـهِ.

(270) السابق. ص421.
(271) السابق. ص414.

## 3- الإِخْوَانُ عِنْوَانُ الجِدِّ وَالنَّشَاطِ

وَيُصَحِّحُ الإِمَامُ البنَّا صُورَةً ثَالِثَةً، وَهِيَ الصُّورَةُ الَّتِي تَرْبِطُ التَّدَيُّنَ بِالضَّعْفِ أَوِ التَّأَخُّرِ فِي مَيَادِينِ الحَيَاةِ، فَيُقَرِّر «**فَالإِخْوَانُ يُعْلِنُونَ فِي كُلِّ أَوْقَاتِهِمْ أَنَّ المُسْلِمَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ إِمَامًا فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَلَا يَرْضَوْنَ بِغَيْرِ القِيَادَةِ وَالعَمَلِ وَالجِهَادِ وَالسَّبْقِ فِي كُلِّ شَيْءٍ: فِي العِلْمِ، وَفِي القُوَّةِ، وَفِي الصِّحَّةِ، وَفِي المَالِ**»[272].

وَهُوَ هُنَا يَرْفُضُ الصُّورَةَ الَّتِي تَحْصُرُ التَّدَيُّنَ فِي صَلَاحِ العِبَادَةِ مَعَ الضَّعْفِ فِي مَيَادِينِ الحَيَاةِ. فَالتَّدَيُّنُ الحَقِيقِيُّ عِنْدَهُ لَا يَصْنَعُ إِنْسَانًا مُنْعَزِلًا عَنِ الحَيَاةِ، وَلَا شَخْصًا يَكْتَفِي بِالصَّلَاحِ الفَرْدِيِّ، وَإِنَّمَا يَدْفَعُ صَاحِبَهُ إِلَىٰ الإِتْقَانِ وَالسَّبْقِ وَالْقُدْرَةِ عَلَىٰ الإِنْجَازِ.

وَلَفْظُ «**إِمَامًا فِي كُلِّ شَيْءٍ**» لَا يُفْهَمُ عَلَىٰ مَعْنَىٰ التَّعَالِي عَلَىٰ النَّاسِ، وَإِنَّمَا عَلَىٰ مَعْنَىٰ القُدْوَةِ وَالتَّمَيُّزِ وَالتَّقَدُّمِ فِي مَيَادِينِ الخَيْرِ. فَالمُسْلِمُ الَّذِي يَحْمِلُ رِسَالَةً لَا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يَكُونَ مُتَأَخِّرًا فِي عِلْمِهِ، أَوْ ضَعِيفًا فِي عَمَلِهِ، أَوْ مُهْمِلًا لِصِحَّتِهِ، أَوْ عَاجِزًا عَنْ تَحْقِيقِ الكِفَايَةِ فِي حَيَاتِهِ.

وَاللَّافِتُ أَنَّهُ ذَكَرَ أَرْبَعَةَ مَيَادِينَ: **العِلْمَ، وَالقُوَّةَ، وَالصِّحَّةَ، وَالمَالَ**. وَهِيَ مَيَادِينُ تَكْشِفُ عَنْ تَصَوُّرٍ وَاسِعٍ لِلتَّرْبِيَةِ؛ فَهُوَ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ الشَّابِّ مِنْ زَاوِيَةِ عِبَادَتِهِ وَخُلُقِهِ فَقَطْ، بَلْ يَنْظُرُ إِلَيْهِ أَيْضًا مِنْ زَاوِيَةِ كَفَاءَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَصِحَّتِهِ وَاسْتِقْلَالِهِ فِي الحَيَاةِ.

فَالعِلْمُ يَبْنِي العَقْلَ، وَالقُوَّةُ تُمَكِّنُ مِنَ العَمَلِ وَحَمْلِ التَّبِعَاتِ، وَالصِّحَّةُ تَحْفَظُ قُدْرَةَ الإِنْسَانِ عَلَىٰ البَذْلِ، وَالمَالُ يَحْمِيهِ مِنَ العَجْزِ وَالتَّبَعِيَّةِ، وَيُمَكِّنُهُ مِنَ الإِنْفَاقِ وَالإِسْهَامِ. وَمِنْ هُنَا فَالتَّرْبِيَةُ الَّتِي تُهْمِلُ وَاحِدًا مِنْ هَذِهِ الجَوَانِبِ تَتْرُكُ ثَغْرَةً فِي بِنَاءِ الشَّخْصِيَّةِ.

ثُمَّ يُشَدِّدُ الإِمَامُ عَلَىٰ هَذَا المَعْنَىٰ فَيَقُولُ: «**وَالتَّأَخُّرُ فِي أَيَّةِ نَاحِيَةٍ مِنَ النَّوَاحِي ضَارٌّ بِفِكْرَتِنَا، مُخَالِفٌ لِتَعَالِيمِ دِينِنَا**»[273].

---

(272) السابق. ص421.

(273) السابق. ص421.

وَهُنَا يَرْبِطُ بَيْنَ **التَّأَخُّرِ الفَرْدِيِّ وَضَعْفِ الفِكْرَةِ فِي الوَاقِعِ**؛ فَالفِكْرَةُ الَّتِي يَحْمِلُهَا أُنَاسٌ ضُعَفَاءُ فِي عِلْمِهِمْ وَعَمَلِهِمْ وَإِنْجَازِهِمْ تَتَأَثَّرُ صُورَتُهَا بِضَعْفِ حَامِلِيهَا. وَمِنْ ثَمَّ يَصْبَحُ تَفَوُّقُ الفَرْدِ وَإِتْقَانُهُ جُزْءًا مِنْ أَدَاءِ رِسَالَتِهِ، لَا شَأْنًا شَخْصِيًّا مُنْفَصِلًا عَنْهَا.

وَهَذَا يَضَعُ أَمَامَ التَّرْبِيَةِ مَسْؤُولِيَّةً أَوْسَعَ مِنْ إِقَامَةِ بَرَامِجَ الإِيمَانِ وَالعِبَادَةِ وَالأَخْلَاقِ؛ فَهِيَ مُطَالَبَةٌ أَيْضًا بِأَنْ تُنَمِّيَ فِي الجِيلِ **حُبَّ العِلْمِ، وَالإِتْقَانَ المِهْنِيَّ، وَالعِنَايَةَ بِالصِّحَّةِ، وَقُدْرَةَ الإِنْجَازِ، وَالسَّعْيَ إِلَىٰ الكِفَايَةِ وَالاسْتِقْلَالِ الاقْتِصَادِيِّ**.

وَهُنَا يَظْهَرُ الفَرْقُ بَيْنَ **التَّرْبِيَةِ عَلَى الصَّلَاحِ** وَ**التَّرْبِيَةِ عَلَى الفَاعِلِيَّةِ**. فَقَدْ يَكُونُ الإِنْسَانُ صَالِحًا فِي نَفْسِهِ، وَلَكِنَّهُ ضَعِيفُ الأَثَرِ فِي الحَيَاةِ، بَيْنَمَا يُرِيدُ الإِمَامُ البَنَّا شَخْصِيَّةً **تَجْمَعُ بَيْنَ الصَّلَاحِ وَالإِصْلَاحِ**، وَبَيْنَ حُسْنِ الصِّلَةِ بِاللهِ وَحُسْنِ أَدَاءِ الدَّوْرِ فِي الحَيَاةِ.

وَلِهَذَا فَالتَّفَوُّقُ فِي هَذَا التَّصَوُّرِ لَيْسَ تَرَفًا، وَلَا طَلَبًا لِلْمَكَانَةِ الشَّخْصِيَّةِ، وَإِنَّمَا هُوَ جُزْءٌ مِنْ أَمَانَةِ الرِّسَالَةِ؛ فَالشَّابُّ الَّذِي يُرَادُ لَهُ أَنْ يُسْهِمَ فِي نَهْضَةِ أُمَّتِهِ لَا بُدَّ أَنْ يَمْلِكَ مِنَ العِلْمِ وَالكَفَاءَةِ وَالقُوَّةِ مَا يَجْعَلُهُ قَادِرًا عَلَىٰ هَذَا الإِسْهَامِ.

وَمِنْ صِفَاتِ الإِخْوَانِ أَنَّهُمْ **لَا يَعِيشُونَ لِأَنْفُسِهِمْ فَقَطْ**، وَلَا يَسْتَغْرِقُونَ مَوَاهِبَهُمْ وَأَوْقَاتَهُمْ وَجُهُودَهُمْ فِي تَحْقِيقِ مَصَالِحِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ، كَمَا تَدْفَعُ إِلَىٰ ذَلِكَ المَادِّيَّةُ الطَّاغِيَةُ؛ لِأَنَّ صَاحِبَ الرِّسَالَةِ لَا يَحْيَا لِذَاتِهِ وَحْدَهَا، بَلْ يَجْعَلُ لِمُجْتَمَعِهِ وَأُمَّتِهِ نَصِيبًا مِنْ عِلْمِهِ وَقُدُرَاتِهِ وَجُهْدِهِ. وَلَوْ عَاشَ الإِخْوَانُ لِأَنْفُسِهِمْ فَقَطْ لَمَا كَانُوا حَمَلَةَ رِسَالَةٍ، وَلَمَا كَانُوا نَمُوذَجًا تَرْبَوِيًّا يُحْتَذَىٰ وَيَنْسُجُ عَلَىٰ مِنْوَالِهِ الآخَرُونَ.

وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ الإِمَامَ البَنَّا لَا يَضَعُ **النَّجَاحَ الشَّخْصِيَّ وَخِدْمَةَ الأُمَّةِ** فِي طَرَفَيْ نَقِيضٍ؛ بَلْ يَجْعَلُ الأَوَّلَ أَدَاةً لِلثَّانِي. فَكُلَّمَا ازْدَادَ الشَّابُّ عِلْمًا وَخِبْرَةً وَقُوَّةً وَمَالًا، اتَّسَعَتْ قُدْرَتُهُ عَلَىٰ العَطَاءِ، إِذَا ظَلَّتْ هَذِهِ القُدُرَاتُ مَرْبُوطَةً بِالرِّسَالَةِ. فَلَا تَكُونُ قِيمَةُ العِلْمِ فِي الشَّهَادَةِ وَحْدَهَا، وَلَا قِيمَةُ المَالِ فِي كَثْرَتِهِ، وَلَا قِيمَةُ المَكَانَةِ فِيمَا تَمْنَحُهُ مِنْ وَجَاهَةٍ؛

بَلْ فِيمَا تَفْتَحُهُ هَذِهِ الأُمُورُ مِنْ أَبْوَابِ النَّفْعِ وَالإِصْلَاحِ، فَيَنْتَفِعُ بِهَا مُجْتَمَعُهُ وَأُمَّتُهُ، وَيَمْتَدُّ خَيْرُهَا إِلَىٰ البَشَرِيَّةِ أَجْمَعَ.

## 4- الإِخْوَانُ دُعَاةُ وَحْدَةٍ وَتَجْمِيعٍ

وَيُصَحِّحُ الإِمَامُ البَنَّا ادِّعَاءً آخَرَ، وَهُوَ أَنَّ قُوَّةَ الانْتِمَاءِ الإِسْلَامِيِّ عِنْدَ الإِخْوَانِ تَقُودُهُمْ إِلَىٰ التَّفْرِيقِ بَيْنَ أَبْنَاءِ الوَطَنِ بِحَسَبِ عَقَائِدِهِمْ أَوْ أَجْنَاسِهِمْ. وَيَرُدُّ عَلَىٰ ذَلِكَ بِالتَّأْكِيدِ أَنَّ اخْتِلَافَ العَقِيدَةِ لَا يُلْغِي رَابِطَةَ المُوَاطَنَةِ بَيْنَ أَبْنَاءِ الوَطَنِ الوَاحِدِ، وَلَا يُسَوِّغُ التَّفْرِيقَ أَوِ الظُّلْمَ بَيْنَهُمْ؛ بَلْ تَقُومُ العَلَاقَةُ بَيْنَهُمْ عَلَىٰ الحَقِّ وَالإِنْصَافِ وَالعَدْلِ. أَمَّا فِي الدَّائِرَةِ الأَوْسَعِ، فَيُؤَكِّدُ الإِسْلَامُ الرَّابِطَةَ الإِنْسَانِيَّةَ العَامَّةَ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنَ البِرِّ وَالعَدْلِ وَحُسْنِ التَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ؛ فَيَقُولُ:

«وَيُخْطِئُ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ الإِخْوَانَ المُسْلِمِينَ دُعَاةُ تَفْرِيقٍ عُنْصُرِيٍّ بَيْنَ طَبَقَاتِ الأُمَّةِ، فَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الإِسْلَامَ عُنِيَ أَدَقَّ العِنَايَةِ بِاحْتِرَامِ الرَّابِطَةِ الإِنْسَانِيَّةِ العَامَّةِ بَيْنَ بَنِي الإِنْسَانِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾ [**الحُجُرَاتِ**: 13]، كَمَا أَنَّهُ جَاءَ لِخَيْرِ النَّاسِ جَمِيعًا، وَرَحْمَةً مِنَ اللهِ لِلْعَالَمِينَ، وَدِينٌ هَذِهِ مُهِمَّتُهُ أَبْعَدُ الأَدْيَانِ عَنْ تَفْرِيقِ القُلُوبِ وَإِيغَارِ الصُّدُورِ؛ وَلِهَذَا جَاءَ القُرْآنُ مُثَبِّتًا لِهَذِهِ الوَحْدَةِ، مُشِيدًا بِهَا فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ**﴾ [**البَقَرَةِ**: 285]، وَقَدْ حَرَّمَ الإِسْلَامُ الاعْتِدَاءَ حَتَّىٰ فِي حَالَاتِ الغَضَبِ وَالخُصُومَةِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾ [**المَائِدَةِ**: 8]. وَأَوْصَىٰ بِالبِرِّ وَالإِحْسَانِ بَيْنَ المُوَاطِنِينَ وَإِنِ اخْتَلَفَتْ عَقَائِدُهُمْ وَأَدْيَانُهُمْ: ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ**﴾ [**المُمْتَحَنَةِ**: 8].

وَفِي إِنْصَافِ الذِّمِّيِّينَ وَحُسْنِ مُعَامَلَتِهِمْ فَلَهُمْ مَا لَنَا، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْنَا. نَعْلَمُ كُلَّ هَذَا فَلَا نَدْعُو إِلَىٰ تَفْرِقَةٍ عُنْصُرِيَّةٍ، وَلَا إِلَىٰ عَصَبِيَّةٍ طَائِفِيَّةٍ. وَلَكِنْ إِلَىٰ جَانِبِ هَذَا لَا نَشْتَرِي هَذِهِ الوَحْدَةَ بِإِيمَانِنَا، وَلَا نُسَاوِمُ فِي سَبِيلِهَا عَلَىٰ عَقِيدَتِنَا، وَلَا نَهْدِرُ مِنْ أَجْلِهَا مَصَالِحَ

المُسْلِمِينَ، دَائِمًا نَشْتَرِيهَا بِالحَقِّ وَالإِنْصَافِ وَالعَدَالَةِ وَكَفَىٰ. فَمَنْ حَاوَلَ غَيْرَ ذَلِكَ أَوْقَفْنَاهُ عِنْدَ حَدِّهِ، وَأَبَنَّا لَهُ خَطَأَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ، وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ»[274].

وَهَذِهِ قَضِيَّةٌ تَرْبَوِيَّةٌ مُهِمَّةٌ؛ فَقُوَّةُ الانْتِمَاءِ إِذَا لَمْ يَضْبِطْهَا العَدْلُ قَدْ تَنْقَلِبُ إِلَىٰ تَعَصُّبٍ. وَمِنْ هُنَا يَرْبِي الإِمَامُ البَنَّا الشَّابَّ عَلَىٰ الجَمْعِ بَيْنَ الثَّبَاتِ عَلَىٰ العَقِيدَةِ وَالعَدْلِ مَعَ المُخَالِفِ، فَلَا يُذِيبُ خُصُوصِيَّتَهُ الدِّينِيَّةَ، وَلَا يَجْعَلُ اخْتِلَافَ العَقِيدَةِ مُبَرِّرًا لِلظُّلْمِ أَوِ التَّعَصُّبِ؛ وَبِذَلِكَ تَقُومُ الوَحْدَةُ الوَطَنِيَّةُ عَلَىٰ الحَقِّ وَالإِنْصَافِ وَالعَدْلِ، لَا عَلَىٰ إِلْغَاءِ الفُرُوقِ.

وَمِنْ هُنَا تَقُومُ الوَحْدَةُ الوَطَنِيَّةُ فِي تَصَوُّرِ الإِمَامِ البَنَّا لَا عَلَىٰ إِلْغَاءِ الفُرُوقِ، وَإِنَّمَا عَلَىٰ **الحَقِّ وَالإِنْصَافِ وَالعَدْلِ**؛ فَالشَّخْصِيَّةُ الَّتِي تَسْعَىٰ التَّرْبِيَةُ إِلَىٰ تَكْوِينِهَا شَخْصِيَّةٌ **قَوِيَّةُ الانْتِمَاءِ، قَوِيَّةُ العَدْلِ مَعًا**.

وَيَسْتَكْمِلُ الإِمَامُ البَنَّا تَعْرِيفَ الإِخْوَانِ بِنَفْيِ التَّبَعِيَّةِ عَنْ دَعْوَتِهِمْ؛ فَهُمْ لَا يَعْمَلُونَ لِحِسَابِ هَيْئَةٍ، وَلَا يَعْتَمِدُونَ عَلَىٰ جَمَاعَةٍ، وَإِنَّمَا يَعْمَلُونَ لِغَايَتِهِمْ عَلَىٰ هُدًىٰ مِنْ رَبِّهِمْ. وَبِهَذِهِ التَّصْحِيحَاتِ تَتَّضِحُ صُورَةُ الإِخْوَانِ عِنْدَ الإِمَامِ البَنَّا: فَهُمٌ شَامِلٌ لِلْإِسْلَامِ، وَخِدْمَةٌ لِلْوَطَنِ، وَفَاعِلِيَّةٌ فِي الحَيَاةِ، وَنَفْعٌ لِلْأُمَّةِ، وَعَدْلٌ مَعَ المُخَالِفِ، وَاسْتِقْلَالٌ فِي حَمْلِ الرِّسَالَةِ.

## سَادِسًا- الثَّبَاتُ وَالتَّجَرُّدُ وَالعَمَلُ لِحَمْلِ الرِّسَالَةِ

### 1- الاسْتِقْلَالُ فِي حَمْلِ الرِّسَالَةِ

صَاحِبُ الرِّسَالَةِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ قَرَارُهُ مَرْهُونًا بِجِهَةٍ مِنْ خَارِجِ فِكْرَتِهِ، وَلَا أَنْ يَتَحَوَّلَ دَعْمُ الآخَرِينَ لَهُ إِلَىٰ قَيْدٍ عَلَىٰ مَوْقِفِهِ وَحَرَكَتِهِ.

وَالاسْتِقْلَالُ هُنَا لَا يَعْنِي الانْعِزَالَ عَنِ النَّاسِ، وَلَا رَفْضَ التَّعَاوُنِ مَعَ غَيْرِهِمْ فِي الخَيْرِ، وَإِنَّمَا يَعْنِي أَنْ تَبْقَىٰ مَرْجِعِيَّةُ القَرَارِ نَابِعَةً مِنَ الفِكْرَةِ وَالمَبْدَإِ، لَا مِنْ ضَغْطِ المَصَالِحِ أَوْ إِرَادَةِ الدَّاعِمِينَ.

(274) السابق. ص421.

وَمِنْ هُنَا يَتَّصِلُ الاسْتِقْلَالُ بِالتَّجَرُّدِ؛ فَصَاحِبُ الدَّعْوَةِ قَدْ يُطَالَبُ بِأَنْ يَتَحَمَّلَ تَكْلِفَةَ مَا يَعْتَقِدُهُ، فَيَرْفُضَ مَصْلَحَةً، أَوْ يَفْقِدَ دَعْمًا، أَوْ يَتَحَمَّلَ ضَغْطًا، حَتَّىٰ لَا يَفْقِدَ حُرِّيَّةَ قَرَارِهِ. وَالإِخْوَانُ لَا يَعْتَمِدُونَ عَلَىٰ مَنْ يَتَحَكَّمُ فِي قَرَارِهِمْ أَوْ يُوَجِّهُ بُوصَلَتَهُمْ. وَلِلْإِمَامِ البَنَّا كَلَامٌ مُطَوَّلٌ فِي هَذِهِ المَسْأَلَةِ، حِينَ عُرِضَ عَلَيْهِ دَعْمٌ مِنَ الإِنْجِلِيزِ لِلدَّعْوَةِ فَرَفَضَهُ؛ حِرْصًا عَلَىٰ اسْتِقْلَالِهَا، وَأَلَّا يَكُونَ لِأَحَدٍ سَبِيلٌ إِلَىٰ التَّأْثِيرِ فِي قَرَارِهَا أَوْ تَوْجِيهِ مَسَارِهَا[275]. وَلِهَذَا قَالَ: «**وَيُخْطِئُ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ الإِخْوَانَ المُسْلِمِينَ يَعْمَلُونَ لِحِسَابِ هَيْئَةٍ مِنَ الهَيْئَاتِ، أَوْ يَعْتَمِدُونَ عَلَىٰ جَمَاعَةٍ مِنَ الجَمَاعَاتِ**»[276].

وَقَدِ اهْتَمَّ الإِمَامُ البَنَّا بِصِفَةِ اسْتِقْلَالِ الإِرَادَةِ؛ لِأَنَّهَا تُسْهِمُ فِي صَنْعِ عَزَائِمِ الرِّجَالِ الَّذِينَ تَقُومُ عَلَىٰ أَكْتَافِهِمُ الدَّعْوَةُ، وَرَأَىٰ أَنَّهَا صِفَةٌ يَنْبَغِي أَنْ تُغْرَسَ فِي النَّشْءِ مُنْذُ الصِّغَرِ؛ لِأَنَّ أَجْيَالًا مِنَ الأُمَّةِ نَشَأَتْ فِي بِيئَاتٍ فَقَدَتْ مَعَانِيَ الاسْتِقْلَالِ، فَانْتَقَلَ إِلَيْهَا شَيْءٌ مِنَ التَّبَعِيَّةِ فِي النَّفْسِ وَالفِكْرِ وَالعَمَلِ. وَلِذَلِكَ يَقُولُ: «عَلَيْكُمْ بِهَذَا النَّشْءِ، جِدُّوا فِي تَكْوِينِهِ وَأَحْسِنُوا تَرْبِيَتَهُ وَتَوْجِيهَهُ، عَلِّمُوهُ اسْتِقْلَالَ القَلْبِ وَالنَّفْسِ بَعِيدًا عَنِ التَّعَلُّقِ وَالتَّقْلِيدِ، عَلِّمُوهُ اسْتِقْلَالَ العَقْلِ وَالفِكْرِ بَعِيدًا عَنِ النَّمَطِيَّةِ وَالتَّكْرَارِ، عَلِّمُوهُ اسْتِقْلَالَ العَمَلِ وَالجِهَادِ بَعِيدًا عَنِ الجُمُودِ وَالمُرَاوَحَةِ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ، جَنِّدُوهُ تَحْتَ زَعَامَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَرَايَةِ القُرْآنِ، امْلَؤُوا رُوحَهُ الوَثَّابَةَ بِجَلَالِ الوَحْيِ وَرَوْعَةِ الإِيمَانِ، وَسَوْفَ تَجِدُونَ مِنْهُمْ غَدًا الحَاكِمَ المُسْلِمَ الَّذِي يُسْعِدُ غَيْرَهُ»[277].

## 2- مِنَ الاقْتِنَاعِ إِلَىٰ التَّجَرُّدِ وَالعَمَلِ

يَصِلُ الإِمَامُ البَنَّا هُنَا إِلَىٰ الغَايَةِ التَّرْبَوِيَّةِ الأَخِيرَةِ فِي الرِّسَالَةِ وَهِيَ تَحْوِيلُ الشَّابِّ مِنْ مُتَلَقٍّ إِلَىٰ صَاحِبِ مَوْقِفٍ، فَقَدْ عَرَّفَهُ بِمَكَانَتِهِ، وَحَمَّلَهُ مَسْؤُولِيَّةَ الأُمَّةِ، وَدَعَاهُ إِلَىٰ دِرَاسَةِ الدَّعَوَاتِ وَالمُوَازَنَةِ بَيْنَهَا، وَعَرَضَ عَلَيْهِ الفِكْرَةَ الَّتِي يَدْعُو إِلَيْهَا، وَبَيَّنَ

(275) ينظر محمد حامد أبو النصر: **حقيقة الخلاف بين الإخوان المسلمين وعبد الناصر**، ط2، دار التوزيع والنشر الإسلامية، 1408هـ-1988م، ص 27.
(276) **مجموعة رسائل الإمام البنا**. [رسالة إلى الشباب عامة وإلى الطلبة خاصة]. ص422.
(277) حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية، ص83.

لَـهُ مَرَاحِـلَ الطَّرِيـقِ وَمَلَامِـحَ الشَّـخْصِيَّةِ الَّتِـي يَنْبَغِـي أَنْ يَكُـونَ عَلَيْهَـا، ثُـمَّ يَطْلُـبُ مِنْـهُ فِـي النِّهَايَـةِ أَنْ يَحْسِـمَ اخْتِيَـارَهُ.

«عَلَىٰ هَذِهِ القَوَاعِدِ الثَّابِتَةِ، وَإِلَىٰ هَذِهِ التَّعَالِيمِ السَّامِيَةِ نَدْعُوكُمْ جَمِيعًا»(278).

وَهَـذَا التَّرْتِيـبُ مُهِـمٌّ؛ لِأَنَّ الإِمَـامَ البَنَّـا لَا يَبْـدَأُ بِطَلَـبِ التَّجَـرُّدِ، وَإِنَّمَـا يَنْتَهِـي إِلَيْـهِ. فَقَبْـلَ أَنْ يَطْلُـبَ مِـنَ الشَّـابِّ أَنْ يَلْتَـزِمَ، يَطْلُـبُ مِنْـهُ أَنْ يَفْهَـمَ، وَيَـدْرُسَ، وَيُـوَازِنَ، وَيَعْـرِفَ الفِكْـرَةَ وَمَرْجِعِيَّتَهَـا وَمَنْهَجَهَـا.

وَمِـنْ هُنَـا فَالتَّجَـرُّدُ الَّـذِي يَطْلُبُـهُ لَا يَسْـبِقُ الفَهْـمَ وَالاخْتِيَـارَ، وَلَا يَقُـومُ عَلَـىٰ الِانْدِفَـاعِ العَاطِفِـيِّ، وَإِنَّمَـا هُـوَ ثَمَـرَةُ فَهْـمٍ وَاقْتِنَـاعٍ. فَـإِذَا تَبَيَّنَـتِ الفِكْـرَةُ لِلشَّـابِّ، وَاقْتَنَـعَ بِهَـا، جَـاءَ دَوْرُ تَحْرِيـرِ النَّفْـسِ مِـنَ الأَهْـوَاءِ وَالمَصَالِـحِ الشَّـخْصِيَّةِ الَّتِـي قَـدْ تَحُـولُ بَيْـنَ الاقْتِنَـاعِ وَالعَمَـلِ.

وَهَـذَا المَعْنَىٰ يَتَّصِـلُ بِمَـا قَـرَّرَهُ الإِمَـامُ فِـي رِسَـالَةِ (التَّعَالِيـمِ) فِـي رُكْـنِ التَّجَـرُّدِ؛ حَيْـثُ يَقُـولُ: «وَأُرِيـدُ بِالتَّجَـرُّدِ أَنْ تَتَخَلَّـصَ لِفِكْرَتِـكَ مِمَّـا سِـوَاهَا مِـنَ المَبَـادِئِ وَالأَشْـخَاصِ؛ لِأَنَّهَـا أَسْـمَىٰ الفِكَـرِ وَأَجْمَعُهَـا وَأَعْلَاهَـا، ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾ [البَقَـرَة: 138]»(279). فَالتَّجَـرُّدُ لَا يُلْغِـي العَقْـلَ، بَـلْ يَأْتِـي بَعْـدَ اسْـتِعْمَالِ العَقْـلِ فِـي الفَهْـمِ وَالمُوَازَنَـةِ وَالاخْتِيَـارِ؛ ثُـمَّ يَعْنِـي بَعْـدَ ذَلِـكَ أَلَّا يَعُـودَ الهَـوَىٰ وَالمَصْلَحَـةُ الشَّـخْصِيَّةُ فَيَنْقُضَـا مَـا اسْـتَقَرَّ فِـي العَقْـلِ وَالقَلْـبِ.

## 3- الثَّبَاتُ بَعْدَ وُضُوحِ الطَّرِيقِ

ثُـمَّ يَحَـذِّرُ الإِمَـامُ البَنَّـا مِـنَ البَقَـاءِ فِـي حَالَـةِ: «التَّذَبْـذُبِ وَالاضْطِـرَابِ، وَالتَّـرَدُّدِ بَيْـنَ الدَّعَـوَاتِ الحَائِـرَةِ وَالمَنَاهِـجِ الفَاشِـلَة»(280).

وَكَأَنَّ الرِّسَـالَةَ تَعُـودُ هُنَـا إِلَـىٰ نُقْطَـةِ بَدَايَتِهَـا؛ فَقَـدْ بَـدَأَتْ بِالْحَدِيـثِ عَـنْ اخْتِـلَافِ الدَّعَـوَاتِ، وَاخْتِـلَاطِ الصَّيْحَـاتِ، وَتَعَـدُّدِ المَنَاهِـجِ، وَدَعَـا الشَّـبَابَ إِلَـىٰ دِرَاسَتِهَا وَالمُوَازَنَـةِ

(278) **مجموعة رسائل الإمام البنا**. [رسالة إلىٰ الشباب عامة وإلىٰ الطلبة خاصة]. ص422.
(279) **مجموعة رسائل الإمام البنا**. [رسالة التعاليم]. ص 276.
(280) **مجموعة رسائل الإمام البنا**. [رسالة إلىٰ الشباب عامة وإلىٰ الطلبة خاصة]. ص421.

بَيْنَهَا. وَهَا هُوَ فِي النِّهَايَةِ يَقُولُ لَهُ: إِذَا دَرَسْتَ وَوَازَنْتَ وَتَبَيَّنَ لَكَ الطَّرِيقُ، فَلَا تَبْقَ أَسِيرَ التَّرَدُّدِ.

وَهُنَا يَتَّضِحُ الفَرْقُ بَيْنَ التَّثَبُّتِ وَالتَّرَدُّدِ. فَالتَّثَبُّتُ مَطْلُوبٌ قَبْلَ الاخْتِيَارِ، أَمَّا التَّرَدُّدُ بَعْدَ وُضُوحِ الحُجَّةِ وَالطَّرِيقِ فَيَتَحَوَّلُ إِلَىٰ عَائِقٍ عَنِ العَمَلِ.

## 4- العِبْرَةُ بِصِحَّةِ الفِكْرَةِ قَبْلَ كَثْرَةِ الأَتْبَاعِ

وَلَا يَعْنِي ذَلِكَ التَّقْلِيلَ مِنْ أَهَمِّيَّةِ كَثْرَةِ الأَتْبَاعِ وَاتِّسَاعِ دَائِرَةِ الدَّعْوَةِ؛ فَالدَّعْوَةُ حَرِيصَةٌ عَلَىٰ أَنْ يَكْثُرَ أَنْصَارُهَا وَيَتَّسِعَ أَثَرُهَا، وَلَكِنَّ الكَثْرَةَ لَا تَكُونُ دَلِيلًا عَلَىٰ صِحَّةِ الفِكْرَةِ، كَمَا أَنَّ القِلَّةَ لَا تَكُونُ دَلِيلًا عَلَىٰ بُطْلَانِهَا.

وَصَاحِبُ الفِكْرَةِ قَدْ يَقِيسُ صِحَّةَ مَا يَحْمِلُهُ بِكَثْرَةِ أَنْصَارِهِ، أَوْ يَتَرَاجَعُ عَنْهُ إِذَا رَأَىٰ قِلَّةَ السَّالِكِينَ مَعَهُ. وَالإِمَامُ البَنَّا يُرَبِّي الشَّابَّ عَلَىٰ أَنْ يَكُونَ مِعْيَارُهُ صِحَّةَ الفِكْرَةِ لَا كَثْرَةَ أَتْبَاعِهَا. وَمِنْ هُنَا قَالَ: «**غَيْرَ عَابِئَةٍ بِقِلَّةٍ وَلَا بِكَثْرَةٍ**»[281]، وَهَذِهِ العِبَارَةُ تُكْمِلُ مَعْنَىٰ التَّجَرُّدِ؛ لِأَنَّ صَاحِبَ الفِكْرَةِ لَا يَجْعَلُ مَوْقِفَهُ مِنَ الحَقِّ تَابِعًا لِكَثْرَةِ المُؤَيِّدِينَ أَوْ قِلَّتِهِمْ. وَلَا يَعْنِي ذَلِكَ التَّقْلِيلَ مِنْ أَهَمِّيَّةِ كَثْرَةِ الأَنْصَارِ وَاتِّسَاعِ دَائِرَةِ الدَّعْوَةِ، وَإِنَّمَا المَقْصُودُ أَلَّا تَكُونَ الكَثْرَةُ مِعْيَارًا لِصِحَّةِ الفِكْرَةِ، وَلَا القِلَّةُ دَلِيلًا عَلَىٰ بُطْلَانِهَا.

فَالعَدَدُ وَحْدَهُ لَا يَصْنَعُ نَهْضَةً؛ فَقَدْ تَكُونُ جَمَاعَةٌ كَبِيرَةٌ، وَلَكِنَّهَا ضَعِيفَةُ الإِرَادَةِ، قَلِيلَةُ التَّضْحِيَةِ، مُضْطَرِبَةُ الفِكْرَةِ، فَلَا تُحْدِثُ تَغْيِيرًا. وَقَدْ تَبْدَأُ الفِكْرَةُ بِعَدَدٍ قَلِيلٍ، وَلَكِنَّهُمْ يَمْلِكُونَ مِنْ وُضُوحِ الغَايَةِ، وَصَلَابَةِ الإِرَادَةِ، وَجِدِّيَّةِ العَمَلِ مَا يُهَيِّئُ لَهَا النُّمُوَّ وَالانْتِشَارَ. وَهَذَا هُوَ شَأْنُ الدَّعَوَاتِ الكُبْرَىٰ فِي بَدَايَاتِهَا؛ فَقَدْ بَدَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ دَعْوَتَهُ بِعَدَدٍ قَلِيلٍ مِنَ المُؤْمِنِينَ، وَكَانَتْ دَارُ الأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الأَرْقَمِ مَحْضَنًا لِهَذِهِ النَّوَاةِ الأُولَىٰ، يَتَلَقَّوْنَ فِيهَا الوَحْيَ، وَيَتَرَبَّوْنَ عَلَىٰ الإِيمَانِ، وَيَتَكَوَّنُونَ عَلَىٰ حَمْلِ الرِّسَالَةِ. فَلَمْ تَكُنْ قُوَّةُ البِدَايَةِ فِي كَثْرَةِ العَدَدِ، وَإِنَّمَا فِي عُمْقِ الإِيمَانِ، وَوُضُوحِ الغَايَةِ، وَصَلَابَةِ الإِرَادَةِ، وَالاسْتِعْدَادِ لِلتَّضْحِيَةِ وَالعَمَلِ. ثُمَّ نَمَتِ الدَّعْوَةُ وَاتَّسَعَتْ دَائِرَتُهَا، وَدَخَلَ النَّاسُ فِي

(281) السابق. ص421.

دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا. فَالْمَقْصُودُ لَيْسَ تَمْجِيدَ القِلَّةِ لِذَاتِهَا، وَلَا الزُّهْدَ فِي كَثْرَةِ الأَنْصَارِ، وَإِنَّمَا أَلَّا تُجْعَلَ الكَثْرَةُ مِعْيَارًا لِصِحَّةِ الفِكْرَةِ، وَلَا القِلَّةُ دَلِيلًا عَلَىٰ فَشَلِهَا.

وَقَدْ كَانَ تَكَوُّنُ النَّوَاةِ الأُولَىٰ لِجَمَاعَةِ الإِخْوَانِ فِي الإِسْمَاعِيلِيَّةِ شَاهِدًا عَلَىٰ ذَلِكَ؛ إِذْ بَدَأَتْ بِسِتَّةٍ مِنْ أَصْحَابِ الحِرَفِ البُسَطَاءِ، لَمْ يَكُنْ وَرَاءَهُمْ جَاهٌ وَلَا نُفُوذٌ وَلَا إِمْكَانَاتٌ كَبِيرَةٌ، وَلَكِنَّهُمْ آمَنُوا بِالفِكْرَةِ، وَعَاهَدُوا اللهَ عَلَىٰ العَمَلِ لَهَا، فَكَانُوا نَوَاةً صَغِيرَةً اتَّسَعَتْ مِنْهَا الدَّعْوَةُ وَانْتَشَرَتْ[282]. وَهَذَا يَعُودُ بِنَا إِلَىٰ أَوَّلِ الرِّسَالَةِ، حِينَ جَعَلَ الإِمَامُ نَجَاحَ الفِكْرَةِ مُرْتَبِطًا بِالإِيمَانِ، وَالإِخْلَاصِ، وَالحَمَاسَةِ، وَالاسْتِعْدَادِ لِلتَّضْحِيَةِ وَالعَمَلِ، لَا بِكَثْرَةِ مَنْ يَنْتَسِبُونَ إِلَيْهَا.

**وَخُلَاصَةُ هَذِهِ الرِّسَالَةِ** أَنَّ الإِمَامَ البَنَّا لَا يُقَدِّمُ لِلشَّبَابِ وَعْظًا عَابِرًا، وَلَا يَكْتَفِي بِاسْتِثَارَةِ حَمَاسَتِهِمْ، وَإِنَّمَا يَضَعُ أَمَامَهُمْ مَشْرُوعًا مُتَكَامِلًا لِلتَّكْوِينِ وَالعَمَلِ وَحَمْلِ مَسْؤُولِيَّةِ النَّهْضَةِ.

فَهُوَ يَبْدَأُ بِتَعْرِيفِ الشَّابِّ بِمَكَانَتِهِ وَمَسْؤُولِيَّتِهِ، وَيُرَبِّيهِ عَلَىٰ أَنَّ الشَّبَابَ مَرْحَلَةُ قُوَّةٍ وَعَطَاءٍ وَتَحَمُّلٍ لِلأَمَانَةِ، وَأَنَّ حَقَّ الأُمَّةِ عَلَىٰ شَبَابِهَا يَعْظُمُ كُلَّمَا عَظُمَتْ أَزْمَتُهَا وَاشْتَدَّتْ حَاجَتُهَا إِلَىٰ الإِنْقَاذِ.

ثُمَّ لَا يَدْفَعُهُ إِلَىٰ العَمَلِ قَبْلَ أَنْ يُرَبِّيَهُ عَلَىٰ البَصِيرَةِ وَحُسْنِ الاخْتِيَارِ؛ فَيَدْعُوهُ إِلَىٰ دِرَاسَةِ الدَّعَوَاتِ وَالمَنَاهِجِ وَالمُوَازَنَةِ بَيْنَهَا، ثُمَّ يُعَرِّفُهُ بِحَقِيقَةِ الدَّعْوَةِ الَّتِي يَحْمِلُهَا، وَيَصِفُهَا بِأَنَّهَا «دَعْوَةُ الإِخْوَانِ المُسْلِمِينَ، أَوْ دَعْوَةُ الإِسْلَامِ فِي القَرْنِ الرَّابِعَ عَشَرَ الهِجْرِيِّ»؛ فَالإِسْلَامُ هُوَ الأَصْلُ وَالمَرْجِعُ، وَالدَّعْوَةُ طَرِيقٌ لِخِدْمَتِهِ وَالعَمَلِ بِهِ فِي الوَاقِعِ.

وَمِنْ هُنَا يَجْعَلُ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَهَدْيَ السَّلَفِ مَصْدَرَ التَّوْجِيهِ، وَإِرْضَاءَ اللهِ وَأَدَاءَ الوَاجِبِ وَهِدَايَةَ النَّاسِ غَايَةَ العَمَلِ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ بِالشَّابِّ مِنَ الفِكْرَةِ إِلَىٰ مَنْهَجِ التَّكْوِينِ: فَرْدٌ، فَبَيْتٌ، فَمُجْتَمَعٌ، ثُمَّ يَمْتَدُّ هَذَا التَّكْوِينُ إِلَىٰ مَرَاحِلِ المَشْرُوعِ التَّالِيَةِ. وَهُنَا تَبْرُزُ

(282) انظر: حسن البنا: **مذكرات الدعوة والداعية**، ص 83.

التَّرْبِيَةُ أَدَاةً أَسَاسِيَّةً لِلتَّغْيِيرِ؛ فَالتَّكْوِينُ يَسْبِقُ التَّمْكِينَ وَيُهَيِّئُ لَهُ.

وَيُرَبِّي الإِمَامُ البَنَّا الشَّابَّ عَلَىٰ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ عِظَمِ الغَايَةِ وَوَاقِعِيَّةِ الطَّرِيقِ؛ فَلَا يَسْتَصْغِرُ هَدَفَهُ لِصُعُوبَةِ الوَاقِعِ، وَلَا يَقْفِزُ فَوْقَ مَرَاحِلِ البِنَاءِ، بَلْ يَسِيرُ بِخُطُوَاتٍ ثَابِتَةٍ، وَعَمَلٍ لَا يَتَوَقَّفُ، وَثِقَةٍ بِاللهِ لَا تَضْعُفُ.

ثُمَّ يَرْسُمُ مَلَامِحَ الشَّخْصِيَّةِ الَّتِي تُرِيدُ الدَّعْوَةُ تَكْوِينَهَا؛ شَخْصِيَّةً تَفْهَمُ الإِسْلَامَ فَهْمًا شَامِلًا، وَتَجْمَعُ بَيْنَ العِبَادَةِ وَالعَمَلِ، وَبَيْنَ الصَّلَاحِ وَالفَاعِلِيَّةِ، وَبَيْنَ الانْتِمَاءِ إِلَىٰ العَقِيدَةِ وَخِدْمَةِ الوَطَنِ، وَبَيْنَ قُوَّةِ الانْتِمَاءِ وَالعَدْلِ مَعَ المُخَالِفِ، وَتُسَخِّرُ العِلْمَ وَالقُوَّةَ وَالصِّحَّةَ وَالمَالَ فِي النَّفْعِ وَالإِصْلَاحِ.

وَبَعْدَ أَنْ يَبْنِيَ هَذَا الفَهْمَ وَيُوَضِّحَ هَذَا الطَّرِيقَ، يَخْتِمُ المَسَارَ بِالتَّجَرُّدِ وَالثَّبَاتِ وَالعَمَلِ؛ فَلَا يَطْلُبُ مِنَ الشَّابِّ أَنْ يَتَجَرَّدَ قَبْلَ أَنْ يَفْهَمَ وَيَخْتَارَ، وَإِنَّمَا يَبْدَأُ بِالفَهْمِ وَالدِّرَاسَةِ وَالاخْتِيَارِ، ثُمَّ إِذَا تَبَيَّنَتْ لَهُ الفِكْرَةُ وَاقْتَنَعَ بِهَا، طَالَبَهُ أَنْ يَثْبُتَ عَلَيْهَا، وَيَتَجَرَّدَ لَهَا، وَيَبْذُلَ جُهْدَهُ فِي خِدْمَتِهَا وَتَحْقِيقِ غَايَاتِهَا.

وَبِذَلِكَ تَكُونُ «**رِسَالَةُ إِلَىٰ الشَّبَابِ**» فِي جَوْهَرِهَا بَرْنَامَجًا تَرْبَوِيًّا لِتَكْوِينِ الشَّابِّ صَاحِبِ الرِّسَالَةِ؛ يَعْرِفُ مَسْؤُولِيَّتَهُ، وَيَفْهَمُ فِكْرَتَهُ، وَيُحْسِنُ اخْتِيَارَ طَرِيقِهِ، وَيَتَكَوَّنُ تَكْوِينًا شَامِلًا، وَيَتَجَاوَزُ هَمَّ ذَاتِهِ إِلَىٰ هَمِّ أُمَّتِهِ وَالنَّاسِ، وَيَثْبُتُ عَلَىٰ مَا اقْتَنَعَ بِهِ، وَيَبْذُلُ جُهْدَهُ فِي خِدْمَةِ رِسَالَتِهِ وَتَحْقِيقِ غَايَاتِهَا.

# رِسالَةُ «المؤتمرِ السادسِ»

الْمُنْعَقِدِ فِي الْحَادِي عَشَرَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ الْمُبَارَكِ سَنَةَ 1359هـ، الْمُوَافِقِ لِلتَّاسِعِ مِنْ يَنَايِرَ سَنَةَ 1941م.

تُمَثِّلُ **رِسَالَةُ المُؤْتَمَرِ السَّادِسِ** خِطَابَ الإِمَامِ حَسَنِ البَنَّا إِلَىٰ الإِخْوَانِ فِي مُؤْتَمَرِهِمُ السَّادِسِ، الَّذِي عُقِدَ بَعْدَ نَحْوِ عَامَيْنِ مِنَ المُؤْتَمَرِ الخَامِسِ، فِي ظِلِّ ظُرُوفٍ دَاخِلِيَّةٍ وَدَوْلِيَّةٍ مُضْطَرِبَةٍ، وَالحَرْبُ العَالَمِيَّةُ الثَّانِيَةُ تُلْقِي بِظِلَالِهَا عَلَىٰ مِصْرَ وَالعَالَمِ.

وَجَاءَتِ الرِّسَالَةُ لِتُعِيدَ بَيَانَ **هُوِيَّةِ دَعْوَةِ الإِخْوَانِ وَغَايَاتِهَا وَوَسَائِلِهَا**، وَتُزِيلَ مَا أَحَاطَ بِهَا مِنْ غُمُوضٍ فِي أَذْهَانِ بَعْضِ النَّاسِ؛ فَبَيَّنَ الإِمَامُ البَنَّا الغَايَةَ القَرِيبَةَ وَالغَايَةَ البَعِيدَةَ، وَشَخَّصَ أَوْجُهَ الخَلَلِ فِي الوَاقِعِ المِصْرِيِّ وَأَسْبَابَهَا وَطَرِيقَ الخَلَاصِ مِنْهَا، ثُمَّ حَدَّدَ وَسَائِلَ الإِصْلَاحِ، وَمَوْقِفَ الإِخْوَانِ مِنَ السِّيَاسَةِ وَالحُكُومَاتِ وَالأَحْزَابِ وَالهَيْئَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ، وَمِنَ الظُّرُوفِ السِّيَاسِيَّةِ وَالدَّوْلِيَّةِ القَائِمَةِ آنَذَاكَ[283].

(283) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة المؤتمر السادس]، ص 425.

## الرُّوحُ العَامَّةُ لِلرِّسَالَةِ

تَسْرِي فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ رُوحُ **الوُضُوحِ وَالمَسْؤُولِيَّةِ وَالانْضِبَاطِ فِي العَمَلِ**؛ فَالإِمَامُ البَنَّا يَحْرِصُ عَلَىٰ وُضُوحِ الغَايَةِ، وَانْضِبَاطِ الوَسِيلَةِ، وَفَهْمِ الوَاقِعِ، وَتَحْدِيدِ المَوْقِفِ مِنَ السِّيَاسَةِ وَالحُكْمِ وَالقُوَىٰ المُحِيطَةِ بِالدَّعْوَةِ.

وَتَجْمَعُ الرِّسَالَةُ بَيْنَ **بِنَاءِ الإِنْسَانِ، وَإِصْلَاحِ المُجْتَمَعِ، وَحُسْنِ إِدَارَةِ المَوْقِفِ السِّيَاسِيِّ**، مَعَ رُوحٍ وَاقِعِيَّةٍ تَنْظُرُ إِلَىٰ الظُّرُوفِ القَائِمَةِ وَتَسْتَشْرِفُ مَا بَعْدَهَا، مِنْ غَيْرِ أَنْ تَفْقِدَ الدَّعْوَةُ هُوِيَّتَهَا أَوْ تَنْحَرِفَ عَنْ غَايَتِهَا.

## مِفْتَاحُ الرِّسَالَةِ

وُضُوحُ الغَايَةِ، وَانْضِبَاطُ الوَسِيلَةِ، وَفِقْهُ الوَاقِعِ وَحُسْنُ إِدَارَةِ المَوْقِفِ السِّيَاسِيِّ.

## السِّيَاقُ التَّارِيخِيُّ للرِّسَالَةِ

مِنَ المَعْرُوفِ عَنْ رَسَائِلِ الأُسْتَاذِ الإِمَامِ حَسَنِ البَنَّا أَنَّهَا عَمَلٌ يُخَاطِبُ الوَاقِعَ، وَيُمْلِيهِ الوَاقِعُ كَذَلِكَ؛ وَمِنْ ثَمَّ لَا يَكْتَمِلُ فَهْمُ رِسَالَةِ المُؤْتَمَرِ السَّادِسِ مِنْ غَيْرِ وَضْعِهَا فِي سِيَاقِهَا التَّارِيخِيِّ وَالظُّرُوفِ الَّتِي أَحَاطَتْ بِهَا.

وَلِهَذَا المُؤْتَمَرِ خُصُوصِيَّةٌ تُمَيِّزُهُ عَنِ المُؤْتَمَرَاتِ الَّتِي سَبَقَتْهُ؛ فَهُوَ آخِرُ مُؤْتَمَرٍ عَامٍّ عَقَدَهُ الإِخْوَانُ فِي حَيَاةِ الإِمَامِ حَسَنِ البَنَّا، وَقَدِ انْعَقَدَ يَوْمَ **الخَمِيسِ، الحَادِي عَشَرَ مِنْ ذِي الحِجَّةِ المُبَارَكِ سَنَةَ 1359هـ، المُوَافِقِ لِلتَّاسِعِ مِنْ يَنَايِرَ سَنَةَ 1941م**، بِدَارِ الإِخْوَانِ المُسْلِمِينَ بِالحِلْمِيَّةِ فِي القَاهِرَةِ. وَجَاءَ المُؤْتَمَرُ فِي مَرْحَلَةٍ دَقِيقَةٍ، بَعْدَ أَنْ كَانَتِ الحَرْبُ العَالَمِيَّةُ الثَّانِيَةُ قَدِ انْدَلَعَتْ فِي **سِبْتَمْبَرَ** 1939م، وَأَلْقَتْ بِظِلَالِهَا عَلَىٰ مِصْرَ وَالعَالَمِ، وَهُوَ مَا عَبَّرَ عَنْهُ الإِمَامُ البَنَّا فِي أَوَّلِ الرِّسَالَةِ بِقَوْلِهِ إِنَّ «**مَخْزَنَ البَارُودِ**» قَدِ انْفَجَرَ، وَدَوَّىٰ فِي الأَرْضِ نَفِيرُ الحَرْبِ.

وَقَدْ سَبَقَ المُؤْتَمَرَ السَّادِسَ مَسَارٌ مِنَ المُؤْتَمَرَاتِ وَمَجَالِسِ الشُّورَىٰ الَّتِي كَشَفَتْ

عَنْ تَطَوُّرِ الجَمَاعَةِ وَنُمُوِّ بِنَائِهَا؛ فَعُقِدَ المُؤْتَمَرُ الأَوَّلُ فِي **صَفَرَ** 1352هـ / **مَايُو** 1933م بِالإِسْمَاعِيلِيَّةِ، وَانْصَبَّ جَانِبٌ مُهِمٌّ مِنْ أَعْمَالِهِ عَلَىٰ مُوَاجَهَةِ نَشَاطِ التَّبْشِيرِ. ثُمَّ عُقِدَ الاجْتِمَاعُ الثَّانِي لِمَجْلِسِ الشُّورَىٰ العَامِّ بِبُورْسَعِيدَ فِي 2–3 **شَوَّال** 1352هـ، **المُوَافِقِ** 19–20 **يَنَايِرَ** 1934م، وَنَاقَشَ جُمْلَةً مِنْ شُؤُونِ الدَّعْوَةِ وَوَسَائِلِ نَشْرِهَا وَتَنْظِيمِهَا.

ثُمَّ تَتَابَعَتْ هَذِهِ اللِّقَاءَاتُ، وَكَانَ مِنْ أَبْرَزِ مَا طُرِحَ فِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ وَرَقَةُ: «**إِلَىٰ أَيِّ مَدًىٰ وَصَلَ الإِخْوَانُ المُسْلِمُونَ، وَمَاذَا يُرِيدُونَ؟**»، وَهِيَ وَرَقَةٌ تَكْشِفُ عَنْ بُكُورِ مَعْنَىٰ مُرَاجَعَةِ المَسِيرَةِ وَتَقْوِيمِهَا فِي تَجْرِبَةِ الجَمَاعَةِ. ثُمَّ جَاءَ **المُؤْتَمَرُ الخَامِسُ**، الَّذِي عُقِدَ فِي **الثَّالِثِ عَشَرَ مِنْ ذِي الحِجَّةِ** 1357هـ، **المُوَافِقِ** 2 **فِبْرَايِرَ** 1939م، بِسَرَايِ آلِ لُطْفِ اللهِ بِالزَّمَالِكِ، بِمُنَاسَبَةِ مُرُورِ عَشْرِ سَنَوَاتٍ عَلَىٰ تَأْسِيسِ الدَّعْوَةِ. وَقَدْ مَثَّلَ هَذَا المُؤْتَمَرُ مَرْحَلَةً مُهِمَّةً فِي تَحْدِيدِ طَبِيعَةِ الدَّعْوَةِ وَغَايَاتِهَا وَوَسَائِلِهَا، ثُمَّ اتَّجَهَ العَمَلُ بَعْدَهُ إِلَىٰ البَحْثِ عَنِ الوَسَائِلِ العِلْمِيَّةِ وَالقَانُونِيَّةِ وَالدُّسْتُورِيَّةِ الَّتِي تُسْهِمُ فِي تَحْقِيقِ تِلْكَ الغَايَاتِ. وَقَدْ أَشَارَ الإِمَامُ البَنَّا نَفْسُهُ فِي أَوَّلِ رِسَالَةِ المُؤْتَمَرِ السَّادِسِ إِلَىٰ أَنَّ مُؤْتَمَرَهُمُ السَّابِقَ كَانَ قَبْلَ عَامَيْنِ.

وَبَعْدَ نَحْوِ عَامَيْنِ جَاءَ **المُؤْتَمَرُ السَّادِسُ**؛ لِيُوَاجِهَ مَرْحَلَةً أَكْثَرَ تَعْقِيدًا، وَلِيُعِيدَ بَيَانَ هُوِيَّةِ الدَّعْوَةِ وَغَايَاتِهَا وَوَسَائِلِهَا، وَمَوْقِفِهَا مِنَ السِّيَاسَةِ وَالحُكُومَاتِ وَالأَحْزَابِ وَالهَيْئَاتِ وَالظُّرُوفِ الدَّوْلِيَّةِ القَائِمَةِ. وَقَدْ صَرَّحَ الإِمَامُ البَنَّا بِأَنَّ المُؤْتَمَرَ جَاءَ لِمُرَاجَعَةِ صَفْحَةِ الأَعْمَالِ، وَتَبْيِينِ مَرَاحِلِ المِنْهَاجِ، وَالحَدِيثِ إِلَىٰ النَّاسِ عَنِ الدَّعْوَةِ مِنْ جَدِيدٍ.

وَقَدْ زَادَ مِنْ أَهَمِّيَّةِ هَذَا المُؤْتَمَرِ أَنَّهُ عُقِدَ فِي ظُرُوفٍ دَاخِلِيَّةٍ وَخَارِجِيَّةٍ عَصِيبَةٍ؛ فَإِلَىٰ جَانِبِ الحَرْبِ العَالَمِيَّةِ الثَّانِيَةِ وَمَا فَرَضَتْهُ مِنْ أَوْضَاعٍ سِيَاسِيَّةٍ وَعَسْكَرِيَّةٍ جَدِيدَةٍ عَلَىٰ مِصْرَ؛ ظَهَرَتْ فِي الدَّاخِلِ بَعْضُ الخِلَافَاتِ وَالانْشِقَاقَاتِ فِي صُفُوفِ الجَمَاعَةِ، وَمِنْ أَبْرَزِهَا خُرُوجُ جَمَاعَةِ «**شَبَابِ مُحَمَّدٍ**» عَنِ الإِخْوَانِ المُسْلِمِينَ، وَكَانَ يَرْأَسُهَا المُحَامِي مَحْمُودُ أَبُو زَيْدٍ عُثْمَان، وَكَتَبَ مَقَالًا بِعُنْوَانِ: «**الإِسْلَامُ يَدْعُو إِلَىٰ التَّطَرُّفِ**»، وَقَدْ رَأَىٰ أَنَّ وَسَائِلَ الإِخْوَانِ لَا تُحَقِّقُ الغَايَاتِ بِالسُّرْعَةِ المَطْلُوبَةِ، فَدَعَا إِلَىٰ الاسْتِعْجَالِ

وَالتَّشَدُّدِ، وَتَكْشِفُ هَذِهِ الوَاقِعَةُ خُطُورَةَ الخَلَلِ فِي فَهْمِ العَلَاقَةِ بَيْنَ الغَايَةِ وَالوَسِيلَةِ؛ فَقَدْ تَكُونُ الغَايَةُ مَشْرُوعَةً، وَلَكِنَّ الاسْتِعْجَالَ وَاخْتِيَارَ الوَسَائِلِ الخَاطِئَةِ قَدْ يَقُودَانِ إِلَىٰ نَتَائِجَ تُضِرُّ بِالدَّعْوَةِ وَبِالمُجْتَمَعِ.

وَلَمْ تَقِفِ الرِّسَالَةُ عِنْدَ بَيَانِ الغَايَةِ وَالوَسِيلَةِ، بَلْ قَدَّمَتْ تَشْخِيصًا لِلْوَاقِعِ المِصْرِيِّ فِي أَوَاخِرِ الثَّلَاثِينِيَّاتِ وَمَطْلَعِ الأَرْبَعِينِيَّاتِ؛ فَكَشَفَ الإِمَامُ البَنَّا مَا يُهَدِّدُ كِيَانَ الأُمَّةِ مِنْ دَاخِلِهَا، مِنْ فَقْرٍ وَجَهْلٍ وَمَرَضٍ وَضَعْفٍ وَتَفَكُّكٍ، وَمَا يُهَدِّدُهَا مِنْ خَارِجِهَا مِنْ هَيْمَنَةِ النُّفُوذِ الأَجْنَبِيِّ عَلَىٰ مَقَدَّرَاتِ البِلَادِ. وَاسْتَنَدَ فِي تَشْخِيصِهِ إِلَىٰ جُمْلَةٍ مِنَ الأَرْقَامِ وَالإِحْصَائِيَّاتِ، فَرَبَطَ بَيْنَ الإِصْلَاحِ الدَّاخِلِيِّ وَالتَّحَرُّرِ مِنَ الهَيْمَنَةِ الخَارِجِيَّةِ، حَتَّىٰ قَالَ: «**وَمَا مِنْ أَجْنَبِيٍّ هَبَطَ هَذَا البَلَدَ الأَمِينَ إِلَّا صَحَّ بَعْدَ مَرَضٍ، وَاغْتَنَىٰ بَعْدَ فَاقَةٍ، وَعَزَّ بَعْدَ ذِلَّةٍ**»....

وَمِنْ هُنَا تَتَبَدَّىٰ خُصُوصِيَّةُ رِسَالَةِ المُؤْتَمَرِ السَّادِسِ؛ فَهِيَ رِسَالَةٌ جَاءَتْ فِي **مَفْصِلٍ تَارِيخِيٍّ مِنْ مَسِيرَةِ الدَّعْوَةِ**، وَانْشَغَلَتْ بِوُضُوحِ الغَايَةِ، وَانْضِبَاطِ الوَسِيلَةِ، وَفَهْمِ الوَاقِعِ، وَتَحْدِيدِ المَوْقِفِ مِنَ السِّيَاسَةِ وَالحُكْمِ وَالقُوَىٰ المُحِيطَةِ بِالدَّعْوَةِ.

## مَحَاوِرُ شَرْحِ الرِّسَالَةِ

أَوَّلًا: هُوِيَّةُ الدَّعْوَةِ وَغَايَاتُهَا

1 – مَنْ هُمُ الإِخْوَانُ المُسْلِمُونَ وَمَا صِفَاتُ حَمَلَةِ الدَّعْوَةِ؟
2 – الغَايَةُ القَرِيبَةُ وَالغَايَةُ البَعِيدَةُ.
3 – الإِصْلَاحُ الشَّامِلُ وَمَوْقِعُ الأُمَّةِ وَالحُكُومَةِ فِيهِ.

ثَانِيًا: تَشْخِيصُ الوَاقِعِ وَمَنْهَجُ الخَلَاصِ

1 – مَظَاهِرُ الخَلَلِ وَالمَسْؤُولِيَّةُ عَنْهَا.
2 – إِصْلَاحُ النِّظَامِ وَتَحْرِيرُ الإِرَادَةِ.

ثَالِثًا: الوَسَائِلُ وَضَوَابِطُ العَمَلِ السِّيَاسِيِّ

1 – الإِقْنَاعُ وَالإِعْدَادُ وَالنِّضَالُ الدُّسْتُورِيُّ.
2 – مَنْهَجُ البَنَّا فِي العَمَلِ السِّيَاسِيِّ: قَضِيَّةُ الإِسْلَامِ لَيْسَتْ صِرَاعًا عَلَىٰ السُّلْطَةِ.
3 – المَوْقِفُ مِنَ الحُكُومَاتِ وَالأَحْزَابِ وَالهَيْئَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ.

## أَوَّلًا: هُوِيَّةُ الدَّعْوَةِ وَغَايَاتُهَا

### 1- الإِخْوَانُ المُسْلِمُونَ وَصِفَاتُ العَامِلِ فِي الدَّعْوَةِ

بَدَأَ الإِمَامُ البَنَّا حَدِيثَهُ فِي المُؤْتَمَرِ السَّادِسِ بِالسُّؤَالِ: « **مَنْ هُمُ الإِخْوَانُ المُسْلِمُونَ؟**»، وَلَمْ يَكُنْ مَقْصُودُهُ مُجَرَّدَ تَقْدِيمِ تَعْرِيفٍ تَنْظِيمِيٍّ بِالجَمَاعَةِ، وَإِنَّمَا بَيَانُ حَقِيقَتِهَا، وَالصِّفَاتِ الَّتِي قَامَتْ عَلَيْهَا، وَالَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تَبْقَىٰ حَاضِرَةً فِي أَفْرَادِهَا؛ وَلِذَلِكَ جَاءَ فِي تَرْتِيبِ الرِّسَالَةِ بَعْدَ هَذَا السُّؤَالِ الحَدِيثُ عَنْ: التَّجَرُّدِ، وَالفَهْمِ، وَالأُخُوَّةِ، وَالجِهَادِ، وَالتَّضْحِيَةِ، وَالإِخْلَاصِ.

فَالدَّعَوَاتُ لَا تَقُومُ بِمُجَرَّدِ الشِّعَارَاتِ وَالأَسْمَاءِ، وَإِنَّمَا تَقُومُ بِمَا يَحْمِلُهُ أَصْحَابُهَا مِنْ إِيمَانٍ وَفَهْمٍ وَتَجَرُّدٍ، وَمَا يَجْمَعُ بَيْنَهُمْ مِنْ أُخُوَّةٍ وَوَحْدَةٍ، وَمَا يَسْتَعِدُّونَ لِبَذْلِهِ مِنْ جُهْدٍ وَتَضْحِيَةٍ. وَلِهَذَا لَفَتَ الإِمَامُ البَنَّا إِخْوَانَهُ إِلَىٰ مَا تَوَافَرَ لِدَعْوَتِهِمْ مِنْ »الإِيمَانِ، وَالإِخْلَاصِ، وَالفَهْمِ، وَالوَحْدَةِ، وَالتَّأْيِيدِ، وَالتَّضْحِيَةِ«، وَوَصَفَ هَذِهِ الصِّفَاتِ بِأَنَّهَا دَعَائِمُ الدَّعَوَاتِ الصَّالِحَةِ، وَدَعَاهُمْ إِلَىٰ المُحَافَظَةِ عَلَيْهَا وَتَنْمِيَتِهَا فِي أَنْفُسِهِمْ.

فَالتَّجَرُّدُ يَعْنِي أَنْ يَتَحَرَّرَ صَاحِبُ الدَّعْوَةِ مِنْ حُظُوظِ النَّفْسِ وَالمَنَافِعِ الشَّخْصِيَّةِ، فَلَا يَعْمَلُ طَلَبًا لِجَاهٍ أَوْ مَظْهَرٍ أَوْ مَغْنَمٍ، وَإِنَّمَا يَكُونُ عَمَلُهُ لِلْفِكْرَةِ الَّتِي آمَنَ بِهَا وَالرِّسَالَةِ الَّتِي يَحْمِلُهَا. وَيَتَّصِلُ بِذَلِكَ الإِخْلَاصُ؛ إِذْ لَا تَسْتَقِيمُ الدَّعْوَةُ إِذَا تَحَوَّلَتْ إِلَىٰ وَسِيلَةٍ لِتَحْقِيقِ المَصَالِحِ الذَّاتِيَّةِ أَوِ التَّقَدُّمِ الشَّخْصِيِّ.

وَأَمَّا الفَهْمُ فَهُوَ الَّذِي يُحَوِّلُ الحَمَاسَةَ إِلَىٰ عَمَلٍ بَصِيرٍ؛ فَلَا يَكْفِي أَنْ يَكُونَ الإِنْسَانُ مُخْلِصًا مَا لَمْ يَعْرِفْ طَبِيعَةَ الدَّعْوَةِ الَّتِي يَحْمِلُهَا، وَغَايَتَهَا، وَوَسَائِلَهَا، وَالوَاقِعَ الَّذِي

يَتَحَرَّكُ فِيهِ. وَمِنْ هُنَا كَانَ وُضُوحُ الفِكْرَةِ شَرْطًا سَابِقًا عَلَىٰ سَلَامَةِ الحَرَكَةِ.

وَتَأْتِي الأُخُوَّةُ لِتَجْعَلَ حَمَلَةَ الدَّعْوَةِ كِيَانًا مُتَمَاسِكًا؛ فَلَا تَقُومُ النَّهَضَاتُ بِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الأَفْرَادِ المُتَنَاثِرِينَ، وَإِنَّمَا بِجَمَاعَةٍ يَجْمَعُهَا الشُّعُورُ بِالمُهِمَّةِ، وَالثِّقَةُ، وَالتَّكَافُلُ، وَتَحَمُّلُ بَعْضِهِمْ أَعْبَاءَ بَعْضٍ.

وَأَمَّا الجِهَادُ وَالتَّضْحِيَةُ فَهُمَا التَّعْبِيرُ العَمَلِيُّ عَنْ صِدْقِ الانْتِمَاءِ؛ لِأَنَّ حَمْلَ الدَّعَوَاتِ لَا يَخْلُو مِنْ مَشَقَّةٍ وَتَكَالِيفَ، وَلَا يَكْفِي فِيهِ الاقْتِنَاعُ النَّظَرِيُّ مَا لَمْ يَصْحَبْهُ اسْتِعْدَادٌ لِلْعَمَلِ وَالبَذْلِ وَتَحَمُّلِ تَبِعَاتِ الطَّرِيقِ.

وَيَتَّصِلُ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ مَا ذَكَرَهُ الإِمَامُ البَنَّا مِنْ مَظَاهِرِ الدَّعْوَةِ؛ فَقَدْ حَرَصَ الإِمَامُ البَنَّا عَلَىٰ أَنْ تَصِلَ دَعْوَتُهُ إِلَىٰ النَّاسِ بَسِيطَةً وَاضِحَةً، **فَجَعَلَ البَسَاطَةَ أَوَّلَ مَظَاهِرِ دَعْوَةِ الإِخْوَانِ المُسْلِمِينَ**، حِينَ قَالَ: »وَأَنْ تَجْمَعَ مَظَاهِرَهَا فِي خَمْسِ كَلِمَاتٍ أُخْرَىٰ: **البَسَاطَةُ، وَالتِّلَاوَةُ، وَالصَّلَاةُ، وَالجُنْدِيَّةُ، وَالخُلُقُ**«[284]؛ فَهَذِهِ المَعَانِي لَيْسَتْ مَظَاهِرَ جَانِبِيَّةً، وَإِنَّمَا تَتَّصِلُ بِتَكْوِينِ صَاحِبِ الدَّعْوَةِ وَإِعْدَادِهِ لِحَمْلِ أَعْبَائِهَا.

وَمِنْ هُنَا كَانَ الإِمَامُ البَنَّا حَرِيصًا عَلَىٰ تَرْبِيَةِ أَصْحَابِهِ عَلَىٰ البَسَاطَةِ، والتَّعَوُّدِ عَلَىٰ خُشُونَةِ العَيْشِ، وَتَحَمُّلِ المَشَقَّةِ، وَالصِّلَةِ بِالقُرْآنِ، وَالصَّلَاةِ، وَالجُنْدِيَّةِ، وَالخُلُقِ؛ لِأَنَّ حَمْلَ رِسَالَةٍ كَبِيرَةٍ يَحْتَاجُ إِلَىٰ شَخْصِيَّةٍ مُعَدَّةٍ لَهَا، قَادِرَةٍ عَلَىٰ الثَّبَاتِ أَمَامَ تَكَالِيفِهَا.

وَبِذَلِكَ يَتَبَيَّنُ أَنَّ مِنْ أَبْرَزِ مَا يُمَيِّزُ الإِخْوَانَ فِي تَصَوُّرِ الإِمَامِ البَنَّا صِفَاتُ العَامِلِ فِي الدَّعْوَةِ؛ **فَهُوَ يَفْهَمُ مَا يَحْمِلُ، وَيَتَجَرَّدُ لَهُ، وَيُخْلِصُ فِيهِ، وَيَرْتَبِطُ بِإِخْوَانِهِ، وَيَبْذُلُ مِنْ أَجْلِهِ، وَيَتَحَمَّلُ تَبِعَاتِهِ.**

## 2. الغَايَةُ القَرِيبَةُ وَالغَايَةُ البَعِيدَةُ

يقول الإمام البنا: «**هَلْ نَحْنُ قَومٌ غَامِضُونَ؟** أَيُّهَا الإِخْوَانُ المُسْلِمُونَ.. بَعْدَ اثْنَيْ عَشَرَ عَامًا مَضَتْ وَأَنْتُمْ تَجْهَرُونَ بِدَعْوَتِكُمْ وَتُبَلِّغُونَهَا لِلنَّاسِ، لَا زَالَ هُنَاكَ

(284) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة التعاليم]، ص 289.

فَرِيقٌ يَتَسَاءَلُ عَنِ الإِخْوَانِ المُسْلِمِينَ، وَيَرَاهُمْ أَمَامَهُ جَمَاعَةً غَامِضَةً، **فَهَلْ أَنْتُمْ قَومٌ غَامِضُونَ؟** وَسَأُجِيبُ عَلَىٰ هَذَا السُّؤَالِ بِصَراحَةٍ وَوُضُوحٍ. وَسَأَتَكَلَّمُ عَنْ غَايَةِ الإِخْوَانِ المُسْلِمِينَ، وَعَنْ وَسِيلَتِهِمْ وَعَنْ مَوقِفِهِمْ مِنَ الهَيئَاتِ المُخْتَلِفَةِ، وَعَنْ مَوقِفِهِمْ فِي هَذِهِ الظُّرُوفِ الحَاضِرَةِ التِي تُظَلِّلُ النَّاسَ حَوَادِثُهَا. وَكَثِيرٌ مِنْكُمْ أَحَاطَ بِذَلِكَ عِلْمًا، وَقَدْ سَبَقَ لَنَا أَنْ فَصَّلْنَاهُ فِي رَسَائِلِ الإِخْوَانِ وَكِتَابَاتِهِمْ وَمُحَاضَرَاتِهِمْ، وَإِنَّمَا نَذكُرُ ذَلِكَ الآنَ فِي إِيجَازٍ تَذكِرَةً لِلغَافِلِ وَتَعْلِيمًا لِمَنْ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ»(285).

وَمِنْ حِرْصِ الإِمَامِ البَنَّا عَلَىٰ **وُضُوحِ الغَايَةِ**، قَوْلُهُ: «يَعْمَلُ الإِخْوَانُ المُسْلِمُونَ لِغَايَتَينِ:

**غَايةٍ قَريبةٍ**: يَبدُو هَدَفُهَا، وَتَظهرُ ثَمرَتُها لأَوَّلِ يَومٍ يَنضَمُّ فِيهِ الفَرْدُ إِلَىٰ الجَماعَةِ، أَوْ تَظهَرُ الجَماعَةُ الإِخْوَانِيّةُ فِيهِ فِي مَيدَانِ العَملِ العَامِّ.

وَ**غَايةٍ بعيدة**: لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ تَرَقُّبِ الفُرصِ وَانْتِظَارِ الزَّمَنِ وَحُسْنِ الإِعْدَادِ وَسَبْقِ التَّكْوِينِ.

فَأَمَّا **الغَايَةُ الأُولَىٰ فَهِيَ المُسَاهَمَةُ فِي الخَيْرِ العَامِّ** أَيًّا كَانَ لَونُهُ وَنَوْعُهُ، وَالخِدْمَةُ الاجْتِمَاعِيّةُ كُلَّمَا سَمَحَتْ بِهَا الظُّرُوفُ. يَتَّصِلُ الأَخُ بِالإِخْوَانِ، فَيَكُونُ مُطَالَبًا بِتَطْهِيرِ نَفْسِهِ، وَتَقوِيمِ مَسْلَكِهِ، وَإِعْدَادِ رُوحِهِ وَعَقْلِهِ وَجِسْمِهِ لِلجِهَادِ الطَّوِيلِ الذِي يَنتَظِرُهُ فِي مُستَقْبَلِ الأَيَّامِ، ثُمَّ هُوَ مُطَالَبٌ بِأَنْ يُشِيعَ هَذِهِ الرُّوحَ فِي أُسْرَتِهِ وَأَصْدقَائِهِ وَبِيئَتِهِ، فَلا يَكُونُ الأَخُ أَخًا مُسْلِمًا حَقًّا حَتَّىٰ يُطَبِّقَ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَحكَامَ الإِسْلَامِ وَأَخْلَاقَ الإِسْلَامِ، وَيَقِفَ عِنْدَ حُدُودِ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ التِي جَاءَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ رَبِّهِ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس:7-10].

وَتَتَكَوَّنُ الجَماعَةُ مِنْ جَماعَاتِ الإِخْوَانِ، فَتتخِذُ دَارًا، وَتَعمَلُ عَلَىٰ تَعلِيمِ الأُمِّيينَ، وَتَلقِينِ النَّاسِ أَحْكَامَ الدِّينِ، وَتَقومُ بِالوَعْظِ وَالإِرْشَادِ وَالإِصْلاحِ بَينَ المُتخَاصِمِينَ،

(285) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة المؤتمر السادس]، ص 437.

وَإِقَامَةِ المُنشَآتِ النَّافِعَةِ مِنْ مَدارِسَ وَمَعاهِدَ وَمُستَوْصَفَاتٍ وَمَساجِدَ فِي حُدُودِ مَقدِرَتِهَا وَالظُّروفِ التِي تُحِيطُ بِهَا، وَكَثِيرٌ مِنْ شُعَبِ الإِخْوَانِ يَنهَضُ بِهذِهِ الوَاجِبَاتِ، وَيُؤَدِّيهَا عَلَىٰ حَالَةٍ مُرضِيَةٍ مِنْ حُسْنِ الأَدَاءِ.

فَهَلْ هَذَا هُوَ مَا يُرِيدُهُ الإِخْوَانُ المُسْلِمُونَ، وَيُجهِّزُونَ أَنفُسَهُمْ لَهُ وَيَأْخُذُونَها بِهِ؟!

لَا أَيُّهَا الإِخْوَانُ لَيسَ هَذَا كُلَّ مَا نُرِيدُ، هُوَ بَعضُ مَا نُرِيدُ ابتِغَاءَ مَرضَاةِ اللهِ، هُوَ الهَدَفُ الأَوَّلُ القَرِيبُ، صَرْفُ الوَقْتِ فِي طَاعَةٍ وَخَيرٍ حَتَّىٰ يَجِيءَ الظَّرْفُ المُنَاسِبُ وَتَحِينَ سَاعَةُ العَمَلِ لِلإِصْلَاحِ الشَّامِلِ المَنْشُودِ.

**أَمَّا غَايَةُ الإِخْوَانِ الأَسَاسِيَّةُ**، أَمَّا هَدَفُ الإِخْوَانِ الأَسْمَىٰ، أَمَّا الإِصْلَاحُ الَّذِي يُرِيدُهُ الإِخْوَانُ وَيُهَيِّئُونَ لَهُ أَنْفُسَهُمْ، **فَهُوَ إِصْلَاحٌ شَامِلٌ كَامِلٌ، تَتَعَاوَنُ عَلَيْهِ قُوَىٰ الأُمَّةِ جَمِيعًا، وَتَتَّجِهُ نَحْوَهُ الأُمَّةُ جَمِيعًا، وَيَتَنَاوَلُ كُلَّ الأَوْضَاعِ القَائِمَةِ بِالتَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ**»[286].

وَيَتَّضِحُ مَضْمُونُ هَذَا الإِصْلَاحِ الشَّامِلِ فِي قَوْلِهِ: «**وَالإِخْوَانُ المُسْلِمُونَ يَعْمَلُونَ لِيَتَأَيَّدَ النِّظَامُ بِالإِمَامِ، وَلِتَحْيَا مِنْ جَدِيدٍ دَوْلَةُ الإِسْلَامِ، وَلِتَشْمَلَ بِالنَّفَاذِ هَذِهِ الأَحْكَامُ، وَلِتَقُومَ فِي النَّاسِ حُكُومَةٌ مُسْلِمَةٌ، تُؤَيِّدُهَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ، تُنَظِّمُ حَيَاتَهَا شَرِيعَةٌ مُسْلِمَةٌ**»[287].

فَالغَايَةُ عِنْدَهُ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ إِصْلَاحٍ فَرْدِيٍّ أَوْ خِدْمَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ، وَلَا مُجَرَّدَ وُصُولٍ إِلَىٰ الحُكْمِ، وَإِنَّمَا **إِقَامَةُ نِظَامٍ إِسْلَامِيٍّ تَحْمِلُهُ أُمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ بِهِ، وَتَقُومُ الحُكُومَةُ فِيهِ بِوَظِيفَةِ التَّنْفِيذِ وَالحِمَايَةِ.**

وَمِنْ هُنَا كَانَ وُضُوحُ الغَايَةِ عِنْدَ الإِمَامِ البَنَّا مُرْتَبِطًا بِحُسْنِ الإِعْدَادِ لَهَا؛ فَالغَايَةُ البَعِيدَةُ لَا تُنَالُ بِالعَجَلَةِ، بَلْ بِالتَّكْوِينِ، وَإِعْدَادِ الفَرْدِ وَالمُجْتَمَعِ، وَاسْتِجْمَاعِ قُوَىٰ الأُمَّةِ، حَتَّىٰ يَكُونَ التَّغْيِيرُ نَابِعًا مِنْ أُمَّةٍ وَاعِيَةٍ بِغَايَتِهَا وَمُسْتَعِدَّةٍ لِحَمْلِ تَبِعَاتِهَا.

(286) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة المؤتمر السادس]، ص 432.
(287) السابق، ص 433.

وَمَتَىٰ اتَّضَحَتِ الغَايَةُ فِي نَفْسِ العَامِلِ لِلدَّعْوَةِ، هَانَ عَلَيْهِ مَا يَلْقَاهُ فِي سَبِيلِهَا، وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَتَقَبَّلَ نَتَائِجَ طَرِيقِهِ بِثَبَاتٍ وَجَلَدٍ. وَأَذْكُرُ قِصَّةً حَدَثَتْ مَعِي فِي السِّجْنِ الحَرْبِيِّ، إِبَّانَ مِحْنَةِ عَامِ 1965م:

حَيْثُ كَانَ مَعِي أَخٌ لَبَّانٌ فَقِيرٌ اسْمُهُ إِسْمَاعِيلُ عَبْدُ العَالِ، مِنْ قَرِيةٍ بَسِيطَةٍ فِي دميَاطَ تَعَلَّمْتُ مِنْهُ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً مَعَ أَنَّنِي كُنْتُ أَرَانِي عَلَىٰ قدرٍ كَبِيرٍ؛ حَيثُ تَعلمتُ الكَثِيرَ وَقَرأْتُ أَكْثَرَ مِنْ 40 كِتابًا كُلُّها مِنْ كُتُبِ الإِمَامِ وَرَسائلِهِ، وَكُتُبِ الأستَاذِ مُحمَّد قُطْبْ، وغَيرِهَا، وَمَع ذَلِكَ تَعلَّمْتُ مِنْ هَذَا الأخِ مَا يَجْعَلُنِي أَحْمِلُ التَّبِعَاتِ. لَقَدْ سَألتُ الأخَ إِسْمَاعِيل: «أَتظُنُّ أَنْ الأَحْكَامَ سَتكُونَ قَاسِيَة؟»، قُلْتُ لَه ذَلِكَ لأَطمَئِنَّ عَلَىٰ نَفْسِي، فَردَّ عليَّ الأَخُ وَقَالَ: «اللِّي دَفَعْ قِرْش زَي اللِّي ضَرَبْ قُنبلَة»، فَكَانَ هَذَا تَقْويمُهُ وَإِحسَاسُهُ بِمَا قَامَ بِهِ، وَكَانَ الأَخُ إِسْمَاعِيلُ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ نَقِيبَ أُسْرَةٍ فِي الفَلَّاحِينَ، وَلَكِنْ كَانَ هَذَا إِحْسَاسُهُ بِنَظْرَةِ الخصُومِ إِلَيْهِ فَلا تُهوِّنْ عَلَىٰ نَفْسِكَ فَقَدْ قَالَ: «القَضِيَّةُ الَّتِي دَخَلْتُ فِيهَا عَمِلْتُ أَوْ لَمْ أَعْمَلْ فَهِيَ طَرِيقِي، فَإِنَّهُمْ إِذَا حَكَمُوا عَلَيَّ بِسَنَةٍ أَوْ اثْنَتَينِ لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُرِيَ النَّاسَ وَجْهِي.. فَهَلْ نَحنُ سَرَقْنَا «مِعْزَة»، إِنَّما نُرِيدُ صَلاحَ العَالَمِ» .. هَذَا هُوَ مُثقَّفُ الفِكْرِ (إِحْدَىٰ الصِّفَاتِ الْعَشْرِ لِلْفَرْدِ الْمُسْلِمِ).

الرجُلُ صَدَقَ اللهَ فَصَدقَهُ وَحُكِمَ عَلَيهِ بـ(25) سَنَةً، مَعَ أَنّه لَمْ يَفعَلْ شَيئًا، فَهُوَ نَقِيبُ أُسْرَةٍ فَلاحَةٍ صَغِيرَةٍ زُمَلاء فِي الطَّرِيقِ، وَلَكِنْ كَانَ مَوقِفُه فِي المَحكمَةِ وَإِحْسَاسُهُ بِالمَسؤُولِيَّةِ، ومَكَانتُه حَوْلَ رِسَالَتِهِ وَالدَّوْرِ الذِي هَيّأَ نَفسَهُ لَهُ، هَذِهِ هِيَ القِمَّةُ.. هَذَا مَا جعلَ خُصومَهُ يَحكُمُونَ عَلَيهِ.

فَعِنْدَمَا تَتَدَاعَىٰ الأُمَّةُ، وَتَفْقِدُ إِرَادَتَهَا، وَتَنْبَهِرُ بِخَصْمِهَا حَتَّىٰ تُقَلِّدَهُ فِي خَطَئِهِ وَصَوَابِهِ، تَبْقَىٰ فِيهَا قِلَّةٌ تَحْمِلُ المُثُلَ العُلْيَا، وَتَدْعُو إِلَىٰ المَعْرُوفِ وَالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ، وَتَثْبُتُ عَلَىٰ مَبْدَئِهَا مَهْمَا لَقِيَتْ مِنْ إِكْرَاهٍ. وَصَوْتُ ضَمِيرِهَا يُعْلِنُ: «لَا أَفْعَلُ الشِّرْكَ»، مِثْلَمَا قَالَ سَيِّدُنَا بِلَالٌ رضي الله عنه: «أَحَدٌ أَحَدٌ»؛ أَيْ: مَهْمَا أَكْرَهْتُمُونِي لَنْ أَحِيدَ عَنْ مِنْهَاجِ رَبِّي أَبَدًا.

فَالخَصْمُ يُحَاوِلُ أَنْ يُغَيِّبَكَ – بِقَدْرِ مَا يَسْتَطِيعُ – عَنِ المَكَانَةِ وَالعَمَلِ الَّذِي تُرِيدُ أَنْ

تَقُومَ بِهِ، وَعَنِ الدَّوْرِ الَّذِي يَنْتَظِرُكَ، وَالغَايَةِ الَّتِي رُشِّحْتَ لَهَا. وَلِذَلِكَ حَرَصَ الإِمَامُ البَنَّا عَلَىٰ أَنْ يَرْتَقِيَ بِهِمَمِ إِخْوَانِهِ، وَأَنْ يُشْعِرَهُمْ بِعِظَمِ الغَايَةِ الَّتِي رُشِّحُوا لَهَا؛ لِأَنَّهُ يُدْرِكُ أَنَّهُمْ مُرَشَّحُونَ لِغَايَةٍ عَظِيمَةٍ وَأَمْرٍ جَلَلٍ.

يَقُولُ الإِمَامُ البَنَّا: «وَإِنَّمَا ضَرَبْنَا لَكَ هَذَا المَثَلَ لِتَرْقَىٰ بِنَفْسِكَ عَنْ مَوَاطِنِ التَّقْلِيدِ فِي التَّوْحِيدِ، وَتُعْمِلَ الفِكْرَةَ فِي تَفَهُّمِ عَقِيدَتِكَ، وَتَسْتَعِينَ بِطَاعَةِ مَوْلَاكَ فِي مَعْرِفَةِ أُصُولِ دِينِكَ، حَتَّىٰ تَصِلَ إِلَىٰ مَرَاتِبِ الرِّجَالِ، وَتَتَرَقَّىٰ فِي مَدَارِجِ الكَمَالِ.

قَدْ رشَّحُوكَ لَأَمْرٍ إِنْ فَطِنْتَ لَهُ
فَارْبَأْ بِنَفْسِكَ أَنْ تَرْعَىٰ مَعَ الهَمَلِ[288]»

## 3-الإِصْلَاحُ الشَّامِلُ وَمَوْقِعُ الأُمَّةِ وَالحُكُومَةِ فِيهِ

وَيَكْشِفُ قَوْلُ الإِمَامِ البَنَّا: «**وَلِتَقُمْ فِي النَّاسِ حُكُومَةٌ مُسْلِمَةٌ، تُؤَيِّدُهَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ**»[289] عَنْ مَوْقِعِ الحُكُومَةِ فِي مَشْرُوعِهِ الإِصْلَاحِيِّ؛ فَالحُكُومَةُ لَيْسَتْ مَعْزُولَةً عَنِ الأُمَّةِ، وَلَا يَكْفِي فِي إِقَامَةِ النِّظَامِ المَنْشُودِ مُجَرَّدُ الوُصُولِ إِلَىٰ الحُكْمِ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ أُمَّةٍ تَحْمِلُ هَذَا المَشْرُوعَ، وَتُؤْمِنُ بِهِ، وَتُهَيَّأُ لِإِقَامَتِهِ وَحِمَايَتِهِ.

**القُوَّةُ الحَقِيقِيَّةُ**: لَمْ يَكُنِ الوُصُولُ إِلَىٰ الحُكْمِ فِي حَدِّ ذَاتِهِ غَايَةً عِنْدَ الإِمَامِ البَنَّا، وَإِنَّمَا كَانَتْ غَايَتُهُ إِصْلَاحَ الأُمَّةِ وَالنُّهُوضَ بِهَا مِنْ كَبْوَتِهَا؛ وَالحُكْمُ فِي هَذَا التَّصَوُّرِ وَسِيلَةٌ مِنْ وَسَائِلِ الإِصْلَاحِ، تَسْبِقُهَا مَرَاحِلُ مِنْ إِعْدَادِ الأُمَّةِ، وَتَرْبِيَةِ نُفُوسِهَا، وَتَكْوِينِ الرَّأْيِ العَامِّ الَّذِي يَحْمِلُ فِكْرَةَ الإِصْلَاحِ وَيُؤْمِنُ بِهَا.

وَمِنْ كَلِمَاتِهِ الرَّاشِدَةِ فِي بَيَانِ مَوْقِفِ الإِخْوَانِ مِنَ الحُكْمِ قَوْلُهُ: «وَمَعَ هَذَا فَالإِخْوَانُ المُسْلِمُونَ أَعْقَلُ وَأَحْزَمُ مِنْ أَنْ يَتَقَدَّمُوا لِمُهِمَّةِ الحُكْمِ وَنُفُوسُ الأُمَّةِ عَلَىٰ هَذَا الحَالِ، فَلَا بُدَّ مِنْ فَتْرَةٍ تَنْتَشِرُ فِيهَا مَبَادِئُ الإِخْوَانِ وَتَسُودُ، وَيَتَعَلَّمُ فِيهَا الشَّعْبُ

(288) حسن البنا: **العقائد**، مطبعة دار الكتاب العربي، القاهرة، 1371هـ - 1951م، ص 9. وهَذَا البَيْتُ، هُوَ آخِرُ أَبْيَاتِ قَصِيدَةِ الطِّغْرَائِيِّ، رَحِمَهُ اللهُ، الشَّهِيرَةِ بِـ (لَامِيَّةِ العَجَمِ)، **رَشَّحُوكَ**: أَيْ رَبُّوكَ وَأَهَّلُوكَ، **وَالفِطْنَةُ**: الفَهْمُ، **وَالهَمَلُ** (بالتحريك): الإِبِلُ بِلَا رَاعٍ.

(289) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة المؤتمر السادس]، ص 439.

كَيْفَ يُؤْثِرُ المَصْلَحَةَ العَامَّةَ عَلَىٰ المَصْلَحَةِ الخَاصَّةِ « (290) ؛ فَإِنَّ الْأُمَّةَ كَثِيرَةَ الذُّنُوبِ يَكُونُ الحُكْمُ فِيهَا عَلَىٰ هَذِهِ الحَالَةِ مَغْرَمًا لَا مَغْنَمًا؛ لِأَنَّهُ يُظْهِرُ أَسْوَأَ أَخْلَاقِهَا؛ فَلِذَلِكَ حَرَصَ الإِمَامُ البَنَّا عَلَىٰ أَنْ يُقَدِّمَ المَصْلَحَةَ العَامَّةَ عَلَىٰ الخَاصَّةِ.

وَقَدْ يُغْنِي عَنِ المُنَافَسَةِ عَلَىٰ الحُكْمِ بَعْضُ المُطَالَبَاتِ فِي بَرْلَمَانٍ أَوْ مَا أَشْبَهَهُ، مِنْ غَيْرِ الدُّخُولِ فِي صِدَامٍ عَنِيفٍ مَعَ الدَّوْلَةِ. وَيُمْكِنُ لِلدَّعْوَةِ أَنْ تُمَارِسَ نَشَاطَهَا بَعِيدًا عَنِ القُوَّةِ المُسَلَّحَةِ وَالعُنْفِ، وَلَا سِيَّمَا أَنَّ مَشْرُوعَهَا طَوِيلُ الأَمَدِ. وَحِينَ تَتَكَوَّنُ لَدَيْهَا قُوَّةٌ جَمَاهِيرِيَّةٌ وَاعِيَةٌ، فَإِنَّ هَذِهِ الجَمَاهِيرَ هِيَ الَّتِي تَحْمِلُ مَبَادِئَ الدَّعْوَةِ وَتُطَالِبُ بِهَا؛ لِأَنَّهَا تَرَبَّتْ عَلَىٰ مَفَاهِيمِ الدِّينِ وَالأَخْلَاقِ، وَصَارَتْ تُؤْمِنُ بِهَا وَتَسْعَىٰ إِلَىٰ تَحْقِيقِهَا مِنْ ذَاتِهَا، مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَىٰ فَرْضِهَا عَلَيْهَا مِنَ الخَارِجِ.

وَيَجِبُ أَنْ تَصِلَ هَذِهِ الرِّسَالَةُ إِلَىٰ رَجُلِ الشَّارِعِ العَادِيِّ وَأَنْ يَعِيَهَا؛ لِأَنَّهُ آلَةُ التَّشْرِيعِ وَالتَّنْفِيذِ، وَوَسِيلَةُ نَقْلِ رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ، بَلْ يَجِبُ أَنْ تَصِلَ إِلَىٰ جُمْهُورِ الأُمَّةِ؛ فَهُوَ المُكَافِحُ مَعَكَ مِنْ تَحْتِ قُبَّةِ البَرْلَمَانِ، فَإِمَّا أَنْ يُسْتَجَابَ لِمَطَالِبِكَ، وَإِمَّا أَنْ تُمْنَعَ أَصْلًا كَمَا يَحْدُثُ الآنَ؛ وَحِينَئِذٍ سَيَكُونُ مَعَكَ جُمْهُورٌ تُكَافِحُ بِهِ وَيُسَانِدُكَ؛ فَهَذِهِ هِيَ قُوَّةُ الجَمَاهِيرِ الَّتِي تُسَاعِدُكَ وَتُسَانِدُكَ، مَا دُمْتَ تَتَحَدَّثُ بِلِسَانِ الدِّينِ، وَتُعَبِّرُ عَنْ تَطَلُّعَاتِهَا وَآمَالِهَا، وَتَتَبَنَّىٰ قَضَايَاهَا وَتُدَافِعُ عَنْهَا، وَيَعْلَمُ النَّاسُ صِدْقَ ذَلِكَ مِنْ مَوَاقِفِكَ وَحَيَاتِكَ الخَاصَّةِ وَالعَامَّةِ.

وَهَذَا هُوَ المَعْنَىٰ الَّذِي يُفَسِّرُ تَقْدِيمَ الإِمَامِ البَنَّا بِنَاءَ الأُمَّةِ عَلَىٰ مُجَرَّدِ المُنَافَسَةِ عَلَىٰ السُّلْطَةِ؛ فَالقُوَّةُ الحَقِيقِيَّةُ لِلْمَشْرُوعِ لَيْسَتْ فِي امْتِلَاكِ أَدَوَاتِ الحُكْمِ وَحْدَهَا، وَإِنَّمَا فِي وُجُودِ أُمَّةٍ وَاعِيَةٍ بِمَبَادِئِهِ، مُؤْمِنَةٍ بِهَا، وَمُسْتَعِدَّةٍ لِحَمْلِهَا.

فِي عَامِ 1961م، عِندَمَا أَقَامَ الرئِيسُ جَمالُ عَبدِ النَّاصرِ مُؤتَمرًا قَوْميًّا، وَتكَلَّمَ فِيهِ الشيخُ مُحمَّدُ الغَزالِيّ عَنْ لِبَاسِ المَرأَةِ، وَدَعَا لِلاحْتِشَامِ عِيَانًا أَمَامَ الجَمِيعِ، فَمَا كَانَ مِنْ صَلاحِ جَاهِينَ رَسَّامِ الكَارِيكَاتِيرِ المَشْهورِ بِجَرِيدَةِ «الأَهْرَامِ»، إِلَّا أَنْ خَصَّصَ فِي اليَوْمِ التَّالِي مُباشَرةً، صَفْحةً كَامِلَةً لِلسُّخْرِيَةِ مِنَ الشَّيْخِ الغَزالِيّ. كَانَ المُؤتَمَرُ يَومَ

(290) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة المؤتمر الخامس] ص 356.

الخَمِيسِ وَظَهرَتِ الجَرِيدَةُ صَباحِ الجُمُعَةِ؛ فَخرَجَتِ الجَمَاهِيرُ (عِدَّة آلَافٍ) بَعدَ صَلاةِ الجُمعَةِ مِنْ مَسْجِدَيْ الأَزْهَرِ وَالحُسَينِ وَدُونَ أَيِّ تَوْجِيهٍ أَوْ دَعْوةٍ؛ فَلَمْ تَكُنْ هُنالِكَ أَيَّةُ قُوةٍ لِلإِخْوَانِ عَلَىٰ السَّاحَةِ تَحُثُّ الناسَ وَتَدعُوهُم إِلَىٰ ذَلِكَ العَمَلِ.. خرجُوا يَهتِفُونَ: «صَلَاح جَاهِينْ .. عَدُوّ الدِّينْ»، وَمَزّقُوا الجَرِيدَةُ، وَمَشَوْا مَسافةً كَبِيرَةً حَتَّىٰ وَصَلُوا إِلَىٰ مَبْنَىٰ الأَهرَامِ، يَقْذِفُونَه بِالحِجَارَةِ، وَاستَمَرُّوا عَلَىٰ ذَلِكَ حَتَّىٰ جَاءَتِ الشُّرطَةُ وَفَرّقَتْهُمْ وَاعتقَلَتْ مَنِ اعتَقَلَتْ مِنهُمْ، وَكَانَ أَحدُ المُعتقَلِينَ وَاحِدًا مِنَ الإِخوَانِ، كُلُّ هَذَا لِأَنَّ صَلَاحَ جَاهِين سَخِرَ مِنَ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ الغَزَالِيِّ، وَتَجَاوَزَ ذَلِكَ إِلَىٰ السُّخْرِيَةِ مِنَ الدِّينِ نَفْسِهِ. وَهَذِهِ المُظَاهَرَةُ خَرجَتْ تِلقَائِيّةً، لأَنَّ رَجُلَ الشَّارِعِ رَأَىٰ فيمَا فَعَلَهُ صَلاحُ جَاهِين عُدْوَانًا عَلَىٰ دِينِهِ وَعَقِيدَتِهِ، فَقَامَ يُدافِعُ عَنْهُمَا.

## ثَانِيًا: تَشْخِيصُ الوَاقِعِ وَمَنْهَجُ الخَلَاصِ

### 1-مَظَاهِرُ الخَلَلِ وَالمَسْؤُولِيَّةُ عَنْهَا

لَمْ يَقِفِ الإِمَامُ البَنَّا عِنْدَ بَيَانِ الغَايَةِ الَّتِي تَسْعَىٰ إِلَيْهَا الدَّعْوَةُ، بَلْ انْتَقَلَ إِلَىٰ **تَشْخِيصِ الوَاقِعِ الَّذِي يُرَادُ إِصْلَاحُهُ**، فَكَشَفَ عَنْ جُمْلَةٍ مِنَ المَظَاهِرِ الاجْتِمَاعِيَّةِ وَالاقْتِصَادِيَّةِ وَالإِدَارِيَّةِ الَّتِي أَصَابَتِ المُجْتَمَعَ، وَحَاوَلَ أَنْ يَنْفُذَ مِنْ هَذِهِ المَظَاهِرِ إِلَىٰ أَصْلِ الدَّاءِ وَمَسْؤُولِيَّةِ الحَاكِمِ وَالمَحْكُومِ عَنْهُ.

فَقَدْ أَشَارَ إِلَىٰ انْتِشَارِ الجَهْلِ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ ضَعْفٍ وَعْيِ الأُمَّةِ بِحُقُوقِهَا، وَقُدْرَتِهَا عَلَىٰ تَقْرِيرِ مَصِيرِهَا، وَإِلَىٰ **أَثَرِ الظُّلْمِ وَالاسْتِبْدَادِ فِي إِفْسَادِ النُّفُوسِ وَالأَخْلَاقِ**. وَيَتَّفِقُ هَذَا المَعْنَىٰ مَعَ مَا قَرَّرَهُ ابْنُ خَلْدُونَ فِي حَدِيثِهِ عَنْ أَثَرِ الحُكْمِ القَاهِرِ فِي الرَّعِيَّةِ، فَقَالَ: «**فَإِنَّ المَلِكَ إِذَا كَانَ قَاهِرًا بَاطِشًا بِالعُقُوبَاتِ، مُنَقِّبًا عَنْ عَوْرَاتِ النَّاسِ وَتَعْدِيدِ ذُنُوبِهِمْ، شَمِلَهُمُ الخَوْفُ وَالذُّلُّ، وَلَاذُوا مِنْهُ بِالكَذِبِ وَالمَكْرِ وَالخَدِيعَةِ فَتَخَلَّقُوا بِهَا، وَفَسَدَتْ بَصَائِرُهُمْ وَأَخْلَاقُهُمْ**...»[291].

وَمِنْ هُنَا كَانَتْ مُوَاجَهَةُ الظُّلْمِ وَتَقْوِيمُ الحُكَّامِ مِنْ وَظَائِفِ الإِصْلَاحِ؛ وَفِي الحَدِيثِ

(291) عبد الرحمن بن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**، حقق نصوصه، وخرج أحاديثه، وعلق عليه عبد الله محمد الدرويش، ط 1، دار البلخي – دمشق، 1425هـ – 2004م، 1/ 362.

أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الجِهَادِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: «**كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ**»(292) وَهَذَا مَا نَرَاهُ مِنَ انعِكَاسِ الظُّلْمِ عَلَىٰ الشُّعُوبِ وَالجمَاعَاتِ؛ حَيثُ يُؤدِّي إِلَىٰ فَسَادِ البصَائِرِ وَالأَخْلاقِ.

وَكَذَلِكَ نَبَّهَ الإِمَامُ البَنَّا إِلَىٰ خُطُورَةِ الفَقْرِ وَإِفْقَارِ الشُّعُوبِ، وَأَثَرِ ذَلِكَ فِي كَرَامَةِ الإِنْسَانِ وَوَعْيِهِ بِوَطَنِهِ وَأُمَّتِهِ، فَقَالَ: «**فَكَيْفَ يَشْعُرُ إِنْسَانٌ هَذِهِ حَالُهُ بِكَرَامَتِهِ الإِنْسَانِيَّةِ، أَوْ يَعْرِفُ مَعْنَىٰ العَاطِفَةِ القَوْمِيَّةِ وَالوَطَنِيَّةِ، وَهُوَ بِبَلَدٍ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجِدَ فِيهِ القُوتَ؟ وَلَقَدِ اسْتَعَاذَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الفَقْرِ، وَقَدِيمًا قِيلَ: يَكَادُ الفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا**»(293).

وَلَمْ يَكُنْ تَشْخِيصُ الإِمَامِ البَنَّا لِهَذَا الخَلَلِ مَقْصُورًا عَلَىٰ مَظَاهِرِهِ المَادِّيَّةِ؛ بَلْ رَبَطَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الخَلَلِ فِي بِنَاءِ النُّفُوسِ وَالأَخْلاقِ.

وَقَدْ سَبَقَ أَنْ أَجْمَلَ هَذَا المَعْنَىٰ فِي خَاتِمَةِ المُؤْتَمَرِ الخَامِسِ، فَقَالَ: «وَلَوْلَا أَنَّ الدَّاءَ يَنْحَصِرُ فِي وَاحِدَةٍ، هِيَ: ضَعْفُ الأَخْلاقِ، وَفِقْدَانُ المُثُلِ العُلْيَا، وَإِيثَارُ المَصْلَحَةِ الخَاصَّةِ عَلَىٰ المَصْلَحَةِ العَامَّةِ، وَالجُبْنُ عَنْ مُوَاجَهَةِ الحَقَائِقِ، وَالهُرُوبُ مِنْ تَبِعَاتِ العِلَاجِ، وَالفُرْقَةُ قَاتَلَهَا اللهُ... هَذَا هُوَ الدَّاءُ، وَالدَّوَاءُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ أَيْضًا هِيَ ضِدُّ هَذِهِ الأَخْلَاقِ، هِيَ عِلَاجُ النُّفُوسِ أَيُّهَا الإِخْوَانُ، وَتَقْوِيمُ أَخْلَاقِ الشَّعْبِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾»(294).

فَشَخَّصَ العِلَلَ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَىٰ تَدَاعِي الأُمَمِ؛ فَالأُمَمُ تَدْخُلُ التَّارِيخَ إِذَا كَانَتْ كَرِيمَةَ الأَخْلَاقِ، وَإِنْ كَانَتْ فِي نُدْرَةٍ مِنَ الأَشْيَاءِ، وَتَسْقُطُ مِنَ التَّارِيخِ وَإِنْ كَانَتْ وَافِرَةً فِي الأَشْيَاءِ، لَكِنَّهَا سَيِّئَةُ الأَخْلَاقِ. وَيَتَّضِحُ ذَلِكَ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ عَطِيَّةَ، قَالَتْ: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نُخْرِجَهُنَّ فِي الفِطْرِ وَالأَضْحَىٰ، العَوَاتِقَ وَالحُيَّضَ وَذَوَاتِ الخُدُورِ... قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِحْدَانَا لَا يَكُونُ لَهَا جِلْبَابٌ. قَالَ: لِتُلْبِسْهَا أُخْتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا»(295). وَهَذَا

(292) أخرجه النسائي (161/ 7) واللفظ له، وأحمد في المسند (315/ 4)، والدولابي في الكنىٰ والأسماء(1/ 238) باختلاف يسير.
(293) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة المؤتمر السادس]، ص 441.
(294) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة المؤتمر الخامس]، ص 375.
(295) أخرجه مسلم (883)، والبخاري (351، 1278) مفرقًا باختلاف يسير.

الحَدِيثُ يُعَبِّرُ عَنْ نُدْرَةٍ فِي الأَشْيَاءِ، وَوَفْرَةٍ فِي الأَخْلَاقِ؛ وَهِيَ الوَفْرَةُ الَّتِي تَصْنَعُ قُوَّةَ الأُمَّةِ وَتَمَاسُكَهَا.

وَهَذَا مَا جَعَلَ أُمَّةَ الإِسْلَامِ تَدْخُلُ التَّارِيخَ، وَهَذَا مَا عَنَاهُ الإِمَامُ البَنَّا بِأَصْلِ الدَّاءِ؛ **فَعِنْدَمَا تَضِيعُ الأَخْلَاقُ تَضِيعُ الأُمَّةُ.**

**وَتَرْبِيَةُ الأُمَّةِ عَلَىٰ الأَخْلَاقِ هُوَ مَا رَكَّزَ عَلَيْهِ المُصْلِحُونَ قَبْلَ الإِمَامِ البَنَّا؛** عِنْدَمَا صَارُوا بِالأُمَّةِ إِلَىٰ التَّعْلِيمِ وَتَهْذِيبِ النُّفُوسِ. وَقَدْ أَشَارَ الإِمَامُ البَنَّا إِلَىٰ مُحَاوَلَةِ هَؤُلَاءِ المُصْلِحِينَ **تَرْبِيَةَ الأُمَّةِ وَإِعْدَادَهَا** حَتَّىٰ لَا تَلِينَ لَهَا قَنَاةٌ، وَتَقِفَ فِي وَجْهِ المُسْتَعْمِرِ، وَتَتَخَلَّصَ مِنْ تِلْكَ العَادَاتِ الَّتِي لَحِقَتْ بِهَا[296]؛ إِذْ كَانَ الإِمَامُ البَنَّا يَعْلَمُ جَيِّدًا أَنَّ سَبِيلَ الخُرُوجِ مِنْ هَذَا السُّقُوطِ هُوَ **التَّهْذِيبُ الأَخْلَاقِيُّ.**

وَلَمْ يَجْعَلِ الإِمَامُ البَنَّا مَسْؤُولِيَّةَ هَذَا الوَاقِعِ عَلَىٰ الحُكَّامِ وَحْدَهُمْ، وَلَا عَلَىٰ المَحْكُومِينَ وَحْدَهُمْ، بَلْ حَمَّلَ الطَّرَفَيْنِ مَسْؤُولِيَّةَ مَا آلَ إِلَيْهِ المُجْتَمَعُ، فَقَالَ: «أَمَّا المَسْؤُولُ عَنْ ذَلِكَ فَالحَاكِمُ وَالمَحْكُومُ عَلَىٰ السَّوَاءِ: الحَاكِمُ الَّذِي لَانَتْ قَنَاتُهُ لِلْغَامِزِينَ، وَسَلَسَ قِيَادُهُ لِلْغَاصِبِينَ، وَعُنِيَ بِنَفْسِهِ أَكْثَرَ مِمَّا عُنِيَ بِقَوْمِهِ، حَتَّىٰ فَشَتْ فِي الإِدَارَةِ المِصْرِيَّةِ أَدْوَاءٌ عَطَّلَتْ فَائِدَتَهَا وَجَرَّتْ عَلَىٰ النَّاسِ بَلَاءَهَا... فَالأَنَانِيَّةُ وَالرِّشْوَةُ وَالمُحَابَاةُ وَالعَجْزُ وَالتَّكَاسُلُ وَالتَّعْقِيدُ كُلُّهَا صِفَاتٌ بَارِزَةٌ فِي الإِدَارَةِ المِصْرِيَّةِ، وَالمَحْكُومُ الَّذِي رَضِيَ بِالذِّلَّةِ، وَغَفَلَ عَنِ الوَاجِبِ، وَخُدِعَ بِالبَاطِلِ، وَانْقَادَ وَرَاءَ الأَهْوَاءِ، وَفَقَدَ قُوَّةَ الإِيمَانِ وَقُوَّةَ الجَمَاعَةِ، فَأَصْبَحَ نَهْبَ النَّاهِبِينَ وَطُعْمَةَ الطَّامِعِينَ»[297].

وَبِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ تَشْخِيصُ الإِمَامِ البَنَّا لِلوَاقِعِ قَائِمًا عَلَىٰ إِلْقَاءِ التَّبِعَةِ عَلَىٰ طَرَفٍ وَاحِدٍ، بَلْ عَلَىٰ **تَحْدِيدِ مَظَاهِرِ الخَلَلِ، وَالكَشْفِ عَنْ جُذُورِهَا الأَخْلَاقِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ، ثُمَّ تَحْمِيلِ الحَاكِمِ وَالمَحْكُومِ مَعًا مَسْؤُولِيَّةَ الإِصْلَاحِ.**

(296) انظر حسن البنا: **مذكرات الدعوة والداعية**، ص 178.
(297) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة المؤتمر السادس]، ص 444.

## 2-إِصْلَاحُ النِّظَامِ وَتَحْرِيرُ الإِرَادَةِ

إِذَا كَانَ الإِمَامُ البَنَّا قَدْ حَمَّلَ الحَاكِمَ وَالمَحْكُومَ مَعًا مَسْؤُولِيَّةَ مَا آلَ إِلَيْهِ الوَاقِعُ مِنْ فَسَادٍ، فَإِنَّ الخَلَاصَ مِنْ هَذَا الوَاقِعِ لَا يَكُونُ بِجُهْدٍ فَرْدِيٍّ، وَلَوْ كَثُرَ الصَّالِحُونَ فِي الأُمَّةِ؛ وَإِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ **جُهْدٍ جَمَاعِيٍّ مُنَظَّمٍ**، يَبْدَأُ بِإِصْلَاحِ النُّفُوسِ، وَيَمْتَدُّ إِلَىٰ تَغْيِيرِ الوَضْعِ الفَاسِدِ، وَإِقَامَةِ نِظَامٍ أَصْلَحَ، تَحْمِلُهُ الأُمَّةُ وَتَقُومُ الحُكُومَةُ عَلَىٰ حِمَايَتِهِ وَتَنْفِيذِهِ.

وَقَدْ أَرَادَ الإِمَامُ البَنَّا بِذَلِكَ أَنْ يَبُثَّ فِي نُفُوسِ الأُمَّةِ رُوحَ التَّجَمُّعِ وَالشُّعُورَ بِالمَسْؤُولِيَّةِ تِجَاهَ المُجْتَمَعِ؛ لِأَنَّ الصَّلَاحَ الفَرْدِيَّ وَحْدَهُ لَا يَكْفِي إِذَا عَمَّ الفَسَادُ وَضَعُفَ الإِصْلَاحُ. وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾ [هود: 117].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ رضي الله عنها: »أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ؛ فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ... قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ«[298].

فَالمُرَادُ لَيْسَ مُجَرَّدَ وُجُودِ الصَّالِحِينَ، وَإِنَّمَا **قِيَامُهُمْ بِوَاجِبِ الإِصْلَاحِ**؛ فَالخَلَلُ الَّذِي يَعُمُّ المُجْتَمَعَ لَا يُوَاجَهُ بِالصَّلَاحِ الفَرْدِيِّ وَحْدَهُ، بَلْ بِحَرَكَةِ إِصْلَاحٍ تَتَنَاوَلُ النُّفُوسَ وَالأَوْضَاعَ مَعًا.

وَإِذَا كَانَ الإِمَامُ البَنَّا قَدْ حَمَّلَ الحُكَّامَ وَالمَحْكُومِينَ المَسْؤُولِيَّةَ عَنِ الفَسَادِ، فَإِنَّهُ كَذَلِكَ جَعَلَ الخَلَاصَ مَسْؤُولِيَّةَ الحُكَّامِ وَالمَحْكُومِينَ، فَقَالَ: »أَمَّا كَيْفَ نَتَخَلَّصُ مِنْ ذَلِكَ فَبِالجِهَادِ وَالكِفَاحِ، وَلَا حَيَاةَ مَعَ اليَأْسِ وَلَا يَأْسَ مَعَ الحَيَاةِ، نَتَخَلَّصُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ بِتَحْطِيمِ هَذَا الوَضْعِ الفَاسِدِ، وَأَنْ يُسْتَبْدَلَ بِهِ نِظَامٌ اجْتِمَاعِيٌّ خَيْرٌ مِنْهُ، تَقُومُ عَلَيْهِ وَتَحْرُسُهُ حُكُومَةٌ حَازِمَةٌ تَهَبُ نَفْسَهَا لِوَطَنِهَا وَتَعْمَلُ جَاهِدَةً لِإِنْقَاذِ شَعْبِهَا، يُؤَيِّدُهَا

(298) أخرجه البخاري (3346)، ومسلم (2880) باختلاف يسير.

شَعْبٌ مُتَّحِدُ الكَلِمَةِ قَوِيُّ الإِيمَانِ، وَلَئِنْ فَقَدَتِ الأُمَمُ مِصْبَاحَ الهِدَايَةِ فِي أَدْوَارِ الانْتِقَالِ، فَإِنَّ الإِسْلَامَ الحَنِيفَ بَيْنَ أَيْدِينَا مِصْبَاحٌ وَهَّاجٌ نَهْتَدِي بِنُورِهِ وَنَسِيرُ عَلَىٰ هُدَاهُ»(299).

وَبِذَلِكَ يَجْمَعُ مَنْهَجُ الخَلَاصِ بَيْنَ **إِصْلَاحِ الإِنْسَانِ وَإِصْلَاحِ النِّظَامِ**؛ فَلَا يَكْفِي تَغْيِيرُ الأَوْضَاعِ مَعَ بَقَاءِ النُّفُوسِ عَلَىٰ مَا هِيَ عَلَيْهِ، كَمَا لَا يَكْفِي تَهْذِيبُ الأَفْرَادِ مَعَ بَقَاءِ نِظَامٍ يُنْتِجُ الفَسَادَ وَيُعِيدُ إِنْتَاجَهُ.

وَمِنْ هُنَا كَانَتِ البِدَايَةُ الحَقِيقِيَّةُ لِلنُّهُوضِ فِي **وَفْرَةِ الأَخْلَاقِ وَالقِيَمِ، وَإِنْ قَلَّتِ الوَسَائِلُ المَادِّيَّةُ أَوْ نَدَرَتْ**؛ فَقُوَّةُ الأُمَّةِ لَا تَقُومُ عَلَىٰ المَوَارِدِ وَحْدَهَا، وَإِنَّمَا عَلَىٰ الإِنْسَانِ الَّذِي يَحْمِلُ مَسْؤُولِيَّةَ الإِصْلَاحِ وَيَعْمَلُ لِتَحْقِيقِهَا.

وَلِذَلِكَ لَا يَنْفَصِلُ **إِصْلَاحُ النِّظَامِ** عَنْ **تَحْرِيرِ إِرَادَةِ الأُمَّةِ**؛ فَالأُمَّةُ الَّتِي تَفْقِدُ إِرَادَتَهَا، وَتَرْضَىٰ بِالذِّلَّةِ، وَتَتْبَعُ غَيْرَهَا فِي خَطَئِهِ وَصَوَابِهِ، لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْهَضَ حَتَّىٰ تَسْتَعِيدَ ثِقَتَهَا بِرِسَالَتِهَا، وَتَعْرِفَ حَقَّهَا، وَتَقُومَ بِوَاجِبِهَا.

وَعَلَىٰ هَذَا يَتَكَامَلُ مَنْهَجُ الخَلَاصِ فِي الرِّسَالَةِ فِي أَمْرَيْنِ مُتَلَازِمَيْنِ: إِقَامَةُ نِظَامٍ اجْتِمَاعِيٍّ صَالِحٍ، وَبِنَاءُ أُمَّةٍ حُرَّةِ الإِرَادَةِ قَادِرَةٍ عَلَىٰ حَمْلِ هَذَا النِّظَامِ وَحِمَايَتِهِ.

## ثَالِثًا: الوَسَائِلُ وَضَوَابِطُ العَمَلِ السِّيَاسِيِّ

### 1- الإِقْنَاعُ وَالإِعْدَادُ وَالنِّضَالُ الدُّسْتُورِيُّ

بَعْدَ أَنْ حَدَّدَ الإِمَامُ البَنَّا الغَايَةَ، وَبَيَّنَ مَعَالِمَ الوَاقِعِ الَّذِي يُرِيدُ إِصْلَاحَهُ، انْتَقَلَ إِلَىٰ بَيَانِ **الوَسَائِلِ الَّتِي تَسْلُكُهَا الدَّعْوَةُ لِتَحْقِيقِ هَذِهِ الغَايَةِ**؛ لِأَنَّ صَلَاحَ الغَايَةِ لَا يُغْنِي عَنْ صِحَّةِ الوَسِيلَةِ، وَوُضُوحَ الطَّرِيقِ إِلَيْهَا.

وَقَدْ جَعَلَ الإِمَامُ البَنَّا الوَسَائِلَ العَامَّةَ لِلْإِخْوَانِ تَسِيرُ فِي مَرَاحِلَ مُتَدَرِّجَةٍ، فَقَالَ: «**أَمَّا وَسَائِلُنَا العَامَّةُ**: فَالإِقْنَاعُ وَنَشْرُ الدَّعْوَةِ بِكُلِّ وَسَائِلِ النَّشْرِ حَتَّىٰ يَفْقَهَهَا الرَّأْيُ العَامُّ

(299) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة المؤتمر السادس]، ص 444.

وَيُنَاصِرَهَا عَنْ عَقِيدَةٍ وَإِيمَانٍ. ثُمَّ اسْتِخْلَاصُ العَنَاصِرِ الطَّيِّبَةِ لِتَكُونَ هِيَ الدَّعَائِمَ الثَّابِتَةَ لِفِكْرَةِ الإِصْلَاحِ. ثُمَّ النِّضَالُ الدُّسْتُورِيُّ حَتَّىٰ يَرْتَفِعَ صَوْتُ هَذِهِ الدَّعْوَةِ فِي الأَنْدِيَةِ الرَّسْمِيَّةِ، وَتُنَاصِرَهَا وَتَنْحَازَ إِلَيْهَا القُوَّةُ التَّنْفِيذِيَّةُ»[300].

فَالوَسِيلَةُ تَبْدَأُ أَوَّلًا **بِالإِقْنَاعِ وَنَشْرِ الفِكْرَةِ**؛ لِأَنَّ التَّغْيِيرَ لَا يَثْبُتُ إِذَا فُرِضَ عَلَىٰ أُمَّةٍ لَا تَفْهَمُهُ وَلَا تُؤْمِنُ بِهِ. وَمِنْ هُنَا كَانَ الهَدَفُ أَنْ تَصِلَ الدَّعْوَةُ إِلَىٰ الرَّأْيِ العَامِّ، فَيَفْقَهَهَا وَيُنَاصِرَهَا عَنْ عَقِيدَةٍ وَاقْتِنَاعٍ، لَا عَنْ مُجَرَّدِ انْفِعَالٍ عَابِرٍ.

ثُمَّ تَأْتِي مَرْحَلَةُ **اسْتِخْلَاصِ العَنَاصِرِ الطَّيِّبَةِ وَإِعْدَادِهَا**؛ فَانْتِشَارُ الفِكْرَةِ فِي الجُمْهُورِ لَا يَكْفِي وَحْدَهُ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ عَنَاصِرَ تَفْهَمُهَا فَهْمًا عَمِيقًا، وَتَحْمِلُهَا، وَتَتَحَمَّلُ تَبِعَاتِهَا، وَتَكُونُ دَعَائِمَ ثَابِتَةً لِمَشْرُوعِ الإِصْلَاحِ.

ثُمَّ يَنْتَقِلُ العَمَلُ إِلَىٰ **النِّضَالِ الدُّسْتُورِيِّ**؛ لِيَصِلَ صَوْتُ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ المُؤَسَّسَاتِ الرَّسْمِيَّةِ، وَتَتَحَوَّلَ المَبَادِئُ الَّتِي آمَنَ بِهَا النَّاسُ وَحَمَلَتْهَا العَنَاصِرُ المُعَدَّةُ إِلَىٰ مَطَالِبَ عَامَّةٍ تُطْرَحُ فِي مَيَادِينِ التَّشْرِيعِ وَالتَّنْفِيذِ. وَعَلَىٰ هَذَا الأَسَاسِ أَشَارَ الإِمَامُ البَنَّا إِلَىٰ تَقَدُّمِ مُرَشَّحِي الإِخْوَانِ – حِينَ يَجِيءُ الوَقْتُ المُنَاسِبُ – لِتَمْثِيلِ الأُمَّةِ فِي الهَيْئَاتِ النِّيَابِيَّةِ.

وَهَذَا التَّرْتِيبُ يَكْشِفُ عَنْ مَعْنًىٰ مُهِمٍّ فِي مَنْهَجِ الإِمَامِ البَنَّا؛ فَالعَمَلُ السِّيَاسِيُّ لَا يَبْدَأُ مِنَ السُّلْطَةِ، وَإِنَّمَا مِنَ **الفِكْرَةِ، ثُمَّ الإِنْسَانِ، ثُمَّ الأُمَّةِ، ثُمَّ المُؤَسَّسَاتِ**. وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ السِّيَاسَةَ تَأْتِي ثَمَرَةً لِبِنَاءٍ دَعَوِيٍّ وَتَرْبَوِيٍّ وَاجْتِمَاعِيٍّ سَابِقٍ، وَلَيْسَتْ بَدِيلًا عَنْهُ.

ثُمَّ بَدَأَ الإِمَامُ البَنَّا يَتَكَلَّمُ عَنْ وَسِيلَةِ تَحْقِيقِ هَذِهِ الغَايَةِ، وَأَشَارَ إِلَىٰ أَنَّ هُنَاكَ وَسَائِلَ أُخْرَىٰ **لَنْ يَلْجَأَ إِلَيْهَا الإِخْوَانُ إِلَّا مُكْرَهِينَ، وَلَنْ يَسْتَخْدِمُوهَا إِلَّا مُضْطَرِّينَ**، وَأَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ حِينَئِذٍ صُرَحَاءَ شُرَفَاءَ.

وَقَدْ قَالَ فِي ذَلِكَ: «أَمَّا مَا سِوَىٰ ذَلِكَ مِنَ الوَسَائِلِ فَلَنْ نَلْجَأَ إِلَيْهِ إِلَّا مُكْرَهِينَ، وَلَنْ نَسْتَخْدِمَهُ إِلَّا مُضْطَرِّينَ، وَسَنَكُونُ حِينَئِذٍ صُرَحَاءَ شُرَفَاءَ، لَا نُحْجِمُ عَنْ إِعْلَانِ

(300) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة المؤتمر السادس]، ص 445.

مَوْقِفِنَا وَاضِحًا لَا لَبْسَ فِيهِ وَلَا غُمُوضَ مَعَهُ، وَنَحْنُ عَلَىٰ اسْتِعْدَادٍ تَامٍّ لِتَحَمُّلِ نَتَائِجِ عَمَلِنَا أَيًّا كَانَتْ، لَا نُلْقِي التَّبِعَةَ عَلَىٰ غَيْرِنَا، وَلَا نَتَمَسَّحُ بِسِوَانَا، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ، وَأَنَّ الفَنَاءَ فِي الحَقِّ هُوَ عَيْنُ البَقَاءِ، وَأَنَّهُ لَا دَعْوَةَ بِغَيْرِ جِهَادٍ، وَلَا جِهَادَ بِغَيْرِ اضْطِهَادٍ، وَعِنْدَئِذٍ تَدْنُو سَاعَةُ النَّصْرِ، وَيَحِينُ وَقْتُ الفَوْزِ، وَيَتَحَقَّقُ قَوْلُ المَلِكِ الحَقِّ المُبِينِ: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ**﴾ [يوسف: 110]»[301].

وَهَذَا النَّصُّ لَا يُفْهَمُ مُنْفَصِلًا عَمَّا قَرَّرَهُ الإِمَامُ البَنَّا فِي رِسَالَةِ «المُؤْتَمَرِ الخَامِسِ» مِنْ ضَوَابِطِ اسْتِخْدَامِ القُوَّةِ؛ إِذْ لَمْ يَجْعَلْهَا أَصْلًا فِي التَّغْيِيرِ، وَلَا وَسِيلَةً مُبْتَدَأَةً، وَإِنَّمَا رَبَطَهَا بِشُرُوطٍ وَضَوَابِطَ وَظُرُوفٍ خَاصَّةٍ. وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ ذَلِكَ فِي شَرْحِ رِسَالَةِ «المُؤْتَمَرِ الخَامِسِ».

وَالمُهِمُّ هُنَا أَنَّ هَذِهِ الإِشَارَةَ لَا تَأْتِي فِي مُقَدِّمَةِ مَنْهَجِ الوَسَائِلِ، وَإِنَّمَا **بَعْدَ الإِقْنَاعِ، وَالإِعْدَادِ، وَالنِّضَالِ الدُّسْتُورِيِّ**؛ وَهُوَ تَرْتِيبٌ لَهُ دَلَالَتُهُ فِي فَهْمِ مَنْهَجِ الإِمَامِ البَنَّا وَأَوْلَوِيَّاتِهِ فِي العَمَلِ.

وَالوَاقِعِيَّةُ وَالارْتِبَاطُ بِاللَّحْظَةِ التَّارِيخِيَّةِ الرَّاهِنَةِ تُعْطِي كُلَّ وَسِيلَةٍ حَقَّهَا فِي التَّقْدِيرِ؛ فَكَانَ الإِمَامُ البَنَّا حَرِيصًا عَلَىٰ أَلَّا يَقَعَ خَطَأٌ يُكَلِّفُ الدَّعْوَةَ ثَمَنًا بَاهِظًا. وَمِنَ الحَقَائِقِ المُتَّفَقِ عَلَيْهَا أَنَّ لِلْإِسْلَامِ ثِقَلًا تَارِيخِيًّا وَاجْتِمَاعِيًّا فِي مُجْتَمَعَاتِنَا، وَأَنَّ العَامِلَ لِلْإِسْلَامِ لَا يَبْدَأُ مِنَ الصِّفْرِ، بَلْ يَتَحَرَّكُ فِي ظِلِّ تَجَارِبَ سَابِقَةٍ وَمِيرَاثٍ تَارِيخِيٍّ يَنْبَغِي أَنْ يَعِيَ دُرُوسَهُ وَيَحْسِبَ نَتَائِجَهُ.

وَبِذَلِكَ يَتَّضِحُ تَدَرُّجُ الوَسَائِلِ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ:

إِقْنَاعُ الرَّأْيِ العَامِّ ← إِعْدَادُ العَنَاصِرِ الصَّالِحَةِ ← النِّضَالُ الدُّسْتُورِيُّ وَالعَمَلُ المُؤَسَّسِيُّ.

وَهَذَا التَّدَرُّجُ يُؤَكِّدُ أَنَّ الوَسِيلَةَ عِنْدَ الإِمَامِ البَنَّا لَيْسَتْ مُنْفَصِلَةً عَنِ الغَايَةِ، وَأَنَّ حُسْنَ

(301) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة المؤتمر السادس]، ص 439.

الإِعْدَادِ وَتَكْوِينَ الأُمَّةِ يَسْبِقَانِ التَّقَدُّمَ إِلَىٰ مَيَادِينِ السِّيَاسَةِ وَالحُكْمِ.

## 2-مَنْهَجُ البَنَّا فِي العَمَلِ السِّيَاسِيِّ

### أ- قَضِيَّةُ الإِسْلَامِ لَيْسَتْ صِرَاعًا عَلَىٰ السُّلْطَةِ

حَرَصَ الإِمَامُ البَنَّا عَلَىٰ أَنْ تَكُونَ قَضِيَّةُ الإِسْلَامِ قَضِيَّةً وَاضِحَةً، لَا تُحْصَرُ فِي الإِجْرَاءَاتِ وَالشَّكْلِيَّاتِ، وَلَا تُحْصَرُ الجَمَاعَةُ فِي إِطَارِ الصِّرَاعِ السِّيَاسِيِّ؛ فَيَسْتَغِلُّ الخَصْمُ ذَلِكَ لِيُبْعِدَكَ عَنْ مَنْطِقَةِ قُوَّتِكَ، وَهِيَ انْتِمَاؤُكَ لِلإِسْلَامِ، وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَىٰ يَسْحَبُ البِسَاطَ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْكَ، عِنْدَمَا يُظْهِرُكَ لِلأُمَّةِ وَالشَّعْبِ بِأَنَّكَ تُصَارِعُ مِنْ أَجْلِ أَغْرَاضٍ أَوْ مَكَاسِبَ دُنْيَوِيَّةٍ تُرِيدُ تَحْقِيقَهَا.

وَقَدْ نَجَحَ الإِمَامُ البَنَّا فِي تَجْنِيبِ دَعْوَتِهِ أَنْ تُحْصَرَ فِي دَائِرَةِ السِّيَاسَةِ فَقَطْ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ اسْتِمْرَارُهُ فِي الدَّعْوَةِ لِمُدَّةِ عِشْرِينَ عَامًا، دُونَ أَنْ يَجُرَّ الدَّعْوَةَ إِلَىٰ صِدَامٍ أَوْ مَعْرَكَةٍ سِيَاسِيَّةٍ خَاسِرَةٍ.

وَأَمَّا مَا وَقَعَ مِنْ حَادِثَتَيِ الخَازِنْدَارِ وَالنُّقْرَاشِيِّ سَنَةَ 1948م، فَقَدْ بَيَّنَ الإِمَامُ البَنَّا فِي رِسَالَةِ «قَضِيَّتِنَا» مَوْقِفَهُ مِنْهُمَا؛ فَذَكَرَ فِي حَادِثَةِ الخَازِنْدَارِ أَنَّهُ «لَا يُتَصَوَّرُ أَنَّهُ كَانَ بِتَدْبِيرٍ مِنَ الهَيْئَةِ أَوْ بِإِيعَازٍ مِنْهَا»، وَأَكَّدَ أَنَّ ذِكْرَ مَلَابَسَاتِ الحَادِثِ لَيْسَ «رِضًا بِمَا عَمِلَا أَوْ دِفَاعًا عَنْهُمَا»، وَإِنَّمَا لِنَفْيِ أَنْ تَكُونَ هَيْئَةُ الإِخْوَانِ مَصْدَرَ التَّدْبِيرِ أَوِ الإِيعَازِ. وَأَمَّا حَادِثُ النُّقْرَاشِيِّ فَقَدْ وَصَفَهُ بِأَنَّهُ وَقَعَ «وَلَا هَيْئَةٌ تَسْأَلُ وَلَا قِيَادَةٌ تُدَبِّرُ؛ إِذ كانت قيادة الإخوان بين معتقل أو مراقب»، وَأَنَّهُ «رَدُّ الفِعْلِ الَّذِي كُنَّا نَتَحَاشَاهُ وَنَتَمَنَّىٰ أَلَّا يَقَعَ»[302].

وَيَزِيدُ الإِمَامُ البَنَّا مَوْقِفَ الإِخْوَانِ وُضُوحًا بَعْدَ هَذِهِ الحَوَادِثِ، فَيَقُولُ: «وَإِنَّ الإِخْوَانَ لَا زَالُوا مُعْتَصِمِينَ بِالحِكْمَةِ وَالصَّبْرِ، مُسْتَسْلِمِينَ لِقَضَاءِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، رَاضِينَ بِحُكْمِهِ، وَلَكِنَّ العُقَلَاءَ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ أَشَدَّ الخَشْيَةِ أَنْ يَفْلِتَ الزِّمَامُ مِنْهُمْ إِنِ اسْتَمَرَّتِ الحُكُومَةُ فِي الِاعْتِدَاءِ عَلَىٰ الأَبْرِيَاءِ، وَالتَّضْيِيقِ عَلَىٰ الأَحْرَارِ الفُضَلَاءِ،

(302) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة قضيتنا: بين يدي الرأي العام المصري والعربي والإسلامي يناير 1949]، طبعة إسطنبول، ص 755–757.

وَنِهَايَةُ الضَّغْطِ الِانْفِجَارُ، وَحَقُّ الدِّفَاعِ عَنِ النَّفْسِ وَالمَالِ حَقٌّ مَشْرُوعٌ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ»[303].

وَرُبَّمَا كَانَ الدَّلِيلُ الأَقْوَىٰ عَلَىٰ نَجَاحِ الإِمَامِ البَنَّا فِي عَدَمِ جَرِّ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ خُصُومَاتٍ تَحْرِفُهَا عَنْ غَايَتِهَا العُظْمَىٰ؛ مَا رَوَاهُ بَعْضُ الإِخْوَانِ المَسْؤُولِينَ عَنِ النِّظَامِ الخَاصِّ، مِنْ أَنَّ حَسَنَ البَنَّا لَوْ أَرَادَ أَنْ يُحْدِثَ انْقِلَابًا فِي الحُكْمِ لَكَانَ يَحْدُثُ فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ؛ إِذْ لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ مَصْلَحَةٌ أَوْ فِئَةٌ أَوْ طَبَقَةٌ فِي الأُمَّةِ المِصْرِيَّةِ إِلَّا وَفِيهَا عَدَدٌ مِنَ الإِخْوَانِ.

وَلَكِنَّهُ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَمِرَّ الدِّينُ، وَإِنْ فَاتَتْهُمُ السُّلْطَةُ وَحُكْمُ الدَّوْلَةِ؛ فَالدِّينُ هُوَ الَّذِي يُصْلِحُ الأُمَّةَ، وَالدَّوْلَةُ فِي الحَقِيقَةِ تَعْبِيرٌ عَنْ مَفَاهِيمِ الدِّينِ وَالأَخْلَاقِ، وَكَانَ يَهْدِفُ إِلَىٰ القُوَّةِ النَّافِعَةِ الجِدِّيَّةِ، وَلَمْ يَجْعَلِ الثَّوْرَةَ المُسَلَّحَةَ طَرِيقًا لِلدَّعْوَةِ.

وَيُؤَكِّدُ هَذَا المَعْنَىٰ مَا نُقِلَ عَنِ الإِمَامِ البَنَّا فِي أَخْرِيَاتِ حَيَاتِهِ، حِينَ رَفَضَ جَرَّ الجَمَاعَةِ إِلَىٰ صِرَاعٍ دَاخِلِيٍّ، وَقَالَ كَلِمَتَهُ المَشْهُورَةَ: «**لَنْ أُضَيِّعَ الأُمَّةَ مِنْ أَجْلِ الحُكُومَةِ، وَلَنْ أُضَيِّعَ الوَطَنَ مِنْ أَجْلِ الدَّوْلَةِ**»[304] إِذْ كَانَ يَرَىٰ أَنَّ العِبْرَةَ بِأَخْلَاقِ الأُمَمِ لَا بِأَشْكَالِ الحُكُومَاتِ، وَأَنَّ السُّلْطَةَ أَوِ الدَّوْلَةَ فِي مَفْهُومِ الإِسْلَامِ إِنَّمَا هِيَ تَعْبِيرٌ عَنْ مَفَاهِيمِ الدِّينِ وَالأَخْلَاقِ. وَيُؤَيِّدُ هَذَا المَعْنَىٰ مَا جَاءَ فِي رِسَالَةِ «قَضِيَّتِنَا» مِنْ حِرْصِ الإِخْوَانِ، بَعْدَ قَرَارِ الحَلِّ، عَلَىٰ ضَبْطِ الأَعْصَابِ، وَتَحَمُّلِ الصَّدْمَةِ بِالصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ، وَمُعَالَجَةِ الأُمُورِ بِالحِكْمَةِ وَالأَنَاةِ[305].

وَلَمْ يَكُنْ دُخُولُ الإِخْوَانِ فِي الشَّأْنِ السِّيَاسِيِّ عِنْدَ الإِمَامِ البَنَّا انْتِقَالًا بِالدَّعْوَةِ مِنْ مَيْدَانِ الدِّينِ إِلَىٰ مَيْدَانٍ غَرِيبٍ عَنْهُ، بَلْ كَانَ نَابِعًا مِنْ تَصَوُّرِهِ لِشُمُولِ الإِسْلَامِ، وَأَنَّ إِصْلَاحَ شُؤُونِ الأُمَّةِ، وَالحُرِّيَّةَ السِّيَاسِيَّةَ، وَإِصْلَاحَ أَدَاةِ الحُكْمِ، كُلَّهَا دَاخِلَةٌ فِي مَيْدَانِ العَمَلِ الإِسْلَامِيِّ.

---

(303) السابق، ص 757.

(304) انظر: محمود عبد الحليم، **أحداث صنعت التاريخ**، جـ1، دار الدعوة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ط5، 1414هـ/ 1994م.

(305) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: قضيتنا]، طبعة اسطنبول، ص 755–757.

وَلِذَلِكَ فَرَّقَ الإِمَامُ البَنَّا بَيْنَ **السِّيَاسَةِ بِمَعْنَىٰ التَّحَزُّبِ وَالصِّرَاعِ بَيْنَ الأَحْزَابِ**، وَبَيْنَ **السِّيَاسَةِ بِمَعْنَىٰ الاِهْتِمَامِ بِشُؤُونِ الأُمَّةِ وَإِصْلَاحِ الحُكْمِ وَتَحْقِيقِ حُرِّيَّتِهَا**. فَالإِخْوَانُ - فِي تَصَوُّرِهِ - لَيْسُوا حِزْبًا يُنَاصِرُ حِزْبًا وَيُخَاصِمُ آخَرَ، وَلَكِنَّهُمْ سِيَاسِيُّونَ بِقَدْرِ مَا تَفْرِضُهُ عَلَيْهِمْ رِسَالَةُ الإِصْلَاحِ مِنَ الاِهْتِمَامِ بِأَحْوَالِ أُمَّتِهِمْ.

## ب- قُوَّةُ الجَمَاهِيرِ وَرِضَا الأُمَّةِ

وَاعْلَمْ جَيِّدًا أَنَّكَ إِنْ جِئْتَ بِالقُوَّةِ المُسَلَّحَةِ أَوْ بِالسُّلْطَةِ وَالنُّفُوذِ، فَإِنَّكَ سَتَدْخُلُ فِي عَدَاوَةٍ مَعَ المُجْتَمَعِ؛ أَمَّا إِذَا جِئْتَ بِقُوَّةِ الجَمَاهِيرِ وَرِضَا الأُمَّةِ، فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الأُمَّةَ مَعَكَ، وَأَنَّ القُوَّةَ الحَقِيقِيَّةَ هِيَ قُوَّةُ الشَّعْبِ الَّذِي يَحْمِلُ الفِكْرَةَ وَيُؤْمِنُ بِهَا.

وَكَانَ الإِمَامُ البَنَّا حَرِيصًا عَلَىٰ أَنْ تَبْقَىٰ قَضِيَّةُ الإِسْلَامِ أَوْسَعَ مِنْ مُجَرَّدِ الصِّرَاعِ السِّيَاسِيِّ أَوِ التَّنَافُسِ عَلَىٰ السُّلْطَةِ؛ فَالحُرِّيَّةُ فَرِيضَةٌ مِنْ فَرَائِضِ الإِسْلَامِ، وَمُوَاجَهَةُ الظُّلْمِ مِنْ وَاجِبَاتِهِ، وَمُحَارَبَةُ الفَقْرِ وَالفُرْقَةِ مِنْ أَسْبَابِ نُهُوضِ الأُمَّةِ وَقُوَّتِهَا. **وَمِنْ هُنَا كَانَ يَعْتَمِدُ فِي مَشْرُوعِهِ عَلَىٰ قُوَّةِ الجَمَاهِيرِ وَرِضَا الأُمَّةِ، لَا عَلَىٰ فَرْضِ التَّغْيِيرِ عَلَيْهَا مِنْ خَارِجِهَا.**

فَلِكَيْ تَنْجَحَ الدَّعْوَةُ يَجِبُ أَنْ تَصِلَ إِلَىٰ النَّاسِ فِي بَسَاطَةٍ، وَأَنْ تَتَّصِلَ بِحَقَائِقِ الحَيَاةِ، حَتَّىٰ لَا يَكُونَ فِيهَا إِجْهَادٌ ذِهْنِيٌّ يَحُولُ بَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَ فَهْمِهَا، وَحَتَّىٰ يَسْهُلَ تَقَبُّلُهَا، وَتَتَحَوَّلَ مِنْ فِكْرَةٍ تَحْمِلُهَا جَمَاعَةٌ إِلَىٰ فِكْرَةٍ تَحْمِلُهَا الأُمَّةُ.

## ج- انْضِبَاطُ الوَسِيلَةِ بِالغَايَةِ

وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ **السِّيَاسَةَ وَسِيلَةٌ مِنْ وَسَائِلِ الإِصْلَاحِ، وَلَيْسَتْ غَايَةً فِي ذَاتِهَا**؛ وَتَظَلُّ الوَسِيلَةُ مَحْكُومَةً بِالغَايَةِ، وَبِمَا يَخْدُمُهَا وَيُقَرِّبُ مِنْهَا، لَا أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَىٰ عَمَلٍ يَسْتَنْزِفُ الدَّعْوَةَ فِي خُصُومَاتٍ وَمَعَارِكَ جَانِبِيَّةٍ.

وَلِهَذَا كَانَ مِنْ مَنْهَجِ الإِمَامِ البَنَّا أَنْ تُدْرَسَ الوَسِيلَةُ فِي ضَوْءِ الظُّرُوفِ وَالنَّتَائِجِ،

وَأَنْ يُتَجَنَّبَ مَا يُفْضِي إِلَىٰ صِدَامٍ يَحْرِفُ العَمَلَ عَنْ غَايَتِهِ، أَوْ يُمَكِّنُ الخَصْمَ مِنْ نَقْلِ القَضِيَّةِ مِنْ جَوْهَرِهَا إِلَىٰ شَكْلِهَا وَإِجْرَاءَاتِهَا.

وَمِنَ الأَمْثِلَةِ الَّتِي تُوَضِّحُ هَذَا المَعْنَىٰ مَا وَقَعَ فِي صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ؛ فَقَدْ رَدَّ النَّبِيُّ ﷺ أَبَا جَنْدَلٍ إِلَىٰ قُرَيْشٍ، وَفَاءً بِالعَهْدِ وَالْتِزَامًا بِشُرُوطِ الصُّلْحِ، مَعَ شِدَّةِ المَوْقِفِ عَلَىٰ المُسْلِمِينَ. فَلَمَّا جَاءَ أَبُو جَنْدَلٍ يَرْسُفُ فِي قُيُودِهِ مُسْتَغِيثًا بِهِمْ، طَالَبَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو بِرَدِّهِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَبَا جَنْدَلٍ، اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ... إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ القَوْمِ صُلْحًا... وَإِنَّا لَنْ نَغْدِرَ بِهِمْ» (306). وَمَضَىٰ ﷺ فِي الصُّلْحِ، مُقَدِّمًا حِفْظَ العَهْدِ وَالمَصْلَحَةَ الأَبْعَدَ عَلَىٰ الِانْفِعَالِ بِالمَوْقِفِ العَاجِلِ (307).

وَالدَّرْسُ هُنَا أَنَّ صَلَاحَ الغَايَةِ لَا يَعْنِي أَنَّ كُلَّ وَسِيلَةٍ تُؤَدِّي إِلَيْهَا تَكُونُ صَالِحَةً، وَلَا أَنَّ كُلَّ مَوْقِفٍ يَسْتَدْعِي المُوَاجَهَةَ الفَوْرِيَّةَ؛ بَلْ لَا بُدَّ مِنْ حُسْنِ التَّقْدِيرِ، وَالنَّظَرِ فِي العَوَاقِبِ، وَالمُوَازَنَةِ بَيْنَ المَصَالِحِ وَالمَفَاسِدِ، وَالمُحَافَظَةِ عَلَىٰ الغَايَةِ الأَصْلِيَّةِ مِنْ أَنْ تَضِيعَ فِي مَعَارِكِ الوَسَائِلِ.

## د- وَفْرَةُ الأَخْلَاقِ وَصِنَاعَةُ الأُمَّةِ

وَقَدْ أَدْرَكَ الإِمَامُ البَنَّا بِحِسِّهِ التَّارِيخِيِّ أَنَّ الأُمَمَ الَّتِي تَبَوَّأَتْ مَكَانَةً جَلِيلَةً فِي التَّارِيخِ، إِنَّمَا حَظِيَتْ بِتِلْكَ المَكَانَةِ لِمَا تَتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ فَضَائِلَ خُلُقِيَّةٍ، وَمِنْ أَقْوَالِهِ فِي ذَلِكَ: «**وَلَسْنَا مَعَ هَذَا نُنْكِرُ خَوَاصَّ الأُمَمِ وَمُمَيِّزَاتِهَا الخُلُقِيَّةِ، فَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ لِكُلِّ شَعْبٍ مُمَيِّزَاتِهِ وَقِسْطَهُ مِنَ الفَضِيلَةِ وَالخُلُقِ، وَنَعْلَمُ أَنَّ الشُّعُوبَ فِي هَذَا تَتَفَاوَتُ وَتَتَفَاضَلُ... وَلَعَلَّكَ لَسْتَ وَاجِدًا فِي التَّارِيخِ مَنْ أَدْرَكَ هَذَا المَعْنَىٰ مِنْ شُعُوبِ الأَرْضِ كَمَا أَدْرَكَتْهُ تِلْكَ الكَتِيبَةُ العَرَبِيَّةُ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ**» (308).

وَيَقُولُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: «**لَوْ آمَنَ الشَّرْقُ بِحَقِّهِ وَغَيَّرَ مِنْ نَفْسِهِ وَاعْتَنَىٰ بِقُوَّةِ الرُّوحِ**

(306) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، رقم الحديث (18910)، وإسناده حسن.

(307) انظر موسىٰ بن راشد العازمي: **اللؤلؤ المكنون في سيرة النبي المأمون**، ط 1، المكتبة العامرية – الكويت، 1432هـ – 2011م، 3/ 324.

(308) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: دعوتنا]، ص 140.

**وَعُنِيَ بِتَقْوِيمِ الأَخْلَاقِ، لَوَاتَتْهُ وَسَائِلُ القُوَّةِ المَادِّيَّةِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَعِنْدَ صَحَائِفِ التَّارِيخِ الخَبَرُ اليَقِينُ»**(309).

وَمَنْ يَقْرَأْ رَسَائِلَ الإِمَامِ البَنَّا يَجِدْ هَذَا المَعْنَىٰ مُكَرَّرًا فِيهَا بِعِبَارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَمِنْ ثَمَّ لَمْ يَكُنْ غَرِيبًا أَنْ يَحْرِصَ فِي تَرْبِيَةِ الأُمَّةِ عَلَىٰ تَهْذِيبِ نُفُوسِهَا وَأَخْلَاقِهَا، وَتَزْكِيَةِ أَرْوَاحِهَا؛ **فَوَفْرَةُ الأَخْلَاقِ هِيَ الَّتِي تَصْنَعُ الأُمَّةَ.**

وَانْظُرْ كَيْفَ يَمْدَحُ الشَّاعِرُ بَطَلًا؛ لِأَنَّ أَخْلَاقَهُ حَمَلَتْهُ عَلَىٰ إِيثَارِ المَوْتِ عَلَىٰ الفِرَارِ:

وَقَدْ كَانَ فَوْتُ المَوْتِ سَهْلًا فَرَدَّهُ
إِلَيْهِ الْحِفَاظُ المُرُّ وَالخُلُقُ الْوَعْرُ(310)

وَقَدْ لَاحَظَ كَثِيرٌ مِمَّنْ عَاصَرَ الإِمَامَ البَنَّا رحمه الله أَنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَىٰ أَمْرَيْنِ مُهِمَّيْنِ طَوَالَ حَيَاتِهِ، وَهُمَا: **اتِّضَاحُ الوَسَائِلِ وَانْضِبَاطُهَا، وَوَفْرَةُ الأَخْلَاقِ.** وَبِهَذَا يَجْتَمِعُ المَنْهَجُ كُلُّهُ: **غَايَةٌ وَاضِحَةٌ، وَوَسِيلَةٌ مُنْضَبِطَةٌ، وَأُمَّةٌ تُبْنَىٰ بِالأَخْلَاقِ وَتَحْمِلُ رِسَالَتَهَا بِوَعْيٍ وَإِرَادَةٍ.**

## 3-المَوْقِفُ مِنَ الحُكُومَاتِ وَالأَحْزَابِ وَالهَيْئَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ

لَمْ يَقْتَصِرِ الإِمَامُ البَنَّا عَلَىٰ بَيَانِ غَايَةِ الدَّعْوَةِ وَوَسَائِلِهَا، بَلْ حَدَّدَ مَوْقِفَهَا مِنَ القُوَىٰ وَالهَيْئَاتِ المُحِيطَةِ بِهَا؛ لِأَنَّ حُسْنَ إِدَارَةِ العَلَاقَاتِ جُزْءٌ مِنْ فِقْهِ العَمَلِ، وَلِأَنَّ الدَّعْوَةَ لَا تَعْمَلُ فِي فَرَاغٍ، وَإِنَّمَا تَتَحَرَّكُ وَسْطَ حُكُومَاتٍ وَأَحْزَابٍ وَهَيْئَاتٍ إِسْلَامِيَّةٍ لِكُلٍّ مِنْهَا مَوْقِفُهُ وَدَوْرُهُ.

فَأَمَّا الحُكُومَاتُ، فَقَدْ حَدَّدَ الإِمَامُ البَنَّا مَوْقِفَهُ مِنْهَا بِوُضُوحٍ، فَقَالَ: »فَأَمَّا مَوْقِفُنَا مِنَ الحُكُومَاتِ المِصْرِيَّةِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ أَلْوَانِهَا فَهُوَ مَوْقِفُ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ، الَّذِي يَتَمَنَّىٰ لَهَا السَّدَادَ وَالتَّوْفِيقَ، وَأَنْ يُصْلِحَ اللهُ بِهَا هَذَا الفَسَادَ، وَإِنْ كَانَتِ التَّجَارِبُ الكَثِيرَةُ كُلُّهَا

(309) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: إلىٰ أي شيء ندعو الناس]، ص 54.
(310) البيتُ مِنْ قَصيدَةِ: «كَذا فَليَجِلَّ الخَطبُ وَليَفدَحِ الأَمرُ». للشاعر العباسي أبي تمام.

تُقْنِعُنَا بِأَنَّنَا فِي وَادٍ وَهِيَ فِي وَادٍ، وَيَا وَيْحَ الشَّجِيِّ مِنَ الخَلِيِّ»[311].

فَهُوَ مَوْقِفُ **النُّصْحِ وَالتَّقْوِيمِ، لَا الخُصُومَةِ لِذَاتِهَا**. وَقَدْ تَقَدَّمَ الإِخْوَانُ إِلَىٰ الحُكُومَاتِ المُتَعَاقِبَةِ بِمُقْتَرَحَاتٍ وَمُذَكِّرَاتٍ فِي مَجَالَاتِ الإِصْلَاحِ المُخْتَلِفَةِ؛ مِنْ إِصْلَاحِ الأَدَاةِ الحُكُومِيَّةِ، وَاخْتِيَارِ الرِّجَالِ، وَتَبْسِيطِ الإِجْرَاءَاتِ، وَمُرَاعَاةِ الكَفَايَاتِ، إِلَىٰ إِصْلَاحِ التَّعْلِيمِ وَالثَّقَافَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شُؤُونِ الحَيَاةِ العَامَّةِ.

وَلَمْ يَكُنْ هَذَا النُّصْحُ إِعْفَاءً لِلْحُكُومَةِ مِنَ المَسْؤُولِيَّةِ؛ لِأَنَّ الإِمَامَ البَنَّا كَانَ يَرَىٰ أَنَّ القُوَّةَ التَّنْفِيذِيَّةَ جُزْءٌ مِنْ تَعَالِيمِ الإِسْلَامِ[312]، وَأَنَّ عَلَىٰ الحُكُومَاتِ وَالهَيْئَاتِ وَالأَحْزَابِ أَنْ تَقُومَ بِمَا عَلَيْهَا مِنْ وَاجِبٍ تِجَاهَ الشَّعْبِ وَالأُمَّةِ.

**وَأَمَّا الأَحْزَابُ السِّيَاسِيَّةُ**، فَلَمْ يَقُمْ مَوْقِفُ الإِمَامِ البَنَّا مِنْهَا عَلَىٰ الدُّخُولِ فِي خُصُومَاتٍ تَسْتَنْزِفُ الجُهْدَ وَتَصْرِفُ الدَّعْوَةَ عَنْ مَقْصِدِهَا. وَعِنْدَمَا سُئِلَ عَنْ رِجَالِ الأَحْزَابِ وَلِمَ لَا يُوَاجِهُهُمْ، قَرَّرَ أَنَّ الجُهْدَ الَّذِي يُبْذَلُ فِي **الكِفَاحِ السَّلْبِيِّ** أَوْلَىٰ أَنْ يُنْفَقَ فِي **عَمَلٍ نَافِعٍ وَكِفَاحٍ إِيجَابِيٍّ**، وَأَنْ يُتْرَكَ مَا لَا يَنْفَعُ لِلزَّمَنِ؛ ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: 17][313].

وَهَذَا يَكْشِفُ عَنْ ضَابِطٍ مُهِمٍّ فِي إِدَارَةِ العَلَاقَاتِ السِّيَاسِيَّةِ: أَلَّا يَتَحَوَّلَ الخِلَافُ إِلَىٰ غَايَةٍ، وَأَلَّا يُسْتَنْزَفَ جُهْدُ الدَّعْوَةِ فِي خُصُومَاتٍ لَا تَخْدُمُ مَشْرُوعَ الإِصْلَاحِ.

وَيَرْتَبِطُ بِذَلِكَ تَمْيِيزُ الإِمَامِ البَنَّا بَيْنَ السِّيَاسَةِ بِمَعْنَىٰ التَّحَزُّبِ وَالصِّرَاعِ بَيْنَ الأَحْزَابِ، وَبَيْنَ السِّيَاسَةِ بِمَعْنَىٰ الاِهْتِمَامِ بِشُؤُونِ الأُمَّةِ وَإِصْلَاحِ الحُكْمِ وَتَحْقِيقِ حُرِّيَّتِهَا؛ فَالإِخْوَانُ – فِي تَصَوُّرِهِ – لَيْسُوا حِزْبًا يُنَاصِرُ حِزْبًا وَيُخَاصِمُ آخَرَ، وَلَكِنَّهُمْ سِيَاسِيُّونَ بِقَدْرِ مَا تَفْرِضُهُ عَلَيْهِمْ رِسَالَةُ الإِصْلَاحِ مِنَ الاِهْتِمَامِ بِأَحْوَالِ أُمَّتِهِمْ.

وَأَمَّا الهَيْئَاتُ الإِسْلَامِيَّةُ، فَكَانَ المَوْقِفُ مِنْهَا أَكْثَرَ وُضُوحًا فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ التَّعَاوُنِ

(311) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة المؤتمر السادس]، ص 449.
(312) انظر حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة المؤتمر السادس]، ص 446.
(313) السابق، ص 443.

وَالتَّقَارُبِ، فَقَالَ الإِمَامُ البَنَّا: »وَأَمَّا مَوْقِفُنَا مِنَ الهَيْئَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ نَزَعَاتِهَا، فَمَوْقِفُ حُبٍّ وَإِخَاءٍ وَتَعَاوُنٍ وَوَلَاءٍ، نُحِبُّهَا وَنُعَاوِنُهَا، وَنُحَاوِلُ جَاهِدِينَ أَنْ نُقَرِّبَ بَيْنَ وِجْهَاتِ النَّظَرِ، وَنُوَفِّقَ بَيْنَ مُخْتَلِفِ الفِكَرِ تَوْفِيقًا يَنْتَصِرُ بِهِ الحَقُّ فِي ظِلِّ التَّعَاوُنِ وَالحُبِّ. وَلَا يُبَاعِدُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا رَأْيٌ فِقْهِيٌّ أَوْ خِلَافٌ مَذْهَبِيٌّ، وَدِينُ اللهِ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ «... (314).

ثُمَّ يَمْضِي فِي بَيَانِ الغَايَةِ مِنْ هَذَا التَّقَارُبِ، وَهِيَ أَنْ تَزُولَ الحَوَاجِزُ الشَّكْلِيَّةُ وَالخِلَافَاتُ الَّتِي تَمْنَعُ التَّعَاوُنَ، وَأَنْ تَحُلَّ مَحَلَّهَا **وَحْدَةٌ عَمَلِيَّةٌ** تَجْمَعُ العَامِلِينَ لِلْإِسْلَامِ عَلَىٰ مَا يَتَّفِقُونَ عَلَيْهِ مِنْ نُصْرَةِ الحَقِّ وَخِدْمَةِ الدِّينِ.

وَقَدِ اسْتَفَادَ الإِمَامُ البَنَّا نَفْسُهُ مِنْ تَجَارِبِ حَرَكَاتِ الإِصْلَاحِ الَّتِي سَبَقَتْهُ، وَمِنْهَا السَّنُوسِيَّةُ، وَالوَهَّابِيَّةُ، وَالدَّهْلَوِيَّةُ، وَالمَهْدِيَّةُ؛ وَهُوَ مَا يُؤَكِّدُ أَنَّ التَّجَارِبَ السَّابِقَةَ لَا يَنْبَغِي أَنْ تُهْمَلَ، بَلْ تُدْرَسُ وَيُسْتَفَادُ مِنْ صَوَابِهَا وَخَطَئِهَا.

وَبِذَلِكَ يَتَّضِحُ أَنَّ مَنْهَجَ الإِمَامِ البَنَّا فِي إِدَارَةِ العَلَاقَاتِ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الجِهَةِ الَّتِي يَتَعَامَلُ مَعَهَا: **مَعَ الحُكُومَةِ**:

النُّصْحُ وَالتَّقْوِيمُ ← مَعَ الأَحْزَابِ: تَجَنُّبُ الخُصُومَةِ السَّلْبِيَّةِ وَتَوْجِيهُ الجُهْدِ إِلَىٰ العَمَلِ الإِيجَابِيِّ ← مَعَ الهَيْئَاتِ الإِسْلَامِيَّةِ: الحُبُّ وَالتَّعَاوُنُ وَتَقْرِيبُ وِجْهَاتِ النَّظَرِ.

وَالجَامِعُ بَيْنَ هَذِهِ المَوَاقِفِ أَنَّ العَلَاقَاتِ لَا تُدَارُ بِمَنْطِقِ الصِّرَاعِ لِذَاتِهِ، وَإِنَّمَا بِمِقْدَارِ مَا يَخْدُمُ الإِصْلَاحَ، وَيَحْفَظُ جُهْدَ الدَّعْوَةِ مِنَ الاسْتِنْزَافِ، وَيُقَرِّبُ القُوَىٰ مِنَ الحَقِّ.

(314) السابق، ص 447.

# رِسالَةُ «دعوَتنا في طَورٍ جدِيد»

نُشِرَتْ هَـذِهِ الرِسَـالةُ بِمَجلّةِ (الإِخْـوَان المُسْـلِمُونَ) فِي ثَمانِيَةِ أَعْـدَادٍ، بَـدأَتْ مِـنَ العَدَدِ الأَوَّلِ لِلسَّـنَةِ الأُولَـىٰ بِتَاريـخِ 17 شـعبان 1361هـ – 29 أغسْـطُس 1942م، وَاخْتُتِمَـتْ فِـي العَـدَدِ (9) الصَّـادِرِ بِتَاريـخِ 18 مِـنْ ذِي الحِجَّـةِ 1361هـ، المُوافِقِ 26 دِيسـمبرَ 1942م[315].

(315) انظُر حَسَن البنَّا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة دعوتنا في طور جديد]، ص 475.

## السِّيَاقُ التّارِيخِيُّ لِكِتَابَةِ الرِّسَالَةِ

### الانْبِهَارُ بِالحَضَارَةِ الغَرْبِيَّةِ وَأَزْمَةُ النَّمُوذَجِ الغَرْبِيِّ

كُتِبَتْ هَذِهِ الرسَالَةُ «دَعْوَتُنَا فِي طَوْرٍ جَدِيدٍ» فِي ظُرُوفٍ عَصِيبَةٍ؛ كَانَ النَّاسُ فِيهَا مُنْصَرِفِينَ عَنِ الفِكْرَةِ الإِسْلَامِيَّةِ، وَيُهِيمِنُ عَلَيهِمْ إِعْجَابٌ بِالأَفكَارِ الغَربِيّةِ المَادِيَّةِ، وَقَد شَمَلَ هَذَا الإعجَابُ العَامَّةَ، بِقَدْرِ مَا شَمَلَ المُفكِّرِينَ وَالمُثقَّفِينَ فِي الوَقْتِ الّذِي تَقَدَّمَ فِيهِ الإِمَامُ البنَّا بِدَعْوَتِهِ إِلَىٰ النَّاسِ، وَبَينَمَا كَانَ هَذَا المَدُّ الطَّاغِي مِنَ الإعْجَابِ بِالأَفكَارِ الغَربِيّةِ المَادِيَّةِ؛ كَانَتِ الفِكْرَةُ الإِسْلامِيَّةُ تَأخُذُ طَرِيقَهَا إِلَىٰ قُلُوبِ الجَماهِيرِ المُؤمِنَةِ العَامَّةِ السَّلِيمَةِ فِي عَقائِدِهَا وَصُدورِهَا كَمَا وَصَفَهَا الإِمَامُ البنَّا (رَحِمَهُ اللهُ).

وَظَلَّتْ هَذِهِ الدعْوَةُ أَوْ هَذِهِ الفِكْرَةُ الإِسْلامِيّةُ أُمنِيَةً عَزِيزَةً، شُعلةً مُتوقِّدَةً، عَاطِفَةً مُنِيرَةً فِي الصُّدُورِ، حِينَما كانَ جَمهرَةُ المُفكِّرِينَ وَالمُثقَّفِينَ وَذَوِي الرَّأْيِ وَالتَّوجِيهِ يُروِّجُونَ لِلفِكْرَةِ الغَربِيّةِ، وَيَدعُونَ إِلَيْهَا وَيُزَيِّنُونَهَا فِي الأَسْمَاعِ وَالأَبْصَارِ. لَكِنَّ أَحْدَاثًا ضَخْمَةً حَدثَتْ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ وَهِيَ كَوَارِثُ الحَرْبِ العَالِمِيَّةِ الثَّانِيَةِ، فَهِيَ تَجرِبَةٌ كَارِثِيّةٌ بِكُلِّ المَقاييسِ لِلبَشَرِيّةِ كُلِّهَا؛ لأَنّها دَعَتْ إِلَىٰ وُجُوبِ الالتِفَاتِ، وَإِعَادَةِ النظَرِ فِي مَناهِجِ الحَياةِ، وَفِي دعَائِمِ التَّحضُّرِ وَقَواعِدِ التَّمدِينِ، وَمِنْ ثَمَّ بَدَأَتْ هَذِهِ الطَّبقَةُ مِنَ المُفكِّرِينَ وَذَوِي الرأْيِ وَالتَّوجِيهِ يَلتَفِتُونَ إِلَىٰ الفِكْرَةِ الإِسْلَامِيةِ، يَلتَفِتُونَ إِلَيْهَا عَلَىٰ أَنّها مَبادِئُ قَابِلَةٌ لِلتَّحْقِيقِ صَالِحَةٌ لِلتَّطبِيقِ، وَمِنْ هُنَا كان استشعار الإِمامُ البنَّا (رَحِمَهُ اللهُ)، وَهُوَ يَرصُدُ كُلَّ مَا يَجْرِي حَوْلَهُ مِنْ تَغيُّراتٍ فِي مُجتمَعِهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا العَرِيضَةِ، وَيَرقُبُ أَحْوَالَ النَّاسِ، وَيَندمِجُ فِيهَا اندِمَاجًا قَوِيًا، فَكَانَ يَرَىٰ بِرُؤْيَةٍ وَاضِحَةٍ مِنْ خِلَالِ وَعْيِهِ وَعَقِيدَتِهِ مَا يَحْدُثُ فِي المُجْتَمَعِ، وَمَا يَحْدُثُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا العَرِيضَةِ مِنْ حَوْلِهِ مِنْ تَغيُّراتٍ، فَأَدْرَكَ مُبكِّرًا أَنَّ هَذِهِ الطَّبقَةَ مِنَ المُثقَّفِينَ مِنْ ذَوِي الرَّأْيِ وَالتَّوجِيهِ بَدَؤُوا يَلتَفِتُونَ نَتيجَةً لِكَارِثَةِ الحَرْبِ عَلَىٰ البَشَرِ، وَيُعِيدُونَ النظَرَ فِي دَعائِمِ التقَدُّمِ فِي مَناهِجِ الحَياةِ، وَفِي قَواعِدِ التمَدُّنِ؛ إِذْ كَانَ وَاضِحًا أَنَّ القَوانِينَ الّتِي قَامَتْ عَلَيهَا المَدنِيّةُ قَدْ أَدَّتْ إِلَىٰ تَفكُّكِهَا وَانْهِيَارِهَا، وَالغَالِبُ أَنْ يُفكِّرَ النَّاسُ فِي نِظَامٍ جَدِيدٍ وَأَفْكَارٍ جَدِيدَةٍ كُلَّما وَاجَهَتْهُمْ أَزْمَةٌ أَوْ أَلَمَّتْ بِهِمْ مِحْنَةٌ، عَلَىٰ نَحْوِ مَا أَشَارَ (دِينسُون) فِي كِتَابِهِ

[العَوَاطِفُ كَأَسَاسٍ لِلحَضَارَةِ]، **وَقَدْ أَشَرْنَا مِنْ قَبلُ إِلَىٰ مَا نقلَهُ الأُستَاذُ سَيِّدُ قُطْب** عَنْ (**دِينسُون**) هَذَا؛ حَيْثُ يَقُولُ: «فِي القَرْنَينِ الخَامِسِ وَالسَّادِسِ المِيلَادِيَّينِ كَانَ العَالَمُ المُتَمدِّينُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ مِنَ الفَوْضَىٰ لأَنَّ العَقَائِدَ التِي كَانَتْ تُعِينُ عَلَىٰ إِقَامَةِ الحَضَارَةِ كَانَتْ قَدِ انْهَارَتْ، وَلَمْ يَكُ ثَمَّ مَا يُعتَدُّ بِهِ مِمَّا يَقُومُ مَقَامَهَا، وَكَانَ يَبدُو أَنَّ المَدِينَةَ الكُبْرَىٰ الَّتِي تَكلَّفَ بِنَاؤُهَا أَربعَةَ آلافِ عَامٍ عَلَىٰ وَشْكِ التَّفَكُّكِ وَالانْحِلَالِ، وَأَنَّ البَشَرِيَّةَ تُوشِكُ أَنْ تَرجِعَ ثَانِيَةً إِلَىٰ مَا كَانَتْ عَلَيهِ مِنَ الهَمَجِيَّةِ، إِذِ القَبَائِلُ تَتحارَبُ وَتَتناحَرُ، لَا قَانُونَ وَلَا نِظَامَ. أَمَّا النظُمُ التي خَلَقَتْهَا المَسِيحِيَّةُ فَكانَتْ تَعمَلُ عَلَىٰ الفُرقَةِ وَالانْهِيَارِ بَدلًا مِنَ الاتِّحَادِ وَالنِّظَامِ، وَكَانَتِ المَدنيَّةُ كَشَجرَةٍ ضَخمَةٍ مُتفرِّعَةٍ امتَدَّ ظِلُّهَا إِلَىٰ العَالَمِ كُلِّهِ - وَاقِفَةً تَترنَّحُ وَقَدْ تَسرَّبَ إِلَيْهَا هَذَا العَطَبُ حَتَّىٰ اللُّبَابِ .. وَبَينَ مَظَاهِرِ هَذَا الفَسَادِ الشَّامِلِ وُلِدَ الرَّجُلُ الَّذِي وَحَّدَ العَالَمَ جَمِيعَهُ» يَقْصِدُ النَّبِيَّ ﷺ (316).

فِي الأَزمَاتِ الكُبرَىٰ، وَالحَوادِثِ المُزَلْزِلَةِ الَّتِي تَمُرُّ بِالبَشَرِ، وَتَهُزُّ كَثِيرًا مِنَ عَقَائِدِهِمْ وَنُظُمِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَتصَوَّرُونَ أَنَّها سَوْفَ تُؤدِّي بِهِمْ إِلَىٰ الاتِّحَادِ وَالنِّظَامِ، فَإِذَا بِهِم يَقِفُونَ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ مِنَ الفَوْضَىٰ، يَتَساءَلُونَ: لِمَ يَحْدثُ ذَلِكَ؟؟ عِنْدَئِذٍ تَبدَأُ جَمهرةُ المُثقَّفِينَ وَالمُفكرِينَ تُعِيدُ النظَرَ فِي مَناهِجِ الحَيَاةِ، وَفِي قَواعِدِ التحَضُّرِ وَدَعَائِمِ التمَدُّنِ.

## انْتِقَالُ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ طَوْرٍ جَدِيدٍ

وَقَدْ وَعَىٰ الإِمَامُ البَنَّا أَنَّ كَارِثَةَ الحَرْبِ سَوْفَ تَتمخَّضُ عَنْ مِثْلِ هَذَا الحِرَاكِ المَعْرِفِيِّ وَالتَّحَوُّلِ الفِكْرِيِّ، فَاستَعَدَّ لِذَلِكَ أَتَمَّ الاسْتِعْدَادِ، فَمَا كَادَتْ صَالُونَاتُ المُفكِّرِينَ وَالمُثقِّفِينَ فِي مِصْرَ تَتحَدَّثُ عَنْ نِظَامٍ جَدِيدٍ، وَعَقَائِدَ جَدِيدَةٍ يَنبغِي أَنْ يَلُوذَ بِهَا العَالَمُ مِنَ التفَكُّكِ وَالانْهِيَارِ؛ حَتَّىٰ تَقدَّمَ الإِمَامُ البَنَّا بِفِكْرَتِهِ، وَطَرحَهَا بِهَذَا العُنْوَانِ: «**دَعْوَتُنا فِي طَوْرٍ جَدِيدٍ**»، وَهُوَ يَعنِي بِذَلِكَ أَزْمَةَ العَقْلِ المُسْلِمِ فِي مُواجَهَةِ

(316) سيد قطب: **نحو مجتمع إسلامي**، ص 6.

تَحدِّيَاتِ الحَضَارَةِ أَوْ أَزْمَةَ المُثقَّفِينَ تِجَاهَ الإِسْلَامِ.

يَقُولُ الإِمَامُ البَنّا مُوضِّحًا السِّيَاقَ الذِي كُتِبَتْ فِيه هَذِهِ الرِّسَالَةُ: «هَذَا طَوْرٌ جَدِيدٌ فِي دَعْوَةِ الإِخْوَانِ المُسْلِمِينَ، أَحْبَبتُ أَنْ أَتحَدَّثَ إِلَىٰ القُرّاءِ عَنْهَا فِيهِ .. فَقَدْ نَشَأَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ وَالنَّاسُ فِي انصِرَافٍ عَنِ الفِكْرَةِ الإِسْلامِيَّةِ، وَفِيْ إِعْجَابٍ بِالفِكْرَةِ الغَربِيَّةِ المَادِيَّةِ فَأَخَذَتْ طَرِيقَهَا فِي هُدُوءٍ إِلَىٰ قُلُوبِ الطبقَةِ الأُولَىٰ مِنَ النَّاسِ، طَبَقَةِ الجَمَاهِيرِ المُؤمِنَةِ السَّلِيمَةِ العَقَائِدِ وَالصُّدُورِ، وَظَلَّتْ فِي نُفُوسِهِمْ أُمْنِيَةً عَزِيزَةً، وَعَاطِفَةً مُتوَقِّدَةً كَرِيمَةً، وَشُعْلَةً مُشرِقَةً مُنِيرَةً، عَلَىٰ حِينَ كَانَتْ جَمْهَرَةُ المُفكِّرِينَ وَأَهْلُ الرَّأْيِ وَالتَّوجِيهِ يُرَوِّجُونَ لِلفِكْرَةِ الأُخْرَىٰ وَيَهتِفُونَ بِهَا، وَيَدْعُونَ النَّاسَ إِلَيْهَا، وَيُزَيِّنُونَهَا فِي الأَسْمَاعِ وَالأَبْصَارِ وَالقُلوبِ بِمُخْتَلِفِ صُنُوفِ التَّزيينِ وَالتَّحْسِينِ. وَشَاءَ اللهُ أَنْ تَقَعَ الأَحْدَاثُ العَنِيفَةُ (الحَرْبُ العَالَمِيَّةُ الثَّانِيَةُ) التِي هَزّتْ كُلَّ العُقُولِ وَالمَشَاعِرِ وَالقُلُوبِ وَالأَفْكَارِ، وَأَشْعَرَتِ الإِنْسَانِيّةَ الحَاجَةَ الشَّدِيدَةَ إِلَىٰ إِعَادَةِ النظَرِ فِي مَنَاهِجِ الحَياةِ، وَقَواعِدِ المَدنيَّةِ وَدَعَائِمِ التَّحضُّرِ، وَانْطَلَقَتِ الأَصْوَاتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ تُهيِّئُ لِنِظَامٍ جَدِيدٍ وَعِلَاجٍ جَدِيدٍ.

وَصَادَفَ ذَلِكَ امْتِحَانٌ لِدَعْوَةِ الإِخْوَانِ كَشَفَ عَنْ جَوْهَرِهَا، وَلَفَتَ أَنْظَارَ النَّاسِ إِلَيْهَا، وَجَمَعَ كَثِيرًا مِنَ القُلُوبِ النَّافِرَةِ حَوْلَهَا، وَبِذَلِكَ انتقَلَتِ الدَّعْوَةُ إِلَىٰ القُلُوبِ المُؤمِنَةِ وَالعُقُولِ المُفكِّرَةِ، وَأَصْبَحَتْ قَاعِدَةً مُسلَّمًا بِهَا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ عَاطِفَةً مُتحَمِّسَةً، وَنَظَرَ إِلَيْهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ عَلَىٰ أَنَّهَا مَبادِئُ مُمْكِنَةُ التَّحْقِيقِ، صَالِحَةٌ لِلتَّطْبِيقِ، فَلَمْ تَعُدْ حُلْمًا فِي الرُّؤُوسِ أَوْ وِجْدَانًا فِي النفُوسِ فَقَطْ»[317].

وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذِهِ الظُّروفَ قَدْ وَضَعَتْ دَعْوَتَنَا أَمَامَ تَحَدٍّ جَدِيدٍ، وَأَسْئِلَةٍ كَثِيرَةٍ عَنْ مَرامِي الدَّعْوَةِ وَكُنْهِهَا وَعَنِ الطُّرقِ التِي يَسْلُكُهَا أَهْلُهَا وَالقَائِمُونَ بِهَا فِي عِلاجِ مَا يُحِيطُ بِتَطْبِيقِ مَبَادِئِهَا وَتَعالِيمِهَا مِنْ مَشاكِلَ دَاخِلِيّةٍ وَخَارِجِيّةٍ، وَلَمْ يَعُدْ يَكْفِي فِي الجَوَابِ عَنْ ذَلِكَ كَلامٌ مُرتَجَلٌ أَوْ خَطَابَةٌ تُثِيرُ المَشَاعِرَ أَوْ عِبَارَاتٌ تُؤثِّرُ فِي العَواطِفِ، بَلْ صَارَ وَاجِبًا عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الدَّعْوةِ أَنْ يُصوِّرُوهَا لِلنَّاسِ تَصْوِيرًا مَنْطِقِيًّا دَقِيقًا وَاضِحًا مَبْنِيًّا عَلَىٰ أَدَقِّ قَواعِدِ البَحْثِ العِلْمِيِّ، وَأَنْ يَرسُمُوا أَمَامَ الناسِ الطُّرُقَ العَمليَّةَ المُنْتِجَةَ

(317) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة دعوتنا في طور جديد]، ص 476.

التِي أَعَدُّوهَا لِتَحْقِيقِ مَا يُرِيدُونَ، وَلِتَذْلِيلِ مَا سَيُصَادِفُونَ مِنْ عَقباتٍ لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِهَا فِي الطَّرِيقِ[318].

وَإِنَّمَا حَرَصَ الإِمَامُ البَنَّا عَلَىٰ الدِّقَّةِ وَالوُضُوحِ؛ لأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ السَّاحَةَ العَرَبِيَّةَ وَالإِسْلامِيَّةَ تَضِجُّ بِصَخَبِ دَاوٍ مِنَ المُصطلَحَاتِ وَالأَفكَارِ وَالنُّظُمِ وَالعقائِدِ وَالدَّعوَاتِ التِي تَهتِفُ بِهَا أَرْجَاءُ الكَوْنِ، وَتَسْرِي بِهَا أَمْوَاجُ الأَثِيرِ فِي أَنْحَاءِ المَعْمُورَةِ، مُجهزَةً بِكُلِّ مَا يُغرِي وَيَخْدَعُ مِنَ الآمَالِ وَالوُعُودِ وَالمَظَاهِرِ[319]، وَمِنْ ثَمَّ لَمْ يَكُنْ بُدٌّ أَمَامَ الإِمَامِ البَنَّا مِنْ أَنْ تَتَمَيَّزَ دَعْوَتُه وَسْطَ هَذَا الصَّخَبِ الدَّاوِي مِنَ الدَّعَواتِ، فَقَالَ: «نَتَقَدَّمُ بِدَعوتِنَا نَحْنُ الإِخْوَانَ المُسلِمِينَ .. هَادِئَةً ... وَلَكِنَّهَا أَقْوَىٰ مِنَ الزَّوَابِعِ العَاصِفَةِ ... مُتَوَاضِعَةً ... وَلَكِنَّهَا أَعَزُّ مِنَ الشُّمِّ الرَّوَاسِي ... مَحْدُودَةً ... وَلَكِنَّهَا أَوْسَعُ مِنْ حُدُودِ أَقْطَارِ هَذِهِ الأَرْضِ جَمِيعًا .. خَالِيَةً مِنَ المَظَاهِرِ وَالبَهْرَجِ الكَاذِبِ ... وَلَكِنَّهَا مَحْفُوفَةٌ بِجَلالِ الحَقِّ، وَرَوْعَةِ الوَحْيِ، وَرِعَايَةِ اللهِ ... مُجرَّدَةً مِنَ المَطَامِعِ وَالأَهْوَاءِ وَالغَايَاتِ الشَّخْصِيَّةِ وَالمَنافِعِ الفَرْدِيَّةِ، وَلَكِنَّهَا تُورِثُ المُؤْمِنِينَ بِهَا وَالصَّادِقِينَ فِي العَمَلِ لَهَا السَّيَادَةَ فِي الدُّنْيَا وَالجَنَّةَ فِي الآخِرَةِ»[320].

ثُمَّ انتَقَلَ الإِمَامُ البَنَّا إِلَىٰ نَقْلَةٍ أُخْرَىٰ مُهِمَّةٍ؛ إِذْ أَشَارَ إِلَىٰ طَوْرٍ جَدِيدٍ يَنتَظِرُ دَعوَتَنَا، حِينَ يَقومُ ذَلِكَ النِّظَامُ الإِسْلامِيُّ، فَيَكُونُ الوَاجِبُ عَلَينَا أَشَدَّ خُطُورَةً وَضَخَامَةً، لأَنَّ دَعْوَتَنَا سَتُوضَعُ حِينَئِذٍ مَوْضِعَ الاختِبَارِ، يَقُولُ الإِمَامُ البَنَّا: «وَلَعَلَّ طَوْرًا آخَرَ يَنتَظِرُ هَذِهِ الدَّعْوَةَ حِينَ تُوضَعُ مَوْضِعَ التَّجْرِبَةِ العَمَلِيَّةِ، وَحِينَئِذٍ يَتِمُّ هَذَا الهَيْكَلُ الذِي تُجَهَّزُ لَهُ هَذِهِ اللَّبِنَاتُ، وَحِينَئِذٍ يَرىٰ النَّاسُ أَيَّ خَيرٍ سَينَالُونَ مِنْ تَطبِيقِ هَذِهِ المَبَادِئِ السَّامِيَةِ، وَتَحقِيقِ هَذِهِ الأَهْدَافِ العَالِيَةِ»[321].

(318) السابق، ص 477.

(319) انظر حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة الإخوان تحت راية محمد ﷺ]، ص 383.

(320) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة الإخوان تحت راية محمد ﷺ]، ص 383.

(321) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة دعوتنا في طور جديد]، ص 477.

## مُقْتَضَيَاتُ الطَّوْرِ الجَدِيدِ لِلدَّعْوَةِ

وَلَا يَعْنِي دُخُولُ الدَّعْوَةِ فِي طَوْرٍ جَدِيدٍ تَغَيُّرًا فِي أُصُولِهَا وَمَرْجِعِيَّتِهَا، وَإِنَّمَا تَغَيُّرًا فِي مَرْحَلَةِ حَرَكَتِهَا وَمُتَطَلَّبَاتِهَا.

سَيَزْدَادُ العِبْءُ عَلينَا؛ لأَنَّ البَشرِيَّةَ تَنتظِرُ دَعْوَتَنَا بِوْصَفِهَا دَعْوَةَ البَعْثِ وَالإِنْقَاذِ[322]، وَبِخَاصَّةٍ بَعْدَمَا أَفْلَسَتِ النظُمُ وَالدَّعوَاتُ الّتِي بَدَّتْ خَلَّابَةً بَرَّاقَةً فِي وَقْتٍ مَا، لَكِنَّ هَذِهِ الدَّعوَاتِ لَمْ تَعْدَمْ - وَإِنْ أَفْلَسَتْ - مَنْ يُنفِّقُهَا وَيُرَوِّجُهَا بَينَ النَّاسِ، فَلِكُلِّ دَعوةٍ كَتَائِبُ مُجَهَّزَةٌ؛ كَمَا يَقُولُ الإِمَامُ البنَّا: «وَالدُّعَاةُ اليَومَ غَيرُهُم بِالأَمسِ؛ فَهُمْ مُثَقَّفونَ مُجهَّزُونَ مُدرَّبُونَ إِخْصَائِيّونَ - وَلَا سِيّمَا فِي البِلادِ الغَربيّةِ - حَيثُ تَختَصُّ بِكُلِّ فِكرَةٍ كَتِيبةٌ مُدربَةٌ تُوضِّحُ غَامِضَهَا، وَتَكشِفُ عَنْ مَحاسِنِهَا، وَتَبتَكِرُ لَهَا وَسَائِلَ النَّشْرِ وَطَرَائِقَ الدِّعَايَةِ، وَتَتلمَّسُ لَهَا فِي نُفُوسِ النَاسِ أَيْسَرَ السُّبلِ وَأَهوَنَهَا وَأَقْرَبَهَا إِلَىٰ الاقْتِنَاعِ وَالاتّبَاعِ»[323].

فَأَيُّ فِكْرَةٍ حَتَّىٰ وَإِنْ كَانَتْ مُفلِسَةً تَبدُو عَلَىٰ جَانِبٍ كَبيرٍ مِنَ اليَسَارِ، لأَنَّ وَسَائِلَ الإِعْلامِ قَدِ ارتَقَتْ - كَمَا يقُولُ الشَّيْخُ مُحمَّدُ الغزالِيُّ -: «فِي العَصْرِ الحَاضِرِ، وَقَطَعَتْ آمَادًا فَسِيحَةً فِي اجتِذَابِ النفُوسِ وَصِيَاغَةِ الأفكَارِ، وتَوسَّلَتْ بِهَا مَذَاهِبُ مُفْلِسَةٌ أَتْقَنَتْ فَنَّ الدِّعَايَةِ حَتَّىٰ بَدَتْ وَكَأَنَّهَا عَلَىٰ جَانِبٍ كَبِيرٍ مِنَ اليَسَارِ..! وَالغَرِيبُ أَنَّكَ تَبحَثُ عَنِ الإِعْلَامِ الإِسْلَامِيِّ وَسْطَ هَذَا السِّبَاقِ المَحْمُومِ فَلا تَجِدُ إِلَّا نَفَرًا قَلائِلَ يَتحَرَّكُونَ بِدَأَبٍ، وَيَتحَمَّلُونَ بِجَلَدٍ، وَيَستَمِيتُونَ فِي عَرْضِ الحَقِّ وَسْطَ مَيدَانٍ كَثُرتْ فِيهِ أَلَاعِيبُ السَّحَرَةِ، وَغَابَتْ عَنْهُمْ عَصَا مُوسَىٰ .. وَلِذَلِكَ تَسْمَعُ طَنِينًا لِلبَاطِلِ لَا يَنتَهِي، وَأَنِينًا لِلحَقِّ لَا يَنْقَطِعُ..»[324].

(322) انظر حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة بين الأمس واليوم]، ص 525.
(323) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة دعوتنا]، ص 128.
(324) انظر مقدمة الشيخ الغزالي لكتاب الأستاذ عمر عبيد حسنة: **نظرات في مسيرة العمل الإسلامي**، سلسلة كتاب الأمة، ط 1، رئاسة المحاكم الشرعية، والشؤون الدينية، قطر، 1405هـ، ص 7.

## الدَّاعِيَةُ نَمُوذَجًا عَمَلِيًّا لِلدَّعْوَةِ

وَلِذَلِكَ تَسْتَشْعِرُ مِنْ قِراءَةِ هَذِهِ الرِسَالةِ « دَعْوَتُنَا فِي طَوْرٍ جَدِيدٍ» شُعورًا عَارِمًا يَغْمُرُكَ؛ إِنّه الشُّعُورُ بِالمَسؤُولِيَّةِ الضَّخْمَةِ مِنْ أَجْلِ إِقَامَةِ ذَلِكَ البِنَاءِ؛ لأَنَّ النَّاسَ لَا تُؤمِنُ بِعَقَائِدَ مُجرَّدَةٍ مَهْمَا كَانَتْ عَلَىٰ جَانِبٍ كَبِيرٍ مِنَ اليَسَارِ، وَمَهْمَا قَبِلَهَا العَقْلُ وَالمَنْطِقُ، وَمَهْمَا صُوِّرَتْ بِأَدَقِّ الأَسَالِيبِ العِلْمِيّةِ الحَدِيثَةِ أَوْ قَواعِدِ البَحْثِ العِلْمِيِّ الحَدِيثِ؛ لأَنَّ النَّاسَ تُرِيدُ أَنْ تَرىٰ أَيَّ نِظَامٍ مُتَمَثِّلًا فِيمَنْ يَدْعُونَ إِلَيهِ، وَتَرْقُبُ سُلُوكَ مَنْ يُنادُونَ بِهِ، أَكْثَرَ مِمَا تُعْنَىٰ بِالمَبادِئِ الّتِي يَدعُونَ إِلَيْهَا، وَقَدْ شَهِدَ رُوبِيرُ جَاكْسُون لِلإِمَامِ البنَّا بِذَلِكَ، حَيْثُ قَالَ عَنهُ:« وَأَسْتَطِيعُ بِنَاءً عَلَىٰ دِرَاسَاتِي الوَاسِعَةِ أَنْ أَقُولَ: إِنَّ حَياةَ الرَجُلِ وَتَصرُّفَاتِهِ كَانَتْ تَطبِيقًا صَادِقًا لِلْمَبادِئِ التِي نَادَىٰ بِهَا. وَقَدْ مَنحَهُ (الإِسْلَامُ) كَمَا كَانَ يَفهَمُهُ وَيَدعُو إِلَيهِ، حُلَّةً مُتأَلِّقَةً، قَوِيّةَ الأَثَرِ فِي النفُوسِ، لَمْ تُتَحْ لِزُعَمَاءِ السِّيَاسَةِ وَلَا لِرِجَالِ الدِّينِ» [325].

وَعَلَىٰ هَذَا النَّهْجِ كَانَ الإِمَامُ البنَّا يُعِدُّ هَذِهِ اللَّبِنَاتِ وَيُجهِّزُهَا، لِيُقِيمَ عَلَيهَا هَذَا البِنَاءَ الّذِي تَوسَّمَ فِي إِتْمَامِهِ أَنْ يَكُونَ فَاتِحَةَ خَيْرٍ عَلَىٰ الأُمَّةِ الإِسْلامِيّةِ، وَهَذَا البِنَاءُ أَوِ (الهَيْكَلُ) يَحتَاجُ بِلَا رَيْبٍ إِلَىٰ لَبِنَاتٍ مُهيَّأَةٍ أَكْمَلَ تَهيِئَةٍ، لِمُواجهَةِ تِلكَ الحَضَارَةِ الغَربِيّةِ التِي بُهِرَ بِهَا العَقْلُ المُسْلِمُ لِلأَسَفِ الشَّدِيدِ!

## الرُّوحُ العَامَّةُ لِلرِّسَالَةِ

تَكْشِفُ الرِّسَالَةُ عَنْ مُتَطَلَّبَاتِ هَذَا الطَّوْرِ الجَدِيدِ، مَعَ بَقَاءِ أُصُولِ الدَّعْوَةِ وَمَرْجِعِيَّتِهَا ثَابِتَةً.

وَتَدُورُ الرُّوحُ العَامَّةُ لِهَذِهِ الرِّسَالَةِ: «**دَعْوَتُنا فِي طَوْرٍ جَدِيدٍ**» حَوْلَ أَزْمَةِ العَقْلِ المُسْلِمِ فِي مُوَاجَهَةِ الحَضَارَةِ الغَرْبِيَّةِ، وَمَا نَشَأَ عَنْهَا مِنْ أَزْمَةٍ لَدَىٰ جَمْهَرَةٍ مِنَ المُثَقَّفِينَ تِجَاهَ الإِسْلَامِ؛ وَمِنْ ثَمَّ سَعَىٰ الإِمَامُ البَنَّا إِلَىٰ إِعَادَةِ الثِّقَةِ فِي صَلَاحِيَّةِ الإِسْلَامِ وَخُلُودِ رِسَالَتِهِ، وَبَيَانِ قُدْرَتِهِ عَلَىٰ مُوَاجَهَةِ الوَاقِعِ وَصِيَاغَةِ الحَيَاةِ وَإِنْجَازِ مَشْرُوعِ النُّهُوضِ.

(325) روبير جاكسون: **حسن البنا الرجل القرآني**، ص 10.

## عَنَاصِرُ شَرْحِ الرِّسَالَةِ

أَوَّلًا: أَزْمَةُ المُثَقَّفِينَ مَعَ الإِسْلَامِ

1. فَقْدُ الثِّقَةِ فِي صَلَاحِيَّةِ الإِسْلَامِ وَخُلُودِ رِسَالَتِهِ.
2. الِانْفِصَامُ بَيْنَ المُثَقَّفِينَ وَمَرْجِعِيَّةِ الإِسْلَامِ.
3. **الجَهْلُ بِحَقِيقَةِ التَّصَوُّرِ الإِسْلَامِيِّ.**
   أ- الجَهْلُ بِحَقِيقَةِ القُرْآنِ وَكَيْفِيَّةِ فَهْمِهِ.
   ب- الجَهْلُ بِمَقَامِ النَّبِيِّ ﷺ.
4. **أَثَرُ النَّظْرَةِ الغَرْبِيَّةِ إِلَىٰ الدِّينِ فِي العَقْلِ المُسْلِمِ.**
   أ- الخَلْطُ بَيْنَ الوَحْيِ وَالتُّرَاثِ.
   ب- فَصْلُ الدِّينِ عَنِ الحَيَاةِ.
   ت- الخَلْطُ بَيْنَ الدِّينِ وَرِجَالِهِ.
   ث- الإِلْحَادُ وَإِقْصَاءُ المَنْهَجِ الإِلَهِيِّ عَنِ الحَيَاةِ.

ثَانِيًا: مَنْهَجُ الخُرُوجِ مِنَ الأَزْمَةِ

1. فِقْهُ النَّصِّ وَتَنْزِيلُهُ عَلَىٰ الوَاقِعِ.
2. فِقْهُ الوَاقِعِ وَمُعَايَشَةُ النَّاسِ.
3. الصَّحَابَةُ أَفْضَلُ جِيلٍ فَهِمَ وَاقِعَهُ.
4. جِيلُ التَّابِعِينَ وَفَهْمُهُ لِلْوَاقِعِ.
5. المُصْلِحُونَ المُعَاصِرُونَ.
6. التَّمْيِيزُ بَيْنَ الدِّينِ وَالتَّدَيُّنِ.
7. **إِدْرَاكُ مُكَوِّنَاتِ الوَاقِعِ المُؤَثِّرَةِ فِي عَمَلِيَّةِ التَّغْيِيرِ.**
   أ- العُنْصُرُ الدِّينِيُّ.
   ب- العُنْصُرُ التَّارِيخِيُّ.
   ت- العُنْصُرُ الحَضَارِيُّ.
8. إِعْدَادُ الإِنْسَانِ القَادِرِ عَلَىٰ حَمْلِ الرِّسَالَةِ وَمُوَاجَهَةِ التَّحَدِّيَاتِ.

ثَالِثًا: فِقْهُ الصِّيَاغَةِ وَفِقْهُ الإِنْجَازِ

1 -فِقْهُ الصِّيَاغَةِ

أ- مَفْهُومُ فِقْهِ الصِّيَاغَةِ وَضَابِطُهُ.
ب- تَجْدِيدُ صِيَاغَةِ العَقِيدَةِ فِي مُوَاجَهَةِ قَضَايَا العَصْرِ.
ت- الجَمْعُ بَيْنَ الإِيمَانِ بِالغَيْبِ وَالِانْتِفَاعِ بِالعَقْلِ.
ث- رَبْطُ العَقِيدَةِ بِالسُّلُوكِ وَالحَيَاةِ.
ج- تَجْدِيدُ عَرْضِ الشَّرِيعَةِ فِي ضَوْءِ مَقَاصِدِهَا.

2 - فِقْهُ الإِنْجَازِ

أ- ضَابِطُ فِقْهِ الإِنْجَازِ: التَّدَرُّجُ فِي تَحْقِيقِ المَشْرُوعِ.
ب- شَرْطَا فِقْهِ الإِنْجَازِ: الوَعْيُ وَالِاقْتِنَاعُ، وَجَمَاعِيَّةُ الإِنْجَازِ.

تَشْخِيصُ الأَزْمَةِ ← مَنْهَجُ الخُرُوجِ مِنْهَا ← صِيَاغَةُ المَشْرُوعِ وَإِنْجَازُهُ

## أَوَّلًا: أَزْمَةُ المُثَقَّفِينَ مَعَ الإِسْلَامِ

### 1- فَقْدُ الثِّقَةِ فِي صَلَاحِيَّةِ الإِسْلَامِ وَخُلُودِ رِسَالَتِهِ

وَتَجَلَّتْ فِتْنَةُ العَقْلِ المُسْلِمِ بِالحَضَارَةِ الغَرْبِيَّةِ فِي فِقْدَانِ الثِّقَةِ فِي صَلَاحِيَّةِ الإِسْلَامِ وَخُلُودِ رِسَالَتِهِ، لَدَىٰ جَمهَرةِ المُثقَّفِينَ الَّذِينَ يُعبِّرُ عَنْهُم د. طَهَ حُسَينٍ عِنْدَمَا يَدْعُو فِي كِتَابِهِ (مُستَقْبَلُ الثقَافَةِ فِي مِصْرَ)، إِلَىٰ وُجُوبِ الصرَاحَةِ فِي الأَخْذِ بِأَسبَابِ الحَضَارَةِ الأُورُبيَّةِ فِي كُلِّ نَوَاحِي الْحيَاةِ، وَرَأَىٰ لِذَلِكَ سَبِيلًا وَاحِدَةً وَهِيَ: «**أَنْ نَسِيرَ سِيرَةَ الأُورُبيينَ وَنَسْلُكَ طَرِيقَهُمْ لِنكُونَ لَهُمْ أَنْدَادًا، وَلِنكُونَ لَهُمْ شُرَكَاءَ فِي الحَضَارَةِ، خَيرِهَا وَشَرِّهَا، حُلْوِهَا وَمُرِّهَا، وَمَا يُحَبُّ مِنْهَا وَمَا يُكْرَهُ، وَمَا يُحمَدُ مِنْهَا وَمَا يُعَابُ**»(326).

وَحِينَ يَرىٰ عَمِيدُ الأَدَبِ العَرَبِيِّ أَنَّ سَبِيلَنَا الوَحِيدَةَ لِلإِصْلَاحِ هِيَ أَنْ نَحْذُوَ حَذْوَ

(326) طه حسين: **مستقبل الثقافة في مصر**، ط 2، دار المعارف، القاهرة، 1938م، ص 39.

أُورُوبَّا فِي كُلِّ شَيْءٍ؛ فَتِلْكَ أَزْمَةٌ كُبرَىٰ تُوحِي بِأَنَّ بَعضَ المُثقَّفِينَ العَربَ فَقَدُوا الثقَةَ فِي صَلاحِيَّةِ الإسلامِ وَخُلودِ رِسَالَتِهِ.

وَقَدْ أَرَادَ الإِمَامُ البَنَّا بِهَذِهِ الرسَالةِ «دَعْوَتُنَا فِي طَوْرٍ جَدِيدٍ»؛ أَنْ يُعِيدَ مَرةً أُخْرَىٰ الثقَةَ فِي صَلاحِيَّةِ الإِسْلامِ وَخُلودِ رِسَالَتِهِ، وَمِنْ ثَمَّ تَلحَظُ أَنَّ جوهَرَ الرِّسَالَةِ أَوْ رُوحَهَا العَامَّ الّذِي تُشَدُّ إِلَيْهِ فِقرَاتُهَا وَمَوضوعَاتُها المُختَلِفَةُ؛ هُوَ **أَزْمَةُ العَقْلِ المُسْلِمِ فِي مُواجَهَةِ الحَضَارَةِ الغَربِيّةِ، أَوْ أَزْمَةُ المُثقَّفِينَ تِجَاهَ الإِسْلامِ**.

## 2- الانْفِصَامُ بَيْنَ المُثَقَّفِينَ وَمَرْجِعِيَّةِ الإِسْلَامِ

وَقَدْ أَشَرْنَا مِنْ قَبْلُ إِلَىٰ أَنَّ الإِسْلَامَ ظَلَّ قَاعِدَةَ انْطِلَاقِ المُسْلِمينَ نَحْوَ بِنَاءِ الحَضَارَةِ، وَالمُوجِّهَ الأَسَاسِيَّ لِحَرَكَتِهِمْ الفِكْرِيّةِ فِي مُواجَهَةِ مُتَغَيِّرَاتِ الحَيَاةِ وَالقِيَامِ بِدَوْرِ الخِلَافَةِ عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ فِي إِطَارِ السُّنَنِ الإِلَهِيّةِ الّتِي أَوْدَعَهَا اللهُ سُبحَانَهُ وَتَعالَىٰ فِي الوُجُودِ كُلِّهِ..وَحَتَّىٰ الفَلْسَفَاتُ المُنحَرِفَةُ وَالآرَاءُ البَاطِنِيّةُ المُلْحِدَةُ وَالتَّيَارَاتُ الصُّوفِيّةُ الاتِّحَادِيّةُ الحُلُولِيّةُ الضَّالَّةُ، لَمْ تَكُنْ تَستَطِيعُ الظُّهُورَ وَالتَّقَدُّمَ فِي مَظَاهِرِ الحَيَاةِ المُخْتَلِفَةِ دُونَ الاعتِمَادِ عَلَىٰ تَأوِيلِ الآيَاتِ وَالأَحَادِيثِ، كَيْ تَسْنُدَ مَوَاقِفَهَا وَآرَاءَهَا وَاتِّجَاهَاتِهَا. ثُمَّ وَقَعَتِ **الكَارِثَةُ الكُبْرَىٰ** فِي القَرْنِ الأَخِيرِ، **عِنْدَمَا حَدَثَ الانْفِصَامُ الكَبِيرُ بَيْنَ المُثقَّفِينَ المُسلِمِينَ المُحدَثِينَ وَبَيْنَ إِسْلامِهِمْ**. فَلَمْ يَعُدِ الإِسْلامُ فِي العَصْرِ الحَدِيثِ هُوَ المُوجِّهَ الأَسَاسِيَّ وَلَمْ تَعُدْ حَضَارَتُه هِيَ الّتِي يَنْطَلِقُ مِنْهَا المُسْلِمُونَ لِمُواجَهَةِ الحَضَارَاتِ الجَدِيدَةِ الّتِي أَنتَجَهَا العَالَمُ الغَربِيُّ. لَمْ تَكُنْ هَذِهِ الأَشْيَاءُ بِلَا مُقدِّمَاتٍ وَلَا أَسْبَابٍ[327].

## 3- الْجَهْلُ بِحَقِيقَةِ التَّصَوُّرِ الإِسْلَامِيِّ

وَلَقَدْ تَحَدَّثْنَا فِيمَا سَبقَ حديثًا مُسْتَفِيضًا عَنْ (أَزْمَةَ المُثقَّفِينَ تِجَاهَ الإِسْلامِ)، وَنَحْنُ نُشِيرُ إِلَىٰ هَذِهِ الأَزْمَةِ مَرةً أُخْرَىٰ؛ لأَنَّهَا تُمثِّلُ الرُّوحَ العَامَّ الّذِي يُهيمِنُ عَلَىٰ الرسَالَةِ، وتَكَلَّمْنَا عَنْ أَسبابِ هَذِهِ الأزمَةِ: الدَّاخليَّةِ وَالخَارِجيَّةِ، ثُمَّ تَكلَّمْنَا عَنْ مَظاهِرِهَا الّتِي

(327) راجع في هذه الأزمة وعواملها الداخلية والخارجية د. محسن عبد الحميد: **أزمة المثقفين تجاه الإسلام**، ط 1، دار الصحوة، القاهرة، 1405هـ - 1984م، ص 6 وما بعدها.

تَجَلَّتْ فِي أَرْبَعَةِ أُمُورٍ:

**أَوَّلُهَا:** الجَهْلُ بِحَقِيقَةِ التَّصوُّرِ الإِسْلامِيِّ الصَّحِيحِ لَدَىٰ المُثقَّفِينَ، أَوْ (الجِيلِ المُخَضْرَمِ) كَمَا كَانَ يُسمِّيهِ الإِمَامُ البنَّا رَحِمَهُ اللهُ، وَقَالَ عَنْهُمْ: «وَنَشَأَ فِي كُلِّ الأُمَمِ الإسلامية جِيلٌ مُخضْرَمٌ، إِلَىٰ غَيرِ الإِسْلامِ أَقرَبَ، تَصَدَّرَ فِي تَصرِيفِ أُمورِهَا، وَاحتَلَّ مَكانَ الزَّعَامَةِ الفِكْرِيةِ وَالرُّوحيّةِ وَالسيَاسِيّةِ وَالتنفِيذِيةِ مِنهَا، فدفعَ بالشعُوبِ مُغافلةً إِلَىٰ مَا يُرِيدُ، بَل إِلَىٰ مَا أَلِفَ، وَهِيَ لَا تَدرِي مَا يُرَادُ بِهَا وَلا مَا تَصِيرُ إِلَيهِ، وَارتفَعَتْ أَصوَاتُ الدُّعاةِ إِلَىٰ الفِكرَةِ الطَّاغيَةِ: أَنْ خَلِّصُونَا مِمَّا بَقِيَ مِنَ الإِسْلامِ وَآثَارِ الإِسْلامِ»[328].

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ المَوقِفِ المُعادِي للإِسْلامِ هُوَ تَأَثُّرُ ذَلِكَ الجِيلِ مِنَ المُثقَّفِينَ بِالحضَارَةِ الغَربيَّةِ؛ مِمَّا أَوْرَثَهُمْ جَهْلًا بِالتَّصَوُّرِ الإِسْلَامِيِّ الصَّحِيحِ، وَجَهْلًا بِمَقَامِ النبيِّ ﷺ، فَجَعَلُوا يُقَارِنُونَ بَينَ الإِسْلامِ وَغَيرِهِ مِنَ الأَدْيَانِ الأُخْرَىٰ الَّتِي لَحِقَهَا التَّحْرِيفُ، وَنَخَرَ فِي أُصُولِهَا.

## أ. الجَهْلُ بِحَقِيقَةِ القُرْآنِ وَكَيْفِيَّةِ فَهْمِهِ

أَجْمَعَ المُسْلِمُونَ عَلَىٰ أَنَّ القُرآنَ الكَرِيمَ كِتَابُ اللهِ هُوَ الحَقُّ الَّذِي لَا يَأتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَينِ يَدِيهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، وَأَنَّه هُوَ بِأَصْلِهِ وَشَكْلِهِ وَجَوْهَرِهِ هُوَ الَّذِي يَحْمِلُ الحَقِيقَةَ الربَّانِيةَ فِي هَذَا الكَوْنِ إِلَىٰ يَومِنَا هَذَا، مِمَّا يَعْنِي أَنَّ هَذِهِ الطبقةَ مِنَ المُثقَّفِينَ لَمْ تُكلِّفْ نَفْسَهَا عَنَاءَ البَحْثِ وَالدِّرَاسَةِ عِنْدَمَا نَظَرَتْ إِلَىٰ دِينِهَا وَقَارَنَتْ بَينَهُ وَبَينَ غَيرِهِ مِنَ الأَدْيَانِ.

وَالقُرآنُ الكَرِيمُ لَا يَمنَحُ كُنوزَهُ وَلَا يَكْشِفُ أَسْرَارَهُ وَلَا يُشِيعُ عِطْرَهُ وَلَا يَكُونُ هُدًىٰ وَنُورًا إِلَّا لِهَؤُلاءِ الذينَ يُحاولُونَ استِئْنَافَ الحيَاةِ الإِسْلاميّةِ فِي ظِلالِهِ عَلَىٰ حَقِيقَتِهَا كَمَا يقولُ الأستاذُ سَيِّدُ قُطْب رَحِمَه اللهُ: «وَلَكِنَّ النَّاسَ بَعدُوا عَنِ القُرآنِ، وَعَنْ أُسْلُوبِهِ الخَاصِّ، وَعَنِ الحيَاةِ فِي ظِلالِهِ، وَعَنْ مُلابسَةِ الأَحْدَاثِ وَالمُقوِّمَاتِ التِي يُشابِهُ جَوُّهَا

(328) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة الإخوان تحت راية القرآن]، ص 386.

الجَـوَّ الـذِي تَنـزَّلَ فِيـهِ القُـرآنُ.. وَمُلابسَـةُ هَـذِهِ الأحـدَاثِ وَالمُقوِّمَـاتِ، وَتَنَسُّـمُ جَوِّهَـا الوَاقعِـيِّ، هُـوَ وَحْـدَهُ الـذِي يَجْعَـلُ هَـذَا القُـرآنَ مُـدْرَكًا وَمُوحِيًا كذَلِـكَ.

فَالقُـرآنُ لَا يُدرِكُـهُ حَـقَّ إدْراكِـهِ مَـنْ يَعِيـشُ خَالِـيَ البَـالِ مِـنْ مُكابـدَةِ الجُهْـدِ وَالجِهَـادِ لِاسْـتِئْنَافِ حَيـاةٍ إِسْـلاميةٍ حَقِيقيَّـةٍ، وَمِـنْ مُعانـاةِ هَـذَا الأَمْـرِ العَسِـيرِ الشَّـاقِّ، وَجَرائـرِهِ وَتَضْحِيّاتِـهِ وَآلامِـهِ، وَمُعانَـاةِ المَشَـاعِرِ المُخْتَلِفَـةِ التِي تُصاحِـبُ تِلْـكَ المُكابـدَةَ فِـي عَالَـمِ الوَاقـعِ، فِـي مُواجهَـةِ الجَاهلِيَّـةِ فِـي أَيِّ زَمَـانٍ!

إِنَّ المَسْـأَلَةَ – فِـي إِدْرَاكِ مَدلُـولَاتِ هَـذَا القُـرآنِ وَإِيحَاءَاتِـهِ – لَيْسَـتْ هِـيَ فَهْـمَ أَلفاظِـهِ وَعِبارَاتِـهِ، لَيْسَـتْ هِـيَ (تَفْسِـيرَ) القُـرآنِ – كَمَـا اعتَدْنَـا أَنْ نَقُـولَ! المَسـأَلَةُ لَيْسَـتْ هَـذِهِ؛ إِنَّمَـا هِـيَ استِعْدَادُ النَّفْسِ بِرَصِيدٍ مِنَ المَشاعِرِ وَالمُدرَكَاتِ وَالتَّجَارِبِ، تُشَـابِهُ المَشَـاعِرَ وَالمُـدرَكَاتِ وَالتَّجَـارِبَ التِـي صَاحَبَـتْ نُزولَـهُ، وَصَاحَبَـتْ حيَـاةَ الجَماعـةِ المُسـلِمَةِ وَهِـيَ تَتلَقَّـاهُ فِـي خِضَـمِّ المُعتَرَكِ.. مُعتَرَكِ الجِهَـادِ.. جِهَـادِ النَّفْسِ وَجِهَـادِ النَّـاسِ. جِهَـادِ الشَّـهَواتِ وَجِهَـادِ الأَعـدَاءِ. وَالبَـذْلِ وَالتَّضْحِيَـةِ. وَالخَـوْفِ وَالرجَـاءِ. وَالضَّعْـفِ وَالقُـوَّةِ. وَالعَثْـرةِ وَالنهُـوضِ.. جَـوِّ مَكـةَ، وَالدَّعْـوةِ النَّاشِـئَةِ، وَالقِلّـةِ وَالضَّعْـفِ، وَالغُربـةِ بيـنَ النّاسِ.. جَوِّ الشِّـعْبِ وَالحِصَـارِ، وَالجُـوعِ وَالخَـوْفِ، وَالاضْطِهَـادِ وَالمُطاردَةِ، وَالانقِطَـاعِ إِلَّا عَـنِ اللهِ.. ثُـمَّ جَوِّ المَدينَةِ: جَوِّ النشْـأَةِ الأُولَـىٰ لِلمُجتمَـعِ المُسْـلِمِ، بَيـنَ الكَيْـدِ وَالنفَـاقِ، وَالتَّنظِيـمِ وَالكِفَـاحِ.. جَـوِّ (بَـدْرٍ) وَ(أُحُـد) وَ(الخَنْـدَقِ) و(الحُديبيـة). وجَـوِّ (الفَتْـحِ)، وَ(حُنَيـنٍ) وَ(تَبُـوك).. وَجَـوِّ نَشْـأَةِ الأُمَّـةِ المُسـلِمَةِ وَنَشـأةِ نِظَامِهَـا الاجتِمَاعِـيِّ وَالاحتِكَاكِ الحَـيِّ بَيـنَ المَشَـاعِرِ وَالمَصَالِـحِ وَالمبَـادِئِ فِـي ثَنايَـا النَّشْـأَةِ، وَفِـي خِـلَالِ التَّنْظِيـمِ.

فِـي هَـذَا الجَـوِّ الـذِي تَنَزَّلَـتْ فِيـهِ آيَـاتُ القُـرآنِ حَيَّـةً نَابِضَـةً وَاقِعيَّـةً .. كَانَ لِلْكَلِمَـاتِ وَلِلْعِبَـارَاتِ دِلَالَاتُهَـا وَإِيحَاءَاتُهـا .. وَفِـي مِثْـلِ هَـذَا الجَـوِّ الـذِي يُصاحِـبُ مُحاولَـةَ اسْـتِئْنافِ الحَيَـاةِ الإِسْـلاميّةِ مِـنْ جَدِيـدٍ يَفتَـحُ القُـرآنُ كُنُـوزَهُ لِلقُلُـوبِ، وَيَمْنَحُ أَسْـرَارَهُ، وَيُشِـيعُ عِطْـرَهُ، ويكـون فيـه هـدًى ونـورٌ.. »[329].

وَلَا زِلْـتُ أَذْكُـرُ بَعْـضَ آيَـاتٍ مِـنَ القُـرْآنِ الكَرِيـمِ اسْـتَمَعْتُ إِلَيْهَـا فِـي أَثْنَـاءِ مُحَاوَلَـةِ

(329) انظر سيد قطب: **خصائص التصور الإسلامي**، دار الشروق، ص 7، 8.

اسْتِئْنَافِ الحَيَاةِ الإِسْلَامِيَّةِ عَلَىٰ حَقِيقَتِهَا، وَفِي ظِلَالِ القُرْآنِ، خِلَالَ مِحْنَةِ سَنَةِ 1965م، وَلَا تَزَالُ لَهَا فِي نَفْسِي أَعْمَقُ الآثَارِ.

وَأَذْكُرُ أَنَّنَا كُنَّا نَحْضُرُ مُحَاضَرَاتٍ كَانَ الغَرَضُ مِنْهَا إِعَادَةَ تَشْكِيلِ العَقْلِ مَرَّةً أُخْرَىٰ، وَقَدْ حَاضَرَنَا فِيهَا بَعْضُ عُلَمَاءِ الدِّينِ وَرِجَالِهِ، وَمِنْهُمْ - لِلْأَسَفِ - رِجَالٌ مِنْ كِبَارِ عُلَمَاءِ الأَزْهَرِ؛ وَكَانَتْ هَذِهِ المُحَاضَرَاتُ - فِيمَا بَدَا لَنَا - **تَسْتَهْدِفُ تَفْرِيغَ القَضِيَّةِ مِنْ مُحْتَوَاهَا وَمَضْمُونِهَا الأَسَاسِيِّ، وَهَزَّ مَفْهُومِ الحَاكِمِيَّةِ، أَوْ مَفْهُومِ الحُكْمِ لِلَّهِ وَالتَّحَاكُمِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ، وَإِضْعَافَ فِكْرَةِ العَمَلِ لِإِقَامَةِ الدِّينِ وَإِعَادَةِ بِنَاءِ الأُمَّةِ حَتَّىٰ يُؤَدِّيَ الدِّينُ دَوْرَهُ فِي الحَيَاةِ.**

وَاسْتَمَرَّتْ هَذِهِ المُحَاضَرَاتُ نَحْوَ عَامٍ كَامِلٍ، ثُمَّ حَدَّدُوا يَوْمًا لِإِجْرَاءِ نَوْعٍ مِنَ الِاخْتِبَارِ فِيمَا قُدِّمَ فِيهَا، وَكَانَ اليَوْمُ المُحَدَّدُ هُوَ يَوْمَ الخَامِسِ مِنْ يُونْيُو. وَكَانَ المُرَادُ أَنْ تُقَسَّمَ المَجْمُوعَةُ بَعْدَ الِاخْتِبَارِ إِلَىٰ فَرِيقَيْنِ: فَرِيقٍ مُعَارِضٍ، وَفَرِيقٍ مُؤَيِّدٍ لِلنِّظَامِ. وَقَدْ تَوَعَّدُوا المُعَارِضِينَ بِأَنَّهُمْ لَنْ يَرَوْا ضَوْءَ الشَّمْسِ مَرَّةً أُخْرَىٰ، وَأَنَّهُمْ سَيَبْقَوْنَ وَرَاءَ الأَسْوَارِ طِيلَةَ حَيَاتِهِمْ، أَمَّا مَنْ يُوَافِقُهُمْ وَيَتَنَازَلُ عَنْ أَفْكَارِهِ فَقَدْ يُمَهِّدُ ذَلِكَ لَهُ سَبِيلَ الإِفْرَاجِ وَالخُرُوجِ مِنَ السِّجْنِ.

لَقَدْ كَانَ يَوْمًا عَصِيبًا، وَلَا زِلْتُ أَتَذَكَّرُ ذَلِكَ الوَعِيدَ الَّذِي تَوَعَّدُونَا بِهِ يَوْمَ الثَّالِثِ مِنْ يُونْيُو؛ إِذْ كَانَ مُقَرَّرًا أَنْ يَكُونَ الِاخْتِبَارُ فِي التَّاسِعَةِ مِنْ صَبَاحِ يَوْمِ الخَامِسِ، فَنَذْهَبُ إِلَىٰ مَكَانِ المُحَاضَرَاتِ، وَيَأْتِي الشُّيُوخُ فَيَسْأَلُونَنَا وَاحِدًا وَاحِدًا. وَبَعْدَ أَنْ عُدْنَا إِلَىٰ سَاحَةِ السِّجْنِ فِي انْتِظَارِ الغَدَاءِ، وَكُنَّا نَقِفُ فِي الطَّابُورِ نُمْسِكُ بِأَيْدِينَا أَشْيَاءَ تُشْبِهُ الأَطْبَاقَ لِنَأْخُذَ فِيهَا طَعَامَنَا، وَحَتَّىٰ وُقُوفُنَا كَانَ بِالخُطْوَةِ السَّرِيعَةِ: «مَحَلَّكَ سِرْ بِالخُطْوَةِ السَّرِيعَةِ»؛ فَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ نَوْعٌ مِنَ الرَّاحَةِ طَوَالَ الوَقْتِ.

وَكَانَ يَقِفُ أَمَامِي أَحَدُ الإِخْوَةِ الكِرَامِ مِنْ عُمَّالِ مَصْنَعِ المَحَلَّةِ، وَهُوَ الشَّيْخُ عَبْدُ القَوِيِّ بَدْر، وَكَانَ رَجُلًا أُمِّيًّا، وَلَكِنَّهُ يَحْفَظُ القُرْآنَ الكَرِيمَ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، حِفْظًا جَيِّدًا مَعَ التَّجْوِيدِ وَحُسْنِ القِرَاءَةِ. وَكَانَ يَقْرَأُ وِرْدَهُ، وَمِنْ قَدَرِ اللهِ أَنْ كَانَ مِمَّا يَقْرَؤُهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ۝ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۚ بَلَىٰ

وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: 79-80].

فَوَقَعَتْ هَذِهِ الآيَاتُ فِي نَفْسِي أَعْظَمَ الأَثَرِ، وَكَانَتْ سَبَبًا فِي تَثْبِيتِي وَتَقْوِيَتِي وَنَحْنُ نَنْتَظِرُ ذَلِكَ اليَوْمَ.

وَأَذْكُرُ أَيْضًا أَنَّهُ أَثْنَاءَ اسْتِكْمَالِ الطَّابُورِ - وَهُوَ يَتِمُّ بِالخُطْوَةِ السَّرِيعَةِ - جَاءَ مَكَانِي بِجِوَارِ الأَخِ مُحَمَّدِ البُحَيْرِيِّ، وَكَانَ يَتْلُو آيَاتٍ مِنَ القُرْآنِ، يُسَمِّعُهَا لِأَخٍ بِجِوَارِهِ. وَوَقَفَ عِنْدَ آيَةٍ لَمْ يَتَذَكَّرْهَا، فَهَزَّنِي وَقَالَ لِي: مَا الآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا؟ فَتَذَكَّرْتُهَا، وَكَانَتْ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 136].

وَلَا تَزَالُ هَذِهِ الآيَاتُ، كُلَّمَا قَرَأْتُهَا فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ، تُعِيدُ إِلَيَّ ذِكْرَىٰ تِلْكَ اللَّحَظَاتِ العَصِيبَةِ؛ فَأَسْتَشْعِرُ مَا فِيهَا مِنْ كُنُوزٍ، وَمَا تَكْشِفُهُ مِنْ أَسْرَارٍ، وَمَا تُشِيعُهُ مِنْ عِطْرٍ، وَمَا تَمْنَحُهُ مِنْ هُدًىٰ وَنُورٍ.

وَجَاءَ يَوْمُ الخَامِسِ مِنْ يُونْيُو فِي الصَّبَاحِ البَاكِرِ، فَفُوجِئْنَا بِأَنَّهُمْ لَمْ يَفْتَحُوا عَلَيْنَا الزَّنَازِينَ، فَتَعَجَّبْنَا، وَلَمْ نَدْرِ مَا السَّبَبُ. وَمَا كَادَتِ السَّاعَةُ تَبْلُغُ التَّاسِعَةَ إِلَّا رُبْعًا حَتَّىٰ سَمِعْنَا - وَنَحْنُ فِي السِّجْنِ الحَرْبِيِّ بَيْنَ الثَّكَنَاتِ - ضَرَبَاتٍ قَوِيَّةً، وَإِذَا بِهَا هَجَمَاتُ الطَّيَرَانِ الإِسْرَائِيلِيِّ وَبِدَايَةُ حَرْبِ يُونْيُو.

وَلَمْ نَخْرُجْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الزَّنَازِينِ، وَلَمْ نَنْزِلْ إِلَىٰ تِلْكَ الطَّوَابِيرِ مَرَّةً أُخْرَىٰ، رَغْمَ مَا سَبَقَ مِنْ وَعِيدِهِمْ لَنَا. ثُمَّ إِذَا بِشَمْسِ بَدْرَانَ وَمَجْمُوعَتِهِ يَدْخُلُونَ بَعْدَ ذَلِكَ السِّجْنَ نَفْسَهُ الَّذِي كُنَّا فِيهِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي نَفْسِي آيَةً مِنْ آيَاتِ اللهِ.

وَهَكَذَا مَنَحَنَا القُرْآنُ كُنُوزَهُ، وَكَشَفَ لَنَا مِنْ أَسْرَارِهِ، وَشَاعَ عِطْرُهُ فِي تِلْكَ اللَّحَظَاتِ القَاسِيَةِ، **فَكَانَ هُدًىٰ وَنُورًا لِمَنْ يُكَابِدُونَ مِنْ أَجْلِ اسْتِئْنَافِ الحَيَاةِ الإِسْلَامِيَّةِ عَلَىٰ أَسَاسِهِ وَفِي ظِلَالِهِ.**

وَهَـذَا مَا يَكْشِفُ الفَرْقَ بَيْنَ قِرَاءَةِ القُرْآنِ مَعْزُولًا عَنْ حَرَكَةِ الحَيَاةِ، وَقِرَاءَتِهِ فِي ظِلِّ المُعَانَاةِ وَالمُدَافَعَةِ وَمُحَاوَلَةِ إِقَامَةِ مَنْهَجِهِ فِي الوَاقِعِ؛ فَفِي مِثْلِ هَـذِهِ اللَّحَظَاتِ تَتَفَتَّحُ لِلقَلْبِ مَعَانٍ وَدَلَالَاتٌ قَدْ لَا يَكْشِفُهَا مُجَرَّدُ القِرَاءَةِ البَعِيدَةِ عَنْ مَعْرَكَةِ الحَيَاةِ.

## ب. الجَهْلُ بِمَقَامِ النَّبيِّ ﷺ

يَعْرِفُ أُولَئِكَ المُثَقَّفُونَ أنـهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، لَكِنَّهُمْ لَا يَعرِفُونَ مَقامَهُ فِي الوُجُودِ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَتمثَّلُوهُ وَلَمْ يَقتَدُوا بِهِ، وَلَمْ يُحبُّوهُ بِالقَدْرِ الَّذِي يَنبغِي أَنْ يَكُونَ لَهُ؛ ذَلِكَ أَنَّ مَعرِفَةَ مَقامِهِ هِيَ الَّتِي تَحُثُّ المُسْلِمَ عَلَىٰ أَنْ يَتمثَّلَهُ، وَيُحِبَّهُ وَيَقتَدِيَ بِهِ، وَيَقْتَفِيَ أَثَرَهُ.

**مَقَامُهُ فِي الوُجُودِ يَكفِي أَنَّه اقترَنَتْ حَياتُهُ بِنُزولِ الوَحْيِ**، وَمِنْ ثَمَّ يَعْسُرُ فَهْمُ القُرآنِ الكَرِيمِ فَهْمًا نَاضِجًا دُونَ مَعرفَةِ حَيَاتِهِ ﷺ، إِذْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ تَجْسِيدًا حَيًّا لآيَاتِ القُرآنِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَخْلاقِه، وَلِذَلِكَ لَمَّا انْقَطَعَ نُزُولُ الوَحْيِ انتَهَتْ حَياتُه ﷺ، وَقَدْ رَوَىٰ مُسْلِمٌ بِسَنَدِهِ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ بَعدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «انْطَلِقْ بِنَا إِلَىٰ أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُهَا، كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَزُورُهَا، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَيْهَا بَكَتْ، فَقَالَا لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ؟ فَقَالَتْ: مَا أَبْكِي أَنْ لَا أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ، وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ، فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ، فَجَعَلَا يَبْكِيَانِ مَعَهَا»[330]. فَكَانَ نُزولُ الوَحْيِ مُرتَبِطًا بِحَياتِهِ وَوُجُودِهِ ﷺ.

وَمِمَّا يُؤَكِّدُ مَقامَ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ مَأمُورٌ بِالاقتِدَاءِ بِهِ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21]؛ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعرِفَ مَدَىٰ التِزَامِهِ بِتَعالِيمِ الإِسْلَامِ فَلْيَعْرِضْ حَياتَهُ وَسِيرَتَه عَلَىٰ حَياةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَسِيرَتِهِ؛ فَإِذَا كَانَ القُرآنُ هُوَ الإِلهَامَ فَإِنَّ السُّنَّةَ هِيَ الخِبْرَةُ، وَإِذَا كَانَ القُرآنُ هُوَ الفِكْرَ فَإِنَّ السنة هِيَ المُمارسَةُ، وَإِذَا كَانَ القُرآنُ هُوَ أسلُوبَ التفكيرِ فَإِنَّ السُّنَّةَ هِيَ أُسلُوبُ الحَياةِ، وَإِذَا كَانَ القُرآنُ يُشكِّلُ الخُلودَ فَإِنَّ السُّنةَ تُشكِّلُ الزَّمَنَ، وَالحيَاةَ وَوقَائِعَهَا.

(330) أخرجه مسلم (2454).

## 4- أَثَرُ النَّظْرَةُ الغَرْبِيَّةُ إِلَىٰ الدِّينِ فِي العَقْلِ المُسْلِمِ

هَـذَا مَقَـامُ الرسُـولِ ﷺ.. وَالجَهْـلُ بِهَـذِهِ المَعَانِـي، هُـوَ الّـذِي أَدَّىٰ - دُونَمَـا رَيْـبٍ - بِالمُثَقَّفِينَ إِلَـىٰ تِلكَ الأَزْمَةِ، لأَنَّهُـمْ قَارنُـوا بَيـنَ الإِسْـلامِ وَغَيـرِهِ مِـنَ الأَدْيَـانِ الّتِي حُرِّفَـتْ أُصُولِهَـا؛ فكَانَـتْ هَـذِهِ المُقارَنَـةُ الجَائِـرَةُ سَـبَبَ أَزْمَتِهِـمْ، وَهَـذَا مَـا وَرِثُـوهُ مِـنْ إِفْـرَازَاتِ الحَضـارَاتِ الوَافِدَةِ التِي تَربَّـوْا عَلَـىٰ فَضلاتِهَـا. وَإِنَّمَـا يَقعُ اللَّـومُ وَالعِتَـابُ عَلَيْهِـمْ؛ لأَنَّهُـمْ لَـمْ يُكلِّفُـوا أَنْفُسَـهُم عَنـاءَ البَحْـثِ وَالدرَاسَـةِ فِـي دِينِهِـمْ الّـذِي يَنتَسِـبُونَ إِلَيْـهِ، أَوْ يُعلِنُـونَ الإِيمَـانَ بِـهِ، أَوْ لَـم يَتبَـرَّؤُوا مِـنَ الانتِسَـابِ إِلَيْـهِ!

### أ. الخَلْطُ بَينَ الوَحْيِ وَالتُّرَاثِ

وَقَـدْ أَشـرْنَا مِـنْ قَبـلُ إِلَـىٰ مَظْهَـرٍ مُهِـمٍّ مِـنْ مَظاهِـرِ أَزْمَـةِ المُثَقَّفِيـنَ مَـعَ الإِسْـلامِ، **وَهُـوَ نَظرتُهُـمُ التُّراثيـةُ إِلَـىٰ الإِسْـلامِ**، حَيْـثُ جَعَلُـوا الوَحْـيَ (القُـرآنَ وَالسُّـنَّةَ) جُـزْءًا مِـنْ التُّـراثِ، وَهَـذِهِ نَظـرَةُ الاسْتِشْـرَاقِ الغَربِـيِّ النصْرَانِـيِّ؛ فَهُنَـاكَ فَـرقٌ كَبِيـرٌ بَيـنَ الوَحْـيِ الّـذِي هُـوَ جُمْلَـةُ التَّعالِيـمِ الإِلَهِيّـةِ المَعْصُومَـةِ، وَبَيـنَ التُّـراثِ وَهُـوَ جُهْـدُ العُلَمـاءِ وَالمُجدِّدِيـنَ وَالفُقَهَـاءِ الذِيـنَ يُصِيبُـونَ وَيُخطِئُـونَ.

أَمَّـا الإِمَـامُ البنَّـا رَحِمَـهُ اللهُ فَقَـدْ جَعَـلَ القُـرآنَ وَالسُّـنةَ مَرجعيّـةً عُلْيَـا فِـي التَّشـرِيعِ؛ حَيـثُ قـالَ فِـي الأَصْـلِ الثانِـي مِـن أُصُـولِ الفَهْـمِ العِشْـرِينَ: «وَالقُـرآنُ الكَرِيـمُ وَالسُّـنّةُ المُطهـرَةُ مَرجِـعُ كُلِّ مُسـلِمٍ فِـي تَعـرُّفِ أحكامِ الإِسْـلَامِ، وَيُـفْهَمُ القُـرآنُ طِبْـقًا لِقَواعِـدِ اللغَـةِ العَربيـةِ مِـنْ غَيـرِ تكلُّـفٍ وَلَا تعسُّـفٍ، وَيُرجَـعُ فِـي فَهْـمِ السُّـنّةِ المُطهـرَةِ إِلَـىٰ رِجَـالِ الحَديـثِ الثِّـقَاتِ»[331].

أَمَّـا التُّـراثُ فَهُـوَ الفِكْـرُ الّـذِي نُسِـجَ حَـوْلَ القُـرآنِ وَالسُّـنَّةِ عَبْـرَ التَّاريـخِ، فَهُـوَ فُهُـومُ الرِّجَـالِ لِهَذَيـنِ الأَصْلَيـنِ، وَلَا يَصِـحُّ الخَلْـطُ بَينَهُمَـا، عَلَـىٰ نَحْـوِ مَـا حَـاوَلَ **نَصـارَىٰ الشَّـامِ** للأَسَـفِ، فَهُـمْ مِـنْ أَوَائِـلِ مَـنْ بَـدَؤوا هَـذَا الخَلْـطَ، فَجَعَلُـوا القُـرآنَ وَالسُّـنةَ مُسَـاوِيَيْنِ لِمَفهُـومِ (التُّـراثِ) الّـذِي هُـوَ فُهُـومُ الرجَـالِ لِهَذَيـنِ الأَصْلَيـنِ.

(331) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة التعاليم]، ص 275.

وَكَانَ لَهُمْ غَرضٌ خَبِيثٌ جِدًّا فِي ذَلِكَ؛ فَقَدْ أَعْلَنَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الإِسْلامَ يُمثِّلُ مَرحلةً مِنَ المَراحلِ التَّارِيخِيةِ فِي حَيَاةِ العَربِ، وَأَنَّ الرسُولَ ﷺ يُعدُّ بَطلًا قَوْمِيًا عَربِيًّا ثَارَ عَلَىٰ حيَاةِ قَومِهِ، وَهَيَّأَ أَبناءَهُم لِتَحريرِ بِلادِهِمْ.

وَلِهَذِهِ النظرَةِ غَايَةٌ بَعِيدَةٌ، وَهِيَ أَنْ يَرىٰ المُسْلِمُونَ تُراثًا عَربِيًّا يَعتَزُّونَ بِهِ بِوَجْهٍ عَامٍّ، وَأَنْ يَنظُروا إِلَىٰ رَسُولِهِم عَلَىٰ أَنَّهُ بَطلٌ قَومِيٌّ ثَارَ عَلَىٰ حَيَاةِ قَومِهِ، وَحرَّرَ أَبنَاءَهُم، أَوْ دَفعَهُم لِتَحريرِ بِلادِهِمْ، وَبِذَلِكَ يُمكِنُ أَنْ يُوضِعَ إِلَىٰ جِوَارِهِ ﷺ أَبطَالٌ قَومِيّونَ آخَرونَ، بَلْ رُبَّمَا فَضَّلُوا بَعْضَهُم عَلَيهِ؛ لأَنَّهُمْ كَانوا نَفعًا لِعَصْرِهم!

**هَذِهِ النظْرَةُ الخَبِيثَةُ خَدَعَتْ بَعضَ المُثقَّفِينَ المُسلِمِينَ لِلأَسَفِ الشَّدِيدِ**، فَكَانَتْ سَببًا مِنْ أَسبابِ أَزمَتِهِم مَعَ الإِسْلامِ، فَلَمْ يَرَوْا مَانِعًا مِنَ النظَرِ إِلَىٰ الدِّينِ الإِسْلامِيِّ عَلَىٰ أَنَّه تُراثٌ يُقبَلُ فِي المُجتمَعَاتِ العَربيَّةِ بِوَصْفِهِ عَاملًا مِنْ عَواملِ تَوثِيقِ الروَابطِ العَاطفيّةِ بَينَ النَّاسِ فِيهَا، لَكِنْ لَا يَكُونُ لَه أَيُّ دَوْرٍ فِي الحُكْمِ أَوِ السِّيَاسَةِ، أَوِ التَّشرِيعِ؛ لَيْسَ لِلإِسْلامِ أَيُّ دَوْرٍ فِي الحَيَاةِ، وَمِنْ ثَمَّ تَبقَىٰ مَعارِفُه أَقْرَبَ إِلَىٰ التُّحَفِ التَّاريخيَّةِ أَوِ الأَثَريَّةِ التِي تَجاوَزَهَا التَّارِيخُ، **أَيْ أَنَّهُم يَقبَلُونَ الإِسْلامَ بِوَصْفِهِ تُراثًا قَومِيًّا شَرِيطَةَ أَنْ يَبقَىٰ مَعزُولًا عَنِ الحَياةِ، وَيَحْتَرِمُونَ النبيَّ ﷺ بِوَصْفِهِ بَطلًا قَومِيًّا كَذَلِكَ، غَيَّرَ حَيَاةَ العَربِ وحَرَّرَ أَبناءَهُم فِي المَاضِي، لَكِنَّهُمْ لَا يَسْمَحُونَ بِأَنْ يَكُونَ لَه دَوْرٌ فِي الحَيَاةِ المُعاصِرَةِ.**

وَهُمْ يَسْعَوْنَ إِلَىٰ نَشْرِ هَذِهِ الرُّؤْيَةِ؛ مِنْ أَجْلِ صِيَاغَةِ المُجتَمَعِ الإِسْلامِيِّ صِياغةً عَلْمانيةً قَوميَّةً، يُعزَلُ فِيهَا الدِّينُ عَزْلًا كَامِلًا عَنِ الحيَاةِ وَالمُجتمَعِ، وَقَدْ جَنَّدُوا لِهَذِهِ الغَايَةِ جِيلًا مِنَ الكُتَّابِ وَالأُدبَاءِ؛ ابتِدَاءً مِنْ: سَلامَة مُوسَىٰ، وَشِبْلِي شمَيّل، وَفَرح أَنْطُون وَغَيرِهِمَ مِنَ النَّصَارَىٰ اللامِعِينَ، وَسَخَّرُوا كَذَلِكَ عَددًا مِنَ المَجلَّاتِ وَالدَّوْرِيّاتِ الّتِي تَخدُمُ هَذِهِ الغَايةَ وَتُروِّجُهَا، وَتَابَعَهُمْ وَتَأَثَّرَ بِهِمْ مَنْ سَمّاهُمُ الإِمَامُ البنَّا (الجِيلَ المُخَضْرَمَ)، فَسَارُوا وَرَاءَهُم، وَحَملُوا فِكرَتَهُمْ، حَتَّىٰ انتَشَرَتْ وَذَاعَتْ، فَفقَدَ الإِسْلامُ قَداستَهُ، وَفَقدَ هَيمَنَتَهُ، وَقِيمَتَهُ التَّاريخيَّةُ.

وِلِهَذَا كَانَتْ الغَايةُ الكُبرَىٰ لِلإِمَامِ البنَّا أَنْ يُعِيدَ الثقةَ فِي صَلاحيَّةِ الإِسْلامِ، وَخُلُودِ

رِسَالَتِهِ؛ كَمَا قَالَ الأستاذُ أَبُو الحَسَنِ النَدوِيّ بِأَنَّ دَعوةَ الإخوَانِ «أَعادَتْ إِلَىٰ الجِيلِ الجَدِيدِ فِي العَالَمِ العَرَبِيِّ الثقَةَ بِصَلاحِيَّةِ الإِسْلامِ وَخُلودِ رِسَالتِه، وَأَنشَأَتْ فِي نفُوسِهِ وَقُلوبِهِ إِيمَانًا جَدِيدًا، وَقَاوَمَتْ (مُرَكَّبَ النَّقْصِ) فِي نُفوسُهِمْ، وَالهزيمَةَ الدّاخليةَ التِي لَا هزيمَةَ أَشْنَعُ مِنْهَا وَأكبَرُ خَطرًا، والمُيوعةَ وضَعفَ النفُوسِ، والانسياقَ تَحتَ رِبقَةِ الشهَواتِ وَالطغْيانِ، وَخَلقَتْ – كَمَا يقُولُ شَاعرُ الإسلامِ الدكتُورُ مُحمَّدُ إِقبَال: (فِي جِسْمِ الحَمَامِ الرَّخْوِ الرَّقِيقِ قَلْبَ الصُّقُورِ والأُسُودِ)، حَتَّىٰ استطاعَ هَذَا الجِيلُ أَنْ يَصنَعَ عجَائبَ فِي الشجَاعةِ وَالبسَالَةِ وَالاستِقَامَةِ وَالثَّباتِ»[332].

لَقَدْ أَدَّتْ هَذِهِ النظْرَةُ التُّراثِيَّةُ لِلإِسْلامِ إِلَىٰ مَا أَسْمَاهُ د. مُحْسِنْ عَبدِ الحَمِيدِ **(التَّلْفِيقَ)**، وَقَدْ تَحَدَّثْنَا عَنْهُ مِنْ قَبلُ كَذَلِكَ؛ حَيثُ يُنْظَرُ لِلدِّينِ عَلَىٰ أَنَّهُ رَابِطَةٌ فَردِيَّةٌ خَاصَّةٌ بَينَ العَبْدِ وَرَبِّهِ، أَوْ هُوَ أَمْرٌ شَخْصِيٌّ لَيسَ لَهُ عَلاقةٌ بِالحَياةِ، الدِّينُ يُنظِّفُ كِيانَ الإِنْسَانِ الدَّاخِلِيِّ وَالعَقْلُ يَحْكُمُ كِيَانَهُ الخَارِجِيَّ، **وَالدِّينُ فِي الغَرْبِ** قِيَمٌ ثَابتَةٌ، وَالثَّباتُ ضِدَّ الحَركَةِ، **وَمِنْ ثَمَّ فَلَا بُدَّ مِنْ فَصْلِ الدِّينِ عَنِ العَقْلِ**، وَلَا بُدَّ أَنْ نَدَعَ مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ، وَمَا للهِ، لَا سِيَاسَةَ فِي الدِّينِ وَلَا دِينَ فِي السِّيَاسَةِ، إِنَّهُ نَوْعٌ مِنَ التَّلْفِيقِ[333].

## ب. فَصْلُ الدِّينِ عَنِ الحَيَاةِ

فَهَؤلاءِ المُثقَّفُونَ المَفتُونُونَ بِالنظْرَةِ الغَربِيَّةِ إِلَىٰ الدِّينِ، لَمْ يَتبرَّؤُوا مِنَ الإِسْلامِ، وَإِنَّمَا نَظرُوا إِلَيْهِ كَمَا يَنظُرُ المَسِيحِيُّ إِلَىٰ دِينِهِ؛ فَأَفْضَىٰ ذَلِكَ إِلَىٰ مَا عُرِفَ بِـ **(نَصْرَنَةِ الإِسْلَامِ)**؛ **بِمَعْنَىٰ إِبْعَادِهِ عَنِ الحَياةِ تَمَامًا، وَتأْلِيهِ العَقْلِ، وَتَقْدِيمِهِ عَلَىٰ الوَحْيِ**؛ لِأَنَّ الوَحْيَ أَوِ الدِّينَ فِي رَأْيِهِمْ أُمورٌ ثَابتَةٌ، أَمَّا الحَيَاةُ فَمُتغَيِّرَةٌ، يُناسِبُها العَقْلُ المُتغَيِّرُ المُتجَدِّدُ؛ فَهُوَ الجَدِيرُ بِأَنْ يَحْكُمَ الحَيَاةَ، بِخِلافِ الدِّينِ الثَّابتِ الجَامِدِ، **وَغَفلُوا أَنَّ الإِسْلامَ يَحتَرِمُ العَقْلَ**، وَيُفْسِحُ لَهُ مَجالًا كَبِيرًا جدًا فِي مَجالاتِ الاجتهَادِ؛ أَيْ أَنَّهُ يَختَلِفُ عَنِ المَسِيحيَّةِ، وَمِنَ الخُطُورَةِ التَّلفِيقُ بَينَ الإِسْلامِ الدِّينِ الإِلَهِيِّ الذِي صَاغَ أَحْكَامَهُ صِياغَةٌ وَاقِعيَّةٌ تتَجاوَبُ مَعَ طَبِيعَةِ الحَياةِ، بِخِلَافِ الإِنْجِيلِ الذِي لَا يَعْدُو أَنْ

(332) حسن البنا: **مذكرات الدعوة والداعية**، ص 19.

(333) انظُر د. محسن عبد الحميد: **أزمة المثقفين تجاه الإسلام**، ص 66، 67.

يَكُونَ مُجرَّدَ تَرانِيمَ وَبِشَارَاتٍ رُوحيَّةٍ ابتَعدَتْ تَمامًا عَنِ الوَاقعِ وَالحيَاةِ.

**أَمَّا القُرآنُ الكَريمُ فَمُمتَزِجٌ بِالوَاقعِ وَالحيَاةِ أَشَدَّ الامتِزَاجِ**؛ إِذْ تَقرَأُ فِيهِ عَنِ القِتَالِ، وَالسِّلاحِ ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: 102].

كَمَا تَقرأُ فِيهِ عَنِ العَدْلِ، وَالانتِقَامِ، وَتقرَأُ فِيهِ عَنْ الصَّيدِ، وَالتجَارَةِ وَالرِّبْحِ وَالمَنفَعةِ، وَكِتَابةِ الدَّيْنِ، والبُيوعِ وَالرِّهَانِ، مِمَّا يَجعَلُه كِتابًا وَاقعيًّا يُنَاسِبُ طَبِيعَةَ الحَيَاةِ وَيُنظِّمُهَا، وَلَا يَنفَصِلُ عَنْهَا.

## ج. الخَلْطُ بَينَ الدِّينِ وَرِجَالِه

وَمِنَ (التَّلْفِيقِ) الذِي مَارَسَهُ أُولئِكَ المُثقَّفُونَ التَّغرِيبيُّونَ، **خَلْطُهُم بَينَ الدِّينِ وَرِجَالِهِ**، مِثْلَما نَظَرَ الغَرْبُ إِلَىٰ رِجَالِ الدِّينِ عَلَىٰ أَنَّهُم الدِّينُ ذَاتُهُ. وَفَرْقٌ كَبِيرٌ جِدًّا بَينَ الدِّينِ وَرِجَالِهِ؛ فَالدِّينُ مَنهَجٌ إِلَهِيٌّ رَبّانِيٌّ، أَمَّا رِجَالُ الدِّينِ فَبَشَرٌ يُصِيبُونَ وَيُخْطِئُونَ.

وَلِذَلِكَ قَرَّرَ الإِمَامُ البَنَّا فِي رِسَالَةِ «نَحْوَ النُّورِ» «**إِنَّ رِجَالَ الدِّينِ غَيرُ الدِّينِ نَفْسِهِ**»، وَتَكلَّم فِي هَذَا المَعْنَىٰ؛ لأَنَّ رِجَالَ الدِّينِ المَسيحِيِّ احتَكَرُوا الحَقِيقَةَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ، وَلَمْ يَفعَلْ عُلماءُ الدِّينِ الإِسْلامِيِّ ذَلِكَ، فَلَمْ يَحتكِرُوا فَهْمَ الدِّينِ، وَكُلُّ مَنْ يَمْتَلِكُ أَدَوَاتِ الفَهْمِ وَمُؤهِّلاتِ الاجتِهَادِ فَلا حَجْرَ عَلَيهِ؛ وَالإِسْلَامُ لَا يَعرِفُ الكَهَنُوتَ أَوْ طَبقَةَ (الإِكْلِيرُوسَ)[334].

(334) **إِكْلِيرُوس**: كَلِمَةٌ يُونانِيةٌ يُقْصَدُ بِهَا أَصحَابُ الرُّتَبِ الكَهنُوتِيّةِ الذِينَ يَخْدِمُونَ شَعْبَ اللهِ (المُؤمِنِينَ)، مِنْ أَسَاقِفَةٍ وَكَهَنَةٍ وَشَمَامِسَةٍ، وَهُمْ يَحمِلُونَ صَوْتَ الشَّعْبِ إِلَىٰ اللهِ، وَيَحْمِلُونَ سِرَّ اللهِ وَكَلِمَتَهُ إِلَىٰ الشَّعْبِ.

## د. الإِلْحَادُ وَإِقْصَاءُ المَنهَجِ الإِلَهِيِّ عَنِ الحَياةِ

بَـقِيَ مَظْهَـرٌ أَخِيـرٌ مِـنْ مَظاهِـرِ أَزْمَـةِ المُثقَّفِيـنَ مَـعَ الإِسْـلام، وَهُـوَ الإِلْحَـادُ؛ وَلَيـسَ المَقْصُـودُ بِالإِلْحَـادِ هُنـا إِنـكَارَ وُجُـودِ اللهِ فحسـبُ، وَإِنَّمَـا هُـوَ طَـرْدُ (اللهِ) وَمِنْهَاجِـهِ مِـنْ حَياتِنَـا تَمامًـا.

وَقَـدِ انتَشَـرَتْ كَثِيـرٌ مِـنَ الفَلْسَـفَاتِ الإِلْحَاديّـةِ وَالمَادِّيـةِ بَيـنَ جُمـوعِ المُسْـلِمِينَ، بِسَـبَبِ الانبِهَـارِ بِحَضَـارَةِ الغَـربِ وَتَقدُّمِهَـا المَـادِّيِّ الهَائـلِ، فَهُـزِمَ كَثِيـرٌ مِـنَ المُسـلِمِينَ هَزِيمَـةً نَفسِـيّةً أَمَـامَ فَلسَـفَاتِها المَاديِّـةِ الّتِي غَـزتْ مُجتمَعـاتِ المُسـلِمِينَ، وَكَانَ أَهَمُّهَـا (الوَضْعِيـةَ) التِي نَظَـرَتْ إِلَـىٰ الدِّيـنِ عَلَىٰ أَنّـهُ أَمْـرٌ خُرافِيٌّ وَيَنبغِـي اسْـتِبعَادُهُ، ثُمَّ (المَاديَّـةَ أَوِ المَاركِسِـيّةَ) التِي عَـدَّتِ الدِّيـنَ أَفْيُـونَ الشُّـعوبِ، ثُـمَّ (النَّفعِيّـةَ) الّتِي جَعلَـتِ الأَخْـلَاقَ نِسْـبِيّةً، وَجَعَلَـتْ رَغَبـاتِ الفَـردِ فَضائِـلَ فِـي ذَاتِهـا أَيًّـا كَانَـتِ، ثُـمَّ (الفَلْسَـفَاتِ الوُجُوديَّـةَ) الّتِـي أَعْطَـتِ الإِنْسَـانَ وَوُجُـودَهَ أَكثَـرَ مِمَّـا يَسْـتَحِقُّ، فِـي حِيـنَ أَهْمَلَـتِ الحَدِيـثَ عَـنِ اللهِ وَعَـنْ وُجُـودِهِ، وَأَعطَـتِ الإِنْسَـانَ حقَّـهُ فِـي الحُريّـةِ وَفِـي الوُجُـودِ، وَالعَبـثِ بِـأَيِّ **قِيَـمٍ وَمَبـادِئَ، وَفِـي ظِـلِّ الفَـراغِ الـذِي كَانَـتْ تُعانِيـهِ السَّـاحَةُ الإِسْـلاميّةُ انتَشَـرَتْ هَـذِهِ الأَفكَارُ وَالفلسَـفَاتُ وَرَاجَـتْ لِلأَسَـفِ، وَبَعـدَ أَنْ كَانَـتْ مَحْصُـورَةً فِـي النُّخَـبِ أَصْبَحَـتْ تَيّـارًا ثَقَافِيًّـا وَاجْتِمَاعِيًّـا.**

وَكَمَـا لَفِظَـتِ الحَضَـارَةُ الغَربيـةُ الدِّيـنَ رَوَّجـوا كَذَلِـكَ لِهَـذِهِ الفِكْـرَةِ (طَـرْدِ اللهِ مِـنْ حَياتِنَـا)، فَلُفِـظَ الدِّيـنُ مِـنَ الحَيـاةِ، وَكَانَ لِذَلِـكَ نَتائِجُـهُ المَأساويةُ وَلَا شَـكَّ، فَقَـدْ **حَـاوَلَ المُتأَثِّـرُونَ بِمِثْـلِ هَـذِهِ الفلسَـفَاتِ (تَغْيِيـرَ الخِطَـابِ الإِلَهِـيِّ)**؛ لأَنَّهُـمْ يَـرَوْنَ أَنَّ الخِطَـابَ الإِلَهِـيَّ تَعبِيـرٌ عَـنِ الحُضُـورِ الدَّائِـمِ لِلإِلَـهِ المُهَمِّـشِ فِيـهِ هُـوَ (الإِنْسَـانُ)، **وَانتَشَـرَتِ الدَّعـوَةُ إِلَـىٰ ضَـرُورَةِ تَغييـرِ هَـذَا الخِطَـابِ الإِلَهِـيِّ أَوْ (أَنْسَـنَـةِ النَّـصِّ)**[335]. بِمَعْنَـىٰ أَنْ يَكُـونَ الحُضُـورُ الدَّائِـمُ لِلإِنْسَـانِ فِـي هَـذَا الخِطَـابِ وَاللامُفكَّـرِ فِيـهِ هُـوَ اللهُ! وَمِـنْ ثَـمَ كَانَ الإِلْحَـادُ مَظهـرًا مِـنْ مَظاهِـرِ التَّأَثُّـرِ بِتِلْـكَ الفَلسـفَاتِ الماديَّـة الّتِي أفرَزَتْهَـا تِلـكَ الحَضَـارَةُ مِـنَ الوَضْعِيّـةِ إِلَـىٰ المَاديَّـةِ الجَدليـةِ أَوِ المَاركِسـيَّةِ، إِلَـىٰ النَّفْعِيَّـةِ وَالوُجُوديّـةِ التِي هَمَّشَـتِ

(335) **أَنْسَـنَةُ النَّـصِّ القُرْآنِـيِّ**: مَعْنَـاهُ التعَامـلُ مَـعَ القُـرآنِ بِوَصْفِـهِ نَصًّـا يُقْـرَأُ وَيُفَسَّـر وَفْـقَ المَناهـجِ المُطبَّقَـةِ عَلَىٰ النُّصُـوصِ البَشَـرِيّةِ، مَـعَ رَبْـطِ دِلَالَاتِـهِ بِظُـرُوفِـهِ التَّاريخِيّـةِ وَالثقَافيّـةِ وَالسيَاقِيّةِ؛ مِمَّـا قَـدْ يُفضِـي، فِي بَعْـضِ الاتجَاهَـاتِ، إِلَـىٰ إِضْعَـافِ خُصُوصيّتِـهِ بِوَصْفِـهِ وَحْيًـا إِلهيًّـا مُنَزَّهًـا عَـنْ أَنْ يَكُـونَ نِتَاجًـا بَشَـرِيًّا.

الإِلَـهَ وَكَرَّسَـتِ الحَدِيـثَ عَـنِ الوُجُـودِ الإِنْسَـانِيِّ أَوِ الحُضُـورِ الإِنْسَـانِيِّ.

## ثانيًا: مَنْهَجُ الْخُروجُ مِنَ الأَزْمَةِ

### 1- فِقْهُ النَّصِّ وَتَنْزِيلُهُ عَلَىٰ الوَاقِعِ

لَقَدْ عَرَضْنَا هَـذِهِ الأَزْمَـةَ وَمَظاهِرَهَـا عَرْضًـا عَامًّا، حَتَّىٰ نَنتقِلَ إِلَىٰ مُحاوَلَـةِ الخُـروجِ مِنْـهَ، وَطَـرْحِ مُقترَحَـاتٍ للخُـروجِ مِنْهَـا. وَلَيْسَـتِ المُشـكِلَةُ كَمَـا هُـوَ وَاضِـحٌ فِـي (نَـصِّ الدِّيـنِ)، وَلَا فِي وُجُودِ المَنْهَـجِ. إِنَّمـا حَقِيقَـةُ المُشكِلَةِ فِي (فِقْـهِ الخِطَـابِ)، أَوْ مَـا يُعـرَفُ بِفِقْـهِ تَنزِيـلِ النَّـصِّ عَلَىٰ الوَاقِـعِ.

أَمَّـا المَنْهَـجُ/ القُـرآنُ، فَقَـدْ بُذِلَـتْ جُهـودٌ ضَخْمَـةٌ جِـدًا مِـنْ أَجْـلِ حِفْظِهِ، وَلَـمْ تَـدَعْ زِيَادَةً لِمُسـتَزِيدٍ، وَكَانَ هَـذَا الحِفْـظُ أَمْـرًا ضَرُورِيًّـا لِسَـلامَةِ وَصِحَّـةِ التَّكلِيـفِ، وَمَـا يَترَتَّـبُ عَلَىٰ ذَلِـكَ مِـنْ مَسـؤُولِيّةٍ، وَهَـذَا مَـا أَدْرَكَـهُ سَـلَفُ الأُمَّـةِ الصَّالِـحُ، وَهُـوَ ضَـرُورَةُ وُصُـولِ النَّـصِّ وَالمَنْهَـجِ القُرآنِـيِّ سَـلِيمًا كَمَـا أُنـزِلَ، وَلِذَلِـكَ نَحـنُ نَـكادُ نَشْـهَدُ نُـزُولَ الوَحْـيِ، وَنَعِيـشُ عَصْـرَ النُّبـوَّةِ لِلدِّقَّـةِ وَالجُهْـدِ الضَّخْـمِ الَّـذِي بُـذِلَ مِـنْ أَجْـلِ حِفْـظِ النَّـصِّ القُرآنِـيِّ.

وَلَا يَسْـتَقِيمُ تَنْزِيـلُ النَّـصِّ عَلَىٰ الوَاقِـعِ إِلَّا بِفَهْـمِ هَـذَا الوَاقِـعِ وَمُعَايَشَـتِهِ؛ فَكَانَ فِقْـهُ الوَاقِـعِ مُكَمِّـلًا لِفِقْـهِ النَّـصِّ، وَلَا يَسْـتَغْنِي أَحَدُهُمَـا عَـنِ الآخَـرِ.

### 2-فِقْهُ الوَاقِعِ وَمُعَايَشَةُ النَّاسِ

وَ**فِقْـهُ الوَاقِـعِ** مُعَقَّـدٌ جِـدًّا، وَلَا يَتحَقَّـقُ بِاستِبَانَـةِ الحَـقِّ فَحَسْـبُ، كَمَّـا أَنَّ الدِّيـنَ لَا تَتحقَّـقُ الغَايَـةُ مِنـهُ بِمُجـرَّدِ فَهْمَـهِ؛ فَغَايَـةُ الدِّيـنِ كَمَـا قُلْنَـا مِـنْ قَبْـلُ هِـيَ تَكييـفُ الحَيَـاةِ تَصَـورًا وَسُـلوكًا وَفْـقَ مُقتَضيَـاتِ الوَحْـيِ الشَّـرِيفِ، وَالسَّـبَبُ فِـي تَعقُّـدِ فِقْـهِ الوَاقِـعِ؛ أَنَّ الإِرَادَةَ الإِنْسَـانيّةَ (أَوِ الفِعْـلَ الإِنْسَـانِيَّ) تَتوسَّـطُ بَيـنَ الوَاقِـعِ وَالوَحْـيِ، وَكُلَّمَـا كَانَ فَهْـمُ الوَاقِـعِ الإِنْسَـانِيِّ أَشْـمَلَ وَأَعْمَـقَ، كَانَـتِ القُـدرَةُ عَلَـىٰ تَكْييفِـهِ وَفْـقَ مُقتَضيـاتِ الوَحْـيِ أَكْبَـرَ؛ وَالتَّجْرِبَـةُ التَّاريخِيّـةُ تُؤَكِّـدُ أَنَّ كَثِيـرًا مِـنَ الجَمَاعَـاتِ أَو الحَـرَكَاتِ الإِصْلَاحِيَّـةِ تَـوَفَّـرَ لَهَـا عُنْصُـرانِ مُهِمَّـانِ: إِخْـلَاصُ المَقْصِـدِ، وَقِيَـامُ فَهْمِهِـمُ النظَـرِيِّ عَلَىٰ أُصُـولِ الحَـقِّ. لَكِنَّهُـمْ

قَصَّرُوا فِي تَمَثُّلِ الوَاقِعِ، وَمِنْ ثَمَّ آلَتْ تَجرِبَتُهُمْ إِلَىٰ الفَشَلِ وَالخُسْرَانِ؛ لأَنَّهُمْ لَمْ يَفهَمُوا كَيْفَ يَتعامَلُونَ مَعَ الوَاقِعِ، أَوْ كَيْفَ يُنزِلُونَ النُّصُوصَ عَلَىٰ الوَاقِعِ المَوجُودِ، وهُوَ وَاقِعٌ بَالِغُ التَّعقيدِ، وَسِرُّ هذا التَّعقِيدِ أَنَّ الوَاقِعَ الإِنْسَانِيَّ غَيرُ مُنضَبِطٍ مِثْلَ الوَاقِعِ الكَونِيِّ؛ فَالوَاقِعُ الكَوْنِيُّ لَهُ سُنَنٌ مُطَّرِدَةٌ تُيسِّرُ فَهْمَهُ وَالتعَامُلَ مَعَهُ، أَمَّا التعَامُلُ مَعَ الوَاقِعِ الإِنْسَانِيِّ فَيكتَنِفُهُ الغُموضُ وَالخَفاءُ وَعَدمُ اطِّرادِ السُّنَنِ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ مُعقَّدًا، وَيَحتَاجُ إِلَىٰ فِقْهٍ خَاصٍّ؛ أَهَمُّ ضَرورَاتِهِ (مُعايشَةُ النَّاسِ)، وَالتَّجْرِبَةُ التَّاريخيّةُ تُؤكِّدَ ذَلِكَ أَيْضًا.

## 3- الصَّحابَةُ أَفْضَلَ جِيلٍ فَهِمَ وَاقِعَهُ

الصَّحابَةُ الكِرَامُ أَفْضَلَ جِيلٍ فَهِمَ وَاقِعَهُ؛ لأَنَّهُمْ هُمُ الذِينَ بَنَوْهُ بِأَيدِيهِم وَعُقولِهِم، هُمُ الذِينَ أَقامُوهُ فِعْلًا وَأَدَارُوهُ، وَأَحْسَنُوا تَنزِيلَ الكِتَابِ وَالسُّنّةِ عَلَىٰ أَحْدَاثِهِ وَوَقَائِعِهِ، فَكَانُوا أَفْقَهَ النَّاسِ بِالوَاقِعِ الّذِي وَاجَهُوهُ، وَلِكَيْ نَفهَمَ الوَاقِعَ جَيّدًا وَنَتمَثَّلَهُ وَنَستَطِيعَ تَنْزِيلَ النَّصِّ عَلَيهِ؛ فَلَا بُدَّ مِنْ مُعايشَةِ هَذَا الواقِعِ وَمُعايشَةِ النَّاسِ، وَهَكَذَا فَعَلَ جِيلُ الصَّحَابَةِ الكِرَامِ.

## 4- جِيلُ التَّابِعِينَ وَفَهْمُهُ لِلوَاقِعِ

ثُمَّ جَاءَ جِيلُ التَّابِعِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، فَسَارُوا عَلَىٰ نَهْجِ الصَّحَابَةِ الكِرَامِ؛ فَكَانَ **أَبُو حَنِيفَةَ** كَمَا يَقولُونَ عَنْهُ يَعِيشَ حَيَاةَ السُّوقِ، لِذَلِكَ جَاءَ فِقْهُهُ مُتجَدِّدًا مُتغَيِّرًا مَعرُوفًا بِالاستِمْرَارِيَّةِ وَالتَّجْديدِ تَبعًا لِوَعْيِهِ بِالغَيْرِ، فَالفِقْهُ هُوَ الوَعْيُ بِالغَيرِ كَمَا يَقُولُونَ، وَلِهَذَا كَانَ فِقْهُ أَبِي حَنِيفَةَ النُّعْمَانِ مِنْ أَوْسَعِ المَناهِجِ الفِقْهِيّةِ لأَنَّه كَانَ يَعِيشُ حَياةَ السُّوقِ.

وَأَخَذَ **الإِمَامُ مَالِكُ** بنُ أَنَسٍ بِـ(عَمَلِ أَهْلِ المَدِينَةِ)؛ مُعايشَةً لِلوَاقِعِ، وَتَجِدُ الموقِفَ الجَدِيدَ عِنْدَ **الإِمَامِ الشَّافِعِيِّ** غَيرَ القَدِيمِ؛ مِمَّا يَعنِي مُعايشَتَهُ لِلوَاقِعِ، فَكَانَ لَهُ فِقْهٌ فِي العِرَاقِ، وَلَهُ فِي مِصْرَ فِقْهٌ آخَرُ.

وَكَانَ **ابنُ حَزْمٍ** مِنَ الفُقَهاءِ الذِينَ انْخَرطُوا فِي الوَاقِعِ الثقَافِيِّ وَالاجتِمَاعِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ

فِي بِلادِهِ، وَلِذَلِكَ جَاءَتْ مُؤلفَاتُـهُ تدل عَلَىٰ ذَلِك، مِثْلَ (المُحَلَّىٰ)، وَ(الفَصْلُ فِي المِلَلِ وَالنِّحَلِ).

وَكَانَ **لِلعِزِّ بْنِ عَبدِ السَّلام** إِسْهَامٌ واضحٌ فِي أَحدَاثِ عَصْرِهِ، فَقاوَمَ السَّلاطِينَ وَانتَصرَ لِلعَامَّةِ، وَلِذَلِكَ جَاءَ كِتابُهُ (القَواعِدُ الكُبرَىٰ المَوسُومُ بِقَواعِدِ الأَحْكَامِ فِي إِصْلَاحِ الأَنَامِ) صُورةً مُتميزَةً مِنَ فِقْهِ الوَاقِعِ وَتَمثُّلِه وَالقُدرَةِ عَلَىٰ الإِنْجَازِ فِيهِ.

وَخَاضَ **ابنُ تَيميةَ** غِمَارَ الحَرْبِ وَالسِّلْمِ، فَاتَّسَمَ فِقْهُهُ بِالاستِيعَابِ وَالشُّمُولِ وَالحَيويَّةِ.

وَطَوَّفَ **ابنُ خَلدُونَ** بِالعَالَمِ الإِسْلَامِيِّ مَشْرِقًا وَمَغْرِبًا حَتَّىٰ خَبَرَ عِلَلَهُ وَأَدْوَاءَهُ، وَتَوَلَّىٰ الكِتَابةَ وَالسِّفَارَةَ وَالوِزَارَةَ وَالحِجَابةَ، وَالقَضَاءَ وَالتَّدرِيسَ؛ وَلِذَلِكَ جَاءَ كِتَابهُ (العِبَرُ) وَ(مُقَدِّمَتُهُ) الشَّهِيرَةُ مِنْ أَنْفَسِ مَا أَنْتَجتْهُ العُقُولُ البشَريةُ، وَلَمْ يَأْتِ هَذَا مِنْ فَراغٍ، وَإِنَّما كَانَ نِتَاجَ مُعايشَتِهِ لِلوَاقِعِ وَرَصْدِهِ وَتَحليلِهِ، وَعَدَمِ الاكْتِفَاءِ بِالمُلاحظَةِ الظَّاهِرَةِ وَهَذَا الّذِي يُعِينُ عَلَىٰ الخُروجِ مِنَ الأَزْمَةِ.. الخُروجُ مِنَ المَأْزِقِ: أَنْ تَتمثَّلَ الوَاقِعَ الّذِي تَنزَّلُ عَلَيهِ الدّينُ. وَالكَسْبُ الإِنْسَانِيُّ هُوَ مُواجهَةُ عَوائقِ الوَاقِعِ مِنْ شَهواتِ النَّفْسِ وَعِنَادِ البيئةِ وَمُغَالِبةُ ذَلِكَ.

## 5- المُصْلِحُونَ المُعَاصِرُونَ

وَقَدْ تَمثَّلَ كَثِيرٌ مِنَ المُصلِحِينَ المُعاصِرِينَ وَاقِعَهُم؛ **فَجَمالُ الدِّينِ الأفغَانِيُّ** مِنَ العُلَمَاءِ المُحدثِينَ الذِينَ طَوَّفُوا بِالعَالَمِ الإِسْلامِيِّ فَخَبَرَ عِلَلَهُ وَأَدْوَاءَهُ، وَلِذَلِكَ طَرحَ مَنْهجَهُ فِي الإِصْلاحِ، ثُمَّ جَاءَ **الشَّيْخُ مُحَمَّدُ عَبْدُه**، فَجَمَعَ بَيْنَ أَنَاةِ المُرَبِّي، وَدِقَّةِ العَالِمِ، وَعَقْلِ الفَيْلَسُوفِ، وَطَرَحَ مَنْهَجَهُ فِي الإِصْلَاحِ الاجْتِمَاعِيِّ، وَأَفَادَ مِنْهُمَا **الإِمَامُ البنَّا** فَخَبَرَ دَخَائِلَ المُجتمَعِ المِصْرِيِّ فَقَدَّمَ مَشْرُوعَهُ الإِصْلاحِيَّ الاجتِمَاعِيَّ الشَّامِلَ، وَبِهَذَا وَصَفَهُ الشَّيخُ مُصطَفَىٰ المَراغِيُّ، فَقَالَ: «وَالآنَ قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الأُستاذَ حَسَنَ البَنَّا يُرِيدُ أَنْ يَبعَثَ المَنَارَ، وَيُعِيدَ سِيرَتَهُ الأُولَىٰ فَسَرَّنِي هَذَا، فَإِنَّ الأُسْتَاذَ البَنَّا رَجُلٌ مُسْلِمٌ غَيُورٌ عَلَىٰ دِينِه، يَفْهَمُ الوَسَطَ الذِي يَعِيشُ فِيهِ، وَيَعْرِفُ مَواضِعَ الدَّاءِ فِي جِسْمِ

الأُمّةِ الإِسْلاميَّةِ، وَيَفْقَهُ أَسْرَارَ الإِسْلام، وَقَدِ اتَّصَلَ بِالنَّاسِ اتِّصَالًا وَثِيقًا عَلَىٰ اختِلَافِ طَبَقَاتِهِمْ وَشَغَلَ نَفْسَهُ بِالإِصْلاحِ الدِّينِيِّ وَالاجْتِمَاعِيِّ عَلَىٰ الطريقَةِ التِي كَانَ يَرضَاهَا سَلَفُ هَذِهِ الأُمّةِ. وَبَعْدُ فَإِنِّي أَرْجُو لِلأُسْتَاذِ البنَّا أَنْ يَسِيرَ عَلَىٰ سِيرَةِ السَّيدِ رَشِيدِ رِضَا، وَأَنْ يُلازِمَهُ التَّوفِيقُ كَمَا صَاحِبَ السَّيدَ رَشِيدَ رِضَا، وَاللهُ هُوَ المُعِينُ، عَلَيهِ نَتوَكَّلُ وَبِهِ نَسْتَعِينُ» (336).

ويقولُ الأستَاذُ شَوْقِي زَكِي عَنِ الإِمَامِ البَنَّا: «وَكَانَتْ شَعبِيتُهُ المِثَالِيّةُ خَيرَ مِعْوَانٍ لَه عَلَىٰ نَجاحِ دِعَايتِهِ فِيْ هَذِهِ الأَوْسَاطِ ، فَكَانَ يُخاطِبُ كُلَّ فِئَةٍ بِالأُسْلُوبِ الذِيْ يَرُوقُ لَهَا وَلَا غَرْوَ، فَقَدِ اكتَسَبَ مِنْ كَثرةِ أَسْفَارِهِ وَاتِّصَالِهِ بِالنَّاسِ، وَاحتِكَاكِه بِأَوسَاطِهِم المُختَلِفَةِ، خِبرَةً اجتِمَاعِيّةً عَظِيمَةً فِي مَعْرِفَةِ الطَّبائعِ وَالمُيولِ، وَلَعلَّ ذَلِكَ كَانَ دُسْتُورًا رَسَمَهُ لِنَفْسِهِ» (337)؛ وَلِذَلِكَ قَدَّمَ الإِمَامُ البنَّا مَشْرُوعًا إِصْلاَحِيًّا اجْتِمَاعِيًّا شَامِلاً، اسْتَهْدَفَ مُعَالَجَةَ أَوْجُهِ المَأْزِقِ الفِكْرِيِّ وَالثَّقَافِيِّ وَالاجْتِمَاعِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ وَالاقْتِصَادِيِّ.

وَلَمْ يَأتِ هَذَا المَشْرُوعُ مِنْ فَراغٍ، وَلَكِنَّهُ نِتَاجُ مُعايشَةِ الإِمَامِ البنَّا لِلوَسْطِ الذِي يُرِيدُ إِصْلَاحَهُ، وَخِبْرتِهِ بِهِ، وَمِنْ ثَمَّ اسْتَطَاعَ أَنْ يُنَزِّلَ النَّصَّ عَلَىٰ الوَاقِعِ المَوجُودِ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ رَصْدَ الوَاقِعِ أَوْ فِقْهَهُ يَحتَاجُ إِلَىٰ آلاتٍ مِنَ الرَّصْدِ وَالتَّحْلِيلِ، وَتَوظِيفِ العُلُومِ الإِنْسَانِيةِ المُعاصِرَةِ مِنْ أَجْلِ فِقْهِهِ وَفَهْمِهِ، فَلَا نكتَفِي بِالمُلاحظَةِ الظَّاهِرَةِ، وَهَذَا الفِقْهُ صَعْبٌ وَمُعَقَّدٌ كَمَا ذَكَرْنَا مِنْ قَبلُ؛ لِأَنَّ الوَاقِعَ الإِنْسَانِيَّ مُرَكَّبٌ، وَلَا يَخْضَعُ لِسُنَنٍ بَسِيطَةٍ مُطَّرِدَةٍ عَلَىٰ نَحْوِ مَا نَجِدُهُ فِي الظَّوَاهِرِ الطَّبِيعِيَّةِ. أَوْ كَمَا يَقولُ أَلِيكسِس كَارِيل فِي كِتَابِهِ **(الإِنْسَانُ ذَلِكَ المَجْهُولُ)**: «الإِنْسَانُ كُلٌّ لَا يَتجَزَّأُ وَفِي غَايَةِ التَّعقِيدِ، وَمِنْ غَيرِ المَيْسُورِ الحُصُولُ عَلَىٰ عَرْضٍ بَسِيطٍ لَهُ، وَلَيْسَتْ هُناكَ طَرِيقَةٌ لِفَهْمِهِ فِي مَجمُوعِهِ، أَوْ فِي أَجزَائِهِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، كَمَا لَا تُوجَدُ طَرِيقَةٌ لِفَهْمِ عَلاقَاتِهِ بِالعَالَمِ الخَارِجِيِّ» (338).

(336) حسن البنا: **مذكرات الدعوة والداعية**، ص 318.
(337) محمد شوقي زكي: الإخوان المسلمون والمجتمع المصري، ص 11.
(338) أليكسس كاريل: **الإنسان ذلك المجهول**، تعريب شفيق أسعد فريد، ط 3، مؤسسة المعارف – بيروت، 1980م، ص 16.

وَذَلِكَ مَا وَصَفَهُ أَحدُ فُقهاءِ الدَّعْوَةِ المُعاصِرينَ فِي قَولِهِ: «لَا تَزَالُ فِي كَوامِنِ فِطْرَةِ المُجتَمَعِ أَقْدَارٌ مِنَ التَّدَيُّنِ، وَلِذَلِكَ بِالتذْكِيرِ القَلِيلِ تَستَيقِظُ هَذِهِ الأقدَارُ كُلُّهَا، وَتَكَادُ تُحْدِثُ مُعجِزَةً فِي دَفْعِ التَّحَوُّلِ... وَإِنَّنَا نُشاهِدُ اليَوْمَ كَيفَ تَتِمُّ المُعجِزَاتُ الحَقِيقِيَّةُ فِي الانتِقَالِ، وَكَيفَ نَتصوَّرُ المُعضِلَةَ الكَبِيرَةَ التِي نُقدِّرُ أَنَّها سَتُكلِّفُنَا التكَالِيفَ، كَيفَ يُيسِّرُهَا اللهُ سُبحَانَهُ وَتَعالَىٰ، إِذْ يَستَيقِظُ الإِيمَانُ، فَيَتَّصِلُ بِقُوةِ اللهِ سُبحَانَه وَتَعالَىٰ ذِي الحَوْلِ وَالطَّوْلِ»(339).

وَهَذَا التَّحَوُّلُ أَمرٌ غَيرُ مُستَبْعَدٍ؛ وَمِنْ أَبرَزِ أَمْثِلَتِهِ قِصَّةُ إِسْلَامِ عُمَيرِ بْنِ وَهْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَقَدْ كَانَ مِنْ أَشَدِّ المُشرِكِينَ عَدَاوَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَجَاءَ إِلَىٰ المَدِينَةِ وَهُوَ يُضمِرُ قَتْلَهُ، فَكَشَفَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ مَا كَانَ قَدْ تَوَاطَأَ عَلَيْهِ سِرًّا مَعَ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، فَأَيْقَنَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَعْلَمْ ذَلِكَ إِلَّا بِوَحْيٍ مِنَ اللهِ، فَأَعْلَنَ إِسْلَامَهُ، وَانْتَقَلَ مِنْ شِدَّةِ العَدَاوَةِ إِلَىٰ حَمْلِ الدَّعْوَةِ وَالدِّفَاعِ عَنْهَا (340).

وَهَذَا تَحَوُّلٌ بَالِغُ الدَّلَالَةِ؛ فَقَدْ جَاءَ الرَّجُلُ وَهُوَ يُضمِرُ الغَدْرَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ هَدَاهُ اللهُ إِلَىٰ الإِسْلَامِ؛ فَكَانَ مَا أَخْبَرَهُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَمْرٍ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ أَحَدٌ غَيْرُهُ وَصَفْوَانُ سَبَبًا فِي انْكِشَافِ الحَقِّ لَهُ، وَاسْتِيقَاظِ مَا بَقِيَ فِي فِطْرَتِهِ مِنْ قَابِلِيَّةٍ لِلْهِدَايَةِ.

## 6-التَّمييزُ بَينَ الدينِ وَالتّدَيُّنِ

أَمْرٌ آخَرُ يَجِبُ أَنْ نُؤَكِّدَهُ، وَهُوَ أَنَّ الدِّينَ بِطَبِيعَتِهِ غَيرُ التَّدَيُّنِ؛ **الدِّينُ:** جُملَةُ التَّعالِيمِ الإِلهِيَّةِ، وَ**التَّدَيُّنُ:** كَسْبٌ إِنْسَانِيٌّ فِي مُغالَبَةِ عَوائِقِ الوَاقِعِ مِنْ شَهواتِ النفْسِ وَعِنَادِ البِيئَةِ، وَفِقْهُ الدِّينِ لَيْسَ غَايَةً فِي ذَاتِهِ، بَلْ الْغَايَةُ أَنْ يَتَحَوَّلَ هَذَا الْفِقْهُ إِلَىٰ تَدَيُّنٍ وَاعٍ يُكَيِّفُ الْحَيَاةَ تَصَوُّرًا وَسُلُوكًا وَفْقَ مُقْتَضَيَاتِ الْوَحْيِ. هَذِهِ غَايَةُ الدِّينِ، أَمَّا فِقْهُهُ فَقَطْ فَلَيسَ غَايَةً فِي ذَاتِهِ أَوْ لَا يُحقِّقُ الغَايَةَ مِنْهُ، بِمَعْنَىٰ أَنَّ المَعرِفَةَ قَدْ تَظَلُّ بَارِدَةً جَامِدَةً مَا

(339) د. عبد المجيد النجار: **فقه التدين فهمًا وتنزيلًا**، سلسلة كتاب الأمة، الدوحة، ص 139.
(340) وفي رواية ابن هشام أن النبي ﷺ قال لعمير بن وهب: «بَلْ قَعَدْتَ أَنْتَ وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ فِي الحِجْرِ...»، فذكر له ما دار بينهما سرًّا، فقال عمير: «أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ... فَوَاللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ مَا أَتَاكَ بِهِ إِلَّا اللهُ»، ثم أسلم. انظر: عبد الملك بن هشام: **السيرة النبوية**، تحقيق مصطفىٰ السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، ط 2، مطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي بمصر، 1375هـ - 1955م: ج1/ 661.

لَـمْ تُنْشِئْ حَياةً أَوْ حَركةً، وَهَـذَا فَهْـمٌ خَطِيرٌ عَظِيـمٌ؛ لأنَّ الانْحِرَافَ فِيهِ يَـؤَدِّي إِلَىٰ التَّعبُّدِ بِمَـا لَـمْ يُرِدِ اللهُ، وَهَـذَا يُـؤَدِّي إِلَىٰ الضَّـلالِ وَالخُسْـرَانِ.

وَمِـنْ أَجْـلِ ذَلِـكَ جَعـلَ الإِمَـامُ البَنَّـا (الفَهْـمَ) أَوَّلَ أَركَانِ بَيعَتِـهِ، وَوَضَـعَ لَـه ضَوابِـطَ دَقِيقَـةً تَمَثَّلَـتْ فِـي (أُصُـولِ الفَهْـمِ العِشْـرِينَ)، وَعَلَّمَنَـا كَيـفَ نَتعامَـلُ مَـعَ أَهَـمِّ أَصْلَيـنِ يُـرْجَعُ إِلَيْهِمَـا فِي فَهْمِ الإِسْـلَامِ وَهُمَـا القُـرآنُ وَالسُّـنَّةُ، فَقَالَ فِي الأَصْلِ الثَّانِي مِن أُصُولِ الفَهْـمِ العِشْـرِينَ: «وَالقُـرآنُ الكَرِيـمُ وَالسُّـنَّةُ المُطهـرَةُ مَرجِـعُ كُلِّ مُسلِمٍ فِي تَعـرُّفِ أحكامِ الإِسْـلَامِ، وَيُـفْهَمُ القُـرآنُ طِبْـقًا لِقَواعِـدِ اللغَةِ العَربيةِ مِنْ غَيرِ تَكلُّـفٍ وَلَا تَعسُّـفٍ، وَيُرجَعُ فِي فَهْـمِ السُّـنَّةِ المُطهـرَةِ إِلَىٰ رِجَـالِ الحَديـثِ الثِّـقَاتِ»[341].

## 7- إِدْرَاكُ مُكَوِّنَاتِ الوَاقِعِ المُؤَثِّرَةِ فِي عَمَلِيَّةِ التَّغْيِيرِ

لَا شَـكَّ أَنَّ الوَاقِـعَ الرَّاهِـنَ تَتحكَّـمُ فِيـهِ أُمُـورٌ ثَلاثَـةٌ يُـؤَدِّي إِغْفَالُهَـا إِلَىٰ اضْطِـرَابٍ فِكْرِيٍّ وَاختِلَالٍ نَفسِـيٍّ؛ لأنَّ أَيَّ مُحاولَـةٍ لِتَغْيِيرِ الوَاقِـعِ تَحتَـاجُ إِلَىٰ بِنَـاءٍ فِكْـرِيٍّ مُتسِـقٍ وَإِلَىٰ وَضْعٍ نَفسِـيٍّ مُنسَـجِمٍ، وَكُلَّمَـا كَانَ البِنَـاءُ الفِكـرِيُّ وَالوَضْـعُ النفْسِـيُّ مُتفِقًـا وَمُنسَـجِمًا؛ سَـهُلَ اقتِحَـامُ الوَاقِـعِ وَاستِثْمَارُهُ، وَإِذَا تَأَمَّلْنَـا وَاقِعَنَـا المُعاصِـرَ عَلِمْنَـا أَنَّ هَـذَا الوَاقِـعُ تَحْكُمُهُ ثَلاثَـةُ عَنَاصِـرَ لَا يُمكِـنُ إِغْفَالُهَـا، وَهِـيَ:

الْعُنْصُرُ الدِّينِيُّ، وَالْعُنْصُرُ التَّارِيخِيُّ، وَالْعُنْصُرُ الْحَضَارِيُّ، عَلَىٰ نَحْوِ مَا سَنَرَىٰ.

### أ. العُنصُرُ الدِّينِيُّ

وَقَـدْ أَشَـارَ إِلَيْـهِ الإِمَـامُ البَنَّـا خِلَالَ حَدِيثِـهِ عَـنْ إِلَـىٰ مَزايَـا التَّوجُّـهِ الإِسْلامِـيِّ، فَـذَكَـرَ مِنْهَـا: «أَنَّ المِنْهَـاجَ الإِسْلَامِـيَّ قَـدْ جُـرِّبَ مِـنْ قَبـلُ وَشَـهِدَ التَّاريـخُ بِصَلاحِيَّتِـهِ، وَأَخْـرَجَ لِلنَّـاسِ أُمَّـةً مِـنْ أَقْـوَىٰ الأُمَـمِ وَأَفْضَلِهَـا وَأَرْحَمِهَـا وَأَبَرِّهَـا وَأَبْرَكِهَـا عَلَـىٰ الإِنْسَـانِيَّةِ جَمِيعًـا؛ وَلَـهُ مِـنْ قُدسِـيَّتِهِ وَاسـتِقْرَارِهِ فِي نفُـوسِ النَّـاسِ مَـا يُسـهِّلُ عَلَـىٰ الجَمِيـعِ تَنَاوُلَـهُ وَفِقْهَـهُ وَالاسـتِجَابَةَ لَـهُ وَالسَّيْـرَ عَلَيـهِ مَتَـىٰ وُجِّهُـوا إِلَيْـهِ» [342]. لأَنَّ الضَّمِيرَ الجَمْعِيَّ لِلأُمَّـةِ لَـمْ

(341) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة التعاليم]، ص 275.
(342) حسن البنا: **مجموع رسائل الإمام البنا**، [رسالة: نحو النور]، ص 158.

يَفْقِدْ مَا فَقَدَهُ الوَاقِعُ الخَارِجِيُّ الظَّاهِرُ مِنْ أَقْدَارِ التَّدَيُّنِ؛ إِذْ ظَلَّ الدِّينُ قُوةً مُختزَنَةً قَابِلَةً لِلظُّهورِ وَالفِعْلِ فِي أَيِّ لَحْظَةٍ.

## ب. العُنْصُرُ التَّاريخِيُّ

وَفِي هَذَا العُنْصُرِ عَوامِلُ إِيجَابِيَّةٌ، وَأُخْرَىٰ سَلْبِيَّةٌ؛ **أَمَّا العَناصِرُ الإِيجَابِيَّةُ** فَهِيَ وَحْدَةُ الأُمَّةِ وَالتجَاوُبِ الشُّعورِيِّ القَائِمِ بَينَ المُسْلِمِينَ جَمِيعًا فِي الآلَامِ وَالآمَالِ، فِي الأَحْزَانِ وَالأَفْرَاحِ، فِي قِضَايَا الأُمَّةِ المُخْتَلِفَةِ مِنْ جَاكَارْتَا إِلَىٰ نَواكْشُوط، تَجِدُ هَذَا التَّجَاوُبَ الشُّعُورِيَّ حَاضِرًا فَعَّالًا، وَهَذَا عَامِلٌ تَاريخِيٌّ لَا يُمكِنُ إِهْمَالُه، وَهُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ الحِسِّ الحَضَارِيِّ لَدَىٰ أُمَّتِنَا، وشُعورِهَا بِأَنَّها تَمتَلِكُ حَضَارَةً مُمْتَدَّةً قَامَتْ عَلَىٰ هَدْيٍ مِنَ الوَحْيِ الإِلَهِيِّ. هَذَا شَيْءٌ مَوجُودٌ لَدَىٰ المُسلِمِينَ جَمِيعًا. وَقَدْ قُلْنَا إِنَّ الإِمَامَ البَنَّا خَبرَ دَخَائِلَ المُجتَمَعِ المِصْرِيِّ، فَأَحَسَّ أَنَّ عَنَاصِرَ السَّلامَةِ فِي هَذِهِ الأمةِ لَا تَزالُ صَالِحةً فِي نُفُوسِ شُعُوبِها المُؤْمِنَةِ الفَتِيّةِ يقولُ الإمامُ البنَّا: «أَيّها الإخوَانُ المُسلمُونَ: لَا تيأسُوا فَلَيسَ اليأسُ مِن أخلاقِ المُسلمِينَ، وَحقائقُ اليَوْمِ أَحلامُ الأمسِ، وَأحلامُ اليومِ حَقائقُ الغَدِ. وَلَا زَالَ فِي الوَقْتِ مُتّسَعٌ، وَلَا زَالَتْ عَناصِرُ السَّلامةِ قَويةً عَظيمةً فِي نُفُوسِ شُعوبِكُمْ المُؤمِنَةِ رَغمَ طُغيانِ مَظاهِرِ الفَسَادِ. وَالضَّعيفُ لَا يَظلُّ ضَعِيفًا طُولَ حَياتِهِ، وَالقويُّ لَا تَدُومُ قُوتُهُ أَبدَ الآبِدِينَ: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [**القصص**: 5، 6]»[343].

وَهَذَا المَخْزُونُ الإِيمَانِيُّ وَالحَضَارِيُّ الكَامِنُ فِي ضَمِيرِ هَذِهِ الأُمَّةِ، يَجْعَلُهَا تَتقبّلُ أَيَّ فِعْلٍ حَضارِيٍّ يَقومُ عَلَىٰ أساسٍ مِنَ الدِّينِ، وَيَجْعَلُهَا قَادِرَةً كَذَلِكَ عَلَىٰ تَقْوِيمِ مَا يَكُونُ مِنَ انحِرَافٍ فِي حَياتِهَا عَنْ سُنَّةِ الدِّينِ، تَشْعُرُ بِهِ وَتُحِسُّ بِهِ، وَكُلُّ مَا تَحتَاجُ إِلَيهِ هُوَ قَلِيلٌ مِنَ التذْكِيرِ لِتَتِمَّ عَمليّةُ التحَوُّلِ وَتَقعَ المُعْجِزَةُ.

وَأَمَّا **العَناصِرُ السَّلْبِيَّةُ** فَتتَمَثَّلُ فِيمَا حَدَثَ فِي عُصُورِ الانْحِطَاطِ مِنَ اختِلَالٍ فِكْرِيٍّ عِنْدَمَا غَابَ عَنِ الفِكْرِ الإِسْلامِيِّ قَانُونُ السَّببِيَّةِ الغَائِيَّةِ، أَوِ التَّرابُطُ العِلّيُّ بَينَ المَوجَودَاتِ، مِمَّا أَدَّىٰ إِلَىٰ نَوْعٍ مِنَ الاخْتِلَالِ الفِكْرِيِّ وَالاختِلَالِ الإِرَادِيِّ أَيْضًا فِي

(343) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة المؤتمر الخامس]، ص 376.

الفَعَالِيَّةِ؛ فَكَانَ سَبَبًا فِي قُصُورِ الأُمَّةِ عَنْ إِنْجَازِهَا لِمُقوياتِ الوَحْيِ إِمَّا عَجْزًا فِي الأَدَاءِ، وَإِمَّا رُكُونًا إِلَىٰ الدَّعَةِ.

## ج. العُنْصُرُ الحَضَارِيُّ

وَهُوَ العنصُرُ الثَّالِثُ مِنَ العَناصِرِ التِي تَتحَكَّمُ فِي الوَاقِعِ الرَّاهِنِ؛ حَيْثُ هَيْمَنَ الشُّعُورُ الانْهِزَامِيُّ أَمَامَ حَضَارَةٍ مَادِيّةٍ مُتفوِّقَةٍ وَالبشَرِيّةُ فِي جُملَتِهَا، لَا تَستَطِيعُ أَنْ تَستَغْنِيَ عَنْهَا؛ وَمِنْ ثَمَّ أَصْبَحَتْ قِيَمُ الحَضَارَةِ الغَربيّةِ وَإِفْرازَاتُهَا الوَافِدَةُ -أَيًا كَانَتْ- مُشكِلَةً قَائِمَةً تُسَبِّبُ نَوعًا مِنَ التَّمزُّقِ النفْسِيِّ بَينَ مَادِيَّةِ المُقلَّدِ وَإِسْلَامِيّةِ المُقلِّدِ، أَدَّتْ إِلَىٰ نَوْعٍ مِنَ ضَعْفِ الشَّخْصِيَّةِ وَمُيوعَتِهَا؛ **لأَنَّ أَهَمَّ مَا يُمَيِّزُ هَذِهِ الحَضَارَةَ المَادِيَّة، هُوَ شَراهَةُ الاسْتِهْلاكِ، وَالحَياةُ الناعمَةُ العَابِثَةُ اللَّاهِيَةُ**، وَهَذَا مَا ذَكَرَهُ الإِمَامُ البَنَّا (رَحِمَهُ اللهُ)، حَيْثُ قَالَ:

«وَلَكِنَّ هَذِهِ الحَضَارَةَ الغَربيّةَ قَدْ غَزَتْنَا غَزْوًا قَوِيًّا عَنِيفًا بِالعِلْمِ وَبِالمَالِ، وَبِالسِّيَاسَةِ وَبِالتَّرَفِ، وَالمُتْعَةِ وَاللَّهْوِ وَبِضُرُوبٍ مِنَ الحَياةِ النَّاعِمَةِ العَابِثَةِ المُغْرِيَةِ التِي لَمْ نَكُنْ نَعرِفُهَا مِنْ قَبْلُ. فَأُعْجِبْنَا بِهَا، وَرَكَنَّا إِلَيْهَا، وَأَثَّرَ هَذَا الغَزْوُ فِينَا أَبْلَغَ الأَثَرِ وَانْحَسَرَ ظِلُّ الفِكْرَةِ الإِسْلَامِيّةِ عَنِ الحَيَاةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ فِي كَثِيرٍ مِنْ شُؤُونِهَا الهَامَّةِ، وَانْدَفَعْنَا نُغَيِّرُ أَوْضَاعَنَا الحَيويَّةَ وَنَصْبُغُ مُعظَمَهَا بِالصِّبْغَةِ الأُورُوبيَّةِ، وَحَصَرْنَا سُلطَانَ الإِسْلَامِ فِي حَياتِنَا عَلَىٰ القُلُوبِ وَالمَحَارِيبِ، وَفَصَلْنَا عَنْهُ شُؤُونَ الحَياةِ العَمَلِيّةِ، وَبَاعَدْنَا بَينَهُ وَبَيْنَهَا مُباعَدَةً شَدِيدَةً، وَبِهَذَا أَصْبَحْنَا نَحْيَا حَيَاةً ثُنائِيَّةً مُتذَبْذِبَةً أَوْ مُتنَاقِضَةً» (344).

## 8- إِعْدَادُ الإِنْسَانِ القَادِرِ عَلَىٰ حَمْلِ الرِّسَالَةِ وَمُوَاجَهَةِ التَّحَدِّيَاتِ

أَمَّا **الإِمَامُ البنَّا** (رَحِمَهُ اللهُ)، فَقَدْ قَاوَمَ هَذِهِ الحَياةَ اللَّاهِيَةَ النَّاعِمَةَ فِي نَفْسِهِ؛ إِذْ أَخَذَهَا بِشَيْءٍ مِنَ الصَّرامَةِ والجِدِّ، **فَعَاشَ حَيَاةَ الحِرْمَانِ وَالشَّظَفِ؛ حَتَّىٰ يَقْوَىٰ عَلَىٰ إِنْجَازِ مُتطَلَّبَاتِ الدَّعْوَةِ، وَمُقتَضَيَاتِ النُّهُوضِ، وَلِيَكُونَ قُدوَةً لإِخْوَانِهِ، وَكُلُّ هَذَا بِرَغْبَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ.**

(344) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة دعوتنا في طور جديد]، ص 498.

وَلِهَذَا قَالَ عَنْهُ رُوبِيرُ جَاكْسُون: «كُلُّ مَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَه هُنَا: إِنَّ الرَّجُلَ أَفْلَتَ مِنْ غَوائِلِ المَرْأَةِ وَالمَالِ وَالجَاهِ، وَهِيَ المُغْرِيَاتُ الثَّلاثُ التِي سَلَّطَهَا المُسْتَعْمِرُ عَلَىٰ المُجاهِدِينَ، وَقَدْ فَشِلَتْ كُلُّ المُحاوَلَاتِ التِي بُذِلَتْ فِي سَبِيلِ إِغْرَائِهِ. **وَقَدْ أَعَانَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ صُوفِيَتُهُ الصَّادِقَةُ، وَزُهْدُه الطَّبِيعِيُّ**؛ فَقَدْ تَزَوَّجَ مُبَكِّرًا، وَعَاشَ فَقِيرًا وَجَعَلَ جَاهَهُ فِي ثِقَةِ أُولِئَكَ الذِينَ التَفُّوا حَوْلَه، وَأَمْضَىٰ حَيَاتَهُ القَصِيرَةَ العَرِيضَةَ مُجَانِبًا لِمَيَادِينِ الشُّهْرَةِ الكَاذِبَةِ وأَسْبَابِ التَّرَفِ الرَّخِيصِ»(345).

وَهَذَا **سِرُّ اخْتِيَارِ العَرَبِ لِهَذَا الدِّينِ**؛ إِذِ اختَارَ اللهُ تَعالَىٰ أُمَّةً مُمتَلِئَةً بِالحَيَوِيّةِ وَالنشَاطِ تَعِيشُ شَظَفَ العَيْشِ، وَتَحتَاجُ إِلَىٰ عَنَاءٍ وَجُهْدٍ مِنْ أَجْلِ اسْتِخْرَاجِ القَلِيلِ مِنَ المَاءِ أَوْ زِرَاعَةِ قِيرَاطٍ مِنَ الأَرْضِ، تَعِيشُ فِي رَحَلاتٍ طَوِيلةٍ عَلَىٰ ظُهورِ الإِبِلِ إِلَىٰ الشَّامِ وَإِلَىٰ اليَمَنِ (رِحْلَتَا الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ اللتَينِ ذَكَرَهُمَا القرآنُ) مِنْ أَجْلِ تَوفِيرِ لُقْمَةِ العَيْشِ، قال تعالىٰ: ﴿**لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ(1) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ(2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ(3) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ(4)**﴾ [سورة قريش]. فَهِيَ أُمَّةٌ مُمتَلِئَةٌ بِالحَيَوِيّةِ وَالنشَاطِ، فَضْلًا عَمَّا مَنَحَتْهُم الصَّحرَاءُ مِنْ شُعورٍ دِينِيٍّ عَمِيقٍ. كُلُّ ذَلِكَ أَهَّلَهُمْ لاسْتِقْبَالِ قَدَرِهِمْ وَهُوَ (الإِسْلَامُ) رِسَالَةُ اللهِ الأَخِيرَةُ إِلَىٰ الأَرْضِ.

وَلَا يَعْنِي هَذَا الرَّهَبنَةَ، بِقَدْرِ مَا يَعْنِي إِعْدَادَ النَّفْسِ لِرِسَالةٍ جَادَّةٍ تَحتَاجُ إِلَىٰ حَيَاةٍ جَادَّةٍ وَلَا تُناسِبُهَا الحَيَاةُ النَّاعِمَةُ اللَّاهِيَةُ، وَهَذِهِ الحَيَاةُ هِيَ سُنَّةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهُوَ القُدْوَةُ وَالأُسْوَةُ لأُمَّتِهِ، وَمَا يَنبَغِي لَهُ أَنْ يَعِيشَ حَيَاةَ التَّرفِ وَالنَّعِيمِ وَفِي أُمتِهِ فُقَرَاءُ.

فَعَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ: «وَاللهِ يَا ابْنَ أُخْتِي إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَىٰ الْهِلَالِ، ثُمَّ الْهِلَالِ، ثُمَّ الْهِلَالِ، ثَلَاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَارٌ، قَالَ: قُلْتُ: يَا خَالَةُ فَمَا كَانَ يُعَيِّشُكُمْ؟ قَالَتْ: «الْأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَكَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ، فَكَانُوا يُرْسِلُونَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَلْبَانِهَا، فَيَسْقِينَاهُ»(346)، وَقَدْ أَخْرَجَ ابْنُ سَعْدٍ عَنْ شَيْخِهِ الْوَاقِدِيِّ

(345) روبير جاكسون: **حسن البنا الرجل القرآني**، ص 8.
(346) أخرجه البخاري (6458)، ومسلم (2972)، والترمذي (2471) باختلاف يسير.

بِسَنَدٍ لَهُ إِلَىٰ أُمِّ سَلَمَةَ، قَالَتْ: «لَمَّا خَطَبَنِي النَّبِيُّ ﷺ - فَذَكَرَ قِصَّةَ تَزْوِيجِهِ بِهَا -؛ فَأَدْخَلَنِي بَيْتَ زَيْنَبَ بِنْتِ خُزَيْمَةَ، فَإِذَا جَرَّةٌ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ شَعِيرٍ، فَأَخَذْتُهُ فَطَحَنْتُهُ ثُمَّ عَصَدْتُهُ فِي الْبُرْمَةِ، وَأَخَذْتُ شَيْئًا مِنْ إِهَالَةٍ فَأَدَمْتُهُ، فَكَانَ ذَلِكَ طَعَامُ رَسُولِ اللهِ ﷺ»[347]. وَرَسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ الَّذِي اخْتَارَ هَذِهِ الحياةَ، وَكَانَ يُمكِنُه أَنْ يَحْيَا حَياةَ المُترَفِينَ العَابِثِينَ، لَكِنَّها لَا تُناسِبُ مَقَامَ النُّبوَّةِ وَجَلالَ الرِّسَالَةِ، فَجَازَفَ بِحياتِهِ فِي سَبيلِ مَا يُؤْمِنُ بِهِ وَيَدْعُو إِلَيهِ.

وَالعَجِيبُ أَنَّ مَنْ قَالَ هَذَا الكَلامَ رَجُلٌ مُستَشْرِقٌ، وَنَقَلَهُ عَنْهُ العَقَّادُ فِي كِتَابِهِ **(عَبقَرِيَّةُ مُحمَّدٍ)**، فَقَالَ: «عَقَدَ عَالِمٌ أُورُوبِّيٌّ[348] مُقَارنةً بَينَ مُحمَّدٍ وَبُوذَا وَالمَسيحِ فَسأَلَ: «أَلَيْسَ مُحمَّدٌ نبيًّا عَلَىٰ وَجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ؟» ثُمَّ أَجابَ قائلًا: «إِنَّهُ عَلَىٰ اليَقينِ لَصَاحِبُ فَضِيلَتَينِ مِنْ فَضائِلِ الأَنْبِيَاءِ؛ فَقَدْ عَرفَ حَقِيقَةً عَنِ اللهِ لَمْ يَعْرِفْهَا النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِ، وَتَمكَّنَتْ مِنْ نَفسِهِ نَزعَةٌ بَاطِنِيةٌ لَا تُقاوَمُ لِنَشْرِ تِلْكَ الحَقِيقَةِ، وَإِنَّهُ لَخلِيقٌ فِي هَذِهِ الفَضِيلَةِ أَنْ يُسامِيَ أَوْفَرَ الأَنبِيَاءِ شَجاعَةً وَبُطُولَةً بَينَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، **لأَنَّهُ جَازَفَ بِحَيَاتِهِ فِي سَبِيلِ الحَقِّ، وَصَبَرَ عَلَىٰ الإِيذَاءِ يومًا بَعْدَ يَوْمٍ عِدَّةَ سِنِينَ، وَقَابَلَ النَّفْيَ وَالحِرْمَانَ وَالضَّغِينَةَ، وَفَقْدَ مَودَّةِ الأَصْحَابِ بِغَيرِ مُبالاةٍ، فَصَابَرَ عَلَىٰ الجُمْلَةِ قُصَارَىٰ مَا يَصْبِرُ عَلَيهِ إِنْسَانٌ دُونَ المَوْتِ الَّذِي نَجَا مِنْهُ بِالهِجْرَةِ، وَدَأَبَ مَعَ هَذَا جَمِيعِهِ عَلَىٰ بَثِّ رِسَالَتِهِ غَيرَ قَادِرٍ عَلَىٰ إِسْكَاتِهِ وَعْدٌ وَلَا وَعِيدٌ وَلَا إِغْرَاءٌ**. وَرُبَّمَا اهْتَدَىٰ إِلَىٰ التَّوحِيدِ أُنَاسٌ آخَرُونَ بَينَ عُبَّادِ الأَوْثَانِ، إِلَّا أَنَّ أَحَدًا آخَرَ غَيرَ مُحمَّدٍ لَمْ يُقِمْ فِي العَالَمِ مِثْلَمَا أَقَامَ مِنْ إِيمَانٍ بِالوَحْدَانِيةِ دَائِمٍ مَكِينٍ، وَمَا أُتِيحَ لَه ذَلِكَ إِلَّا لِمَضَاءِ عَزْمِهِ أَنْ يَحْمِلَ الآخَرِينَ عَلَىٰ الإِيمَانِ، فَإِذَا سَأَلَ سَائِلٌ: مَا الَّذِي دَفَعَ بِمُحمَّدٍ إِلَىٰ إِقْنَاعِ غَيرِهِ حَيْثُ رَضِيَ المُوحِّدُونَ بِعِبَادَةِ العُزلَةِ؟ ... فَلا مَنَاصَ لَنَا أَنْ نُسَلِّمَ أَنَّهُ هُوَ العُمْقُ وَالقُوَّةُ فِي إِيمَانِهِ بِصِدْقِ مَا دَعَا إِلَيْهِ»[349].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «لَمْ يَمْتَلِئْ جَوْفُ النَّبِيِّ ﷺ سَبْعًا قَطُّ. وَلَمْ يَبُثَّ

(347) انظر ابن حجر العسقلاني: **فتح الباري بشرح البخاري**، ط 1، المكتبة السلفية، 1380هـ، 9/ 239.

(348) الدكتور ماركس دودز في كتابه «**محمد وبوذا والمسيح**»
Mohamed Buddha and Chirst By Dr: Marcus Dodds.

(349) عباس محمود العقاد: **عبقرية محمد**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2013م، ص 142.

شَكْوَىٰ إِلَىٰ أَحَدٍ، وَكَانَتِ الْفَاقَةُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الْغِنَىٰ، وَإِنْ كَانَ لَيَظَلُّ جَائِعًا يَلْتَوِي طُولَ لَيْلَتِهِ مِنَ الْجُوعِ فَلَا يَمْنَعُهُ صِيَامُ يَوْمِهِ. وَلَوْ شَاءَ سَأَلَ رَبَّهُ جَمِيعَ كُنُوزِ الْأَرْضِ وَثِمَارِهَا، وَرَغَدَ عَيْشِهَا ولقد أَبْكِي لَهُ رَحْمَةً مِمَّا أَرَىٰ بِهِ، وَأَمْسَحُ بِيَدِي عَلَىٰ بَطْنِهِ مِمَّا بِهِ مِنَ الْجُوعِ، وَأَقُولُ: نَفْسِي لَكَ الْفِدَاءُ، لَوْ تَبَلَّغْتَ مِنَ الدُّنْيَا بِمَا يَقُوتُكَ. فَيَقُولُ: «يَا عَائِشَةُ. مَالِي وَلِلدُّنْيَا، إِخْوَانِي مِنْ أُولِي الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ صَبَرُوا عَلَىٰ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْ هَذَا، فَمَضَوْا عَلَىٰ حَالِهِمْ، فَقَدِمُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ، فَأَكْرَمَ مَآبَهُمْ وَأَجْزَلَ ثَوَابَهُمْ، **فَأَجِدُنِي أَسْتَحْيِي إِنْ تَرَفَّهْتُ فِي مَعِيشَتِي أَنْ يُقَصِّرَ بِي غَدًا دُونَهُمْ. وَمَا مِنْ شَيْءٍ هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ اللُّحُوقِ بِإِخْوَانِي وَأَخِلَّائِي**»(350).

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «فَدَخَلْتُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَىٰ حَصِيرٍ، فَجَلَسْتُ. فَأَدْنَىٰ عَلَيْهِ إِزَارَهُ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَنَظَرْتُ بِبَصَرِي فِي خِزَانَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. فَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ، وَمِثْلِهَا قَرَظًا(351) فِي نَاحِيَةِ الغُرْفَةِ، وَإِذَا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ، قَالَ: فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ. قَالَ: «مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟» قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، وَمَالِي لا أَبْكِي؟ وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لا أَرَىٰ فِيهَا إِلا مَا أَرَىٰ، وَذَاكَ قَيْصَرُ وَكِسْرَىٰ فِي الثِّمَارِ وَالأَنْهَارِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَصَفْوَتُهُ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ. فَقَالَ: (يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، أَلا تَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ لَنَا الآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا؟). قُلْتُ: بَلَىٰ»(352).

فَهَذِهِ حَيَاةُ الأَنبِيَاءِ وَالدُّعَاةِ، وَهِيَ زَادُ كُلِّ دَاعِيَةٍ وَمُصْلِحٍ. أَمَّا حَيَاةُ المُتْرَفِينَ، فَهِيَ «حَيَاةٌ لَا نَعرِفُهَا» بِتَعْبِيرِ الإِمَامِ البَنَّا الدَّقِيقِ؛ لأَنَّ هَذِهِ الحَيَاةَ تَمْنَعُنَا مِنْ أَنْ نُنجِزَ مَا يَقْتَضِيهِ مِنَّا الوَحْيُ الشَّرِيفُ، أَوْ مَا تُوجِبُهُ دَعْوَتُنَا المُبَارَكَةُ.

وإِذَا أَلِفَ النَاسُ الحَيَاةَ الوَادِعَةَ النَاعِمَةَ، فَعَلَىٰ الإِخْوَانِ أَنْ يَكُونُوا جَادِّينَ، لأَنَّهم

(350) تخريج الإحياء للعراقي: 3/102أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (18583)، وابن كثير في التفسير (7/ 305) بنحوه. وَقَالَ الدلجِيُّ: لَمْ أَدْرِ مَنْ رَوَىٰ هذَا الحَدِيثَ.. لَكِنْ رَوَىٰ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْهَا قَرِيبًا مِنْ هَذَا المَعْنَىٰ.

(351) **القَرَظُ: ورقٌ أو ثمرٌ يُستعمل في دباغة الجلود**، وكان شيئًا يسيرًا من متاع البيت، لا من الطعام.

(352) أخرجه مسلم (1479) بلفظه مطولا، والبخاري (2468) باختلاف يسير.

مُختلفونَ وَهُمْ أَصْحَابُ دعوةٍ، وبِهذَا نَصحَهم إمامُهم ومُرشِدُهُم، أَوْ قُل أمَرَهُمْ إِنْ شِئْتَ الدِّقّةَ: «وَقَد تَستطيعُونَ أَنتُم مَعشَرَ نُوابِ الإخوَانِ وَمندُوبِيهِمْ أَنْ تُقصِّرُوا هَذَا الأَجلَ إِذَا بَذلْتُم هِمَّتكُمْ وضَاعفْتُم جُهودَكُمْ، وَقَدْ تُهمِلُونَ فَيُخْطِئُ هَذَا الحِسَابُ، وَتَختَلِفُ النتَائجُ المُترتّبةُ عَليهِ، فَأَشْعِرُوا أَنفُسَكُم العِبْءَ، وأَلِّفُوا الكتَائِبَ، وكوِّنُوا الفِرَقَ، وَأَقبِلُوا عَلَىٰ الدُروسِ، وسَارِعُوا إِلَىٰ التدْريبِ وَانشُرُوا دَعوتَكُمْ فِي الجِهَاتِ التِي لَمْ تَصِلْ إِليهَا بَعدُ، وَلَا تُضيِّعُوا دَقيقةً بِغَيرِ عَملٍ» (353).

## ثالثًا: فِقْهُ الصِّيَاغَةِ وَفِقْهُ الإِنْجَازِ

لَمْ يَكُنْ مَا سَلَفَ سِوَىٰ مُقدِّمَاتٍ، وَالآنَ نَدْخُلُ فِي المَوضُوعِ (**فِقْهِ الصِّيَاغَةِ، وَفِقْهِ الإِنجَازِ**)، وَلِكُلِّ فِقْهٍ مِنْهُمَا ضَابِطٌ أَسَاسِيٌّ.

### 1-فِقْهُ الصِّيَاغَة

### أ. مَفْهُومُ فِقْهِ الصِّيَاغَةِ وَضَابِطُهُ

أَمَّا **فِقْهُ الصيَّاغةِ**، فَضَابِطُهُ: أَنْ نَضعَ نُصْبَ أَعْيُنِنَا، وَنَحْنُ نَصُوغُ مَشْرُوعَنَا الحَضَارِيَّ حَتَّىٰ يُناسِبَ وَاقِعَنا المُعَاصِرَ؛ **أَلَّا يَترَتَّبَ عَلَىٰ مُواجَهَةِ أَيِّ انْحِرَافٍ قَائِمٍ انْحِرَافٌ مِثْلُه.** وَقَدِ أَشَارَ الشَّيْخُ مُحمَّدُ عُبْدُه إِلَىٰ انْحِرَافِ (عِلْمِ التَّوحِيدِ) أَوْ (عِلْمِ الكَلَامِ) عَنْ غَايتِهِ، رَغمَ أَنَّهُ قَامَ لِحمَايةِ العَقيدَةِ، يَقولُ الشَّيْخُ مُحمَّدُ عَبدُه: «هَذَا مُجمَلٌ مِنْ تَارِيخ هَذَا الْعِلْمِ يُنبِئُكَ كَيفَ أُسِّسَ عَلَىٰ قَوَاعِدَ مِنَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ، وَكَيفَ عَبَثَتْ بِهِ فِي نِهَايَة الْأَمْرِ أَيْدِيَ المُفرِّقِينَ حَتَّىٰ خَرَجُوا بِهِ عَن قَصْدِهِ وَبَعدُوا بِهِ عَن حَدِّهِ"(354)، وَقَدْ وَصَلَ الشَّيخُ مُحمَّدُ عَبْدُه إِلَىٰ هَذِهِ النَّتِيجَةِ بَعْدَمَا اسْتَعْرَضَ صُوَرًا مِنَ انْحرَافِ الفِرَقِ الإِسْلامِيَّةِ؛ مِثْلَمَا غَلَا بَعْضُ الشِّيعَةِ فَرفعُوا عَلِيًّا أَو بَعْضَ ذُرِيَّتِهِ إِلَىٰ مَقَامِ الأُلُوهِيَّةِ أَو مَا يَقْرُبُ مِنْهُ، وَتَبِعَ ذَلِك خِلافٌ فِي كَثِيرٍ مِنَ العَقَائِدِ(355)، كَمَا انْحَرفَتْ فِرَقٌ إِسْلامِيَّةٌ أُخْرَىٰ، فَثَمَّةَ فِرْقَةٌ قَامَتْ تُدافِعُ عَنْ مَكانَةِ العَقْلِ فِي الإِسْلامِ، وَتَردُّ عَلَىٰ مَنْ

(353) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: المؤتمر الخامس]، ص 345.
(354) محمد عبده: **رسالة التوحيد**، تحقيق د. محمد عمارة، ط 1، دار الشروق، 1414هـ - 1994م، ص 32.
(355) انظر السابق: ص 23.

يَتَّهِمُ الإِسْلامَ بِأَنَّهُ يُلغِي العَقْلَ، لَكِنَّها وَقَعَتْ فِي انْحِرَافٍ أَشَدَّ؛ إِذْ حَجَّمَتِ الوَحْيَ أَوْ سَاوَتْ بَيْنَ العَقْلِ وَالوَحْيِ، وَفِرْقَةٌ أُخْرَىٰ أَرَادَتْ أَنْ تُؤَكِّدَ حُرِّيَّةَ الإِرَادَةِ، فَأَلْغَتِ القَدَرَ، وَحَاوَلَتْ فِرقَةٌ أَنْ تَرُدَّ عَلَىٰ القَائِلِينَ بِتَأْلِيهِ العَقْلِ، فَوَقَعَتْ فِي القَوْلِ بِالجَبْرِ، وَانْحَرفَتْ فِرَقٌ تَعَرَّضَتْ لِصِفَاتِ اللهِ تَعالَىٰ فَقالَ بَعضُهُمْ بِالتَّشْبِيهِ أَوِ التَّجْسِيمِ أَوِ التَّعْطِيلِ، أَوْ خَلْقِ القُرآنِ، وَغَيرِهَا مِنَ المَسَائِلِ الشَّائِكَةِ الَّتِي ضَلَّتْ فِيهَا طَوائِفُ كَثِيرَةٌ، وَكَانَ الأَصْلُ الرَّدَّ عَلَىٰ تَجْسِيمِ اليَهُودِ وَتَثْلِيثِ النَّصَارَىٰ، وَلِهَذَا تَعجَّبَ الشَّيْخُ مُحمَّدُ عَبْدُه مِمَّا آلَ إِلَيهِ أَمْرُ المُسلِمِينَ مِنْ فُرقَةٍ وَتَشَرْذُمٍ، فَقَالَ: «اللهُ أَكْبَرُ... هَلْ يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ سَعَةُ المَجَالِ أَوِ التَّعَفُّفُ فِي الْمَقَالِ سَبَبًا فِي التَّفْرِقَةِ بَيْنَ الْمُؤمِنِينَ، وَتَمَارِيهِم فِي الْجِدَالِ حَتَّىٰ يَنتَهِيَ بِهِمُ التَّفَرُّقُ إِلَىٰ مَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ سُوءِ الْحَالِ؟!» (356).

## ب. تَجْدِيدُ صِيَاغَةِ العَقِيدَةِ فِي مُوَاجَهَةِ قَضَايَا العَصْرِ

**فِقْهُ الصِّيَاغَةِ** يَتناوَلُ فِقْهَ العَقِيدَةِ وَفِقْهَ الشَّرِيعَةِ، وَهَذَا أَمْرٌ قَدْ يَستَوْقِفُ بَعْضَنَا، فَيَقُولُ: يُمْكِنُ أَنْ نُعِيدَ صِياغَةَ الشَّرِيعَةِ بِمَا يُوافِقُ عَصْرَنَا وَيُناسِبُهُ، لأَنَّ كَثِيرًا مِنْ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ يُمَثِّلُ فَهْمَ العُلَمَاءِ لِنُصُوصِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَبْرَ تَارِيخِ الإِسْلامِ، لَكِنْ أَنَّىٰ يُمْكِنُنَا أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ مَعَ (العَقِيدَةِ)، وَهِيَ ثَوابِتُ لَا تَتَّسِعُ لإِعْمَالِ العَقْلِ إِلَّا فِي نِطَاقٍ مَحْدُودٍ؟!! غَيْرَ أَنَّ عُلَمَاءَ العَقِيدَةِ أَكَّدُوا أَنَّ فِقْهَ صِيَاغَتِهَا أُرِيدَ مِنْهُ قَدِيمًا أَنْ تُحْفَظَ العَقِيدَةُ صَافِيَةً فِي ذِهْنِ المُؤْمِنِ، وَلَكِنَّ حَدَثَ تَوتُّرٌ ضَخْمٌ جَرَّاءَ مُواجَهَةِ حَضاراتٍ وَافِدَةٍ، وَمَا أَفْرَزَتْهُ مِنْ قَضَايَا عَكَّرَتْ صَفْوَ العَقِيدَةِ فِي النفُوسِ، وَقَد أَشَرْنَا إِلَىٰ بَعضِهَا، مِثْلَ: الحَدِيثِ عَنِ القَدَرِ وَالفِعْلِ الإِنْسَانِيِّ، وَالجَبْرِ والاختِيَارِ، وَحُكْمِ مُرتَكِبِ الكَبِيرَةِ، وَالذَّاتِ وَالصِّفَاتِ، وَخَلْقِ القُرآنِ وَالنُّبوَّاتِ.. فَكُلُّ هَذِهِ القَضَايَا المُشْكِلَةَ، وَمَا ارْتَبطَ بِهَا مِنْ جَدلٍ وَخِلَافٍ؛ اقْتَضَتْ أَنْ تُصاغَ العقِيدَةُ صِياغَةً جَدِيدَةً، بِحَيْثُ تَتَناوَلُ تِلكَ القَضَايَا الَّتِي أُثِيرَتْ، وَلَمْ تَكُنْ تُثَارُ مِنْ قَبلُ أَو تَشْغَلُ العَقْلَ المِسْلِمَ، وَلَكِنَّهَا جَاءَتْ مَعَ تَرجَمَةِ الفَلسَفَةِ اليُونَانِيَّةِ وَذُيُوعِهَا فِي المُجْتَمَعِ المُسْلِمِ.

(356) محمد عبده: **رسالة التوحيد**، ص 60.

وَحَدَثَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي أُمُورِ السِّيَاسَةِ، الَّتِي كَانَتْ مُتصِلَةً كَذَلِكَ بِالفِعْلِ الإِنْسَانِيِّ؛ فَأُدْخِلَ فِيهَا القَضَاءُ وَالقَدَرُ كَذَلِكَ.

فَقَدْ رُوِيَ فِي بَعْضِ السِّيَرِ أَنَّ عَبدَ المَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ قَتلَ عَمْرَو بنَ سَعيدِ بنِ العَاصِ، وَأَلقَىٰ بِرَأْسِهِ إِلَىٰ أَصْحَابِهِ وَكَانُوا يَنتظِرُونَهُ خَارِجَ القَصْرِ، وَجَعَلَ الذِينَ أَلْقَوْا بِرَأْسِهِ يَقُولُونَ: إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ بِالقَضَاءِ السَّابِقِ وَالأَمْرِ النَّافِذِ-حَتَّىٰ يَسْكُتَ النَّاسُ وَلَا يَتكَلَّمَ أَحَدٌ- فَهَذَا أَمْرُ رَبِّنَا وَقَضَاؤُهُ وَقَدرُهُ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الإِشْكَالَ لَمْ يَكُنْ فِي الإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، وَإِنَّمَا فِي تَوْظِيفِهِ لِتَبْرِيرِ الأَفْعَالِ البَشَرِيَّةِ وَنَفْيِ المَسْؤُولِيَّةِ عَنْهَا؛ وَمِنْ هُنَا بَرَزَتِ الحَاجَةُ إِلَىٰ مَزِيدٍ مِنَ البَيَانِ العَقَدِيِّ الَّذِي يُوَضِّحُ عَلاقَةَ مَشِيئَةِ اللهِ بِمَسْؤُولِيَّةِ الإِنْسَانِ عَنْ فِعْلِهِ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا التَّحَوُّلَ الخَطِيرَ اسْتَدْعَىٰ مَزِيدًا مِنَ البَيَانِ فِي مَسَائِلِ العَقِيدَةِ، لِتَوْضِيحِ مَسْؤُولِيَّةِ الإِنْسَانِ عَنْ فِعْلِهِ، وَبَيَانِ عِلَاقَةِ ذَلِكَ بِالقَضَاءِ السَّابِقِ وَالأَمْرِ النَّافِذِ. وَتَتَجَدَّدُ صِيَاغَةُ الخِطَابِ العَقَدِيِّ كُلَّمَا جَدَّتْ قَضَايَا، أَوْ أُثِيرَتْ إِشْكَالَاتٌ تَقْتَضِي مَزِيدًا مِنَ البَيَانِ وَالتَّحْرِيرِ.

ثُمَّ جَاءَتْ بَعدَ ذَلِكَ عُصُورُ الضَّعْفِ وَالانْحِطَاطِ فَتوقَّفتْ هَذِهِ الصِّيَاغَاتُ الجَدِيدَةُ وَأَصبَحَتِ العَقِيدَةُ مُجرَّدَ مُحَاورَةٍ بِالألفَاظِ كَمَا يَقولُ الشَّيخُ مُحمَّدُ عَبْدُه: «ثُمَّ جَاءَتْ فِتَنُ طُلَّابِ الْمُلْكِ مِنَ الأَجيالِ الْمُخْتَلفَةِ، وَتَغَلَّبَ الْجُهَّالُ عَلَىٰ الْأَمْرِ وَفتكُوا بِمَا بَقِيَ مِنْ أَثَرِ الْعِلْمِ النَّظَرِيِّ النَّابِعِ مِنْ عُيُونِ الدِّينِ الإِسْلَامِيِّ فَانحَرفَتِ الطَّرِيقُ بِسَالِكِيهَا، وَلَمْ يَعُدْ بَينَ النَّاظِرِينَ فِي كُتُبِ السَّابِقِينَ إِلَّا تَحَاوُرٌ فِي الْأَلْفَاظِ وَتَناظُرٌ فِي الأَسَالِيبِ عَلَىٰ أَنَّ ذَلِكَ فِي قَلِيلٍ مِنَ الْكُتُبِ اخْتَارَهَا الضَّعْفُ وَفَضَّلَهَا الْقُصُورُ. ثُمَّ انتَشَرتِ الفَوْضَىٰ الْعَقْلِيَّةُ بَينَ الْمُسْلِمِينَ تَحْتَ حِمَايَةِ الجَهلَةِ مِنْ سَاسَتِهِمْ فَجَاءَ قَوْمٌ ظَنُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَمْ يَعْتَرِفْ بِهِ الْعِلْمُ لَهُم فَوضَعُوا مَا لَمْ يَعُدْ لِلْإِسْلَامِ قِبَلٌ بِاحتِمَالِهِ»[357].

حَتَّىٰ ابْنُ خَلْدُونَ رَأَىٰ أَنَّ عِلْمَ الكَلَامِ لَمْ يَعُدْ ضَرُورِيًّا فِي عَصْرِهِ؛ لِانْقِرَاضِ كَثِيرٍ

(357) محمد عبده: **رسالة التوحيد**، ص 31.

مِنَ المُلْحِدَةِ وَالمُبْتَدِعَةِ الَّذِينَ نَشَأَ هَذَا العِلْمُ فِي سِيَاقِ الرَّدِّ عَلَيْهِمْ، وَلِمَا دَوَّنَهُ أَئِمَّةُ أَهْلِ السُّنَّةِ مِنَ الرُّدُودِ وَالأَدِلَّةِ(358).

غَيْرَ أَنَّ هَذَا الحُكْمَ مُرْتَبِطٌ بِسِيَاقِ عَصْرِهِ؛ إِذْ قَدْ تَجِدُّ فِي عُصُورٍ لَاحِقَةٍ شُبُهَاتٌ وَقَضَايَا تَسْتَدْعِي تَجْدِيدَ صِيَاغَةِ الخِطَابِ العَقَدِيِّ وَطَرَائِقِ بَيَانِهِ، مَعَ ثَبَاتِ أُصُولِ العَقِيدَةِ نَفْسِهَا.

وَإِذَا تَدَبَّرْنَا الوَاقِعَ الَّذِي نُواجِهُهُ الآنَ أَدْرَكْنَا ضَرُورَةَ وُجُودِ صِيَاغَاتٍ جَدِيدَةٍ فِي الفِقْهِ وَالشَّرِيعَةِ وَالعَقِيدَةِ؛ لِكَيْ تَخرُجَ الأُمَّةُ مِنْ مَأْزِقِهَا، وَقَدْ يَكونُ مَوضُوعُ (الإِنْسَانِ) مِنْ مَنظُورٍ كُلِّيٍّ عَامٍّ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ صِياغَةٍ جَدِيدَةٍ فِي إِطَارِ العَقِيدَةِ؛ بَحَيْثُ نُعْنَىٰ بِمَبْدَئِهِ، وَمَنزِلَتِهِ، وَقِيمَتِهِ، وَغَايَةِ وُجُودِهِ، وَمَصِيرِهِ، وَمِنْ ثَمَّ نُقَدِّمُ صِياغَةً جَدِيدَةً حَوْلَ امْتِهَانِهِ، وَإِهْدَارِ كَرامَتِهِ، عَلَىٰ أُسُسٍ عَقَدِيَّةٍ إِسْلَامِيَّةٍ، فَتَكُونُ العَقِيدَةُ حِينَئِذٍ حِمايَةً لِلإِنْسَانِ مِنْ أَنْ يُهانَ أَوْ تُهدَرَ كَرامَتُهُ أَوْ يُنتقَصَ مِنْ قِيمَتِهِ.

فَلَيْسَتِ العَقِيدَةُ كَمَا يَتصَوَّرُهَا بَعْضُنَا مُجرَّدَ ثَوابتَ لَا يَجُوزُ الاقْتِرَابُ مِنْهَا، وَلَكِنْ لِلعَقِيدَةِ غَايَةٌ سُلوكِيَّةٌ كَذَلِكَ، أَشَارَ إِلَيْهَا الإِمَامُ البَنَّا فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ (**دَعْوَتُنَا فِي طَوْرٍ جَدِيدٍ**) كَذَلِكَ، حِينَمَا قَالَ: «سَتَعْمَلُ هَذِهِ اليَقظَةُ عَمَلَهَا فِي الفَرْدِ فَإِذَا بِهِ نَمُوذَجٌ قَائِمٌ لِمَا يُرِيدُهُ الإِسْلامُ فِي الْأَفْرَادِ ... إِنّ الإِسْلامَ يُرِيدُ فِي الفَرْدِ وِجْدَانًا شَاعِرًا يَتَذَوَّقُ الجَمالَ وَالقُبْحَ، وَإِدْرَاكًا صَحِيحًا يَتصوَّرُ الصَّوَابَ وَالخَطَأَ، وَإِرَادَةً حَازِمَةً لَا تَضْعُفُ وَلَا تَلِينُ أَمَامَ الحَقِّ، وَجِسْمًا سَلِيمًا يَقُومُ بِأَعْبَاءِ الوَاجِبَاتِ الإِنْسَانِيَّةِ حَقَّ القِيَامِ وَيُصْبِحُ أَداةً صَالِحَةً لِتَحْقِيقِ الإِرَادَةِ الصَّالِحَةِ وَيَنْصُرُ الحَقَّ وَالخَيْرَ. وَقَدْ وَضَعَ الإِسْلامُ تَكَالِيفَهُ الشَّخْصِيَّةَ عَلَىٰ القَوَاعِدِ التِي تُوصِّلُ إِلَىٰ هَذِهِ النَّتَائِجِ كُلِّهَا، فَفِي العِبَادَاتِ الإِسْلامِيَّةِ أَفْضَلُ مَا يَصِلُ القَلْبَ بِاللهِ، وَيُرَبِّي الوِجْدَانَ الشَّاعِرَ وَالإِحْسَاسَ الدَّقِيقَ، وَفِي النَّظَرِ الإِسْلَامِيِّ مَا يَرْقَىٰ بِالعُقولِ وَالأَلبَابِ وَيَدْفَعُهَا إِلَىٰ كَشْفِ سَتائِرِ الكَوْنِ وَمَعْرِفَةِ دَقائِقِ الوُجُودِ. وَفِي الخُلُقِ الإِسْلامِيِّ مَا يُرَبِّي الإِرَادَةَ الحَازِمَةَ وَالعَزِيمَةَ المَاضِيَةَ الصَّارِمَةَ، وَفِي النِّظَامِ الإِسْلامِيِّ فِي الطَّعامِ وَالشَّرابِ وَالمَنَامِ وَتَوابِعِ ذَلِكَ مِنْ شُؤُونِ الحَيَاةِ مَا

(358) عبد الرحمن بن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**، 2/ 214.

لَـوِ اتبَعَـهُ الأَفْـرَادُ لَحَفِظُـوا أَجْسَـامَهُمْ مِـنْ مُهلِكَاتِ الأَدْوَاءِ، وَلَظَـلَّتْ فِي وِقَايةٍ مِـنْ فَواتِكِ الأَمْـرَاضِ»[359].

هَـذِهِ صِيَاغَـةٌ جَدِيـدَةٌ قَدَّمَهـا الإِمَـامُ البنَّـا، وَهِـيَ مُرتَبِطـةٌ أَوْ قَائِمَـةٌ عَلَـىٰ أُسُـسٍ عَقَدِيّـةٍ إِسْـلَامِيّةٍ لِلْخُـرُوجِ بِالأُمَّـةِ مِـنْ مَأْزِقِهَـا، وَحَـلِّ أَزْمَـةِ المُثَقَّفِيـنَ مَـعَ الإِسْـلَامِ.

## ج. الجَمْعُ بَيْنَ الإِيمَانِ بِالغَيْبِ وَالانْتِفَاعِ بِالعَقْلِ

وَمِمَّـا يَلْفِـتُ النَّظَـرَ أَنَّ الأُسْـتَاذَ الإِمَـامَ البَنَّـا رَحِمَـهُ اللهُ تَكَلَّـمَ عَـنْ هَـذَا المَعْنَـىٰ فِـي هَـذِهِ الرِسَـالَةِ ذَاتِهَا(**دَعْوَتُنَـا فِي طَـوْرٍ جَدِيـدٍ**)، عِنْدَمَـا قَـالَ بِـأَنَّ الإِسْـلامَ الحَنِيـفَ: «أَلْـزَمَ العَقْـلَ البَشَـرِيَّ لَوْنًـا مِـنْ أَلْـوَانِ التفْكِيـرِ، هُـوَ أَكْمَلُهَـا وَأَتَمُّهَـا وَأَكْثَرُهَـا انْطِبَاقًـا عَلَـىٰ وَاقِـعِ الحَيَـاةِ وَمَنطِـقِ الكَـوْنِ، وَأَعْظَمُهَـا نَفْعًـا لِبَنِـي الإِنْسَـانِ: ذَلِـكَ هُـوَ الجَمْـعُ بَيـنَ الإِيمَـانِ بِالغَيْـبِ وَالانتِفَـاعِ بِالعَقْـلِ. فَنحْـنُ نَعِيـشُ فِـي عَالَمَيـنِ فِعْـلًا لَا فِـي عَالَـمٍ وَاحِـدٍ، وَنَحْـنُ عَاجِـزُونَ عَـنْ تَفْسِـيرِ كَثِيـرٍ مِـنْ ظَواهِـرِ الكَـوْنِ فِعْـلًا، عَاجِـزُونَ عَـنْ إِدْرَاكِ كُلِّ الحَقَائِـقِ الأَوَّلِيّـةِ التِـي تُحِيـطُ بِنَـا. وَنَحْـنُ فِـي إِدْرَاكِهَـا نَنتَقِـلُ مِـنْ مَجهُـولٍ إِلَـىٰ مَجْهُـولٍ حَتَّـىٰ يَنتَهِـيَ بِنَـا العَجْـزُ إِلَـىٰ الإِقْـرَارِ بِعَظَمَـةِ اللهِ، وَنَحْـنُ نَشـعُرُ مِـنْ أَعْمَـاقِ قُلوبِنَـا بِعَاطِفَـةِ الإِيمَـانِ قَوِيَّـةً مَشْـبُوبَةً، لأَنَّ الإِيمَـانَ مِـنْ فِطْـرَةِ نفُوسِـنَا وَهُـوَ لَهَـا ضَـرُورَةٌ مِـنْ ضَـرُورَاتِ حَيَاتِهَـا كَالغِـذَاءِ وَالهـوَاءِ وَالمَـاءِ لِلأَجْسَـامِ سَـوَاءً بِسَـواءٍ. وَنَحْـنُ بَعـدَ ذَلِـكَ نَلْمَسُ أَنَّ المُجْتَمَعَ الإِنْسَـانِيَّ لَـنْ يُصلِحَهُ إِلَّا اعتِقَـادٌ رُوحِـيٌّ يَبْعَـثُ فِـي النفُـوسِ مُراقبَـةَ اللهِ وَالتعَـزِّيَ بِمَعْرِفَتِـهِ، وَمِـنْ هُنَـا كَانَ لِزَامًـا عَلَـىٰ النَّـاسِ أَنْ يَعُـودُوا إِلَـىٰ الإِيمَـانِ بِـاللهِ وَالنُّبـوَّاتِ وَبِالـرُّوحِ وَبِالحيَـاةِ الآخِـرَةِ، وَبِالجَـزَاءِ فِيهَـا عَلَـىٰ الأَعْمَـالِ ﴿**فَمَـنْ يَعْمَـلْ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ خَيْـرًا يَـرَهُ، وَمَـنْ يَعْمَـلْ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ شَـرًّا يَـرَهُ**﴾ (الزلزلـة:7-8)»[360].

هَـذِهِ صِيَاغَـةٌ جَدِيـدَةٌ لِلعَقِيـدَةِ، كَمَـا تُعَـدُّ رِسَالَـةُ الإِمَامِ البنَّـا (العَقَائِـدُ) صِيَاغَـةً جَدِيدَةً فِي مُقدمَاتِهَـا، وَشَـوَاهِدِهَا، وَأَدِلَّتِهَـا، وَإِثْبَاتَاتِهَـا، فَهِـيَ صِيَاغَـةٌ جَدِيـدَةٌ لِلعَقِيـدَةِ تُنَاسِـبُ الوَاقِـعَ

(359) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة دعوتنا في طور جديد]، ص 494.
(360) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة دعوتنا في طور جديد]، ص 482.

الزَّمنِيَّ الّذِي وَاجَهَهُ الإِمَامُ البَنَّا، وَهَذَا نَوْعٌ مِنَ الخُروجِ بِالأُمَّةِ مِنْ أَزَمَتِهَا وَإِعَادَةِ الثقَةِ فِي صَلاحِيَّةِ الإِسْلامِ وَخُلودِ رِسَالتِهِ.

## د. رَبْطُ العَقِيدَةِ بِالسُّلُوكِ وَالحَيَاةِ

وَقَدْ تَحَدَّثَ عَلِيُّ عِزَّتْ بِيجُوفِيتش عَنْ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) وأشارَ إِلَىٰ بُعْدِهَا العَقَدِيِّ السُّلُوكِيِّ الحَيَاتِيِّ؛ لأَنَّ العَقِيدَةَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ تَصْدِيقَاتٍ غَايَتُهَا الإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ وَاحِدٌ وَقُضِيَ الأَمْرُ .. كَلَّا، إِنَّما غَايَاتُ العَقِيدَةِ فِي الحَقِيقَةِ غَايَاتٌ سُلوكيّةٌ، وَحِينَ ضَعُفَ الشُّعُورُ بِذَلِكَ انْفَصَلَتِ العَقِيدَةُ عَنِ الوَاقِعِ، أَوِ انْفَصَلَ الإِيمَانُ عَنِ العَمَلِ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ التَّفْسِيرَ الحَيَاتِيَّ الوَاقِعِيَّ لِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ): أَنْ يَعْلَمَ الفَرْدُ وَيُوقِنَ بِأَنَّهُ عَبدٌ للهِ وَحْدَهُ، وَحِينَئِذٍ يَنتَفِي القَهْرُ وَالتَّسَلُّطُ فَلَا عُبودِيَّةَ إِلَّا للهِ، لأَنَّ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) تَعْنِي نَفْيَ كُلِّ سُلْطَةٍ مُطلقَةٍ إِلَّا للهِ وَحْدَهُ مَهْمَا كَانَ لِصَاحِبِ هَذِهِ السُّلْطَةِ مِنْ فَضْلٍ أَوْ مَكانةٍ أَوْ تَارِيخٍ، وَهَذَا سَيِّدُنا أَبُو بَكْرٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) يُعلِّمُ الأُمَّةَ هَذَا المَعْنَىٰ، لأَنَّهُ أَوَّلُ خَليفَةٍ أَتَىٰ بَعدَ الرسُولِ ﷺ، وَلَا يُنكِرُ أَحَدٌ فَضْلَهُ أَوْ مَقامَهُ أَوْ تَارِيخَهُ أَوْ مَكانَتَهُ، وَمَعَ ذَلِكَ يَطْلُبُ إِلَىٰ الأُمّةِ – فِي أَوَّلِ خُطبَةٍ لَه بَعْدَ أَنْ تَولَّىٰ الخِلافَةَ – أَنْ تُقوِّمَهُ إِذَا زَاغَ، فَقَالَ: «كَانَ رَسولُ اللهِ عَبدًا أَكرَمَهُ اللهُ بِالوَحْيِ، وعَصَمَهُ بِهِ، أَلَا وَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَلَسْتُ بِخَيرٍ مِنْ أَحَدِكُمْ، فَرَاعُونِي، فَإِذَا رَأَيتُمُونِي اسْتَقَمْتُ فَاتَّبعُونِي، وَإِذَا رَأيتمُونِي زُغْتُ فَقَوِّمُونِي»[361]؛ فَكأَنَّه قَالَ لَهُمْ: مَهْمَا كَانَ فَضْلِي وَتَارِيخِي وَمَكانَتِي، فَلَا يَحِقُّ لِي أَنْ أَستَبِدَّ بِالأُمَّةِ أَوْ أَسْتَقِلَّ بِرَأْيِي، أَوْ أَظْلِمَ.

وَقَدْ مَرَّ مَعَنَا مَوْقِفُ بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ مَعَ عُمَرَ رضي الله عنه، وَمَا فِيهِ مِنْ دَلَالَةٍ عَلَىٰ وُجُوبِ تَقْوِيمِ الحَاكِمِ وَمُرَاقَبَتِهِ.

هَذِهِ الصِّيَاغَةُ الجَدِيدَةُ لِلعَقِيدَةِ تُرَبِّي النَّاسَ عَلَىٰ أَنَّهُمْ عَبِيدٌ للهِ وَحْدَهُ؛ فَلَيْسَ مِنْ حَقِّ أَحَدٍ أَنْ يَتَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ، وَعِنْدَمَا يَعرِفُ المُسْلِمُ أَنَّهُ عَبدٌ للهِ فَلَنْ يَسْمَحَ لأَحَدٍ أَنْ يَقهَرَهُ أَوْ يَتَسَلَّطَ عَلَيْهِ.

(361) ابن كثير: **مسند أبي بكر**، دراسة وتحقيق: غالية بنت سالم بن علي آل سعيد، ط 1، مكتبة الوراق – سلطنة عُمان، ١٤٤٠هـ – ٢٠١٩م، ص 414.

كَمَا تُعلِّمُنَا الشُّورَىٰ بِمَعْنَاهَا الإِسْلَامِيِّ أَنَّهُ لَا إِرْثَ فِي الإِسْلَامِ إِلَّا لِلْمَالِ، وَأَنَّ أَمْرَ الأُمَّةِ يُرَدُّ إِلَيهَا، تَختَارُ مَنْ يَنوبُ عَنْهَا وَتُفوِّضُهُ فِي سِيَاسَتِهَا بِمَا جَاءَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ مِنَ العَدْلِ وَالشُّورَىٰ وَاحْتِرَامِ الإِنْسَانِ، وَهَذَا مِمَّا قِيلَ فِي مَعْنَىٰ قَولِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 38].

وَتِلكَ صِيَاغَاتٌ عَقَدِيّةٌ لِوَاقِعٍ حَياتِيٍّ جَدِيدٍ، وَهِيَ صِيَاغَةٌ مُقيَّدَةٌ بِجُمْلَةِ التَّعالِيمِ الإِلَهيَّةِ، مِمَّا يَجْعَلُهَا قَادِرَةً عَلَىٰ مُواجَهَةِ الوَاقِعِ وَتَحَدِّيَاتِهِ، كَمَا أَنَّها صِيَاغَةٌ تُراعِي الغَايَاتِ السُّلوكِيَّة وَلَيْسَتْ مُجرَّدَ مُسَلَّمَاتٍ يُردِّدُهَا المُسْلِمُ فَحَسبُ.

وَإِنَّمَا جَاءَتْ أَزْمَةُ المُثقَّفِينَ مَعَ الإِسْلَامِ بِسَبَبِ مُقارَنَتِهِمْ المُجْتَمَعَاتِ الإِسْلَامِيّةَ بِالمُجْتَمَعَاتِ الغَربِيّةِ، فَرأَوْا أَنَّ شُعُوبَ أُورُوبَّا لَا تُقدِّسُ شَخْصًا مَهْمَا كَانَ.

خُذْ مَثَلًا **شَارْلَ دِيغُولَ**؛ فَعَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ فَضْلِهِ وَمَكَانَتِهِ وَتَارِيخِهِ وَدَوْرِهِ فِي تَحْرِيرِ فَرَنْسَا وَإِعَادَةِ بِنَائِهَا، فَقَدْ وَاجَهَ أَزْمَةً شَعْبِيَّةً وَاسِعَةً فِي أَحْدَاثِ مَايُو 1968م، ثُمَّ اسْتَقَالَ مِنْ رِئَاسَةِ الجُمْهُورِيَّةِ فِي العَامِ التَّالِي بَعْدَ رَفْضِ الشَّعْبِ المَشْرُوعَ الَّذِي طَرَحَهُ فِي الِاسْتِفْتَاءِ.

وَمِثْلُهُ **وِنْسْتُونُ تِشْرْشِلَ**؛ فَعَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ دَوْرِهِ البَارِزِ فِي قِيَادَةِ بَرِيطَانْيَا خِلَالَ الحَرْبِ العَالَمِيَّةِ الثَّانِيَةِ وَحَتَّىٰ تَحَقَّقَ النَّصْرُ، فَقَدْ خَسِرَ حِزْبُهُ الِانْتِخَابَاتِ العَامَّةَ سَنَةَ 1945م، فَغَادَرَ رِئَاسَةَ الحُكُومَةِ، وَجَاءَ غَيْرُهُ عَنْ طَرِيقِ الِانْتِخَابَاتِ.

أَمَّا المُجتَمَعَاتُ الإِسلامِيةُ فَالأَمْرُ فِيهَا مُخْتَلِفٌ، وَكُلُّ شَيْءٍ فِيهَا يُعلِّلُ بِالقَضَاءِ السَّابِقِ وَالأَمْرِ النَّافِذِ؛ حَتَّىٰ قَتْلُ النَّاسِ وَالخُصومِ وَالسِّيَاسِيينَ، وَمِنْ ثَمَّ يَكْثُرُ فِيهَا الظُّلْمُ وَالاسْتِبْدَادُ، وَهَذَا يَجْعَلُهَا أَحْوَجَ الأُمَمِ إِلَىٰ صِيَاغَةٍ جَدِيدَةٍ لِعَقَائِدِهَا وَشَرِيعَتِهَا، حَتَّىٰ لَا يَكُونَ هُنالِكَ انْفِصَامٌ بَينَ الإِيمَانِ وَالعَمَلِ، أَوْ بَينَ العَقِيدَةِ وَالحَيَاةِ.

وَهَذَا مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الإِمَامُ البَنَّا (رَحِمَهُ اللهُ)، وَهُوَ يَتَكَلَّمُ عَنْ هَذَا المَعْنَىٰ وَيَصُوغُ قَضِيَّةَ العَقِيدَةِ وَالإِيمَانِ بِالغَيْبِ وَالانتِفَاعِ بِالعَقْلِ، وَيُؤَكِّدُ حَاجَةَ الأُمَّةِ إِلَىٰ إِيمَانٍ قَوِيٍّ صَحِيحٍ يَبْعَثُ فِيهَا مُرَاقَبَةَ اللهِ وَالتعَزِّي بِمَعْرِفَتِهِ وَلَيْسَ المُسْلِمُونَ وَحْدَهُمْ مَنْ

يَحتَاجُونَ إِلَىٰ هَذَا الإِيمَانِ القَوِيِّ، بَلِ العَالَمُ كُلُّهُ يَحْتَاجُ إِلَيهِ، «وَمِنْ هُنَا كَانَ لِزَامًا عَلَىٰ النَّاسِ أَنْ يَعُودُوا إِلَىٰ الإِيمَانِ بِاللهِ وَالنُّبُوَّاتِ وَبِالرُّوحِ وَبِالحيَاةِ الآخِرَةِ، وَبِالجَزَاءِ فِيهَا عَلَىٰ الأَعْمَالِ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة:7-8) »[362].

وَمِنْ هُنَا نُدرِكُ أَهميَّةَ **فِقْهِ الصِّيَاغَةِ**، أَوِ العَرْضِ الجَدِيدِ الذِي يُناسِبُ الوَاقِعَ.

## هـ. تَجْدِيدُ عَرْضِ الشَّرِيعَةِ فِي ضَوْءِ مَقَاصِدِهَا

وَفِي الشَّرِيعَةِ كَذلِكَ تَفرِيعَاتٌ كَثِيرَةٌ تَحتاجُ إِلَىٰ صِيَاغَةٍ جَدِيدَةٍ، وَعَرْضٍ يُناسِبُ وَاقِعَنَا المُعَاصِرَ، وَأَهَمُّ مَثَلٍ عَلَىٰ ذَلِكَ مَا يُقَالُ عَنْ (جَوَازِ وِلَايَةِ المُسْتَبِدِّ الظَّالِمِ)، مَا أَقَامَ شَعائِرَ الدِّينِ، وَهَذَا يُنَاقِضُ فِي الحَقِيقَةِ الغَايَةَ الّتِي جَاءَ الدِّينُ مِنْ أَجْلِهَا؛ وَهِيَ تَوفِيرُ الأَمْنِ، وَالعَدْلِ، وَالشُّورَىٰ، وَاحْتِرَامِ الإِنْسَانِ؛ لأَنَّ الحَاكِمَ فِي الإِسْلامِ نَائِبٌ عَنِ الأُمَّةِ، وَمُفَوَّضٌ مِنْ قِبَلِهَا فِي سِيَاسَتِهَا بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ، بِمَا يُحقِّقُ العَدْلَ وَالشُّورَىٰ وَاحتِرَامَ الإِنسَانِ، وَمِنْ ثَمَّ فَالقَوْلُ (بِجَوازِ وِلَايَةِ المُستَبِدِّ الظَّالِمِ)، يُنَاقِضُ مَقَاصِدَ الإِسْلَامِ وَغَايَاتِهِ، وَيُؤَكِّدُ حَاجَةَ الأَحْكَامِ الفِقْهِيّةِ إِلَىٰ صِيَاغَةٍ جَدِيدةٍ كَصِيَاغَةِ العَقِيدَةِ حَتَّىٰ لَا يَتَنَاسَىٰ الدُّعَاةُ فِي زَحْمَةِ الوَاقِعِ الحَيَاتِيِّ، وَيَسْتَعْجِلُوا الحُكْمَ الشَّرْعِيِّ غَافِلِينَ عَنِ اتِّفَاقِهِ مَعَ مَقَاصِدِ دِينِهِمْ وَشَرِيعَتِهِمْ.

وَقَدْ بَرَزَ فِي السَّنَوَاتِ الأَخِيرَةِ اتِّجَاهٌ دِينِيٌّ يُوَسِّعُ مِنْ دَائِرَةِ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِلْحَاكِمِ، وَيُضَيِّقُ مِنْ مَجَالِ نَقْدِهِ وَمُحَاسَبَتِهِ، مُسْتَنِدًا فِي ذَلِكَ إِلَىٰ نُصُوصٍ مِنْهَا حَدِيثُ:

«تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ »[363].

وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُ طَرَائِقِ تَنَاوُلِ هَذِهِ النُّصُوصِ إِلَىٰ تَقْدِيمِ الطَّاعَةِ بِصُورَةٍ تَكَادُ تَنْفَصِلُ عَنْ مَقَاصِدِ العَدْلِ وَالشُّورَىٰ وَمُرَاقَبَةِ السُّلْطَةِ، مِمَّا يَجْعَلُ إِعَادَةَ قِرَاءَةِ هَذِهِ المَسَائِلِ فِي ضَوْءِ مَجْمُوعِ النُّصُوصِ وَمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ أَكْثَرَ إِلْحَاحًا.

(362) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة دعوتنا في طور جديد]، ص 482.
(363) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، رقم (1847).

وَالرُّؤْيَةُ الشَّرْعِيَّةُ السَّلِيمَةُ لَا تَقِفُ عِنْدَ نُصُوصِ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، بَلْ تَضَعُهَا إِلَىٰ جَانِبِ النُّصُوصِ الَّتِي تُقَرِّرُ وَاجِبَ النُّصْحِ وَمُقَاوَمَةِ الظُّلْمِ، وَمِنْهَا قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «أَفْضَلُ الجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»(364).

## 2 - فِقْهُ الإِنْجَازِ

وَيَحْكُمُ فِقْهَ الإِنْجَازِ ضَابِطٌ أَسَاسِيٌّ هُوَ التَّدَرُّجُ، وَيَقُومُ عَلَىٰ شَرْطَيْنِ مُهِمَّيْنِ: الوَعْيِ وَالاقْتِنَاعِ، وَجَمَاعِيَّةِ الإِنْجَازِ.

### أ-ضَابِطُ فِقْهِ الإِنْجَازِ: التَّدَرُّجُ فِي تَحقيقِ المَشْرُوعِ

فَالضَّابِطُ فِي **فِقْهُ الإِنْجَازِ** هُوَ **التَّدَرُّجُ** حَتَّىٰ لَا نُلْحِقَ العَنَتَ بِالأُمَّةِ، وَنَحْمِيَهَا مِنَ السُّقُوطِ كَذلِكَ؛ لأَنَّ الأَمْرَ فِي الإِنْجَازِ مَنُوطٌ بِالاسْتِطَاعَةِ وَالطَّاقَةِ وَالقُدْرَةِ. فَكُلَّمَا ازْدَادَ الْإِيمَانُ، قَوِيَتِ الْعَزِيمَةُ، وَاتَّسَعَتْ دَائِرَةُ الِاسْتِطَاعَةِ.

فَفِي الأَمْرِ - إِذَنْ - تَرَقٍّ وَارْتِقَاءٌ إِلَىٰ الحَدِّ الأَعْلَىٰ لِلتكليفِ الّذِي هُوَ مَنَاطُ الإِنْجَازِ، وَلَا نَعتَذِرُ بِالتَّدَرُّجِ عَنِ التّقْصيرِ؛ فَالتَّدَرُّجُ مَعنَاهُ أَنْ نَرتَقِيَ، وَأَنْ نُوجِدَ فُسْحَةً، حَتَّىٰ نَحْمِيَ الفَرْدَ وَالأُمَّةَ مِنَ السُّقُوطِ أَوْ مِنَ الوُقُوعِ فِي العَنَتِ والمَشَقَّةِ، وَيَجِبُ أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَ مَا يُنَاطُ بِالأُمَّةِ، وَمَا يُنَاطُ بِالفَرْدِ، فَإِقَامَةُ الأَحْكَامِ مَثَلًا لَا يُنَاطُ بِالفَرْدِ، وَإِنَّما يُنَاطُ بِالأُمَّةِ، أَمَّا وَاجِبُ الأَفْرَادِ فَهُوَ أَنْ يُوجِدُوا السُّلْطَانَ الّذِي يَتحَقَّقُ بِهِ تَنفِيذُ الأَحْكَامِ، وَقَدِ التَفَتَ الإِمَامُ البَنَّا (رَحِمَهُ اللهُ) إِلَىٰ هَذَا المَعْنَىٰ عِنْدَمَا فَرَّقَ بَيْنَ قُوَّةِ العَقِيدَةِ وَالإِيمَانِ، وَقُوَّةِ الوَحْدَةِ وَالارْتِبَاطِ، وَقُوَّةِ السَّاعِدِ وَالسِّلَاحِ، وَهَذَا مَعْنَاهُ أَنْ تُربَّىٰ الأُمَّةُ تَربيةً مُتدرِّجَةَ الخُطُواتِ، وَأَلَّا تُحاوِلَ القَفْزَ حَتَّىٰ لَا تُحْرَمَ مِنَ الوُصُولِ أَوْ كَمَا قَالَ الإِمَامُ البَنَّا: «وَكُلُّ أُمَّةٍ تُحَاوِلُ تَخطِّيَ حَواجِزَ الطَّبيعَةِ يَكُونُ نَصيبُهَا الحِرْمَانَ»(365).

**فَفِقْهُ الإِنْجَازِ**- وَهُوَ فِقْهٌ مُهِمٌّ- لَكِنَّهُ لَا يَحْظَىٰ بِالاهتِمَامِ الكَافِي. وَقَدْ قُلْنَا إِنَّ رُوحَ فِقْهُ

(364) أبو داود: السنن، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم (4344)؛ والترمذي: السنن، كتاب الفتن، ح (2174)؛ وابن ماجه: السنن، كتاب الفتن، رقم (4011).
(365) حسن البنا: **مذكرات الدعوة والداعية**، ص 176.

الإِنْجَازِ هُوَ عَمَلِيّةُ التَّدرُّجِ، وَهَذَا التّدرُّجُ مَرهونٌ بِالاستِطَاعَةِ، وَلَا يَنبَغِي لأَحَدٍ أَنْ يَتخِذَ الاستِطَاعةَ أَوِ القُدْرَةَ تُكأَةً لِلاعْتِذَارِ أَوْ تَسوِيغِ التَّقْصيرِ، فَهذِهِ (الاستِطَاعَةُ) نَحْنُ مَسؤُولُونَ عَنهَا، وَإِنَّمَا يَكونُ الوُسْعُ عَلَىٰ قَدْرِ الإِيمَانِ.

فَكُلُّ أَخٍ ـ عَلَىٰ مُسْتَوَاهُ الشَّخْصِيِّ ـ مَسْؤُولٌ عَنِ التَّرَقِّي فِي مَرَاتِبِ التَّكْلِيفِ، وَمِنْ وَظِيفَةِ المُرَبِّي أَنْ يُعِينَهُ عَلَىٰ تَحْصِيلِ العَزِيمَةِ وَالأَخْذِ بِالأَكْمَلِ.

وَإِذَا كَانَتْ أَوامِرُ الإِسْلامِ تَدورُ بَينَ رُخْصَةٍ وَعَزيمَةٍ، فَالرُّخْصَةُ فِيهِ هِيَ حِمَايَةٌ لِلأُمَّةِ مِنَ السُّقُوطِ وَلِلفَرْدِ مِنَ الوُقُوعِ فِي العَنَتِ عِنْدَمَا يُناطُ بِهِ مَا يُنَاطُ بِالأُمَّةِ؛ وَمِنْ ثَمَّ فَوَاجِبُ الأَفْرَادِ أَنْ يُوجِدُوا السُّلْطَانَ الَّذِي يَتحَقَّقُ بِهِ تَنفِيذُ الأَحْكَامِ. وَكَمَا قَالَ الإِمَامُ البَنَّا: «وَثَمَّ أمرٌ آخَرُ جَديرٌ بِالنظَرِ؛ إِنَّ الناسَ كَانُوا إِذَا اختلَفُوا رَجعُوا إِلَىٰ (الخَليفَةِ)، وشَرطُه الإمَامةُ، فَيقْضِي بَينَهُم وَيَرفَعُ حُكْمُه الخِلافَ، أَمَّا الآنَ فأينَ الخليفَةُ؟ وَإِذَا كَانَ الأَمْرُ كَذلِكَ فَأَوْلَىٰ بِالمُسْلِمِينَ أَنْ يَبْحَثُوا عَنِ القَاضِي، ثُمَّ يَعرضُوا قَضِيَّتَهُم علَيهِ، فَإِنَّ اختِلافَهُم مِنْ غَيرِ مَرجِعٍ لَا يَرُدُّهُم إِلَّا إِلَىٰ خِلافٍ آخَرَ»(366).

## شَرطا فِقْهِ الإِنْجازِ

### الشَّرْطُ الأَوَّلُ: الوَعْيُ وَالاقْتِنَاعُ

لأَنَّهُ لَا يُتصَوَّرُ أَنْ يُنجِزَ الإِنْسَانُ شَيئًا، وَهُوَ غَيرُ مُقتَنِعٍ بِفَائِدَتِهِ وَصَلاحِيَّتِهِ، وَهَذَا مَا أَكَّدَهُ الإِمَامُ البَنَّا؛ حِينَ قَالَ بِأَنَّ نَجَاحَ النِّظَامِ الإِسْلامِيِّ مُتوقِّفٌ عَلَىٰ حَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ «اعتِقَادُ صَلاحِيَّةِ النظَامِ، وَالشُّعُورُ بِفَائِدَةِ المُحَافظَةِ عَلَيهِ؛ إِذ إِنَّ النُّصُوصَ وَحْدَهَا لَا تَنهَضُ بِأُمَّةٍ كَامِلَةٍ كَمَا لَا يَنفَعُ القَانونُ إِذَا لَمْ يُطَبِّقْهُ قَاضٍ عَادِلٌ نَزِيهٌ»(367).

فَلَا بُدَّ أَنْ تُوفِّرَ الأُمَّةُ مُناخًا نَفسِيًّا وَثَقافِيًّا يُتِيحُ لَهَا الوَعْيَ وَالاقتِنَاعُ، وَلَا بُدَّ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ مِنْ وَاجِبِهَا حِمَايَةَ حَقِّهَا فِي الاختِلَافِ، وَالمُشكِلَةُ الحَقِيقِيّةُ الّتِي تُواجِهُ

(366) حسن البنا: **مجموع رسائل الإمام البنا**، [رسالة: دعوتنا]، ص 139.
(367) حسن البنا: **مجموع رسائل الإمام البنا**، [رسالة: مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي]، ص 656.

المُصْلحيـنَ أَوِ الحَـركَاتِ الإِصْلاحيَّـةِ الآنَ؛ أَنَّ الإِنْسَـانَ قَدِيمًـا كَانَ فِـي كُفْـرٍ مُظلِـمٍ يَنتقِـلُ فَجـأَةً إِلَـىٰ هِدَايَـةٍ مُشـرِقَةٍ، فَتَـتفَجّرُ فِيـهِ طَاقـاتٌ هَائلَـةٌ تُحْـدِثُ مُعْجِـزَةَ التَّحـوُّلِ كَمَـا يقولـونَ، لَكِـنَّ الوَاقِـعَ الحَياتِـيَّ الآنَ مُعقَّـدٌ جِـدًّا، وَالإِنسَـانُ المُعاصِـرُ مُؤمِـنٌ بِالأُصُـولِ مُصـدِّقٌ لَهَـا، أَيْ أَنَّ النَّـاسَ لَا تَعِيـشُ فِـي كُفْـرٍ مُظْلِـمٍ، بَـلْ هُنالِـكَ إِيمَـانٌ بِالإِسْـلامِ وَأَحَقِّيتِـه وَصَلاحِيّتِـهِ، وَإِنَّمَـا هُنَالِـكَ تَـراخٍ فِـي الإِنْجَـازِ؛ تَـراخٍ إِرَادِيٌّ فِـي إِنْجَـازِ مُقتَضيَـاتِ الوَحْـيِ، وَهَـذَا مَـا يَحتَـاجُ فِعْـلًا إِلَـىٰ الوَعْـيِ وَالاقْتِنَـاعِ بِخُطـورَةِ ذَلِـكَ.

وَهَـذَا المَعْنَىٰ أَكَّـدَهُ سَـيِّدُنَا عُمَـرُ بـنُ الخَطّـابِ (رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُ)؛ حيـثُ صورَ جَسـامةَ التَّضحِيَّـاتِ التي بُذِلَـتْ والنفُـوسِ التِي أُزهقَـتْ لِلْقَضَـاءِ عَلَـىٰ المرتديـنَ؛ فيمَـا قالَـه يـومَ اليمَامـةِ: «أَلحَّـتِ السـيوفُ عَلَـىٰ أهـلِ السَّـوابِقِ، وَلَـم يَكُـنِ المُعـوَّلَ يومئـذٍ إِلَّا عَليهِـم. خَافُـوا علـىٰ الإِسْـلام أَنْ يُكسَـرَ بَابُـهُ فَيَدخُـلَ مِنْـهُ إِنْ ظَهـرَ مُسـيْلِمَةُ. فَمنَـعُ اللهُ الإِسـلامَ بِهِـم حَتَّـىٰ قُتِـلَ عَـدُوُّهُ. وأَظْهَـرَ كَلِمَتَـهُ وقَدِمُـوا - رَحِمَهُـم الله - عَلَـىٰ مَـا يُسَـرُّونَ بـهِ مِـن ثَـوابِ جِهادِهِـم مَـنْ كَـذَبَ عَلَـىٰ الله وعَلَـىٰ رُسـولِهِ. فَاستَحَـرَّ بِهِـم القتـلُ. فرحِـمَ الله تِلْـكَ الوجُـوهَ»[368].

وَلِذَلِـكَ أَقْـدَمَ سَـيِّدُنَا أَبُـو بَكْـرٍ (رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُ) عَلَـىٰ مَـا أَقْـدَمَ عَلَيـهِ مِـنْ قِتَـالِ المُرتَدِّيـنَ؛ لأَنَّـه شَـعرَ بِالخَطَـرِ الشَّـدِيدِ، لَـو تُرِكَـتْ حَركَـةُ الـرِّدَّةِ هَـذِهِ بِغَيـرِ مُواجهَـةٍ، بِمَعْنَـىٰ أَنَّ سَـيِّدَنَا أَبَـا بَكْـرٍ (رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُ) بَـذَلَ وُسْـعَهُ لِكَـيْ يُـوَفِّـرَ لِلأُمَّةِ المُنَاخَ النفْسِـيَّ وَالثقَافِيِّ، أَوِ (الوَعْـيَ وَالاقْتِنَـاعَ) بِخُطُـورَةِ تَـرْكِ حَركَـةِ الـرِّدَّةِ دُونَ مُواجهَـةٍ، وَقَـدْ حَاوَلَ سَـيِّدُنَا عُمـرُ وَبَعـضُ الصَّحَابـةِ أَنْ يُثْنُـوهُ عَـنِ المَوَاجَهَـةِ، فَقَـدْ رَوَىٰ أَبُـو هُريـرَةَ (رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُ): «لَمَّـا تُوُفِّـيَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ، وَكَانَ أَبُـو بَكْـرٍ (رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُ)، وَكَفَـرَ مَـنْ كَفَـرَ مِـنَ الْعَـرَب، فَقَـالَ عُمَـرُ (رَضِـيَ اللهُ عَنْـهُ): كَيْـفَ تُقَاتِـلُ النَّـاسَ وَقَـدْ قَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: أُمِـرْتُ أَنْ أُقَاتِـلَ النَّـاسَ حَتَّـىٰ يَقُولـوا لا إِلـهَ إِلَّا اللهُ، فَمَـنْ قالَهـا فَقَـدْ عَصَـمَ مِنِّـي مَالَـهُ وَنَفْسَـهُ إِلَّا بِحَقِّـهِ، وَحِسـابُهُ عَلَـىٰ اللهِ فَقَـالَ أَبُـو بَكْـرٍ: وَاللهِ لأُقَاتِلَـنَّ مَـنْ فَـرَّقَ بَيْـنَ الصَّـلاةِ وَالـزَّكَاةِ، فَـإِنَّ الـزَّكَاةَ حَـقُّ الْمَـالِ، وَاللهِ لَـوْ مَنَعُـونِي عَنَاقًـا كَانـوا يُؤَدُّونَهـا إِلَـىٰ رَسُـولِ اللهِ

(368) محمد بن عبد الوهاب: **مختصر سيرة الرسول** ﷺ، ط 1، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، ١٤١٨هـ، ص 284.

ﷺ لَقاتَلْتُهُمْ عَلىٰ مَنْعِها. قالَ عُمَر (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): فَواللهِ ما هُوَ إِلَّا أَنْ قَدْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَ أَبي بَكْرٍ رضي الله عنه فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ»[369].

وَنَحْنُ الآنَ - رَغْمَ تَصْدِيقِ المُسْلِمِينَ بِأُصولِ الإِسْلَامِ - نُواجِهُ غَزْوًا فِكريًّا وَثَقافِيًّا وَاجْتِماعيًّا وَسِياسِيًّا وَاقتِصادِيًّا، أَوْ غَزْوًا حَضارِيًّا شامِلًا، كَما قالَ الإِمامُ البنَّا: «وَلَكِنَّ هَذِهِ الحَضارَةَ الغَربيّةَ قَدْ غَزَتْنا غَزْوًا قَوِيًّا عَنِيفًا بِالعِلْمِ وَبِالمالِ، وَبِالسِّياسَةِ وَبِالتَّرَفِ، وَالمُتْعَةِ وَاللَّهْوِ وَبِضُروبٍ مِنَ الحَياةِ النَّاعِمَةِ العابِثَةِ المُغْرِيَةِ التِي لَمْ نَكُنْ نَعرِفُها مِنْ قَبْلُ. فَأُعْجِبْنا بِها، وَرَكَنَّا إِلَيْها، وَأَثَّرَ هَذا الغَزْوُ فِينا أَبْلَغَ الأَثَرِ وَانْحَسَرَ ظِلُّ الفِكْرَةِ الإِسْلامِيّةِ عَنِ الحَياةِ الاجْتِماعِيَّةِ فِي كَثِيرٍ مِنْ شُؤُونِها الهامَّةِ، وَانْدَفَعْنا نُغَيِّرُ أَوْضاعَنا الحَيوِيَّةَ وَنَصْبُغُ مُعظَمَها بِالصِّبْغَةِ الأُورُوبيَّةِ، وَحَصَرْنا سُلطانَ الإِسْلامِ فِي حَياتِنا عَلَى القُلُوبِ وَالمَحارِيبِ، وَفَصَلْنا عَنْهُ شُؤُونَ الحَياةِ العَمَلِيّةِ، وَباعَدْنا بَينَهُ وَبَيْنَها مُباعَدَةً شَدِيدَةً، وَبِهَذا أَصْبَحْنا نَحْيا حَياةً ثُنائِيَّةً مُتذَبْذِبَةً أَوْ مُتناقِضَةً»[370].

وَمَنْ يُتابِعِ الأَحداثَ الأَخيرَةَ يَجِدْ أَنَّ أَثَرَ هَذا الغَزْوِ الحَضارِيّ قَدْ بَاضَ وَفَرَّخَ، وَهَذا مَا أَشْفَقَ مِنْهُ الإِمامُ البنَّا.

مِنْ ذَلِكَ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ كِتَابٌ بِعُنْوَانِ: «**الجِنْدَرُ: المَنْشَأُ، المَدْلُولُ، الأَثَرُ**»[371]، حَيْثُ تَناوَلَ مَفْهُومَ الجِنْدَرِ، وَمَا ارْتَبَطَ بِهِ مِنْ تَحَوُّلَاتٍ فِي النَّظْرَةِ إِلَىٰ العَلَاقَةِ بَيْنَ الذَّكَرِ وَالأُنْثَىٰ، وَإِلَىٰ الأَدْوَارِ الاجْتِمَاعِيَّةِ المُرْتَبِطَةِ بِكُلٍّ مِنْهُمَا.

وَمَا أَعْقَبَ ذَلِكَ مِنْ اتِّفَاقِيَّاتٍ دَوْلِيَّةٍ، مِنْ أَبْرَزِهَا اتِّفَاقِيَّةُ «سِيدَاو»[372] الخَاصَّةُ

(369) أخرجه البخاري (7284، 7285)، ومسلم (20)، وأبو داود (1556)، والترمذي (2607).

(370) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة دعوتنا في طور جديد]، ص 498.

(371) هذا الكتاب من إعداد د. مثنىٰ الكردستاني، ود. كاميليا حلمي، وصدرت الطبعة الاولىٰ منه عن جمعية العفاف عام 2004.

(372) وَيَظْهَرُ مَوْضِعُ الإِشْكَالِ بَيْنَ بَعْضِ أَحْكَامِ اتِّفَاقِيَّةِ «سِيدَاو» وَالتَّصَوُّرِ الإِسْلَامِيِّ فِي أَنَّ الاتِّفَاقِيَّةَ تَنْطَلِقُ مِنْ مَبْدَإِ المُسَاوَاةِ التَّامَّةِ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالمَرْأَةِ فِي المَرَاكِزِ وَالأَدْوَارِ القَانُونِيَّةِ، بَيْنَمَا تُقَرِّرُ الشَّرِيعَةُ المُسَاوَاةَ فِي الكَرَامَةِ الإِنْسَانِيَّةِ وَالتَّكْلِيفِ وَالأَصْلِ، مَعَ إِقْرَارِهَا بَعْضَ الفُرُوقِ فِي الأَحْكَامِ وَالمَسْؤُولِيَّاتِ، وَلَا تَعُدُّ كُلَّ اخْتِلَافٍ بَيْنَ الجِنْسَيْنِ تَمْيِيزًا مَذْمُومًا.

بِالقَضَاءِ عَلَىٰ جَمِيعِ أَشْكَالِ التَّمْيِيزِ ضِدَّ المَرْأَةِ فِي مُؤتَمَرِ السُّكانِ بِالقَاهِرَةِ، وَبَعْدَ ذَلِكَ بِكِّين، وَبَعدَ ذَلِكَ نُيُويُورْك، وَكُلّهَا مُؤتمرَاتٌ تُحارِبُ كُلَّ أَنوَاعِ التَّمييزِ ضِدَّ المَرأةِ، وَاتِّفاقِيّاتٌ تُفرِّغُ المُجتمعَاتِ الإِسْلاميةَ مِنْ مَضمُونِهَا وَجوهَرِهَا؛ لأَنَّهَا تَدعُو إِلَىٰ صِياغَاتٍ جَدِيدَةٍ، وَإِلَىٰ قِراءاتٍ جَديدةٍ حَتَّىٰ فِي الكُتُبِ المُقدّسَةِ، وَقَدْ غَيَّرَ رِجَالُ الدِّينِ المَسيحِيِّ فِي كُتبِهِم المُقدَّسَةِ وَفْقًا لِهَذِهِ الاتفَاقِيَّةِ؛ فَمَا عَادُوا يَستَخْدِمُونَ ضَمِيرَ المُذكَّرِ لِلإِشَارَةِ إِلَىٰ (اللهِ) وَإِنَّمَا يَستَخْدِمُونَ ضَمائِرَ حِياديَّةً، وَانْطَلَقَتْ دَعواتٌ وَاتفاقِيّاتٌ فِي البَاكِستَانِ، وَلِيبيَا تَدعُو إِلَىٰ إِعَادَةِ قِراءَةِ القُرآنِ وَتَفْسِيرِه[373]، وهَذَا الكَلامُ مكتُوبٌ وَمَنشورٌ.

ولا يقتصر الأمر عَلَىٰ قِرَاءَاتِ جَديدَةٍ أَوْ صِياغَاتٍ جَديدةٍ فِكْرِيّةٍ أَوْ ثَقافِيَّةٍ أَوْ عَقَديَّةٍ فَحَسْبُ، وَإِنَّما دَعَوْا إِلَىٰ صِياغَاتٍ وَاقعِيَّةٍ جَدِيدَةٍ كَذَلِكَ، وَتَتناوَلُ تَغْيِيرَ المُصطَلَحَاتِ، وَالأَعْرَافِ وَالتقَالِيدِ، وَالوَاقِعِ الحَياتِيِّ؛ حَتَّىٰ غُيِّرَتْ كَلِمَاتٌ مِثْلَ (الزِّنَا) وَ(الدّعَارَة)، وَأَصْبَحَتْ مَنْ تُمارِسُ هَذِهِ الرذَائِلَ تُسَمَّىٰ (عَامِلاتِ الجِنْسِ)، وَمَمنوعٌ فِي أَيِّ قَانونٍ، أَوْ أَيِّ دَولَةٍ مِنَ الدُّوَلِ الّتِي وَقَّعَتْ عَلَىٰ الاتفاقيةِ، أَنْ يَكُونَ فِيهَا أَيّ شَكلٍ مِنْ أَشكَالِ التَّنديدِ بِالشُّذُوذِ، حَتَّىٰ مُصطَلَحُ (الشُّذُوذِ) هَذَا غَيَّرُوهُ إِلَىٰ مُصطَلَحِ (المِثْلِيّةِ) أَوِ (الأُسَرِ غَيرِ النَّمطِيةِ)، أَوِ الحَيَاةِ غَيرِ النمَطيةِ بَينَ الجِنْسَينِ، وَأَيُّ قَانونٍ يُجرِّمُه، أَوْ أَيّ قَاضٍ يَحْكُمُ فِي قَضَايَا الشُّذُوذِ الجِنسِيِّ، سَوَاء لِلرجَالِ أَوِ النسَاءِ، أَوْ أَي رَسْمٍ كَارِيكَاتِيرِيٍّ، أَوْ أَيِّ وَسَائِلَ إِعْلامِيَّةٍ، أَوْ أَيِّ مَنَاهِجَ تَعلِيمِيَّةٍ، أَوْ أَيِّ دَعْوَةٍ إِلَىٰ تَطهِيرِ مَنَاهِجِ التَّعلِيمِ وَوَسَائِلِ الإِعْلامِ مِنْ كُلِّ مَا يُدِينُ هَذِهِ الظاهِرَةَ؛ فَإِنَّهُ سَيُلاحَقُ قَضَائِيًّا، وَسَتُطارِدُهُ مُنظَّمَاتُ حُقوقِ الإِنْسَانِ!

هَذَا هُوَ الخَطَرُ الذِي تُواجِهُهُ الأُمَّةُ الآنَ، وَيَجِبُ عَلَيْهَا أَنْ تَستَعِدَّ لَهُ وَأَنْ

(373) انْطَلَقَتْ دَعَوَاتٌ وَمُحَاوَلَاتٌ لِإِعَادَةِ قِرَاءَةِ القُرْآنِ وَتَفْسِيرِهِ فِي ضَوْءِ مُعْطَيَاتِ العَصْرِ، وَأُطْلِقَ عَلَىٰ بَعْضِهَا «القِرَاءَاتُ المُعَاصِرَةُ» أَوْ «القِرَاءَاتُ الحَدَاثِيَّةُ» لِلنَّصِّ القُرْآنِيِّ، وَمِنْ أَبْرَزِ نَمَاذِجِهَا مُحَاوَلَةُ مُحَمَّدٍ شَحْرُور. وَقَدْ أَثَارَتْ بَعْضُ هَذِهِ القِرَاءَاتِ إِشْكَالَاتٍ مَنْهَجِيَّةً فِي فَهْمِ النَّصِّ، وَفِي التَّعَامُلِ مَعَ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ وَالسُّنَّةِ وَأُصُولِ التَّفْسِيرِ، وَفِي إِعَادَةِ بِنَاءِ دَلَالَاتِ النُّصُوصِ عَلَىٰ نَحْوٍ يُفَارِقُ مَا اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ التَّفْسِيرُ الإِسْلَامِيُّ فِي جُمْلَةٍ مِنَ المَسَائِلِ. وَقَدْ تَلْقَىٰ بَعْضُ هَذِهِ الِاتِّجَاهَاتِ دَعْمًا مِنْ جِهَاتٍ رَسْمِيَّةٍ وَثَقَافِيَّةٍ، بِمَا يُثِيرُ التَّسَاؤُلَ عَنْ تَوْظِيفِهَا فِي إِضْعَافِ صِلَةِ المُسْلِمِينَ بِالفَهْمِ المَنْهَجِيِّ لِكِتَابِ اللهِ، وَإِحْلَالِ قِرَاءَاتٍ مُحْدَثَةٍ مَحَلَّ أُصُولِ التَّفْسِيرِ المُسْتَقِرَّةِ.

تُدرِكَهُ فِي وَعْيِهَا وَفِي اقْتِنَاعِهَا حَتَّىٰ تَنْهَضَ لِإِنْجَازِ مُقتضَيَاتِ الوَحْيِ الشَّرِيفِ فِي حَيَاتِهَا فَتُكيِّفَ الحَيَاةَ فِكْرًا وَسُلُوكًا بِحَسْبِ مُقتضَيَاتِ الوَحْيِ.

وَعَدَمُ إِدْرَاكِ هَذَا الغَزْوِ الفِكْرِيِّ وَالثَّقَافِيِّ وَصَوْلَتِهِ الشَّامِلَةِ هُوَ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَىٰ النُّكُولِ وَالنُّكُوصِ عَنِ النُّهُوضِ، وَيَجِبُ عَلَىٰ الأُمَّةِ كَذَلِكَ أَنْ تُوفِّرَ المُنَاخَ النفْسِيَّ وَالثقَافِيَّ الذِي يُعِينُ عَلَىٰ عَمَلِيَّةِ الوَعْيِ وَالاقْتِنَاعِ.

### سِيَادَةُ الفِكْرَةِ الإِسْلَامِيَّةِ:

وَلِهَذَا لَمْ يَكتَفِ الإِمَامُ البنَّا بِتكْوِينِ الفَرْدِ المُسْلِمِ، وَلَا البَيْتِ المُسْلِمِ، وَلَا الشَّعْبِ المُسْلِمِ فَقَطْ، وَلَكِنَّه تَغَيَّا فِي هَذِهِ الرسَالَةِ (دَعْوَتُنَا فِي طَوْرٍ جَدِيدٍ) مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ؛ فَقَالَ: «نَحْنُ نُرِيدُ الفَرْدَ المُسْلِمَ، وَالبَيْتَ المُسلِمَ، وَالشَّعْبَ المُسْلِمَ، وَلَكِنَّا نُرِيدُ قَبلَ ذَلِكَ أَنْ تَسُودَ الفِكْرَةَ الإِسْلامِيَّةُ حَتَّىٰ تُؤَثِّرَ فِي كُلِّ هَذِهِ الأَوْضَاعِ وَتَصْبُغَهَا بِصِبْغَةِ الإِسْلام، وَبِدُونِ ذَلِكَ لَنْ نَصِلَ إِلَىٰ شَيْءٍ، نُرِيدُ أَنْ نُفكِّرَ تَفكِيرًا اسْتِقْلالِيًا يَعتَمِدُ عَلَىٰ أَسَاسِ الإِسْلَامِ الحَنِيفِ لَا عَلَىٰ أَسَاسِ الفِكْرَةِ التقْلِيدِيّةِ التِي جَعلَتْنَا نَتقيَّدُ بِنظَرِيَّاتِ الغَرْبِ وَاتجَاهَاتِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، نُرِيدُ أَنْ نَتميَّزَ بِمُقومَاتِنَا وَمُشَخِّصَاتِ حَياتِنَا كَأُمَّةٍ عَظِيمَةٍ مَجِيدَةٍ تَجرُّ وَرَاءَهَا أَقْدَمَ وَأَفْضَلَ مَا عَرفَ التَّارِيخُ مِنْ دَلائِلَ العَظَمَةِ وَمَظاهِرِ الفَخَارِ وَالمَجْدِ»(374).

## الشَّرْطُ الثَّانِي: جَمَاعِيَّةُ الإِنْجَازِ

لأَنَّ عَقِيدَةَ التَّوحِيدِ وَمَنَاسِكَ التَّعبُّدِ لَا تَكُونُ أَوْ لَا تَنعَقِدُ خَالِصَةً إِلَّا بِوَحْدَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ، وَمِنْ ثَمَّ يَجِبُ أَنْ نَسْتَنهِضَ رُوحَ الأُمَّةِ، أَوْ رُوحَ الجَمَاعَةِ؛ لأَنَّ غَايَاتِنَا لَا تُنجَزُ أَوْ تَتحَقَّقُ إِلَّا بِعَمل جَماعِيٍّ مُنظَّمٍ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ لِلْهِجْرَةُ وَأَحْكَامُهَا فِي القُرآنِ الكَرِيمِ هَذِهِ الصَرامَةُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ

(374) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة دعوتنا في طور جديد]، ص 497.

مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 97]. دَعْوَةٌ إِلَىٰ الهِجْرَةِ لِمَاذَا؟ حَتَّىٰ يَتحقَّقَ الإِنْجَازُ؛ لأنَّ القُعُودُ تَعطِيلٌ لِلإِنْجَازِ الذِي لَا يَتحقَّقُ إِلّا بعَمل جمَاعِيٍّ؛ وَهَذَا تفسيرٌ لِقولِهِ تَعالَىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: 44]؛ فَاجتِمَاعُ النَّاسِ وَتعَبُّدُهَا وَتَعامُلُها عَلَىٰ أساسِ الخضُوعِ للهِ وَحْدَهُ، حَتَّىٰ تُنفَّذَ هَذِهِ الأحكَامُ وَتُنجَزَ لَا بُدَّ مِنْ رُوحٍ جَماعيَّةٍ (جَماعيّةِ الأُمَّة أَوْ جَماعِيَّةِ الإِنْجَازِ أَوْ رُوحِ الأُمَّةِ أَوْ رُوحِ الجَماعَةِ)، حَتَّىٰ يَتحَقَّقَ ذَلِكَ.

وَكَثِيرًا مَا تَجْعَلُ الآيَاتُ القُرآنيةُ (الخُسْرَانَ) عَاقِبةً لِلقُعُودِ عَنْ أَدَاءِ هَذَا الوَاجِبِ؛ لأَنَّهُ فِي النِّهايَةِ يَكونُ تَعطِيلًا لِلإِنْجَازِ المَطْلُوبِ مِنَ الأُمَّةِ، وَهَذَا مَا ذَكرَهُ الإِمَامُ البنَّا، وَهُوَ يَتكلَّمُ عَنْ مُسؤُوليّةِ الأُمّةِ تِجَاهَ حُكَّامِهَا، وَأَنَّها مَسؤُولَةٌ عَنْ تَبعَةِ مَا يَصنَعُونَهُ بِهَا، **فَكُلُّ أُمَّةٍ تَستَحِقُّ الحُكْمَ الّذِي تَصْبِرُ عَلَيهِ**، إِنْ كَانَ صَالِحًا عَادِلًا، أَوْ كَانَ فَاسِدًا ظَالِمًا؛ لأَنَّ العِبرَةَ بِأخلَاقِ الأُمَمِ وَلَيسَ بِشَكْلِ الحُكومَاتِ؛ فَكُلُّ أُمةٍ مَسؤُولَةٌ عَنْ تَصرُّفَاتِ حُكَّامِهَا وَعَنْ تَبعَةِ مَا يَصْنَعُونَهُ بِهَا، وَالأُمةُ الّتِي تَأْنَفُ الاسْتِبدَادَ لَا تَعتَذِرُ فِي ذَلِكَ بِجَهْلٍ وَلَا إِكرَاهٍ؛ لأَنَّ الجَهْلَ تُعاقَبُ عَلَيهِ، وَالإِكْرَاهَ ضَعْفٌ تَلْقَىٰ جَزاءَهُ.

## الأُمَّةُ المُوَحَّدَةُ أَسَاسُ النَّهْضَةِ

فَالأُمَّةُ الّتِي تَأْنَفُ الاسْتِبدَادَ لَا سَبِيلَ أَنْ يَستَبِدَّ بِهَا غَيرُهَا، وَالأمةُ الّتِي لَا تَعرِفُ مَعنَىٰ الحُريَّةِ يَعْبَثُ بِهَا غَيرُهَا؛ وَلِذَلِكَ دَعَا الإِمَامُ البنَّا فِي هَذِهِ الرسَالَةِ إِلَىٰ إِيجَادِ (الأُمّةِ المُوحَّدَةِ)، فَقَالَ: «وَلَا بُدّ مِنْ وَضْعِ حَدٍّ لِهَذَا التفَاوُتِ الغَرِيبِ **حَتَّىٰ نَظْفُرَ بِالأُمَّةِ المُوحَّدَةِ، فَبِدُونِ الوَحْدَةِ لَا تُحَقَّقُ نَهضَةٌ وَلَا تَحْيَا أُمَّةٌ حَيَاةَ الكَمَالِ.** لِهَذَا يَدْعُو الإِخْوَانُ المُسلِمُونَ إِلَىٰ أَنْ يَكُونَ الأَسَاسُ الذِي تَعتَمِدُ عَلَيهِ نَهضَتُنَا هُوَ تَوحِيدَ مَظَاهِرِ الحَيَاةِ العَمَلِيَّةِ فِي الأُمَّةِ عَلَىٰ أَسَاسِ الإِسْلَامِ وَقَوَاعِدِهِ وَبِذَلِكَ تَبْنِي مِصْرُ نَفْسَهَا، وَتُقدِّمُ لِلعَالَمِ كُلِّهِ أَكْمَلَ نَمَاذِجِ الحَيَاةِ الإِنْسَانيَّةِ الصَّحِيحَةِ»(375).

(375) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة دعوتنا في طور جديد]، ص ٧.

وَمِنْ ثَمَّ فَكلُّ مَا يُهدِّدُ هَذِهِ الوَحْدَةَ، أَوْ هَذِهِ الرُّوحَ الجَمَاعِيّةَ يَجِبُ تَقييدُهُ أَوْ إلغَاؤُهُ، لأَنَّ رُوحَ التَّرابُطِ وَالمَحبَّةِ وَالإِخَاءِ أَسَاسُ كُلِّ دَعْوَةٍ نَاجِحَةٍ، وَقَدْ قِيلَ

وَقَدْ قَرَّرَ ابْنُ خَلْدُونَ أَنَّ «الظُّلْمَ مُؤْذِنٌ بِخَرَابِ العُمْرَانِ»، وَبَيَّنَ أَنَّ الحَاكِمَ إِذَا كَانَ قَاهِرًا بَاطِشًا شَمِلَ الرَّعِيَّةَ الخَوْفُ وَالذُّلُّ، وَلَاذُوا بِالكَذِبِ وَالمَكْرِ وَالخَدِيعَةِ، وَرُبَّمَا خَذَلُوهُ فِي مَوَاطِنِ الحُرُوبِ وَالمُدَافَعَاتِ، «فَتَفْسُدُ الحِمَايَةُ بِفَسَادِ النِّيَّاتِ(376).

## المَحَبَّةُ وَالإِخَاءُ أَسَاسُ جَمَاعِيَّةِ الإِنْجَازِ

وَلِذَلِكَ حَرصَ الإِمَامُ عَلَىٰ تَوْثِيقِ مَعَانِي المَحبَّةِ وَالإِخَاءِ فِي مَشْرُوعِهِ العَظِيمِ الّذِي قَدّمَهُ لِلأمَّةِ، وَمِنْ أَهَمِّ أَرْكَانِهُ (نِظَامُ الأُسَرِ) الّذِي يَقُومُ عَلَىٰ التَّعَارُفِ وَالتَّفَاهُمِ وَالتَّكَافُلِ، لِمَاذَا؟ حَتَّىٰ يُوجِدَ هَذِهِ الرُّوحَ الجَمَاعِيَّةَ، وَهِيَ شَرْطٌ لِتَحقِيقِ الإِنْجَازِ المَنُوطِ بِالأمَّةِ، وَقَدْ بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَىٰ الحُبِّ وَالتعَارُفِ، فَلَيسَ فِيهِ مَجْهُولٌ يَلتَقِي بِمَجْهُولٍ، وَإِنَّمَا بُنِيَ المُجتَمعُ الإِسْلامِيُّ عَلَىٰ الحُبِّ وَالتعَارُفِ وَالمَحبَّةِ وَالإِخَاءِ، وَهِيَ العَوامِلُ الّتِي تُؤدِّي فِعْلًا إِلَىٰ (جَمَاعيّةِ الإِنْجَازِ)، وَلِذَلِكَ يَقولُ الأستَاذُ عَليُّ عِزّتْ بِيجُوفِيتْش: **"وَكُلُّ مَا يَبثُّ الفُرقَةَ وَالنزَاعَ بَينَ أَعْضَاءِ الجَماعَةِ سَواءٌ مَا كَانَ مُتَّصِلًا بِالأَفْكَارِ (كَالفِرَقِ وَالمَذاهَبِ وَالأَحْزَابِ)، أَوْ مُتَّصِلًا بِالأَشْيَاءِ المَادِيَّةِ (كَالتفَاوُتِ الهَائِلِ فِي الثَّرْوَةِ أَوِ المَرَاكِزِ الاجْتِمَاعِيَّة وَغَيرِهَا)، فَهُوَ مُخالِفٌ لِهَذَا المَبدَأِ، وَمِنْ ثَمَّ فَمِنَ الوَاجِبِ تَقييدُهُ أَوْ إِلغَاؤُهُ"**(377).

وَإِذَا كَانَ الإِمَامُ البَنَّا قَدْ أَوْجَزَ وَسِيلَةَ النَّجَاحِ لأَيِّ دَعْوَةٍ فَقَالَ: «وَخُلاصَةُ ذَلِكَ

(376) عبد الرحمن بن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**، الفصل الثالث والأربعون: «في أن الظلم مؤذن بخراب العمران»، 2/ 99.

(377) علي عزت بيجوفيش: **الإعلان الإسلامي**، تقديم وترجمة محمد يوسف عدس، ط 1، مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، 1430هـ – 2009م، ص 100.

جُملَتانِ: إيمانٌ وعَملٌ ومَحبّةٌ وإخاءٌ"[378]، فَإنَّ الأُسْتاذَ عِليَّ عِزَّت بِيجُوفِيتْش يَقولُ: "**إنَّ كُلَّ عَملٍ يُرادُ بِهِ التأثيرُ عَلَىٰ الأحداثِ لا بُدَّ أنْ يَكُونَ عَمَلًا اجْتِماعِيًّا**، وَكُلَّ نِضالٍ نَاجِحٍ لَا بُدَّ أَنْ يَكونَ نِضالًا مُشتركًا مُنظَّمًا، وَلَنْ يَكُونَ الجِبلُ الجَدِيدُ قَادِرًا عَلَىٰ القِيامِ بِمُهمَّتِهِ فِي التَّغييرِ إلَّا إذَا وَضَعَ طُموحَاتِهِ وَمِثَالِيّاتِهِ فِي قَالَبِ حَركَةٍ مُنظَّمَةٍ يَقتَرِنُ فِيهَا الحَمَاسُ وَالقِيَمُ الشَّخْصِيَّةُ لِلأفرَادِ، بِأَسَالِيبِ العَقْلِ المُنَسَّقِ المُشْتَرَكِ، وَتَأسِيسُ مِثْلِ هَذِهِ الحرَكَةِ بِهَدفٍ وَاحِدٍ وَبَرْنَامَجٍ وَاحِدٍ هُوَ شَرْطٌ ونُقطَةُ انْطِلاقٍ لِلنَّهْضَةِ فِي كُلِّ دَولَةٍ مُسلِمَةٍ". **وَلَوْ تَدبَّرْتَ مَا قَالَهُ الإمَامِ البنَّا وَدَعَا إلَيهِ، وَمَا قَالَهُ الأستَاذُ عِزّت بِيجُوفيتْش؛ لَعَلِمْتَ أَنَّ كَلامَهُمَا يَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ** [379].

(378) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة دعوتنا في طور جديد]، ص 503.
(379) علي عزت بيجوفيش: **الإعلان الإسلامي**، ص 151.

# رِسالَةُ «بينَ الأَمسِ وَالْيوْمِ»

كَتَبَ الإِمَامُ الْبَنَّا رِسَالَةَ «بَيْنَ الأَمْسِ وَالْيَوْمِ» فِي مُنْتَصَفِ الثَّلَاثِينِيَّاتِ، وَبَدَأَ نَشْرَهَا مُتَسَلْسِلَةً فِي جَرِيدَةِ «الإِخْوَانِ الْمُسْلِمُونَ» ابْتِدَاءً مِنْ صَفَر سنة (1362هـ) (1943م تَقْرِيبًا)، ثُمَّ جُمِعَتْ بَعْدَ ذَلِكَ ضِمْنَ «رَسَائِلِ الإِمَامِ الشَّهِيدِ»[380].

(380) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رِسَالَة: بَيْنَ الأَمْسِ وَالْيَوْمِ]، طبعة النداء- إسطنبول. 2014. ص 494.

## الظُّرُوفُ التَّارِيخِيَّةُ لِكِتَابَةِ الرِّسَالَةِ

كَتَبَ الْأُسْتَاذُ الْبَنَّا رحمه الله هَذِهِ الرِّسَالَةَ فِي ظُرُوفٍ عَصِيبَةٍ مَرَّتْ بِهَا الدَّعْوَةُ فِي أَثْنَاءِ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الثَّانِيَةِ؛ وَفِي وَقْتٍ تَعَرَّضَ فِيهِ الإِخْوَانُ الْمُسْلِمُونَ لِلتَّضْيِيقِ وَالْمُرَاقَبَةِ، حَتَّىٰ أَصْدَرَ النَّحَّاسُ بَاشَا فِي أَوَاخِرِ فِبْرَايِرَ سَنَةَ (1943م/ 1362هـ) قَرَارًا بِإِغْلَاقِ جَمِيعِ شُعَبِ الإِخْوَانِ، مَا عَدَا الْمَرْكَزَ الْعَامَّ بِالْقَاهِرَةِ، مَعَ إِخْضَاعِهِ لِلْمُرَاقَبَةِ. وَشَاعَ بَيْنَ النَّاسِ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ أَنَّ الإِنْجِلِيزَ يَنْوُونَ التَّخَلُّصَ مِنَ الإِمَامِ الْبَنَّا بِالْقَتْلِ أَوِ النَّفْيِ، فَكَتَبَ الإِمَامُ الْبَنَّا هَذِهِ الرِّسَالَةَ كَأَنَّهَا وَصِيَّةُ مُوَدِّعٍ.

أَيْ أَنَّهَا كُتِبَتْ وَالْعَالَمُ الإِسْلَامِيُّ يَمُوجُ بِحَرَكَاتٍ مِنَ الْغَلَيَانِ وَالتَّحَوُّلِ، فَجَاءَتْ هَذِهِ الرِّسَالَةُ لِتَعْرِضَ الْأَفْكَارَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِعَمَلِيَّاتِ النُّهُوضِ وَالْخُرُوجِ مِنْ ذَلِكَ الْمَأْزِقِ الَّذِي وَقَعَتْ فِيهِ الْأُمَّةُ الإِسْلَامِيَّةُ قَاطِبَةً، حَتَّىٰ وَصَلَتِ الْحَالُ – كَمَا يَقُولُ الشَّيْخُ الْغَزَالِيُّ رحمه الله: «**لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي التَّارِيخِ لَمْ يَبْقَ هُنَاكَ شَعْبٌ مُسْلِمٌ حُرٌّ إِلَّا نَزَلَ فِيهِ الْمُسْتَعْمِرُ الْغَاصِبُ**»(381).

فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ الْمَلِيئَةِ بِالْغَلَيَانِ كَتَبَ الإِمَامُ الْبَنَّا رحمه الله هَذِهِ الرِّسَالَةَ، وَهِيَ تُعَبِّرُ عَنْ بِدَايَةِ النُّضْجِ لِعَالَمِنَا الإِسْلَامِيِّ؛ حَيْثُ رَكَّزَ الإِمَامُ الْبَنَّا رحمه الله عَلَىٰ ذَلِكَ السُّؤَالِ الْحَائِرِ: مَا الَّذِي فَعَلَهُ الْآخَرُونَ بِنَا؟ وَلَكِنَّهُ طَرَحَهُ بِصُورَةٍ مُغَايِرَةٍ: مَا الَّذِي فَعَلْنَاهُ بِأَنْفُسِنَا؟ أَوْ بِالْأَحْرَىٰ: مَا الَّذِي كَانَ يَجِبُ عَلَيْنَا أَلَّا نَفْعَلَهُ حَتَّىٰ لَا نَنْتَهِيَ إِلَىٰ ذَلِكَ الْمَصِيرِ؟

يقول علي عزت بيجوفيتش: «لَا تُوجَدُ خَسَارَةٌ لَا يَكُونُ الشَّعْبُ الْخَاسِرُ مَسْؤُولًا عَنْهَا، وَلَا يُوجَدُ فِي مَزْبَلَةِ التَّارِيخِ أَبْرِيَاءُ؛ لِأَنَّكَ عِنْدَمَا تَكُونُ ضَعِيفًا فَهَذِهِ خَطِيئَةٌ مِنْ وِجْهَةِ نَظَرِ التَّارِيخِ، وَأَنْ تَكُونَ ضَعِيفًا فِي التَّارِيخِ هُوَ عَمَلٌ لَا أَخْلَاقِيٌّ»(382).

وَلِهَذَا انْطَلَقَتِ الرِّسَالَةُ مِنْ مِحْوَرَيْنِ كَبِيرَيْنِ، دَارَ الْحَدِيثُ حَوْلَهُمَا:

(381) ينظر كتابه: **الاستعمار أحقاد وأطماع**. نهضة مصر للطباعة والنشر. 2005. ص 7.
(382) علي عزت بيجوفيتش، **هروبي إلىٰ الحرية**، ترجمة إسماعيل أبو البندورة، دار الفكر، ط1، 2002م.

- تَشْخِيصُ حَقِيقَةِ الْأَزْمَةِ الَّتِي آلَتْ إِلَيْهَا الْأُمَّةُ الإِسْلَامِيَّةُ، وَبَيَانُ أَسْبَابِ التَّرَاجُعِ
- بَيَانِ الْمَنْهَجِ الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يُخْرِجَهَا مِنْ هَذَا الْمَأْزِقِ، وَيُعِيدَ إِلَيْهَا قُدْرَتَهَا عَلَىٰ النُّهُوضِ.

وَهَذَانِ الْمِحْوَرَانِ لَا يُمَثِّلَانِ مُجَرَّدَ تَرْتِيبٍ لِمَوْضُوعَاتِ الرِّسَالَةِ، بَلْ يُمَثِّلَانِ الْمَنْهَجَ الَّذِي سَارَ عَلَيْهِ الإِمَامُ حَسَنُ الْبَنَّا؛ إِذْ يَبْدَأُ بِفَهْمِ الْوَاقِعِ وَتَشْخِيصِ أَدْوَائِهِ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَىٰ بِنَاءِ مَشْرُوعِ الإِصْلَاحِ عَلَىٰ أَسَاسٍ مِنَ الْوَحْيِ، وَالْوَعْيِ، وَالْعَمَلِ.

## الرُّوحُ الْعَامَّةُ الَّتِي تُهَيْمِنُ عَلَىٰ الرِّسَالَةِ

يُهَيْمِنُ عَلَىٰ هَذِهِ الرِّسَالَةِ رُوحٌ عَامَّةٌ؛ هِيَ **رُوحُ التَّجْدِيدِ وَالْإِحْيَاءِ**، بَعِيدًا عَنِ الْغَفْلَةِ وَالْغُرُورِ؛ تَجْدِيدٌ يَسْتَعِيدُ بِهِ الْمُسْلِمُونَ وَعْيَهُمْ بِذَاتِهِمْ وَرِسَالَتِهِمْ، وَيَسْتَرِدُّونَ شَخْصِيَّتَهُمُ الْحَضَارِيَّةَ الْمُسْتَقِلَّةَ، وَيَنْطَلِقُونَ مِنْ أُصُولِهِمْ فِي بِنَاءِ نَهْضَتِهِمْ، مُنْفَتِحِينَ عَلَىٰ مَا عِنْدَ الْآخَرِينَ مِنْ عِلْمٍ وَخِبْرَةٍ نَافِعَةٍ، مِنْ غَيْرِ ذَوَبَانٍ أَوْ فَقْدٍ لِلْهُوِيَّةِ.

## عَنَاصِرُ شَرْحِ الرِّسَالَةِ

**أَوَّلًا: تَجْرِبَتَانِ مُتَقَابِلَتَانِ فِي الِاسْتِقْلَالِ**

**ثَانِيًا: صِنَاعَةُ الإِنْسَانِ: مِفْتَاحُ النَّهْضَةِ الْحَقِيقِيَّةِ**

**ثَالِثًا: الشُّهُودُ الْحَضَارِيُّ لِلْإِسْلَامِ**

**رَابِعًا: مُقَوِّمَاتُ النَّهْضَةِ الْحَقِيقِيَّةِ**

1. الْمَنْهَجُ الرَّبَّانِيُّ.
2. بِنَاءُ الإِنْسَانِ الْمُسْتَقِلِّ.
3. تَرْبِيَةُ النَّشْءِ الْجَدِيدِ.

**خَامِسًا: مُقَوِّمَاتُ التَّجْدِيدِ وَالْإِحْيَاءِ: مَنْهَجُ النَّهْضَةِ عِنْدَ الإِمَامِ الْبَنَّا**

1. الْوَعْيُ بِحَقِيقَةِ الدَّعْوَةِ.

2. أَدَاءُ الْوَاجِبِ: مِنَ الْفِكْرَةِ إِلَىٰ الْعَمَلِ.

3. الِاسْتِعْدَادُ لِلتَّضْحِيَةِ وَالصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ.

4. وُجُودُ قُوَّةٍ سِيَاسِيَّةٍ تَحْمِي النَّهْضَةَ.

**سَادِسًا: عَقَبَاتُ الطَّرِيقِ وَصِدْقُ الِاسْتِعْدَادِ**

1. الْجَهْلُ بِحَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ.
2. إِنْكَارُ بَعْضِ أَهْلِ التَّدَيُّنِ وَالْعُلَمَاءِ الرَّسْمِيِّينَ.
3. عَقَبَةُ أَصْحَابِ النُّفُوذِ وَالزَّعَامَةِ.
4. مُوَاجَهَةُ الْحُكُومَاتِ لِلدَّعْوَةِ.
5. تَحَالُفُ الِاسْتِعْمَارِ وَالِاسْتِبْدَادِ فِي مُوَاجَهَةِ الدَّعْوَةِ.
6. تَشْوِيهُ الدَّعْوَةِ وَحَرْبُ الشُّبُهَاتِ.

**سَابِعًا: حَتْمِيَّةُ الِابْتِلَاءِ وَصِدْقُ الْإِيمَانِ**

**ثَامِنًا: الْعَوْدَةُ إِلَىٰ الْمَنْبَعِ الْأَوَّلِ: الطَّرِيقُ الْأَرْشَدُ لِلدَّعْوَةِ**

## أولاً: تَجرِبَتَانِ مُتَقَابِلَتَانِ فِي الاسْتقلالِ

نَسْتَطِيعُ أَنْ نَعْرِضَ نَمُوذَجَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ يُوَضِّحَانِ أَثَرَ الْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ الْهُوِيَّةِ فِي مَسِيرَةِ النَّهْضَةِ:

فَالنَّمُوذَجُ الْأَوَّلُ هُوَ الْيَابَانُ؛ الَّتِي اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَدْخُلَ عَصْرَ التَّقَدُّمِ الْعِلْمِيِّ وَالصِّنَاعِيِّ، دُونَ أَنْ تَتَخَلَّىٰ عَنْ لُغَتِهَا، أَوْ ذَاكِرَتِهَا، أَوْ شَخْصِيَّتِهَا الثَّقَافِيَّةِ. فَقَدْ أَدْرَكَتْ أَنَّ اللُّغَةَ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ وَسِيلَةٍ لِلتَّخَاطُبِ، بَلْ هِيَ وِعَاءُ الذَّاكِرَةِ، وَحَافِظَةُ التَّارِيخِ، وَأَحَدُ أَهَمِّ مُقَوِّمَاتِ الْهُوِيَّةِ.

أَمَّا النَّمُوذَجُ الثَّانِي فَهُوَ تُرْكِيَا الْحَدِيثَةُ فِي بِدَايَاتِ عَهْدِ مُصْطَفَىٰ كَمَالَ أَتَاتُورْك؛ حَيْثُ ارْتَبَطَ مَشْرُوعُ التَّحْدِيثِ فِيهَا بِمُحَاوَلَةِ الْقَطْعِ مَعَ كَثِيرٍ مِنَ الْمَوْرُوثِ الْحَضَارِيِّ، وَفِي مُقَدِّمَتِهِ تَغْيِيرُ الْحَرْفِ الَّذِي تُكْتَبُ بِهِ اللُّغَةُ التُّرْكِيَّةُ. وهَذَا النَّمُوذَجُ أَدَّىٰ إِلَىٰ إِضْعَافِ الصِّلَةِ بَيْنَ الْأَجْيَالِ وَتُرَاثِهَا، وَإِلَىٰ إِحْدَاثِ قَطِيعَةٍ مَعَ الذَّاكِرَةِ التَّارِيخِيَّةِ لِلْأُمَّةِ.

إِنَّ النَّهْضَةَ الْحَقِيقِيَّةَ لَا تَبْدَأُ بِتَغْيِيرِ الْمَظَاهِرِ، وَإِنَّمَا تَبْدَأُ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ الشَّخْصِيَّةِ الْحَضَارِيَّةِ لِلْأُمَّةِ، مَعَ تَطْوِيرِ أَدَوَاتِهَا وَقُدْرَاتِهَا الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ. فَلَيْسَ الْمَطْلُوبُ أَنْ نَنْسَخَ تَجْرِبَةَ الْآخَرِينَ، وَإِنَّمَا أَنْ نَسْتَفِيدَ مِنْ خِبْرَاتِهِمْ، وَنَحْنُ ثَابِتُو الْهُوِيَّةِ، وَاثِقُونَ بِرِسَالَتِنَا، قَادِرُونَ عَلَىٰ الْإِبْدَاعِ مِنْ دَاخِلِ مَنْظُومَتِنَا الْحَضَارِيَّةِ. وَلِهَذَا نَنْتَقِدُ كُلَّ مَشْرُوعٍ نَهْضَوِيٍّ يَقُومُ عَلَىٰ التَّقْلِيدِ الْأَعْمَىٰ، أَوْ يَشْعُرُ بِالدُّونِيَّةِ أَمَامَ الْآخَرِ، وَنَرَىٰ أَنَّ الْأُمَّةَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُبْدِعَ مَا دَامَتْ تَنْظُرُ إِلَىٰ نَفْسِهَا بِعَيْنِ الِاحْتِقَارِ، وَلَا أَنْ تَسْتَعِيدَ دَوْرَهَا الْحَضَارِيَّ مَا لَمْ تَسْتَرِدَّ أَوَّلًا ثِقَتَهَا بِنَفْسِهَا، وَإِيمَانَهَا بِرِسَالَتِهَا.

## ثانِيًا: صِنَاعَةُ الْإِنْسَانِ: مِفْتَاحُ النَّهْضَةِ الْحَقِيقِيُّ

بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ الإِمَامُ حَسَنُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ الصِّرَاعَ مَعَ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ اسْتَهْدَفَ هُوِيَّتَهَا وَشَخْصِيَّتَهَا الْحَضَارِيَّةَ، يَنْتَقِلُ إِلَىٰ بَيَانِ أَخْطَرِ الْوَسَائِلِ الَّتِي اسْتُخْدِمَتْ لِتَحْقِيقِ هَذَا الْهَدَفِ، وَهُوَ إِفْسَادُ الْإِنْسَانِ نَفْسِهِ.

فَالْأُمَمُ لَا تُهْزَمُ أَوَّلًا فِي مَيَادِينِ الْقِتَالِ، وَإِنَّمَا تُهْزَمُ فِي مَيَادِينِ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ، حِينَ يُصْنَعُ جِيلٌ فَاقِدٌ لِثِقَتِهِ بِنَفْسِهِ، مُنْقَطِعُ الصِّلَةِ بِدِينِهِ، عَاجِزٌ عَنِ الْإِبْدَاعِ، مُسْتَعِدٌّ لِتَقْلِيدِ غَيْرِهِ دُونَ وَعْيٍ أَوْ تَمْيِيزٍ.

وَمِنْ هُنَا نُؤَكِّدُ أَنَّ أَخْطَرَ مَا أَصَابَ الْعَالَمَ الْإِسْلَامِيَّ لَمْ يَكُنْ مُجَرَّدَ الِاحْتِلَالِ الْعَسْكَرِيِّ، وَإِنَّمَا تَكْرِيسُ حَالَةٍ مِنَ الْجَهْلِ؛ لَيْسَ الْجَهْلُ بِالْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ، بَلِ الْجَهْلُ بِمَعْنَىٰ التَّعْلِيمِ الْحَقِيقِيِّ الَّذِي يَصْنَعُ الْإِنْسَانَ الْحُرَّ، الْمُبْدِعَ، الْوَاثِقَ بِرِسَالَتِهِ القادرِ علىٰ التَّغييرِ.

ويُؤكِّد عَلِي عِزَّتْ بِيجُوفِيتْشَ أَنَّ الْعَالَمَ الْإِسْلَامِيَّ مَرَّ بِقُرُونٍ طَوِيلَةٍ لَمْ يَنْجَحْ فِيهَا فِي تَخْرِيجِ الْإِنْسَانِ الْمُسْلِمِ بِالْمَفْهُومِ الْحَضَارِيِّ لِلتَّعْلِيمِ؛ الْإِنْسَانِ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ الْمَعْرِفَةِ، وَالْوَعْيِ، وَعِزَّةِ النَّفْسِ، وَالْقُدْرَةِ عَلَىٰ الْإِبْدَاعِ. فَامْتَلَأَتِ الْمَدَارِسُ وَالْجَامِعَاتُ بِالْخَرِّيجِينَ، لَكِنْ قَلَّتِ النَّمَاذِجُ الْقَادِرَةُ عَلَىٰ الْبِنَاءِ وَالتَّجْدِيدِ.

وَهُنَا يَلْفِتُ الإمَامُ الْبَنَّا النَّظَرَ إِلَىٰ قَضِيَّةٍ فِي غَايَةِ الْأَهَمِّيَّةِ؛ وَهِيَ أَنَّ التَّعْلِيمَ قَدْ يَفْقِدُ رِسَالَتَهُ إِذَا انْفَصَلَ عَنْ بِنَاءِ الشَّخْصِيَّةِ. فَقَدْ يُخَرِّجُ مُتَخَصِّصِينَ، لَكِنَّهُ لَا يُخَرِّجُ بِالضَّرُورَةِ رِجَالًا يَحْمِلُونَ هَمَّ الْأُمَّةِ، وَيَمْلِكُونَ الْقُدْرَةَ عَلَىٰ إِصْلَاحِهَا.

وَلِذَلِكَ لَمْ يَكُنِ الْهَدَفُ مُجَرَّدَ مَحْوِ بَعْضِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ أَوْ إِضْعَافِ التَّعْلِيمِ الدِّينِيِّ، بَلْ كَانَ الْمَقْصُودُ إِضْعَافَ الشَّخْصِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ نَفْسِهَا؛ حَتَّىٰ يَنْشَأَ جِيلٌ يَحْمِلُ أَسْمَاءَ الْمُسْلِمِينَ، لَكِنَّهُ يَنْظُرُ إِلَىٰ دِينِهِ، وَثَقَافَتِهِ، وَتَارِيخِهِ بِعَيْنِ الشَّكِّ، وَيَنْظُرُ إِلَىٰ كُلِّ مَا عِنْدَ غَيْرِهِ بِعَيْنِ الْإِعْجَابِ الْمُطْلَقِ.

وَهَذِهِ هِيَ الْعُقْدَةُ الَّتِي نُسَمِّيهَا **عُقْدَةَ النَّقْصِ وَالدُّونِيَّةِ**؛ إِذْ يَفْقِدُ الْإِنْسَانُ ثِقَتَهُ بِنَفْسِهِ، وَيَظُنُّ أَنَّ طَرِيقَ التَّقَدُّمِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِتَقْلِيدِ الْآخَرِينَ. فَكَانَ هَذَا هُوَ الْمَوْقِفُ إِزَاءَ كُلِّ مَا هُوَ غَرْبِيٌّ حَدَاثِيٌّ؛ حَيْثُ غَابَ الشُّعُورُ بِعِزَّةِ النَّفْسِ الَّذِي كَانَ مَوْجُودًا عِنْدَ الْأَسْلَافِ، وَهُمْ يُغَيِّرُونَ حَضَارَاتٍ غَرِيبَةً عَلَيْهِمْ كَانَتْ مُتَقَدِّمَةً وَسَابِقَةً عَلَيْهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ نَظَرُوا إِلَيْهَا نَظْرَةَ الْمُعْتَزِّ بِنَفْسِهِ، الْوَاثِقِ مِنْ قُدْرَتِهِ عَلَىٰ الْإِبْدَاعِ.

## ثالثًا: الشُّهُودُ الحَضَارِيُّ لِلْإِسْلَامِ

مَعَ أَنَّ الْحَضَارَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ قَامَتْ أَصْلًا عَلَىٰ مَنْهَجٍ مُخْتَلِفٍ؛ فَقَدْ أَخَذَ الْمُسْلِمُونَ الْأَوَائِلُ مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ عُلُومَهَا وَخِبْرَاتِهَا، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَأْخُذُوا مَعَهَا تَبَعِيَّتَهَا الْفِكْرِيَّةَ، وَلَا ذَوَبَانَهَا الْحَضَارِيَّ.

وَلِهَذَا اسْتَشْهَدَ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ بِالْأَصْلِ الثَّامِنَ عَشَرَ مِنَ الْأُصُولِ الْعِشْرِينَ، يَقُولُ: «وَالإِسْلَامُ يُحَرِّرُ الْعَقْلَ، وَيَحُثُّ عَلَىٰ النَّظَرِ فِي الْكَوْنِ، وَيَرْفَعُ قَدْرَ الْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ، وَيُرَحِّبُ بِالصَّالِحِ وَالنَّافِعِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، أَنَّىٰ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ النَّاسِ بِهَا»(383).

وَلَعَلَّ مِنْ أَعْظَمِ الشَّوَاهِدِ عَلَىٰ ذَلِكَ مَا شَهِدَ بِهِ التَّارِيخُ نَفْسُهُ؛ فَقَدِ اعْتَرَفَ خُصُومُ الْمُسْلِمِينَ قَبْلَ أَصْدِقَائِهِمْ بِمَا بَلَغَتْهُ الْحَضَارَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ مِنْ تَقَدُّمٍ فِي الْعِلْمِ، وَالْعُمْرَانِ، وَالنَّظَافَةِ، وَالتَّنْظِيمِ، وَالْأَخْلَاقِ. وَلَمْ يَكُنْ هَذَا التَّفَوُّقُ ثَمَرَةَ كَثْرَةِ الْمَالِ أَوِ الْقُوَّةِ الْعَسْكَرِيَّةِ وَحْدَهُمَا، وَإِنَّمَا كَانَ ثَمَرَةَ الْإِنْسَانِ الَّذِي رَبَّاهُ الْقُرْآنُ، فَجَمَعَ بَيْنَ الْإِيمَانِ، وَالْعِلْمِ، وَالْعَمَلِ، وَعِزَّةِ النَّفْسِ.

وَمِنْ هُنَا نُقَرِّرُ قَاعِدَةً جَدِيرَةً بِالتَّأَمُّلِ: إِنَّ الْحَضَارَةَ لَا يَصْنَعُهَا الْإِنْسَانُ الْمُقَلِّدُ، وَإِنَّمَا يَصْنَعُهَا الْإِنْسَانُ الْوَاثِقُ بِرِسَالَتِهِ، الْمُنْفَتِحُ عَلَىٰ الْعَالَمِ، الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ غَيْرِهِ مَا يَنْفَعُهُ، دُونَ أَنْ يَفْقِدَ ذَاتَهُ أَوْ يَذُوبَ فِي شَخْصِيَّةِ غَيْرِهِ.

## رابِعًا: مُقَوِّمَاتُ النَّهضَةِ الْحَقِيقِيَّةِ

### 1-الْمَنْهَجُ الرَّبَّانِيُّ

إِذَا كَانَتِ الرِّسَالَةُ قَدْ شَخَّصَتْ أَسْبَابَ التَّرَاجُعِ، فَإِنَّهَا لَا تَتْرُكُ الْقَارِئَ أَمَامَ مَشْهَدِ الْيَأْسِ، وَإِنَّمَا تَنْتَقِلُ مُبَاشَرَةً إِلَىٰ بَيَانِ الطَّرِيقِ الَّذِي صَنَعَ الْجِيلَ الْأَوَّلَ، وَأَقَامَ أَعْظَمَ حَضَارَةٍ عَرَفَهَا التَّارِيخُ الْإِسْلَامِيُّ.

(383) **رسالة التعاليم**. الأصول العشرون لركن الفهم، الأصل الثامن عشر. ص 271.

وَيُؤَكِّدُ الإِمَامُ الْبَنَّا أَنَّ نُقْطَةَ الْبِدَايَةِ لَمْ تَكُنْ كَثْرَةَ الْعَدَدِ، وَلَا وَفْرَةَ الْمَالِ، وَلَا التَّفَوُّقَ الْعَسْكَرِيَّ، وَإِنَّمَا كَانَتِ الْمَنْهَجَ الرَّبَّانِيَّ الَّذِي رَبَّىٰ الْإِنْسَانَ، وَحَرَّرَ عَقْلَهُ، وَأَطْلَقَ طَاقَاتِهِ.

وَلَنَا أَنْ نَسْتَشْهِدَ بِقِصَّةِ إِسْلَامِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ فَقَدْ خَرَجَ يُرِيدُ الْقَضَاءَ عَلَىٰ الدَّعْوَةِ، ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ تَحَوَّلَتْ وِجْهَتُهُ كُلُّهَا بَعْدَ أَنْ اسْتَمَعَ إِلَىٰ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ. وَلَمْ يَكُنْ هَذَا التَّحَوُّلُ نَتِيجَةَ جَدَلٍ فَلْسَفِيٍّ طَوِيلٍ، وَلَا بَرْنَامَجٍ سِيَاسِيٍّ مُحْكَمٍ، وَإِنَّمَا كَانَ ثَمَرَةَ التَّرْبِيَةِ الْمُبَاشِرَةِ عَلَىٰ الْوَحْيِ.

وَهَذِهِ الْقِصَّةُ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ حَادِثَةٍ تَارِيخِيَّةٍ، بَلْ هِيَ شَاهِدٌ عَلَىٰ أَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَكُنْ كِتَابًا يُتْلَىٰ لِلتَّعَبُّدِ فَحَسْبُ، وَإِنَّمَا كَانَ مَنْهَجًا يَصْنَعُ الرِّجَالَ، وَيُغَيِّرُ النُّفُوسَ، وَيَبْنِي الشَّخْصِيَّةَ الْقَادِرَةَ عَلَىٰ حَمْلِ الرِّسَالَةِ.

وَلِهَذَا اقْتَصَرَ الْجِيلُ الْأَوَّلُ عَلَىٰ الْقُرْآنِ فِي مَرْحَلَةِ التَّأْسِيسِ، حَتَّىٰ تَكْتَمِلَ شَخْصِيَّتُهُ، وَتَتَرَسَّخَ مَعَايِيرُهُ، فَلَا تَخْتَلِطَ عَلَيْهِ الْمَوَازِينُ، وَلَا تَضْطَرِبَ رُؤْيَتُهُ. وَقَدْ ظَهَرَ أَثَرُ ذَلِكَ فِي اسْتِقْلَالِ شَخْصِيَّتِهِ، وَثِقَتِهِ بِرِسَالَتِهِ، وَقُدْرَتِهِ عَلَىٰ مُوَاجَهَةِ الْحَضَارَاتِ الْكُبْرَىٰ دُونَ شُعُورٍ بِالنَّقْصِ أَوِ الِانْهِزَامِ.

وَكَمَا يَقُولُ الْأُسْتَاذُ سَيِّدُ قُطْبٍ رحمه الله: لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي التَّارِيخِ أُمَّةٌ تَنْبَثِقُ مِنْ بَيْنِ يَدَيِ الْكِتَابِ الَّذِي صَنَعَ هَذِهِ الْعُقُولَ الْمُبْدِعَةَ الْعِمْلَاقَةَ، الَّتِي كَانَتْ تَشْعُرُ بِالْعِزَّةِ وَالِاسْتِقْلَالِ، وَهِيَ تُوَاجِهُ حَضَارَاتٍ سَائِدَةً مُنْذُ قُرُونٍ، لَكِنَّهُ مَعَ قِلَّةِ الْمَوَارِدِ كَانَ عَمَلِيًّا بَحْتًا، مَلْمُوسَ النَّتَائِجِ(384).

وَمِنْ هُنَا افْتَتَحَ الإِمَامُ حَسَنُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللهُ هَذِهِ الرِّسَالَةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا**﴾ [الْفُرْقَانِ: 33].

وَفِي هَذَا الِافْتِتَاحِ دَلَالَةٌ عَمِيقَةٌ؛ إِذْ يُعْلِنُ الإِمَامُ مُنْذُ الْبِدَايَةِ أَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ الْمَرْجِعِيَّةُ الْعُلْيَا الَّتِي تَمْلِكُ تَفْسِيرَ الْوَاقِعِ، وَتَشْخِيصَ أَزْمَاتِهِ، وَبَيَانَ طَرِيقِ الْخَلَاصِ مِنْهَا.

(384) سيد قطب: **في ظلال القرآن**: 685/ 2.

فَكُلُّ أُمَّةٍ تُرِيدُ النُّهُوضَ لَا بُدَّ أَنْ تُحَقِّقَ رُكْنَيْنِ مُتَلَازِمَيْنِ: وُجُودُ الْمَنْهَجِ وَبِنَاءُ الْإِنْسَانِ الْمُسْتَقِلِّ، فَالنَّهْضَةُ لَا تُبْنَىٰ بِالْعَشْوَائِيَّةِ، وَإِنَّمَا بِمَنْهَجٍ وَاضِحٍ، قَلِيلِ التَّعْقِيدِ، عَمَلِيٍّ النَّتَائِجِ، يَصُوغُ الْعَقْلَ قَبْلَ أَنْ يُزَوِّدَهُ بِالْمَعْلُومَاتِ، وَيُعَلِّمُهُ كَيْفَ يُفَكِّرُ قَبْلَ أَنْ يُخْبِرَهُ بِمَاذَا يُفَكِّرُ.

وَلِهَذَا كَانَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مَدْرَسَةً فِي تَحْرِيرِ الْعَقْلِ؛ فَقَدْ رَفَضَ التَّقْلِيدَ الْأَعْمَىٰ، وَرَبَّىٰ الْمُسْلِمَ عَلَىٰ الِاحْتِكَامِ إِلَى الدَّلِيلِ، وَعَدَمِ الِانْقِيَادِ لِمُجَرَّدِ شُهْرَةِ الْأَشْخَاصِ أَوْ قِدَمِ الْآرَاءِ، وَإِنَّمَا جَعَلَ الْحَقِيقَةَ هِيَ الْمِعْيَارَ، لَا الْقَائِلَ بِهَا.

## 2-بِنَاءُ الْإِنْسَانِ الْمُسْتَقِلِّ

وَلَا يَكْتَفِي الْمَنْهَجُ الرَّبَّانِيُّ بِتَقْدِيمِ الْحَقِّ، بَلْ يَعْمَلُ عَلَىٰ بِنَاءِ الْإِنْسَانِ الْقَادِرِ عَلَىٰ حَمْلِهِ وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ؛ فَلَا يَكْفِي أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ قَادِرًا عَلَى التَّفْكِيرِ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَمْتَلِكَ إِرَادَةً حُرَّةً تُمَكِّنُهُ مِنَ الْعَمَلِ بِمَا يَقْتَنِعُ بِهِ. فَقَدْ يَمْلِكُ عِلْمًا وَاسِعًا، ثُمَّ يَبْقَىٰ أَسِيرَ الضُّغُوطِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ، أَوِ التَّبَعِيَّةِ الْفِكْرِيَّةِ، أَوِ الْخَوْفِ مِنْ مُخَالَفَةِ الْمَأْلُوفِ. أَمَّا الْمَنْهَجُ الْقُرْآنِيُّ، فَيَصْنَعُ الْإِنْسَانَ الْحُرَّ الَّذِي يَزِنُ الْأُمُورَ بِمِيزَانِ الْحَقِّ، ثُمَّ يَمْتَلِكُ الشَّجَاعَةَ لِلسَّيْرِ فِيمَا يَرَاهُ صَوَابًا.

وَمِنْ هُنَا يَقُومُ هَذَا الْبِنَاءُ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَرْكَانٍ مُتَكَامِلَةٍ:

1. اسْتِقْلَالُ الْمَشَاعِرِ.
2. اسْتِقْلَالُ الْفِكْرِ.
3. اسْتِقْلَالُ الْإِرَادَةِ.

**فَاسْتِقْلَالُ الْمَشَاعِرِ** يَعْنِي أَلَّا تَتَحَوَّلَ مَحَبَّةُ الرِّجَالِ وَتَقْدِيرُهُمْ إِلَىٰ تَبَعِيَّةٍ تُعَطِّلُ النَّظَرَ وَالنَّقْدَ، وَأَلَّا تُمْنَحَ الْعِصْمَةُ أَوِ الْقَدَاسَةُ لِأَحَدٍ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَالرِّجَالُ يُعْرَفُونَ بِالْحَقِّ، وَلَا يُعْرَفُ الْحَقُّ بِالرِّجَالِ، وَيَبْقَىٰ الْوَحْيُ هُوَ الْمَرْجِعِيَّةَ الْعُلْيَا الَّتِي تُوزَنُ بِهَا الْأَقْوَالُ وَالْمَوَاقِفُ.

أَمَّـا **اسْـتِقْلَالُ الْفِكْـرِ**، فَيَقُـومُ عَلَـىٰ تَحْرِيـرِ الْعَقْـلِ مِـنَ التَّقْلِيـدِ وَالْجُمُـودِ، وَإِخْضَـاعِ الْأَفْـكَارِ لِلدَّلِيـلِ وَالْبُرْهَـانِ، كَمَـا أَرْشَـدَ الْقُـرْآنُ الْكَرِيـمُ فِـي دَعْوَتِـهِ الْمُتكَـرِّرَةِ إِلَـىٰ النَّظَـرِ وَالتَّأَمُّـلِ وَطَلَـبِ الْحُجَّـةِ.

وَأَمَّـا **اسْـتِقْلَالُ الْإِرَادَةِ**، فَيَتَمَثَّـلُ فِـي الْقُـدْرَةِ عَلَـىٰ الْعَمَـلِ بِمَـا يَقْتَضِيـهِ الْحَـقُّ، دُونَ اسْتِسْـلَامٍ لِلْخَـوْفِ، أَوْ ضَغْـطِ الْوَاقِـعِ، أَوْ سُـلْطَانِ الْعَـادَةِ. فَـإِذَا اجْتَمَعَـتْ هَـذِهِ الْأَرْكَانُ، نَشَـأَ الْإِنْسَـانُ الْمُبْـدِعُ الْقَـادِرُ عَلَـىٰ صِنَاعَـةِ الْحَضَـارَةِ، أَمَّـا إِذَا فُقِـدَ أَحَدُهَـا، بَقِيَـتِ الْأُمَّـةُ تَـدُورُ فِـي دَائِـرَةِ التَّقْلِيـدِ وَالتَّبَعِيَّـةِ، مَهْمَـا امْتَلَكَـتْ مِـنَ الْوَسَـائِلِ وَالْإِمْكَانَـاتِ.

الِاسْـتِقْلَالُ الْحَقِيقِـيُّ لَا يَقْتَصِـرُ عَلَـىٰ التَّحَـرُّرِ السِّيَاسِـيِّ أَوِ الْعَسْـكَرِيِّ، وَإِنْ كَانَـتْ لَـهُ أَهَمِّيَّتُـهُ، وَإِنَّمَـا يَبْـدَأُ قَبْـلَ ذَلِـكَ بِاسْـتِقْلَالِ الرُّوحِ، وَالْعَقْـلِ، وَالْإِرَادَةِ؛ فَالْإِنْسَـانُ الَّـذِي يَظَـلُّ أَسِـيرَ التَّبَعِيَّـةِ الْفِكْرِيَّـةِ، أَوِ الْخُضُـوعِ لِلْأَوْهَـامِ، أَوْ تَقْلِيـدِ الْآخَرِيـنَ دُونَ نَظَـرٍ وَتَمْحِيـصٍ، لَـمْ يُحَقِّـقِ الِاسْـتِقْلَالَ الَّـذِي يَصْنَـعُ النَّهْضَـةَ.

وَلِهَـذَا أَقَـامَ الْقُـرْآنُ مَنْهَجَـهُ عَلَـىٰ تَحْرِيـرِ الْعَقْـلِ، وَدَعَـا إِلَـىٰ النَّظَـرِ وَالتَّفَكُّـرِ، وَطَلَـبِ الدَّلِيـلِ، وَنَبَـذِ الْخُرَافَـةِ وَالتَّقْلِيـدِ الْأَعْمَـىٰ؛ فَقَـالَ تَعَالَىٰ: ﴿**قُـلْ هَاتُـوا بُرْهَانَكُـمْ إِنْ كُنْتُـمْ صَادِقِيـنَ**﴾ [النمـل: 64]، وَقَـالَ سُـبْحَانَهُ: ﴿**قُلِ انْظُـرُوا مَـاذَا فِـي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ [يونـس: 101].

وَمِـنْ هُنَـا كَانَ الِاسْـتِقْلَالُ الْفِكْـرِيُّ شَـرْطًا لِـكُلِّ اسْـتِقْلَالٍ آخَـرَ؛ إِذْ لَا تَسْـتَطِيعُ أُمَّـةٌ أَنْ تُحَافِـظَ عَلَـىٰ حُرِّيَّتِهَـا، أَوْ تَبْنِـيَ حَضَارَتَهَـا، مَـا دَامَـتْ تَسْـتَوْرِدُ أَفْكَارَهَـا وَمَوَازِينَهَـا، أَوْ تُكَـرِّرُ مَـا يُلْقَـىٰ إِلَيْهَـا دُونَ بَحْـثٍ أَوْ نَقْـدٍ. فَالِاسْـتِقْلَالُ السِّيَاسِـيُّ قَـدْ يُنْتَـزَعُ بِقَـرَارٍ، أَمَّـا الِاسْـتِقْلَالُ الْفِكْـرِيُّ فَـلَا يَتَحَقَّـقُ إِلَّا بِتَرْبِيَـةٍ طَوِيلَـةٍ تُنْشِـئُ الْعَقْـلَ الْحُـرَّ، الْقَـادِرَ عَلَـىٰ التَّمْيِيـزِ بَيْـنَ الْحَـقِّ وَالْبَاطِـلِ، وَالنَّافِـعِ وَالضَّـارِّ، وَالْأَصِيـلِ وَالدَّخِيـلِ.

### 3- تَرْبِيَةَ النَّشْءِ الْجَدِيدِ

وَلَـمْ يَكْتَـفِ الإِمَـامُ الْبَنَّـا رَحِمَهُ اللَّهُ بِالدَّعْـوَةِ إِلَـىٰ الِاسْـتِقْلَالِ، بَـلْ جَعَـلَ تَرْبِيَـةَ الْجِيـلِ الْجَدِيـدِ الْمَدْخَـلَ الْحَقِيقِـيَّ لِتَحْقِيقِـهِ؛ فَقَـالَ: «**وَلَكِنَّهَـا مُهِمَّـةُ هَـذَا النَّشْءِ الْجَدِيـدِ، فَأَحْسِـنُوا دَعْوَتَـهُ،**

**وَجِدُّوا فِي تَكْوِينِهِ، وَعَلِّمُوهُ اسْتِقْلَالَ النَّفْسِ وَالْقَلْبِ، وَاسْتِقْلَالَ الْفِكْرِ وَالْعَقْلِ، وَاسْتِقْلَالَ الْجِهَادِ وَالْعَمَلِ، وَامْلَؤُوا رُوحَهُ الْوَثَّابَةَ بِجَلَالِ الْإِسْلَامِ وَرَوْعَةِ الْقُرْآنِ، وَجَنِّدُوهُ تَحْتَ لِوَاءِ مُحَمَّدٍ وَرَايَتِهِ، وَسَتَرَوْنَ مِنْهُ فِي الْقَرِيبِ الْحَاكِمَ الْمُسْلِمَ الَّذِي يُجَاهِدُ نَفْسَهُ وَيُسْعِدُ غَيْرَهُ»**(385).

وَتَكْشِفُ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ عَنْ أَنَّ الِاسْتِقْلَالَ لَيْسَ شِعَارًا يُرْفَعُ، وَإِنَّمَا هُوَ ثَمَرَةُ تَرْبِيَةٍ مُتَدَرِّجَةٍ، تَبْدَأُ بِتَحْرِيرِ الْقَلْبِ مِنَ التَّعَلُّقِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَتَحْرِيرِ الْعَقْلِ مِنَ التَّقْلِيدِ وَالْجُمُودِ، ثُمَّ تَرْبِيَةِ الْإِرَادَةِ عَلَى الْمُبَادَرَةِ وَالْعَمَلِ وَالْبَذْلِ. فَالْجِيلُ الَّذِي يَنْشُدُهُ الإِمَامُ الْبَنَّا لَيْسَ جِيلًا يُحْسِنُ تَرْدِيدَ الشِّعَارَاتِ، وَإِنَّمَا جِيلٌ يَمْلِكُ شَخْصِيَّةً مُسْتَقِلَّةً، وَعَقْلًا نَاقِدًا، وَإِرَادَةً فَاعِلَةً، وَرُوحًا تَسْتَمِدُّ عِزَّتَهَا مِنَ الْإِسْلَامِ.

وَلَمْ يَكُنِ الإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ يُقَرِّرُ هَذَا الْمَبْدَأَ نَظَرِيًّا فَحَسْبُ، بَلْ جَسَّدَهُ فِي سُلُوكِهِ؛ فَلَمَّا هَتَفَ بَعْضُ الطُّلَّابِ بِاسْمِهِ فِي أَحَدِ الْمُؤْتَمَرَاتِ، أَوْقَفَهُمْ وَوَجَّهَهُمْ إِلَى الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، حَتَّى لَا يَتَعَلَّقَ النَّاسُ بِالْأَشْخَاصِ، وَإِنَّمَا تَبْقَى الْقُلُوبُ مُعَلَّقَةً بِالرِّسَالَةِ وَصَاحِبِهَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَقَدْ عَلَّقَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الْغَزَالِيُّ عَلَى هَذَا الْمَوْقِفِ بِقَوْلِهِ: **لَقَدِ اسْتَبْدَلَ بِمَجْدِهِ الشَّخْصِيِّ إِطَارَ الرِّسَالَةِ الْخَالِدَةِ... «وَأَشْهَدُ أَنَّهُ مَحَقَ نَفْسَهُ فِي مَرْضَاةِ اللهِ»**(386).

## خامِسًا: مُقَوِّمَاتُ التَّجْدِيدِ وَالنَّهْضَةِ عِنْدَ الإِمَامِ الْبَنَّا

إِنَّ التَّجْدِيدَ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ الإِمَامُ حَسَنُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ لَيْسَ تَجْدِيدًا يَقْطَعُ الْأُمَّةَ عَنْ أُصُولِهَا، وَلَا يُذِيبُهَا فِي غَيْرِهَا، وَإِنَّمَا هُوَ تَجْدِيدٌ يُعِيدُهَا إِلَى مَنَابِعِ قُوَّتِهَا الْأُولَى، وَيَبْعَثُ فِيهَا رُوحَ الْحَيَاةِ بَعْدَ طُولِ غَفْلَةٍ وَجُمُودٍ.

فَالرِّسَالَةُ تَنْطَلِقُ مِنْ حَقِيقَةٍ وَاضِحَةٍ، وَهِيَ أَنَّ الصِّرَاعَ مَعَ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لَمْ يَكُنْ يَوْمًا صِرَاعًا عَسْكَرِيًّا فَحَسْبُ، بَلْ كَانَ - وَلَا يَزَالُ - صِرَاعًا عَلَى الْهُوِيَّةِ، وَالْعَقِيدَةِ،

(385) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: الإخوان تحت راية محمد ﷺ]، ص 394.
(386) الشيخ محمد الغزالي: **دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين**. دار الشروق، 1997م، ص 9.

وَالثَّقَافَةِ، وَطَرِيقَةِ الْحَيَاةِ. وَقَدْ سَعَتِ الْقُوَىٰ الِاسْتِعْمَارِيَّةُ الْغَرْبِيَّةُ، عَبْرَ مَرَاحِلِ التَّارِيخِ الْمُخْتَلِفَةِ، إِلَىٰ فَرْضِ نَمُوذَجِهَا الْحَضَارِيِّ عَلَىٰ الشُّعُوبِ، حَتَّىٰ يُصْبِحَ هُوَ النَّمُوذَجَ الْوَحِيدَ الْمَقْبُولَ، وَمَا عَدَاهُ يُنْظَرُ إِلَيْهِ عَلَىٰ أَنَّهُ تَخَلُّفٌ أَوْ قُصُورٌ.

وَمِنْ هُنَا نُؤَكِّدُ أَنَّ مِنْ حَقِّ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، بَلْ مِنْ وَاجِبِهَا، أَنْ تُحَافِظَ عَلَىٰ شَخْصِيَّتِهَا الْحَضَارِيَّةِ الْمُسْتَقِلَّةِ، وَأَنْ تَسْتَمِدَّ مُقَوِّمَاتِ نَهْضَتِهَا مِنْ دِينِهَا وَتُرَاثِهَا، وَهِيَ مُنْفَتِحَةٌ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ عَلَىٰ كُلِّ عِلْمٍ نَافِعٍ، وَكُلِّ خِبْرَةٍ إِنْسَانِيَّةٍ نَافِعَةٍ، دُونَ أَنْ تَفْقِدَ هُوِيَّتَهَا أَوْ تَذُوبَ فِي غَيْرِهَا. وَهَذِهِ الْقَضِيَّةُ لَيْسَتْ نَظَرِيَّةً، وَإِنَّمَا يَشْهَدُ لَهَا التَّارِيخُ نَفْسُهُ.

لَمْ يَكُنِ التَّجْدِيدُ عِنْدَ الإِمَامِ حَسَنِ الْبَنَّا مُجَرَّدَ تَجْدِيدٍ فِي الْأُسْلُوبِ، أَوْ تَغْيِيرٍ فِي وَسَائِلِ الْخِطَابِ، وَإِنَّمَا كَانَ عَمَلِيَّةَ إِحْيَاءٍ شَامِلَةٍ تَبْدَأُ مِنْ دَاخِلِ الْإِنْسَانِ، ثُمَّ تَنْتَقِلُ إِلَىٰ مَيْدَانِ الْعَمَلِ، وَتَنْتَهِي بِبِنَاءِ الْقُوَّةِ الْقَادِرَةِ عَلَىٰ حِمَايَةِ النَّهْضَةِ وَاسْتِمْرَارِهَا. وَقَدْ قَامَتْ هَذِهِ الْعَمَلِيَّةُ عَلَىٰ مَعَانٍ مُتَكَامِلَةٍ، لَا يَنْهَضُ وَاحِدٌ مِنْهَا دُونَ الْآخَرِ.

## 1-الْوَعْيُ بِحَقِيقَةِ الدَّعْوَةِ

أَوَّلُ هَذِهِ الْمَعَانِي هُوَ الْوَعْيُ؛ وَالْمَقْصُودُ بِهِ أَنْ يَعْرِفَ صَاحِبُ الدَّعْوَةِ حَقِيقَةَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ، وَأَنْ تَكُونَ الْفِكْرَةُ وَاضِحَةً فِي نَفْسِهِ، رَاسِخَةً فِي عَقْلِهِ، مُسْتَقِرَّةً فِي قَلْبِهِ، لَا يَشُوبُهَا تَرَدُّدٌ وَلَا اضْطِرَابٌ.

فَالْإِنْسَانُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْمِلَ رِسَالَةً لَا يُؤْمِنُ بِهَا، وَلَا أَنْ يُضَحِّيَ مِنْ أَجْلِ فِكْرَةٍ لَمْ تَبْلُغْ عِنْدَهُ دَرَجَةَ الْيَقِينِ. وَمِنْ هُنَا كَانَ الْوَعْيُ فِي حَقِيقَتِهِ إِيمَانًا عَمِيقًا بِالدَّعْوَةِ، وَإِدْرَاكًا لِطَبِيعَتِهَا وَغَايَتِهَا، وَثِقَةً بِأَنَّهَا تَمْلِكُ مِنَ الْحَقِّ وَالصَّلَاحِ مَا يَجْعَلُهَا جَدِيرَةً بِالْعَمَلِ مِنْ أَجْلِهَا.

وَلِهَذَا اسْتَحْضَرَ الإِمَامُ الْبَنَّا قَوْلَ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 158].

فَالرِّسَالَةُ وَاضِحَةٌ، وَالْغَايَةُ مُحَدَّدَةٌ، وَالطَّرِيقُ مَعْلُومٌ؛ وَمِنْ ثَمَّ لَا يَكُونُ الِانْتِمَاءُ إِلَيْهَا مُجَرَّدَ عَاطِفَةٍ عَابِرَةٍ، وَإِنَّمَا يَكُونُ وَعْيًا يُثْمِرُ إِيمَانًا، وَإِيمَانًا يُثْمِرُ اتِّبَاعًا، وَاتِّبَاعًا يَقُودُ إِلَىٰ الْعَمَلِ.

## 2- أَدَاءُ الْوَاجِبِ: مِنَ الْفِكْرَةِ إِلَىٰ الْعَمَلِ

لَا يَقِفُ التَّجْدِيدُ عِنْدَ حُدُودِ الْوَعْيِ؛ فَقَدْ يَعْرِفُ الْإِنْسَانُ الْحَقَّ، ثُمَّ يَقْعُدُ عَنْ نُصْرَتِهِ. وَمِنْ هُنَا كَانَ أَدَاءُ الْوَاجِبِ ثَمَرَةَ الْوَعْيِ الصَّادِقِ؛ **فَالنَّهْضَاتُ لَا تَصْنَعُهَا الْأَفْكَارُ الَّتِي تَبْقَىٰ فِي الْعُقُولِ، وَإِنَّمَا تَصْنَعُهَا الْأَفْكَارُ الَّتِي تَتَحَوَّلُ إِلَىٰ عَمَلٍ.**

وَقَدْ قَامَ رِجَالُ الْإِصْلَاحِ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ بِأَدْوَارٍ مُهِمَّةٍ فِي إِيقَاظِ الْأُمَّةِ؛ فَكَانَ لِجَمَالِ الدِّينِ الْأَفْغَانِيِّ أَثَرُهُ فِي بَعْثِ رُوحِ الْيَقَظَةِ، وَلِلشَّيْخِ مُحَمَّدٍ عَبْدُهُ جُهْدُهُ فِي الْإِصْلَاحِ وَالتَّعْلِيمِ. غَيْرَ أَنَّ الْإِمَامَ الْبَنَّا أَدْرَكَ أَنَّ الْمَرْحَلَةَ تَقْتَضِي الِانْتِقَالَ مِنَ التَّنْبِيهِ إِلَىٰ التَّكْوِينِ، وَمِنَ التَّعْلِيمِ إِلَىٰ الْبِنَاءِ، وَمِنَ الدَّعْوَةِ الْمُجَرَّدَةِ إِلَىٰ الْعَمَلِ الْمُنَظَّمِ.

وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ إِلْغَاءً لِجُهُودِ السَّابِقِينَ، وَإِنَّمَا اسْتِكْمَالًا لَهَا؛ فَلِكُلِّ مَرْحَلَةٍ أَدَوَاتُهَا، وَلِكُلِّ جِيلٍ وَاجِبَاتُهُ. وَمِنْ هُنَا دَعَا الْإِمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَىٰ اسْتِقْلَالِ الْعَمَلِ وَالْجِهَادِ؛ أَيْ أَنْ يَسْتَفِيدَ الْجِيلُ الْجَدِيدُ مِنْ خِبْرَاتِ مَنْ سَبَقَهُ، وَيَحْفَظَ فَضْلَهُمْ، دُونَ أَنْ يَكْتَفِيَ بِتَقْلِيدِهِمْ، أَوْ يُحَوِّلَ تَجَارِبَهُمْ إِلَىٰ قَوَالِبَ جَامِدَةٍ تُعَوِّقُ التَّجْدِيدَ.

## 3-الِاسْتِعْدَادُ لِلتَّضْحِيَةِ وَالصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ

أَمَّا الْمَعْنَىٰ الثَّالِثُ مِنْ مَعَانِي التَّجْدِيدِ، فَهُوَ الِاسْتِعْدَادُ لِلتَّضْحِيَةِ؛ لِأَنَّ الدَّعَوَاتِ لَا تَنْتَصِرُ بِمُجَرَّدِ صِحَّةِ أَفْكَارِهَا، وَإِنَّمَا تَحْتَاجُ إِلَىٰ رِجَالٍ يَتَمَسَّكُونَ بِهَا، وَيَثْبُتُونَ عَلَيْهَا، وَيَبْذُلُونَ فِي سَبِيلِهَا.

وَالْبَاطِلُ يُرَاهِنُ دَائِمًا عَلَىٰ دَفْعِ صَاحِبِ الْحَقِّ إِلَىٰ التَّرَاجُعِ عَنْ آخِرِ نُقْطَةٍ يَقِفُ عِنْدَهَا، وَلَنْ يَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ هَذَا التَّرَاجُعِ إِلَّا الْإِيمَانُ الْعَمِيقُ بِمَا يَحْمِلُ.

وَيَحْضُرُنَا فِي هَذَا السِّيَاقِ مَوْقِفُ نَبِيِّ اللهِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حِينَ دَعَا قَوْمَهُ

إِلَىٰ الْإِيمَانِ، وَلَمْ يَفْرِضْ عَلَيْهِمْ دَعْوَتَهُ بِالْقُوَّةِ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿**وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ**﴾ [الأعراف: 87].

كَانَتْ هَذِهِ دَعْوَةً إِلَىٰ الصَّبْرِ وَالتَّعَايُشِ، وَإِلَىٰ تَرْكِ الْحُكْمِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، لَكِنَّ الْمَلَأَ الْمُسْتَكْبِرِينَ لَمْ يَقْبَلُوا مُجَرَّدَ وُجُودِ الْحَقِّ إِلَىٰ جَوَارِ بَاطِلِهِمْ، فَقَالُوا: ﴿**لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا**﴾ [الأعراف: 88].

وَهُنَا تَتَجَلَّىٰ طَبِيعَةُ الصِّرَاعِ؛ فَصَاحِبُ الْحَقِّ قَدْ لَا يَطْلُبُ الْمَعْرَكَةَ، لَكِنَّ الْبَاطِلَ يَفْرِضُهَا عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ وُجُودَ الْمَبْدَإِ حَيًّا فِي أَصْحَابِهِ يَنْتَقِصُ مِنْ سُلْطَانِ الْبَاطِلِ، وَيَكْشِفُ زَيْفَهُ، وَيَجْذِبُ النَّاسَ إِلَىٰ الْحَقِّ.

وَلِهَذَا رَفَضَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يُقَدِّمَ شَهَادَةً لِبَاطِلِ قَوْمِهِ، أَوْ أَنْ يَتَرَاجَعَ عَنِ الْحَقِّ الَّذِي عَرَفَهُ، وَقَالَ: ﴿**قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَىٰ اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا**﴾ [الأعراف: 89].

فَالْقَضِيَّةُ لَمْ تَعُدْ مُجَرَّدَ خِلَافٍ اجْتِمَاعِيٍّ، وَإِنَّمَا أَصْبَحَتْ قَضِيَّةَ صِدْقٍ مَعَ اللهِ؛ إِذْ إِنَّ الْعَوْدَةَ إِلَىٰ الْبَاطِلِ بَعْدَ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ تَعْنِي الِافْتِرَاءَ عَلَىٰ اللهِ، وَتَزْيِيفَ الْوَعْيِ، وَمَنْحَ الطُّغْيَانِ شَهَادَةً أَخْلَاقِيَّةً لَا يَسْتَحِقُّهَا.

وَنَسْتَحْضِرُ هُنَا مَوْقِفَ الْأُسْتَاذِ سَيِّدِ قُطْبٍ رَحِمَهُ اللهُ، حِينَ طُلِبَ مِنْهُ فِي عَهْدِ عَبْدِ النَّاصِرِ أَنْ يَكْتُبَ كَلِمَاتٍ قَلِيلَةً يَشْهَدُ بِهَا لِلْبَاطِلِ وَالطَّاغُوتِ، يُمْكِنُ أَنْ تُسْهِمَ فِي تَخْفِيفِ الْحُكْمِ عَنْهُ، فَرَفَضَ أَنْ يَقُولَ مَا لَا يُؤْمِنُ بِهِ، وَعَدَّ ذَلِكَ كَذِبَةً كُبْرَىٰ فِي حَقِّ الدَّعْوَةِ وَالتَّارِيخِ، وَقَالَ: **إِنَّهَا كَذِبَةٌ كُبْرَىٰ لَنْ يَغْفِرَهَا التَّارِيخُ لِي**.

وَلَمْ يَكُنْ رَفْضُهُ نَابِعًا مِنْ رَغْبَةٍ فِي الْمَوْتِ أَوِ الْأَلَمِ، وَإِنَّمَا مِنْ إِدْرَاكٍ أَنَّ بَعْضَ الْكَلِمَاتِ لَا تَكُونُ مُجَرَّدَ كَلِمَاتٍ؛ فَقَدْ تَتَحَوَّلُ إِلَىٰ شَهَادَةٍ تَمْنَحُ الْبَاطِلَ شَرْعِيَّةً، وَتُحْدِثُ فِي الْأُمَّةِ شَلَلًا أَخْلَاقِيًّا، حِينَ تَرَىٰ أَصْحَابَ الْمَبَادِئِ يَتَرَاجَعُونَ عَنْهَا فِي اللَّحَظَاتِ الْحَاسِمَةِ.

وَقَـدْ كَانَ فَـوْتُ المَـوْتِ سَهْـلًا فَـرَدَّهُ
إِلَيْـهِ الْحِـفَاظُ المُـرُّ وَالخُلُـقُ الْوَعْـرُ

إِنَّ الْمُهَادَنَةَ الَّتِي لَا تَمَسُّ أَصْلَ الْإِيمَانِ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ مَوْضِعَ اجْتِهَادٍ، أَمَّا التَّعَايُشُ الَّذِي يَفْرِضُ عَلَىٰ صَاحِبِ الْحَقِّ أَنْ يَشْهَدَ لِلْبَاطِلِ، أَوْ يُبَرِّرَ الطُّغْيَانَ، فَلَيْسَ تَعَايُشًا، وَإِنَّمَا تَنَازُلٌ عَنْ جَوْهَرِ الرِّسَالَةِ.

وَمِنْ هُنَا كَانَ الِاسْتِعْدَادُ لِلتَّضْحِيَةِ مِنْ دَلَائِلِ صِدْقِ التَّجْدِيدِ وَالْإِحْيَاءِ؛ لِأَنَّ التَّمَسُّكَ بِالْمَبْدَإِ يَهُزُّ الْبَاطِلَ، وَيَمْنَحُ الدَّعْوَةَ قُوَّتَهَا الْمَعْنَوِيَّةَ، وَيُضِيفُ إِلَىٰ صُفُوفِهَا كُلَّ مَنْ يَرَىٰ الْمَبَادِئَ حَيَّةً فِي أَصْحَابِهَا.

وَكُلَّمَا ازْدَادَتِ الْأَخْلَاقُ قُوَّةً وَمَتَانَةً، انْتَفَتِ الْحَاجَةُ إِلَىٰ الْعُنْفِ؛ لِأَنَّ الْمَتَانَةَ الْخُلُقِيَّةَ تَمْنَحُ الْإِنْسَانَ الْقُدْرَةَ عَلَىٰ الصَّبْرِ، وَالثَّبَاتِ، وَتَحَمُّلِ الْأَذَىٰ، وَمُوَاصَلَةِ الطَّرِيقِ دُونَ أَنْ يَتَخَلَّىٰ عَنِ الْحَقِّ، أَوْ يَنْحَدِرَ إِلَىٰ وَسَائِلِ الْبَاطِلِ.

وَلَا يُعِينُ الْإِنْسَانَ عَلَىٰ هَذَا كُلِّهِ إِلَّا الْإِيمَانُ؛ الْإِيمَانُ بِحَقِيقَةِ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ، وَبِأَنَّهُ يَسْتَحِقُّ مَا يُبْذَلُ فِي سَبِيلِهِ مِنْ جُهْدٍ وَتَضْحِيَةٍ وَكِفَاحٍ.

غَيْرَ أَنَّ الِاسْتِعْدَادَ لِلتَّضْحِيَةِ لَا يَكْفِي وَحْدَهُ؛ فَالْكِفَاحُ النَّاجِحُ يَحْتَاجُ إِلَىٰ عَمَلٍ مُنَظَّمٍ، يَضُمُّ الطَّاقَاتِ الْمُتَفَرِّقَةَ، وَيُحَوِّلُ الْحَمَاسَةَ الْفَرْدِيَّةَ إِلَىٰ فِعْلٍ جَمَاعِيٍّ مُنْضَبِطٍ. وَمِنْ هُنَا كَانَتْ قِيمَةُ النِّظَامِ، وَالطَّاعَةِ، وَالْعَمَلِ الْمُشْتَرَكِ؛ إِذْ قَدْ يَمْلِكُ الْفَرْدُ الْمَوْهِبَةَ وَالْحَمَاسَةَ، وَلَكِنَّهُ يَعْجِزُ عَنْ خِدْمَةِ الدَّعْوَةِ إِذَا لَمْ يَعْرِفْ.

### 4- قُوَّةٌ سِيَاسِيَّةٌ تَحْمِي النَّهْضَةَ

وَيَخْتِمُ الإِمَامُ الْبَنَّا مَعَانِيَ التَّجْدِيدِ بِالْإِشَارَةِ إِلَىٰ ضَرُورَةِ وُجُودِ قُوَّةٍ سِيَاسِيَّةٍ تُؤَازِرُ النَّهْضَةَ وَتَحْمِيهَا؛ لِأَنَّ الْمَشْرُوعَ الْإِصْلَاحِيَّ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَظَلَّ حَبِيسَ الْمَجَالِ الْفَرْدِيِّ أَوِ الْوَعْظِيِّ، فِي حِينٍ تَتَحَكَّمُ السُّلْطَةُ فِي التَّعْلِيمِ، وَالْإِعْلَامِ، وَالِاقْتِصَادِ، وَالْقَانُونِ، وَسَائِرِ مَجَالَاتِ الْحَيَاةِ.

وَلِهَذَا قَالَ الإِمَامُ الْبَنَّا: »إِذَا قِيلَ لَكُمْ: إِلَامَ تَدْعُونَ؟ فَقُولُوا: نَدْعُو إِلَىٰ الْإِسْلَامِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَالْحُكُومَةُ جُزْءٌ مِنْهُ، وَالْحُرِّيَّةُ فَرِيضَةٌ مِنْ فَرَائِضِهِ. فَإِنْ قِيلَ لَكُمْ: هَذِهِ سِيَاسَةٌ! فَقُولُوا: هَذَا هُوَ الْإِسْلَامُ، وَنَحْنُ لَا نَعْرِفُ هَذِهِ الْأَقْسَامِ«[387].

فَالْحُكُومَةُ فِي هَذَا التَّصَوُّرِ لَيْسَتْ غَايَةً مُسْتَقِلَّةً، وَلَا مَطْلَبًا مُنْفَصِلًا عَنْ مَشْرُوعِ الْإِصْلَاحِ، وَإِنَّمَا هِيَ أَدَاةٌ مِنْ أَدَوَاتِ تَحْقِيقِ مَقَاصِدِهِ، وَحِمَايَةِ مُكْتَسَبَاتِهِ، وَتَمْكِينِ قِيَمِهِ فِي الْمُجْتَمَعِ.

كَمَا أَنَّ الْحُرِّيَّةَ لَيْسَتْ شِعَارًا سِيَاسِيًّا عَابِرًا، وَإِنَّمَا فَرِيضَةٌ تُتِيحُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَخْتَارَ، وَأَنْ يُعَبِّرَ، وَأَنْ يَعْمَلَ لِلْحَقِّ دُونَ خَوْفٍ أَوْ قَهْرٍ.

وَالنَّهْضَةُ الْأَخْلَاقِيَّةُ تَحْتَاجُ إِلَىٰ سُلْطَةٍ عَادِلَةٍ تَحْمِيهَا وَتَفْتَحُ أَمَامَهَا الطَّرِيقَ؛ وَإِلَّا بَقِيَتْ جُهُودُ الْإِصْلَاحِ مُعَرَّضَةً لِلْحِصَارِ أَوِ الْهَدْمِ، وَظَلَّتِ الْإِنْجَازَاتُ مَرْهُونَةً بِإِرَادَةِ الْقُوَىٰ الَّتِي تَمْلِكُ الْقَرَارَ.

وَمِنْ هُنَا جَمَعَ الإِمَامُ الْبَنَّا بَيْنَ إِصْلَاحِ الْإِنْسَانِ، وَإِصْلَاحِ الْمُجْتَمَعِ، وَالدَّوْلَةِ؛ لِأَنَّ النَّهْضَةَ لَا تَسْتَمِرُّ بِالْوَعْظِ وَحْدَهُ، وَلَا بِالْقُوَّةِ السِّيَاسِيَّةِ الْمُجَرَّدَةِ، وَإِنَّمَا بِالتَّكَامُلِ بَيْنَ الْإِنْسَانِ الْمُؤْمِنِ، وَالْمُجْتَمَعِ الْحَيِّ، وَالسُّلْطَةِ الَّتِي تَحْمِي الْحُرِّيَّةَ وَالْعَدْلَ.

وَقَدْ ظَنَّ بَعْضُ مُنَظِّرِي الْغَرْبِ، بَعْدَ احْتِلَالِ نَابُلْيُونَ لِمِصْرَ سَنَةَ 1798م، ثُمَّ بَعْدَ إِلْغَاءِ الْخِلَافَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ سَنَةَ 1924م، أَنَّ الْإِسْلَامَ بِوَصْفِهِ قُوَّةً حَضَارِيَّةً قَدْ أَوْشَكَ عَلَىٰ الِاخْتِفَاءِ. غَيْرَ أَنَّ حَرَكَةَ الْإِحْيَاءِ الْإِسْلَامِيِّ الَّتِي بَرَزَتْ فِي النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ، وَفِي مُقَدِّمَتِهَا حَرَكَةُ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ، أَعَادَتِ الْإِسْلَامَ إِلَىٰ قَلْبِ الْمَجَالِ الْعَامِّ، وَفَرَضَتْ حُضُورَهُ مِنْ جَدِيدٍ عَلَىٰ أَجِنْدَةِ الْعَالَمِ.

وَهَكَذَا فَإِنَّ التَّجْدِيدَ عِنْدَ الإِمَامِ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ يَعْنِي بِنَاءً مُتَكَامِلًا: **وَعْيٌ** يُبَدِّدُ الْغُمُوضَ، **وَوَاجِبٌ** يُحَوِّلُ الْفِكْرَةَ إِلَىٰ عَمَلٍ، **وَتَضْحِيَةٌ** تَحْمِي الْمَبْدَأَ، **وَقُوَّةٌ سِيَاسِيَّةٌ** تَصُونُ النَّهْضَةَ وَتُعِينُهَا عَلَىٰ بُلُوغِ غَايَاتِهَا.

(387) حسن البنا: **مجموعة رسائل الإمام البنا**، [رسالة: بين الأمس واليوم]، ص 517.

## سادِسًا: عَقَبَاتُ الطَّرِيقِ وَصِدْقُ الِاسْتِعْدَادِ

حِينَ تَتَّضِحُ الدَّعْوَةُ فِي نُفُوسِ أَصْحَابِهَا، وَيَتَحَوَّلُ الْوَعْيُ بِهَا إِلَىٰ عَمَلٍ، وَيَتَهَيَّؤُونَ لِلْبَذْلِ فِي سَبِيلِهَا، تَبْدَأُ مَرْحَلَةُ الِاخْتِبَارِ الْحَقِيقِيِّ. فَالدَّعَوَاتُ الْجَادَّةُ لَا تَمْضِي فِي طَرِيقٍ مُمَهَّدٍ، وَلَا تَتْرُكُهَا الْقُوَىٰ الْمُتَضَرِّرَةُ مِنْهَا تَعْمَلُ دُونَ مُقَاوَمَةٍ؛ لِأَنَّهَا لَا تُقَدِّمُ مَوَاعِظَ مَعْزُولَةً عَنِ الْوَاقِعِ، وَإِنَّمَا تَسْعَىٰ إِلَىٰ تَغْيِيرِهِ وَإِعَادَةِ بِنَائِهِ.

وَقَدْ نَبَّهَ الإِمَامُ حَسَنُ الْبَنَّا إِلَىٰ أَنَّ الْعَقَبَاتِ الَّتِي سَتُوَاجِهُ الدَّعْوَةَ لَنْ تَأْتِيَ مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ، بَلْ سَتَتَعَدَّدُ مَصَادِرُهَا، وَتَتَدَاخَلُ مُسْتَوَيَاتُهَا، حَتَّىٰ يَجِدَ أَصْحَابُهَا أَنْفُسَهُمْ أَمَامَ امْتِحَانٍ شَامِلٍ لِعُقُولِهِمْ، وَقُلُوبِهِمْ، وَإِرَادَاتِهِمْ.

### 1-الْجَهْلُ بِحَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ

تَتَمَثَّلُ الْعَقَبَةُ الْأُولَىٰ فِي جَهْلِ عَامَّةِ النَّاسِ بِحَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ، بَعْدَ أَنْ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدُ بِتَصَوُّرَاتٍ جُزْئِيَّةٍ وَمُخْتَزَلَةٍ عَنْهُ، حَتَّىٰ أَصْبَحَ الدِّينُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْهُمْ مَحْصُورًا فِي بَعْضِ الشَّعَائِرِ الْفَرْدِيَّةِ، أَوِ الْمَظَاهِرِ التَّعَبُّدِيَّةِ، أَوْ جَوَانِبَ مَحْدُودَةٍ مِنَ الْأَخْلَاقِ.

وَمِنْ ثَمَّ يَسْتَغْرِبُ النَّاسُ الدَّعْوَةَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ بِاعْتِبَارِهِ مَنْهَجًا شَامِلًا لِلْحَيَاةِ، يَتَنَاوَلُ الْفَرْدَ، وَالْأُسْرَةَ، وَالْمُجْتَمَعَ، وَالدَّوْلَةَ، وَيُقِيمُ الصِّلَةَ بَيْنَ الْعِبَادَةِ وَالْعَمَلِ، وَبَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْإِصْلَاحِ، وَبَيْنَ الدِّينِ وَشُؤُونِ الِاجْتِمَاعِ وَالسِّيَاسَةِ وَالِاقْتِصَادِ.

وَلَيْسَ هَذَا الِاسْتِغْرَابُ نَابِعًا دَائِمًا مِنَ الْعَدَاءِ لِلدِّينِ، وَإِنَّمَا قَدْ يَكُونُ أَثَرًا طَبِيعِيًّا لِقُرُونٍ مِنَ التَّجْهِيلِ، وَفَصْلِ الْإِسْلَامِ عَنْ مَجَالَاتِ الْحَيَاةِ، وَحَصْرِهِ فِي نِطَاقٍ ضَيِّقٍ لَا يَتَجَاوَزُ عِلَاقَةَ الْإِنْسَانِ الْفَرْدِيَّةَ بِرَبِّهِ.

وَلِهَذَا خَاطَبَ الإِمَامُ الْبَنَّا الْإِخْوَانَ بِقَوْلِهِ: «سَيَقِفُ جَهْلُ الشَّعْبِ بِحَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ عَقَبَةً فِي طَرِيقِكُمْ»(388).

فَالْمُشْكِلَةُ لَا تَكْمُنُ فَقَطْ فِي رَفْضِ النَّاسِ لِلدَّعْوَةِ، وَإِنَّمَا فِي أَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ لَمْ تُتَحْ

(388) مجموعة رسائل الإمام البنا. [**رسالة بين الأمس واليوم**]. ص515.

لَـهُ الْفُرْصَـةُ لِيَتَعَـرَّفَ إِلَـىٰ الْإِسْـلَامِ كَمَـا أَنْزَلَـهُ اللهُ، وَكَمَـا فَهِمَـهُ الْجِيـلُ الْأَوَّلُ، وَكَمَـا يَنْبَغِـي أَنْ يَتَحَـوَّلَ إِلَـىٰ وَاقِـعٍ حَـيٍّ.

وَهَـذَا يَضَـعُ عَلَـىٰ أَصْحَـابِ الدَّعْـوَةِ مَسْـؤُولِيَّةً مُضَاعَفَـةً؛ إِذْ لَا يَكْفِـي أَنْ يَحْمِلُـوا الْفِكْـرَةَ، بَـلْ لَا بُـدَّ أَنْ يُحْسِـنُوا عَرْضَهَـا، وَأَنْ يُقَدِّمُـوا لِلنَّـاسِ صُـورَةً عَمَلِيَّـةً عَنْهَـا، وَأَنْ يَصْبِـرُوا عَلَـىٰ مَـا يُلَاقُونَـهُ مِـنْ سُـوءِ الْفَهْـمِ، وَأَلَّا يُعَامِلُـوا الْجَهْـلَ بِوَصْفِـهِ عَـدَاءً دَائِمًـا لَا يُمْكِـنُ عِلَاجُـهُ.

## 2-إِنْكَارُ بَعْضِ أَهْلِ التَّدَيُّنِ وَالْعُلَمَاءِ الرَّسْمِيِّينَ

أَمَّـا الْعَقَبَـةُ الثَّانِيَـةُ، فَهِـيَ مَـا قَـدْ تُوَاجِهُـهُ الدَّعْـوَةُ مِـنْ بَعْـضِ الْمُنْتَسِـبِينَ إِلَـىٰ التَّدَيُّـنِ، وَمِـنَ الْعُلَمَـاءِ الرَّسْـمِيِّينَ الَّذِيـنَ أَلِفُـوا فَهْمًـا مَحْـدُودًا لِلْإِسْـلَامِ، أَوِ ارْتَبَطَـتْ مَوَاقِعُهُـمْ وَمَصَالِحُهُـمْ بِبَقَـاءِ الْوَاقِـعِ عَلَـىٰ مَـا هُـوَ عَلَيْـهِ.

يَقُـولُ الإِمَـامُ الْبَنَّـا رَحِمَهُ اللهُ: «وَسَـتَجِدُونَ مِـنْ أَهْـلِ التَّدَيُّـنِ وَمِـنَ الْعُلَمَـاءِ الرَّسْـمِيِّينَ مَـنْ يَسْـتَغْرِبُ فَهْمَكُـمْ لِلْإِسْـلَامِ، وَيُنْكِـرُ عَلَيْكُـمْ جِهَادَكُـمْ فِـي سَـبِيلِهِ». (389) .

وَخُطُـورَةُ هَـذِهِ الْعَقَبَـةِ أَنَّهَـا تَأْتِـي بِاسْـمِ الدِّيـنِ نَفْسِـهِ؛ فَقَـدْ يَكُـونُ إِنْكَارُ صَاحِـبِ السُّـلْطَةِ أَوِ الْمُسْـتَعْمِرِ مَفْهُومًـا لَـدَىٰ النَّـاسِ، أَمَّـا حِيـنَ يَصْـدُرُ الْإِنْـكَارُ عَـنْ عَالِـمٍ أَوْ مُتَدَيِّـنٍ، فَإِنَّـهُ يُوقِـعُ الْحَيْـرَةَ فِـي النُّفُـوسِ، وَيَمْنَـحُ خُصُـومَ الدَّعْـوَةِ غِطَـاءً دِينِيًّـا لِمُوَاجَهَتِهَـا.

وَلَيْـسَ الْمَقْصُـودُ بِالطَّبْـعِ الطَّعْـنَ فِـي الْعُلَمَـاءِ، أَوِ التَّقْلِيـلَ مِـنْ مَكَانَتِهِـمْ، وَإِنَّمَـا التَّنْبِيـهُ إِلَـىٰ أَنَّ الْمَوْقِـعَ الْعِلْمِـيَّ وَحْـدَهُ لَا يَعْصِـمُ صَاحِبَـهُ مِـنَ الْخَطَـإِ، وَلَا يَمْنَحُـهُ احْتِكَارَ تَفْسِـيرِ الْإِسْـلَامِ. فَقَـدْ يَحْمِـلُ الْإِنْسَـانُ عِلْمًـا وَاسِـعًا فِـي بَعْـضِ أَبْـوَابِ الدِّيـنِ، ثُـمَّ يَقْصُـرُ فَهْمُـهُ عَـنْ إِدْرَاكِ شُـمُولِهِ، أَوْ مُقْتَضَيَاتِـهِ فِـي وَاقِـعِ الْأُمَّـةِ.

وَقَـدْ عَانَـتْ مُحَـاوَلَاتُ الْإِصْـلَاحِ فِـي الْعَصْـرِ الْحَدِيـثِ مِـنْ هَـذَا اللَّـوْنِ مِـنَ الْمُقَاوَمَـةِ. فَالشَّـيْخُ مُحَمَّـدُ عَبْـدُهُ، مَثَـلًا، جَعَـلَ التَّرْبِيَـةَ وَالتَّعْلِيـمَ مَدْخَـلًا لِإِصْـلَاحِ الْأُمَّـةِ، وَسَـعَىٰ إِلَـىٰ تَطْوِيـرِ الْأَزْهَـرِ وَمَنَاهِـجِ التَّعْلِيـمِ، لَكِنَّـهُ وَاجَـهَ مُعَارَضَـةً شَـدِيدَةً، حَتَّـىٰ اتُّهِـمَ فِـي عَقْلِـهِ وَدِينِـهِ،

(389) السابق. ص 516.

وَلَمْ تَتَحَقَّقْ لَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَهْدَافِ الَّتِي كَانَ يَرْجُوهَا.

وَهَذِهِ الْمُقَاوَمَةُ تَكْشِفُ أَنَّ التَّجْدِيدَ لَا يَصْطَدِمُ دَائِمًا بِالْجَهْلِ الْمُجَرَّدِ، بَلْ قَدْ يَصْطَدِمُ كَذَلِكَ بِالْجُمُودِ، وَبِالْخَوْفِ مِنْ كُلِّ فَهْمٍ رَشِيدٍ يُعِيدُ النُّصُوصَ إِلَىٰ فَاعِلِيَّتِهَا، وَيَنْقُلُ الدِّينَ مِنْ دَائِرَةِ التَّلَقِّي الجُزْئِي السَّاكِنِ إِلَىٰ مَيْدَانِ الْإِصْلَاحِ وَالْعَمَلِ.

## 3- عَقَبَةُ أَصْحَابِ النُّفُوذِ وَالزَّعَامَةِ

ثُمَّ تَأْتِي عَقَبَةُ الرُّؤَسَاءِ، وَالزُّعَمَاءِ، وَأَصْحَابِ الْجَاهِ وَالسُّلْطَانِ؛ لِأَنَّ الدَّعْوَةَ الَّتِي تُنَادِي بِالْعَدْلِ، وَتُحَرِّرُ الْإِنْسَانَ مِنَ الْخُضُوعِ لِغَيْرِ اللهِ، وَتَهْدِفُ إِلَىٰ إِصْلَاحِ الْمُجْتَمَعِ، لَا بُدَّ أَنْ تَمَسَّ مَصَالِحَ الَّذِينَ بَنَوْا نُفُوذَهُمْ عَلَىٰ الظُّلْمِ، أَوِ الْفَسَادِ، أَوِ اسْتِضْعَافِ النَّاسِ.

يَقُولُ الإِمَامُ الْبَنَّا: «وَسَيَحْقِدُ عَلَيْكُمُ الرُّؤَسَاءُ وَالزُّعَمَاءُ وَذَوُو الْجَاهِ وَالسُّلْطَانِ»(390). فَالْحِقْدُ هُنَا لَيْسَ خِلَافًا شَخْصِيًّا بَيْنَ أَفْرَادٍ، وَإِنَّمَا هُوَ رَدُّ فِعْلٍ مِنْ أَصْحَابِ الِامْتِيَازَاتِ تُجَاهَ دَعْوَةٍ تُهَدِّدُ الْأُسُسَ الَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَا نُفُوذُهُمْ. وَكُلَّمَا اقْتَرَبَ الْإِصْلَاحُ مِنْ مَنَاطِقِ التَّأْثِيرِ الْحَقِيقِيَّةِ، ازْدَادَتْ مُقَاوَمَةُ الْمُنْتَفِعِينَ مِنَ الْفَسَادِ.

وَقَدْ يَقْبَلُ أَصْحَابُ النُّفُوذِ التَّدَيُّنَ الَّذِي لَا يَتَجَاوَزُ الْمَجَالَ الْفَرْدِيَّ، وَلَا يَعْتَرِضُ عَلَىٰ ظُلْمٍ، وَلَا يُطَالِبُ بِحَقٍّ، وَلَا يُغَيِّرُ وَاقِعًا؛ لَكِنَّهُمْ يُوَاجِهُونَ التَّدَيُّنَ الَّذِي يُنْشِئُ إِنْسَانًا حُرًّا، وَيُعِيدُ تَرْتِيبَ عَلَاقَتِهِ بِالسُّلْطَةِ، وَالْمَالِ، وَالْمُجْتَمَعِ، عَلَىٰ أَسَاسِ الْعَدْلِ وَالْمَسْؤُولِيَّةِ.

## 4- مُوَاجَهَةُ الْحُكُومَاتِ لِلدَّعْوَةِ

وَيَمْضِي الإِمَامُ الْبَنَّا فِي تَصْوِيرِ الطَّرِيقِ، فَيُقَرِّرُ أَنَّ الْحُكُومَاتِ سَتَقِفُ فِي وَجْهِ الدَّعْوَةِ، وَسَتُحَاوِلُ الْحَدَّ مِنْ نَشَاطِهَا، وَوَضْعَ الْعَرَاقِيلِ أَمَامَهَا.

وَلَيْسَ مَعْنَىٰ ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ حُكُومَةٍ سَتُعَادِي الدَّعْوَةَ بِالدَّرَجَةِ نَفْسِهَا، أَوْ أَنَّ الصِّدَامَ مَعَهَا غَايَةٌ مَقْصُودَةٌ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ أَنَّ السُّلْطَةَ الَّتِي لَا تَقُومُ عَلَىٰ الْحُرِّيَّةِ وَالْعَدْلِ

(390) مجموعة رسائل الإمام البنا. [**رسالة بين الأمس واليوم**]. ص 516.

سَتَنْظُرُ بِعَيْنِ الرِّيبَةِ إِلَىٰ كُلِّ قُوَّةٍ مُسْتَقِلَّةٍ تَمْتَلِكُ فِكْرَةً، وَتَنْظِيمًا، وَقَاعِدَةً شَعْبِيَّةً، وَقُدْرَةً عَلَىٰ التَّأْثِيرِ. فَالْحُكُومَاتُ الْمُسْتَبِدَّةُ لَا تَخْشَىٰ فَقَطْ مَنْ يَحْمِلُ السِّلَاحَ، بَلْ قَدْ يَكُونُ خَوْفُهَا الْأَكْبَرُ مِمَّنْ يَحْمِلُ فِكْرَةً قَادِرَةً عَلَىٰ تَحْرِيرِ الْإِنْسَانِ مِنَ الْخَوْفِ، وَإِعَادَةِ بِنَاءِ ثِقَتِهِ بِنَفْسِهِ، وَجَعْلِهِ أَكْثَرَ وَعْيًا بِحُقُوقِهِ وَوَاجِبَاتِهِ.

وَلِهَذَا تَعْمَلُ هَذِهِ الْحُكُومَاتُ عَلَىٰ تَطْوِيقِ الدَّعَوَاتِ الْجَادَّةِ، وَمُرَاقَبَةِ حَرَكَتِهَا، وَتَقْلِيصِ مَسَاحَاتِ عَمَلِهَا، وَإِشْغَالِهَا بِالدِّفَاعِ عَنْ وُجُودِهَا بَدَلًا مِنَ التَّفَرُّغِ لِتَحْقِيقِ رِسَالَتِهَا.

## 5-تَحَالُفُ الِاسْتِعْمَارِ وَالِاسْتِبْدَادِ فِي مُوَاجَهَةِ الدَّعْوَةِ

وَلَا يَعْمَلُ الْغَاصِبُونَ وَحْدَهُمْ فِي مُوَاجَهَةِ الدَّعْوَةِ، بَلْ يَسْتَعِينُونَ بِالْحُكُومَاتِ الضَّعِيفَةِ، وَبِالنُّفُوسِ الَّتِي أَفْسَدَتْهَا الْمَصَالِحُ، وَبِالْأَيْدِي الْمُمْتَدَّةِ إِلَيْهِمْ بِالسُّؤَالِ، ثُمَّ الْمُمْتَدَّةِ إِلَىٰ أَبْنَاءِ الْأُمَّةِ بِالْإِسَاءَةِ وَالْعُدْوَانِ. يَقُولُ الإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وَسَيَتَذَرَّعُ الْغَاصِبُونَ بِكُمْ لِمُنَاهَضَتِكُمْ وَإِطْفَاءِ نُورِ دَعْوَتِكُمْ، وَسَيَسْتَعِينُونَ فِي ذَلِكَ بِالْحُكُومَاتِ الضَّعِيفَةِ، وَالْأَخْلَاقِ الضَّعِيفَةِ، وَالْأَيْدِي الْمُمْتَدَّةِ إِلَيْهِمْ بِالسُّؤَالِ وَإِلَيْكُمْ بِالْإِسَاءَةِ وَالْعُدْوَانِ**»(391).

وَتَكْشِفُ هَذِهِ الْعِبَارَةُ عَنْ فَهْمٍ عَمِيقٍ لِطَبِيعَةِ الْهَيْمَنَةِ؛ فَالِاسْتِعْمَارُ لَا يَعْتَمِدُ دَائِمًا عَلَىٰ قُوَّتِهِ الْمُبَاشِرَةِ، وَإِنَّمَا يَصْنَعُ دَاخِلَ الْبِلَادِ شَبَكَةً مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْوَلَاءَاتِ، تَحْمِي نُفُوذَهُ، وَتُؤَدِّي عَنْهُ بَعْضَ وَظَائِفِ الْقَمْعِ وَالْمُوَاجَهَةِ.

وَهَكَذَا يَلْتَقِي الِاسْتِبْدَادُ الدَّاخِلِيُّ بِالْهَيْمَنَةِ الْخَارِجِيَّةِ؛ لِأَنَّ كِلَيْهِمَا يَنْتَفِعُ مِنْ ضَعْفِ الْأُمَّةِ، وَغِيَابِ وَعْيِهَا، وَتَفَرُّقِ قُوَاهَا. فَالْمُسْتَعْمِرُ يَحْتَاجُ إِلَىٰ سُلْطَةٍ تَابِعَةٍ تَحْمِي مَصَالِحَهُ، وَالْمُسْتَبِدُّ يَحْتَاجُ إِلَىٰ دَعْمٍ خَارِجِيٍّ يَضْمَنُ بَقَاءَهُ، وَيَدْفَعُ الشَّعْبُ ثَمَنَ هَذَا التَّحَالُفِ مِنْ حُرِّيَّتِهِ، وَكَرَامَتِهِ، وَمُسْتَقْبَلِهِ.

(391) مجموعة رسائل الإمام البنا. [**رسالة بين الأمس واليوم**]. ص516.

## 6-تَشْوِيهُ الدَّعْوَةِ وَحَرْبُ الشُّبُهَاتِ

وَمِنْ أَخْطَرِ الْعَقَبَاتِ الَّتِي تَوَقَّعَهَا الإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ أَنْ تُشَنَّ عَلَى الدَّعْوَةِ حَرْبٌ إِعْلَامِيَّةٌ وَنَفْسِيَّةٌ، لَا تَكْتَفِي بِمُوَاجَهَةِ أَفْكَارِهَا، وَإِنَّمَا تَسْعَى إِلَى تَشْوِيهِ صُورَتِهَا، وَإِلْصَاقِ كُلِّ نَقِيصَةٍ بِهَا.

يَقُولُ: «وَسَيُثِيرُ الْجَمِيعُ حَوْلَ دَعْوَتِكُمْ غُبَارَ الشُّبُهَاتِ وَظُلَمَ الِاتِّهَامَاتِ، وَسَيُحَاوِلُونَ أَنْ يُلْصِقُوا بِدَعْوَتِكُمْ كُلَّ نَقِيصَةٍ، وَأَنْ يُظْهِرُوهَا لِلنَّاسِ بِأَبْشَعِ صُورَةٍ، مُعْتَمِدِينَ عَلَى قُوَّتِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ، وَمُعْتَمِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَنُفُوذِهِمْ وَإِعْلَامِهِمْ»(392).

إِنَّهَا مَعْرَكَةٌ عَلَى وَعْيِ النَّاسِ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ مَعْرَكَةً عَلَى الْأَرْضِ. فَحِينَ يَعْجِزُ الْخُصُومُ عَنْ مُوَاجَهَةِ الْفِكْرَةِ بِالْحُجَّةِ، يَلْجَؤُونَ إِلَى تَشْوِيهِ حَمَلَتِهَا، وَإِثَارَةِ الْخَوْفِ مِنْهَا، وَتَحْمِيلِهَا مَسْؤُولِيَّةَ كُلِّ اضْطِرَابٍ، حَتَّى تُصْبِحَ الدَّعْوَةُ فِي ذِهْنِ الْجُمْهُورِ مُرْتَبِطَةً بِالْفَوْضَى، أَوِ الْخَطَرِ، أَوِ التَّخَلُّفِ.

وَتَزْدَادُ خُطُورَةُ هَذِهِ الْحَرْبِ حِينَ يَمْتَلِكُ الْخُصُومُ السُّلْطَةَ، وَالْمَالَ، وَالْإِعْلَامَ؛ لِأَنَّهُمْ يَسْتَطِيعُونَ تَكْرَارَ الِاتِّهَامِ حَتَّى يَبْدُوَ حَقِيقَةً، وَحَجْبَ صَوْتِ الدَّعْوَةِ، وَمَنْعَهَا مِنَ الدِّفَاعِ عَنْ نَفْسِهَا، ثُمَّ تَقْدِيمَ هَذِهِ الصُّورَةِ الْمَصْنُوعَةِ بِوَصْفِهَا حُكْمًا مَوْضُوعِيًّا عَلَيْهَا.

وَلِهَذَا يَحْتَاجُ أَصْحَابُ الدَّعْوَةِ إِلَى الصَّبْرِ، وَإِلَى نَقَاءِ السِّيرَةِ، وَإِلَى حُسْنِ الْبَيَانِ؛ لِأَنَّ السُّلُوكَ الْعَمَلِيَّ الصَّادِقَ يَظَلُّ مِنْ أَقْوَى الْوَسَائِلِ فِي مُوَاجَهَةِ حَمَلَاتِ التَّشْوِيهِ، وَإِنِ احْتَاجَ أَثَرُهُ إِلَى وَقْتٍ حَتَّى يَظْهَرَ.

## سابِعًا: حَتْمِيَّةُ الِابْتِلَاءِ وَصِدْقُ الْإِيمَانِ

وَلَا تَقِفُ الْمُوَاجَهَةُ عِنْدَ حُدُودِ الْكَلَامِ وَالِاتِّهَامِ، بَلْ تَنْتَقِلُ إِلَى صُوَرٍ عَمَلِيَّةٍ مِنَ الْأَذَى وَالِاضْطِهَادِ: «**وَسَتَدْخُلُونَ بِذَلِكَ، لَا شَكَّ، فِي دَوْرِ التَّجْرِبَةِ وَالِامْتِحَانِ؛ فَتُسْجَنُونَ، وَتُقْتَلُونَ، وَتُعْتَقَلُونَ، وَتُشَرَّدُونَ، وَتُصَادَرُ مَصَالِحُكُمْ، وَتُعَطَّلُ أَعْمَالُكُمْ،**

(392) السابق.

**وَتُفَتَّشُ بُيُوتُكُمْ، وَقَدْ يَطُولُ بِكُمْ مَدَىٰ هَذَا الِامْتِحَانِ»**[393].

بِهَذِهِ الصَّرَاحَةِ يَضَعُ الْإِمَامُ الْبَنَّا تَحَدِّيَاتِ الطَّرِيقِ أَمَامَ أَصْحَابِهِ دُونَ تَجْمِيلٍ أَوْ إِخْفَاءٍ. فَهُوَ لَا يَعِدُهُمْ بِمَكَاسِبَ قَرِيبَةٍ، وَلَا يُصَوِّرُ لَهُمُ الدَّعْوَةَ طَرِيقًا إِلَىٰ الْجَاهِ أَوِ الرَّاحَةِ، وَإِنَّمَا يُخْبِرُهُمْ أَنَّ حَمْلَ الرِّسَالَةِ قَدْ يُكَلِّفُهُمْ حُرِّيَّاتِهِمْ، وَأَمْوَالَهُمْ، وَأَعْمَالَهُمْ، وَاسْتِقْرَارَ أُسَرِهِمْ، بَلْ حَيَاتَهُمْ نَفْسَهَا.

وَهَذَا الْوُضُوحُ جُزْءٌ مِنَ التَّرْبِيَةِ؛ لِأَنَّ مَنْ يَدْخُلُ طَرِيقًا وَهُوَ يَجْهَلُ تَكَالِيفَهُ قَدْ يَتَرَاجَعُ عِنْدَ أَوَّلِ مِحْنَةٍ، أَمَّا مَنْ يَعْرِفُ مُنْذُ الْبِدَايَةِ طَبِيعَةَ الطَّرِيقِ، فَإِنَّهُ يَكُونُ أَقْدَرَ عَلَىٰ الثَّبَاتِ، وَأَصْدَقَ فِي اخْتِيَارِهِ.

وَقَدْ يَطُولُ الِامْتِحَانُ، وَتَتَتَابَعُ الْمِحَنُ، وَلَا يَرَىٰ أَصْحَابُ الدَّعْوَةِ نَتِيجَةً عَاجِلَةً لِتَضْحِيَاتِهِمْ. وَهُنَا يُصْبِحُ الصَّبْرُ أَكْثَرَ مِنْ مُجَرَّدِ احْتِمَالٍ لِلْأَلَمِ؛ يُصْبِحُ ثَبَاتًا عَلَىٰ صِحَّةِ الطَّرِيقِ، وَثِقَةً بِأَنَّ الْبَذْلَ الصَّادِقَ لَا يَضِيعُ عِنْدَ اللهِ، وَإِنْ تَأَخَّرَ أَثَرُهُ فِي حِسَابِ الزَّمَنِ.

وَلِهَذَا خَتَمَ الْإِمَامُ الْبَنَّا حَدِيثَهُ بِالسُّؤَالِ الَّذِي لَا بُدَّ أَنْ يُجِيبَ عَنْهُ كُلُّ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَىٰ دَعْوَةِ الْإِصْلَاحِ **«فَهَلْ أَنْتُمْ مُصِرُّونَ عَلَىٰ أَنْ تَكُونُوا أَنْصَارَ اللهِ؟»**[394].

وَلَيْسَ هَذَا السُّؤَالُ دَعْوَةً إِلَىٰ إِعْلَانِ الْوَلَاءِ فَحَسْبُ، بَلْ هُوَ دَعْوَةٌ إِلَىٰ الِاسْتِعْدَادِ لِتَحَمُّلِ تَبِعَاتِ هَذَا الِاخْتِيَارِ؛ إِذْ إِنَّ طَرِيقَ نُصْرَةِ اللهِ مَحْفُوفٌ بِالِابْتِلَاءِ، وَقَدْ جَرَتْ سُنَّةُ اللهِ أَنْ يُمْتَحَنَ الصَّادِقُونَ قَبْلَ أَنْ يُمَكَّنَ لَهُمْ. وَمِنْ هُنَا بَيَّنَ الْقُرْآنُ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: **﴿الم ۝ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾** [العنكبوت: ١–3].

فَالْفِتْنَةُ لَيْسَتْ حَادِثًا خَارِجًا عَنْ طَرِيقِ الْإِيمَانِ، بَلْ هِيَ سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِهِ، تَكْشِفُ صِدْقَ الْمَوَاقِفِ، وَتُمَيِّزُ بَيْنَ مَنْ يَحْمِلُ الدَّعْوَةَ مَا دَامَتْ لَا تُكَلِّفُهُ شَيْئًا، وَمَنْ يَحْمِلُهَا لِأَنَّهَا حَقٌّ، مُسْتَعِدًّا لِأَدَاءِ وَاجِبِهِ مَهْمَا طَالَ الطَّرِيقُ وَاشْتَدَّ الْبَلَاءُ.

(393) مجموعة رسائل الإمام البنا. [ **سالة بين الأمس واليوم**]. ص516.
(394) مجموعة رسائل الإمام البنا. [**رسالة بين الأمس واليوم**]. ص516.

وَمِنْ هُنَا، لَمْ يَكُنِ الْإِيمَانُ الْحَقُّ اسْتِسْلَامًا لِلْوَاقِعِ، وَلَا انْسِحَابًا مِنْ مَيْدَانِ مُقَاوَمَةِ الْبَاطِلِ، وَإِنَّمَا كَانَ نِضَالًا، وَكِفَاحًا، وَبَذْلًا، وَتَضْحِيَةً. أَمَّا هَذِهِ الرُّوحُ الْبَعِيدَةُ عَنْ مُقَاوَمَةِ الْبَاطِلِ، الْمُسْتَسْلِمَةُ لِلظُّلْمِ، الْمُنْتَظِرَةُ لِلرَّحِيلِ بَدَلَ الْعَمَلِ عَلَىٰ تَغْيِيرِهِ، فَهِيَ فِي جَانِبٍ مِنْهَا نِتَاجُ التَّكَايَا، وَالزَّوَايَا، وَالرُّبُطِ، وَالْخَلَوَاتِ؛ حَيْثُ يَتَكَوَّنُ نَمُوذَجُ الدَّرْوِيشِ الَّذِي يُعَانِي الظُّلْمَ، ثُمَّ يَكْتَفِي بِالصَّبْرِ عَلَيْهِ، وَانْتِظَارِ الْخَلَاصِ مِنْهُ بِالْمَوْتِ أَوِ الرَّحِيلِ.

وَيُضَافُ إِلَىٰ ذَلِكَ مَوْقِفُ بَعْضِ عُلَمَاءِ الدِّينِ الرَّسْمِيِّينَ الَّذِينَ آثَرُوا السَّلَامَةَ، وَنَفَرُوا مِنْ كُلِّ صُورَةٍ مِنْ صُوَرِ التَّضْحِيَةِ، حَتَّىٰ غَدَا الِابْتِعَادُ عَنْ مَيَادِينِ الصِّرَاعِ مَعَ الْبَاطِلِ يُقَدَّمُ عَلَىٰ أَنَّهُ حِكْمَةٌ وَسَلَامَةٌ، لَا تَقْصِيرًا فِي أَدَاءِ الْوَاجِبِ.

وقد رَأَيْتُ ذَلِكَ بِنَفْسِي وَأَنَا شَابٌّ قَبلَ أَنْ أَدْخُلَ الإِخْوَانَ فِي أوائل الستينيَّاتِ استمَعْتُ إِلَىٰ محاضرَةٍ لِلشَّيخ مُحمَّدِ أَبُو زَهْرَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَهُوَ خَيرُ القَاعِدِينَ كَمَا يَقولُ أ. سَيِّدُ قُطْب رَحِمَهُ اللَّهُ، وَالرَّجُلُ الَّذِي بَكَىٰ وَأَجْهَشَ فِي البُكَاءِ كَمَا يَرْوِي أ. فَرِيدُ عَبدِ الخَالِقِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي شَهادَتِهِ عَلَىٰ العصرِ عِندَمَا قُتِلَ الإِمامُ حَسَنُ البَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ وقالَ: إِنَّ بَلَدًا يُقتَلُ فِيهَا مِثلُ حَسنِ البَنَّا لَنْ تَرىٰ خَيْرًا، أُمَّةٌ لَا تُطِيقُ مِثْلَ حَسَنِ البَنَّا بَينَ ظَهرانِيهَا وَلَا تَدْفَعُ عَنهُ الأَذَىٰ لأَنَّها تَأَبَّتْ عَلَىٰ دَعْوَةِ الإِصْلاحِ، فَلَنْ تَرىٰ خَيرًا، وقَد صَدقَ حَديثُ هَذَا الرجُل، اسْتَمعتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يُلقِىٰ مُحاضرَةً عَامةً عَنِ الشريعَةِ الإِسْلاميّةِ وَسَألَهُ أَحَدُ الحَاضِرِينَ: مَا هُوَ وَاجِبُنَا تِجاهَ الحُكَّامِ الذِينَ لَا يُطبِّقُونَ هَذِهِ الشريعَةَ عَلَىٰ مَا فِيهَا مِنَ العَدالَةِ وَالإِنصَافِ كمَا تَشرَحُ فِي المُحَاضرَةِ؟

فَوضَعَ يَدَهُ عَلَىٰ فَمِهِ وَقَالَ: لَا أحدَ يَستَطِيعُ أَنْ يَقولَ: «**إِنَّ البَغلَ فِي الإِبريقِ**»[395]، يَعنِي لَا أَحَدَ يَستطيعُ أَنْ يَقُولَ الحَقائقَ أَوْ يُعلِنَهَا وَإِلَّا فَسَيفُ الظَّالِمِ بِالمِرصَادِ، النهَايَاتُ مَعروفَةٌ، نِضَالٌ يَعنِي تَحمُّلَ الأَذَىٰ، وَهَذِهِ فِكرَةٌ مُنفِّرةٌ، مِنَ المُمكنِ أَنْ يجلِسَ الإِنسان وَيكتُبَ مُؤلفَاتٍ كَثِيرَةً جِدًّا فِي فُروعِ الفِقْهِ وَالسِّيرَةِ وَالقَانُونِ وَالشَّرائِعِ وَالحُقوقِ وَالواجِبَاتِ، هَذَا هُوَ المَفهُومُ. وَينأَىٰ بنفسه عن الشَّر. ولكن يظلُّ الواجبُ مضيَّعا لا

(395) «**البغل في الإبريق**»: مثلٌ عربيٌّ عاميٌّ يُضرَبُ للتعبيرِ عَنِ الحَقيقَةِ الوَاضِحَةِ التِي يَعلَمُهَا الجَمِيعُ، لَكِنَّهُم يُحجِمُونَ عَنِ التصريحِ بِهَا خوفًا مِنَ السُّلطَةِ أَوِ العَواقبِ، فَأَصبَحَ رَمْزًا لِغِيَابِ الجُرأَةِ عَلَىٰ قَوْلِ الحَقِّ.

يقوم به أحد ولا يستوي علىٰ حال.

وَقَد جَاءَ إِلَينَا د. أَحمَدُ شَلبِي أُستاذُ التاريخ فِي كُليّةِ دَارِ العُلوم، وَنحنُ فِي السِّجْنِ الحَربيِّ قُرابةَ أَلفَي مُعْتقَل، وَكُنَّا حَلِيقي الرؤُوسِ، حُفاةً نَلبسُ مَلابسَ السِّجْنِ مَا يَستُرُ مِنْهَا العَورَاتِ مُهلْهَلَة، وَأَجلَسُونَا أَمامَهُ عَلَىٰ الأرضِ فِي قَاعةٍ كَبيرَةٍ كَانتْ مَكانًا لِلطَّعام، فَأعدُّوهَا لِلمُحاضرَاتِ، وَهُوَ جَالِسٌ عَلَىٰ المنصَّةِ أَمَامهُ العصَائرُ الباردَةُ وَمِرْوَحةٌ، وَهَواءٌ بَارِدٌ، وَنحنُ نجلسُ صُفُوفًا، وَالجنودُ يَمرُّونَ بِالسيَاطِ وَالكلابِ بَينَ الصُّفُوفِ، أَي هَمْسٍ أَيُّ حركةٍ يُعاقَبُ صَاحِبُهَا، وَقَد يَصِلُ ذَلِكَ العِقَابُ إِلَىٰ المَوْتِ، وَكَذَلكَ أَيّ تَعليقٍ أَو حِوَارٍ أَو رَدٍّ، وَأَوَّلَ مَا جَلسَ قَالَ لَنَا: أَنَا فُلانُ الفُلانِيّ وَفتحَ الشنطةَ وَأخرَجَ مِنهَا أكثرَ مِنْ عَشرَةِ أَوْ خَمسَةَ عَشرَ مِنْ مُؤلفَاتِهِ فِي التاريخ: تَاريخُ اليهُودية، وَإِندُونسيَا وَكذَا وكذَا... وقَالَ: أَنا كَتبتُ هَذِهِ الكُتبَ فِي فِيلَّتِي وَفِي مَكتَبِي الأَنيقِ، وجُموعُ الحُضُورِ الحُفاةِ العُراةِ جَالِسونَ أَمامَهُ، لكنْ كَانَ يَملئُوهُمْ شُعورٌ بِعزَّةِ النفْسِ فَوقَ مَا يَشعُرُ هُوَ بِهِ، وَأَنّهم عَلَىٰ الحَقِّ، لَديهِم شُعورُ الاستعدَادِ للتَّضحِيةِ وَالثقَةِ وَالاطمِئنَانِ، بَعِيدًا عَنْ الاستِكْبَارِ، بَعِيدًا عَنِ الغُرورِ، بَعِيدًا عَنِ التوَاكُلِ.

وَقَدْ تَعَلَّمْنَا مِنَ الأُسْتَاذِ سَيِّدِ قُطْبٍ رَحِمَهُ اللهُ مُقَاوَمَةَ الظُّلْمِ وَجَرَائِمِهِ وَبَطْشِهِ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُ النَّاسِ قَدْ عَابُوا عَلَيْهِ أَنَّهُ لَمْ يُوَاجِهْ جَمَالَ عَبْدِ النَّاصِرِ فِي حَيَاتِهِ مُوَاجَهَةً مُبَاشِرَةً، وَيَتَحَمَّلْ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ مَا تَحَمَّلَهُ مِنَ العَنَتِ وَالأَذَىٰ.غَيْرَ أَنَّ القَضِيَّةَ لَمْ تَكُنْ فِي مُجَرَّدِ المُوَاجَهَةِ، وَإِنَّمَا فِي غَرْسِ رُوحِ الِاسْتِعْدَادِ لِلتَّضْحِيَةِ وَالكِفَاحِ وَتَحَمُّلِ الأَذَىٰ فِي سَبِيلِ الحَقِّ.

وَكَانَ الَّذِينَ تَلَقَّوْا هَذَا المَعْنَىٰ مِنْهُ آنَذَاكَ أُنَاسًا بُسَطَاءَ، لَكِنَّهُمْ أَدْرَكُوا مِنْ خِلَالِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ أَنَّ مِنْ وَاجِبِهِمُ الوُقُوفَ فِي وَجْهِ الظُّلْمِ، وَالحَدَّ مِنَ الشَّرِّ، **فَتَرَكُوا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بُيُوتَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ وَأَوْلادَهُمْ، وَتَرَكُوا رَاحَتَهُمْ، وَأَخَّرُوا مَصَالِحَهُمْ وَأَمَانِيَّهُمْ، وَعَرَّضُوا مُسْتَقْبَلَهُمْ لِلْخَطَرِ؛ أَدَاءً لِهَذَا الوَاجِبِ.**

## ثامِنًا: الْعَوْدَةُ إِلَىٰ الْمَنْبَعِ الْأَوَّلِ: الطَّرِيقُ الْأَرْشَدُ لِلدَّعْوَةِ

بَعْدَ هَذَا الْعَرْضِ التَّارِيخِيِّ، وَتَشْخِيصِ أَسْبَابِ التَّرَاجُعِ، وَبَيَانِ مَعَانِي التَّجْدِيدِ، وَالتَّنْبِيهِ إِلَىٰ طَبِيعَةِ الطَّرِيقِ وَعَقَبَاتِهِ، يَصِلُ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَىٰ النَّتِيجَةِ الَّتِي قَامَتْ عَلَيْهَا الرِّسَالَةُ كُلُّهَا؛ وَهِيَ أَنَّ نَهْضَةَ الْأُمَّةِ لَيْسَتْ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ دِينٍ جَدِيدٍ، وَلَا إِلَىٰ رِسَالَةٍ جَدِيدَةٍ، وَلَا إِلَىٰ فَلْسَفَاتٍ مُسْتَوْرَدَةٍ، وَإِنَّمَا تَحْتَاجُ إِلَىٰ أَنْ تَعُودَ إِلَىٰ الْمَنْهَجِ الَّذِي نَهَضَتْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ.

وَلِهَذَا يُمْكِنُ أَنْ يُلَخَّصَ مَضْمُونُ الرِّسَالَةِ فِي الْكَلِمَةِ الْمَشْهُورَةِ الْمَنْسُوبَةِ إِلَىٰ الْإِمَامِ مَالِكٍ: «**لَنْ يَصْلُحَ آخِرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا بِمَا صَلَحَ بِهِ أَوَّلُهَا**»(396).

وَهَذِهِ الْعِبَارَةُ لَيْسَتْ دَعْوَةً إِلَىٰ اسْتِنْسَاخِ الْمَاضِي، وَلَا إِلَىٰ إِعَادَةِ إِنْتَاجِ صُوَرِ الْحَيَاةِ الَّتِي عَاشَهَا الْمُسْلِمُونَ الْأَوَائِلُ، وَإِنَّمَا هِيَ دَعْوَةٌ إِلَىٰ الْعَوْدَةِ إِلَىٰ الْأُصُولِ الَّتِي صَنَعَتْ ذَلِكَ الْجِيلَ؛ الْأُصُولِ الَّتِي تَمْلِكُ الْقُدْرَةَ عَلَىٰ صِنَاعَةِ الْإِنْسَانِ فِي كُلِّ عَصْرٍ، مَهْمَا اخْتَلَفَتِ الظُّرُوفُ، وَتَبَدَّلَتِ الْوَسَائِلُ، وَتَغَيَّرَتْ صُوَرُ الْحَيَاةِ.

فَالْجِيلُ الْأَوَّلُ لَمْ يُحَقِّقْ نَهْضَتَهُ لِأَنَّهُ عَاشَ فِي الْقَرْنِ الْأَوَّلِ الْهِجْرِيِّ، وَإِنَّمَا لِأَنَّهُ أَقَامَ حَيَاتَهُ عَلَىٰ الْوَحْيِ، وَجَعَلَ الْقُرْآنَ مَرْجِعِيَّتَهُ، وَرَبَّىٰ نَفْسَهُ عَلَىٰ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ، وَجَمَعَ بَيْنَ صَفَاءِ الْعَقِيدَةِ، وَقُوَّةِ الْأَخْلَاقِ، وَفَاعِلِيَّةِ الْحَرَكَةِ، وَحُسْنِ الْعُمْرَانِ.

وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ الْإِصْلَاحَ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ الْإِمَامُ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ لَيْسَ إِصْلَاحًا جُزْئِيًّا يُعَالِجُ بَعْضَ مَظَاهِرِ الْخَلَلِ، وَإِنَّمَا هُوَ إِصْلَاحٌ يَبْدَأُ مِنَ الْإِنْسَانِ، ثُمَّ يَمْتَدُّ إِلَىٰ الْأُسْرَةِ، فَالْمُجْتَمَعِ، فَالدَّوْلَةِ، حَتَّىٰ تَسْتَعِيدَ الْأُمَّةُ قُدْرَتَهَا عَلَىٰ أَدَاءِ رِسَالَتِهَا فِي الْحَيَاةِ.

---

(396) هَذَا كَلَامُ الْإِمَامِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللهُ، يَقُولُ: «**لَا يَصْلُحُ آخِرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا بِمَا أَصْلَحَ أَوَّلَهَا**». وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّ أَوَّلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ صَلَحُوا بِالتَّوْحِيدِ، وَالْقِيَامِ بِأَمْرِ اللهِ، وَأَدَاءِ حَقِّهِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَالْإِيمَانِ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي صَلَحَ بِهِ أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَآخِرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَا يُصْلِحُهَا إِلَّا هَذَا، إِذَا اسْتَقَامُوا عَلَىٰ أَمْرِ اللهِ، وَوَحَّدُوا اللهَ، وَأَخْلَصُوا الْعِبَادَةَ، وَآمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِهِ، صَلَحَ حَالُهُمْ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا فَلَنْ يَصْلُحَ حَالُهُمْ، هَذَا مَعْنَاهُ بِاخْتِصَارٍ. [القاضي عياض، **الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ**، ج2، ص98–99، ط. دار ابن رجب].

وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ حَدِيثُهُ عَنِ الِاسْتِعْمَارِ مُجَرَّدَ إِدَانَةٍ لِلْغَالِبِ، وَلَا حَدِيثُهُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ مُجَرَّدَ رِثَاءٍ لِلْمَغْلُوبِ، وَإِنَّمَا كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَنْقُلَ الْأُمَّةَ مِنْ مَرْحَلَةِ تَعْلِيقِ الْأَخْطَاءِ عَلَىٰ الْآخَرِينَ إِلَىٰ مَرْحَلَةِ تَحَمُّلِ الْمَسْؤُولِيَّةِ عَنِ الذَّاتِ.

فَالسُّؤَالُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَشْغَلَ الْأُمَّةَ لَيْسَ: مَاذَا فَعَلَ بِنَا الْآخَرُونَ؟ وَإِنَّمَا: مَاذَا فَعَلْنَا نَحْنُ حَتَّىٰ أَصْبَحْنَا قَابِلِينَ لِلْهَزِيمَةِ؟ وَمَاذَا يَنْبَغِي أَنْ نَفْعَلَ حَتَّىٰ نَسْتَعِيدَ أَسْبَابَ الْقُوَّةِ؟

وَهَذَا التَّحَوُّلُ فِي زَاوِيَةِ النَّظَرِ هُوَ أَوَّلُ خُطْوَةٍ فِي طَرِيقِ النَّهْضَةِ؛ لِأَنَّ الْأُمَّةَ الَّتِي تَعْتَرِفُ بِمُشْكِلَاتِهَا، وَتُرَاجِعُ نَفْسَهَا، وَتُصَحِّحُ مَسَارَهَا، تَكُونُ أَقْرَبَ إِلَىٰ النُّهُوضِ مِنْ أُمَّةٍ لَا تَرَىٰ أَسْبَابَ أَزْمَاتِهَا إِلَّا فِي الْخَارِجِ.

كَمَا أَنَّ الْإِمَامَ الْبَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ لَا يَخْتَزِلُ النَّهْضَةَ فِي جَانِبٍ وَاحِدٍ؛ فَلَا يَرَاهَا مَشْرُوعًا سِيَاسِيًّا مُجَرَّدًا، وَلَا حَرَكَةً تَرْبَوِيَّةً مُنْفَصِلَةً عَنِ الْمُجْتَمَعِ، وَلَا نَشَاطًا دَعَوِيًّا بَعِيدًا عَنْ وَاقِعِ النَّاسِ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَيْهَا بِوَصْفِهَا مَشْرُوعًا حَضَارِيًّا مُتَكَامِلًا، تَتَسَانَدُ فِيهِ التَّرْبِيَةُ، وَالْفِكْرُ، وَالدَّعْوَةُ، وَالْعَمَلُ، وَالتَّنْظِيمُ، وَالْحُرِّيَّةُ، وَالْقُوَّةُ، حَتَّىٰ تُؤَدِّيَ الْأُمَّةُ وَظِيفَتَهَا الَّتِي أَرَادَهَا اللهُ لَهَا.

وَمِنْ هُنَا بَقِيَتْ هَذِهِ الرِّسَالَةُ، عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ مُرُورِ عُقُودٍ طَوِيلَةٍ عَلَىٰ كِتَابَتِهَا، مُحْتَفِظَةً بِحَيَوِيَّتِهَا؛ لِأَنَّهَا لَمْ تَرْتَبِطْ بِحَدَثٍ عَابِرٍ، وَإِنَّمَا تَنَاوَلَتْ سُنَنًا ثَابِتَةً فِي قِيَامِ الْأُمَمِ وَسُقُوطِهَا، وَفِي عَوَامِلِ الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ، وَفِي طَبِيعَةِ الصِّرَاعِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ.

وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ سِرُّ اسْتِمْرَارِ حُضُورِهَا؛ **فَهِيَ لَا تُقَدِّمُ وَصْفًا لِمَرْحَلَةٍ تَارِيخِيَّةٍ مَضَتْ فَحَسْبُ، وَإِنَّمَا تُقَدِّمُ مَنْهَجًا فِي التَّفْكِيرِ**، يَدْعُو الْأُمَّةَ إِلَىٰ أَنْ تَبْدَأَ بِنَفْسِهَا، وَأَنْ تَسْتَعِيدَ ثِقَتَهَا بِدِينِهَا، وَأَنْ تُحْسِنَ قِرَاءَةَ وَاقِعِهَا، وَأَنْ تَأْخُذَ بِأَسْبَابِ الْقُوَّةِ، دُونَ أَنْ تَتَخَلَّىٰ عَنْ هُوِيَّتِهَا، أَوْ تَذُوبَ فِي غَيْرِهَا.

وَبِذَلِكَ تَكُونُ رِسَالَةُ «**بَيْنَ الْأَمْسِ وَالْيَوْمِ**» قَدْ رَسَمَتْ مَعَالِمَ الْمَشْرُوعِ الْإِصْلَاحِيِّ

الَّذِي سَيَبْسُطُهُ الْإِمَامُ الْبَنَّا فِي رَسَائِلِهِ الْأُخْرَىٰ؛ فَهِيَ تُمَثِّلُ الْمَدْخَلَ الْفِكْرِيَّ لِفَهْمِ مَشْرُوعِهِ كُلِّهِ؛ لِأَنَّهَا تَبْدَأُ بِتَشْخِيصِ الدَّاءِ، ثُمَّ تُحَدِّدُ طَرِيقَ الْعِلَاجِ، وَتُبَيِّنُ طَبِيعَةَ الطَّرِيقِ، وَتَدْعُو إِلَىٰ الثَّبَاتِ حَتَّىٰ تَتَحَقَّقَ غَايَةُ الْإِصْلَاحِ، وَتَسْتَعِيدَ الْأُمَّةُ مَكَانَتَهَا بَيْنَ الْأُمَمِ.

# منهجُ التغيِيرِ
# كَما تجلِّيه رسائلُ الإِمامِ البنا

## مُقَدِّمَةٌ

بَعْدَ هَذِهِ الصُّحْبَةِ مَعَ رَسَائِلِ الإِمَامِ حَسَنِ البَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ، وَقِرَاءَةِ مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ أَفْكَارٍ وَتَوْجِيهَاتٍ وَمَوَاقِفَ وَمَنَاهِجَ فِي الدَّعْوَةِ وَالتَّرْبِيَةِ وَالإِصْلَاحِ، يَبْدُو مِنَ المُنَاسِبِ أَلَّا نَقِفَ عِنْدَ حُدُودِ شَرْحِ كُلِّ رِسَالَةٍ عَلَىٰ حِدَةٍ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الرَّسَائِلَ ـ عَلَىٰ اخْتِلَافِ مُنَاسَبَاتِهَا وَأَزْمِنَتِهَا وَمَوْضُوعَاتِهَا ـ لَا تُمَثِّلُ أَفْكَارًا مُتَفَرِّقَةً، وَإِنَّمَا تَتَكَامَلُ فِيمَا بَيْنَهَا لِتَكْشِفَ عَنْ رُؤْيَةٍ وَاحِدَةٍ لِلْإِصْلَاحِ، وَمَنْهَجٍ مُتَدَرِّجٍ لِلتَّغْيِيرِ.

فَمَا جَاءَ فِي رِسَالَةٍ مُجْمَلًا قَدْ يَتَّضِحُ فِي أُخْرَىٰ، وَمَا عُرِضَ فِي مَوْضِعٍ بِاعْتِبَارِهِ فِكْرَةً أَوْ غَايَةً، يَظْهَرُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ وَسِيلَةً أَوْ مَرْحَلَةً أَوْ قَاعِدَةً لِلْعَمَلِ. وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ النَّظَرَ إِلَىٰ الرَّسَائِلِ مُجْتَمِعَةً يُتِيحُ لَنَا أَنْ نَتَجَاوَزَ القِرَاءَةَ الجُزْئِيَّةَ إِلَىٰ بِنَاءِ الصُّورَةِ الكُلِّيَّةِ، وَأَنْ نَسْتَخْلِصَ مِنْهَا مَعَالِمَ المَنْهَجِ الَّذِي حَكَمَ حَرَكَةَ الإِمَامِ البَنَّا رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الإِصْلَاحِ وَالتَّغْيِيرِ.

وَلَيْسَ المَقْصُودُ بِهَذِهِ الخُلَاصَةِ لِمَنْهَجِ التَّغْيِيرِ إِضَافَةَ مَوْضُوعٍ مُنْفَصِلٍ عَنِ الرَّسَائِلِ، وَلَا تَحْمِيلَهَا بِنَاءً مِنْ خَارِجِهَا، وَإِنَّمَا جَمْعُ مَا تَفَرَّقَ فِيهَا، وَرَبْطُ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ، وَالكَشْفُ عَنِ الخَيْطِ النَّاظِمِ الَّذِي يَصِلُ بَيْنَ تَصْحِيحِ الفِكْرَةِ، وَنَشْرِ الدَّعْوَةِ، وَتَرْبِيَةِ الفَرْدِ، وَتَكْوِينِ الجَمَاعَةِ، وَإِصْلَاحِ المُجْتَمَعِ وَالأُمَّةِ، وَتَحْرِيرِ الوَطَنِ مِنْ كُلِّ سُلْطَانٍ أَجْنَبِيٍّ، وَإِصْلَاحِ الحُكُومَةِ حَتَّىٰ تَكُونَ إِسْلَامِيَّةً بِحَقٍّ، ثُمَّ إِعَادَةِ الكِيَانِ الدَّوْلِيِّ لِلْأُمَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ بِإِحْيَاءِ الخِلَافَةِ، وَالِامْتِدَادِ بِرِسَالَةِ الإِسْلَامِ إِلَىٰ أُسْتَاذِيَّةِ العَالَمِ.

وَعَلَىٰ هَذَا يَأْتِي هَذَا الحَدِيثُ فِي خِتَامِ شَرْحِ رَسَائِلِ الإِمَامِ البَنَّا فِي الجزأين؛ لِيَكُونَ انْتِقَالًا مِنْ شَرْحِ الرَّسَائِلِ إِلَىٰ اسْتِخْلَاصِ مَنْهَجِ التَّغْيِيرِ الَّذِي تَكْشِفُ عَنْهُ فِي مَجْمُوعِهَا.

أَوَّلًا: مُنْطَلَقَاتُ مَنْهَجِ التَّغْيِيرِ

ثَانِيًا: مَرَاحِلُ التَّغْيِيرِ

ثَالِثًا: مُقَوِّمَاتُ إِنْجَازِ التَّغْيِيرِ:

1. وُضُوحُ الرُّؤْيَةِ وَبُعْدُ النَّظَرِ.
2. المَرُونَةُ فِي الفِكْرِ وَالحَرَكَةِ.
3. العَمَلُ المُنَظَّمُ وَالحَرَكَةُ الجَادَّةُ.
4. بِنَاءُ الرِّجَالِ وَتَوْظِيفُ الطَّاقَاتِ.
5. تَنَوُّعُ الوَسَائِلِ وَمُلَاءَمَتُهَا لِلْغَايَاتِ.
6. الحِكْمَةُ فِي إِدَارَةِ الحَرَكَةِ.

## أَوَّلًا: مُنْطَلَقَاتُ مَنْهَجِ التَّغْيِيرِ

انْطَلَقَ الإِمَامُ البَنَّا فِي مَنْهَجِهِ لِلْإِصْلَاحِ وَالتَّغْيِيرِ مِنْ فَهْمٍ شَامِلٍ لِلْإِسْلَامِ، لَا يَحْصُرُهُ فِي جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِ الحَيَاةِ، وَلَا يَفْصِلُ بَيْنَ الدِّينِ وَشُؤُونِ المُجْتَمَعِ وَالدَّوْلَةِ؛ فَكَانَ أَوَّلُ مَا عُنِيَ بِهِ تَصْحِيحَ الفِكْرَةِ؛ لِأَنَّ الفِكْرَ المَغْلُوطَ يُحْدِثُ فِي النَّفْسِ تَشَوُّشًا يُفْقِدُهَا الحَمَاسَةَ لِلْعَمَلِ.

وَقَدْ أَقَامَ هَذَا الفِكْرَ الصَّحِيحَ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ مَحَاوِرَ:

**أَوَّلُهَا**: فَهْمٌ وَاسِعٌ فَسِيحٌ بَعِيدٌ عَنْ مَوَاطِنِ الخِلَافِ؛ لِيَجْمَعَ وَلَا يُفَرِّقَ، وَيُخَفِّفَ مِنَ الغُلُوِّ، وَيَضْبِطَ المَسِيرَ.

**وَثَانِيهَا**: عَرْضُ هَذَا الفِكْرِ عَرْضًا لَائِقًا كَرِيمًا يَتَّفِقُ مَعَ رُوحِ العَصْرِ؛ فَلَا يُقَدَّمُ الإِسْلَامُ فِي صُورَةٍ تَعْزِلُهُ عَنِ الحَيَاةِ، وَإِنَّمَا يُقَدَّمُ بِوَصْفِهِ مَنْهَجًا يَسَعُ شُؤُونَ الفَرْدِ وَالمُجْتَمَعِ وَالدَّوْلَةِ.

**وَثَالِثُهَا**: تَطْبِيقُهُ تَطْبِيقًا عَادِلًا حَكِيمًا؛ فَلَا يَكُونُ المُرَادُ مُجَرَّدَ تَطْبِيقِ نُصُوصٍ أَوْ تَنْفِيذِ أَحْكَامٍ، وَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ التَّطْبِيقُ عِلَاجًا لِلنُّفُوسِ، وَإِصْلَاحًا لِلْحَيَاةِ، وَمُوَاجَهَةً حَكِيمَةً لِمَا يَعْتَرِضُ الأُمَّةَ مِنْ أَخْطَارٍ.

ثُمَّ لَمْ يَكْتَفِ بِتَصْحِيحِ الفِكْرَةِ، بَلْ جَعَلَ نَشْرَ الدَّعْوَةِ خُطْوَةً لَازِمَةً؛ فَالفِكْرَةُ

الصَّحِيحَةُ لَا تُؤَدِّي دَوْرَهَا مَا لَمْ تَخْرُجْ إِلَىٰ النَّاسِ، وَتَتَّصِلْ بِحَيَاتِهِمْ، وَتَصِلْ إِلَىٰ مُخْتَلَفِ فِئَاتِ الأُمَّةِ. وَلِذَلِكَ عَمِلَ عَلَىٰ نَشْرِ الفَهْمِ الصَّحِيحِ لِلْإِسْلَامِ، بَعْدَ أَنْ كَانَ مَحْصُورًا ـ فِي نَظَرِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ ـ فِي جَوَانِبَ مَحْدُودَةٍ مِنَ الحَيَاةِ.

وَمِنْ هُنَا كَانَ تَصْحِيحُ الفِكْرَةِ وَنَشْرُ الدَّعْوَةِ مُنْطَلَقَيْنِ أَسَاسِيَّيْنِ لِمَنْهَجِ التَّغْيِيرِ؛ فَالتَّغْيِيرُ يَبْدَأُ بِفِكْرَةٍ صَحِيحَةٍ، ثُمَّ بِحَمْلِ هَذِهِ الفِكْرَةِ إِلَىٰ النَّاسِ، وَمِنْ هُنَا يَبْدَأُ مَسَارُ العَمَلِ وَمَرَاتِبُهُ.

## ثَانِيًا: مَرَاحِلُ التَّغْيِيرِ

لَمْ يَكُنِ التَّغْيِيرُ عِنْدَ الإِمَامِ البَنَّا عَمَلًا دُفْعِيًّا، وَلَا انْتِقَالًا مُبَاشِرًا مِنَ الفِكْرَةِ إِلَىٰ السُّلْطَةِ، وَإِنَّمَا جَعَلَ لَهُ مَرَاتِبَ مُتَدَرِّجَةً، يَبْنِي بَعْضُهَا بَعْضًا، وَيُمَهِّدُ أَوَّلُهَا لِآخِرِهَا.

وَقَدْ حَدَّدَ هَذِهِ المَرَاتِبَ فِي سَبْعٍ:

### أَوَّلُهَا: إِصْلَاحُ الفَرْدِ

فَبِهِ يَبْدَأُ التَّغْيِيرُ؛ لِأَنَّ الفَرْدَ هُوَ أَصْلُ البِنَاءِ، وَإِصْلَاحُهُ يَشْمَلُ عَقِيدَتَهُ وَعِبَادَتَهُ وَخُلُقَهُ وَفِكْرَهُ وَسُلُوكَهُ، وَأَنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَىٰ حَمْلِ تَبِعَاتِ الدَّعْوَةِ وَالعَمَلِ.

### وَثَانِيهَا: تَكْوِينُ البَيْتِ المُسْلِمِ.

فَلَا يَبْقَىٰ الإِصْلَاحُ مَحْصُورًا فِي الفَرْدِ، بَلْ يَنْتَقِلُ إِلَىٰ البَيْتِ؛ لِيَكُونَ مَحْضِنًا لِلتَّرْبِيَةِ، وَبِيئَةً تُعِينُ عَلَىٰ الاسْتِقَامَةِ وَالعَمَلِ.

### وَثَالِثُهَا: إِرْشَادُ المُجْتَمَعِ.

ثُمَّ يَخْرُجُ أَثَرُ الفَرْدِ وَالبَيْتِ إِلَىٰ المُجْتَمَعِ، بِإِشَاعَةِ الخَيْرِ، وَمُحَارَبَةِ الرَّذَائِلِ، وَتَكْوِينِ رَأْيٍ عَامٍّ صَالِحٍ، وَرَبْطِ النَّاسِ بِقِيَمِ الإِسْلَامِ وَمَبَادِئِهِ.

### وَرَابِعُهَا: تَحْرِيرُ الوَطَنِ مِنْ كُلِّ سُلْطَانٍ أَجْنَبِيٍّ.

فَلَا تَكْتَمِلُ نَهْضَةُ الأُمَّةِ وَإِرَادَتُهَا مَسْلُوبَةٌ، وَلَا يَسْتَقِيمُ إِصْلَاحٌ شَامِلٌ مَعَ بَقَاءِ السَّيْطَرَةِ الأَجْنَبِيَّةِ عَلَىٰ شُؤُونِ الوَطَنِ وَمُقَدَّرَاتِهِ.

### وَخَامِسُهَا: إِصْلَاحُ الحُكُومَةِ.

حَتَّىٰ تَكُونَ الحُكُومَةُ مُعَبِّرَةً عَنْ إِرَادَةِ الأُمَّةِ، وَقَائِمَةً بِوَاجِبَاتِهَا فِي حِفْظِ الحُقُوقِ، وَإِقَامَةِ العَدْلِ، وَرِعَايَةِ مَصَالِحِ النَّاسِ.

### وَسَادِسُهَا: إِعَادَةُ الكِيَانِ الدَّوْلِيِّ لِلْأُمَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ.

وَذَلِكَ بِتَحْرِيرِ أَوْطَانِهَا، وَتَقْرِيبِ شُعُوبِهَا، وَجَمْعِ كَلِمَتِهَا، حَتَّىٰ يَؤَدِّيَ ذَلِكَ إِلَىٰ إِعَادَةِ الخِلَافَةِ المَفْقُودَةِ وَالوَحْدَةِ المَنْشُودَةِ.

### وَسَابِعُهَا: أُسْتَاذِيَّةُ العَالَمِ.

وَهِيَ الغَايَةُ الأَبْعَدُ فِي هَذَا المَسَارِ، بِحَمْلِ رِسَالَةِ الإِسْلَامِ إِلَىٰ العَالَمِ، وَتَقْدِيمِ مَا فِيهَا مِنْ هِدَايَةٍ وَعَدْلٍ وَرَحْمَةٍ لِلنَّاسِ جَمِيعًا.

وَبِهَذَا تَبْدَأُ مَرَاتِبُ التَّغْيِيرِ بِإِصْلَاحِ الفَرْدِ، ثُمَّ تَتَّسِعُ دَائِرَتُهَا شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّىٰ تَبْلُغَ المُجْتَمَعَ وَالوَطَنَ وَالحُكْمَ وَالأُمَّةَ وَالعَالَمَ؛ وَهُوَ مَا يَكْشِفُ عَنْ طَبِيعَةِ المَنْهَجِ المُتَدَرِّجِ الَّذِي لَا يَقْفِزُ إِلَىٰ النِّهَايَاتِ قَبْلَ بِنَاءِ مُقَدِّمَاتِهَا.

## ثَالِثًا: مُقَوِّمَاتُ إِنْجَازِ التَّغْيِيرِ

لَمْ يَكْتَفِ الإِمَامُ البَنَّا بِتَحْدِيدِ مَرَاتِبِ العَمَلِ وَرَسْمِ طَرِيقِ التَّغْيِيرِ، بَلْ أَقَامَ هَذَا المَنْهَجَ عَلَىٰ جُمْلَةٍ مِنَ المُقَوِّمَاتِ الَّتِي تَضْمَنُ حُسْنَ السَّيْرِ فِيهِ، وَتُعِينُ عَلَىٰ تَحْوِيلِ الفِكْرَةِ مِنْ تَصَوُّرٍ نَظَرِيٍّ إِلَىٰ عَمَلٍ وَاقِعِيٍّ مُؤَثِّرٍ.

### 1- وُضُوحُ الرُّؤْيَةِ وَبُعْدُ النَّظَرِ

وَقَدْ أَقَامَ الإِمَامُ البَنَّا هَذِهِ الرُّؤْيَةَ عَلَىٰ **قَاعِدَتَيْنِ**:

أُولَاهُمَا: أَنَّ التَّكْفِيرَ لَا يَلْزَمُ لَا دِينًا وَلَا سِيَاسَةً.

وَثَانِيَتُهُمَا: أَنَّ خَرْقَ العَوَائِدِ غَيْرُ مُنْتَظَرٍ.

فَأَمَّا **القَاعِدَةُ الأُولَىٰ**، فَقَدْ جَعَلَتْهُ يَبْتَعِدُ عَنْ مَوَاطِنِ الخِلَافِ الَّتِي تُفَرِّقُ الأُمَّةَ

وَتَسْتَنْزِفُ جُهْدَهَا، وَيَحْرِصُ عَلَىٰ وَاضِحَاتِ الدِّينِ وَغَايَاتِهِ الكُبْرَىٰ، وَعَلَىٰ جَمْعِ النَّاسِ حَوْلَ مَا يَتَّفِقُونَ عَلَيْهِ؛ فَقَدْ كَانَ يُرِيدُ **أَنْ يُوَحِّدَ مِنْ فُرْقَةٍ، وَأَنْ يُخَفِّفَ مِنْ غُلُوٍّ، وَأَنْ يَضْبِطَ المَسِيرَ**.

وَأَمَّا **القَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ**، فَقَدْ ضَبَطَتْ نَظَرَتَهُ إِلَىٰ طَبِيعَةِ التَّغْيِيرِ؛ فَلَمْ يَنْتَظِرْ نُقْلَةً فُجَائِيَّةً، وَلَمْ يَبْنِ مَنْهَجَهُ عَلَىٰ القَفْزِ فَوْقَ السُّنَنِ وَالمَرَاحِلِ، وَإِنَّمَا كَانَ يَرَىٰ أَنَّ التَّغَيُّرَاتِ الفُجَائِيَّةَ لَا تَدُومُ، وَأَنَّ الأَصْلَ هُوَ الزَّحْفُ البَطِيءُ الَّذِي لَا يُقَاوَمُ.

وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الرُّؤْيَةُ وَضُوحًا فِي الغَايَةِ فَحَسْبُ، بَلْ كَانَتْ وَضُوحًا فِي **تَرْتِيبِ الخُطُوَاتِ وَتَهْيِئَةِ الأَسْبَابِ**؛ فَكَانَ ـ كَمَا يَقُولُ المُحَاضِرُ ـ رَجُلَ حَقَائِقَ، إِذَا أَرَادَ شَيْئًا هَيَّأَ لَهُ أَسْبَابَهُ، وَكَانَتْ كُلُّ خُطْوَةٍ عِنْدَهُ تُمَهِّدُ لِمَا بَعْدَهَا.

وَمِنْ هُنَا اقْتَرَنَ **وُضُوحُ الرُّؤْيَةِ بِبُعْدِ النَّظَرِ**؛ فَلَا يَنْظُرُ إِلَىٰ المَوْقِفِ فِي لَحْظَتِهِ فَقَطْ، بَلْ إِلَىٰ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ، وَلَا يَسْتَعْجِلُ النَّتِيجَةَ قَبْلَ أَنْ تَنْضَجَ مُقَدِّمَاتُهَا.

## 2- المَرُونَةُ فِي الفِكْرِ وَالحَرَكَةِ

وَقَدْ أَقَامَ الإِمَامُ البَنَّا هَذِهِ المَرُونَةَ عَلَىٰ قَاعِدَتَيْنِ:

أُولَاهُمَا: لَا نُقَيِّدُ أَنْفُسَنَا بِغَيْرِ مَا قَيَّدَنَا اللهُ بِهِ.

وَثَانِيَتُهُمَا: لَا نُلْزِمُ عَصْرَنَا لَوْنَ عَصْرٍ لَا يَتَّفِقُ مَعَهُ، وَالإِسْلَامُ دِينُ البَشَرِيَّةِ جَمِيعًا.

وَمِنْ هُنَا لَمْ يَكُنِ الخَلَلُ عِنْدَهُ فِي ضَوَابِطِ الشَّرْعِ، وَإِنَّمَا فِي اجْتِهَادَاتِ العَقْلِ، فَجَمَعَ بَيْنَ الثَّبَاتِ عَلَىٰ الأُصُولِ وَالمَرُونَةِ فِي التَّنْزِيلِ وَالحَرَكَةِ، وَاسْتَفَادَ مِنْ تَجَارِبِ عَصْرِهِ وَمَا شَاعَ فِيهِ مِنْ أَفْكَارٍ وَتَنْظِيمَاتٍ، دُونَ أَنْ يَفْقِدَ مَرْجِعِيَّتَهُ وَوُجْهَتَهُ.

وَتَجَلَّتْ هَذِهِ العَقْلِيَّةُ المَرِنَةُ فِي أَمْرَيْنِ:

**أَوَّلُهُمَا: حُسْنُ التَّعَامُلِ مَعَ القَضَايَا الشَّائِكَةِ وَمَوَاطِنِ الخِلَافِ.**

فَقَدْ وَاجَهَ قَضَايَا عَقَدِيَّةً وَفِقْهِيَّةً وَسِيَاسِيَّةً شَائِكَةً بِطَرِيقَةٍ عِلْمِيَّةٍ هَادِئَةٍ، تَبْتَعِدُ عَنِ الغُلُوِّ،

وَتَحُولُ دُونَ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ القَضَايَا سَبَبًا فِي الفُرْقَةِ وَتَعْطِيلِ المَسِيرِ. وَظَهَرَ ذَلِكَ فِي مَوَاقِفِهِ مِنَ الحُكْمِ وَالدُّسْتُورِ وَالأَزْهَرِ وَالخِلَافَةِ وَغَيْرِهَا؛ إِذْ كَانَ يَبْحَثُ عَنِ المَوْقِفِ الَّذِي يَحْفَظُ الأُصُولَ وَيُرَاعِي ظُرُوفَ الوَاقِعِ فِي آنٍ وَاحِدٍ.

**وَثَانِيهِمَا: المَرُونَةُ فِي إِدَارَةِ المَوْقِفِ وَاختِيَارِ الأُسْلُوبِ.**

فَلَمْ يَجْعَلْ لِكُلِّ الظُّرُوفِ جَوَابًا وَاحِدًا، وَلَا لِكُلِّ الخُصُومِ أُسْلُوبًا وَاحِدًا؛ بَلْ كَانَ يَتَحَرَّكُ فِي مَسَاحَةٍ وَاسِعَةٍ مِنَ الخِيَارَاتِ، وَيَخْتَارُ مِنْهَا مَا يَحْفَظُ الدَّعْوَةَ وَيُقَرِّبُهَا مِنْ غَايَاتِهَا، مِنْ غَيْرِ تَنَازُلٍ عَنِ الأُصُولِ، وَلَا ارْتِطَامٍ لَا تَحْتَمِلُهُ الظُّرُوفُ.

وَبِهَذِهِ المَرُونَةِ اسْتَطَاعَ أَنْ يُدِيرَ مَوَاقِفَ مُعَقَّدَةً مَحَلِّيًّا وَإِقْلِيمِيًّا وَدَوْلِيًّا، وَأَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ صَلَابَةِ المَبْدَإِ وَمَرُونَةِ الحَرَكَةِ، وَبَيْنَ وُضُوحِ الغَايَةِ وَتَنَوُّعِ السُّبُلِ المُؤَدِّيَةِ إِلَيْهَا.

## 3- العَمَلُ المُنَظَّمُ وَالحَرَكَةُ الجَادَّةُ

وَقَدْ أَقَامَ الإِمَامُ البَنَّا هَذِهِ الحَرَكَةَ عَلَىٰ قَاعِدَتَيْنِ: عَمَلٍ مُنَظَّمٍ، تَضْطَلِعُ بِهِ المَلَايِينُ.

فَأَمَّا العَمَلُ المُنَظَّمُ، فَلِأَنَّ كُلَّ كِفَاحٍ نَاجِحٍ لَا بُدَّ أَنْ يَقُومَ عَلَىٰ نِظَامٍ يَحْتَرِمُهُ الجَمِيعُ، وَخُطَطٍ مُحْكَمَةٍ، وَقِيَادَةٍ مَعْرُوفَةِ الصِّفَةِ، وَمَرْجِعِيَّةٍ تَرْفَعُ الخِلَافَ وَتَضْبِطُ الحَرَكَةَ.

وَالنِّظَامُ عِنْدَهُ لَيْسَ لَوَائِحَ وَقَوَانِينَ فَحَسْبُ، وَإِنَّمَا هُوَ أَيْضًا خُطُوَاتٌ مُرَتَّبَةٌ، كُلُّ خُطْوَةٍ تُؤَدِّي إِلَىٰ الَّتِي تَلِيهَا، وَلَا وَقْتَ لِلضَّيَاعِ، مَعَ اخْتِيَارِ اللَّحْظَةِ المُنَاسِبَةِ لِلْحَرَكَةِ؛ لِأَنَّ النَّجَاحَ لَا يَقُومُ عَلَىٰ دِقَّةِ الخُطَّةِ وَحْدَهَا، بَلْ عَلَىٰ حُسْنِ تَوْقِيتِهَا أَيْضًا.

وَأَمَّا اضْطِلَاعُ المَلَايِينِ بِهَذَا العَمَلِ المُنَظَّمِ، فَلِأَنَّ مَشْرُوعَ التَّغْيِيرِ لَا يَقُومُ بِطَاقَةِ فَرْدٍ، وَلَا بِجُهْدِ فِئَةٍ مَحْدُودَةٍ، وَإِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ طَاقَاتِ الأُمَّةِ؛ فَالمَسْؤُولِيَّةُ عَامَّةٌ، وَعِبْءُ النَّهْضَةِ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ تَحْمِلَهُ جُهُودٌ مُتَفَرِّقَةٌ.

وَمِنْ هُنَا اقْتَرَنَتِ الحَرَكَةُ الجَادَّةُ بِالعَمَلِ المُنَظَّمِ؛ فَلَا حَمَاسَةَ بِلَا نِظَامٍ، وَلَا نِظَامَ بِلَا حَرَكَةٍ، وَلَا حَرَكَةَ نَاجِحَةَ بِلَا أُمَّةٍ تَحْمِلُهَا وَتُؤْمِنُ بِهَا وَتَضْطَلِعُ بِتَبِعَاتِهَا.

## 4- بِنَاءُ الرِّجَالِ وَتَوْظِيفُ الطَّاقَاتِ

وَقَدْ أَقَامَ الإِمَامُ البَنَّا هَذَا الجَانِبَ عَلَىٰ قَاعِدَتَيْنِ: العَنَاصِرِ الصَّالِحَةِ، وَكِبَارِ الأُمَّةِ وَرِجَالِهَا البَارِزِينَ.

فَأَمَّا **العَنَاصِرُ الصَّالِحَةُ**، فَلِأَنَّ مَنْهَجَ التَّغْيِيرِ لَا يَنْهَضُ بِالأَفْكَارِ وَالخُطَطِ وَحْدَهَا، وَإِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ رِجَالٍ أُعِدُّوا لِحَمْلِهَا، وَأُحْسِنَ تَكْوِينُهُمْ، وَتَعَهُّدُهُمْ، وَتَوْجِيهُهُمْ؛ لِيَعْرِفُوا الوَاجِبَ، وَيُقَدِّرُوا التَّبِعَةَ، وَيُحْسِنُوا العَمَلَ فِي مَوَاضِعِهِ.

وَلِذَلِكَ اهْتَمَّ الإِمَامُ البَنَّا بِهَذِهِ العَنَاصِرِ، يُعَلِّمُهَا وَيُرْشِدُهَا لِتَخْتَارَ الصَّوَابَ، وَيَتَعَهَّدُهَا وَيَرْعَاهَا لِتُؤَدِّيَ الوَاجِبَ، وَيُنَظِّمُهَا وَيُرَاقِبُهَا لِتَعْرِفَ مَعْنَىٰ النِّظَامِ وَتُقَدِّرَ المَسْؤُولِيَّةَ.

وَلَمْ يَكُنِ المَقْصُودُ أَنْ تَتَشَابَهَ الطَّاقَاتُ وَالأَدْوَارُ، وَإِنَّمَا أَنْ يُوَضَعَ كُلُّ رَجُلٍ فِي المَكَانِ الَّذِي يُحْسِنُ فِيهِ العَمَلَ، وَأَنْ تُسْتَثْمَرَ القُدُرَاتُ وَلَا تُعَطَّلَ؛ فَحُسْنُ بِنَاءِ الرِّجَالِ يَقْتَرِنُ بِحُسْنِ تَوْظِيفِهِمْ.

وَأَمَّا **كِبَارُ الأُمَّةِ وَرِجَالُهَا البَارِزُونَ**، فَلِأَنَّ مَشْرُوعَ النَّهْضَةِ لَا تَسْتَقِلُّ بِهِ جَمَاعَةٌ وَحْدَهَا، وَإِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ كُلِّ طَاقَةٍ صَالِحَةٍ فِي الأُمَّةِ؛ وَلِهَذَا حَرَصَ الإِمَامُ البَنَّا عَلَىٰ **أَنْ يُخَاطِبَ الجَمِيعَ، وَيَتَّصِلَ بِالجَمِيعِ، وَيَلُمَّ شَتَاتَ الجَمِيعِ**، وَأَنْ يَسْتَكْشِفَ مَا فِي النَّاسِ مِنْ طَاقَاتٍ وَهِمَمٍ وَاسْتِعْدَادَاتٍ.

فَلَيْسَ بِنَاءُ الرِّجَالِ عِنْدَهُ إِعْدَادَ أَفْرَادٍ فَحَسْبُ، بَلْ هُوَ اكْتِشَافٌ لِلطَّاقَاتِ، وَتَرْبِيَةٌ لَهَا، وَوَضْعٌ لِكُلِّ طَاقَةٍ فِي مَوْضِعِهَا، وَاسْتِفَادَةٌ مِنْ كُلِّ قُوَّةٍ صَالِحَةٍ فِي الأُمَّةِ.

## 5- تَنَوُّعُ الوَسَائِلِ وَمُلَاءَمَتُهَا لِلْغَايَاتِ

وَقَدْ أَقَامَ الإِمَامُ البَنَّا الوَسَائِلَ عَلَىٰ قَاعِدَتَيْنِ: الجُهُودِ الذَّاتِيَّةِ، وَالوَسَائِلِ الرَّسْمِيَّةِ، وَضَبَطَهَا بِضَابِطَيْنِ: أَنْ تَكُونَ سَائِغَةً شَرْعًا، وَمُكَافِئَةً لِأَسْلِحَةِ الخُصُومِ، مُنَاسِبَةً لِلْعَصْرِ.

فَأَمَّا **الجُهُودُ الذَّاتِيَّةُ**، فَتَبْدَأُ مِنَ الدَّاعِيَةِ نَفْسِهِ: مِنْ أُسْلُوبٍ بَسِيطٍ مُبَاشِرٍ، وَحُضُورٍ مُشْرِقٍ مُحَبَّبٍ، وَقُدْرَةٍ عَلَىٰ مُخَاطَبَةِ النَّاسِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ بِيئَاتِهِمْ وَمُسْتَوَيَاتِهِمْ؛ حَتَّىٰ

تَصِلَ الفِكْرَةُ إِلَىٰ البَسِيطِ وَالمُثَقَّفِ، وَإِلَىٰ العَامَّةِ وَالخَاصَّةِ، مِنْ غَيْرِ تَعْقِيدٍ أَوْ تَكَلُّفٍ.

وَقَدْ كَانَ الجَانِبُ العَمَلِيُّ عِنْدَهُ مُقَدَّمًا عَلَىٰ التَّوَسُّعِ النَّظَرِيِّ؛ فَكَانَ يَرَىٰ أَنَّ مَوَادَّ المَنْهَجِ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ قَلِيلَةً بِقَدْرِ الإِمْكَانِ، **عَمَلِيَّةً بَحْتَةً مَلْمُوسَةَ النَّتَائِجِ مَهْمَا قَلَّتْ**.

وَكَانَ مِنْ هَذِهِ الجُهُودِ أَيْضًا حُسْنُ اخْتِيَارِ الرِّجَالِ، وَقُدْرَةُ المُعَلِّمِ عَلَىٰ تَوْجِيهِهِمْ وَتَوْزِيعِ الأَدْوَارِ عَلَيْهِمْ؛ فَالبَرَامِجُ وَحْدَهَا لَا تَكْفِي، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ مُعَلِّمٍ قَادِرٍ وَتَلَامِيذَ مُخْلِصِينَ.

وَأَمَّا **الوَسَائِلُ الرَّسْمِيَّةُ**، فَلَمْ يَرَ الإِمَامُ البَنَّا أَنَّ الإِصْلَاحَ يَقِفُ عِنْدَ الوَعْظِ وَالإِرْشَادِ، بَلْ يَحْتَاجُ إِلَىٰ الوُصُولِ إِلَىٰ المَوَاقِعِ وَالمُؤَسَّسَاتِ الَّتِي تَصْنَعُ الرَّأْيَ العَامَّ وَتُوَجِّهُ حَيَاةَ النَّاسِ، كَالمَدْرَسَةِ وَالصَّحِيفَةِ وَالبَرْلَمَانِ وَالوِزَارَةِ وَالمَحْكَمَةِ وَغَيْرِهَا؛ لِأَنَّ هَذِهِ الوَسَائِلَ **أَشَدُّ خَطَرًا وَأَقْوَىٰ أَثَرًا فِي تَكْيِيفِ النَّهَضَاتِ وَتَوْجِيهِ الشُّعُوبِ**.

وَبِهَذَا لَمْ تَكُنِ الوَسِيلَةُ عِنْدَهُ شَيْئًا ثَابِتًا لَا يَتَغَيَّرُ، وَإِنَّمَا المِعْيَارُ أَنْ تَكُونَ **مَشْرُوعَةً، وَمُلَائِمَةً لِلْعَصْرِ، وَقَادِرَةً عَلَىٰ بُلُوغِ الغَايَةِ**؛ فَتَتَنَوَّعُ الوَسَائِلُ مَعَ ثَبَاتِ المَقَاصِدِ، وَتَتَغَيَّرُ الأَسَالِيبُ مَعَ بَقَاءِ الأُصُولِ.

## 6- الحِكْمَةُ فِي إِدَارَةِ الحَرَكَةِ

وَقَدْ أَقَامَ الإِمَامُ البَنَّا هَذَا الجَانِبَ عَلَىٰ **قَاعِدَتَيْنِ: تَقْلِيلِ الخَطَإِ، وَاغْتِنَامِ الفُرَصِ**؛ لِأَنَّ الخَطَأَ يَسْتَنْفِدُ جُزْءًا مِنْ طَاقَةِ الدَّعْوَةِ، وَيُحَمِّلُهَا مِنَ الآلَامِ وَالتَّبِعَاتِ مَا يُمْكِنُ تَجَنُّبُهُ، وَلِأَنَّ الفُرَصَ تَسْنَحُ وَتَمْضِي، وَإِذَا مَضَتْ فَقَدْ لَا تَعُودُ إِلَّا بَعْدَ حِينٍ.

فَأَمَّا **تَقْلِيلُ الخَطَإِ**، فَلِأَنَّ الحَرَكَةَ الَّتِي تَسْعَىٰ إِلَىٰ تَغْيِيرٍ بَعِيدِ المَدَىٰ لَا تَمْلِكُ أَنْ تُهْدِرَ طَاقَتَهَا فِي مُغَامَرَاتٍ غَيْرِ مَحْسُوبَةٍ، وَلَا أَنْ تَجْعَلَ مِنَ الحَمَاسَةِ بَدِيلًا عَنِ التَّقْدِيرِ وَالحِسَابِ. وَلِذَلِكَ كَانَ يَرَىٰ أَنَّ إِدَارَةَ الصِّرَاعِ تَحْتَاجُ إِلَىٰ خِيَارَاتٍ وَاسِعَةٍ، لَا إِلَىٰ خِيَارٍ وَاحِدٍ يَقُومُ عَلَىٰ المُقَامَرَةِ بِالشِّعَارِ وَالمُغَامَرَةِ بِالجُهُودِ.

وَمِنْ هُنَا لَمْ يَكُنْ يَرَىٰ طَرِيقَ التَّغْيِيرِ انْقِلَابًا فُجَائِيًّا عَلَىٰ السُّلْطَةِ، وَلَا ثَوْرَةً هَوْجَاءَ

لَا غَايَةَ لَهَا وَلَا ضَابِطَ، وَإِنَّمَا عَمَلًا يَقُومُ عَلَىٰ تَكْوِينِ رَأْيٍ عَامٍّ، وَبِنَاءِ قُوَّةٍ مُجْتَمَعِيَّةٍ، وَزَحْفٍ بَطِيءٍ لَا يُقَاوَمُ؛ لِأَنَّ التَّغَيُّرَاتِ الفُجَائِيَّةَ لَا تَدُومُ.

وَأَمَّا **اغْتِنَامُ الفُرَصِ**، فَلِأَنَّ النَّجَاحَ لَا يَقُومُ عَلَىٰ صِحَّةِ الخُطَّةِ وَحْدَهَا، بَلْ عَلَىٰ حُسْنِ اخْتِيَارِ الوَقْتِ وَالمَوْقِفِ أَيْضًا؛ فَقَدْ تَكُونُ الوَسِيلَةُ صَحِيحَةً فِي ذَاتِهَا، وَلَكِنَّهَا لَا تَكُونُ مُنَاسِبَةً فِي كُلِّ وَقْتٍ وَلَا فِي كُلِّ ظَرْفٍ.

وَلِذَلِكَ تَنَوَّعَتِ الأَسَالِيبُ عِنْدَهُ بِحَسَبِ المَوْقِفِ وَالظُّرُوفِ؛ فَكَانَ يَلْجَأُ إِلَىٰ **المُنَاوَرَةِ وَالمُدَارَاةِ** حِينَ تَكُونَانِ سَبِيلًا إِلَىٰ عُبُورِ الدَّعْوَةِ مِنْ غَيْرِ ارْتِطَامٍ لَا تَحْتَمِلُهُ، وَإِلَىٰ **التَّحَمُّلِ وَالكِفَاحِ** حِينَ تُفْرَضُ المُوَاجَهَةُ، وَإِلَىٰ **التَّفَاوُضِ وَالحِوَارِ** حِينَ تَسْنَحُ الفُرْصَةُ؛ فَالمَقْصُودُ لَيْسَ التَّعَلُّقَ بِوَسِيلَةٍ وَاحِدَةٍ، وَإِنَّمَا حُسْنُ إِدَارَةِ الحَرَكَةِ فِي ضَوْءِ الغَايَةِ وَالوَاقِعِ وَمَوَازِينِ القُوَىٰ.

وَبِهَذَا كَانَتِ الحِكْمَةُ فِي إِدَارَةِ الحَرَكَةِ عِنْدَ الإِمَامِ البَنَّا قَائِمَةً عَلَىٰ تَقْلِيلِ الخَسَائِرِ، وَتَوْسِيعِ الخِيَارَاتِ، وَحُسْنِ تَقْدِيرِ المَوْقِفِ، وَاغْتِنَامِ الفُرَصِ، وَتَجَنُّبِ المُغَامَرَةِ الَّتِي لَا تُرَاعِي العَوَاقِبَ.

وَمِنْ هُنَا يَتَّضِحُ أَنَّ نَجَاحَ مَنْهَجِ التَّغْيِيرِ لَمْ يَقُمْ عَلَىٰ صِحَّةِ الفِكْرَةِ وَحْدَهَا، بَلْ عَلَىٰ وُضُوحِ الرُّؤْيَةِ، وَمَرُونَةِ العَقْلِ وَالحَرَكَةِ، وَالعَمَلِ المُنَظَّمِ، وَبِنَاءِ الرِّجَالِ، وَتَنَوُّعِ الوَسَائِلِ، وَالحِكْمَةِ فِي إِدَارَةِ المَوَاقِفِ وَالفُرَصِ.

## خُلَاصَةُ المَنْهَجِ

يَتَبَيَّنُ مِنْ خِلَالِ رَسَائِلِ الإِمَامِ البَنَّا أَنَّ مَنْهَجَ التَّغْيِيرِ لَا يَقُومُ عَلَىٰ خُطْوَةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَا عَلَىٰ وَسِيلَةٍ مُنْفَرِدَةٍ، وَإِنَّمَا هُوَ بِنَاءٌ مُتَكَامِلٌ، يَبْدَأُ مِنْ تَصْحِيحِ الفِكْرَةِ وَنَشْرِ الدَّعْوَةِ، ثُمَّ يَمْضِي فِي مَرَاتِبَ عَمَلٍ مُتَدَرِّجَةٍ، وَتَحْكُمُهُ جُمْلَةٌ مِنَ المُقَوِّمَاتِ الَّتِي تَضْبِطُ حَرَكَتَهُ وَتُعِينُ عَلَىٰ إِنْجَازِهِ.

فَأَمَّا مَرَاتِبُ العَمَلِ، فَتَبْدَأُ بِإِصْلَاحِ الفَرْدِ، ثُمَّ تَكْوِينِ البَيْتِ المُسْلِمِ، ثُمَّ إِرْشَادِ

المُجْتَمَع، ثُمَّ تَحْرِيرِ الوَطَنِ مِنْ كُلِّ سُلْطَانٍ أَجْنَبِيٍّ، ثُمَّ إِصْلَاحِ الحُكُومَةِ، ثُمَّ إِعَادَةِ الكِيَانِ الدَّوْلِيِّ لِلْأُمَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ بِإِحْيَاءِ الخِلَافَةِ، حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ إِلَىٰ أُسْتَاذِيَّةِ العَالَمِ بِنَشْرِ دَعْوَةِ الإِسْلَامِ فِي رُبُوعِهِ.

وَلَا يَسِيرُ هَذَا المَسَارُ بِمُجَرَّدِ تَرْتِيبِ مَرَاحِلِهِ، بَلْ يَحْتَاجُ إِلَىٰ جُمْلَةٍ مِنَ المُقَوِّمَاتِ الَّتِي تُلَازِمُهُ فِي مَرَاحِلِهِ جَمِيعًا: وُضُوحِ الرُّؤْيَةِ وَبُعْدِ النَّظَرِ، وَالمَرُونَةِ فِي الفِكْرِ وَالحَرَكَةِ، وَالعَمَلِ المُنَظَّمِ وَالحَرَكَةِ الجَادَّةِ، وَبِنَاءِ الرِّجَالِ وَتَوْظِيفِ الطَّاقَاتِ، وَتَنَوُّعِ الوَسَائِلِ وَمُلَاءَمَتِهَا لِلْغَايَاتِ، وَالحِكْمَةِ فِي إِدَارَةِ الحَرَكَةِ.

وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ التَّغْيِيرَ فِي هَذَا المَنْهَجِ لَيْسَ انْقِلَابًا فُجَائِيًّا فِي مَوَازِينِ السُّلْطَةِ، وَلَا عَمَلًا مَوْسِمِيًّا تَفْرِضُهُ الأَحْدَاثُ، وَإِنَّمَا هُوَ عَمَلِيَّةُ بِنَاءٍ مُتَدَرِّجَةٌ، تَبْدَأُ بِالفِكْرَةِ وَالإِنْسَانِ، وَتَمْتَدُّ إِلَىٰ البَيْتِ وَالمُجْتَمَعِ وَالوَطَنِ وَالدَّوْلَةِ وَالأُمَّةِ، وَتُرَاعِي السُّنَنَ وَالإِمْكَانَاتِ وَالمَرَاحِلَ، حَتَّىٰ يَصْبِحَ التَّغْيِيرُ ثَمَرَةً طَبِيعِيَّةً لِبِنَاءٍ سَبَقَهُ وَمَهَّدَ لَهُ.

وَبِهَذَا تَكْشِفُ رَسَائِلُ الإِمَامِ البَنَّا ـ عِنْدَ جَمْعِهَا وَالنَّظَرِ إِلَيْهَا فِي نَسَقٍ وَاحِدٍ ـ عَنْ مَنْهَجٍ فِي التَّغْيِيرِ يَجْمَعُ بَيْنَ صِحَّةِ الفِكْرَةِ، وَبِنَاءِ الإِنْسَانِ، وَتَنْظِيمِ الجُهُودِ، وَتَدَرُّجِ المَرَاحِلِ، وَحُسْنِ اسْتِخْدَامِ الوَسَائِلِ، وَالوَعْيِ بِالوَاقِعِ وَمَوَازِينِ القُوَىٰ؛ لِتَتَحَوَّلَ المَبَادِئُ مِنْ مَعَانٍ تُقْرَأُ إِلَىٰ حَقَائِقَ تُبْنَىٰ فِي وَاقِعِ الحَيَاةِ.

***

# خاتمة «في ظلال الرسائل»

بِهَـذَا نَكُـونُ قَـدْ أَتْمَمْنَـا صُحْبَتَنَـا مَـعَ رَسَـائِلِ الْإِمَـامِ حَسَـنِ الْبَنَّـا فِـي كِتَابَـيْ «فِـي ظِـلَالِ الرَّسَـائِلِ»، وَحَاوَلْنَـا أَنْ نَقْرَأَهَـا قِـرَاءَةً تَتَجَـاوَزُ شَـرْحَ الْعِبَـارَاتِ وَتَوْضِيـحَ الْمَعَانِـي إِلَـىٰ الْكَشْـفِ عَمَّـا تَحْمِلُـهُ مِـنْ رُؤًىٰ وَمَبَـادِئَ وَمَنَاهِـجَ فِي الدَّعْـوَةِ وَالتَّرْبِيَةِ وَالْإِصْـلَاحِ وَالتَّغْيِيرِ.

وَقَـدْ تَبَيَّـنَ مِـنْ خِـلَالِ هَـذِهِ الرِّحْلَـةِ أَنَّ الرَّسَـائِلَ ـ عَلَـىٰ تَنَـوُّعِ مَوْضُوعَاتِهَـا وَاخْتِـلَافِ مُنَاسَـبَاتِهَا ـ يَجْمَعُهَـا نَسَـقٌ وَاحِـدٌ، وَتَنْتَظِمُهَـا رُؤْيَـةٌ مُتَكَامِلَـةٌ، تَبْـدَأُ بِتَصْحِيـحِ الفَهْـمِ، وَبِنَـاءِ الإِنْسَـانِ، وَتَرْبِيَـةِ الإِرَادَةِ، وَتَمْتَـدُّ إِلَـىٰ بِنَـاءِ الجَمَاعَـةِ، وَإِصْـلَاحِ الأُمَّـةِ، وَإِقَامَـةِ نِظَـامِ الحَيَـاةِ عَلَـىٰ مَبَـادِئِ الإِسْـلَامِ وَقِيَمِـهِ.

وَلَعَـلَّ أَهَـمَّ مَـا تُفْضِـي إِلَيْـهِ هَـذِهِ القِـرَاءَةُ أَنَّ رَسَـائِلَ الإِمَـامِ البَنَّـا لَا يَنْبَغِـي أَنْ تُقْـرَأَ بَوَصْفِهَا نُصُوصًـا تَارِيخِيَّـةً ارْتَبَطَـتْ بِمَرْحَلَـةٍ مَضَـتْ فَحَسْـبُ، بَـلْ بِوَصْفِهَـا تَجْرِبَةً فِـي الفَهْـمِ وَالتَّرْبِيَةِ وَبِنَـاءِ الحَرَكَـةِ وَإِدَارَةِ التَّغْيِيـرِ، تَحْتَـاجُ فِـي كُلِّ عَصْـرٍ إِلَـىٰ فَهْـمِ مَقَاصِدِهَـا، وَتَمْيِيـزِ ثَوَابِتِهَـا مِـنْ وَسَـائِلِهَا، وَالإِفَـادَةِ مِنْهَـا فِـي ضَـوْءِ مُتَغَيِّـرَاتِ الوَاقِـعِ وَتَحَدِّيَاتِـهِ.

وَمِـنْ هُنَـا كَانَ المَقْصُـودُ مِـنْ هَـذِهِ الصُّحْبَـةِ أَلَّا نَقِـفَ عِنْـدَ حُـدُودِ النَّـصِّ، بَـلْ أَنْ نَنْفُـذَ إِلَىٰ مَنْهَجِـهِ وَرُوحِـهِ، وَأَلَّا نَكْتَفِـيَ بِمَـا قَالَـهُ الإِمَـامُ البَنَّـا، بَـلْ نَتَبَيَّـنَ كَيْـفَ كَانَ يُفَكِّـرُ، وَكَيْـفَ رَتَّـبَ مَرَاحِـلَ العَمَـلِ، وَكَيْـفَ رَبَـطَ بَيْـنَ صَـلَاحِ الفَرْدِ وَنُهُـوضِ الأُمَّـةِ، وَبَيْـنَ التَّرْبِيَـةِ وَالتَّغْيِيرِ.

وَتَبْقَـىٰ هَـذِهِ الرَّسَـائِلُ مَـادَّةً مَفْتُوحَـةً لِلْقِـرَاءَةِ وَالتَّأَمُّـلِ وَالِاسْـتِنْبَاطِ، كُلَّمَـا أُعِيـدَ النَّظَـرُ فِيهَا مِـنْ زَاوِيَـةٍ جَدِيـدَةٍ كَشَـفَتْ عَـنْ مَعْنًـىٰ، وَدَلَّـتْ عَلَـىٰ مَعْلَـمٍ، وَأَضَـاءَتْ جَانِبًـا مِـنْ جَوَانِـبِ مَشْـرُوعِ الإِصْـلَاحِ وَالنُّهُـوضِ.

وَآخِرُ دَعوَانَا أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ

# المحتويات


**مُقدِّمَةُ الجُزءِ الثَّانِي ..... 5**

**رِسَالَةُ « إِلَىٰ أَيّ شَيءٍ نَدْعُو النَّاسَ» ..... 9**

مُقدِّمَة ..... 10

الرُّوحُ الْعَامَّةُ للرِّسَالَة ..... 10

مَحَاوِرُ شَرْحِ الرِّسَالَة ..... 11

أَوَّلًا: الإِسْلامُ قَاعِدَةُ الانْطِلَاقِ الصَّحِيحَ ة ..... 12

ثَانِيًا: غَايَتُنَا ..... 13

ثَالِثًا: وَاجِبَاتٌ غَفَلَ النّاسُ عَنْهَا ..... 15

رَابِعًا: عِبَادَةُ رَبِّكُمْ: تَحْقِيقُ جَوْهَرِ الْعُبُودِيَّة ..... 18

خَامِسًا: التمْكِينُ لِدِينِكُمْ.. نَحنُ وَالسُّلطَة ..... 20

سَادِسًا: تَرْبِيَةُ الْأُمَّةِ قَبْلَ تَوَلِّي السُّلْطَة ..... 21

سابِعًا: عِبرَةُ التَّارِيخِ فِي استِعْجَالُ السُّلطَة ..... 22

ثامِنًا: لِمَاذا يُسَارِعُ الناسُ إِلَىٰ السُّلْطَةِ ؟ ..... 23

تاسِعًا: شُرُوطُ التَّأَهُّلِ لِتَوَلِّي السُّلْطَة ..... 26

عاشِرًا: السُّلْطَةُ أَمَانَةٌ وَالْأُمَّةُ رَقِيبَةٌ عَلَيْهَا ..... 28

**رِسَالَةُ « هَلْ نَحنُ قَومٌ عَملِيُّونَ ؟» ..... 31**

سؤال مهم ..... 32

مَحَاوِرُ شَرْحِ الرِّسَالَة ..... 33

تَمْهِيدٌ: وَاقِعُ الْأُمَّةِ وَحَاجَتُها إِلَىٰ مَنْهَجٍ عَمَلِيٍّ لِلنُّهُوض ..... 34

أَوَّلًا: مَعْنَىٰ الْعَمَلِ وَأَصْنَافُ السَّائِلِينَ عَنْه ..... 36

ثَانِيًا: الْمُؤَسَّسَاتُ وَالْمَشْرُوعَاتُ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الْعَمَل ..... 37
ثَالِثًا: إِعْدَادُ الرِّجَالِ أَسَاسُ النَّهْضَةِ ..... 38
رَابِعًا: الدِّينُ وَسِيلَةُ التَّرْبِيَةِ وَبِنَاءِ النُّفُوس ..... 39
خَامِسًا: الصَّلَاةُ وَبِنَاءُ الصِّلَةِ بِالله ..... 41
سَادِسًا: الزَّكَاةُ وَبِنَاءُ التَّكَافُلِ الاجْتِمَاعِي ..... 42
سَابِعًا: الْجِهَادُ مَفْهُومٌ شَامِلٌ لِلْبَذْلِ وَالْعَمَل ..... 43
ثَامِنًا: حَقُّ الْقُرْآنِ بَيْنَ التَّعْظِيمِ وَالا تِّبَاعِ ..... 44
تَاسِعًا: الْمَنْهَجُ وَالْعَمَلُ الجَمَاعِيُّ أَسَاسُ النَّهْضَة ..... 45
عاشرًا: أَسْبَابُ إِخْفَاقِ النَّهضَات ..... 48
حَادِيَ عَشَرَ: الْعَمَلُ الجَمَاعِيُّ وَالتَّنْظِيمُ طَرِيقُ التَّغْيِيرِ الْمَنْشُودِ ..... 49
**رِسَالَةُ « دَعْوتنَا » ..... 51**
الرُّوحُ الْعَامَّةُ لِلرِّسَالَة ..... 52
مَحَاوِرُ شَرْحِ الرِّسَالَة ..... 52
تَمْهِيدٌ: ظُرُوفُ الرِّسَالَةِ وَغَايَتُهَا ..... 53
أَوَلًا: خُصُوصِيَّةُ الْأُمَّةِ وَأَثَرُهَا فِي رُوحِ الرِّسَالَة ..... 54
ثَانِيًا: أَصْنَافُ النَّاسِ أَمَامَ دَعْوَةِ الْإِخْوَان ..... 56
ثَالِثًا: حَقِيقَةُ دَعْوَتِنَا ..... 57
رَابِعًا: مُتَطَلَّبَاتُ دَعْوَتِنَا ..... 58
خَامِسًا: شَرَائِطُ إِنْجَازِ هَذَا التّكلِيفِ الضَّخْم ..... 59
**رِسَالَةُ « نَحْوَ النُّور » ..... 83**
الرُّوحُ الْعَامَّةُ لِلرِّسَالَة ..... 84
مَحَاوِرُ شَرْحِ الرِّسَالَة ..... 84

تَمْهِيدٌ: بَيْنَ عَهْدَينِ وَطَرِيقَينِ (الإِسْلَام أَم الغَرْب؟ ) ..... 85
أَوَّلًا: الْعَوَاطِفُ وَأَثَرُهَا فِي إِقَامَةِ الْمَنْهَجِ الْإِسْلَامِي ..... 85
ثَانِيًا: صُوَرٌ مُشْرِقَةٌ مِنْ حَيَاةِ الصَّحَابَةِ ..... 88
ثَالِثًا: قُدْرَةُ الْإِسْلَامِ عَلَىٰ تَقْدِيمِ صُوَرٍ حَضَارِيَّةٍ جَدِيدَةٍ ..... 90
رَابِعًا: أَزْمَةُ الْمُثَقَّفِينَ فِي اخْتِيَارِ مَنْهَجِ النَّهْضَة ..... 92
خَامِسًا: مَنْهَجُ « نَحْوَ النُّورِ » فِي عِلَاجِ الأَزْمَةِ وَبِنَاءِ النَّهْضَة ..... 99
**رِسَالَةُ « المُؤتَمرِ الخَامِسِ»** ..... **101**
الروحُ العَامّةُ للرِّسالَة ..... 102
مَحَاوِرُ شَرْحِ الرِّسَالَة ..... 102
مُقدّمَة ..... 103
أَوَّلًا: وَاقِعُ الأُمَّةِ البَئِيس ..... 103
ثَانِيًا: دَورُ الْخُصومِ فِي وَاقِعِ الأُمَّةِ البَئِيس ..... 104
ثَالِثًا: دَعْوَةُ الأُمَّةِ كَيْ تَأْخُذَ دَوْرَهَا ..... 106
رابعًا: سَبيلُ إعدادِ الأمَّة للنُّهوضِ ..... 107
خَامِسًا: ثَنَاءُ الإِمَامِ البَنَّا عَلَىٰ رُوَّادِ الإِصْلَا ح ..... 109
سادِسًا: مَنْهجُ الإِخْوانِ فِي التّربيةِ وَالإِعْدَا دِ ..... 116
سابِعًا: الوَاجِبُ أَوّلا ..... 121
ثامِنًا: نَحنُ وَالْخِلافَة ..... 127
تاسِعًا: البُعْدُ عَنْ مَوَاطِنِ الخِلافِ ضَرُورَةٌ لِتَوْحِيدِ الأُمَّة ..... 128
عاشِرًا: لَسْنَا مُتهوِّرين ..... 130
**رِسَالَة « الإِخوَانُ تَحتَ رَايةِ القُرآنِ»** ..... **133**
مُقدِّمَة ..... 134

الرُّوحُ العَامَّةُ لِلرِّسَالَة ..... 142
مِفْتَاحُ هَذِهِ الرّسَالَة ..... 142
مَحَاوِرُ شَرْحِ الرِّسَالَة ..... 143
أولًا: وَاقِعُ الأُمَّةِ وَعَلَاقَتُهَا بِدِينِهَا ..... 144
ثانيًا: التَّصَوُّرُ الإِسْلَامِيُّ لِلْنْسَانِ وَالمُجْتَمَع ..... 148
ثَالِثًا: مَنْهَجُ الإِمَامِ البَنَّا فِي الإِصْلَاحِ وَالتَّرْبِيَة ..... 158
رَابِعًا: فِقْهُ الوَسَائِلِ وَالوَاقِع ..... 166
**رِسَالَةُ « إِلَىٰ الشَّبَاب عَامَّة وَإِلَىٰ الطَّلَبَةِ خَاصَّةً » ..... 175**
الرُّوحُ العَامَّةُ لِلرِّسَالَة ..... 176
مَحَاوِرُ شَرْحِ الرِّسَالَة ..... 176
أَوَّلًا – الشَّبَابُ عِمَادُ النَّهْضَةِ وَحَمَلَةُ الرِّسَالَة ..... 177
ثانيًا– وُضُوحُ الطَّرِيقِ، وَاسْتِعْلَاءُ الإِيمَانِ، وَالوَعْيُ بِالرِّسَالَة ..... 182
ثالثًا– حَقِيقَةُ الدَّعْوَةِ وَمَرْجِعِيَّتُهَا الإِسْلَامِيَّة ..... 187
رابعًا– مَرَاتِبُ العَمَلِ وَتَدَرُّجُ مَشْرُوعِ النَّهْضَة ..... 190
خامسًا – مَنْ هُمُ الإِخْوَانُ المُسْلِمُونَ؟ ..... 197
**رِسَالَةُ «المُؤتَمَرِ السَّادِسِ » ..... 209**
الرُّوحُ العَامَّةُ لِلرِّسَالَة ..... 210
مِفْتَاحُ الرِّسَالَة ..... 210
السِّيَاقُ التَّارِيخِيُّ للرِّسَالَة ..... 210
مَحَاوِرُ شَرْحِ الرِّسَالَة ..... 212
أَوَّلًا: هُوِيَّةُ الدَّعْوَةِ وَغَايَاتُهَا ..... 213
ثَانِيًا: تَشْخِيصُ الوَاقِعِ وَمَنْهَجُ الخَلَاص ..... 220

ثَالِثًا: الوَسَائِلُ وَضَوَابِطُ العَمَلِ السِّيَاسِيِّ ..... 224
**رِسَالَةُ «دَعْوَتُنَا فِي طَوْرٍ جَدِيدٍ» ..... 235**
السِّيَاقُ التّارِيخِيُّ لِكِتَابَةِ الرِّسَالَةِ ..... 236
الرُّوحُ العَامَّةُ لِلرِّسَالَة ..... 241
عَنَاصِرُ شَرْحِ الرِّسَالَة ..... 242
أَوْلًا: أَزْمَةُ المُثَقَّفِينَ مَعَ الإِسْلام ..... 243
ثانيًا: مَنْهَجُ الْخُروجُ مِنَ الأَزْمَةِ ..... 255
ثالثًا: فِقْهُ الصِّيَاغَةِ وَفِقْهُ الإِنْجَازِ ..... 266
**رِسَالَةُ «بَيْنَ الأَمْسِ وَالْيَوْمِ» ..... 283**
الظُّرُوفُ التَّارِيخِيَّةُ لِكِتَابَةِ الرِّسَالَةِ ..... 284
الرُّوحُ الْعَامَّةُ الَّتِي تُهَيْمِنُ عَلَىٰ الرِّسَالَة ..... 285
عَنَاصِرُ شَرْحِ الرِّسَالَة ..... 285
أولاً: تَجرِبَتَانِ مُتَقَابِلَتَانِ فِي الاسْتقلال ..... 287
ثانِيًا: صِنَاعَةُ الْإِنْسَانِ: مِفْتَاحُ النَّهْضَةِ الْحَقِيقِي ..... 287
ثالِثًا: الشُّهُودُ الحَضَارِيُّ لِلْسْلَام ..... 289
رابِعًا: مُقَوِّمَات النَّهضَةِ الْحَقِيقِيَّةِ ..... 289
خامِسًا: مُقَوِّمَاتُ التَّجْدِيدِ وَالنَّهْضَةِ عِنْدَ الإِمَامِ الْبَنّا ..... 293
سادِسًا: عَقَبَاتُ الطَّرِيقِ وَصِدْقُ الاسْتِعْدَادِ ..... 299
سابِعًا: حَتْمِيَّةُ الابْتِلَاءِ وَصِدْقُ الْإِيمَانِ ..... 303
ثامِنًا: الْعَوْدَةُ إِلَىٰ الْمَنْبَعِ الْأَوَّلِ: الطَّرِيقُ الْأَرْشَدُ لِلدَّعْوَةِ ..... 307
**مَنْهَجُ التَّغْيِيرِ كَمَا تُجَلِّيهِ رَسَائِلُ الإِمَامِ البَنَّا ..... 311**
مُقَدِّمَة ..... 312

أَوَّلًا: مُنْطَلَقَاتُ مَنْهَجِ التَّغْيِير ..... 313
ثَانِيًا: مَرَاحِلُ التَّغْيِير ..... 314
ثَالِثًا: مُقَوِّمَاتُ إِنْجَازِ التَّغْيِير ..... 315
خُلَاصَةُ المَنْهَج ..... 320
**خَاتِمَةٌ فِي ظِلال الرسائِل ..... 322**

# فِي ظِلَالِ الرَّسَائِلِ

يُقَدِّمُ الْجُزْءُ الثَّانِي مِنْ الكتاب قِرَاءَةً فِي عَشْرٍ مِنْ رَسَائِلِ الْإِمَامِ حَسَنِ الْبَنَّا، وَيَكْشِفُ مَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ قَضَايَا الدَّعْوَةِ وَالتَّرْبِيَةِ وَالْحَرَكَةِ وَالْإِصْلَاحِ، فِي قِرَاءَةٍ تُرَاعِي وَحْدَةَ الْفِكْرَةِ وَتَرَابُطَ الرَّسَائِلِ، وَتَسْتَخْلِصُ مَا تَحْمِلُهُ مِنْ دَلَالَاتٍ وَمَعَانٍ تَتَّصِلُ بِوَاقِعِ الدَّعْوَةِ وَالْأُمَّةِ.

إِنَّ فِكْرَةَ جَمَاعَةِ الْإِخْوَانِ الْمُسْلِمِينَ -كَمَا أَكَّدَ الْإِمَامُ حَسَنُ الْبَنَّا- تَضُمُّ كُلَّ الْمَعَانِي الْإِسْلَامِيَّةِ، وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَقُولَ وَلَا حَرَجَ عَلَيْكَ: إِنَّنَا دَعْوَةٌ سَلَفِيَّةٌ، وَطَرِيقَةٌ سُنِّيَّةٌ، وَحَقِيقَةٌ صُوفِيَّةٌ، وَهَيْئَةٌ سِيَاسِيَّةٌ، وَجَمَاعَةٌ رِيَاضِيَّةٌ، وَرَابِطَةٌ عِلْمِيَّةٌ ثَقَافِيَّةٌ، وَشَرِكَةٌ اقْتِصَادِيَّةٌ، وَفِكْرَةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ.

- إِلَى أَيِّ شَيْءٍ نَدْعُو النَّاسَ؟
- الْإِخْوَانُ تَحْتَ رَايَةِ الْقُرْآنِ
- هَلْ نَحْنُ قَوْمٌ عَمَلِيُّونَ؟
- إِلَى الشَّبَابِ عَامَّةً وَإِلَى الطَّلَبَةِ خَاصَّةً
- دَعْوَتُنَا
- الْمُؤْتَمَرُ السَّادِسُ
- نَحْوَ النُّورِ
- دَعْوَتُنَا فِي طَوْرٍ جَدِيدٍ
- الْمُؤْتَمَرُ الْخَامِسُ
- بَيْنَ الْأَمْسِ وَالْيَوْمِ

ISBN: 978-605-74168-4-1
9 78605 7416841
THG 1572205 ABY